تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد

جامعة مولاي علي الشريف الخريفية

أعمال
الدورة الثالثة

- الوثائق المرجعية لعهد سيدي محمد بن عبد الله
- العمل الداخلي والسياسة الخارجية
- الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد سيدي محمد بن عبد الله

مركز الدراسات والبحوث العلوية
الريصاني / دجنبر 1991

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد

جامعة مولاي علي الشريف الخريفية

أعمال
الدورة الثالثة

- الوثائق المرجعية لعهد سيدي محمد بن عبد الله
- العمل الداخلي والسياسة الخارجية
- الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد سيدي محمد بن عبد الله

مركز الدراسات والبحوث العلوية
الريصاني / دجنبر 1991

الفهرس

الندوة الأولى

الوثائق المرجعية لعهد سيدي محمد بن عبد الله

تقديم :..9

إطلالة على وثائق السلطان سيدي محمد بن عبد الله

ذ. عبد الوهاب ابن منصور..............................15

كتاب الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد
للسلطان سيدي محمد بن عبد الله

د. محمد حجي..25

مؤرخو السلطان سيدي محمد بن عبد الله

د. محمد مزين..29

عزل الوزير الغزال بين الأسطورة والتاريخ

ذ. محمد ابن عزوز حكيم................................50

عهد سيدي محمد بن عبد الله من خلال الأدبيات الإسبانية المعاصرة

د. عبد العزيز التمسماني خلوق..........................59

نصيحة الأمة وإرادة الوحدة : محمد الثالث واختياراته المذهبية

د. سعيد بن سعيد العلوي...............................64

الأزمة الغذائية في عهد سيدي محمد بن عبد الله

د. محمد الأمين البزاز..................................77

مستويات الكتابة التاريخية عند الزياني
د. لحسن أغزدي 92
فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير
(سيدي محمد بن عبد الله)
د. عبد السلام شقور.. 96
الشعر والمجتمع من خلال شمقمقية ابن الونان
ذ. العربي الحمداوي 107
البستان الظريف لمؤرخ الدولة أبي القاسم الزياني
ذ. رشيد الزاوية 121
مؤلفات الأمير عبد السلام كمصادر لعهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله :
ذ. حسن الصادقي.. 134

الندوة الثانية

العمل الداخلي والسياسة الخارجية :

الثغور المغربية المحتلة والاتفاق المغربي الإسباني لسنة 1767
د. حسن الفكيكي 149
العلاقات المغربية الفرنسية في عهد سيدي محمد بن عبد الله
ذ. لطيفة الفلالي 162
سياسة سيدي محمد بن عبد الله بالأقاليم الصحراوية
ذ. محمد حباني 169
نظرة على الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية في عهد
السلطان سيدي محمد بن عبد الله
ذ. محيي الدين عبد الحميد 179

تنظيم القضاء على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله
ذ. عبد الوهاب الدبيش 189
حول افتاء العلماء للسلطان سيدي محمد بن عبد الله بإحداث المكوس
ذ. محمد لحيدي 200
المنهج الفقهي عند السلطان محمد بن عبد الله من خلال كتابه : الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية
ذ. المختار بنعبدلاوي 206
عوامل الاستقرار الداخلي في مغرب النصف الثاني من القرن 18 م
ذ. محمد ناصح 214
جوانب من سياسة سيدي محمد بن عبد الله بالأقاليم الجنوبية
د. أحمد البوزيدي 225
السياسة العسكرية تأملات في الفكر الإصلاحي لسيدي محمد بن عبد الله
ذ. محمد المهناوي 230
علاقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالإيالات العثمانية في شمال افريقيا
ذ. زهراء النظام 236
فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله في أرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول
ذ. عبد الرحيم بنحادة 246
السلطان محمد بن عبد الله والاشراف
د. فاطمة الحراق 260

الندوة الثالثة

الإنجازات الثقافية والعمرانية على عهد سيدي محمد بن عبد الله :

من الإنجازات الثقافية في عهد سيدي محمد بن عبد الله
د. محمد ابن شريفة 271

خلفيات تاريخية وجغرافية لتأسيس مدينة الصويرة على عهد
سيدي محمد بن عبد الله
ذ. عبد القادر زمامة 277
ملاحظات أولية عن العمارة الدينية في عهد سيدي محمد بن عبد الله
ذ. أمينة المغاري 283
مراكش في عهد سيدي محمد بن عبد الله
ذ. حسن بلعربي 292
جهود سيدي محمد بن عبد الله في خدمة القرآن والسنة
ذ. محمد عز الدين المعيار الإدريسي 304
البعد السلفي في السياسة الدينية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله
ذ. محمد الفلاح العلوي 318
التحول الفكري في عهد سيدي محمد بن عبد الله
ذ. عبد الجليل بادو 328
"مواهب المنان" والدعوة إلى إصلاح التعليم للسلطان سيدي محمد بن عبد الله
ذ. ادريس العلوي البلغيثي 336
مفهوم العقيدة عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله
ذ. ميلود بلقاضي 348
الغايات والأهداف التربوية العامة، للنظام التعليمي في عهد
سيدي محمد بن عبد الله :
د. عبد اللطيف حسني / د. ميلود حبيبي 357
الواجهة الشعرية لعهد سيدي محمد بن عبد الله
ذ. محمد القدوسي 368
المنجزات العمرانية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله بمنطقة تافيلالت
د. لحسن تاوشيخت 393
النهضة الأدبية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله
ذ. الصادقي العماري 420

بسم الله الرحمان الرحيم

تقديم

جريا من وزارة الشؤون الثقافية على احترام تنفيذ ماخططته من برامج قارة، وأنشطة موسمية تشخص التحرك اللامركزي المتبع في العمل الثقافي على هدي من التوجيهات السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، يواصل "**مركز الدراسات والبحوث العلوية**" وفق مقترحات مجلسه الاستشاري، أداء مهامه العلمية المنتظمة، التي يتصدرها عقد دورة سنوية بمقره في الريصاني (إقليم الرشيدية)، "**لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية، تحت الرئاسة الشرفية الدائمة لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد**"، للنهوض باختصاص دراسة مسيرة الدولة العلوية الشريفة عبر تسلسل زمني يؤرخ لما حققته عهود سالف ملوكها من إنجازات جليلة أقامت صرح الأمة المغربية على ثابت العقيدة، ومكين السيادة، وخصوصية الإنسية.

وبعد أن تناولت عروض الدورتين الأولى والثانية على التوالي في : 1989 و1990، محوري : "**المؤسسين الأوائل**"، و"**الدولة العلوية من التأسيس إلى نهاية عهد مولاي عبد الله**"، مع ما ارتبط بهما من معالجة للوثائق المرجعية، وبحوث في التراث المعماري، تدارست عروض الأساتذة

المشاركين في الدورة الثالثة محور "**السلطان سيدي محمد بن عبد الله**" طيب الله ثراه، طبقا لذات المنهجية التي اعتمدت في السابق، من حيث تفريع هذا المحور إلى ندوات ثلاث تناولت حياة وعهد السلطان العالم المصلح من زوايا :

1 - الوثائق المرجعية.

2 - العمل الداخلي والسياسة الخارجية.

3 - الإنجازات الثقافية والعمرانية.

وبالتئام الدورة الثالثة، وبالبرمجة لما بعدها من دورات، تترسخ "جامعة مولاي علي الشريف الخريفية"، سنة بعد أخرى كخيار أثبت جدواه العلمية في اتساع المعرفة بتاريخ الدولة العلوية من خلال تزايد الإسهامات الرصينة والأصيلة، وكثافة الإقبال على متابعة الإستفادة منها.

وضمن ندوات الدورة الثالثة، تجلت أهمية الصفحات التاريخية التي سطرها السلطان سيدي محمد بن عبد الله بجهاده على الواجهات السياسية والعسكرية والاقتصادية، والتي أثبتت جميعها الذكاء والاقتدار والتبصر في تسيير شؤون الدولة، فقد استطاع السلطان لمّ شتات المغرب وإعادة بناء وحدته، بعد أن أعيته النزاعات الداخلية وتدخل العثمانيين والتجار الأوربيين فيها، إلى جانب الخطرين الإسباني والبرتغالي، وكانت البداية بسيطرته على الجيش بوسائل متعددة منها : تهجير بعض الحاميات كعبيد المناطق الجنوبية، وتشتيت بعض آخر منها كعبيد "دار اعربي". كما التفت السلطان سيدي محمد بن عبد الله نحو

الإدارة والقبائل، فأعاد تنظيمهما بمراجعة ملفات خدامه الذين احتفظ منهم بذوى الكفاءة والجدوى، ثم بتغيير التوزيع الجغرافي لبعض القبائل، مما أسهم في إخماد القلاقل والفتن.

ومن مميزات عهده ما عرفته علاقات المغرب الخارجية من تطور برز في مثل : كثرة البعثات، والهدايا، لدعم التبادل الدبلوماسي وتقويته مع المشرق الإسلامي، ومع مختلف الدول الأوربية، مما مكن من تحقيق إنجازات لافتة في المجال الاقتصادي، وبخاصة بعد فتح بوابة المحيط الأطلسي على التجارة، ففي سنة 1760 جدد السلطان سيدي محمد بن عبد الله تحصين "أنفا"، وفي 1765 أنشأ مدينة الصويرة، وجعل منها مرفأ هاما، كما استرجع مدينة الجديدة من يد البرتغال سنة 1769.

بيد أن ما اتسم به عهد هذا السلطان من جهاد لم يغيّب الثقافة والعلوم والعمارة، إذ حظوا كذلك بالعناية والرعاية المستحقتين، فإلى جانب بناء المدارس والحمامات والمساجد وترميم القصبات، شارك السلطان سيدي محمد بن عبد الله بشكل فعلي في العطاء الثقافي والعلمي بموسوعية معرفية شملت الآداب والفقه، وعكست مستواهما مؤلفاته القيمة من مثل :

- بغية ذوي الأبصار والألباب، في الدرر المنتخبة من تأليف الحطاب.
- الفتوحات الإلهية الصغرى.
- الفتوحات الإلهية، في أحاديث خير البرية.

كما أولى علماء عصره ما يجدر بهم من الرعاية والتقديم والتقريب، كان من أنبههم مؤرخ الدولة "أبو القاسم الزياني" صاحب "البستان الظريف..." و "الترجمانة الكبرى ...".

وقد أجمع المؤرخون على تحقيق المغرب في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله قفزة حضارية متميزة، وعلى أن أهم مصادر قوته كانت في إيمانه بأن التوازن السياسي يكمن في اتحاد المغاربة.

وكمألوف نهجها، يسعد وزارة الشؤون الثقافية نشر عروض الدورة الثالثة كذلك بين دفتي كتاب،على غرار إصدارها أعمال الدورتين الأولى والثانية، إسهاما منها في توفير مادة مرجعية تخدم الباحثين، وتثرى حصيلتنا التاريخية. كما تجدد الوزارة الشكر للأساتذة المشاركين، وللجهات المسؤولة في إقليم الرشيدية على ما بذله ويبذله جميعهم من جهد مقدر لإنجاح جهود الجامعة، والارتقاء برسالتها الثقافية الجادة.

وإن في اضطلاع الوزارة بجمع مواد مثل هذه المناشط الثقافية العلمية وإصدارها ونشرها، لبرهان يستدل به على سعيها المبرمج لتعميم وتوطيد الفائدة من عطاءاتها البحثية الدسمة، ومن الرصيد الوثائقي بمختلف أشكاله عن تاريخ وحضارة المغرب العريقين. ومع الإشادة بما توفر للدورات السابقة من مشاركات قيمة مقدرة تأمل وزارة الشؤون الثقافية تحقيق المزيد منها استقبالا، مما يمد في رقعة الفضاء المعرفي والإنساني للجامعة، مؤكدة حرصها على مواصلة الأداء الوظيفي لمركز الدراسات والبحوث العلوية في اتجاه تطوير وتوسيع إنتاجيته وفاعليته : والله الموفق.

الندوة الأولى
الوثائق المرجعية لعهد
سيدي محمد بن عبد الله

اطلالة على وثائق السلطان سيدي محمد بن عبد الله المحفوظة بمديرية الوثائق الملكية

عبد الوهاب ابن منصور
مؤرخ المملكة

ولد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي بمكناس عام 1134 هـ، وبويع بالملك اثر وفاة والده السلطان مولاي عبد الله بفاس يوم 27 صفر عام 1171 هـ (10 نونبر 1757 م)، وتوفي بين وادي الشراط ووادي يكم قرب الرباط يوم الأحد 24 رجب عام 1204 هـ (9 أبريل سنة 1790م)، وخلال مدة ملكه التي طالت 33 سنة أنجز في الداخل عديدا من الأعمال السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وارتبط في الخارج مع كثير من الدول بعلاقات ود وصداقة، وعقد مع ملوكها ورؤسائها عددا من المعاهدات والاتفاقيات وتبادل وإياهم الهدايا والرسائل، وكان له ذكر يذكر وحساب يحسب في كل ارجاء المعمور.

وقد اعتنى المؤرخون المغاربة بحياة هذا السلطان الجليل وأعماله، فتتبعوا أخباره، ووصفوا آثاره، وسجلوا في دفاتر خاصة بعض رسائله وما عقد من معاهدات مع الدول الأجنبية، ونوهوا بتوجيهاته الاصلاحية في التعليم والعدالة، ودوّنوا هباته وصدقاته وأحباسه وما مدحه به الشعراء من قصائد فصيحة وأخرى من الأزجال الملحونة، كما اعتنى الأوربيون من مؤرخين وديبلوماسيين وأطباء بالكتابة عن حياته ووصف قصره وحاشيته وسياسته حيال رعيته وعلاقاته الخارجية اعتمادا على ماسمعوه بآذانهم او شاهدوه بأعينهم وهم يعملون داخل قصره أوفي موانئ مملكته أو استنادا إلى ما تلقوه من معلومات عنه من ولاته وسفرائه أو استنتاجا من الوثائق المكتوبة الراجعة إلى عهده مما كتبه هو ووزراؤه وسفراؤه أو كتبه ملوكهم ورؤساؤهم وديبلوماسيوهم، مما هو محفوظ في أرشيفات عواصمهم ومدنهم وموانئهم الكبرى [1].

(1) من الكتب القديمة والحديثة التي ألفها الأوربيون عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله وعصره :
- كتاب الديبلوماسي الدانماركي جورة هوست المسمى (تاريخ سيدي محمد بن عبد الله أمبراطور المغرب،= =

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من عبد الله محمد بن عبد الله كان الله له آمين



إلى سلطان نابلس وصقلية وغيرها فرديناند الرابع سلام على من اتبع الهدى أما بعد
فقد وصلنا كتابكم بالشكور الفقيه الحاج الأمير علي بن سترباك كاتب أوامرنا السيد محمد
بن عثمان لنجعل معكم الصلح والمهادنة كما جعلناه مع والدكم صاحبنا السلطان
دون كارلوس الثالث حيث كان عنده الشكور هذا قبل اليوم واتفق والدكم مع
الشكور المذكور على أن تدخل معنا ومع والدك في هذا الصلح وبعثنا كتابكم بالشكور
المذكور لنجعل الصلح معكم أنه كان على يده وتعرف شروطه وكل ما تفعلون معه
نحن أمضيناه وقبلناه وكل ما يقوله لكم من كلامنا فاقبلوا منه فإننا مفوضين
إليه ثم نعلمكم ونبين لكم محبتنا فيكم وفي والدكم أن بلادنا كلها مثل بلادكم
ورعيتكم تأتي إليها مثل رعية والدكم مقبولين مكرمين وكل ما تريد من أرضكم وبلادي
لعلى يد الشكور المذكور ونحن نفعله لكم كل ما تحب إن شاء الله والسلام من مراكش
ثاني الحجة من عام ١١٩٦

نابلي وصقلية

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
من عبد الله المتوكل على الله محمد بن عبد الله كان الله له



الى عظيم الـ[illegible] سكوسر لنبلاد ورنبيصار بوريت سلام على
من اتبع الهدى اما بعد فقد وجهنا لكم باشادورنا
وهو خديمنا القايد محمد بن عبد المالك وقد كنا عزمنا على
توجيهه لكم في العام الفارط ثم إننا اخرناه لسبب اقتضى
ذلك وها نحن أمرناه بذكره لكم مشافهة منه إليكم
وبه كفاية التم وقد ذكر لنا خديمنا المذكور أن اخاك
[illegible] فرانك وكذا كسكانه حين كنا وجهناه اليه فيما
تقدم فرح به الفرح التام واعتنى به غاية الاعتناء ووصف
لنا محبته في جانبنا فاعجبنا ذلك ونحن معكم على
الصلح والمهادنة التامة وانت عندنا متميز عن ساير
ابناء جنسك وكل ما يفعل معكم باشدورنا القايد
محمد بن عبد المالك فنحن له [illegible] في تاسع عشر شعبان
عام 6 و [illegible] وقد امرناه [illegible] عمالنا اصحاب مراسينا ان [illegible] من
[illegible] اليهم يحسنون اليه ويعطونه كل ما يطلبه [illegible]
اجب امتثالكم على العهد والتمام به الكتب

رسالة اعتماد السفير المغربي لدى ملك النمسا

والذي يقارن بين ما كتبه المغاربة وبين ما كتبه الأوربيون عن هذا السلطان يحس بالفرق الكبير بين كتابات أولئك وبين كتابات هؤلاء وإفاداتهم، فالأولون مثل ابي القاسم الزياني والامير مولاي عبد السلام ومحمد الضعيف ومن جاء بعدهم لم يذكروا عنه إلا ما كان يجوز لهم أن يذكروه، وأغلبه تزكية لأعمال السلطان وتنويه به ومديح اما السياسة الخارجية فكانت غائبة عن أعينهم أو كانوا عاجزين عن استكناه أعماقها، حتى السفراء الذين كتبوا رحلات[2] عن المهام التي كلفهم بها السلطان في الخارج كانوا يهتمون بوصف الطرق البرية والبحرية التي سلكوها والمدن والمساكن التي مروا بها أو اقاموا فيها أكثر من اهتمامهم بالمذاكرات التي أجروها مع الملوك والرؤساء والوزراء الذين كانوا يتفاوضون معهم، لأنهم كانوا يعدونها من الأسرار التي لا يجوز البوح بها إلا لسلطانهم، أما الآخرين فكانوا اكثر حرية في كتابة ما يرونه ويسمعونه ويقرءونه، ووصف ما لايقدر المغاربة على وصفه حتى لو أنهم شاهدوه أو سمعوه من جهات مقربة موثوق بصحة أقوالها، ولاننكر أن كتابات الاوربيين تخالطها احيانا مبالغات وأخيلة ناتجة عن جهل باللغة أو سوء في التبليغ أو نقص في الفهم والإدراك، وعلى ذلك فإن حياة السلطان سيدي محمد بن عبد الله وأعماله لايمكن أن تدرك إدراكا جيدا وتعرف معرفة وافية إلا بمقارنة ما كتبه المغاربة بما كتبه الأوربيون، والاطلاع على الوثائق المحفوظة في المكتبات العمومية والخصوصية بالخارج، لأن كتابات الأوربيين ووثائقهم تظهرنا على أخبار عن هذا السلطان لا ذكر لها بالمرة في كتب المغاربة، وتكمل نقص ما فيها من أخبار موجزة أو إشارات عابرة.

وقد حرصت مديرية الوثائق الملكية، منذ أنشأها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله سنة 1975 وأسند إلي إدارتها، جمع الوثائق الراجعة الى عهد السلطان سيدي

== المطبوع بكوبنهاجن عام 1791.

- وكتاب الطبيب الانجليزي ويليام لامبريير المسمى (رحلة إلى مراكش ومملكة المغرب) المطبوع بلندن في عهد السلطان سيدي محمد، وقد ترجم إلى الفرنسية وطبع بباريس منذ سنين قليلة.

- وكتاب جاك كايي الذي جمع فيه نصوص المعاهدات التي أبرمها السلطان سيدي محمد مع الدول الأوربية.

- وكتاب المؤرخ البحاثة الإسباني رامون لوريذ ودياز المسمى (المغرب والعالم الخارجي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر) المطبوع بمدريد سنة 1989.

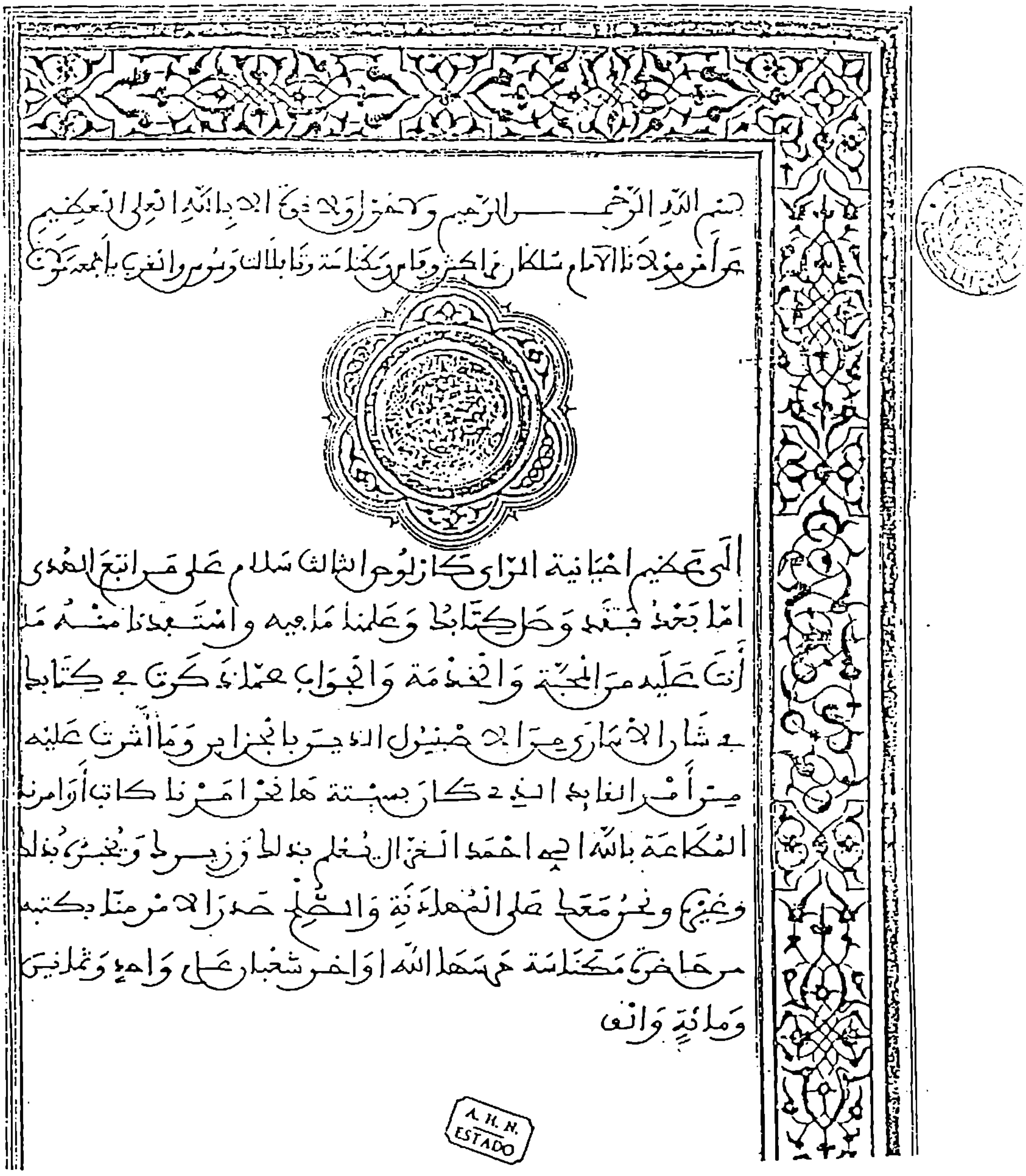
(2) من الرحلات التي ألفها سفراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله :

- نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد، لأحمد الغزال

- وإحراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب، لمحمد بن عثمان.

- والإكسير، في فكاك الأسير لمحمد بن عثمان

- والبدر السافر، لهداية المسافر، إلى فكاك الأساري من يد العدو الكافر، لمحمد بن عثمان.



بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
عن أمر مولانا الإمام سلطان مراكش وفاس ومكناسة وتافيلالت وسوس والغرب بأجمعه

الى عظيم اصبانية الري كارلوص الثالث سلام على من اتبع الهدى
اما بعد فقد وصل كتابك وعلمنا ما فيه واستفدنا منه ما
انت عليه من المحبة والخدمة والجواب عما ذكرت في كتابك
في شان الاسارى من الاصبنيول الذين بالجزاير وما اشرت عليه
من امر القايد الذي كان بسبتة فقد امرنا كاتب اوامرنا
المطاعة بالله ابي احمد الغزال ليعلم بذلك وزيرك ويخبرك بذلك
وغيره ونحن معك على المهادنة والصلح صدر الامر منا بكتبه
من حاضرة مكناسة حرسها الله اواخر شعبان عام واحد وثمانين
ومائة والف

إسبانيا

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
من عبد الله محمد بن عبد الله كان الله له
آمين

إلى عظيم الجماعة الأمريكانيين البريزيدنت السلام على من اتبع الهدى أما بعد
فقد وصلنا كتابكم ووصلتنا بهذا الصلح الذي جعلنا بيننا ونحن
متكلم على المهادنة والصلح التام بيننا ونحن كتبنا بما كلمتم مع التونسي
وكم والمشروط كل ما كلمتموه مما يتضح إن شاء الله والسلام وكتب
في ... النصارى على أيدي ... 1202

الولايات المتحدة

محمد بن عبد الله مما هو محفوظ بالقصر الملكي، او ءايل إليها أو مستنسخ او مصور من عند الخواص، فكان العدد قليلا والفائدة محصورة ومحدودة، فارتأيت أن أنيف اليها الوثائق المحصول عليها مما هو محفوظ بمكتبات الأرشيف بالدول الأجنبية، فأخذ العدد يكبر، والفوائد تعظم وتتسع، ومازالت الإضافات تتواصل دون انقطاع.

يبلغ عدد المحافظ الموضوعة فيها الوثائق الراجعة الى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمديرية الوثائق الملكية ستاً في الوقت الراهن، يعد ما احتوت عليه من وثائق بالمئات، وهي مرتبة ترتيبا تاريخيا باليوم والشهر والسنة، وتعتبر أصولا سواء كانت اصلية او مصورة او منسوخة، ومن كل واحدة منها نسخة في المحافظ الموضوعية، بمعنى أنك تجد جميع وثائق ذلك العهد مجموعة في المحافظ ذات الترتيب التاريخي، ثم تجد نسخة من كل وثيقة أصلية في المحافظ ذات الترتيب الموضوعي إذا كانت الوثيقة تعني واحدة منها، فالوثائق المتعلقة بالمدن والقبائل والأسر كفاس والشاوية وبني وكيل توجد نسخ منها في المحافظ التي تحمل نفس الاسماء، والوثائق المتعلقة باسبانيا او الجزائر او روسيا كذلك، وقد أداني اجتهادي الى هذا الترتيب وحرصت على التزامه رغم ما يكلف من جهد في القراءة والتصوير لتسهيل عمل الباحثين وتوفير وقتهم، فبدلا من ان تضع المديرية بين ايديهم محافظ تشمل على عشرات الآلاف من الوثائق المرتبة ترتيبا تاريخيا مما يعنيهم ومما لا يعنيهم تضع بين أيديهم محافظ تحتوي على الوثائق التي يعنيهم موضوعها، فالذي يريد الاطلاع على الوثائق المتعلقة بحرب تطوان سنة 1360 أو بالحماية القنصلية ومؤتمر مدريد، او بثورة بوحمارة وفتنة الريسوني، أو بمؤتمر الجزيرة الخضراء واحتلال وجدة والدارالبيضاء مثلا يجدها في المحافظ التي تحمل تلك العناوين أما الذي يريد الاطلاع على وثائق فترة زمنية معينة، كعهد السلطان سيد محمد بن عبد الله، فإنه سيجدها في المحافظ المرتبة ترتيبا تاريخيا، وسيخوض حينئذ بحرا عميق القعر مصطخب الموج، وعليه ان يتذرع بالصبر والاناة ليتمكن من التعرف على ما تحويه مياهه واعماقه، واصطياد ما يبتغيه من حيتان وأصداف، او مواجهة ما يعترضه من زبد لاخير فيه !

وتنقسم الوثائق الراجعة الى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى قسمين، قسم يهم الداخل وقسم يهم الخارج.

فالقسم الاول فيه وثائق تتعلق بالولايات وأخرى بتوقير الأشراف والمرابطين وتوفيرهم وإعفائهم من التكاليف المخزنية، وثالثة في الوصاة بالرهبان العاملين بالمغرب ومنحهم امتيازات شبيهة بما يمنح اليوم لاعضاء السلكين الديبلوماسي والقنصلي كعدم

الحمد لله   ولا حول ولا قوة إلا بالله

إلى الكنيز دشونيش وزير عظيمة الموسكوس
السلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد وجهنا لسلطانكم
كتاب معاهدة تبينا لجنسكم برا وبحرا وحيثما ترد على بلادنا
السعيدة باشدوركم نكمل معه الصلح بشروطه إن شاء الله
وكتب في 20 جمادى الثانية عام 2 ولا

روسيا



بسم الله الرحمن الرحيم ... ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

عن أمر مولانا المنصور بالله سلطان مراكش وفاس ومكناسة وتافيلالت ودرعة وسوس وكافة بلاد المغرب مولانا

[illegible] السلام على من اتبع الهدى أما بعد فان [illegible]

ورد على حضرتنا العلية مصاحبا للهدية [illegible] وقد تلقيناه بما يجب وقبلنا ما أتى به عنكم من

الهدية [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] بتاريخ [illegible] محرم الحرام عام [illegible]

هولاندا

تفتيش امتعتهم بالموانئ واعفائهم من اداء الرسوم جمركية كانت أو غيرها، ورابعة تتعلق بأحباس السلطان على المساجد والزوايا والأضرحة وصدقاته على الفقراء والمساكين داخل المغرب وخارجه، ولاسيما صدقاته على فقراء الحرمين الشريفين خاصة منهم المنتمين إلى بيت النبوة، ولا ينبغي أن ننسى نصوص المعاهدات التي ضاعت أصولها في المغرب وبقيت نسخ منها مسجلة في كنانيش يدعى الواحد منها "كناش الشروط".

أما القسم الثاني فيتكون من وثائق مستوردة نسخها من دور الأرشيف بموسكو واسطنبول وستوكهولم ولندن وباريس ومدريد ولهاي وواشنطون وغيرها، ويعطي هذا القسم لرائيه صورة واضحة عما بلغته علاقات المغرب السياسية والتجارية والبحرية والإنسانية مع الدول الأجنبية قريبها والبعيد، وسيكتشف قارئ وثائق هذا القسم أمورا غريبة كإسناد السلطان محمد عبد الله تدبير شؤونه الخارجية في أول عهد لتاجر فرنسي، وتفويض تلك الشؤون فيما بعد إلى ملك إسبانيا، كما سيثير انتباهه سعيه المتواصل لفك رقاب المسلمين الماسورين بالديار الأوربية سواء كانوا مغاربة أو غيرهم، واجتهاده في إنقاذ الكتب الإسلامية المتبقية في تلك الديار، وتوسطه لحل المشاكل القائمة بين الدول الأروبية والممالك الإسلامية كليبيا وتونس والجزائر وحثه على اجتناب الحروب والركون إلى التصالح بين الدول الأوربية نفسها كتدخله لدى السويد من جهة ورسيا والدانمارك من جهة اخرى لما اشتدت بينها الأزمة واخذ كل فريق يستعد للحرب، كما سيلفت نظر القارئ أيضا اللهجة الجافة التي كان السلطان سيدي محمد الثالث يخاطب بها أنداده من رؤساء الدول غير المسلمين كنعت الواحد منهم بالطاغية وتحيته بالسلام على من اتبع الهدى، وأمره إياهم ونهيه كما يأمر الأعلى من هو أدنى منه وينهى، وسيتعجب قارئ هذه الوثائق أيضا مما يحيط ببعض السفراء المغاربة من شبهات، إذ منهم من كان يكتب إلى ملك إسبانيا رسائل يؤكد له فيها محافظته على عهده، واستعداده لقضاء الأغراض التي يريدها منه، ويخبره بنهيه للسلطان عن استرجاع المدن والجزر المحتلة، أو يبعث له احيانا نسخا من الرسائل والتقارير التي كان يبعث بها إلى سلطانه، ولعل هذا هو سر عزل السلطان سيدي محمد لسفيره أحمد الغزال.

ويتضح مما تقدم ويتأكد مما قلناه ءانفا، وهو أن الإحاطة علما بحياة السلطان سيدي محمد وأخباره ودارسة أساليبه السياسية داخلا وخارجا لا غنى في كتابتها عن الاطلاع على الوثائق الراجعة إلى عهده، وقراءة الكتب التي ألفها عنه وعن أيامه المغاربة والأوربيون معا.

كتاب الجامع الصحيح الإسانيد
المستخرج من ستة مسانيد
للسلطان سيدي محمد بن عبد الله

محمد حجي
كلية الآداب الرباط

لعل من أبرز مميزات السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بالاضافة إلى دهائه السياسي وتفتحه على العالم الاسلامي والمسيحي، إقباله الدائم على التعلم والتعليم والتأليف، وسعة أفق تفكيره الديني باختيار مذاهب ومناهج لا عهد للمغرب بها من قبل ، في ميادين العقائد والفقه والحديث وغيرها. فقد شغف بالعلم منذ صغره وأخذ عن شيوخ مكناس وفاس، وظل يدرس بطريقة غير مباشرة على علماء مراكش والجنوب أيام خلافته بها. ولم تخل مجالسه وهو يتولى الملك من علماء أعلام، أمثال محمد المير السلوي ومحمد الغربي الرباطي.

نتج عن احتكاك سيدي محمد بن عبد الله بكبار العلماء ومجالسته لهم باستمرار ميله إلى التدوين والتأليف، لاسيما وأنه كان صاحب استنتاجات متميزة واختيارات مذهبية غير مألوفة. وتبدو لمن تتبع تقلبات حياته في ميدان التأليف ثلاثة أطوار واضحة المعالم :

يبتدئ الطور الأول عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره وأصبح خليفة لأبيه في مراكش. فقد نزل بالقصبة وشاهد آثار السعديين وتأثر بها أيما تأثر. فقد رأى أطلال قصر البديع بعد أن قرأ أوصافه المدققة عند الفشتالي والافراني، ودرس حياة أحمد المنصور العالم الأديب الذي نظم حياته تنظيمامحكما ، فجعل شطرها لمهمات الدولة في أوقات محددة لاتتخلف، وشطرها لمجالسة العلماء والفقهاء ومدارستهم حسب اختصاصاتهم في أوقات معلومة كذلك. وبعبارة أخرى عاش سيدي محمد بن عبد الله لهذا العهد في نفس المناخ الجغرافي والبشري للسعديين والمنصور بصفة خاصة، فتأقلم به وراح يحيي ماضي مراكش عمرانا وعلما وسياسة. ومن تم كان ما اتفق عليه

المؤرخون من أن سيدي محمد بن عبد الله كان يتشبه في حياته بأحمد المنصور، حتى قال فيه أكنسوس في الجيش العرموم : " كان يتخلق كثيرا بأخلاق المنصور الذهبي السعدي ويعجبه حاله وأخباره، يتحلى بسيرته ويستحسنها ويتتبعها أكلا وشرابا ولباسا وترتيب دولة وضبط أوقات، فكانت أوقاته لا تتخلف تأسى به في مشوره وسائر حركاته وسكناته، ويصرح بأنه أستاذه وقدوته في شأنه كله " . ونظرا لسن السلطان في هذا الطور غلب عليه الطابع الأدبي فكان أكثر قراءاته في كتاب الاغاني حتى كاد يحفظه عن ظهر قلب. وأول ما ألف سيد محمد بن عبد الله كتاب ترويح القلوب، وهو ديوان ضخم يحتوي على مختارات شعرية منذ العصر الجاهلي وصدر الاسلام. (مخطوط الخزانة الحسنية عدد 4166).

ويأتي الطور الثاني عندما تولى الملك سنة 1757/1171. وشعر بالمسؤولية العظمى التي أخذها على عاتقه، فانصرف اهتمامه إلى الفقه عملا بالحديث الشريف : لا يحل لا مرئ مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ". كان أكثر تأثره بالامام الحطاب من متأخري فقهاء المالكية، درس كتب فروع المذهب المالكي في أمهات المؤلفات، واستأثر باهتمامه بصفة خاصة كتاب **البيان والتحصيل، والمقدمات الممهدات** لابي الوليد ابن رشد القرطبي الجد، فأمر بانتساخها على طولهما، وعهد بالسهر على تحقيقهما ومر اجعتهما إلى بعض كبار فقهاء بلاطه كالقاضي عبد القادر بوخريص، ومحمد التاودي بن سودة، وعمر بن عبد الله الفاسي، ومحمد بن عبد الصادق. وما تزال هذه النسخة الملوكية المزخرفة المذهبة من البيان **والتحصيل والمقدمات الممهدات** محفوظة بالخزانة الحسنية في عشرين مجلدا (رقم 1556) وانتسخت منها في نفس الفترة نسخة أخرى بنفس الزخرفة والتذهيب والتجليد الفني.

وأول ما ألف سيدي محمد بن عبد الله في الفقه كتاب **بغية ذوي البصائر والالباب في الدرر المنتخبة من تأليف الامام الحطاب،** (مخطوط. خ. ح.رقم 1068) وهو مختصر يشتمل على ثلاثة عناصر : العقيدة، وكتاب الطهارة، وكتاب الصلاة. وبعد مرور سنة، وسع هذا الكتاب بإكمال قواعد الاسلام الخمس الزكاة والصيام والحج، وسماه: **الفتح الرباني فيما انتطقناه من مسانيد الائمة والشيخ ابن أبي زيد القيرواني.** ويلاحظ في هذه التسمية أن السلطان يهتم بكتب الحديث ويقتبس منها فقه الصحابة إضافة إلى مادة الفقه المالكي التي يعتمد فيها على الشيخ الحطاب، ومادة العقيدة التي يستمدها من رسالة ابن أبي زيد القيرواني، و هي من أسلم العقائد وألصقها بالسنة والجماعة كما هو معلوم. وسيتقوى اعتناء السلطان العالم بالحديث كما يتجلى

في مؤلفه الثالث الذي سماه : **الفتوحات الربانية فيما اقتبسناه من مسانيد الأئمة وكتب مشاهير الأئمة المنتخبة عند المالكية.**

ويتميز هذا الطور من تاريخ حياة سيدي محمد بن عبد الله العلمية أنه خلال اشتغاله بالفقه والتوحيد اكتسب اقتناعا شخصيا، واتخذ لنفسه مذهبا عقديا سنيا خالصا هو العقيدة الحنبلية. ويلاحظ أنه لم يحمل الناس على اعتناق هذه العقيدة واستبدالها بالعقيدة الاشعرية السنية الكلامية السائدة في المغرب منذ عدة قرون، كما لم يغير مذهبه الفقهي إبقاء على وحدة المذهب المالكي الذي تمسك به المغرب منذ حياة هذا الامام. وهكذا نجده يوقع كتبه بعد ذكر اسمه "المالكي مذهبا، والحنبلي اعتقادا".

أما الطور الثالث فهو وإن لم يعرف بالتحديد تاريخ بدايته فإنه يجعل بالتقريب في أول عقد الثمانينات من القرن الثاني عشر. حيث كثر اهتمام السلطان بكتب الحديث وفقه الحديث، ولو أن مجالسه الحديثية في الواقع لم يخل منها طور من أطوار حياته حتى عندما كان ما يزال خليفة لأبيه في مراكش. لم يقتصر هذا الاهتمام على كتب الحديث المتعارفة في المغرب مثل : الموطا والصحيحين وكتب السنن، بل أدخل مصنفات حديثية أخرى لاعهد للمغرب بها من قبل، مثل مسند أبي حنيفة، ومسند الشافعي ومسند أحمد بن حنبل، وجعلها تتدارس وتتناول بين المحدثين، وألف هو كتابا سماه الجامع الصحيح الاسانيد ضمنه أربعمائة حديث، مائة من كل مسند من مسانيد الائمة الأربعة.

أكثر مؤلفات سيدي محمد بن عبد الله في الحديث، وأولها : أربعون حديثا، (مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 7140). ثم وسع الاربعين وجعلها كتابا آخر سماه : الفتوحات الصغرى، لم يخرج فيه عن الموطا والصحيحين، وألف بعد ذلك كتاب الفتوحات الكبرى التي أسماه أيضا : الفتوحات الالهية في أحاديث خير البرية التي تشفي القلوب الصدية، (مخطوط الخزانة الحسنية رقم 4656) اشتملت على 1416 حديث، جعلها أصنافا ثمانية :

- ما اتفق عليه الائمة الستة.
- ما اتفق عليه الائمة الخمسة.
- ما اتفق عليه الائمة الاربعة.
- ما اتفق عليه الائمة الثلاثة.

- ما اتفق عليه اثنان
- ما انفرد به واحد منهم
- ما اقتصر فيه على ذكر الصحابي

وترجم في الأخير لأئمة الحديث الذين اعتمد عليهم، وشرح فكرة اختياره لعقيدة الإمام أحمد ابن حنبل وذكر مزاياها، وانتهى من تأليفة عام 1783/1198.

وقد جمع سيدي محمد بن عبد الله كل مولفاته الحديثية في كتاب واحد سماه : الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد، وهو الذي عنونا به هذه المداخلة. يقع في عدة مجلدات لم أقف إلا على الاول في الخزانة الحسنية، والاخير في الخزانة العلمية الصبيحية بسلا. ويوجد منه جزء آخر في خزانة القرويين. يمثل هذا الكتاب مرحلة النضج في الحديث وفقه الحديث عند هذا السلطان العالم. وقد رتبه - كما جاء في الخاتمة - "على أبواب الفقه وفصوله، ليسهل به أخذ الحكم من قواعده وأصوله". ويقصد بالمسانيد الستة : مسند أبي حنيفة، ومسند مالك (الموطا)، ومسند الشافعي، ومسند أحمد ابن حنبل ومسند البخاري ومسند مسلم (الصحيحان). ويمكن أن يستنتج من هذا الكتاب أن سيدي محمد بن عبد الله - ظل مالكيا في توقيعاته - فإنه أصبح ينظر إلى المذاهب الأخرى على أنها لاتقل عن مذهبه الرسمي، ويرى - كما رأى أنصار الاجتهاد عبر العصور - ضرورة العودة إلى المنبع الذي هو الكتاب والسنة. وهذا الملحظ في كتابات سيدي محمد بن عبد الله يحتاج إلى مزيد من البحث والاستقراء. إن كتب سيدي محمد بن عبد الله ما يزال معظمها مخطوطا محفوظا في الخزانات العامة والخاصة، ولا سيما الخزانة الحسنية بالرباط، وهي كلها عبارة عن تحف فنية سواء من حيث الخط أو التزويق والتلوين والتذهيب والتسفير. وما أحراها بأن يجمع شتاتها وتصور على الميكروفيش ليسهل الرجوع إليها وتحفظ أصولها كذخائر ثمينة ونماذج رائعة في الوراقة المغربية.

ونشير في الختام إلى أن لسيدي محمد بن عبد الله كتبا أخرى منها مؤلف قيم في التربية والتعليم، وهو من آخر ما ألف، علما بأن شؤون التربية شغلت حيزا كبيرا في تفكيره، وأصدر بشأنها ظهائر ومنشورات تكون في مجموعها ملفا تربويا ضخما يضم كثيرا من الاجتهادات والاستنتاجات، ويدل على مدى اهتمام هذا الملك العالم بأن يكون التعليم في المغرب سليما مفيدا مسايرا للمبادئ والمثل العليا للاسلام.

مؤرخو السلطان سيدي محمد بن عبد الله
(مصادر مغربية واوربية)

محمد مزين
قيدوم كلية الآداب بفاس

إن المناسبة التي تتاح لنا خريف كل سنة في اطار لقائنا هذا بمقر الجامعة الخريفية هنا بمدينة الريصاني - لتدارس تاريخ المغرب ايام الدولة العلوية، لهي مناسبة فريدة، وذات ابعاد ومرام ومنافع شتى. فهي تسمح لنا بتتبع مراحل تاريخ تلك الفترة الممتدة من أواسط القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) الى اليوم، وبتدقيق النظر في كل قضية قضية من قضايا هذا التاريخ، وتحليل بعض الظواهر الكبرى التي اعترى المرحلة المذكورة وبالتالي مواجهة تاريخ تلك الفترا ت الهامة التي كثيرا ما يمر عليها البحث التاريخي مر الكرام، إما لعدم توفر الوثائق اللازمة لمعالجتها، وعزوف الباحثين عن عناء ومكابدة التنقيب عليها واستخراجها لتستغل في البحث، واما خضوع البحث التاريخي لضغوط معنوية، نفسية ترجع اصلا إلى موقف هذا المؤرخ او ذاك من هذه الفترة او تلك، سواء كان المورخ صاحب هذا الموقف مغربيا أو أجنبيا.

فتتبع هذا التاريخ خطوة خطوة، واستغلال احسن المنهجيات العلمية، وتسليط الاضواء على الجوانب المتعطشة للبحث التاريخي، وعدم انتقاء الفترات والتمييز بين هذه المراحل او تلك، والحث على البحث في كل فترات هذا التاريخ، لابد وان هذه الجامعة العتيدة ستمكن التراث والبحث التاريخي من اكتساب تراكم فكري ومعلوماتي، سيكون له دور كبير في السير قدما بالكتابة التاريخية المغربية.

وأظن ان البحث في تاريخ المغرب على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان شعار هذه الدورة من اعمال الجامعة الخريفية - والذي اقترح على هذا الجمع الكريم من الباحثين والعلماء - لهو مثال حي عن تلك المراحل التاريخية التي يعتبر اهتمام الباحثين فيها من باب تحصيل الحاصل. فاغلب المورخين يعتبرون ان تاريخ هذه الفترة معروف، وان الوثائق والمعلومات المتعلقة بها كثيرة بل وإن الكتابات حولها كافية في كمها وكيفها، وغاية هذا الحديث الذي عنونته «**مؤرخو سيد محمد بن**

عبد الله» على غرار كتاب ليڤي بروفنصال «**مؤرخو الشرفاء**» هي السعي الى التحقيق في هذه المسألة اي محاولة استعراض اهم ما كتب عن سيدي محمد بن عبد الله، وعن فترة حكمه، رغبة في تقديم حصيلة ولو مؤقتة في الموضوع.

قبل تناول موضوع اسطغرافيا عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله، يجمل بنا تقديم اطلالة تاريخية على حكم هذا السلطان. فقد وصل الى الحكم في مغرب ممزق بالحروب الاهلية والفتن السياسية التي امتدت زهاء ثلاثين سنة، اي مباشرة بعد وفاة السلطان المولى اسماعيل 1139هـ/ 1727م ، حيث تنازع ابناؤه العرش، ودخلوا بسبب ذلك في حروب طاحنة اضاعت كل تراث والدهم الكبير، وقد ساهم قواد جيش البخاري في تأجيج الصراعات بين الامراء، هذا اضافة الى تراجع البنيات الاقتصادية الانتاجية من فلاحة وصناعة، وتوقف التجارة الداخلية والخارجية، وانتشر الجفاف مما تسبب في مجاعات وأوبئة خطيرة، ويمكن القول ان الفترة الممتدة من 1139 ـ 1171هـ/1727 ـ1757م كانت فترة ازمة بكل معنى الكلمة، ازمة متشعبة Crise mutiforme اتت على الاخضر واليابس. وكان على عاتق السلطان سيدي محمد بن عبد الله بناء الدولة وكل شيء من جديد، وعلى كل المستويات السياسية والامنية والعسكرية والاقتصادية، وقد تطلب منه ذلك مجهودا طويلا وخرج المغرب ثانية متماسكا وقويا واسترجع توازنه وعافيته. ويمكن ان نعتبر عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله احدى المراحل القممية والمعطاء في تاريخ المغرب وتذكرنا بحكم بعض السلاطين المغاربة الكبار كعبد المؤمن الموحدي والمنصور الموحدي، والمريني، وابو الحسن وابو عنان، والمنصور الذهبي، والمولى اسماعيل.

لقد ضمن الاستقرار السياسي من جديد على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، سير دواليب الحكم، وتجدد الانشطة الاقتصادية مع التركيز بشكل كبير على التجارة الخارجية، مما ساعد على تحرير بعض الثغور كالبريجة التي أصبحت تسمى الجديدة واحييت اخرى قديمة كفضالة (المحمدية) كما تم بناء مدينة الصويرة. وهذا مادفع الدول الاوربية الى التعامل [illegible] لمغرب [illegible] لاقاتها الدبلوماسية والتجارية وعقد المعاهدات على اساس احترام سيادة البلاد، واحترام المصالح العليا للدولة المغربية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل مست شروط الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الحياة الفكرية، ايضا ؟ هل استفاد الفكر المغربي من فترة حكم هذا السلطان ؟ وهل عرف الانتاج الثقافي دفعا جديدا كما يحصل في كل الفترة المزدهرة من تاريخ المغرب؟

سوف احاول في هذه المداخلة الاجابة على بعض هذه الاسئلة ومقاربتها اعتمادا بالدرجة الاولى على المصادر المغربية المحلية، والتطرق الى الادب التاريخي في عصر هذا السلطان وذكر نوع الاهتمامات والمساجلات التي انطبع بها، ومدى مساهمته في تغطية وتأطير المرحلة هاته.كما سوف يشمل العرض - بالاضافة الى المصادر المغربية، المصادر الاوربية التي عاصرت السلطان سيدي محمد بن عبد الله او كانت قريبة من فترة حكمه.

ظهرت في ساحة البحث التاريخي بالمغرب مجموعة من الدراسات البيبليوغرافية المتعلقة بالحياة الادبية والاسطغرافية بالمغرب عبر مختلف المراحل والدول. وقد مكنت هذه الدراسات الباحثين وخصوصا المهتمين بالتاريخ من مادة تاريخية موثقة ومضبوطة، كما استطاعت كشف وابراز العديد من المصادر والمدونات التاريخية المغمورة وإشارد الباحثين الى استغلالها واعتمادها في اعمالهم. ونذكر من بين هذه الدراسات :

- محمد بن شقرون : الحياة الفكرية بالمغرب على عهد بني وطاس
- محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين
- محمد الاخضر : الحياة الادبية في عهد الدولة العلوية
- محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب
- محمد المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث
- عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب
- ليڤي بروفنصال : مؤرخو الشرفاء
- عبد الله كنون : الاثر المغربي في الادب العربي

فهذه الدراسات المتنوعة قدمت خدمة كبيرة للبحث التاريخي، بتذليلها للكثير من الصعاب والمشاق امام الباحثين، اضافة الى الجديد من ناحية المنهجية التي وظفت فيها، فهي تعتبر الاساس والمنطلق لكل باحث يرغب في كتابة جوانب معينة من تاريخ المغرب. وقد حظي عصر السلطان محمد بن عبد الله كغيره من العصور باهتمام كبير، خاصة في الدراسات التي غطت المرحلة العلوية (الاخضر - بروفنصال - المنوني ...).

لن انحو منحى ليڤي بروفنصال في تتبع كل مؤرخ على حدة، اي ذكرحياة المؤرخ، والاشياخ الذين اخذ عنهم، وعلاقته بالسلطة، وإنتاجه الفكري، ثم التطرق الى مؤرخ آخر، وبعد ذلك الانتقال الى مرحلة تاريخية موالية واخضاع رجالاتها لنفس المنهج، فرغم ان مثل هذا العمل مهم ويمكن ان تكون فائدته كبيرة، فإننا نتجنبه لسببين :

أولا : ضيق الوقت نظرا للمساهمات المدرجة في هذا الملتقى

ثانيا : وهذا هو الاساس، رغبتي في الانطلاق من ملاحظات منهجية، تنظر الى الموضوع كإطار عام وبنية شمولية تواصلية، بدل اعتماد التسلسل الكرونولوجي المرتبط بالسنوات والفترات والاسلوب التجزيئي للانتاج التاريخي. كما انني اعتبر ان انجاز حصلية ولو مؤقتة في مثل هذا الموضوع يقتضي عدم الاكتفاء بمورخي السلطان سيدي محمد بن عبد الله المعاصرين لعهده، بل توسيع جوانب هذه الحصلية لتشمل المؤرخين المغاربة الذين جاءوا بعد عصر هذا السلطان، ونعني بذلك مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين، بل ايضا ذكر المؤرخين الاجانب الذين اهتموا بالتأريخ لهذا العهد. وهذا لعمري برنامج طموح، ولو حاولت استعراضه امامكم لاستغرق من الزمن مالا يتحمله المرء في جلسة مثل التي نحن فيها اليوم. لهذا سأكتفي في هذا العرض الوجيز بالاشارة الى أهم المؤرخين الذين تناولوا عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله، مؤكدا على التطور الذي طرأ على الكتابة حول عهده، عندما يكون ذلك التطور ملفتا للنظر، وحافزا على تزكية البحث، ومثيرا للنقاش والدرس. فالمتتبع المثابر والمتأني لما كتب عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله وعن عهده يلاحظ ان الاهتمام به والتأريخ له ولفترة حكمه قد تطور وتغير، وارتبط بمختلف الظرفيات السياسية والفكرية المغربية ، ذلك ان هذا العهد كان موضوع اهتمام الباحثين المغاربة والاجانب على السواء، كما كان في السابق مرحلة جذابة للاخباريين والمؤلفين المغاربة والاوربيين الذين عاشوا بالمغرب انذاك. فمنذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، حظي السلطان سيدي محمد بن عبد الله - كغيره من سلاطين المغرب اللامعين بعناية الفقهاء والرحالة والنسابين واصحاب المجامع الكبرى لكتب التراجم والطبقات، خاصة وان طابع الامن والاستقرار الذي ميز حكمه اعطى لهذا الحاكم بريقا خاصا اثار عواطف وتقدير العلماء والادباء والمورخين وسجلوا كل ما يجب الاهتمام به من مجالات الثقافة والفكر.

اختلفت طبيعة ونوعية المصادر المعاصرة لعهد السلطان محمد بن عبد الله، ولتسهيل التعرف وضبط هذه المصادر سوف نقوم بتصنيفها حسب المادة التاريخية التي تتناولها، جريا على التصنيف المتداول والمتفق عليه من طرف المؤرخين، اي ذكر كتب الحوليات، الرحلات، التراجم، الانساب... الخ.واضافة الى هذا التقسيم الموضوعي (نسبة الى موضوع) سوف ندخل ضمنيا تقسيما زمنيا يميز بين مؤرخي القرن الثامن عشر، والتاسع عشر واخيرا القرن العشرين. اذ ان لكل مرحلة خصائصها المتميزة وطابعها الخاص بالكتابة التاريخية، ورؤية التحليل المرتبطة بالقضايا التي تطرحها.

المصادر المغربية

1 - كتب الحوليات

تكتسي المصادر الحولية اهمية كبيرة في الكتابة التاريخية، باعتبارها المصدر الرئسي والعمود الفقري لاجل بحث في مجال التاريخ، والى عهد قريب كانت الكتب الحولية المورد الرئيسي لاي عمل تاريخي ،
- قبل ان يستعان بمصادر اخرى - نظرا للمادة التاريخية التي تتضمنها، والمواضيع التي تتطرق اليها، خاصة المتعلقة منها بالاحداث السياسية واخبار الاسر الحاكمة والملوك، والوقائع الحربية والثوارت وكل ما يدخل في إطار التاريخ الحدثي، اعتمادا على كرونولجية حدثية متسلسلة وفق السنوات والفترات المتتالية.

ابو القاسم الزياني

يعتبر الزياني (1733 - 1833) من بين المؤرخين المغاربة البارزين، ومن أشهر من كتبوا عن تاريخ المغرب الحديث وحكم الشرفاء العلويين. والزياني من اولئك المؤرخين الذين عرفوا بانتاجهم الغزير، ذلك الانتاج الذي كان اغلبه مخصصا للتأريخ والرحلات الوصفية المرتبطة بالتاريخ اكثر من الوصف. ومن بين المؤلفات التي خصصها الزياني لتاريخ المغرب والتي تحمل ضمنيا معلومات قيمة عن عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله :

- **« الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب »** نشر منه المستشرق هوداس القسم المتعلق بالدولة العلوية باللغة الفرنسية تحت عنوان «تاريخ المغرب من 1631 إلى 1812» **Histoire du Maroc de 1631 à 1812** ويعتبر كتاب الترجمان من أهم الكتب التي تؤرخ للدولة العلوية، وخير مكمل لكتاب النزهة الذي غطى مرحلة حكم الشرفاء السعديين وقد خص الزياني كل ملوك الاسرة العلوية بقسم خاص عالج فيه مراحل حكمهم وما عرفته من أحداث سياسية واجتماعية، وفيما يخص السلطان سيدي محمد بن عبد الله فقد خرج عن مسلكه الذي اتبعه، بحيث اهتم به وهو بعد خليفة لابيه لمراكش لم يرق الى سدة الحكم ويصبح ملكا.

« الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الاسماعيلية، ومن تقدم من الدول الاسلامية » وهي في حقيقة الامر تلخيصا جد موجز لكتاب الترجمان المعرب، وتوجد بالخزانة العامة تحت رقم د 1275.

- **الفية السلوك في وفيات الملوك.**

« **البستان الظريف في دولة اولاد مولاي الشريف** » (خ.ع 1577) اذا كان الزياني قد جعل من كتابه الترجمان المعرب كتاب تاريخ عام للمغرب، فإنه قد خصص كتابه البستان الظريف لتاريخ الدولة العلوية، ويمكن القول انه احسن وادق تاريخ خصص لهذه الدولة. ويحتل القسم الخاص بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله مكانة خاصة في هذا الكتاب، خاصة وان الزياني كان قد شغل مناصب ادارية في فترة حكم هذا السلطان، وارسله سفيرا إلى المشرق عدة مرات. لذلك فكتاب البستان الظريف يقدم معلومات قيمة واخبار مهمة، كنا سنجهلها عن سيدي محمد بن عبد الله لو لم يتطرق اليها ابو القاسم الزياني ويدونها في كتابه هذا. فقرب الزياني من مركز السلطة الحاكمة ومنبع القرار طيلة نصف قرن تقريبا وفر له امكانية الحصول على معلومات خاصة واستغلال وثائق نادرة ومغمورة، واهله هذا لان يكتب كتابة يطبعها منهج "**الشهادة**"، شهادة شاهد عيان بما لها وما عليها من مزايا ومآخذ بما تحمله من ايجابيات وسلبيات، فقد قال « **... وماكان في دولة امير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله ايام خلافته وملكه وحركاته ووقائعه وآثاره إلى يوم وفاته ... فبالمشاهدة والعيان، والتقلب في خدمتها بالبيان** » وفي رسالة شيخ الادباء الامام حمدون بن الحاج السلمي : « **وفي الدولة المحمدية واليزيدية والسليمانية، فبالمشاهدة والتقلب في الخدمة وممارستها، وتقييد حوادثها، حلوها ومرها، سرها وجهرها، و يعلم الله ما بدلت ولا غيرت، ولا داهنت وما ذكرت الا ما اعلمه واعتقده** ».

فكتاب البستان الظريف يعطي الانطباع على ان الفكر التاريخي المغربي المعاصر له فكر بدأ يخرج من المحلية والجهوية ليجمع من نظرته كل عناصر الفعل التاريخي، ويحتوي معطيات العصر كله تقريبا. فنظرة الزياني لتاريخ المغرب على عهد سيدي محمد بن عبد الله نظرة شمولية تأخذ بعين الاعتبار كل او جل الاوضاع السياسية المغربية وربطها بباقي انحاء العالم العربي الاسلامي بل، والبلاد المسيحية، فالمؤثرات الخارجية كانت تفعل فعلها وتؤثر في الكثير من جوانب الحياة المغربية سواء المتعلقة بالسياسة والاقتصاد والتي تمس الفكر والدين، وهذا ما حاول الزياني الالمام به وادخاله ضمن رؤيته، ودمجه في عمله هذا (البستان) وباقي اعماله التاريخية كالترجمان المعرب والترجمانة الكبرى. فقد عاصر ظهور الحركة الوهابية بالمشرق، وشارك سليمان الحوات، واكنسوس في مواقفهما، كما زار بلاد المشرق مبعوثا كسفير من طرف السلطان محمد بن عبد الله الى الخليفة العثماني، ووظف المعلومات التاريخية التي

حصل عليها في مولفاته، ورغم اعتماد الزياني منهجا اخباريا بسيطا اساسه الحدث السياسي ومراميه، والتنويه بالسلطان وبالاسلام، فإنه لا ينسى العمران ولا الفكر. والواقع ان جل كتابات الزياني هي اقرب الى الرحلة منها الى الكتابات التاريخية الحولية (الترجمان والترجمانة) مع ان المؤلف الذي يقدم فيه ترجمة وافية ووصفا دقيقا لدولة سيدي محمد بن عبد الله هو كتاب الترجمان، حيث خصها بتاريخ حولي متسلسل ادرك المؤرخون المغاربة والاجانب اهميته التاريخية، ونشر منه هوداس قسما كبيرا، في فترة بدأ اهتمام الاجانب من المستشرقين بتاريخ المغرب والمصادر المغربية سواء من حيث الدراسات التي قاموا بها، او المصادر التي حققوها وترجموها وعملوا على نشرها. وفي الاخير فقد اشاد ليفي بروفنصال بالاهمية الكبيرة التي تكتسيها كتابات الزياني التاريخية حيث يقول في كتابه « **مؤرخو الشرفاء** » ص 130 «... **ولهذا كله فإننا نعتبر تاريخ الدولة العلوية الذي سطرته يد الزياني من المراجع العظيمة القيمة الجديرة بالتنويه** »

2 - الضعيف الرباطي

لو رتبنا مؤرخي السلطان محمد بن عبد الله من ناحية الاهمية المصدرية، لوجدنا في المرتبة الثانية مؤرخا آخر اشتهر بتعلقه بشخص السلطان وبلاطه، وسعة اطلاعه علي جوانب من سياسة المخزن، ونعني به المؤرخ محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي صاحب الكتاب المشهور: « **تاريخ الدولة العلوية السعيدة** » عاش فترة طويلة (1732 -1822) مكنته من استيعاب احداث تاريخية كثيرة. ويختلف كتاب الضفيف السالف الذكر تماما عن كتب الزياني ويسير على نمط روض القرطاس من حيث طبيعة المنهج والكتابة، ومن حيث المعلومات التاريخية فإنه يغطي مسافة قرنين من الزمن من تاريخ المغرب خاصة والعالم الاسلامي وأوربا عامة، بل انه يشير ايضا الى علاقات المغرب مع امريكا. وقسم مؤلفه الى ثمانية ابواب :

- الحركة الدلائية والسملالية وبداية العلويين
- اخبار مولاي محمد بن الشريف
- اخبار مولاي رشيد
- اخبار مولاي اسماعيل
- اخبار أبناء المولى اسماعيل وازمة الثلاثين سنة
- اخبار سيدي محمد بن عبد الله
- اخبار أبناء سيدي محمد بن عبد الله
- اخبار ابو الربيع المولى سليمان

ويظهر ان الضعيف الرباطي استقى الكثير من اخباره من مناهج اصلية، كما انه أخذ المعطيات المتعلة بعهد سيدي محمد بن عبد الله عن كتب سابقة لعصره مثل كتاب « **الدرر المكنونة في تاريخ الدولة الميمونة** » لصاحبه ابو العربي بن عبد السلام الفيلالي (م.خ.ع 1439) والذي كان حيا الى حدود 1797، وهذا الكتاب لازال في حاجة الى دراسة وتحقيق، واعتمد ايضا على كتاب لمولاي هاشم بن مولاي احمد قاضي توات (ت 1798) وهو مصدر مفيد لفهم بعض الجوانب من تاريخ المرحلة وخصوصا منطقة تافيلات وقد اكد ذلك A.G. Martin في كتابه Quatre siecle d'histoire marocaine

3 - محمد بن ابي القاسم المراكشي :

لقد ساهم هذا المؤرخ بكتاب مهم، ويتعلق بعملية تحرير مدينة الجديدة من الاحتلال البرتغالي سنة 1769، واسمه « **الحلل البهيجة وسيرة الملك الهاشمي سيدي محمد بن عبد الله الفاطمي** » (م.خ.ع. 1328) وقد عرف عن هذا المؤرخ اهتمامه باحداث عصره، حيث قدم وصفا ضافيا لواقعة البريجة (الجديدة فيما بعد) حين هاجمها الجيش المغربي واستطاع تحريرها من الاحتلال المسيحي البرتغالي.

4 - احمد بن محمد الخياط بن قاسم الفشزائي

عاش اواسط سنة 1768 له كتاب « تقاييد تاريخية »

5 - عبد الهادي العسري

لهذا المؤلف كناشة مهمة، تتعلق بالشؤون البحرية وعنونها « **كناش في شؤون بحارة العدوتين** » (خ.ع. 1409د) حيث اهتم فيها صاحبها بالاسطول والثغور المغربية والمصاريف التي كان ينفقها المخزن المغربي على عهد السلطان محمد بن عبد الله للدفاع عن السواحل، وكذلك اعداد المجاهدين البحريين المغاربة ومختلف المداخيل والمصاريف والزمامات المتعلقة بالبحر وشؤونه.

كتب التراجم والانساب

شهد عصر السلطان محمد بن عبد الله شأنه- في ذلك شأن العصور الحديثة من تاريخ المغرب - انتاجا كبيرا في هذا النوع من المصادر، ويعزى ذلك الى انتشار الاولياء والصلحاء ، وتعاظم أهمية الشرف داخل المجتمع المغربي ابتداءا من العصر المريني، وقد شهدت القرون اللاحقة انتاجا ضخما في هذا الاتجاه، يعالج القضايا التي

طرحتها المرحلة، مثل ظاهرة التصوف والزوايا، والمنافسة بين الأسر في اثبات الشرف والافضلية على مستوى الممارسة السياسية والمكانة الاجتماعية، ومسألة الجهاد ... الخ. وظهرت في الاطار كتابات متعددة واشتهر مؤلفون مختصون في ادب التراجم والانساب طيلة القرون الاربعة الاخيرة، ويعتبر هذا النوع من المصادر جانبا مهما من الاسطغرافيا المغربية وشهد عصر السلطان محمد بن عبد الله العديد من الاعلام الذين اهتموا بكتابة هذا النوع من المصادر.

1 - محمد بن الطيب القادري (ت 1187 - 1773)

من أشهر افراد البيت القادري وقد ساهم في العديد من الكتب والمؤلفات في هذا الحقل، نذكر منها مصدرين مشهورين ومهمين :

- «نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني » تحقيق محمد حجي، وأحمد توفيق بالرباط 1982 وهو كتاب تاريخ وتراجم وسير كما يحتوي على اشارات ادبية، وفكرية، وقد تطرق في جزئه الثاني لعصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

- « **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من اخبار اعيان المائة الحادية والثانية عشر** » تحقيق هاشم العلوبي.

- « **الاكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج، مع زيادة مناسبة لمن اليها يحتاج** ».

2 - محمد الفاسي (ت 1179 - 1765)

صاحب تأليف في اعيان الاعيان وهو مفقود، وصاحب كناشة في شرفاء المغرب، ذكره صاحب الدليل ولم يذكر مكان وجوده.

3 - احمد بن محمد بن الونان (ت 1173/1187)

يظهر انه من عرب بني معقل، استقرت اسرته بتوات وولد هو بفاس، وهو صاحب الشمقمقية المشهورة وله قصيدة يمدح فيها السلطان محمد بن عبد الله، ويهنئه بانتصاره في البريجة على البرتغاليين ذكرها صاحب الاتحاف واخذ عنه محمد الاخضر في كتابه الحياة الادبية في عهد الدولة العلوية.

4 - الحسن بن محمد الهداجي المعداني (ت بعد 1760)

يترجم من خلال كتابه « الروض اليانع الفائح في مناقب ابي عبد الله محمد المدعو بالصالح » للاديب محمد الصالح شيخ الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد.

5 - محمد المكي الناصري (ت اواخر ق 12 هـ - 18 م)

« **الروض الزاهر في التعريف بالشيخ بن حسين واتباعه السادات الأكابر** » وهو مؤلف خاص بشيخ الزاوية الناصرية بالجنوب المغربي.

6 - احمد دعي حمدون بن محمد بن حمدون الحسني الطاهري (ت 1777)

« **تحفة الاخوان في بعض مناقب شرفاء وزان** » خاص بشيوخ الزاوية الوزانية.

الرحلات

لكتب الرحلات اهمية كبيرة كمصدر من مصادر التاريخ، وهي كفن من فنون الاسطغرافيا تحتل مكانة بالغة في الكتابة التاريخية، نظرا للمعلومات والاخبار المتنوعة التي تحتوي عليها، الاشارات المتعددة التي تشمل الحياة السياسة والاجتماعية والاقتصادية، ومختلف مظاهر الحياة الدينية والفكرية في كل الجهات والاقاليم التي نشير اليها. وهذا مايجعل منها بانوراما اخبارية وموسوعة تاريخية واثنوغرافية وبالتالي ان تصبح من اهم المصادر والمظان التاريخية. وكباقي البلدان الاسلامية فقد عرف المغرب العديد من الاسماء التي تنتمي إلى هذا الفن الادبي - التاريخي سواء في العصور الوسطى أوالحديثة. ولكن بفرق واضح ومميز وهو ان العصور الحديثة تميزت ببعض الرحلات الى البلاد المسيحية ايضا والتي كان اغلب اصحابها عبارة عن سفراء ومبعوثين من طرف ملوك المغرب الى الدول الاوربية. ويزودنا عصر السلطان محمد بن عبد الله بالعديد من الشخصيات والاسماء التي تركت رحلات مهمة من الناحية التاريخية.

1 - احمد الغزال

- « **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد** » (م.خ.ع 981 د) وهو عبارة عن رحلة يظهر أن اساسها مستوحى من رحلة الغساني المتوفى عام 1777/1191 الى الديار الاسبانية، وكلاهما عين سفيرا ومبحوثا من طرف السلطانين على التوالي المولى اسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله الى بلاط مدريد

- «**الفائق الصنيع في نتيجة الجهاد**» (خ.ع. 4639/ د 107)

- «**رحلتي الى اسبانيا**» (خ.ع 853 ج)

2 - ابن عثمان المكناسي (ت - 1213 - 1799)

وهو صاحب رحلة « الاكسير في افتكاك الاسير » التي تتناول رحلته الى اسبانيا

لتحرير اسرى المسلمين مبعوثا من طرف السلطان محمد بن عبد الله. وقد حققها ونشر نصها ذ. محمد الفاسي عام 1965، وهو كذلك صاحب مجموعة من كتب الرحلات «كالبدر المسافر» و«احراز المعالي» «ورحلة الوزير في افتكاك الاسير».

3 - احمد الهلالي السجلماسي (ت 1761/1175)

صاحب الرحلة المشهورة « **برحلة الهلالي** »

4 - ابو القاسم الزياني

من خلال رحلته الموسوعية « **الترجمانة التي جمعت اخبار المعمور برا وبحرا** » والتي نشرها عبد الكريم الفيلالي سنة 1967 واعيد نشرها سنة 1991.

5 - محمد بن احمد الحضيكي : « رحلة مجازية » (خ.م 405)

كل هؤلاء عايشوا عهد سيدي محمد بن عبد الله، وعينوا في مناصب عليا، واعتمدوا كسفراء لهذا للسلطان، مما اهلهم الى كتابة تاريخ كان سيكون مفيدا لو لم يختصوا في فن الرحلة، كاتمين معلوماتهم عن السياسة والسياسين، لكن قراءة رحلاتهم قراءة متأنية واستقراء ماذكروه عن الاسلام والمسيحية، ومسألة الجهاد، والعلاقة بين السلطة والمجتمع والثورات وازمات العرش والكوارث الطبيعية، كل هذه المعلومات التاريخية يمكن ان تساعد المؤرخ اليوم على فهم بعض الغاز ذلك العصر وتقييم العديد من جوانب تلك المرحلة من تاريخ المغرب.

والواقع انه لو جمع كل ما كتب عن سيدي محمد بن عبد الله وعن فترة حكمه من طرف معاصريه لتوفرت لدينا نظرة واضحة عن تلك الحقبة التي بدأ المغرب يسترجع فيها قوته وتوازنه وعافيته، مما قد يساهم ايضا في تفسير اعتماد المؤرخين والادباء والنسابة المعاصرين منهجا يسعى الى التأكيد على مركزية السلطة والوحدة والانسجام، وعلى الاسلام والجهاد والمجاهدة. وقد اثر هذا المنهج في الكتابة على قسم كبير من المؤرخين اللاحقين خاصة وان المشاكل التي واجهها المغرب بعد وفاة السلطان محمد بن عبد الله وكذلك طيلة القرن التاسع عشر كانت كبيرة، وقاسية على الظرفيات الحساسة التي مر منها المغرب. ولعل هذا ماجعل المؤرخين الذين جاءوا بعد عصر هذا السلطان اي المؤرخين المنتمين لجيل الطبقة الثانية يؤكدون على الحسنات والاعمال الكبرى التي قام بها هذا الحاكم.

1 - اكنسوس (ت 1877)

يعتبر اكنسوس من اشهر المؤرخين للدولة العلوية، إلى جانب كل من القادري والزياني، وقد اجتذبته الوظائف المخزنية، كغيره من رجالات القلم والقرطاس، حيث شغل منصب الكاتب والوزير على عهد مولاي سليمان، وقد مكنه منصبه هذا من جمع الوثائق والمستندات والاعتماد على مادة مصدرية مباشرة ونادرة. وكتابه يعرف ب-«**الجيش العرموم الخماسي في دولة اولاد مولانا علي السجلماسي**» طبع طبعة حجرية بفاس 1918/1336 في جزئين، وقد رتبه ترتيبا غريبا، حيث قسم الدول المغربية حسب اقسام الجيش المعروفة في التاريخ الاسلامي : الميمنة الميسرة، القلب، الساقة، ..) وقد تناول عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله في القسم الاول من هذا الكتاب. وقد اثار مؤلف اكنسوس هذا (الجيش العرمرم) ضجة بسبب انتقاداته وتهجماته على بعض الزوايا الشهيرة انذاك، مثل زاوية ابي الجعد، وتقول في رؤساء بعض الطرق التي لا يجادل فيها أحد (عبد القادر الجيلالي، مولاي العربي الدرقاوي) وطال التهجم ايضا بعض أشراف المملكة وعلمائها.

2 - عبد القادر الكردودي

وهو صاحب كتاب « **الدر المنضد الفاخر فيما لابناء علي الشريف من المحاسن والمفاخر** » وقد اكتشف بعد نشر كتاب مؤرخو الشرفاء لليفي بروفنصال 1922.

3 - أحمد بن خالد الناصري (ت 1897)

لقد حاول الناصري من خلال كتابه « **الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى**» اعطاء تصور عام وتاريخي للدولة المغربية منذ عصر الادارسة، ولعله الكتاب الوحيد الذي تطرق لكل مراحل تاريخ المغرب واستغل اغلب ان لم نقل كل المصادر التاريخية التي الفت في السابق من حوليات وكتب رحلات وتراجم وانساب، وقد وضعه في تسعة أجزاء، وقد خصص الجزء الثامن لعصر سيدي محمد بن عبد الله فيما يقارب 72 صفحة اشاد فيها بسياسته العسكرية والتجارية والبحرية، واثنى عليه كثيرا وقد اعتمد في تدوين هذه المرحلة على كتاب بالبستان الظريف اساسا وعلى رحلة احمد الغزال (مثلا في قضية بناء الصويرة ص 20) وينفرد الناصري على جميع المورخين باعتماده ايضا على مؤرخين مسيحين مثل لويس ماريا (فتح البريجة) وايمانويل كاستينوس.

4 - محمد بن جعفر الكتاني

صاحب المعلمة التاريخية الكبرى « **سلوة الانفاس، ومحادثة الاكياس بمن اقبرمن الصلحاء والعلماء بمدينة فاس** » وتعتبر السلوة من اغنى كتب التراجم بالمغرب، وتغطي مرحلة طويلة من تاريخ المغرب انطلاقا من التأريخ لاشهر العلماء والصلحاء والاولياء الذين دفنوا بفاس، ولاغرو ان الكتاني بتناوله لهذا الموضوع سوف يذكر جميع المراحل والاحداث السياسية التي مرت منها مدينة فاس ومن بينها عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

يلاحظ على مولفات الطبقة الثانية من مؤرخي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله انها لم تتناول هذه المرحلة الافي اطار عام، يعنى اساسا بتاريخ المغرب قبل كل شيء، او تاريخ اسرة حاكمة بكامل الملوك الذين انحدروا منها، مما جعل المراحل القصيرة والمحددة مجرد فترات عابرة وتحتل مرتبة ثانوية في اطار هذا التصور الشامل والطويل. خاصة وان كتاباتهم جاءت في سياق موقف وطني دفاعي فرضته الظرفيات الصعبة التي مر منها المغرب في القرن التاسع عشر، فالاستعمار الاوربي كان على الابواب، وبدأ يدق بعنف (حرب ايسلي - حرب تطوان)، والاصلاحات بدأت تفشل الواحدة تلو الاخرى، والصراعات الداخلية تكثر وتتشعب. وقد ساير رجال الفكر هذه التطورات والمستجدات، وتطور اهتمام المؤرخين، وتنوع تبعا لتضارب المواقف والمشاغل، وسيبقى الوضع على هذا النحو حتى يأتي الجيل اللاحق من المؤرخين المحدثين - اي مؤرخي القرن العشرين-، ونذكر من بين رواده، عبد الرحمان بن زيدان، ومحمد داوود ... وهؤلاء هم مؤرخو الطبقة الثالثة. ولم يتميز هذا الجيل عن سابقه في التأريخ لعهد سيدي محمد بن عبد الله، حيث استمر في ادخال واعتبار هذا السلطان مجرد حلقة ضمن المسار السياسي العام للدولة العلوية.

فعبد الرحمان بن زيدان من خلال كتابه « **اتحاف اعلام الناس** » لايذكر عهد سيدي محمد بن عبد الله الا في اطار حديثه عن استمرار الدولة الاسماعلية، كما لايشير الى علماء واعيان ذلك العهد الا لمن كان لهم ارتبارط بمدينة مكناس وذلك مافعله في الجزء الثالث من الاتحاف، وهذا لا ينفي اهتمامه بسيرة هذا السلطان والاشادة بعلاقاته الخارجية والاعمال السياسية والعمرانية الداخلية.

اما **محمد داوود** صاحب العمل الضخم المخصص لشمال المغرب من خلال كتابه «**تاريخ تطوان** » والذي وضعه في احد عشر جزء، فقد تناول عصر السلطان سيدي

محمد بن عبد الله في الجزء الثاني من كتابه، متحدثا بالخصوص عن مدينة تطوان وعلاقاته بالسلطة المركزية وكذلك بالخارج، كما تحدث بصفة عامة عن الاوضاع بالمغرب وازدهار التجارة مع اوربا، وعلاقات المغرب مع الدول المسيحية والامبراطورية العثمانية، هذا بالاضافة الى مجمل القضايا الاجتماعية والدينية.

والشيء الواضح ان حديث هؤلاء المؤرخين عن تلك الفترة (عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله)، حديث يجعل منه مجرد فترة عادية وحلقة ضمن فترات التاريخ المغربي الطويل، رغم بعض الخصوصيات التاريخية التي جاءت بها، كالانفتاح على الخارج، واستتباب الامن والسلم، واستقرار دواليب واجهزة الحكم، وتراجع اندفاعات الجيش والازمات السياسية التي اعقبت وفاة المولى اسماعيل، وعودة العجلة الاقتصادية الى سيرها الطبيعي. ربما كان هذا الاهمال النسبي لعهد سيدي محمد بن عبد الله هو الذي سيدفع عددا من المؤرخين المعاصرين الى الاهتمام بهذه المرحلة المتميزة، واعادة تناولها ودراستها، اما على شكل مواضيع وقضايا تاريخية عرفتها وافرزتها تلك المرحلة، وإما بتحقيق ونشر مصادر ومخطوطات ترجع لنفس العهد. وكانت الغاية هي توفير معلومات ومعطيات دقيقة وحصيفة تسمح بمراجعة صحيحة لتلك المرحلة وضحض لبعض الافتراضات الواهية التي قدمها المستشرقوق عن تاريخ المغرب واعادة الاهتمام للكتابة التاريخية المغربية انطلاقا من مواقف وطنية لفهم أوسع واشمل للاسباب البعيدة والبنيوية سقوط المغرب تحت الاستعمار والاحتلال الاجنبي.

ولعل عملية التصحيح والكتابة التاريخية الوطنية، جاءت في اطار موجة من البحث التاريخي اعقب فترة الاستقلال، وكان هدفها ازالة الاستعمار عن تاريخ المغرب، ومحو الارسابات والاسقاطات التي روجتها ابواق الحماية. وقد اخذ رواد هذه المرحلة على عاتقهم مهمة كتابة تاريخ المغرب برؤية جديدة وبتصور يخدم بالدرجة الاولى المسألة الوطنية. وقد اتخذ عمل هذه المرحلة اتجاهات عدة :

1 - اتجاه تنظيري يخاطب الفكر والايديولوجيا، ونناقش مؤسسات الدولة وبنيات الاقتصاد ويستعمل مفاهيم ومناهج جديدة ، بحيث يحارب المستشرقين بنفس السلاح ومن بين ابرزالاسماء نذكر :

عبد الله العروي : ناقش مسأة الكتابة الاستعمارية مناقشة علمية وضرب عرض الحائط بالافكار الاستعمارية سواء التقليدية منها او الحديثة، وهدف من خلال مؤلفاته التاريخية الى اعادة كتابة تاريخ المغرب اعتمادا على مناهج علمية حديثة

وعلى مادة مصدرية محلية، وتعد كتاباته اشهر المراجعات الموجودة على الساحة الفكرية المغربية نصادفها في دراستيه القيمتين :

- Histoire du Maroc : essai de Synthesse Maspero Paris 1970/2 tome
- Origines culturelles et sociales du nationalisme marocain

محمد الساحلي : يسير في نفس الاتجاه مع عبد الله العروي وقد أصدر دراسة قيمة في هذا الاطار (انعتاق التاريخ

- Décolomisation de l'histoire

ونضيف ايضا الى هؤلاء كتابات عبد الله ابراهيم، وعبد الكبير الخطيبي وعلى او امليل، فالقاسم المشترك لهؤلاء المؤرخين هو الدفاع عن الشخصية الوطنية المغربية، وفهم الابعاد الحقيقية للاستعمار ورد الفعل المغربي الذي بلورته الحركة الوطنية.

2 - هذا الاتجاه تزعمة الراحل جرمان عياش، وكان هذا الاخير يرى ان كتابة تاريخ المغرب يجب ان تنبثق من الوثيقة، كيفما كانت طبيعتها، وبما ان الخزانات والمكتبات المغربية تزخر بهذه الادوات التاريخية، فان هذا الباحث يعتمدها ويدعو الى استعمالها وتوظيفها في اية كتابة تاريخية.

3 - اهتم اتجاه ثالث في مجال كتابة التاريخ الوطني بالبحث المصدري، حيث عكف بعض الباحثين والمؤرخين على تحقيق المصادر المغربية التقليدية واخراجها من دور الوثائق والخزانات العامة والخاصة ونشرها لاستعمالها واستغلالها في البحث التاريخي، وقد تم بالفعل تحقيق ونشر اغلب المصادر التاريخية.

وفيما يخص النشرة التي تهمنا في هذا العرض نشير الى المصادر التالية :

- الاكسير في افتكاك الاسير	تحقيق محمد الفاسي 1965*
- البستان الظريف	تحقيق رشيد الزاوية (لازال مرقونا) 1991
- الترجمانة الكبرى	تحقيق عبد الكريم الفيلالي 1967 تحقيق آخر 1991
- تاريخ الضعيف الرباطي	تحقيق محمد البوزيد ي 1985
	تحقيق أحمد العماري 1986
- نشر المثاني	تحقيق محمد حجي 1982
- التقاط الدرر	تحقيق هاشم العلوي

(اكتفينا هنا بذكر المصادر التي تمس مباشرة عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله)

* صدر الجزء الأول من الكتاب سنة 1992 عن مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني التابع لوزارة الشؤون الثقافية.

4 - لقد ظهرت على ساحة البحث التاريخي بالمغرب اتجاه لقي صدى واسعا من طرف الباحثين، ونعني به، البحوث **المنغرافية** التي اتخذت من الجهات والاقاليم مجالا جغرافيا وتاريخيا لانجاز الدراسات والاعمال، وقد مكنت هذه الدراسات المحلية من اعطاء نفس جديد وفتح آفاق جديدة للبحث التاريخي. من ناحية اخرى فإن اصحاب هذا الاتجاه يرون ان كتابة تاريخ المغرب لا تتم إلا عن طريق تقسيم المغرب الى مناطق معينة وتركيز البحث على كل منطقة منطقة ثم في الاخير جمع هذه الابحاث والدراسات لبناء عمل تاريخي يشمل المغرب بأكمله. وبالفعل فقد حظيت اغلب الجهات والمدن المغربية وحتى البوادي بدراسة منغرافية رغم الاختلاف الكبير الحاصل من ناحية تحديد الزمن والمرحلة التاريخية المعالجة.

(نظرا لكثرة الدراسات من هذا النوع سوف نذكر فقط تلك المهتمة بالقرن الثامن والتاسع عشر

- العربي مزين : تافيلالت
- احمد البوزيدي : منطقة درعة
- محمد امزيان : فكيك
- احمد توفيق : اينولتان
- عبد الرحمان المودن : حوض ايناون

مصادر أوربية

من حسن حظ المغرب، ان كتابة تاريخه لم تقتصر على ابنائه فقط، بل ان الاجانب ايضا قد ساهموا بنصيب كبير في كتابة هذا التاريخ، وحين نقول الاجانب فإننا لانعني المسلمين المشارقة بل المسحيين الاوربيين، الذين كتبوا عن المغرب منذذ فترة مبكرة من العصور الحديثة. فبمثل ما اثار تاريخ المغرب اهتمام المؤرخين الغربيين المحدثين وحتى المعاصرين في السنوات الاخيرة، فقد اثار انتباه اسلافهم من المسيحيين الذين عاشوا بالمغرب واحتكوا بالمجتمع المغربي ودونوا ما شاهدته اعينهم، وانطبعت به نفسيتهم وحياتهم. فمنذ الاتصالات الاولى بين المغرب والدول الاوربية في القرن الخامس عشرومنذ ان اخذت العناطر المسيحية تستقر في المغرب، وتدخل في علاقات يومية وعميقة مع المغاربة بدأت هذه العناصر تهتم بكتابة تاريخ المغرب، وتخصيص العديد من المؤلفات لوصف بلاد المغرب وكتابة تاريخ المغاربة، والتعريف بالدول التي تعاقبت على الحكم بالمغرب (مارمول، ديبكودي طورس، لويس دوشينيي...) والعلاقات السياسية والاقتصادية التي كانت تجمع بين المغرب واوربا المسيحية، خاصة وان الغزو الايبري للسواحل المغربية قد ادخل هذه العلاقات في بوتقة جديدة واعطاها بعدا آخر مس جميع جوانب الحياة سواء لدى المغاربة او الاوربيين.

منذ القرن الخامس عشر والى غاية القرن العشرين لم تتوقف الكتابات والمؤلفات الاوربية التي تتحدث عن المغرب، حيث توجد الآن بمختلف المكتبات والخزانات ودور الارشيف الاوربية كمية ضخمة من الوثائق والمستندات والتقارير الاخبارية والمراسلات والمدونات والمذكرات الخاصة، وكلها متعلقة بالمغرب. وقد تنوعت الاسباب والحيثيات التي دفعت اصحاب هذه المؤلفات الى كتابتها، وذلك وفق الوضعية والصفة التي كان يتمتع بها كل كاتب، نجد الاسرى، والتجار، والقناصل، والسفراء، والرحالة، والمغامرين، كل هؤلاء كان يدونون ما يشاهدونه ويسمعونه عن المغرب والمغاربة لذا جاءت مؤلفاتهم غنية ودسمة من حيث المادة التاريخية المتعلقة بمختلف الجوانب الحضارية، وجعلها تغطي بالفعل النقص الكبير الذي يعتري المصادر المغربية خصوصا فيما يتعلق بعلاقات المغرب بالدول الاوربية المسيحية. واضافة الى ميزة الكثرة والتنوع تحمل هذه المصادر الاوربية ميزات وثائقية (سياسية وتجارية) كما تتميز بالدقة الزمنية، وتوفرها على منهج يختلف عن المصادر المغربية. فرغم السلبيات التي تحملها هذه المصادر الاوربية، يجب الرجوع اليها واستغلالها والاستفادة منها لسد عدد من الثغرات

التي يشكو منها التاريخ المغربي، شريطة اتخاذ مسلك الحذر والاحتراس والتحفظ من الاحكام الجزافية التي تطبعها، والتحامل الديني والحضاري الذي يطغى على اسلوب اصحابها.

لقد تم نشر العديد من هذه المؤلفات والتقارير الاوربية التي لها علاقة بتاريخ المغرب بمختلف اللغات الفرنسية، الانجليزية، الاسبانية، البرتغالية...) ولعل اهم عمل في هذا المجال السلسلة الضخمة من المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب Les sources inédites de l'histoire du Maroc التي يناهز عدد ما نشر منها ثلاثين مجلدا، وتغطي مرحلة اربعة قرون اي الى غاية 1718.

واضافة الى هذه السلسلة الضخمة، تزخر البيبليوغرافيا الاوربية المتعلقة بالمغرب العديد من المصادر، فرغم ان الوقت لايسمح باستعراضها وذكرها، نظرا لاقتصار العرض على عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله : فلا بد من الاشارة ان هذه المصادر تغطي اغلب فترات العصر الحديث (عصر الملوك السعديين : الغالب، المعتصم، المنصور، زيدان، محمد الشيخ الصغير، او عصر ملوك الدولة العلوية : الرشيد، اسماعيل، محمد بن عبد الله، وملوك القرن التاسع عشر). وقد تم نشر العديد من هذه المصادر الاوربية وترجمتها الى اللغة الفرنسية وغيرها، من طرف الكثير من المؤرخين والباحثين الغربيين المحدثين مثل H. De Castries R.Ricard, P. de Cenivale D.Lopes وغيرهم من الباحثين المشهورين ... Ch. Penz, J. Caiblé, Ch de la Veronne كما استغلوا ايضا هذه المصادر في دراساتهم المتعددة حول تاريخ المغرب والتي غطت الى حد كبير مجمل العلاقات المغربية الاوربية : السياسية، الدبلوماسية، التجارية، عمليات افتداء الاسرى البحثات والمؤسسات الدينية والمسيحية بالمغرب ، عمليات القرصنة والجهاد البحري ...

ومن بين المصادر الاوربية المعاصرة لسيدي محمد بن عبد الله، والتي كتبت في فترة قريبة من عهده نذكر المصادر الاتية :

- Castianos(E) : Déscription historicas y breve resensa de sus dinastias.

" تاريخ المغرب " لايمانويل كاستيانوس وعنوانه الاصلي « - وصف تاريخي للمغرب ونبذة موجزة عن دوله الحاكمة » ويوجد عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله في الباب السابع عشر من الطبعة الثالثة التي صدرت تحت عنوان تاريخ المغرب Historia de Marrucas بطنجة 1898.

- Chenier (L) :"Recherches Historiques sur les Maures et histoire de l'empire du Maroc Paris 1987.

وهو اشهر المؤلفات الاوربية التي كتبت حول المغرب وتوازي كتابات مارمول وليون الافريقي (الوزان) وقد وضعه في ثلاثة مجلدات تتناول كل مراحل تاريخ المغرب الى غاية القرن 18، وجاء عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله في الباب الخامس من الجزء الثالث

Journal du consulat général de France au Maroc

(1767-1785) Paris 1943 Ch Penz. اعتنى بنشره

- Berg (Marcus) "Description de l'esclavage barbaresque dans l'empire de Fes et au Maroc " Trad Fr / Jacques Macau 1974.

رغم ان صاحبه عاش في فترة الازمة التي اعقبت وفاة المولى اسماعيل فإنه يعطي اشارات عامة عن الوضعية بالمغرب، وتلميحات الى حكم سيدي محمد بن عبد الله بمراكش كخليفة لوالده.

- Diaz Ramon Laurido : " Marruecos en la segunda mitad del siglo de XVIII : Vida interna, politica; social y religiosa durante el Sultanado Sidi Muhammad Ben Abd - ALLAH 1757 -90)

اي « المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » وعنوانه الفرعي :« الحياة الداخلية السياسية والاجتماعية والدينية في ايام السلطان سيدي محمد بن عبد الله » نشر بمدريد 1978.

- Guodio (Attilio) : Histoire du naufrage et de la captirité du Monsieur De Brissan avec la déscription des deserts d'afrique depuis le Sénégale jusqu'a Maroc en 1785 " Paris 1984.

- Host georg : " Den Marocan ste kâiser Mohamed Ben Abdellah Historie " Kioben ban 1791

كان عاملا بشركة تجارية دنماركية، وصف الداخل المغربي في حدود سنة 1760.

- Lempière (W) : " Tour from Gibralter to Tangier; sallée; Mogador and thence over Mount Atlas to Maroco..." London 1791.

طبيب انجليزي دعاه السلطان إلى المغرب، وظهر من خلال عنوان كتابه انه زار العديد من المناطق المغرب ودون ما شاهده في كتابه هذا.

- Marville (Bidé de) : " Relation de l'affaire de larache " Amsterdam 1775

بجار فرنسي اسر بالمغرب

- Ordonnance du Roi concernant (ses sujets les consultats ; la residence; le commerce et la navigation des sujets du roi dans les échelles du levant et de la Barbarie 1781 Paris imp royale 1843.

هذه فقط بعض المصادر الاوربية التي اسعفنا الوقت لذكرها، فهذه تخص مباشرة عصر السلطان محمد بن عبد الله، بحيث عرفنا عن ذكر المصادر التي كتبت في الملوك السابقين واللاحقين لسيدي محمد بن عبد الله وهي من الكثرة بمكان، وقد استغلت في عصر الحماية الفرنسية هذه المصادر الاوربية من طرف الباحثين للقيام بدراساتهم المتعددة حول تاريخ المغرب، حيث تم نشرها وتوظيبها بدقة لاستغلالها احسن في الابحاث القيمة والمتنوعة التي أنجزوها، ومن بين الدراسات التي اهتمت بتاريخ المغرب الحديث ومن ثم عهد السلطان محمد بن عبد الله :

- Boutin Abel : Anciennes relations commerciales et diplomatiques de la France avec la Barbarie 1515 - 1830. Etude historique et juridique. Paris A Pedone 1902.
- Brumot louis : la mer dans les traditions et les industrie indigène à Rabat et Salé Paris A. Pedone.
- Caillé (J) : la ville de Rabat jusqu'au Protectorat français. Paris Vanoest 3 vol 1949
- Caillé (J) : Ambassadeurs envoyés particuliers et representants officieux de la France au Maroc Hesp T XXXVIII 3 et 4è Trimèstre 1951.
- Caillé (J) : La petite histoire du Maroc.
- Caillé (J) : Les accords internes du Sultan sidi Mohammed Ben Abdallah.
- Carvalho (V.B.G) : la domination portugaise au Maroc du 15 ou 18 siecle (1415-1769) Lisbonne 1942.

- Castries (H.De) : Le Danemark et le Maroc (1750 - 1767) Hesp T VI 4 Trim 1926.
- Cour. Anguste : l'Etablissement des dynastie des cherife au Maroc et leur rivalté avec les turcs de la regence d'Alger 1509 - 1830 Paris E. Leroux 1904.
- Grillan (Pierre) : La chambre de commerce de Marseille et le consultat de France au Maroc pendant la mission de L. Chenier (1767 - 1782) Hesp - Tam 1963. (fax 1 - 3).
- Goulveu (J) : La place de Mazagan sous la dominiation portugaise (1502 -1769) Paris E. leroux 1717.
- Hosotte (R.M) : Un négociant français à Mogador à la fin du XVIII Salé Hesp, T xliv 3 - 4 trim 1957.
- Koehler (R.P.H) : l'eglise chretienne du Maroc et la mission fransiscaine 1221 - 1790.
- Martin (A.G.P) : Quatre siecles d'histoire marocaine... au Sahara de 1504 - 1902 au Maroc de 1894 - 1912 d'après archives et documentation indigènes Paris E. leroux; 1923.
- Magali Mersy et Allan R. Meyers : L'apport des archives britaniques à la connaissance du Maroc au XVII et XVIII siècle Hesp - Tam fax unique 1973.
- Masson (P) : Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque (1560-1793) Paris 1903.
- Monlaî (J) : Les Etats Barbaresques " que sais je " N 1079 Paris 1964.
- Penz (Charles) : Personnalités et famille françaises d'Afrique du nord Maroc 1533 - 1814 Paris 1948.
- Penz (Charles) : les rois de France et le Maroc (2 serie) Casablanca 1947.
- Penz (Charles) : Chroniques du Vieux Maroc de 1789 à Lyauty Casablanca 1953
- Penz (Charles) : Journal du consultat général de France au Maroc (1767-1785) Casablanca 1943.
- Card (Mouard de) : les traités entre la France et le Maroc : Etude historique et juridique. Paris 1898.
- Le Rolaud (le Bel) : le Maroc dans les relation des voyageurs anglais aux XVI, XVII, et XVIII siè Hesp T IX 1929.

عزل الوزير الغزال [1]
بين الإسطورة والتاريخ

محمد بن عزوز حكيم
أستاذ باحث

سبق لي ان قلت في عدة مناسبات انه قد ولى، العهد الذي كان فيه كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى » للناصري بمثابة « كتاب مقدس » في موضوع تاريخ المغرب، وذلك لانه اذا كان للأجيال السابقة الحق في اعتباره كذلك لعدم توفرها على كتاب جامع لتاريخ المغرب، فالامر يختلف بالنسبة لجيلنا هذا الذي لم يعد يخفى عليه ان كتاب « الاستقصا » اصبح متجاوز لكثرة الاخطاء والتناقضات التي توجد به، بل فيه كثير من الاساطير والروايات الشفوية التي لا اساس لها من الصحة ويجب حذفها.

رأيي هذا اغضب البعض واستنكره البعض الاخر، وهو نفس رد الفعل الذي لقيته عندما قلت انه يجب ان نعيد النظر في كتاب «تاريخ تطوان» للفقيه محمد داود.

وعلى كل حال فبالنسبة الى كتاب « الاستقصا »، قد احببت ان تكون مداخلتي في هذه الندوة خاصة بإحدى الاساطير الواردة فيه والتي نقلها عنه كثير من المؤرخين والباحثين والكتاب الذين اعتبروها حقيقة تاريخية، التاريخ بريئ منها.

وكان من بين المؤرخين الذين اعتبروا اسطورة الناصرى حقيقة تاريخية المؤرخ الفرنسي ليفي بروفينصال [2] والكاتب بودين [3] والباحث كايي [4].

يقول الناصري [5] :

(1) حول الوزير أحمد المهدي الغزال الاندلسي انظر الكتاني فس سلوة الأنفاس ج 1. ص 331 والناصري في الاستقصا الجزء الثامن و Broklmann Ar.Litt ج 2 ص 465 و LEVI - Provençal المرجع المذكور ص 327 – 330.

(2) Levi - Provençal المرجع المذكور صفحة 329.

(3) M. Bodin في دراسته

Une redemption des captifs musulmans en Espagne au XVIIe siècle in Archives Bereberes 1918. Paris 145 صفحة.

(4) J.Caillé

(5) الاستقصا ، الدار البيضاء ج 8 ص 40.

« لما كانت اواخر سنة أربع وثمانين ومائة وألف، غزا السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية وفيها نصارى الاصبنيول، فأحاطت عساكره بها ونصب عليها المدافع والمهاريس، وشرع في رميها أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين ومائة وألف، واستمر على ذلك أياما فكتب اليه طاغية الاصبنيول يعاتبه على حصارها ويذكر المهادنة والصلح الذي انعقد بينه وبينه ويقول له : هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لازال تحت يدي، فأجابه السلطان رحمه الله بأن قال: انما عقدت معك المهادنة في البحر، فأما المدن التي في ايالتنا فلا مهادنة فيها ولو كانت فيها مهادنة لخرجتم الينا ودخلنا اليكم، فكيف ادعاء المهادنة مع هذه المداهنة فبعث اليه الطاغية عقد الصلح بعينه فاذا هو عام في البر والبحر فكف عن حربها «وأفرج عنها ».

وفيما يلي ملحوظاتنا على كلام الناصرى :

أولا : لاصحة لما قاله بان حصار مليلية بدأ فاتح محرم 1185 الذي يوافق يوم 16 ابريل 1771 [6] وذلك لان الوثائق التي نتوفر عليها تثبت ان الشروع في الحصار المذكور للمدينة المحتلة من طرف الاسبان [7] وجزيرة النكور [8] وبادس [9] كان يوم 5 شوال 1188 موافق 9 ديسمبر 1774 واستمر الى 13 محرم 1189 موافق 16 مارس 1775 [10].

ثانيا:قول الناصري بان طاغية الاسبنيول (وهو يعني الملك كارلوس الثالث)[11] كتب يعاتب السلطان سيدي محمد بن عبد الله على حصاره لمليلية. ويذكره بالمهادنة والصلح الذي انعقد بينهما قائلا له : « هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لازال تحت يدي » فهذا غير صحيح وهو كلام لا يمكن ان يقولها إلا من كان يجهل عدة اشياء تتعلق بالموضوع ونذكر منها :

(6) لقد وقع في نفس الخطأ كل من الزياني في البستان. صفحة 123 و Levi-Provençal المرجع المذكور ص 328.

(7) كانت اسبانيا قد احتلتها يوم 17 سبتمبر 1497

(8) كانت اسبانيا قد احتلتها للمرة الثانية يوم 6 سبتمبر 1564

(9) كانت اسبانيا قد احتلتها يوم 28 غشت 1673

(10) Galindo Vera في كتابه :

Memoria historica de las posesiones hispano Africanas 319 صفحة 1884 مدريد

Guerra de la Marruecos. 1774 - 1775 في دراسته Alcocer Valladolid 1924 سنة

G. Morales في كتابه : Datos para la historia de Melilla مليلية ص 111 – 120

P. Castellanos في كتابه Historia de Marruecos: مد ريد 1946 ج 1 ص 539

Rodriguez Casado في كتابه : Politica marroqui de Carlos III مدريد 1946 فصل 7

P. Lourido في كتابه : Marruecos yel mundo exterior مدريد 1989 صفحة 205 – 235

(11) تولى الملك باسبانيا من سنة 1759 الى سنة 1788

1) ان اول معاهدة صلح ابرمت بين المغرب واسبانيا كانت في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله وقد وقع نصها الاسباني بمراكش يوم فاتح محرم 1181 موافق 28 ماي 1767 [12] السفير خورفي خوان [13] واما النص العربي فلم يوقعه الغزال كما زعم الناصري بل انه يحمل طابع السلطان [14].

2) وبعد مرور سبع سنوات كتب السلطان الى الملك الاسباني رسالة بتاريخ 15 رجب 1188 موافق 21 سبتمبر 1774 [15] يقول له فيها [16]

« بسم الله الرحمن الرحيم »

ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم.

(الطابع الملكي وبداخله : محمد بن عبد الله).

إلى ملك اسبانيا، السلام على من اتبع الهدى وبعد، لتعلموا اننا معكم في السلم والمهادنة بمقتضى المعاهدة المبرمة بيننا وبينكم الا ان المسلمين في ايالتنا هذه وايالة الجزائر قد اتفقوا على عدم السماح بوجود النصارى في اي حصن من الحصون الواقعة بشواطئ ارض المسلمين الممتدة من سبتة الى وهران، وانهم مصممون العزم على استرجاعها من يدهم، ومن أجل ذلك طلبوا منا ان نهتم بهذا الامر غاية الاهتمام حيث قالوا لنا : ليس لك مبرر في ان تبقى مكتوف الايدي واراضي المسلمين بيد النصارى لان الله منحك القوة والوسائل الحربية التي لاتتوفر عند غيرك.

وامام هذا الكلام لم نجد بدا من قبول طلبهم والعمل على تحقيق رغبتهم، ومن اجل ذلك اردنا الاهتمام بهذا الامر.

وسواء شارك الجزائريون في الجهاد بجانبنا كما طلبوه منا ام لم يشاركوا فاننا سوف نحارب من اجل استرداد تلك الحصون الى ان يفصل الله بيننا وبينهم واذا اقتضى الحال سوف نحارب الجزائريين انفسهم اذا هم تراجعوا في تعهداتهم.

(12) I. Cagigas في كتابه : Tratados y convenios referentes a Marruecos مدريد 1952 صفحة 9

(13) Jorge Juan

(14) انظر صورة الصفحة الاولى من النص العربي للمعاهدة وعليها طابع السلطان سيدي محمد بن عبد الله .

(15) تحمل الترجمة الاسبانية لهذه الرسالة تاريخ 19 سبتمبر وهو خطا وقع فيه عبد الهادي التازي في التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المحمدية 1988 جزء 9 ص 120 (انظر P. Lourido المرجع المذكور ص. 228 تعليق 191)

(16) يوجد اصل هذه الرسالة بريافل Archivo General de Siramca ملف رقم 4762 بقسم الدولة.

وهذا الامر لا يتنافى مع الصلح القائم بيننا وبينكم حيث إن تجاركم وسفنكم سيبقون كما كانوا من قبل يجلبون المأكولات وغيرها من جميع موانئنا حسب هواهم طبقا للعادة المتبعة في ذلك وحسب ماهو متفق عليه في معاهدة الصلح الجاري بها العمل في البحر بين قراصيننا وقراصينكم.

وسوف لا يلحق سفنكم اي ضرر كما ان رعاياكم يمكنهم ممارسة التجارة في جميع انحاء مملكتنا وسيتمتعون في تجولاتهم برا وبحرا بالضمانات الكافية حيث لا يمكن لاحد ان يتعرض لهم لاننا ابرمنا الصلح معكم ولا زلنا فيه وسوف لا ننقضه اذا لم تنقضوه انتم من طرفكم، وفي هذا الحال سوف نمنحكم أجل اربعة اشهر لكي يصل الخبر الى علم الجميع.

واما ما اخبرناكم به بخصوص توجهنا الى الاماكن المذكورة فذالك هو من واجبنا وليس لدينا ما يبرر التخلي عنه واما ما يخص السلم في البحر فسوف نفعل ما نرتضيه.

- والآن نخبركم بحقيقة هذا الامر لتكونوا منه على بال وتفعلوا ما يوافقكم .

وقد امضينا هذا الكتاب بخط يدنا لتتحققوا من صحة ما جاء فيه، والسلام

في 15 رجب عام 1188

وقد علق الاستاذ عبد الهادي التازي على هذه الرسالة بقوله [17] :

« ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قرر الكتابة رسميا الى ملك اسبانيا وكأنه يفسخ ما كان ابرمه سفيره مع خورخي خوان ».

وهذا غير صحيح لاننا رأينا كيف ان السلطان لم يفسخ معاهدة الصلح بل انه تشبث بها في الرسالة المذكورة، وسوف نرى فيما يلي ان الغزال اقتصر دوره في ابرام المعاهدة على ان كان مجرد وسيطة بين السفير الاسباني والسلطان.

3) وكان جواب الملك كارلوس الثالث على رسالة السلطان انه اشهر الحرب على المغرب بمرسوم اصدره يوم 23 اكتوبر 1774 موافق 17 شعبان 1188 [18].

4) وما ان اطلع سيدي محمد بن عبد الله على اعلان الحرب حتى اصدر بامر منه وكيله المكلف بالشؤون الخارجية اليهودي ساموبل سونبيل [19] بيانا باللغة الفرنسية موجه الى قناصلة الدول الاوربية المعتمدين بالمغرب بتاريخ 17 رمضان 1188 موافق 22 نوفمبر 1774، وقد جاء فيه [20] :

« ان الحرب التي نشبت بيننا وبين ملك اسبانيا ليس الغرض منها الحصول على اية منفعة من المنافع التي تكون عادة السبب في الحروب التي تقع بين الدول المسيحية ... بل ان الغرض منها هو الدفاع عن شريعتنا وعلى ملك اسبانيا ان يدافع عن شريعته.

« وبالرغم من ان ملك اسبانيا اراد ان تكون الحرب في البحر، فنحن قد اصدرنا اوامرنا الى رؤساء سفننا بعدم التعرض للسفن الاسبانية والحيلولة دون تمكنهم من الحصول على كل ما يحتاجون اليه من ماكولات ومعدات بجميع موانئ ايالتنا، هذه الموانئ التي تظل مفتوحة في وجه جميع السفن الاسبانية التي يمكنها ان تدخل الى تلك الموانئ وتخرج منها في امن وأمان.

(17) عبد الهادي التازني المرجع المذكور جزء 9 ص 119.

(18) يوجد أصل هذا المرسوم بريانل Archivo Historico Nacional ملف رقم 4309 بقسم الدولة وقد نشره Höst في Den Marockanske kaiser صفحة 143

(19) Samuel Sumbel

(20) يوجد اصل هذه البيان بريانل Archivo Historico Nacional ملف رقم 4312 بقسم الدولة وقد نشره Rodriguez Casado المرجع المذكور ص : 413، وقد اخطأ عبد الهادي التازي عندما اعتبر هذا البيان رسالة من السلطان الى الملك الاسباني ـ المرجع المذكور). ج 9 ص 120)

« غير انه فيما يخص الجيوب الواقعة بشواطئ ايالتنا والتي يزعم ملك اسبانيا انها من ممتلكاته فهي في الحقيقة ليست لنا ولا له، بل انها لله الواحد القهار الذي يملكها لمن يشاء ».

5) واما حصار مليلية وجزيرتي النكور وبادس فقد سبق ان قلنا انه اقيم من يوم 5 شوال 1188 موافق 9 ديسمبر 1774 الى يوم 13 محرم 1189 موافق 16 مارس 1775، وقد اشرف عليه السلطان سيدي محمد بنفسه [21].

ثالثا : وقول الناصري بان الغزال كان وسيطة بين الملك الاسباني والعاهل المغربي في ابرام معاهدة الصلح، فهذا غير صحيح لان الغزال عندما كان سفيرا بمدريد من يوم 19 ذي الحجة 1179 موافق 29 ماي 1766 إلي يوم 6 شعبان 1180 موافق 7 يناير 1767[22] لم يوقع هناك على اية اتفاقية، بل انه عاد إلى المغرب مصحوبا بالسفير الاسباني خورخي خوان [23] وبمراكش لم يقم الغزال الا بدور الوساطة بين السفير الاسباني والسلطان في المفاوضات التي ادت الى توقيع المعاهدة التي سبق ان قلنا انها لم تحمل توقيع الغزال بل تحمل توقيع خورخي خوان والطابع السلطاني [24].

رابعا : وقول الناصري بان الملك الاسباني بعث الى سيدي محمد بن عبد الله بعقد الصلح بعينه، فهذا دليل على ان الناصري لم يكن يعلم ان المعاهدة قد حررت في نسختين اصليتين احداهما باللغة العربية والاخرى باللغة الاسبانية، فلم يكن السلطان يحتاج الى ان يبعث اليه العاهل الاسباني النسخة التي بيده ليعلم ان المعاهدة كانت على ان الصلح كان عاما في البر وفي البحر.

خامسا : وقول الناصري بان السلطان سيدي محمد بمجرد ما اطلع على نص المعاهدة رفع الحصار على مليلية [25] فهذا خطأ لان رفع الحصار على مليلية وجزيرتي النكور وبادس يرجع سببه الى عدم مشاركة الاسطول المغربي في الحصار والى عدم وفاء اتراك الجزائر بوعدهم للسلطان بانهم سيقومون بمحاصرة مدينة وهران المحتلة هي الاخرى من

---

(21) انظر كتابي : حصار سيدي محمد بن عبد الله لمدينة مليلية الرباط 1966.

(22) ألف الغزال عن سفارته هذه رحلة سماها « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » وقد نشر M. Bodin في المرجع المذكور ملخصها كما نشر اصلها بتطوان سنة 1941.

(23) جاء الى المغرب مصحوبا بالسفير المغربي احمد الغزال في شهر فبراير 1767.

(24) انظر الصورة

(25) جاء بنفس هذه الرواية كل من الزياني في البستان صفحة 123 وابن زيدان في الاتحاف ج 3، ص 168 وLevi-Provençal في المرجع المذكور ص 328.

وطرف الاسبان [26]، الشئ الذي مكن الاسطول الاسباني من مساعدة الجيوب المغربية المحاصرة بالامدادات اللازمة لمقاومة الحصار، فما كان على سيدي محمد بن عبد الله الا ان يرفع الحصار على مليلية والجزيرتين المذكورتين [27].

وهنا نعود الى قضية الاسطورة التي جاء بها الناصري حول سبب عزل الغزال من الوزارة حيث كتب يقول [28] :

« وكان ذلك سبب تاخير الغزال عن كتابته وبقى عاطلا الى ان كف بصره ومات رحمه الله [29].

« وسمعت من بعض فقهاء العصر وقد جرت المذاكرة في كيفية هذا الصلح فقال : ان الغزال رحمه الله لما أعطى خط يده بالصلح والمهأدنة، كتب في الصك ما صورته : وان المهادنة بيننا وبينكم بحرا لا برا، فلما حاز النصارى خط يده كشطوا لام الالف وجعلوا مكانها واوا فصار الكلام هكذا بحرا وبرا، وان السلطان رحمه الله انما أخره لاختصاره الكلام واجحافه به حتى سهل على النصارى تحريفه وكان من حقه أن يأتي بعبارة مطولة مفصلة حتى لا يمكن تحريفها، فيقول : مثلا والمهادنة بيننا وبينكم انما هي في البحر، واما البر فلا مهادنة بيننا وبينكم فيه، او نحو هذا من الكلام فيصعب تحريفه ».

اننا نجهل السبب الحقيقي لعزل الغزال من الوزارة، ولكننا متأكدون من انه لم يكن كما ادعاه الناصري اعتمادا على رواية بعض فقهاء عصره، وذلك لسببين :

السبب الاول : لان الاصل العربي للمعاهدة الذي نتوفر عليه ينص فصله الاولى على ما يلي[30]:

الشرط الأول

أن يكون هذا الصلح موفي الشروط المشترطة في المهادنة

من الأمن والأمان برا وبحرا والصلح على التأبيد

(26) كان الاسبان احتلوا مدينة وهران سنة 1509.

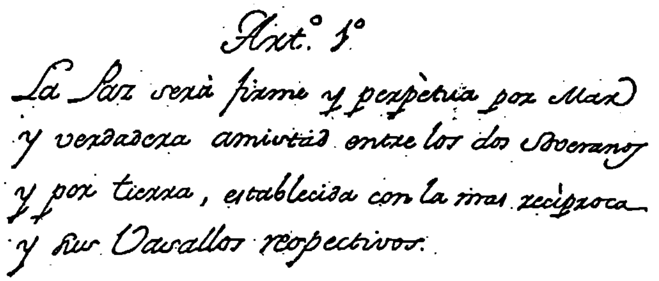
(27) والذي عند الامير مولى عبد السلام ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله والذي رافقه اثناء الحصار المضروب على مليلية ان رفع الحصار كان بطلب من ملك اسبانيا مقابل دفعه مالا كثيرا واطلاق سراح لعدد كبير من الاسرى المسلمين باسبانيا (مخطوط درة السلوك رقم 1841 بالخزانة الحسنية بالرباط صفحة 229).

(28) الاستقصا ج 8 ص 40

(29) توفي الغزال في شهر يوليوز من سنة 1777 وهذا ما جاء به Levi- Provençal الذي يقول ان وفاة الوزير كانت بفاس حيث (دفن بزاوية سيدي عبد القادر الفاسي (المرجع المذكور ص. 324) في حين يؤكد عبد الهادي التازي (ج 9 ص 119) ان قبره يوجد بشمس (ليكسوس) بالقرب من العرائش.

(30) سبق لي ان نشرته بكتابي " لماذا نطالب باسترجاع وادي الذهب ؟

وليس في النص الذي بين ايدينا التكشيط المزعوم، بالاضافة الى انه يتفق تماما مع النص الاسباني لنفس الفصل حيث نجد فيه مايلي :


Art.° 1°
La Paz será firme y perpetua por Mar
y verdadera amistad entre los dos Soberanos
y por tierra, establecida con la mas reciproca
y sus Vasallos respectivos.

السبب الثاني : لان دور الغزال في ابرام المعاهدة المذكورة كان دور الوساطة بين السلطان والسفير الاسباني، واما الموقع عليها من طرف المغرب فهو سيدي محمد بن عبد الله بنفسه حيث وضع طابعه الكبير على النص العربي، الشئ الذي يدل على ان السلطان كان على علم تام بجميع بنودها ومن ثم فانه كان يعرف تماما ان الصلح المتفق عليه كان يشمل البر والبحر معا، وسوف نبين فيما يلي مفهوم الصلح في البر بالنسبة للسلطان.

مما سبق يتضح لنا انه لم يوجد في كلام الناصري من البداية الى النهاية سوى جملة واحدة صحيحة وهي قول السلطان وهو يخاطب العاهل الاسباني قائلا له حسب ما يدعيه الناصري ما يلي : « إنما عقدت معك المعاهدة في البحر، فأما المدن التي في ايالتنا فلا مهادنة فيها ».

اجل، ان الصلح في البر بالنسبة لسيدي محمد بن عبد الله كان يعني عدم الاعتداء على التراب الاسباني من طرف المغرب وعدم الاعتداء على التراب المغربي من طرف اسبانيا، واما الجيوب المحتلة من طرف اسبانيا فأنها مادامت واقعة في التراب المغربي فان العمل على استرجاعها بالقوة ليس فيه اعتداء على التراب الاسباني ولا يتنافي مع منطق العصر، منطق استعمال القوة عند المقدرة، اما فيما يخص الصلح في البحر فقد رأينا كيف ان السلطان عندما قرر محاصرة مليلية وجزيرتي النكور وبادس كتب يقول للملك الاسباني يوم 15 رجب 1188 موافق 21 سبتمبر 1774 : « وهذا الامر لا يتنافى مع الصلح القائم بيننا وبينكم حيث ان تجاركم وسفنكم سيبقون كما كانوا من قبل يجلبون المأكولات وغيرها من جميع موانئنا حسب هواهم طبقا للعادة المتبعة في ذلك وحسب ما هو متفق عليه في معاهدة الصلح الجاري بها العمل في البحر بين قراصيننا وقراصينكم ... حيث لا يمكن لأحد ان يتعرض لهم لأننا ابرمنا الصلح معكم ولا زلنا فيه وسوف لا ننقضه اذا لم تنقضوه انتم من طرفكم ».

وقد رأينا كذلك انه جاء في البيان الذي اصدره الوكيل السلطاني في الشؤون الخارجية يوم 17 رمضان 1188 موافق 22 نوفمبر 1774 مايلي : « وبالرغم من ان ملك اسبانيا اراد ان تكون الحرب في البحر، فنحن قد اصدرنا اوامرنا الى رؤساء سفننا بعدم التعرض للسفن الاسبانية والحيلولة دون تمكنهم من الحصول على كل مايحتاجون اليه من مأكولات ومعدات بجميع موانئ ايالتنا... ».

كل هذا يؤكد ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان على علم تام بان المعاهدة كانت تنص على ان الصلح بينه وبين كارلوس الثالث يشمل البر والبحر معا، غير انه كان يرى ان مهاجمته لمدينة مليلية وجزيرتي النكور وبادس لا يتنافى مع نص وروح المعاهدة المذكورة لان الامر ليس فيه اعتداء على التراب الاسباني، وقد رأينا كيف ان السلطان قال للعاهل الاسباني في رسالته ليوم 15 رجب 1188 موافق 21 سبتمبر 1774 مايلي : « واما ما اخبرناكم به بخصوص توجهنا الى الأماكن المذكورة فذلك هو من واجبنا وليس لدينا ما يبرر التخلي عنه ».

كما يؤكد ان قضية تكشيط لأم الالف وجعل مكانها واو ماهي الا اسطورة لا صحة لها ويجب العمل على حذفها من كتب تاريخنا، لانها تضر بسمعة الوزير الغزال الذي لم يرتكب اي خطأ عند تحريره لنص المعاهدة، ولذلك فانه بالنسبة للوثائق يمكننا ان نقول ان عزله من الوزارة له سبب آخر، ربما هو الذي اشارت اليه ثلاث رسائل وجهها القنصل الفرنسي العام بسلا الى حكومته يوم 28 ماي 1775 موافق 27 ربيع الاول 1189 ويوم 18 سبتمبر 1775 موافق 22 رجب 1189 ويوم 10يناير 1776 موافق 18 ذي القعدة 1189 [34] حيث جاء ان السلطان عندما فشل في محاولته من اجل استرجاع الجيوب المحاصرة اراد ان يخفي على شعبه حقيقة فشله فأشاع بين الناس بأنه كان يظن ان الصلح المتفق عليه مع اسبانيا لم يكن يشمل الجيوب المغربية المحتلة من طرفها وبانه عندما اتضح له عكس ذلك اضطر الى رفع الحصار وعزل الغزال باعتباره المسؤول عن ما حصل.

---

(31) انظر تعليق 7-8-9

(32) انظر تعليق 30

(33) انظر نفس التعليق

(34) P. Grillon في : La correspondance de L. Chenier, in Revue d'histoire moderne et contemporaire 25 - 5 ص 1958 سنة 40 عدد

عهد سيدي محمد بن عبد الله
من خلال الأدبيات الإسبانية المعاصرة

د. عبد العزيز التمسماني خلوق
كلية الآداب الرباط

أود في هذه المساهمة أن أستعرض الخطوط العريضة لتطور الدراسات التاريخية الاسبانية المتعلقة بعهد سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) والمنشورة منذ فجر القرن الحالي إلى يومنا. ولبلورة هذا الإنتاج التاريخي، والتعريف بأهم المراحل التي مر منها، يمكننا أن نقسمه كالتالي :

- أولا : الكتابات التي ظهرت في عهد الحماية والمرحلة الممهدة لها.
- ثانيا : الأعمال التي أنجزها المؤرخون الإسبانيون في عهد ما بعد الاستقلال.

- أولا : عهد الحماية والمرحلة الممهدة لها :

بالنسبة للمرحلة الممهدة لعهد الحماية، فقد ركزت الكتابة التاريخية الاسبانية على الوقائع والمشاحنات بين البلدين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ونشاط رجال الإرساليات الكاثوليكية الفرنسيسكانية الذين اضطلعوا بدور بالغ الاهمية في سياسة حكومتهم، وشاركوا مشاركة فعالة في اللعبة السياسية ذات المطامع التوسعية والاقتصادية وبطبيعة الحال، فإن خطاب هذه الكتابة لم يخل من جوانب الضعف حيث إنه اتسم بالتعصب المشين لمسح مقومات الشخصية المغربية وطمس معالمها، ومن الأسماء الاسبانية اللامعة التي تشبعت باديولوجية عصرها الاستعمارية الراهب Pablo Manuel Castellanos الذي وصل إلى المغرب سنة 1868 وانكب على دراسة ماضيه السياسي والحضاري، فنشر عام 1878 "« Historia de Marruecos » (تاريخ المغرب)، وضمن فصله السابع عشر جوانب من الحياة المغربية في عهد سيدي محمد بن عبد الله، متحدثا عن مواجهته الاضطرابات الداخلية، وإصلاحاته العسكرية والإدارية، وحصاره المواقع المحتلة والثغور المغتصبة.

من جهة أخرى، تزايد اهتمام المثقفين الإسبانيين، في هذه المرحلة بالذات، بالعهد

المحمدي، فانعكس في إصدار دراسات متنوعة في حجمها ومستواها، نشرت على شكل مقالات في الصحافة الإسبانية، تمحورت جل مواضيعها حول السفارات المغربية الى مدريد والبعثات الإسبانية الى المغرب في عهدي سيدي محمد بن عبد الله وملك إسبانيا، كارلوس الثالث.

هكذا فإن Vizconde de Ponton تناول، في العدد الثالث، من Revista de Espanà، الصادرة عام 1869، السفارة التي وفدها كارلوس الثالث في مهمة رسمية لدى العاهل المغربي برئاسة Jorge Juan سنة 1766، ونجد مقالة لـ F. Valladar نشرها ، في العدد 132، من نفس المجلة، الصادرة عام 1891. اهتم فيها بسفارة أحمد بن المهدي الغزال إلى اسبانيا في ربيع 1766، باعتباره مفاوضا في افتداء الأسرى المسلمين.

من جهة أخرى، استأثر موضوع حصار سيدي محمد بن عبد الله لمليلية سنتي 1774- 1775 باهتمام بعض الكتاب الإسبانيين، منذ مطلع القرن العشريني، فقدم العسكري Gabriel de Morales ، على سبيل المثال، في كتابه الضخم حول تاريخ هذه المدينة السليبة، عرضا مفصلا عن ظروف هذا الحصار، مبرزا المواقف المتصلبة لإسبانيا التي كانت تغالي في التعنت، وتلجأ إلى المناورات الدبلوماسية.(1)

بالنسبة لعهد الحماية، ظهرت طائفة من المؤرخين الإسبانيين الذين خطوا بالدراسات المحمدية خطوات جديدة على جانب كبير من الأهمية، تمثلت في الأعمال التاريخية التي قامت على محورين أساسيين :

- علاقات سيدي محمد بن عبد الله الودية بكارلوس الثالث.
- النشاط الدبلوماسي للبعثة الكاثوليكية الفرنسيسكانية في عهد السلطان محمد بن عبد الله.

بخصوص المحور الاول، ظهرت، منذ فترة الأربعينات من هذا القرن، دراسات تناولت معاهدات السلم والصداقة، واتفاقيات التعاون والتجارة التي أقامها سيدي محمد بن عبد الله مع اسبانيا. اضطلع، بهذه البحوث، الرعيل الأول من المؤرخين الإسبانيين الذين استندوا إلى مادة وثائقية تاريخية استخرجوها من الأرشيف الدبلوماسي. ومن رواد هذه الحركة Vicente Rodriguez Casado الذي استنطق المراسلات الرسمية، والتقارير، المحفوظة بالأرشيف التاريخي الوطني بمدريد Archivo Historico Nacional de Madrid ، راصدا السياسة المغربية لملك إسبانيا، كارلوس الثالث، ملاحظا أن سيدي

(1) Ramon Lourido Diaz, " Marruecos y el Mundo Exterior en la segunda mitad del Siglo XVIII", Instituto de Cooperaciàn con et Mundo Arabe, Madrid, 1989, P. 19.

محمد بن عبد الله ربط علاقات طيبة مع البلاط الاسباني، مشيرا الى أنها اتسمت، مرارا، بطابع المرونة، وتميزت باللباقة والحساسية الدبلوماسيتين. وفي بداية العقد الخمسيني، تعرض Vicente Palacio Atard للظروف التاريخية التي أحاطت بالمحادثات الخاصة بمعاهدة السلم والصداقة المبرمة بين البلدين عام 1767.

فيما يتعلق بالمحور الثاني المتعلق بالنشاط الدبلوماسي للرهبان الفرنسيسكانيين بالمغرب، في العهد المحمدي، فقد ساهم المؤرخون الإسبانيون بنصيب لا يستهان به في هذا المجال، وهكذا، نشرت الدورية الاسبانية Mauritania، ذات الاتجاه المسيحي، الصادرة منذ 1928 بطنجة، مجموعة من المقالات سلطت الأضواء على شخصيات دينية إسبانية، أجرت محادثات مع المسؤولين المغاربة، نجم عنها إبرام معاهدتي1767 و1780. وفي هذا السياق، حظيت سفارة الراهب Jose Boltas وسفارة محمد بن عثمان المكناسي باهتمام بعض المؤرخين أذكر منهم، على سبيل المثال Buenaventura [2] Diaz, Mariano Arribas Palau Jose Maria Lopez

- ثانيا : عهد ما بعد استقلال المغرب :

شهدت الدراسات التاريخية الإسبانية حول عهد سيدي محمد بن عبد الله بعد استقلال المغرب تطورا ملحوظا. كان من أبرز مظاهره الاهتمام بنشر المستندات والمراسلات الرسمية الاسبانية، وإظهارها الى الوجود، والانتهال منها وتوظيفها.

لقد اضطلع بهذه الأعمال جيل من المؤرخين يمثلون، في الحقيقة، امتدادا للجيل السابق، بيد أنهم امتازوا بتعاملهم مع الجوانب المشرقة من تاريخ المغرب في هذا العهد، وأدركوا أهمية الإعتماد على عيون الأدب المخزني كمادة تاريخية أولية تستقى منها المعلومات حيث اعتبروها اللبنة الاولى لكتابة تاريخ البلدين المنزه عن التشويه. وهكذا، نشر هؤلاء الدارسون بحوثهم المطولة التي تميزت بعمقها وضخامة مادتها الوثائقية بالمجلات الاسبانية والمغربية المتخصصة، ك :

- Awraq (Madrid)
- Cuadernos de la Biblioteca espanola de Tetuan
- Cuadernos de Historia del Islam (Granada)
- Hespéris (Rabat)
- Hispania (Madrid)

---

(2) Idem. p 20 - 21

- Hespéris - Tamuda (Rabat)
- Revista de Historia Militar (Madrid)
- Tamuda (Tetuàn).

ومن الأسماء اللامعة التي عرفت بعطاءاتها ومساهماتها الجادة والرصينة، أخص بالذكر منها :

- Tomàs Garcia Figueras
- David Torra Ferrer
- Mariana Arribas Palau
- Ramon Lourido Diaz

وفي أحدث دراسة، أنجزها المؤرخ الإسباني Juan Bautista Vilar ، وقد نشرها، مؤخرا، معهد التعاون مع العالم العربي بمدريد، وهي بعنوان : " Cartes, plans et fortifications hispaniques de la Tunisie (XVIe - XIXes)"(3).

أشار - في صفحة 217، الهامش 88 - إلى أن هذين الباحثين المعاصرين الأخيرين يعتبران من أكبر الدارسين المتخصصين في العلاقات الإسبانية المغربية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وجعل أعمالهما العديدة إضافة مهمة في مجال البحث الدبلوماسي في عهد سيدي محمد بن عبد الله، ومرجعا أساسيا لرصد قضاياه السياسية والفكرية والدينية، وشؤونه المالية والعسكرية والاقتصادية.

وفي هذا السياق، أورد البروفسور Ramon Lourido Diaz في مجلده الضخم «المغرب والعالم الخارجي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر » ببليوغرافيا وافية لكل ما كتب عن عهد سيدي محمد الثالث بشتى اللغات، فناقش بعمق، مضامين الدراسات التاريخية القديمة والحديثة، المتعلق بموضوعه، مثيرا الانتباه إلى الأخطاء التي وقعت فيها، مصححا هفواتها ومفاهيمها، مشيرا إلى أنه لا يمكن فهم علاقات سيدي محمد بن عبد الله بالعالم المسيحي، إلا بدراسة التراث والأرشيف المخزنيين، لذلك لابد للمؤرخ الأجنبي أن يكون - في نظره متمكنا من ناصية اللغة العربية، فهو يعتبرها أداة رئيسية لتحليل واقع المغرب العتيق وخصوصياته التاريخية. وقد سبق لي أن أجريت معه حوارا، باللغة الاسبانية، نشرته في العددين 24/23 من مجلة « دار النيابة »، تحدث فيه بإسهاب عن سياسة سيدي محمد بن عبد الله الاصلاحية، وتناول فيه كذلك، السياسة المغربية لاوربا، فأبرز مدى التقلبات التي كانت تعتري مواقف دولها،

(3) Instituto de Cooperacion can el Mundo Arabe, Madrid 1991, P. 217, nota 88.

وحلل مظاهر التعاون الاقتصادي المغربي الاوربي، وعلاقات المغرب التجارية في الفترة الواقعة بين 1775 و 1790، واهتم كذلك بجذور الدبلوماسية الاجنبية ببلادنا في عهد سيدي محمد بن عبد الله. أخيرا، تناول موضوع الكنيسة بالمغرب من القرن 12 إلى القرن 19، في عمل جماعي، صدر، حديثا، بباريس بعنوان :

" Histoire des Chrétiens d'Afrique du Nord" (4)

توقف فيه عند الجهود الحميدة التي بذلها سيدي محمد بن عبد الله من أجل افتداء الأسرى.

(4) Edition desclée. Paris. 1991. PP. 85. 114.

نصيحة الأمة وإرادة الوحدة
محمد الثالث واختياراته المذهبية (*)

د. سعيد بنسعيد العلوي
كلية الآداب بالرباط

يعلم الدارسون أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، قد اصدر جملة من الظهائر تتضمن خطة إصلاحية لميادين كل من القضاء والفتيا والتدريس في جامعة القرويين، ويعلمون أنه قد كتب " نصيحة إلى الامة " ضمنها إنتقادات لاذعة لبعض مظاهر القصور في الاخذ بمقتضيات الدين الاسلامي في الحياة الدينية والاجتماعية وخط لجملة إصلاحات يتعين الاخذ بها في مقابل ذلك [1]. ومتى أضفنا إلى ما نجده في " النصيحة " من إنتقادات إجتماعية، وما نلمسه في الظهائر مخطوطة " مواهب المنان فيما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان " [2] وما نقرؤه، من جهة ثانية، في كتابه " الفتوحات الالهية في أحاديث خير البرية " [3] فنحن ندرك أن الامر يتعلق عند السلطان محمد الثالث بخطة شاملة في الاصلاح واضحة المعالم محددة الاركان. ثم إننا متى نظرنا، فضلا عن ذلك، في الجواب الذي طلبه السلطان من بعض كبار العلماء وتأملنا، على وجه أخص، رده [4]على ما بدا من أحد كبار أولئك العلماء من تحفظ وإعتراض والكيفية التي أبان بها عن رأيه مرة أخرى وشرحه شرحا ضافيا تأكيديا فنحن نزداد تأكد من كون الامر يتعلق بما يمكن أن ندعوه " سياسة دينية " أو ما يمكن أن نقول عنه، مع إبن زيدان، إنه " اختيارات مذهبية ".

(*) - الاصل في هذا البحث ورقة ساهمنا بها في ندوة " عهد السلطان محمد ابن عبد الله ". جامعة مولاي علي الشريف الخريفية (الريصاني 6 - 1991/12/15).

(1) يورد عبد الرحمن بن زيدان نصوص تلك الظهائر، وكذا نص " النصيحة "، تحت عنوان : " إختياراته المذهبية وما رأى من المصلحة حمل القضاة والمدرسين عليه " - انظر : " إتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس " الجزء الثالث. ص 188-225.

(2) محمد بن عبد الله الحسني العلوي - مواهب المنان فيما يتأكد على المعلمين تعليمه الصبيان مخطوط في الخزانة العامة بالرباط (ك 795).

(3) محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي - الفتوحات الالهية في احاديث خير البرية. - المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1980 تحقيق محمد الرشيد ملين.

(4) من رسالة لسيدي محمد بن عبد الله يوردها السيد الحسن العبادي في دراسته : الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله - مؤسسة بنشره للطباعة والنشر، 1987، الدار البيضاء، الصفحة 193.

وفي هذه الورقة نقترح، من وجهة نظر مؤرخ الفكر السياسي المغربي المعاصر خاصة، الوقوف قليلا عند هذه " الاختيارات المذهبية " والنظر في دلالاتها ودوافعها.وحيث يكون الامر متعلقا بمشروع إجتماعي ثقافي شامل، على نحو ما تصدى له محمد الثالث، وحيث تبدو من الدولة إرادة ثابتة في تحقيق ذلك المشروع وتوطيد أركانه فإنه يكون من واجب المؤرخ، عامة ومن واجب مؤرخ الفكر، خاصة أن يجتهد في فهم ذلك المشروع وقراءته في ضوء الظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية التي استدعت ذلك المشروع وحملت السلطان نفسه على الانتهاض له لا بالظهائر والاوامر الادارية وحدها بل وبالبحث والاجتهاد والتأليف والكتابة كذلك. ومحاولة منا في فهم دلالة تلك " الاختيارات المذهبية " ، وإلتماسا متواضعا للأسباب الممكنة التي حملت الملك الحاكم على ذلك نسلك طريقا في خطوات أو مراحل قصيرة أربع. ففي الاولى منها نتريث عند الظهائر والاوامر المتعلقة بإصلاح خطتي العدلية والفتيا، فنسجل ما يثير فضولنا المعرفي ويستوقفنا في الخطتين دون أن نقوم بفحص وتعداد شاملين لكامل مقتضيات الخطتين وجوانبهما. وفي وقفة ثانية، ربما كانت أطول من الاولى وأكثر إستدعاء للتأني والتأمل، ننظر في التقنيات والاوامر المرتبطة بتدريس المواد "الاساسية " في القرويين وما يلزم أو ما لا تلزم قراءته من النصوص المتداولة ثم ننظر، كذلك، في العمل التلقيني الاول في الكتاب القرآني والمنهج الذي يلزم المعلمين الاخذ به في ذلك. ثم في وقفة ثالثة نعمل على فحص مغزى الاعلان الاعتقادي الذي كان محمد الثالث يكثر من قوله ويجعله مفتتحا لكتبه ومؤلفاته إذ يقول عن نفسه : "محمد بن عبد الله الحسني المالكي مذهبا الحنبلي إعتقادا ". وإذا وصلنا الى المرحلة الرابعة فاننا نجازف بإطلاق بعض إفتراضات ننشد بها إنارة طريق الفهم والتفسير ونعمل على طرح أسئلة نتوخى من وراءها الخروج من الحيز الضيق لمنطوق النصوص والعمل على ربط النصوص بمجمل السياق التاريخي والاجتماعي العام وبالتالي ننشد المغزى السياسي العميق الذي لاشك أنه يحكم فعل كل ملك حاكم ويوجه قوله ونظره.

على أننا نعتذر لما يكون منا من شطط في التأويل حينا، ربما كان من عيوب المنهج الذي نأخذ به في غير وعي تام منا بنواقصه وعيوبه، كما نعتذر عما يجده زملاؤنا المؤرخون في نظرنا من قصور في الفهم مصدره ضعف الحيلة في معرفة التاريخ المغربي في دقة مسالكه وتشعب فروعه ودروبه مع إجتهادنا في الوقوف على الموثوق به من المصادر والمراجع في معرفة الاخبار والوقائع.

1 - في التنبيهات الكثيرة التي ترد في الظهائر المتعلقة بقضايا العدلية ونظام القضاء يجد القارئ ذكرا لجملة تقنينات وتحديدات وتنظيمات إدارية لرجال القانون الخاص أن يكشفوا عن أهميتها وموقعها في تاريخ التشريع القضائي المغربي. (حقوق المرأة، تقنين المهور، إبرام العقود بين أهل البلد المقيمين فيه وبين الوافد الاجنبي عند وخشية التغرير به...) ولكن أخص ما يثير انتباهنا أمران إثنان :

- أولها هو القول بوجوب إستمداد الاحكام الفقهية من مؤلفات قادة المذهب المالكي وإلتماسها من مظانها الاصلية عوضا عن الاقتصار على ما يقول به الشيخ خليل وتورده الجمهرة الكثيرة من شراحه على نحو ما يعمل به غالب القضاة. والسلطان لا يكتفي بهذا التنبيه ولا يقف عند القول " لعمري إن من اشتغل بأخذ الفقه من خليل وشروحه وترك أخذ الفقه من كتب الأقدمين المرضيين الذين نفع الله بهم المسلمين، فإنه -كما قيل-:« هرق الماء واتبع السراب " بل إنه يعدد أولئك القادة ويرتبهم في التسلسل التاريخي لظهورهم. فتكون الرتبة الأولى لمن أدرك مالكا (وهو يذكر أبا القاسم، وهو من نعلم أن المغاربة يأخذون بروايته لمالك، ويذكر إبن الماجشون، وهو الذي يكثر الرجوع عليه في فتاوي كبار العلماء وكنانيشهم)، والرتبة الثانية لمن أدرك من المالكية أصحاب مالك دون أن يدركوه (ويذكر سحنون صاحب المدونة الشهيرة في الفقه المالكي)، ثم يصل إلى الرتبة الثالثة فيذكر ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة الشهيرة والمعتمدة في أقوال سيدي محمد وكتابته كما يذكر القاضي عبد الوهاب (الشهير بخلاصته الفقهية التنبيه والأشراف على مسائل الخلاف ").

- وثاني الأمرين هو القول بوجوب إستمداد الفتيا من فقهاء الحنفية والشافعية أيضا وبالتالي عدم الاكتفاء بما يقرره المذهب المالكي. على أن ما يجدر التنبيه إليه هو التأكيد الجازم من السلطان على لزوم الابتعاد عن الفكر الذي يقضي بأن العمدة هو خليل وحده وأن الحجة تكون عند الخليليين المتعصبين لخليل أشد التعصب، والحال أن كتب " الأجهوريين وغيرهم من أصحاب خليل " مليئة بالتصحيف تنقطع فيها سلسلة الاتصال والسند في أحوال عديدة.

يمكن القول، إجمالا، إن في الظهائر المذكورة نقدا شاملا ولاذعا لنظام القضاء من جهة أولى، ولمنهج القضاة البعيد عن كل إجتهاد، والغريب عن النصوص الفقهية الأصلية من جهة ثانية، والطريق العقيم الذي يسلكه المفتون في تحرير فتاواهم مما يشوش على العدالة ويفضي إلى الظلم والفساد من جهة ثالثة.

2 - يقنن المرسوم السلطاني ما يكون من أمور النصوص الواجب تدارسها من جانب أول، والكتب (أو الأبواب من الكتب) اللازم تجاوزها وعدم قراءتها من جانب ثان، كما يقنن العلوم التي يرى (صراحة أو ضمنا) ضرورة الحض على دراستها وتشجيع المشتغلين بها والعلوم الأخرى التي ينبغي، في المقابل، النهي عنها أو التقييد الشديد في الاخذ بها.

فأما في الصنف الاول (النصوص الواجب دراستها) فالنص يقول عن " المدرسين في مساجد فاس " (والقصد الغالب في ذلك هو جامع القرويين) : " أمرناهم أن لا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره، وكتاب دلائل الخيرات والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلما وغيرها من الكتب الصحاح. ومن كتب الفقه : المدونة، والبيان والتحصيل، ومقدمة إبن رشد، والجواهر لابن شاس والرسالة لابن أبي زيد وغير ذلك من كتب الاقدمين. ومن أراد تدريس مختصر خليل فإنما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والحطاب والشيخ علي الاجهوري والخرشي الكبير لا غير ".

وفي تنبيهات سريعة نشير إلى : الدعوة الى دراسة تفسير القرءان (وهذا لم يكن شيئا إعتياديا في الدرس القروي - نسبة إلى القرويين - سواء قبل محمد الثالث أو بعده طيلة القرن التاسع عشر وجزء من القرن العشرين). وإلى الترغيب في " كتب الاقدمين "، وأخيرا فنحن نشير إلى ان دراسة المختصر الخليلي تكون إختيارا محضا " ومن أراد " ، ثم إلى ان هذا الاختيار يظل مقيدا بالاخذ بجماعة معلومة من الشراح.

- وأما في الصنف الثاني (ما ينهى عنه من الكتب أو من أبواب الكتب) فان المرسوم ينهى أولا عن دراسة ما زاد عن شروح خليل الخمس المذكورة سابقا " وما عداها من الشروح كلها ينبذ ولايدرس " ثم إنه يخص منها بالدعوة إلى النبذ والطرح شرح الشيخ الزرقاني. ثم إن المرسوم ينهى عن قراءة حديث الإفك كما يرد في صحيح البخاري " فحين يصل لحديث الافك يتركه ولا يقرؤه "، وينهى عن قراءة الربع الرابع من كتاب "الشفا" للقاضي عياض (وهو المتعلق بالقول فيمن تعرض للشخص النبوي المقدس بالتجريح والقذف) " فحين يصل للربع الاخير يختم الكتاب ولا يقرؤه "، وأخيرا فالمنشور ينهى عن قراءة الباب المتعلق بأحكام المرتدين من شرح الزرقاني للمختصر الخليلي.

وتجدر الإشارة إلى أن النهي يقترن بالتخويف من العقوبة " وهذه المسائل التي نهينا

عن قراءتها فمن تعرض لقراءتها ونالته عقوبة على أيدينا فلا يلوم إلا نفسه، كما يجدر التنبيه إلى أن المنشور يحتج في أمره هذا بما يفهمه من نظره في كتب القادة والعمد " المسائل التي نهينا عن قراءتها لم يذكرها أحد من أئمة المسانيد رضي الله عنهم ولاتعرضوا لها. والعلماء الاقدمون، رضوان الله عنهم، أمثال السيوف اليمانية يفرقون بين الحق والباطل بضربة واحدة ".

- واما العلوم التي يكون الحض عليها فهي كتب النحو، والبلاغة، واللغة، والادب " مما يعين على فهم كلام العرب لانها وسيلة إلى فهم كتاب الله وحديث رسول الله " وهي كذلك " علوم الحساب والاسطرلاب " والحض عليها يأتي في صورة تقدير تشجيعي " وكذلك الفقهاء الذين يقرءون الاسطولاب وعلم الحساب فيأخذون حظهم من الاحباس لما في ذلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لاوقات الصلاة والميراث "

وأما العلوم التي يشدد على المتعاطين لها أو يكون التقنين لها في صورة تقترب من المنع الصريح فهي أصول الدين من جهة، وأصول الفقه من جهة أخرى. وكل لسبب وتبرير : فبالنسبة لعلم الكلام " فعقيدة ابن أبي زيد، رضي الله عنه، كافية شافية يستغنى بها جميع المسلمين (...) ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة المتصوفة وكتب القصص فليتعاطى ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرون بأنهم لا يدرون ".

وبالنسبة لعلم أصول الفقه فالامر يختلف، وإن كان هو القول بالمنع الصريح، والسبب يتغاير أو لنقل إنهما سببان : الاول منهما " أنه أمر قد فرغ منه ودواوين الفقه قد دونت ولم يبق إجتهاد ". والثاني منهما، وهو الاهم، " والطلبة الموجودون في الوقت كل من أراد منهم أن يتعاطى علم الاصول فإني أقول فيه أراد أن يتزبب قبل ان يتحصرم ".

نود أن نوجه الانتباه إلى مسألتين اثنتين كذلك تتعلق الاولى برأي المنشور في علم الكلام، والثانية بقوله في أصول الفقه وحكمه على " الطلبة الموجودين ".

في المنشور نهى عن تعاطي علم الكلام وإحتجاج المؤلف، في مواضع أخرى من كتاباته، يكون من قول الشافعي ومن قول ابن حنبل ومن كون ذلك العلم، والعلوم الاخرى المذكورة معه " إنما نبغت في عهد المأمون عفا الله عنا وعنه، والتكلم فيها والاشتغال بها بدعة " - (سنرجع الى هذه المسألة). ولكن في المنشور تنصيص على إستحسان الاكتفاء بقراءة " الرسالة القيروانية " " ومن أراد ان يخوض في علم الكلام".

فلننتبه إلى هذا الحرص على دراسة رسالة أبي زيد مرجعا وحيدا في قراءة علم الكلام.

المسألة الثانية تقتضي من القارئ ان "يستقرأ " قول المنشور" والطلبة الموجودون في الوقت": ذلك أن من كان متعوداً على النظر في فتاوي العلماء المغاربة وكنانيشهم يعلم أن المقصود بنعت "الطلبة" هم الاساتذة المدرسون فهم العلماء الفقهاء إذن. وبالتالي فالمنشور" يريد ان يقول إنه ليس في وسع جماعة " الخليليين" حفاظ المتن وشروحه ان يرتقوا الى مستوى النظر الاصولي العالي فذاك سيكون محض ادعاء كاذب منهم وهم على ماهم عليه، كمن يريد" أن يتزبب قبل أن يتحصرم" كما يقول المثل السائر.

لابد لمن يطلب فهما أشمل لرأي محمد الثالث في " الممارسة التعليمية "، كما نقول بلغتنا اليوم، أن يقف علي ما يأتي به من أفكار جديدة ومغايرة في وظيفة الكتاب القرآني وعمل المربي فيه. فالمعتاد أن المربي يعمل على جعل الصبي، ثم المراهق بعد ذلك، يحفظ القراءن الكريم بمجرد ما يتعلم مبادئ القراءة ورسم الكتابة وحتى إذا تم له حفظ الكتاب كانت " الختمة " ولقنه المعلم بعد ذلك بعض أدعية وصلوات. ولكن لمؤلف " مواهب المنان، فيما يتأكد على المعلمين تعلمه الصبيان رأيا مغايرا، فالمطلوب أولا أن يعلمه " الفاتحة" وحزب " سبح"، فإن صعب عليه فيقرئه ربعه الاخير من والعاديات ". وأما بعد ذلك فهو ينتقل بالصبي الى تعليمه شيئا جديدا " يبين له أن الماء علي ثلاثة أقسام : الاول ما يصلح للعادات والعبادات وهو الباقي على أصله لم يتغير لونه ولا ريحه بشيء إلا أن يكون من جنسه كالحمئة والطحلب وهو الخز بلغتنا. والثاني ما يصلح للعادات دون العبادات (...) والثالث ما لا يصلح للعادات ولا العبادات وهو ما يتغير أحد أوصافه بشيء نجس ". فإذا تمت له القدرة على التمييز بين الانواع الثلاثة انتقل به الى تعلم أحكام الطهارة، فكيفية الوضوء أحكامه فرائضا وسننا ونواقضا، فالتيمم، فأحكام الصلاة والاذان إقامة الصلاة. ثم إن عليه أن يعلمه، بعد ذلك، مبادئ الاخلاق القويمة ويشرح له أن في سلوك العبد ما يتعلق بعلاقته مع خالقه، وفيه ما يغفره وهو الشرك، وما يتعلق بعلاقته مع غيره من الناس " فإذا رسخ ما ذكرناه في عقل الصبي وعلمه، بشر المعلم بذلك والده وأرشده إلى اعمال الختمة ". فالختمة ليست مجرد استظهار القرءان في غير معرفة بقواعد الدين (عقيدة وأساس سلوك)؛ فذاك حفظ في غير تدبر، ثم إن " الختمة " تكون متى تم الإلمام بتلك القواعد وحسن فهمها : " ثم إن ظهرت فيه نجابة في القراءة فليتركه يقرأ وإن لم تكن فيه نجابة في القراءة فها هو قد تعلم أمور دينه، وبرئت ذمة والده عن تباعة بقائه بجهله، فعليه أن يحترف بالحرفة التي كان والده يحترف بها من تجارة أو صنعة يد أو فلاحة لمعاشه " (5).

(5) محمد بن عبد الله الحسني العلوي – مواهب المنان، فيما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان. مخطوط سبقت الإشارة إليه – الاوراق (11 – 19).

قد تكون جدة " المنهج التعليمي " في الكتاب جلية على نحو ما يقترحه الملك المؤلف ولكن أمرين إثنين يتعين التنبيه عليهما علاوة على ذلك إذ بهما تتضح طبيعة الجدة في صورة أوضح وأدق، أول الأمرين أن المؤلف يريد الحصول على ضمان " تعلم أساسي "، ويشتمل " الحد الديني " الادنى اللازم توفره لعموم الصبيان : سواء تابعوا تلقيهم وبلغوا من " الكتاب " الغاية التي أدخلوا فيه من أجلها، أو وجهوا وأجبروا على احتراف حرفة أو تعلم صنعة منذ سن مبكر (او لم تكن لهم النجابة الكافية على التعلم). وفي هذه المرحلة المبكرة من العمر ، وفي أول طريق الحفظ والتعلم يريد المؤلف أن يطمئن على حفظ العقيدة القيروانية (والمؤلف ذاته يورد العقيدة في نصها الكامل في الباب الموالي من الكتاب، الباب الثاني، على غرار ما اشترطه في التعليم الكتابي). ثاني الامرين هو أن المؤلف يجعل " ما تبرأ به الذمة منه ومن غيره فرض عين وإيجاب " في مقابل، " حفظ عمومه" الذي هو " فرض كفاية بلا ارتياب ". (هل نحن في حاجة إلى القول : إن الكلام عن فرض العين والوجوب في التعليم. حين يكون صادرا من رئيس الدولة وإمامها، فهو يعني القول بالإجبار والامر بالالتزام به ؟).

3 - يذيل مؤلف [6] " الفتوحات الإلهية " كتابه بفصل أول " في بيان قولي في الترجمة : المالكي مذهبا الحنبلي إعتقادا " ، وبفصل ثان " في إعتقادي في الائمة الاربعة ". ومن قراءة للفصلين القصيرين ومن نظر ثان في الظهائر التي وقفنا عندها أعلاه ومن محاولة في ربط الامرين بمجهل السياق التاريخي الاجتماعي نحاول إستخلاص دلالة هذا الاعلان الاعتقادي.

يبين الملك المؤلف أن قصده بالقول " الحنبلي إعتقادا (...) ليلا يفهمه بعض الناس على غير وجهه " هو إنتهاج سبيل الإمام أحمد في " سد طريق الخوض في علم الكلام ". فالحامل على ذلك القول هو ، وكما يقول في الجملة الاخيرة من الفصل، أن " طريق الحنابلة في الاعتقاد سهلة المرام، منزهة عن التخيلات والاوهام، موافقة الاعتقاد الائمة كما سبق مع السلف الصالح من الانام " [7]. وما دام القول مقيدا على هذا النحو فهو يقتضي منا جملة توضيحات. والتوضيح الثالث هو أن ما ينكره الملك المؤلف علي الاشعري هو من جنس ما ينكره على القاضي عياض في الشفا وعلى شراح خليل (الزرقاني خاصة) وما لا يقبله من حديث الافك وهو : " التصدي لذكر شبه المبطلين، وتخليدها في الاوراق إلى يوم الدين ". وهذا الاعتراض لا يعني في شيء إلتزاما بغير القول المالكي ولا مخالفة لقول الاشعري.

لم يكن في وسع الملك المؤلف أن يعترض على قول الاشعري إعتراضا أكبر من هذا

(6) محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي - الفتوحات الالهية. مرجع سبقت الإشارة اليه (ص 457 - 458).

(7) انظر، على وجه التدقيق، الصفحة 202 من الجزء الثالث من إتحاف إبن زيدان المشار اليه آنفا.

وقد كان على ما كان عليه من حسن معرفة بأمهات النصوص العقائدية والتشريعية الاسلامية، إذ متى رجعنا إلى الكتاب الاعتقادي الاول الذي يقنن أحكام العقيدة الاشعرية لفهمنا، في سهولة ويسر، سبب إرتضاء المالكية للأشعري إما ما بل وسبب إجماع أهل السنة على إمامته وأقصد بذلك كتاب " الإبانة، عن أصول الديانة ". فالاشعري لا يكتفي في هذا الكتاب بالقول إنه سيرد علي المعتزلة والفرق الاخرى المخالفة لقول أهل السنة ولكنه يعلن أن عقيدته هي، بعد القراءن والسنة، " ما روى عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل- نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته- قائلون ولما خالف قوله مخالفون، لانه الإمام الفاضل " (8).

ولم يكن في وسع الملك المؤلف أن يعترض عليه، إلا ان يقع في تناقض صارخ مع ماقاله ورادده مرات عديدة بخصوص رسالة أبي زيد القيرواني وإعتبارها عمدة، لا بل مرجعا وحيدا في تقرير أحكام العقيدة. وأنت لو أمسكت بالباب الاول من الرسالة القيروانية بيد، وأمسكت باليد الاخرى بكتابة " الإبانة، عن أصول الديانة " فنظرت في ترتيب فصوله وفي ما يقرره من عقائد خاصة (القول بالتوبة، والشفاعة، والرؤية، والحوض، والميزان، وترتيب أفضلية الخلفاء الراشدين ... وما الى هذا من المسائل العقائدية الدقيقة) فأنت تجد تطابقا في النظر، وإتحادا في القول والاعتقاد بين أبي زيد وبين أبي الحسن الاشعري.

ولا يخفى أن بونا شاسعا يفصل بين الاشعري الاول (ابي الحسن) وبين متأخرة الاشاعرة من جهة المذهب، ولو كان المجال يتسع لبسطنا القول بعض البسط على الاقل، في هذه المسألة : ففرق كبير بين ما نجده في مؤلفات الاشاعرة الاوائل (مثل الاشعري، والبغدادي، والباقلاني) وبين ما نجده عند فخر الدين الرازي وعضد الدين الإيجي وأمثالهما من متأخرة الاشاعرة. وماكان من مؤلفات الاشاعرة معروفا في المغرب، وفي العهود المتأخرة خاصة، هو مؤلفات الاشعرية في صورتها المذهبية : وفي هذه المؤلفات نجد مزجا كثيرا بين الفلسفة وعلم الكلام، بل والتصوف المذهبي أحيانا، ونجد، بالجملة، تسرب عناصر اعتقادية مخالفة لما أنكره الاشعري والاشاعرة الاوائل. والادهى من ذلك أن ما كان من كتب الاشاعرة المتأخرين متداولا في المغرب، وعلى غرارالثقافة المهيمنة في عصور الانحطاط إجمالا، هو كتب التلخيصات والمنظومات العقائدية التي يصح للقائل أن يقول فيها ما قاله السلطان محمد ابن عبد الله في شراح مختصر الشيخ خليل والمتأخرين منهم خاصة.

(8) أبو الحسن الأشعري - الإبانة عن أصول الديانة، - تحقيق فوقية حسين محمود - دار الأنصار، 1977، القاهرة (الصفحة 20).

وإذن فحيث كان المغاربة يتحدثون عن الاشعري فهم كانوا يقصدون " أصحاب الاشعري" وصاغة المذهب في صورته المتأخرة، وحيث كانوا يشيرون إلى المذهب الاشعري أحيانا وينكرون منه ما أنكره محمد الثالث في بعض الاحيان فإنهم كانوا يتحدثون عن كتب المنظومات والملخصات التي تعارض تصورهم الاعتقادي السني البسيط.

يبقى هنالك إشكال يلزم توضيحه في مواقف المغاربة من المذهب الاشعري، من مؤلف يعتبر واسطة العقد في كل المذهب، ومن كتاب له يعد في طليعة النصوص التي كتبت في ذلك المذهب : أبو حامد الغزالي مؤلفا، وكتابه الشهير " إحياء علوم الدين " نصا من النصوص الاشعرية. فالمعروف أن المرابطين قد كان منهم موقف المعارضة الشديدة لكتاب " إحياء " فهم قد أحرقوه علانية وفي مشهد مشهور (9). والموحدون جعلوا أساس دعوتهم الاخذ بمذهب الاشاعرة أخذا مزجوا فيه بين النظرية الاشعرية وبين الشيعة الامامية، في جوانبها التي تتعلق بخطة العمل السياسي، والمهدي ابن تومرت قد نجح في ذلك المزج في أول دعوته (10). والمرينيون أقبلوا على الاشعرية وعلى كتاب الاحياء إقبالا شديدا (11). فكيف لنا أن نفهم هذا الاضطراب في الوقوف من الاشعرية " المذهبية " عامة ومن كتاب " إحياء علوم الدين خاصة " ؟

لاشك ان أسبابا كثيرة في تفسير هذا " الاضطراب " ترجع إلى ما يمكن أن نقول عنه إنه " الاختيارات المذهبية " التي أخذت بها كل دولة من الدول المتعاقبة على الحكم في المغرب منذ مطلع القرن الهجري الخامس، ولكنا لانخوض فيها والأمر فيها لمن كان

(9) محمد المنوني - إحياء علوم الدين في منظور الغرب الاسلامي ايام المرابطين والوحدين. - ضمن اعمال " ابو حامد الغزالي : دراسات في فكره وعصره وتأثيره ". -منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، 1988 - صفحة 127 وما بعدها.

يقول الاستاذ عبد الله كنون عن مصادرة الكتاب وإحراقه ايام حكم المرابطين :

" نظر فيه رجال الفقه والدين فرأوه محشوا بما لاعهد لهم به من أراء المتكلمين ومذاهب الصوفية (...) الدولة حقيقية كانت خاضعة لرأي الفقهاء (...) فما كان من رجال الدولة إلا ان امروا بجمعه وإحراقه ولم يعتبروا موالاة الغزالي لدولتهم ولانظروا إلى المودة التي كانت بين يوسف وبينه ".

انظر :

النبوغ المغربي في الادب العربي - دار الكتاب اللبناني، 1961، الجزء الاول. - صفحة 69.

(10) - يقول كنون عن المهدي إبن تومرت :

" وكان اكثر ما يدعو الى الاخذ بمذهب الاشاعرة في الاعتقاد وخاصة في تأويل المتشابه من الآي والاحاديث، الذي كان المغاربة لا يجنحون اليه اخذا بمذهب السلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت : مشددا النكير عليهم في ذلك، ورماهم بالتجسيم".

المرجع السابق ص 102.

(11) - انظر : محمد القبلي - رمز " الاحياء " وقضية الحكم في المغرب الوسيط. ضمن أعمال " ابو حامد الغزالي : دراسات في فكره وعصره وتأثيره " . مرجع سبقت الاشارة اليه. ص 139 وما بعدها.

بتلك العدة المعرفية التاريخية اللازمة في ذلك [12]، ولكننا ننظر في المسألة من وجه آخر وهو الوجه المتعلق بما عابه المغاربة على الغزالي وما نقموه منه في كتاب" الاحياء" والمغاربة قد عابوا على الغزالي إكثاره من الاستشهاد بأقوال المتكلمة والمتصوفة والاتيان بحكايات غريبة ليست مما يجيزه حسهم " السني " دائما، وهم قد نقموا من " الاحياء" - او نقم المشتغلون منهم بعلوم الحديث تحديدا - إشتماله على عدد غير قليل من الاحاديث الضعيفة بل والموضوعة مما يعرضه النقص ويجعله مشوبا بما يجرح في عدالته. والحق أن أهل الحديث عموما، ومن غير المغاربة، قد أفاضوا القول في هذه المسألة من كتاب " الاحياء " ولعل أغلب النسخ المتداولة اليوم من هذا الكتاب تنشر مصحوبة بهامش من كتاب عبد الرحيم العراقي الذي يقف فيه بالتدقيق والتحقيق في الاحاديث الغزيرة احيانا كثيرة، التي يشتمل عليها كتاب الغزالي(13). ولكن الحق أيضا هو أن الرأي المعروف والشائع عند جمهرة الفقهاء والمحدثين أنه لاضير على القارئ المسلم من قراءة الاحاديث الضعيفة الإسناد مالم تكن تلك الاحاديث تفيد علما أو أمرا وكانت إفادتها لا تخرج عن الترغيب في أداب السلوك وحسن قواعده، وذلك هو الشأن في ".الإحياء ". والسلطان محمد الثالث، المنشغل بالحديث النبوي جمعا وتدوينا (14) ربما كان قد كان حمل على الغزالي لهذا السبب، فيما يحتمله الظن، وربما كان قد خشى ان يكون من الفقهاء منه موقف يحمل على الفرقة والاختلاف، متى انتشر وأذيع، وموقف يحمل على الإغراق في الانعزال عن الحياة الاجتماعية، "والإحياء" يحفل بالدعوة إلى ذلك، فيما كان السلطان طالب إصلاح وعلاج إجتماعيين. وأما ما وراء ذلك، أي ما كان من الغزالي السني الاشعري، فما نحسب أنه كان محل إنتقاد من سيدي محمد بن عبد الله أو أن اللوم منه له كان شديدا. وما يؤكد هذا التصور عندنا هو أن الموقف من الغزالي موقف يختلف من مؤلف من مؤلفاته او من جانب من جوانب شخصيته، ليس مما كان في المغرب وحده بل ذلك هو الموقف السني العام فيه : ففي الشخص الواحد نجد الغزالي المتكلم المنافح عن قول " اهل السنة والجماعة " والمهاجم القوي لقول الشيعة الباطنية، ونجد الغزالي المتصوف الذي يجنح الى الابتعاد عن الخط السني أحيانا كثيرة (وهذا هو الشأن في فصول من " الإحياء"،

(12) - نحيل مرة اخرى على الدراسات (انظر المرجع الذكور سابقا). قام بها الاستاذ محمد القبلي (انظر المرجع المذكور سابقا).

(13) - عبد الرحيم العراقي - المغنى عن حمل الاسفار في الاسفار في تخريج ما في الاحياء من الاخبار. - منشور بذيل كتاب الغزالي " إحياء علوم الدين " (دار المعرفة للطباعة والنشر / بيروت).

(14) - يورد سيدي محمد بن عبد الله الاحاديث، دون إسناد، كما ينقلها عن الكتب التي أخذ منها (الستة او الخمسة او الاربعة إلخ). على نحو ما يبينه في كتابه "الفتوحات الالهية ".
ويقول عند نهاية كل كتاب من كتب الاحاديث : " ومن أراد الاسانيد فعليه بالمسانيد".
أنظر، على سبيل المثال، الصفحات 20، 30، 55 من الكتاب المذكور.

وفي كتب اخرى له)، كما نجد الغزالي الاصولي الذي ذهب في التقعيد لاصول الفقه، على القول السني، ومذهبا كبيرا وعاليا (15).

وإذن فمن البعيد عن المعقول ومن الغريب في التصور أن يكون من الملك المؤلف إعتراض على الغزالي صائغ النظرية الاشعرية " الكلاسيكية " في أركانها الكبرى (في الكلام، وفي أصول الفقه، وفي السياسة) وهو الملك المالكي السني، والمالكية تأخذ بالقول الاشعري في أصول الفقه وفي أسس الدين. ومن الغريب أن نحمل نعت السلطان سيدي محمد لنفسه بكونه " الحنبلي إعتقادا " على القول بالمخالفة التامة للأشعرية، ففي القول بتقرير العقيدة علي نحو معلوم (هو ما يقرره إبن أبي زيد في " الرسالة ") قول كلامي مذهبي، ومن الشطط في الحكم أن نرى في قولة محمد الثالث خروجا ما عن النظر الاشعري العام، على النحو الذي تقرر عند المغاربة من جهة العقيدة كما تقرر المذهب المالكي عندهم واستقر من جهة الشريعة (16).

4 – نصل الان إلى حيث نجيز لانفسنا إثارة بعض تساؤلات والمجازفة بإطلاق بعض إفتراضات في فهم وتفسير هذه السياسة الدينية أو " الاختيارات الذهبية " التي سار عليها محمد الثالث. والامر في كل إختيار يرجع، عادة، إلى عوامل تتعلق بالتربية وبما وقر في النفس من أثر الطفولة والشباب الاول، وإلى اخرى ترجع إلى " المزاج " وإلى ما يمكن ان ندعوه بالحصيلة الثقافية او " الشخصية الثقافية " على النحو الذي تتكون به عند المفكر او القائد السياسي. والحق ان في وسع المؤرخ الملاحظ ان يجد لكل هذه العوامل أصلا وسببا معقولا عند السلطان محمد الثالث : فقد تعهدته بالتربية والرعاية الاولى، في ظل والده القوي السلطان مولاي عبد الله ابن إسماعيل، إمرأة جمعت بين الشخصية القوية، في نوع نادر، وبين محبة العلم وإحترام العلماء : مجالسة لهم وإستماعا إليهم وتكريما لمكانتهم – والامير سيدي محمد كان يحضر معها مجالسها العلمية تلك (فلم تكن تفارقه فيما يرويه هو نفسه)، وفي سن مبكرة، هي دون العاشرة، شهد معها الحج وزار عددا من البلاد الاسلامية وجالس ثلة من كبار علماء العصر ورأى جدته تعود بأحمال من الكتب والمؤلفات ولاشك ان لعوامل مماثلة أثرها القوي الفاعل في نفس الطفل وفي تكون شخصية الراشد فيما بعد. وتعلق

(15) – نحيل الي محاولة شخصية في فهم هذا " التنوع " في شخصية الغزالي وتعدد الابعاد فيها. انظر : سعيد بنسعيد العلوي – الغزالي والفلسفة : متاهات التأويل ضمن أعمال " ابو حامد الغزالي ... " المشار اليها آنفا. – ص 85 – 101.

(16) – كما في القول المشهور الجامع في منظومة : ابن عاشر " : عقيدة الاشعري وفقه مالك. وطريقة الجنيد السالك.

الامير سيدي محمد، في شبابه الاول، بالادب والتاريخ ثم بالتفسير والحديث وأحاط نفسه، في إمارته في مراكش نيابة عن والده، بمجموعة من الفقهاء الذين ستشتهر منهم محدثون ومؤرخون وكتاب وسيظل وفيا لرفقتهم حين يصبح ملكا على البلاد وسيكون منهم سفراء ووزراء ورجال من دولته. والمؤرخون يذكرون، مع هذا كله، أنه كان له إعجاب شديد بالملك السعدي المنصور الذهبي وهو الملك الذي كان يوصف بأنه " كان عالما إلي درجة الاجتهاد " من جانب اول وبأنه كان، من جانب ثان " سياسيا محنكا وقائدا شجاعا وإداريا منظما ومصلحا إجتماعيا كبيرا " (17).

ولهذا الاعجاب بشخصية المنصور السعدي، ولاشك، فعله في نفس الامير الشاب وأثره القوي في النظر الاصلاحي الى المغرب وفي وجوب ربط الاصلاح السياسي والاداري بالاجتهاد الديني والرعاية للعلم والعلماء.

وقد يجيز المؤرخ لنفسه أن يخصص القول في التكوين الثقافي في شخصية محمد الثالث فيتحدث عما يكون من أثر للاشتغال بعلم الحديث في تكوين الشخصية الثقافية الاسلامية، ومن إجلاء لروح النقد والمراجعة وحب للتحري والتقصي في تقرير الاقوال والمبادئ : والملك المؤلف صرف في الاعتناء بالحديث زمنا غير يسير وانشغل، وكما هو معروف، بجميع الحديث وتدينه وبالتأليف بين روايات " أصحاب المسانيد " المشهورة فضلا عن كونه إستجلب ثلاثا منها لم تكن معروفة عند المغاربة (مسانيد : أحمد بن حنبل والشافعي، وأبي حنيفة). وربما وجد المؤرخ في جوانب أخرى من إهتمامه العلمي ما يفسر بعضا او جلا من مواقفه، ولكن هذه كلها تظل مع ذلك افتراضية وغير كافية في الفهم وفي التفهيم. فليس لشخصية " المؤلف " او " العالم المحدث " ان تبعدنا، او تجعلنا نغفل، عن شخصية السلطان الملك : رئيس الدولة والمسؤول الاول عنها حيث لا تفهم المواقف ولا تدرك الدوافع ولا يعقل المغزى إلا بحسن تقدير وإدراك معنى المسؤولية السياسية الرئاسة العليا للدولة وللأمة. ومن هذا المنظور يبدو اننا نكون اقرب ما نكون من الصواب في النظر، ومن الدقة في الفهم، متى قررنا أن " السياسة الدينية " او " الاختيارات المذهبية " للسلطان سيدي محمد بن عبد الله هي جزء من كل أشمل، هي اختياراته السياسية الاصلاحية عامة : وهذه هي مجموعة مواقفه، في الخارج مع بلدان البحر الأبيض المتوسط الغربية، ومع البلدان المغربية من دول الشمال التي كان لها نشاط في التجارة وفي الأساطيل، ومع السلطنة العثمانية، ومع البلاد العربية الاسلامية البعيدة عنه. وهي مجموع مواقفه، في الداخل، والتي يجملها

(17) عبد الله كنون – النبوغ المغربي ... (سبقت الإشارة إليه) ص : 237.

الوصف العام الشامل : بناء الدولة الحديثة بتشييد هياكلها الادارية والقضائية والمالية والاقتصادية على نحو جعل من " محمد الثالث الباني الفعلي للمغرب " الحديث "..." (18).

وإذا عدنا الآن، في مراجعة اخيرة، الى مجموع المناشير والظهائر المتعلقة بإصلاح التعليم، والفتيا، والقضاء والتنظيم الاداري، وكذا الى ما نجده في كتابه في التعليم الكتابي (" مواهب المنان ") ثم نظرنا في هذه الكتابات كلها في ضوء الخط السياسي العام الذي سعى السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى سلوكه فنحن نجد أن الموجه والحافز فيه واحد، وإن تعددت اشكاله التعبيرية وهو ما يمكن ان نقول عنه إنه ارادة تشييد الدولة، في مستوى التعليم والثقافة والادارة والقضاء بعد ما تم التشييد لها في مستويات التنظيم العسكري، والاقتصادي، والمالي. وحيث لا يكون بناء الدولة الواحدة ممكنا على اساس التباين في المذهب والعقيدة، فقد كان التأكيد على وجوب الالتزام في ذلك العمل بالامساك عن " الاسراف " في النظر الكلامي العقائدي (وهذا مغزى " الحنبلية " في الاعتقاد من وجه، ومغزى الحمل على الالتزام بما في " الرسالة القيروانية " من وجه اخر). وحيث لا يكون العمل " النهضوي " او " التحديثي " مع وجود جماعة من صغار حفاظ المتون وشراح المختصرات والتعاليق، بل يكون بالرجوع الي الاصول والمنابع الاولى ، فقد كانت الاشارة الضمنية الى عجز " طلبة الوقت " عن الاسهام في هذا العمل الثقافي الشامل (وهذا مغزى الاعتراض على الخوض في أصول الفقه من وجه، ومغزى الدعوة الى الامساك عن دراسة ابواب معلومة من كتب متداولة من وجه اخر). وحيث يكون التقصير في تدريس الصغار، وسوء الفهم والسلوك في العمل الديني يجب من السلطان المصلح القول والحمل على العمل (وهذا مغزى " نصيحة الامة ").

وفي كلمة واحدة فان " الاختيارات المذهبية " لاتدرك ولاتفهم إلا متى إجتهد المؤرخ في قراءتها في ضوء التاريخ العيني ومتى سعى محلل الافكار الى الاستنارة، قد الامكان، بمصباح التاريخ و " طبيعة العمران ".

(18) ABDELLAH LAROUI - L'histoire du Maghreb.

الإزمة الغذائية في عهد سيدي محمد بن عبد الله خلال سنوات 1776 - 1782

محمد الامين البزاز
كلية الآداب - الرباط

تقديم :

لما تولى سيدي محمد بن عبد الله عام 1757م، وقد مر زهاء 30 سنة والمغرب يتحمل وثبات المحن، بدأت البلاد تتنفس الصعداء وتشرع في ترميم انقاضها. وخلال العقدين الاولين من هذا العهد الجديد، انحسرت موجة الحروب الاهلية وعصابات اللصوص وقطاع الطرق، كما خلا سجل هذه الفترة من الكوارث الطبيعية. وكلها عوامل مكنت البلاد من أن تستعيد شيئا فشيئا ازدهارها، وساعدت في الوقت نفسه على اتجاه عدد السكان الى التزايد لتعويض الاجيال.

لكن ما كاد يمضي هذان العقدان، حتى اعترضت عهد سيدي محمد مجاعة ماحقه ارهقت من جديد البلاد والعباد، وعوقت الجهود التي كان يبذلها السلطان من أجل النهوض بمملكته وتحرير ما تبقى من ثغورها المحتلة.

تحدثت المصادر المغربية عن هذه المجاعة، فوصفتها بالمجاعة " الكبيرة " وقدمت عنها فصولا رهيبة. لكن، برغم ما يقوله الاخباريون من أنها تواصلت بلا انقطاع طيلة سبع سنوات، من 1190هـ الى 1196هـ (1776م - 1782م)، فالظاهر ان استراحة قصيرة تخللتها مع نجاح المحصول في موسمي 1777 و1778، بحيث يمكن القول انها لم تستحكم الا في سنوات 1776 و 1779 - 1782. اما اسبابها، فترجع الى تتالي سنوات عجاف وتكالب اسراب الجراد. لكن ثمة اسبابا بعيدة تتمثل في رفع الحظر المفروض على تصدير الحبوب.

1 - الجذور : تصدير القمح (1766 - 1774)

ابتداء من عام 1766، بدأ تصدير القمح بصفة رسمية الى اوربا بعد ان استصدر سيدي محمد فتوى بجوازه على اساس حصوله على الاسلحة والذخيرة. ومنذ ذلك

الحين، تكررت عملية التصدير، خاصة من مرسى فضالة الذي استحدثه السلطان خصيصا لهذا الغرض. ويؤكد ما صون (MASSON) ان العملية امتدت على نطاق واسع بين 1770 و1774 في اتجاه البرتغال واسبانيا وفرنسا. بالنسبة لعام 1774 لاغير، تم تصدير 100.000 قنطار نحو اسبانيا وما يعادلها نحو فرنسا، وقد تكفلت ثلاثون سفينة بنقلها (1).

وتعكس لنا المصادر المغربية امورا شتى عن تحمس الفلاحين لقرار التصدير، والذي يؤكد التهافت الكبير عليه. نكتفي بتقديم مثال صارخ : " وفي هذه السنة 1186هـ امر السلطان ببناء فضالة وفي التي قبلها مكن النصارى من اشتراء الزرع بمرسى فضالة ... وكانت الابل تأتي إليها وكأنها السحاب ليلا ونهارا وفي كل يوم يعبرون نحو العشرة آلاف فانكة، وفي الفانكة أربعة امداد، ولازم الفانكة 8 اواق، وكان في ذلك امر عظيم من العمارة من اليهود والنصارى والمسلمين وهم يجتهدون في شراء الزرع، فمن رأى ذلك فزع ... واما اهل تامسنا فكانوا يأتون بالدجاج والسمن والغنم للنصارى هدية لاجل ان يكيلوا منهم الزرع، واذاكان الزرع رقيقا فلا يكيلونه منهم، وان كان احمر كذلك حتى كان الرجل الشاوى ينادي للنصراني ياسيدي اشتري مني ولا يلتفت اليه"(2).

ماكان بالطبع لهذه الصادرات ان تتحقق وتعرف ما عرفته من اتساع لولا ان البلاد شهدت خلال هذه الفترة سلسلة من المحاصيل الطيبة، ساعد عليها، بالاضافة الى الظروف المناخية الملائمة، توقف الحروب الاهلية وما اعقبها من إعادة الأمن والاستقرار. الا ان اتجاه زراعة الاقتصاد الذاتي نحو تسويق فوائضها لم يكن يخلو من مجازفة في ظل عدم انتظام التهاطل الذي يجعل المحاصيل عرضة للصدف. من الحق ان تصدير القمح هم اساسا اقليم الشاوية. لكن ينبغي الا يعزب عن بالنا ان هذا الاقليم كان يلعب دور هري طبيعي لسد فجوة الغذاء في الداخل في السنوات العجاف. وحسبنا هنا ان نقرأ ما كتبه القنصل الفرنسي شيني في احدى رسائله، متحدثا عن غلاء الاسعار عام 1775 :" ان محصول القمح لم يكن وافرا في السنة الماضية، والبلاد لا تتوفر على مخزونات منه بسبب النتائج الوخيمة الناجمة عن تصديره في السنوات الماضية، وترى ثمنه اليوم يزيد على ماكان عليه بثلاث مرات " (3).

(1) Masson P. : " Histoire des établissement et du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793) " ; Paris 1903, p. 640 et p. 650.

(2) الضعيف مصدر سبق ذكره، ص 176.

(3) GRILLON P. : " Un chargé d'affaires au Maroc. La correspondance du consul Luis CHENIER (1767-1782) " : Paris 1970 n0 14, Salé 15 sep. 1775, p. 364.

وهكذا يمكننا القول ان التهافت على بيع الاقوات الى الخارج ساهم في توفير ظروف المجاعة قبل ان توجه الطبيعة ضرباتها بزمن بعيد.

2 - مجاعة عام 1776 واستراحة 1777 - 1778.

بدأت المؤشرات على وقوع هذه المجاعة مع اطلالة عام 1775. في هذه السنة اجتاح الجراد اقليم سوس والغرب، دون ان نعرف مدى الخسائر التي تسبب فيها (1). الا ان شينيي (Chênier) يخبرنا بان المحاصيل جاءت ضعيفة. وهناك معطيان آخران : اشتداد موجه الغلاء مع بلوغ القمح 7 اواق للمد، ثم قرار السلطان بحظر التصدير. كان السكان اذن منذ هذه السنة على شفا نقص حاد في الغذاء.

في ظل هذه الظروف اطلت سنة 1190هـ / 1776 م، التي تعتبرها المصادر المغربية بداية المجاعة. والحقيقة ان السنة لم تكن سنة جفاف تام. فقد تهاطلت الامطار بغزارة خلال فصل الشتاء. في نواحي الرباط، انهالت السماء كالطوفان، وهدمت كثيرا من الدور، وتسببت في هلاك عدد من الاشخاص تحت الانقاض (2). الا ان الحبوب كانت وقتئذ نادرة في الاسواق، واسعارها مرتفعة، كنتيجة لانعكاسات الموسم الفلاحي السابق. في مارس، بلغ القمح 40 ثم 50 ليبرة (لكل 120 كلغ) (3). مع هذا الغلاء، أصبح الغذاء في غير متناول يد الفقراء. ومنذ ابريل، كتب شينيي يقول : إن عددا كبيرا من الناس يموت جوعا حتي بالعاصمة الجنوبية، مضيفا بأن الكثيرين من الآباء اضطروا الى التخلي عن اولادهم للمحسنين، لعدم استطاعتهم اعالتهم وسدا لجوعهم (4). في فصل الربيع، ازدادت الازمة الغذائية حدة، وسجل القمح رقما قياسيا : 56 ليبرة. ولا أدل على هذه الشدة من ان السلطان اذن للتجار الاوربيين باستيراد الحبوب مع اعفائهم من أداء الرسوم الجمركية (5). بيد ان الامطار التي تهاطلت في شهر ماي، والتي تتالت بلا انقطاع طيلة 15 يوما، خففت نسبيا من حدة الشدة (6). ونعلم بالفعل ان سعر القمح هبط الى 40 ثم الى 36 ليبرة بعد ان " بدا المحصول واعدا"

---

(1) الضعيف، مصدر سبق ذكره، ص 178.

(2) Ibid

(3) Ibid, Salé 4 avril 1776, n 42.P. 410

(4) GRILLON P.: "La chambre de commerce de Marseille et le Consulat de France au Maroc pendant la mission de Louis chenier (1767-1782) : Hespéris Tamuda. Vol. IV, 1963, pp. 323-24.

(5) [illegible]

تدل كل الشواهد التي لدينا على ان الحالة تحسنت نسبيا خلال سنتي 1777 - 1778. ففيما يخص السنة الاولى. نعلم ان سعر القمح هبط بنسبه 60. في المائة بالمقارنة بما كان عليه في السنة الماضية. نعلم ايضا ان الامطار تهاطلت بقدر كاف تتضمن المحصول الجديد. فمنذ شهر مارس، اشار شينيي الى " ان المحاصيل الجديدة تبدو واعدة جدا في جميع اقاليم الامبراطورية. " (1). هذا ما يؤكد الضعيف باشارة عابرة، لكنها واضحة : " وفي سنة 1191 [1777] جاءت الصابة " (2).

كذلك الامر بالنسبة للسنة التالية التي تواصلت فيها عملية الانفراج، وان لم تخل السنة من بعض المشكلات الطبيعية. ففصل الشتاء تميز، خاصة في الشمال. ببرد قارس وتهاطلات غزيرة تسببت في قطع الموصلات وارتفاع الاسعار : استمرت الامطار الى منتصف شهر فبراير، ثم بعد انقطاعها، تهاطلت من جديد ابتداء من فاتح مارس(3).

نرى اذن ان السنتين لم تكونا سنتي يبس وقحولة. كما توهمنا بذلك بعض الروايات، بل كان المشكل. بالعكس مشكل كثرة الماء لا قلته. اذ من المفروض ان تكون امطار الشتاء الطوفانية قد الحقت بعض الاضرار بالمزروعات البكرية. لكن أمطار مارس ضمنت على كل حال الموسمين الفلاحيين. ولئن كانت اسراب الجراد قد ظهرت في صيف 1773. فإنها جاءت بعد جني المحصول معا قلل من أضرارها.

يبقى مع ذلك ان البلاد كانت ما تزال تعاني من آثار الجفاف السابق. اذ من اللازم عادة تتالى عدة مواسم طيبة لمحور آثار اية ازمة غذائية حادة. من هنا ندرك خطورة مبادرة سيدي محمد عندما قرر، في غضون 1778. تصدير القمح الى اسبانيا التي يبدو انها كانت تعاني يومها من الخصاص عندما اورد شينيي الخبر، فانه لم يكن يتصور ان يقدم السلطان على وضع قراره في حيز التنفيذ، وكتب موضحا : "لان صاحب الجلالة لا يريد تصعيد استياء رعاياه بالزيادة في أعبائهم " (4). بيد ان التصدير تم بالفعل. كما يخبرنا بذلك المؤلف نفسه. وعلى مرحلتين : الاولى في شتنبر وعن طريق مرسى الصويرة، والثانية في يناير 1779.، عن طريق الجديدة. بلغت

(1) GRILLON 1970 : N 132, Salé 9 mai 1777, pp. 540-41

(2) محمد الضعيف، مصدر سبق ذكره ، ص 179

(3) GRILLON 1970, Salé 10 mai 1778, N 195, PP. 624-25

(4) GRILLON 1970, N 251, Salé 30 nov. 1778, P. 703

الكمية المصدرة من هذا الميناء الاخير 10.000 سيتيي (Setier de Paris) (حوالي 15.600 هكتولتر) ، تكلفت بشحنها نحو قادس اربع سفن (1).

3 - هجوم الجوع من جديد (1779 - 1782)

لم تكد الاحوال تتحسن نسبيا ، بفضل المحصولين السابقين، حتى قحطت البلاد قحطا شديدا ، ودمر جفاف رهيب المحاصيل تماما وحيث لم تدمر اتت عليها اسراب الجراد. واضطر السلطان حينئذ الى استيراد الاقوات التي كان يصدرها بالامس.

فشتاء 1778 - 1779 تميز بانحباس الامطار في جميع اطراف البلاد ، وانعكست آثار هذا الجفاف في نضوب المراعي وهلاك الدواب. ذلك ما يشير اليه محمد الضعيف بقوله : " وقع موت البقر حتى كاد ينقطع " (2). وهو ما يشير اليه ايضا شينيي موضحا خطورته : " ان البهائم نفقت بالالاف ولن يتأتى تعويض هذه الخسائر حتى لو توفر الكلأ لمدة اربع سنوات متتالية " (3). والى كارثة الجفاف. انضافت آفة الجراد.

كانت اسراب ضخمة من هذه الحشرات المدمرة قد ظهرت منذ صيف 1778. قادمة من الجنوب وبلغ من درجة كثافتها انها عتمت السماء. ويفهم من رواية سيتيي انها لم تتلف سوى جزء من المزروعات. الا انها تركت وراءها يرقات صغيرة سرعان ما أفرخت وتسببت في أفدح الخسائر ثم عاد الجراد الى الظهور في السنة التالية، وغطت جحافله البادية ابتداء من فصل الربيع، تاركة خلفها الاشجار عارية والحقول جرداء (4).

جاءت اذن هذه الكارثة لتؤدي الى الانهيار التام للمحاصيل واشتعال الاسعار في فصل الصيف، ارتفع سعر القمح في نواحي الرباط الى 64 ليبرة للسيتي(Setier de Paris) (5). وازداد ارتفاعا في فصل الخريف، فبلغ 110 ليبرة وحتى 120، بينما بلغ الشعير 60 ثم 90 ليبرة (6).

---

(1) GRILLON 1970, N 285, Salé 9 janvier 1779, P. 714

ان الوحدة القياسية التي تستعملها هنا وردت عند شينيي (وهي ستيي باريس Setier de Paris) وحدة فرنسية قديمة لكيل الحبوب، تتراوح بين 150 و 300 لتر

(2) محمد الضعيف مصدر سبق ذكره، 182.

(3) GRILLON, 1970; N° 322 Salé 18 nov 1779 p. 790

(4) GRILLON, 1970; N° 306, Salé 31 août 1779 P. 765

(5) GRILLON, 1970; N° 333, Salé 18 Déc 1779 P. 791

(6) GRILLON, 1970; N° 310, Salé 28 Sep 1779 P. 773 et N° 311 Salé 18 Oct. 1779, P. 773 N° 349 Salé, 28 mars 1780, P. 808.

في نهاية السنة، وصل عجز الغذاء الى اسوأ مراحله. وهو ما جعل السلطان يتحرك لتوزيع الاسعاف على رعاياه المنكوبين. في الوقت نفسه، قامت حركة كثيفة بين مدينة فارو البرتغالية وطنجة حيث كانت السفن تأتي محملة بالفواكه اليابسة، والزيت، والزبدة، والقمح ... وقد تكررت هذه العملية مرارا في أوقات لاحقة مع قدوم سفن برتغالية واسبانية، استفادت منها ايضا العرائش والرباط (1).

لا ريب ان عملتي الغوث والاستيراد قد ادتا الى التخفيف نسبيا من حدة الازمة الغذائية، خاصة في الموانئ الشمالية. الا انها لم تحل دون وقوع فصول مأساوية وهلاك عدد كبير من الناس. يذكر محمد الضعيف ان الجياع كادوا " يأكلون بعضهم بعضا من قلة الامطار وغلاء الاسعار" (2). ويؤكد الزياني انهم اكلوا الميتة والدم والخنزير والآدمي(3). بينما يكتفي ابن الحاج بالقول : ان الموت بالجوع كثر في سائر البلاد(4).

وبالرجوع الى مراسلات شينيي، نجد اشارات كثيرة تعكس صورا شتى عن مأساة هذه المجاعة ؛ وهي وان كانت تهم عموما مدينة الرباط وأحوازها، فانها تسلط ايضا الضوء على ماكان يجري في جهات اخرى من البلاد. في 18 دجنبر 1779، كتب يقول: " لقد بلغ الجوع بالقرويين مبلغه، وهم يجوبون البوادي بحثا عن جذور النبات التي تشكل غذاءهم الوحيد، والكثيرون منهم ينهاكون جوعا" (5). وكتب في الشهر التالي: " لاتزال شحة الطعام مستمرة .. والموت يفتك بالناس. لقد تم العثور على عائلات بكاملها ميتة في الطريق بعد ان أوهنها الجوع " (6). وفي شهر فبراير : " ما من يوم يمر الا ويدفن فيه الكثيرون من الاشقياء صرعى الجوع " (7). وفي مارس : "إن عددا لاحصر له هلك من البؤس والجوع " (8).

نعلم، من جهة اخرى، وبفضل مصدر يهودي ، ان المجاعة تفشت بشدة في فاس سنة 1780، بعد ان بلغت اسعار المواد الغذائية بالمدينة مستويات فاحشة، كما تعكس لنا ذلك بعض الارقام التالية :

---

(1) GRILLON, 1970 n 339 Salé 10 Janvier 1780, P. 793, et n 3490 Salé mars 1780, P. 808.

(2) محمد الضعيف، مصدر سبق ذكره ص 182.

(3) الزياني أبو القاسم " المغرب من 1931 الى 1332 "، مصدر سبق ذكره، ص 82 من النص العربي.

(4) " الدر المنتخب "، حوادث 1193هـ، ص 308

(5) GRILLON, 1970 ; N° 333, Salé 18 déc. 1779.P 791

(6) GRILLON, 1970, N° 343, Salé 29 janvier 1780, p.798.

(7) GRILLON, 1970, N° 346, Salé 18 janvier 1780, p.805

(8) GRILLON, 1970, N° 349, Salé mars 1780, p.808

- مد قمح : 13 اوقية

- رطل زيــت : اوقيتان ونصف

- رطل زبــد : خمس اواق

- رطل لــوز : درهمان

- رطل فستق : درهمان

- رطل عسل : درهمان

حسب نفس المصدر، فان عددا كبيرا من اليهود اعتنق الاسلام في هذه المجاعة، بينما هلك منهم عدد كبير آخر (1).

وهكذا نرى ان المجاعة بلغت ذروتها سنتي 1779 - 1780. من الحق ان الموسم الفلاحي الجديد حمل في طياته بذور الامل، وكانت الحالة الجوية تبشر بالحصول على صابة حسنة بعد المواسم القاحطة السابقة. فقد تساقطت الامطار من 18 الى 28 نونبر 1779، مما خلق ظروفا ملائمة لمباشرة عملية البذر. ثم بعد توقفها. تهاطلت من جديد، وبشكل منتظم، من نهاية دجنبر الى غاية شهر ابريل. بحيث كانت موزعة توزيعا جيدا لضمان المحصول الجديد (2). الا ان هلاك الدواب، وقلة او انعدام البذور. وغلاء اسعارها، كل ذلك ادى الى تقليص الرقعة المنزرعة. وتعميق الفجوة بين المنزرع والمطلوب للاستهلاك، وهي ظاهرة كثيرا ما تكررت في اعقاب كل مجاعة حادة.

يخبرنا سينيي بالفعل بان المحاصيل الجديدة جاءت ضعيفة في جميع الاقاليم (3). لكن ، مما زاد الطين بلة تهافت الجياع على نهب والتهام بواكير الغلات وهي ما تزال في الحقول، وقبل اوان نضجها. وبالخصوص، تحولت اراضي الغرب والشاوية، التي استطاعت مقاومة المصاعب الطبيعية بفضل امكانياتها الهيدرومائية، الى ميدان صراع من اجل البقاء بين النهابين الجياع والملاك (4). يخبرنا شينيي بأن هولاء الاخيرين كانوا يدافعون عن بساتينهم وحقولهم بحد السلاح. ويسارعون الى جني وحصد ما أمكنهم انقاذه من النهب، من فواكه، وشعير ....، وذلك قبل اوان النضج (5).

(1) VAJDA; op.cit p.9

(2) GRILLON, 1970, N° 346, SALE 18 Février. 1780, p. 804; n 343. Salé 29 janvier 1780, p. 798 ; n° 350. Salé 28 mars 1780. P. 810; n 351. Salé 19 avril 1780. P. 813.

(3) GRILLON, 1970 : N°363 Salé 18 novembre 1780 p. 834

(4) MADRIDE LOURIDO (Ramon) : " Marruecos en la segunda Mitad del siglo XVIII " ; 1978 P. 208.

(5) GRILLON, 1970. N° 355, Salé 9 mai 1780. p. 828.

كنتيجة طبيعية لسوء التغذية، واستهلاك مواد غير ناضجة. تفشى وباء بين السكان. يبدو انه لم يكن معديا. إلا انه كان قاتلا، اذ مات بسببه، حسب رواية شينيي، الالوف من الناس في الرباط، وسلا، ومكناس، وفاس. ولعل هذا الوباء هو الذي اشار اليه ابن سودة، ناعتا اياه بالحمى. كما يتجلى من قوله : " وفي هذه السنة [1794 / 1780] كان بالمغرب مرض الحمى ومات به خلق كثير " (1).

لم يتغير السيناريو خلال جزء كبير من عام 1781.

فعلى مستوى التغذية، لم تكن مخزونات الطعام من المحصول السابق تكفي الا بشق الانفس لاقامة الأود على مدى اسابيع قليلة. بحيث اصبح الناس منذ شهر شتنبر يعانون من جديد من قلة المواد الغذائية المعروضة في الاسواق. يشهد على ذلك سلوك آليات الاسعار التي اشتدت وطأة غلائها مجددا ولما يمض على جميع المحاصيل سوى زمن يسير. وقد تمادى الغلاء على مدار السنة الجديدة (1731) كما يتضح ذلك من الارقام التي يقدمها سينتيي (2). وتتضح ايضا حدة الازمة الغذائية من عملية الغوث التي نظمها السلطان من جديد ابتداء من شهر شتنبر (3)، وخاصة من تواصل عملية استيراد الحبوب من الخارج. وبخصوص هذا الاستيراد، نعلم ان السلطان قدم لشركة اسبانية مبلغ 200.000 ليبرة لاستيراد القمح (4). نعلم ايضا ان عملية جلب الاقوات من الخارج تواصلت في الاشهر التالية. في شهر مارس 1781 لا غير، وصلت الى الرباط تسع سفن محملة بالقمح (5).

إن هذا الغوث والاستيراد يدلان في حد زاتهما على استمرار أزمة الجوع. اما عن ضحاياها الجدد، فنجد في الاشارات التي اوردها شينيي ما يدل على سقوطهم بالجملة. في 15 دجنبر. كتب يقول : إن عددا كبيرا من الناس يموتون جوعا (6). وأخبر. بعد شهر، بانه يتم العثور على صرعى الجوع في البوادي وحتى في ازقة الرباط. مضيفا

(1) ابن سودة " اتحاف المطالع "، مخ خ ح ر، حوادث 1194 هـ.

(2) GRILLON, 1970; n 355. Salé 9 mai 1780, p. 828 ; n°378 Salé 10 sep. 1780, p. 851; n° 395. Salé 29 nov 1780, p. 380 ; n°406. Salé 15 janvier 1881, p 895. n°416 Salé mars 1781, p. 912.

(3) GRILLON, 1970 ; N°378, Salé 10 Sep. 1780, p. 851.

(4) GRILLON, 1970 ; N°386, Salé 10 Nov. 1780, p. 872.

(5) GRILLON, 1970 ; N°416, Salé Mars. 1781, p. 912.

(6) GRILLON, 1970 ; N°398, Salé 15 Janv. 1781, p. 895.

بأن حالات مماثلة سجلت في كثير من أقاليم البلاد (1). ثم اشار، في 20 ابريل، الي تفشي المجاعة بمراكش وهلاك الكثيرين بها (2).

على مستوى الدورة الزراعية. واجه موسم 1780–1781 نفس مشاكل الموسم السابق. فبسبب املاق الفلاحين. بقيت كثير من الاراضي بورا (3). ولم تتمكن بعض المناطق في الغرب من النهوض الا بفضل مساعدات الدولة. حيث اقرض السلطان قبيلة بني حسن 150.000 ليبرة لتتمكن من بذر جزء من اراضيها (4). والى هذه المصاعب. انضافت قلة الامطار التي تميز بها خريف 1780 وشتاء 1780–1781، مما اخر عملية البذر. الا انها تهاطلت بعد طول انتظار. ثم بعد انحباسها في شهر مارس، تهاطلت بغزاره في الشمال خلال الشهر التالي مما زرع الامل في القلوب وبشر بالحصول على صابة طيبة ، اما في الجنوب، فلم تتساقط سوى امطار قليلة (5).

استتبع ذلك ان اتخذت المجاعة نطاق المحلية. فقد محاها نجاح المحصول في الشمال، بينما استمر الجنوب يعاني من ويلاتها. ويعكس سعر القمح هذا التباين. فبينما هبط في الشمال الى 36 ليبرة. بلغ في مراكش 100 ليبرة (6).

استمرت المصاعب خلال المرسم الفلاحي الجديد (1781–1782). فالامطار تأخر هطولها مرة اخرى. وفي مجموع البلاد. استتبع ذلك اختفاء المواد الغذائية من الاسواق. وارتفاع اسعارها حتى بلغ القمح في الرباط 50 أوقية للمد (7). في حين انه كان يباع في وقت الرخاء بخمس أواق فما دونها (8). وقد وصف صاحب " الاغتباط " هذه الحالة بقوله : " وانقطع الزرع الصويني من الرحبة وكذلك الخروب والزيت والكرموس والشعير والذرة والبشنة وخلت الاسواق من ذلك كله وهاجت الاعراب في البوادي يأكل بعضهم بعضا " (9).

ومنذ شهر اكتوبر نظمت صلوات الاستسقاء بالرباط في جو من الخوف والهلع. اذ

(1) GRILLON, 1970 ; N° 406, Salé 15 Janvier. 1781. p. 895.

(2) GRILLON, 1970 ; N° 423, Salé 20 Avril. 1781. p. 933.

(3) في 29 نونبر 1780، اخبر شينيي بان جل الأراضي بقي غير منزرع لأن الملاك لا قدرة لهم على خدمتها، نفس الرسالة المشار إليها في الهامش 37.

(4) نفس الرسالة المشار إليها في الهامش 44.

(5) GRILLON. 1970, N° 423,Salé 20 Avril. 1781. p.932

(6) GRILLON. 1970 ; N° , Salé Nov. 1781. p. 964.

(7) محمد الضعيف، مصدر سبق ذكره، ص 183.

(8) انظر الجدول.

(9) بوجندار " الاغتباط بتراجم أعلام الرباط " تحقيق عبد الكريم كريم، 1640.

يذكر نفس المؤلف ان الناس " اخذوا في البكاء والعويل وزيارة الصالحين ويشتشفعون لله بالمصاحف. وكانت اليهود تخرج بجموعهم " (1). وقد اعيدت صلاة الاستسقاء بعد ذلك ثلاث مرات الى ان رحم الله عباده وتهاطلت الامطار في شهر ابريل. ويستشف من رواية شينيي ان هذه الامطار كانت غزيرة في الشمال قليلة في الجنوب، حيث استمر الهالكون جوعا يتساقطون في مراكش ونواحيها (2).

وحسب المصادر المغربية، فان الشدة بدأت تخف مع حلول عام 1197هـ/ 1782-1783م حيث « مطر المغرب وكثر الخصب ورخصت الاسعار " (3). الا انه كان يلزم. كما لاحظ شينيي منذ يناير 1780. مرور سنوات طويلة قبل ان تستعيد البلاد سيرتها الاولى (4).

4 - النتائج

حاولنا فيما سبق تقديم صورة عامة عن الجوع في عهد سيدي محمد بن عبد الله، وهي صورة ناقصة ما في هذا شك . لكنها تظهر لنا . مهما كانت ثغراتها ان البلاد نكبت بكارثة فادحة. يتقى علينا الآن ان نحاول الوصول الى بعض النتائج التي تمخضت عنها.

أ - النتائج الديموغرافية :

ان سرد كل مالدينا عن هذا الجانب لا يستغرق وقتا طويلا. اذ من العبث ان نحاول تقديم تقديرات لا تسمح بها معلوماتنا الضئيلة. فنحن لا نعثر في النصوص الا على مجموعة من الاشارات والعبارات العامة التي تدل على وقوع الموت الجماعي. كهذه العبارة : " ومات خلق كثير جوعا " او " ابتدأ الغلاء بالمغرب الذي كاد يفنيه " ؛ او " البلد التي كاد ان يبلغ اهلها التراق. وكاد ذلك الغلاء يستأصلهم بالاطباق وان تقوم قيامتهم على ساق ". فيما عدا مثل هذه العبارات. التي ترمز على اية حال الى ارتفاع عدد الضحايا. هناك تقديران عن نسبة الخسائر الاجمالية. اولهما للناصرى الذي يؤكد ان ازيد من نصف عدد السكان تعرض للموت جوعا " (5). والتقدير الثاني لشينيي الذي يقرر ان نسبة الوفيات بلغت اكثر من سدس مجموع السكان (6). ولعل هذا التقدير الاخير اقرب الى الواقع. فقد كان شينيي شاهد عيان للمجاعة. وهو الذي زودنا

(1) المرجع نفسه.

(2) GRILLON, 1970 ; N°469, Salé Tanger 19 Fev. 1782, p. 986.

(3) ابن زيدان " اتحاف أعلام الناس "،ج 2، س 176.

(4) GRILLON, 1970 ; N°339, Salé 10 Jan. 1780, p. 793.

(5) "الاستقصا " ج 8، ص 49.

(6) GRILLON, 1970 ; N°470, Tanger 27 mars. 1782, p. 998.

بأوفر المعلومات عنها. كما انه سافر خلالها من الرباط الى مراكش (بين 11 و18 شتنبر 1781)، وعاين الخراب والتدمير اللذين احدثتهما. فكتب يقول : " منذ خروجي من هنا [الرباط] مررت بمائتي محطة ولم أجد سوى اماكن قفار تكاد تكون غير مسكونة. ومدن اصابها الخراب " (1).

ما يمكن استخلاصه من مثل هذه الاشارات،. ومن هذين التقديرين. ان المجاعة كانت طاحنة اودت بعدد كبير من السكان، ولعلها تمثل اسوأ ماعرفه هذا القرن من مجاعات. خصوصا وانها عمت جميع البلاد، وتمادت في الزمان، بين مد وجزر، زهاء ست سنوات.

ب - تقلص مداخيل الدولة :

من المعروف ان سيدي محمد قام بمجهودات كبيرة من أجل استرجاع ما تبقى من الثغور المحتلة. كانت اخرها المحاولة الفاشلة في مليلية عام 1775. هذه المجهودات تطلبت من الدولة نفقات باهظة. تمكن السلطان من تغطيتها بفضل المداخيل الجمركية التي شهدت في عهده نموا مطردا. لكن مباشرة بعد رفع الحصار عن مليلية. بدأت المصاعب الاقتصادية في المغرب. وتفشى الجوع، وانهار حجم التجارة الخارجية ومعه المداخيل الجمركية. بموازاة ذلك. انكمشت الحياة التجارية الداخلية. مما وجه ضربة اخرى الى مداخيل الى مداخيل المكوس التي استحدثها السلطان منذ بداية حكمه. الى هذا ينبغي ان نضيف الجانب الاول من الاعباء الذي فرضته المجاعة. والمتمثل في استيراد الحبوب من الخارج.

فرض هذا الوضع على الحكم المركزى ضرورة التشدد في جباية ما بذمة القبائل من واجبات متأخرة. من زكوات واعشار. والحال ان هذه القبائل كانت تعاني وقتئذ من فقر مدقع. بحيث كان من شأن الزامها بالدفع ان يقوى اتجاهها الى الرد بالعنف ورفع راية العصيان.

ذلك ما حدث في الجنوب. عندما وجه السلطان ابن عمه ووزيره ابا الحسن علي بن الفضيل لالزام قبائل درعة بالاداء. اذ كانت النتيجة ان شتت البربر جموع هذا الاخير، وقتلوه بجبل صفرو (دجنبر 1777) (2). لم يكن اذن بالامكان جمع الضرائب الا بوسائل الردع. وقد وجه السلطان بالفعل جيشا قويا اثخن في البربر واستوفى منهم المال بالقوة (3).

(1) GRILLON, 1970 : N° 449, Salé Nov. 1781, p. 964.

(2) محمد الضعيف، مصدر سبق ذكره، ص 1797.

(3) GRILLON, 1978 ; op. cit., p. 202.

ما حدث في الجنوب، حدث في جهات اخرى. فقد ثارت كثير من القبائل الجبلية المجاورة لفاس ومكناس، وثارت قبائل تادلا، وآيت اسحاق وغيرها، ورفضت أداء الضرائب في الوقت الذي كانت تعاني من الجوع.

وعلى ما يظهر، فقد اقتنع السلطان بعجز رعاياه. اذ أن المصادر المغربية تخبرنا. بدون اية توضيحات اخرى، بأنه أوقف جباية الضرائب لمدة اربع سنوات. ولا يهمنا هنا ان نخوض فيما اذا كان هذا الاجراء قد هم قبائل السهول لاغير ام استفادت منه ايضا قبائل الجبال. والاطراف الهامشية. المهم ان نسجل ان المجاعة وجهت ضربة قوية لمداخيل الدولة، وهذا في الوقت الذي زادت فيه من اعبائها.

ج - اضطرابات المعدمين

ان شدة طاحنة، كهذه المجاعة ، يتبعها حتما حدوث اختلال الامن وديوع اعمال السلب والنهب فان اليأس الشامل الذي تملك الفئات الفقيرة، كان كافيا لتبرير اللجوء الى السطو والعنق، وسرعان ما لم تعد القوافل المحملة بالغلال، ومخازن الاقوات، والبهائم ، بآمنة من الهجوم عليها.

من امثلة ذلك ما حدث في نواحي الرباط، حيث تضخم عدد قطاع الطرق الذين كانوا يقومون بعملياتهم في عصابات كبيرة تضم 200 وحتى شخص وحتى 300 شخص (1). في 13 يناير 1781 ، هاجموا قافلة حجاج على بعد ست مراحل من المدينة، ونهبوها وقتلوا وجرحوا عددا من افرادها (2). وفي غضون ماي، توغلوا حتى الى اسوار المدينة واختطفوا ما وجدوه هنالك من بهائم (3).

وقد بلغ من جرأتهم أن هاجموا، في 13 نونبر، قافلة مسلحة واستولوا على بعض ماكانت تحمله، ومن جملته كتاب نفيس اقتناه السلطان من أوربا ووجهه مع القافلة نحو تطوان (4).

ادت هذه الحركة الى قطع المواصلات وشل عملية تموين المدينة مما تسبب في مزيد من الغلاء عانى منه على الاخص الضعفاء. في يناير 1781، وفي الوقت الذي كانت فيه الرباط تعانى من قلة الاقوات، كانت قافلة تموين كبيرة، مكونة من 600 جمل،

---

(1) GRILLON, 1970 : N° 426, Salé 14 Mai. 1781, p. 936.

(2) GRILLON, 1970 : N° 406, Salé 15 Janv. 1781, p. 895.

(3) نفس الرسالة المذكورة في الهامش 60

(4) GRILLON, 1970 : N° 448, Salé Nov. 1781, p. 964.

توجد مشلولة منذ عشرة ايام على بعد من المدينة في انتظار وصول التعزيزات لتفادى اخطار الطريق (1).

لم تكن اللصوصية بقاصرة على الرباط. بل وقعت حركات مشابهة في جهات اخرى. واتسعت في بعضها حركة المعدمين لتتخذ طابع انتفاضة عامة. ذلك ما حدث في الشاوية حيث كانت القبائل تغير على القوافل وتنهب المسافرين الى حد انه اصبح من اللازم على كل من ارغمته الحاجة، ان يسافر عبر الطريق البحري، يقول محمد الضعيف : " كان لا يقدر احد ان يذهب لمراكش على بلاد الشاوية وكل من جاز عليهم اكلوه ونهبوه حتى ان السلطان برح ان كل من جاز على الشاوية فلا يلوم الا نفسه، ومن اراد مراكش او سوس او زمر او الصويرة فليركب في البحر " (2).

ومن الطريق ان نشير الى ان المؤلف نفسه، الذي دعته الحاجة خلال هذه المجاعة الى زيارة اخيه، وهو فلاح في الشاوية اضطر الى السفر اليها بحرا (3). كذلك الامر بالنسبة للسلطان، عندما قرر فتح اهرائه بالجديدة لاغاثة اهل الرباط، حيث أنه لم يجد بدا، هو الآخر، من استعمال الطريق البحري (4).

كانت هذه التحركات في نشوئها وتبلورها تعبيرا عن البؤس الاجتماعي لاكثرية السكان، وفي نفس الوقت احتجاجا ضد هذا البؤس وسلاحا لتجاوزه. ولئن كانت عابرة، وقصيرة الاجل، فانها اشاعت قدرا كبيرا من الفوضى والارتباك. وكان على المخزن ان يواجهها بتجريد الحملات. الا ان الوقت لم يكن الوقت الذي تأخذ فيه الدولة زمام المبادرة في علائقها مع المتمردين. فالوهن الذي اصابها كان يقعدها، احيانا، عن القيام بدورها التقليدي. في نونبر 1779، عندما دخلت قبائل الشاوية في تمرد مفتوح، كان سيدي محمد يوجد بالرباط، وكانت كل الدلائل تشير الى انه سيخرج منها لقمع التمرد، ولقد خرج بالفعل في بداية دجنبر. لكن في طريقه اليها، ظهرت بوادر الوهن في جن من الفرسان، واضطر امام نقص الغذاء وضعف فرسانه الى ان يعود ادراج دجنبر، قرر تسريح جيشه والتوجه الى عاصمته، تاركا الحبل على غاربه

في غضون 1781، قرر السلطان توجيه حملة جديدة ضد ا
وحشد من اجل ذلك 15.000 جندي. الا ان الحملة فشلت ك

(1) الرسالة المذكورة في الهامش 61

(2) محمد الضعيف مصدر سبق ذكره، ص 182.

(3) المصدر نفسه.

(4) نفسه

ولعدم الانضباط الذي ظهر بين جيشه، حيث كان الجنود ينهبون بعضهم بعضا، ويبيعون للمتمردين سلاحهم (1).

وهكذا نلاحظ مدى الاعياء الذي أصاب جيش السلطان من جراء هذه المجاعة. فلا عجب اذن اذا كثر المتطاولون على سلطته، بمن فيهم عبيده الذين تجرأوا على رفع راية العصيان من جديد ثم ولده مولاي يزيد الذي كلف بقمع التمرد، فاذا به ينظم اليهم بعد أن بايعوه.

على ان مثال الشاوية يقودنا الى ملاحظة اساسية، وهي انه اذا كان السلطان قد فشل في فرض الامن في الشمال، وفي اقليم يدرج ضمن ما يسمى ب " بلاد المخزن " ، فما بالنا به في الاطراف والجهات الهامشية ؟

د - زحف الجبليين

ان الاخبار التي وصلتنا عن هذه المجاعة تهم عموما، كما لاحظنا ذلك دون شك، السهول الاطلنتكية. لكن اذا كانت هذه الاخبار تعكس لنا صورة قاتمة عن الحالة في السهول التي تعد اغنى جهات البلاد، فان هذا يعني ان الحالة كانت اسوأ بكثير في المناطق الجبلية التي تتميز عادة بعجز مواردها عن تأمين الحاجيات الغذائية لسكانها نظرا لمجالها المحدود بحكم الطبيعة. ونعرف ان الجبليين، الذين كانوا يعيشون على هذا النحو في توازن متقلقل مع بيئتهم القاسية، كانوا يصبون دائما فوائضهم في السهول القريبة او البعيدة كلما تهيأت لهم الفرصة، كما حدث، مثلا، في اعقاب وفاة مولاي اسماعيل. ولئن كان سيدي محمد قد اوقف هذه الحركة ، فان ظروف المجاعة دفعت من جديد ابناء الجبل الذين عضهم الجوع، الى البحث، خارج الجبل، عما يؤمن استمرارهم في الحياة.

كان على السلطان ان يجرد من جديد الحملات لصد هذا الاجتياح. فوجه في غضون عام 1777 جيشا من 10.000 رجل ضد البربر المجاورين لمكناس (2).ثم بعد انهزام هذا الجيش. خرج بنفسه، في 26 اكتوبر، على رأس 12.000 رجل (3). بيد ان هذه الحملة لم تفسر، فيما يظهر، سوى عن نتائج محدودة وعابرة. وعندما غاد مدينة مكناس، في اكتوبر من السنة التالية، انفسح المجال امام الجبليين، وعاشوا في السهول(4).

---

(1) GRILLON. 1970; N° 474 Salé Mémoire général pour l'année 1781.

(2) GRILLON, 1970; N° 164. Salé 28 sep 1777 P. 581

(3) GRILLON, 1970; N° 167, Salé 8 oct 1777 P. 588; et n 179. Salé Nov. 1977. P. 579.

(4) GRILLON. 1970; N° 311, Salé 18 oct 1779 PP. 773-74

إن التحرك الجديد، والأهم هو الذي قام به بربر آيت يمور من قبائل صنهاجة. كان سيدي محمد قد ألجم شكيمة هذه القبيلة مرتين : في 1763 ثم في 1768. ومنذ ذلك الحين استكانت، الى غاية 1782. في هذا التاريخ، والمجاعة لا تزال تعصف بالمغرب، ظهر فيهم المدعو محمد الحاج اليموري الذي ادعى الولاية والكرامات، مبشرا بقرب ظهور المهدي المنتظر. وفي ظل الاجواء المضطربة التي ولدتها المجاعة. لقيت حركته نجاحا كبيرا و " قصده البربر من كل قبيل " (1). ومن ثم انفجر غليان آيت يمور بعد ان بقي مكبوتا مدة طويلة ؛ فقاموا بهجوم واسع النطاق ضد اهل زرهون وعرب سفيان وبني مالك وعندما حول قائد سفيان، أبو عبد الله محمد الهاشمي، ردعهم، في جيش مخزني استنفره بدون اذن السلطان، هزموه شر هزيمة. واحتزوا رأسه. تجرأوا بهذا الانتصار، وعاشوا في أراضي سفيان وبني مالك، ولم تبق بمنجى حتى مطامير الاقوات (2).

في وقت لاحق، تمكن السلطان من تدارك الموقف، لكن ذلك تطلب منه الخروج من مراكش الى الشمال بقوة رادعة قوامها 20.000 رجل (3).

إن هذا المثال يبين لنا، بشكل ملموس، كيف ان المجاعة زادت من أعباء خزينة الدولة في الوقت الذي امتصت فيه قسما كبيرا من مواردها، في ماي 1780 كتب شينيي يقول : " ان هذه الخزينة التي حرص السلطان على ان تكون مملوءة، تستنزفها اليوم المصاريف التي تتطلبها تعبئة الجيوش. والتي استلزمتها الثوارت المتولدة عن ضعف المخزن " (4).

ان المجال لا يتسع هنا لعرض تاريخي مفصل عن الاضطرابات والثورات التي حدثت نتيجة للمجاعة. فالامثلة المتقدمة كافية. على سبيل الاستشهاد لا الحصر، لاعطاء فكره عامة عن نتائج القحط والغلاء التي تجمعت لتحجب ملامح قوة الحكم المركزي. والامن، والازدهار. تلك الملامح التي كانت قد لاحت بعد تولية سيدي محمد.

(1) الناصري " الاستقصا "، ج 8، ص 50.

(2) محمد الضعيف، مصدر سبق ذكره ص 183، انظر كذلك لوريدو، ص 212 وما يليها.

(3) محمد الضعيف، مصدر سبق ذكره، ص 183.

(4) GRILLON. 1970; n° 355. Salé mai 1780 P. 829

مستويات الكتابة التأريخية
عند الزياني : البستان الظريف نمودجا

د. لحسن أغزدي
كلية الآداب بفاس

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها السادة الافاضل

عندما علمت بمشاركتي للمرة الثانية في أيام هذا الملتقى، انتابني نوع من الحشمة ونوع من الفرح : نوع من الحشمة لأنني وجدت المحاور المقترحة بعيدة شيئا ما عن الفترة المعاصرة التي أدرسها، ونوع من الفرح لأنني سأحضر عرسا ثقافيا يقيمه أمراء التحقيق والتدقيق وكتابة تاريخ الدولة العلوية الشريفة. فمن خلال مقابلات الافكار ومن خلال محاولات التأثير سيحاول الجميع ايصال ما جد من معلومات او تقويم وتطوير معرفتنا فالمستفيد الاول من هذه الايام هي مسيرة البحث التاريخي. وشكرا على الدعوة الكريمة.

ايها السادة

ماذا يمكنني ان أقول ؟ وكيف يمكنني ان أرغب الحاضرين ؟ فاذا كنت غير مختص في عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله، قلت إن جولة داخل « البستان الظريف » المصدر الرئيسي لهذا العصر، ثم الادلاد برأي او بتصور او بانطباع ربما يحفظ ماء الوجه، وان كان التصور والانطباع ينمان عن طفافة المعلومات فالكلام هنا ليس بأجمل من السكوت ولكن ليس كل متطفل يعد نبيها.

فالمصدر المقصود هو « البستان الظريف » في دولة اولاد مولاي الشريف لبلقاسم بن احمد الزياني الذي حظي بعناية خاصة من قبل مؤرخ المملكة الاستاذ عبد الوهاب بن المنصور والذي كون اخيرا موضوع رسالة جامعية لباحث شاب ينتسب لكلية الاداب التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله، فمعذرة اذا جاءت مداخلتي على شكل آراء مختزلة، اتمنى ان لا تنشأ عن ظاهرة الاختزال ظاهرة سوء الفهم او الفهم المضاد. وهذه ضريبة من يطارده الوقت.

فإذا تكلمت اذا عن البستان فأنا لا أدعي كشف النقاب عن مصدر مجهول لدى مؤرخي الدولة العلوية، ولكن مداخلتي ترمي الي تسليط بعض الاضواء على مستويات الكتابة التاريخية عند الزياني وعلى العالم الذهني لصاحب البستان.

فالبستان يقدم تصويرا عاما وواضحا ودقيقا للاحوال الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية التي كان عليها المغرب قبيل وأثناء وبعيد حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وحتى لا نشوه الزياني، الحولي والمؤرخ والروائي، نقول إن اعمال الرجل تؤلف كلا معقدا لا يقبل التجزئة، الا ان منهجية التبسيط والتهذيب وهاجس توضيح الكتابة المعقدة الابعاد هو الذي فرض علينا استبداد هذا التقسيم.

وفيما يخص احداث الفترة الاولى التي لم يعاصرها المؤلف، نجد الزياني ينتقي أخبارها من مصادر سبق ان دونها غيره امثال الافريني في "روضة التعريف " واحمد بن عبد العزيز العلوي في " الانوار الحسنية " فالزياني انحصر همه هنا في نقل الاخبار بشئ من التصرف احيام من الاختصار او الاطناب احيانا أخرى، مدعيا انه لم يقف الاعلى تقاييد غير مجموعة وان تاريخ الاشراف العلويين لم يضع فيه أحد من اهل الوقت تأليفا.

ورغم هذا الزعم فالبستان يتمثل بنوع جديد من الوعي المنهجي الحولي وينفرد في طريقة التنظيم والعرض الكرونولوجي واستغلال الرواية الشفوية، كما ينفرد بأخبار بعض الاحداث التي وقعت مباشرة بعد وفاة السلطان مولاي اسماعيل يقول الزياني : «... الى ان حصلت على الحظ الاوفر مع ما تلقيناه من اشياخنا... »...ومن اسلافنا في دولة السلطان مولاي اسماعيل ومن بعده من اولاده ... فجمعت تلك الشوارد من اماكن المرعى والموارد ...» وهذه الميزة تعطي لعمل الزياني بعدا تاريخيا يسد الخلل الذي اتسم به كتاب (1) Braithurait الذي رافق السفير John Russel الى المغرب سنة 1727-28.

فالصورة التي يقدمها الزياني عن مغرب هذه الفترة هي صورة بلاد انهكته سلسلة من الكوارث الطبيعية والانسانية وتستثنى منه تالاجزاء الجنوبية والصحراوية التي لم تعرف هذه الهزات المجتمعية وذلك بفضل حنكة ومهارة واستقامة ووفاء الامير سيدي محمد بن عبد الله الذي كان والده السلطان مولاي عبد الله قد عينه خليفة له على هذه المناطق.

أما القسم الثاني من البستان الذي تناول عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فتعتبر ابوابه أطول ابواب المؤلف وأطرفها وأخصبها وأثراها. وتتحلى اهمية هذه

الابواب في كونها تنفرد بكثير من الاخبار والمعلومات التي تجعل البستان مصدرا بالدرجة الاولى لدراسته هذا العهد. وذلك لان الزياني عاصر الحقبة ولانه كان من الخدام المقربين للسلطان : « فروينا ما شاهدناه وحضرناه في دولة السلطان الجليل الماجد الاصيل سيدي محمد بن مولانا عبد الله ... ويعلم الله ما بدّلت ولا غيرت ... ولاذكرت إلا ما اعتقده...».

فالزياني الذي توخى الدقة والضبط في الكتابة سلط أضواء تجعلنا نراجع مواقفنا من بعض الافكار الجاهزة والمتعلقة باحوال المغرب الداخلية والخارجية وبجوانب أخرى كثيرة مثل نظام ودور قبائل الجيش، وترويد عبيد البخاري والحد من صراعات وتحركات قبائل الاطلس المتوسط والدفاع على الشواطئ المغربية وتحرير أسرى المسلمين من جميع أيالات الكفار، ومجهودات السلطان الرامية التي تحديث البلاد، كل هذه الاعمال الجليلة تطلب انجازها مؤهلات استثنائية وكفاءة عالية وشخصية قوية.

والزياني في هذا القسم لم يكتف بدور الحولي الذي ينحصر همه في تدقيق الاحداث لاغير بل نجده مؤرخا مرسا دشن بداية نوع جديد من الوعي المنهجي الواضح والذكي، اذ حاول فهم سر تسلسل الاحداث وتحليلها وتعليلها ليصل الى فكرة المكتزمات المجتمعية[2] بل وبفضل رؤيته وفلسفته المدعمتين بالتجربة البشرية وبالمعرفة التاريخية والجغرافية حاول الزياني ان يضع الحدث داخل ما نسميه في الوقت الحاضر "بالزمن الطويل" وأن يعطي الاسبقية للاستتباب والانتساق في تطور الاوضاع على تحرك العامة. فأسفاره الطويلة الى بلدان العرب والعجم جعلته يقلب المرآة ليرى أحوال بلاده من الخارج وفي شموليتها. فجداله وفلسفته ومفهومه للسياسة يعطي نوعا من السمك والمصداقية للكتابة التاريخية.

وقد يطول بنا المقام في سرد أخبار سنوات عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله التي أرخ لها الزياني ولكن علينا ان نقول فقط أنها اخبار تكمل الاخبار التي ساقها بعض الاوربيين، وتطهرها من اشكال التشويه ومن بصمات المركزية العرقية وخاصة تلك الاخبار التي دونها كل من Louis chenier (3) وLemprière(4) وJackson الذين قاموا بمهام مختلفة في المغرب على عهد هذا السلطان العظيم.

(2) -ROM n24
- R.O.M. numéro spécial, page 195.

(3) Louis CHENIER. Recherches historiques sur les Mau et l'Histoire du Maroc 3 V Paris 170.

(4) - W. LEMPRIERE. Voyage dans l'Empire du Maroc et le Royaume de Fes pendant les années 1790-1791. Paris. 1814.

اما القسم الثالث والاخير من البستان فقد تناول الفترة التي تلت مباشرة وفاة سيدي محمد بن عبد الله. وتعتبر هذه الفترة منعطفا حاسما في تاريخ حياة بعض خدام الدولة الذين جعل حد لوظائفهم. فهي بالنسبة للزياني نقطة انطلاق لحلقة مغلقة ولسيرة ذاتية مؤثرة حيث نجده ينبش في ماضيه ويروي ذكرياته ويسرر سرائره ويكشف عن فواجعه الداخلية وعن مسيرته الروحانية، نعم لقد عرف الزياني خلال هذه الفترة الاهمال وزوال النعم بل كتب عليه خلالها الشقاء والتشرد والتعذيب وذلك لعدة اسباب، منها اخلاصه ووفاؤه لمبادئه، ومنها حدة لسانه وتجاسره على غيره من الامراء والقواد والكتاب والعلماء والاولياء ومنها خطابه الغير مناسب اي ثرثرته العبقرية التي لا تجلب الشعبية ومنها اخيرا عقله الاذع شأنه في كل هذا شأن أحد علماء بني جلدته الذي تقدمه بقليل والذي لم يستطيع ان يوفق بين مزاجه الفائض وبين وسط غريب ظنه معاد، وان كان الزياني ليس من نفس قالب هذا العالم.

فالزياني لا يقف من ركام الاخبار التي يرويها موقف الحياد بل كثيرا ما يتدخل، وبأسلوب روائي تعريضي، لتحديد موقفه من هذا الحدث او ذاك. فيصدر احكاما لا تخضع الا لهواه ولعاطفته، بل نجده ينهمك في محاولة جعل نفسه المركز الذي تدور حوله هذه الاخبار. فالحنين الى الافضل المفقود لا ينبثق الا عن نفس أصبح لديها التاريخ والوهم شيئين غير مختلفين. فالفضاء هنا فضاء حياة رجل يتصارع داخله الحلم واليقظة، والخيال والواقع، فضاء يتشابك داخله الاعتزاز والتواضع والهذيان والاماني الضائعة. فالقارئ يشعر ان الزياني يكتب حتى يكتب التاريخ عنه. ويروي حتى ينتقم من الحياة التي تخلت عنه. ولا غرابة في هذا الموقف اذا علمنا ان أبا القاسم كان قد بدأ في تأليف هذا الجزء من البستان وعمره قد تجاوز الثمانين فالزياني، من خلال هواجسه وذكرياته يبحث بدون شك عن سر يعيده الى نفسه والى هويته والى مكانته داخل عالم غدى آماله وأهواءه وسوغ اندفاعه كرجل سياسة وحرب منحك، وهل يطلب ممن بلغ هذا السن وممن أتى من حيث أتى وممن يتشبث بعلو كعبه الغير مفهم وممن دخل عالم الملحمة والاسطورة ان يراجع نظرته للكون وللتاريخ ؟

أظن أنه عندما تتغلب الرؤية الداخلية على الحقيقة الخارجية، يصبح التاريخ تاريخ الانا أي Ego-histoire وهذا النوع من التاريخ لا يستوجب ان توجه له المآخذ والانتقادات لان التناقض غير محرم علي من تألم كما يقول Sophocle.

فتح العليم الخبير
في تهذيب النسب العلمي
بأمر الأمير (سيدي محمد بن عبد الله)

د. عبد السلام شقور
كلية الآداب / تطوان

كتب الانساب من أهم المصادر التاريخية، هذا بالإضافة الى ماتقدمه للباحث في المجال الأدبي من نصوص، وماتمد به غيره من المشتغلين بالتراث من الفوائد. وقد كثرت عناية المغاربة بهذا الصنف من التآليف، وتجلى ذلك في القرون الأخيرة، وواكب قيام دول الشرفاء بالمغرب.

هذا، ولعله قد بات من المؤكد لدى الباحثين في تراث المغرب الأهمية المتزايدة التي صارت لشرفاء المغرب على جميع المستويات، وذلك ابتداء من العصر المريني، ولم يكن ظهور الأشراف كقوة سياسية إلا نتيجة طبيعية بذلك الدور الذي كان لهم قبل السعديين، وفي أيام بني مرين خاصة.

ومن بين الشرفاء الذين ظهروا على الواجهة السياسية مع بداية دولة الشرفاء العلويين، الشرفاء العلميون، فقد وجدناهم يتصلون بالسلطان الأكبر المولى اسماعيل، ويحصلون على ظهائر توفير منه لهم، وفي تلك الفترة بالذات اتجهت العناية إلى تدوين أخبار الشرفاء العلميين، وتم ذلك بأمر من ملوك الدولة العلوية الشريفة، ومما ظهر في هذا الموضوع على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله كتابنا هذا.

يعتبر كتاب « فتح العليم الخبير ... » من أهم المصادر المعتمدة في دراسة جبل «العلم » والمنطقة المحيطة به، إن لم يكن أهمها على الإطلاق.

وهو في ذلك صنو « الروضة المقصودة ... » لأبي الربيع سليمان الحوات، فهذا وإن يكن موضوعة مآثر بني سودة فإن فيه مما يخص جبل العلم ما ليس إلا في كتب أنساب العلميين.

لقد اشتهر كتاب « فتح العليم الخبير ... » بعنوان آخر هو : ديوان ابن الصادة ابن ريسون، وابن الصادق مؤلفه، وكثيرا ما كانت كتب الانساب تعرف بدوارين الأشراف.

ألف كتاب « فتح العليم الخبير ... » بأمر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله، عالم الملوك، وملك العلماء كما جاء في ديباجة الكتاب وبذلك اشتهر بين المعنيين بتاريخه وتاريخ عصره. ومما ورد في طالعة الكتاب قول مؤلفه :

« ... أما بعد فإن من أعظم منن الله تعالى علينا، وجزيل إنعامه وإحسانه الينا، أن جعل إمامنا الأعظم، وملاذنا الأفخم، من لب لباب الأشراف، ومعادن الجود والعلم والحلم والانصاف، سلسلة المجد واكتسب، التصوغة من نسل مولانا علي وفاطمة رضي الله عنهما، لامن الذهب ... مولانا الامام المظفر الهمام، عالم السلاطين : مولانا محمد بن أمير المومنين مولانا عبد الله، بن أمير المومنين مولانا إسماعيل ... ومما أمر به مولانا الإمام أبقاه الله عزا للإسلام، وإرهابا للكفرة اللئام، وأناله ما يرجوه من نيل المنى في الدنيا وفي دار السلام ... اعتناء منه بالنسب العلمي الطاهر، ومحافظة على مكانته وقدره الباهر ... ليعز ويعظم، ويجل ويحترم، تقييد جميع فروع الشرفاء العلميين ... »

وابن الصادق، مؤلف الكتاب، هو من شيوخ العلم الذين نقل عنهم غير واحد من المتأخرين المشتغلين بالأنساب، وهو سليل الزاوية الكائنة "بتازرولت، من قبيلة " بني عروس "، من جبل العلم "، وقد رودت ترجمته في « الشّرب المحتضر والسر المنتظر للشيخ جعفر بن إدريس الكتاني كما يلي :

« ... ومنهم : الفخر العلامة الصدر الفهامة، كريم الأخلاق، وطيب الاعراق ... الراوية الحجة في السلوك على طريق الصوفية : أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد الصادق، ابن ريسون الحسني، العلمي، اليونسي، توفي رحمه الله بوازان عام ستة وثلاثين ومائة وألف » [1].

وينتسب إلى بيته جماعة من الشيوخ، ذكر منهم الحوات :

أبو الربيع سليمان، هؤلاء :

- أبا الحسن علي بن ريسون [2]
- محمد ابن علي بن ريسون [3]
- علي بن محمد بن علي بن ريسون [4].

1 - الشرب المحتضر ص. 10 وانظره ايضا في الروضة المقصودة : مخ 298

2 - الروضة المقصودة. مخ. ص. 116، 281.

3 - الروضة المقصودة مخ. ص. 337، 363، 502

4 - الروضة المقصودة مخ. ص. 354

وعن «تازروت» موطن المؤلف قال الحوات في " الروضة " :

« ... قرية « تازروت »، وهي إحدى المداشر العلمية وهي الآن زاوية السادات أولاد ابن ريسون العلميين اليونسيين ... » [5]

وقد ظهرت زاوية « تازروت » على واجهة الأحداث أيام السعديين، وكان لأبنائها مساهمة في الحركة العلمية « بجبل العلم » [6].

استهل ابن الصادق كتابه « فتح العليم الخبير ... » المحرر بإمر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله والمرفوع إليه، بعد التحمد، والصلاة على الرسول الاعظم، صلوات الله عليه، بالحديث عن نسب ملوك الدولة العلوية الشريفة، ووقف عند ذكره مولانا محمد بن مولانا حسن القادم من « ينبع التحيل » عام 664. ليستطرد قائلا: وذلك بعد وفاة العارف بالله القطب الجامع مولانا أبي الحسن الشاذلي بسبع سنين، ثم استرسل في رفع نسب سيدي محمد بن عبد الله مرة ثانية بقصد الإشارة الى الصلة بين الشرفاء العلويين والشرفاء العلميين حيث قال عنه ذكره محمد المعروف بالنفس الزكية : واشقاؤه مولانا ادريس الأكبر ... ثم أثبت نظما لأحدهم في نسب السلطان سيدي محمد بن عبد الله ...

ويفهم من كلام المؤلف أنه كان وفد إلى مكناس في زيارة للأشراف العلميين، فلقي بها جماعة منهم كانوا بحضور السلطان ومما قاله في الموضوع عقب ذكر اسماء جماعة منهم : "... فانتفعنا والحمد لله في الحين بأخوتهم، وامتلأت قلوبنا بمحبتهم، وكيف لا والمحبة بيننا وبينهم موروثة عن الأسلاف، رضي الله عنهم، فقد كان بين العلامة القدوة سيدي عبد الله بن علي ... وبين العلامة القطب الكامل، ولي الله تعالى ... سيدي محمد بن علي بن ريسون الحسني العلمي محبة راسخة، ومودة خالصة، وقعت بينهما حين كانا بفاس، حرسها الله، في طلب العلم بمدرسة العطارين حكاية مشهورة ...".

لقد أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله المؤلف بان يمكنه، فيما قال، من نسخة من " فتح العليم الخبير ... " قال ابن الصادق : « وأذن لنا سيدنا نصره الله، بل أمرنا ان نمكنهم من نسخة من هذا الديوان المبارك، حرصا منه، ادام الله ملكه - وأيد في الصالحات ذكره، على حفظ نسب آل بيت النبي عليه السلام، وصونه عن ان يدخل فيه احد من العوام ». والظاهر من اشارات المؤلف ان التأليف وقع في مدينة مكناس.

---

5 - الروضة المقصودة مخ. ص. 281

6 - الحياة الفكرية ... للدكتور محمد حجي ص. 464

لقد ذكر المؤلف، كما رأينا، ان الغاية من تأليف الكتاب، حفظ نسب العلميين من أن يدخل فيه أحد من العوام، وبالرجوع الى المرحلة التاريخية التي تم فيها التأليف نجد حرص كثيرين من الناس آنذاك على الانتساب إلى آل البيت، رغبة منهم في تحصيل الامتيازات التي كان يخولها النسب الشريف الى صاحبه، ومن المعروف تاريخيا ان طائفة الشرفاء في المغرب ظلوا خلال مدة غير قصيرة يعاملون معاملة خاصة، فلا يؤدون مغرما، ولا يشاركون لابأموالهم ولابغير ذلك في القيام بأعباء الدولة ووظائف المخزن، ولما كثر المتشرفون تضررت مصالح الدولة بفقدانها كثيرا من مصادر التموين، ولذلك فقد صدر الأمر في أكثر من مناسبة، بالقيام بحصر دقيق للشرفاء، حتى لايدخل في الشرفاء غيرهم، وتكونت لهذه الغاية لجان خاصة تقوم بالإحصاء، وتمزق ما بأيدي الناس من وثائق زائفة تذكر انتسابهم إلى آل البيت [7].

قسم ابن الصادق مؤلفه ستة فصول :

الفصل الاول : فيما ينبغي ان يكون لاهل البيت النبوي من الخيرة على نسبهم

الفصل الثاني : في بعض فضائل اهل بيت النبي رضي الله عنهم

الفصل الثالث : في ذكر الجد الاكبر ... أبي محمد مولانا عبد الله الكامل

الفصل الرابع : في ذكر بنيه رضي الله عنهم

الفصل الخامس : في ذكر بعض أخبار مولانا إدريس الأصغر

الفصل السادس : في ذكر بنيه وبعض أخمارهم.

وتتفاوت أهمية فصول الكتاب، فإذا كانت مادة الفصلين الأول والثاني مما يستهلّ بها عادة مؤلفو كتب أنساب الشرفاء كتبهم، فإن في بقية الفصول فوائد واشارات ةليلة تفيد المؤرخ والباحث على العموم في التاريخ السياسي والأدبي للمغرب.

جرت عادة مؤلفي هذا الضرب من التآليف على حشد الآيات والأحاديث والآثار التي يرون فيهما دعما لموقفهم، وتأييدا لعملهم، وأقدم ما لدينا من ذلك صنيع ابن السكاك في كتابه : نصح ملوك الإسلام بما يجب عليهم نحو آل البيت الكرام، والكتاب كما هو معروف، ألف على عهد بني مرين، وبنو مرين هم من غير الاشراف، ولكنهم جعلوا من التقرب إليهم دعامة لحكمهم، ومن ثم فإن خديم الشرفاء في زمنهم : ابن السكاك حشد كل ما يستفاد منه في بيان فضل الشرفاء، وصار عمله فيما بعدمنهاجا يسير عليه المؤلفون في أنساب الشرفاء.وعليه فإن أهمية كتاب «فتح العليم الخبير»

7 – رسالة لابن القاسم الزياني في شرفاء المغرب . مخ.بدون ترقيم.

إنما يجب ان تلتمس في الفصول الاربعة الاخيرة. على ان ابن الصادق أورد في الفصل الثاني، وهو الخاص ببيان فضائل آل البيت وحقهم على غيرهم، إشارات تخص مؤلفات في موضوع كتابه، ونقولا عن بعضها، فقد ذكر كتاب : « جواهر العقدين في فضل الشرفين : شرف العلم الجلي والنسب العلي. للإمام جلال الدين الحسني السمهودي، والمفاضلة بين شرف العلم وشرف النسب قديمة، وللمقري الجد رأي معروف، وموقفه مع آحد شرفاء النسب في حضرة السلطان أبي عنان المريني مشهور، الحق أن موضوع الشرف شغل كثيرا من اهتمام القدماء، فكتبوا عن الشرف من قبل الأم، ومن ذلك كتاب « إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الام » ولابن قنفذ كتاب ينتصر فيه للشرف من قبل الوالد وقد سقنا هذه الاشارات بغرض بيان أهمية موضوع الشرف في كتاباتهم : ومن إشارات المؤلف واستطراداته المفيدة في الفصل الثالث ما ساقه من نصوص شعرية، منها أبيات لأبي العباس أحمد بن عبد العزير الهلالي الفيلالي، ومنها أيضا اشارته إلى ابي عبد الله القصار، الى ابن عرضون ، وإلى قبيلة الأخماس وعالمها الاشهر أبي الحسن على بن عبد الحق الصغير، صاحب التقييد على المدونة، ولعله من المفيد الإشارة إلى أن كتاب « الروضة المقصودة » يتضمن معلومات قيمة عن هذه القبيلة، فقد ذكر ابن الصادق في « ديوانه » بعض اعلامها، ومنهم : أبو عبد الله محمد الخمسي الزرويلي [8]، وذلك في جملة أشياء تخص القبيلة المذكورة، منها ذكره الأديب أبا الحسن على مصباح، "مؤلف أنس السمير، في مهاجاة (كذا) الفرزدق وجرير"، وعن هذا الكتاب يقول ابن الصادق : « ورأيت أصل مبيضته بخطه، رحمه الله، عندصاحبنا العلامة الاريب القاضي الأديب : أبي عبد الله سيدي محمد العربي المساري » هذا والكتاب مشهور اليوم بين الدارسين بعنوان « أنس السمير في نوادر الفرزدق وجرير » ومن علماء القبيلة المذكورين عنده أيضا : الصوني الكبير أبو عبد الله محمد، بن حيون، شارح الصلاة المشيشية، المتوفي في حدود ثمانين ومائة وألف بزاوية تازروت العليمة، ومنهم أبو الجمال يوسف بن الحسن الخمسي التليدى، وهذا من رجال التصوف المشهورين، كانت تشد إلى زيارته الرحال [9]، وقد ولد بالأخماس، وفيها نشأ وعظم صتيه ودفن بها. وهو من أعظم تلامذة القطب أبي محمد عبد الله الغزواني، وقد جاور بضريح المولى عبد السلام مدة، فأقام بمدشر تازروت، وبقي مدة في « بني زكار » تنيف على الثلاثين عاما. ومنهم الشيخ يوسف بن حليمة، جد الاشراف أولاد ابن حليمة، أهل زاوية « أدياز » و «أدياز » مدشر في سفح جبل العلم، لا يبعد

8 - الروضة المقصودة ص. 504

9 - الروضة 297

عن ضريح المولى عبد السلام إلا نحو ميلين. وهذه الإشارة ونظائرها كثير في كتابه اي في « فتح العليم الخبير » لا توجد في غيره، والظاهر أن الحوات أفاد منه في كتابه «الروضة » وهكذا يصح ماقلناه آنفا من أن كتب الانساب تؤرخ لجهة من المغرب أهملها مؤرخو الأحداث السياسية.

وبعد استطرادات مفيدة يرجع المؤلف إلى الغرض الذي من أجله حرر كتابه، فيقول : « ولنرجع لما نحن بصدده من الكلام على النسبة العلمية الطاهرة الزكية، وغاية ما في هذه النسبة العلمية أن « العلم » في اللغة هو مطلق الجبل، معرفا بأداة التعريف، ثم صار علما بالغلبة على الجبل الذي كان مستوطنا به القطب مولانا عبد السلام بن مشيش، ومات به، ودفن في قُنَّته، واستوطنه الشرفاء الأدارسة من آبائه وأعمامه قبله وقد انتهى بنا البحث في أصل تسمية هذا الجبل إلى ان تسميته بجبل العلم حديثه نسبيا، وهي لا تعود الى ماقبل القرن التاسع، وحتى نسبة الرجال إلى هذا الجبل حديثه لا تعود أيضا إلى ما قبل التاسع، ففي « الدرة » لابن القاضي ترجمة أحدهم، نسبه إلى الجبل، وقد أنت النسبة عنده مرة أخرى على هذا الشكل : «العلامي » بدلا من العلمي، وقد وقفنا أخيرا على مصدر نظن أنه يتضمن أقدم اشارة إلى هذا الجبل، والمقصود هو كتاب « المقصد الشريف » للبادسي [10] والبادسي يسميه جبل بني عيسى ، وبنو عيسى شرفاء علميون مايزالون في الجبل إلى اليوم. لقد وقف ابن زاكور كذلك عند اسم الجبل، ولم يخرج عمَّا هو وارد في ديوان ابن الصادق وزاد ابن زاكور، فتتبع أسماء المداشر الواقعة في جبل العلم، فرد كثيرا منها إلى أصول عربية، ومن المعروف أن ابن زاكورقصد ضريح المولى عبد السلام، وأقام في الجبل، ونظم شعرا في صاحب الضريح منه قوله : (الوافد)

قصَدْتُ ذُرَاكَ يَا نَجْلَ الكرَامِ ... أمقتبسَ المنى عبد السلامِ
قَصَدْتُ حمَاكَ حَامِي مَنْ اتَاهُ ... وقلبي بالتلهف جِد حامِ
قصدتك يا إمام الناس فذَا ... لأكْرَمَ في نداك بلازحَامِ
قَصدتُ مُحيطَ بَحْرك وهُو طام ... عَلَى حين احتراقي مَن أوامِ
فَهَلْ في الكأس، كأسَ الفضل فضلُ ... يحلُّ القلبَ من تلك المدامِ
وتُنْشِي الفكرَ سوْرَتُه فَيَبْقَى ... مدَى الدنيا مُنيراً في انطلامِ
مُدامَ ما حَوَاهَا الدهْر زقٌ ... ولم يُغلق عليَها بالفدامِ
يَحُوز مَن انْتَشَى مِنْهَا ثَنَاءً ... ويُوسَم مَنْ صَحَا منها بِذامِ
... (11)

---

10 – نشر بتحقيق الباحث الكبير، الاستاذ : سعيد أحمد أعراب.

11 – الاستشفاء من الالم لابن زاكور. مخ. ورقة 3

وتناول ابن زاكور أسماء المواقع بجبل العلم تحت فصل سماه : « فصل في ضبط أسماء وقعت في نسبه الشريف يعني نسب المولى عبد السلام وتعريف ما ظننت أنه يفتقر للتعريف، علما مني أن ذلك من تشنيف الشريف » ... [12].

ويتابع ابن الصادق حديثه عن جد العلميين، فيقول : « من لم يكن من ذرية سيدي أبي بكر بن علي الذي هو جماع شعب العلميين بأسرهم فلا يقال فيه علمي وإن استوطن « العلم » والمؤلف يستند في ذلك إلى جواب صدر عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن المسناوي، وكان سئل في الموضوع، هذا وللشيخ المذكور تعليق مفيد على كتاب : نصح ملوك الاسلام بما يجب عليهم نحو آل البيت الكرام » وهو معدود في النسابين. وأبو بكر الذي ينتسب إليه العلميون مقبور في مدشر « عين الحديد » «بني عروس »، وعلى هذا أجمع سائر الذين كتبوا في الموضوع، والضريح، على أي حال، معروف إلى اليوم هناك، أي بمدشر « عين الحديد » وأضرحة أجداد الشرفاء العلميين موزعة بين مداشر القبيلة « قبيلة بني عروس »، ذكرها ابن الصادق، ومنها ضريح "مشيش " او بشيش، بمدشر أغيل، وهذا المدشر اندثر اليوم وصار أطلالا، ومنها ضريح « سلام »، ولعل أصله عبد السلام على ماذهب إلى ذلك ابن زاكور في «الاستشفا » وهو الذي خرج من فاس « وتبوأ المحل الذي نشأ به نسله » من الشرفاء العلميين [12] وضريح «مزوار » ومن المعروف أن إقامة « نسل » العلميين بجبل العلم تعدد إلى حدود القرن الرابع، وقد حافظوا طوال حياتهم بالجبل على عادات ألفوها، ووصفها ابن زاكور فقال : « كلهم او غالبهم ... لا تجد منهم من يقصد عن شأو البنين الاربعة خيار عامر بن صعصعة، فيما ينسب إليهم من الخصال الأربعة فيطعمون الجفان المدعدعة، مع كون الارض ليست بمزرعة وينعشون من عسكر الدهر وجاءه ومطعمه ... [13] ويتتبع ابن الصادق في كتابه « فتح العليم الخبير » فروع الشرفاء العلميين فرعا فرعا، فيسميهم واحدا واحدا، ويعين أماكن وجود كل فرع معتمدا على تقاييد في الموضوع، منها تقييد للنسابة للحسين بن محمد بن علي بن ريسون العلمي، فعن ابن مشيش يتفرع الشرفاء ثلاثة فروع كبرى :

- أولاد سيدي موسى
- أولاد سيدي يملاح أو يملح
- أولاد سيدي عبد السلام

12 - الاستشفاء . مخ. ورقة 5

13 - الاستشفاء . مخ. ورقة 9

والمتتبع للمؤلف في هذا القسم يقف على فوائد جليلة تخص سكان جبل العلم وتحركاتهم وهجراتهم وأسماء المواقع والمداشر بالجبل، وقد أحصى ابن زاكور المداشر التي يوجد بها العلميون فوجدها أثنين وعشرين مدشرا موزعة على قبائل أربعة هي : بنو ليث، وبنو يدير، وبنو عروس وكذلك بنو يوسف، وقد احاطت « بالجبل المبرور، إحاطة الهالات بالبدور، واكتنفوه من جهاته اكتناف الظلمات لمطلع النور » على أنه ذهب إلى ان الجبل نفسه معدود من بلاد بني حسان، وهذا يخالف ماهو معروف اليوم، اذ هو في « بني عروس ».

وإني لعلى يقين من ان الباحث سيقف في كتاب « فتح العليم الخبير » على أعلام جغرافية وبشرية قلما يجدها في غيره، وذلك مثل أسماء المداشر الآتية : طردان، نزية، الحارش، الحصن (هو المدشر الذي اقام فيه السلطان المولى اليزيد، وبنى فيه قصره، وأطلال القصر ماتزال قائمة، وحول القصر كتب الاسباني « فيكيراس » بحثا طريفا نشر عام 1939 وتكزرت، وأفرنو (وهذا مدشر كان الصوفي الكبير أحمد بن عجيبة يقيم فيه، أثناء رحلته العلمية، وذلك حسبما ورد في فهرسته) تزية (ومن هذا المدشر المجاهد الكبير الذي قهر الاسبان، لم يتمكن لهم من احتلال جبل العلم إلا بعد قتله، وهو أحمد التزوي، وضريحه بجوار ضريح المولى عبد السلام [13]، ومن أسماء الأعلام التي تتردد عنده في هذا القسم : أولاد بن عبد الوهاب، أولاد الصيد، أولاد اللهيوي، أولاد الطالب، أولاد شقور،(ومنهم الشيخ الكبير النسابة أبو العباس سيدي أحمد ابن محمد الطيب العلمي المرسوي الشقوري، قدم والده إلى فاس، اخذ عن الحوات وعن أحمد بن التاودي بن سودة، وتوفي رحمه الله عام 1234 [14] منهم أولاد المجاهد ... ويعتمد ابن الصادق، فيما يقول، على « صحة الاستفاضة، وعدم الطعن، والروايات المتواترة ».

وقد ندت عن المؤلف لاشارة الى « ديوان » للأشراف، وضع عام 1148 هـ يظهر أنه لا يوافق ماجاء فيه بخصوص العلميين، وقد ذكرنا ان الناس تهافتوا على الانتساب إلى آل البيت، فكثرت الدواوين المنحولة ورفع ذلك إلى السلطان الأكبر : المولى اسماعيل فصدر عنه الامر بمراجعة بلك الدواوين، ثم تسرب الخلل إليها بعد موته، فكان ان أصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الله أمره إلى خديمه ابن الصادق بوضع ديوان جديد. فكان هذا الديوان الذي نقدم مواده.

---

13 - يستحسن أن ينتظر ما كتبه الباحث الاستاذ عزوز حكيم حول مولاى أحمد التزوي

14 - الشرب المتحضر ص 11

ليس غرضي هنا متابعة ابن الصادق وإيراد سائر الفروع التي ساقها فبذلك موضعه، وإنما قصد من عرض مراده في خطوطها الكبرى، ومقارنتها بما ورد منها في مصادر أخرى، وعليه أقول :

إن مؤلف « فتح العليم الخبير » يتفق فيما أورده بشكل عام مع غيره ممن عني بالشرفاء العلميين ويزيد عليهم بإشاراته العديدة التي سبق أن أتينا على ذكر بعضها، ومن ثم فإنه يعتبر بحق من المصادر الهامة بالنسبة للباحث في التراث المغربي، إن ابن الصادق لما كان غرضه تقديم قائمة دقيقة بشرفاء « العلم » فانه لم يقف عند حدود جبل العلم، بل ذكر العلميين الذين خرجوا من الجبل، وأقاموا في مدن أوجهات أخرى فذكر الشرفاء العلميين في مراكش، وفاس، وشفشاون، ووقف طويلا مع شرفاء شفشاون، وسمى جماعة من أعلامهم، وفي ذلك كله مادة هامة تضاف إلى ماتقدمه كتب التراجم في مجال التاريخ للحياة العلمية، هذا ، ومعلوماته تتطابق مع مانعرفه اليوم من أحوال الشرفاء بالعلم،وقد يستفاد من ذلك أن أحوال الجبل لم تعرف تغييرا يذكرولكن لابد من التنبيه على ان حدود بعض القبائل المجاورة له قد تغيرت، وقد رأيناه يذكر ان ضريح ابن مشيش موجود داخل " بني حسان " وهو اليوم في بني عروس "، ومن قبيل ذلك أن مداشر كانت تعد من بين يدير هي الآن معدودة في بني عروس[15].

وقد استفدنا من الروايات الشفوية أن بداية هذا القرن شهدت صراعا عنيفا بين "بني عروس " و"بني يدير" حول مداشر تقع بين القبيلتين هي : أغبالو، تلفتا .. وشارك في هذا الصراع المجاهد المذكور آنفا ونفي به أحمد التزوي. وانتهى بضم تلك المداشر إلى بني عروس بعد معارك ضارية، مازال صداها يتردد في الجبل بين الشيوخ إلى اليوم، واهتم ابن الصادق بأبناء بيته، فذكر اعلام البيت الريسوني، ومن المذكوري الحسن بن محمد بن علي ريسون، قال إن له مؤلفات في السيرة النبوية وفي مناقب والده وجده وعمه، وتأليفا في أنساب أهل البيت النبوي ومظهر أن الكتاب الاخير وان من عشرات الكتب التي ألفت في الشرفاء وما اكثر ما الف في الموضوع : ختم ابن الصادق كتابه بقول : « هنا انتهى والحمد لله ما أردنا جمعه وتقييده بالأمر المولوي المطاع المؤيد بالله، من تقييد السادات الأشراف العلميين وتقييد فروعهم ومساكنهم ... في السابع عشر من ذي القعدة عام واحد وتسعين ومائة وألف »

هكذا ينتمي هذا الديوان الخاص بتهذيب النسب العلمي الذي تم تحريره على

15 - ينظر في هذا الموضوع وثيقة هامة بحوزة الباحث الدكتور محمد بن عبود

ماذكرنا بأمر من السلطان ليري محمد بن عبد الله، وعناية ملوك المغرب بالشرفاء قديمة، فمن خلال رسالة لأبي القاسم الزياني [16] يبدو أنه كان لشرفاء المغرب على عهد المرابطين مزوار أو نقيب يرجعون إليه، قال أبو القاسم الزيان في رسالته المذكورة : «... وفسدت طريق النقابة يعني نقابة الاشراف، وكان منصبها في دولة بني أمية وبني العباس، يعدل منصب الوزارة، لا يتقلدها إلا العلماء العارفون ... وكانت الانساب محفوظة من الاخلاء » [17] ثم ذكر أن النقباء كانو يأخذون أجورهم من بيت المال وأضاف « وكذلك كان شأن النقابة ... أيام لمثونة والموحدي وفي مرين والسعديين إلى ان مات المنصور منهم، واشتغل أولاده بالحروب على الملك فأهملوا أمر الاشراف والنقباء» [18].

وما كادت دعائم الدولة العلوية الشريفة تتوطد أيام المولى الرشيد حتى بادر السلطان الأعظم : مولانا اسماعيل رحمه الله إلى إعادة النظر في الأمر، فوجد أمر الاشراف مختلا، وكادت الرعايا أن تصير كلها أشرافا، لما كان الاشراف يعفون من اداء الرسوم المخزنية. وقد أدى ذلك إلى إعادة النظر في تنظيم نقابات الأشراف، وتم تعيين لجان فرز تميز الشرفاء من المتشرفين، وتوجهت لجنة إلى فاس، ومراكش، ومكناس وإلى غيرها من الحواضر، وكان يرأسها أحد خدام الدولة، تسميه المصادر : عبد القادر الشبيهي، ومهمتها اختبار ما بيد الناس من البينات، ووضع قوائم جديدة، توضع نسخ منها ضمن سجلات الدولة الرسمية، وتسلم نسخة أخرى لنقيب الطائفة، وكان لفاس نقيبها، ولمكناس نقيبها، ولمراكش نقيبها، ولجبل العلم نقيبه « وأكبر النقباء هو الذي بجبل العلم » على ما ذكر الزياني [19] وبذلك تبدو الأهمية التي كانت لشرفاء العلم، والحق ان صلات هؤلاء بملوك الدولة العلوية الشريفة لم تنقطع، حتى ان جبل العلم تحول إلى حاضرة من حواضر المغرب، وصار موطنا للملوك كما هو معروف.

إن كتاب ابن الصادق « فتح العليم الخبير » جاء ليهذب النسب العلي كما ورد ذلك باللفظ في عنوان « فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير » وديوانه هذا أو كتابه ينسخ ما في الديوان الذي كان حرر عام 1080 هـ،إذ أن هذا لا معول عليه على ماذكر ابن الصادق.

ويستنتج مما سبق مايلي :

16 - رسالة في شرفاء المغرب مخ.
17 - نفسه
18 - نفسه
19 - نفسه

- إن الاشراف في المغرب ظلوا لقرون عديدة أحد المرتكزت الأساسية التي كانت تقوم عليها الدول، ويبنى عليها الملك، ولذلك كان من الحكمة أن يوليهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله عنايته، ومن تتبع تاريخ الفترة التي حكم فيها السلطانان العظيمان : المولى اسماعيل، وسيدي محمد بن عبد الله يجد ان الشرفاء كانوا في

في عصريهما يمثلون قوة معنوية هامة، لها تأثير كبير على العامة، وبذلك فانهم كانوا عنصرا ضروريا من عناصر التوازن ولعل المولى اسماعيل وحفيده سيدي محمد بن عبد الله أراد بتقريب الشرفاء مواجهة الزوايا التي كانت تشوش على الدولة بما لها من نفوذ روحي في الوسط الاجتماعي آنذاك، والزوايا الكبرى مثل الزوايا الناصريه، والزاوية الدلائلية انما وصلت إلى ماوصلت إليه من نفوذ بسبب ما أدركه شيوخها من العلم والولاية، ولذلك فلم تكن تستمد قوتها من النسب، وهنا يجب ان نذكر ان أقطاب هذين الزاويتين وشيوخها كلهم كانوا على صلة حميدة بالشرفاء العلميين، حتى إنك لا تجد واحدا منهم لم يشد الرحال إلى جبل العلم،

- نظرا لما سبق فان التحليل العلمي لتاريخ المغرب لا يمكن ان يهتم باستبعاد هذه الطوائف أعني طوائف الشرفاء، وأما الباحث في الثرات الادبي فانه واحد لدى ابناء الاشراف خصوصا لا يستغنى عنها في دراسة الآدب المغربي ويكفى ان نشير هنا إلى ما صدر عنهم، وإلى ما مدحوا به وما خصهم به غير حد من ضروب التآليف.

- واخيرا فان في كتب أنساب الشرفاء، واستطرادات كثيرا ماتنفتح فيها الأبواب على مجالات عديدة، وفيما قدماء من استطرادات ابن الصادق في « فتح العليم الخبير » صورة من ذلك.

هذا ولعلنا تكون قد نبهنا إلى أهمية هذا الضرب من التأليف في يومنا هذا. وعسى ان يشرع الباحثون في تحقيق نصوصه وإخراجها ودراستها فتكون معيبا للباحثين في التراث المغربي. تطوان

مصادر البحث :

- فتح العليم الخببير لابن الصادق الريسوني مخ
- الروضة المقصودة لابي الربيع سليمان الحوات مخ
- رسالة في شرفاء المغرب لابي القاسم الزياني مخ
- الاستشفا من الآلم لابن زاكور الفاسي مخ
- الشرب المحتضر لكتاني ط . حجرية.

الشعر والمجتمع من خلال شمقمقية
ابن الونان (ت 1187 - 1773)(*)

العربي الحمداوي
كلية الآداب / فاس

إن العملية الابداعية في الادب اتخذت صورا وأشكالا واطرت مضامين ومداليل في وعاء من اللغة خالقة بذلك عوالم او واصفة إياها أو مبدعة لأطرافها، وأثناء كل هذا تتعانق الذات بالموضوع ووحدات اللغة في شكل جدل دائم يقود إلى ما نسميه الكتابة الادبية أو الشعرية. وقد أطر النقد الأدبي كل هذه الانشطة في ما يسمى بالأجناس الأدبية، فهذه « الأجناس الأدبية انتاجات فنية، أصلها التاريخي مكون من غوامض كثيرة، ويمكن القول إن في هذا النوع من انتاجات الاجناس قد تم الربط بين مضامين محددة وعناصر شكلية محددة، ربط يمثل حلا أمثل للمشاكل التي تتولد بدون توقف عن التشكل، وايضا فان هذا الربط يمكن أن يكتسب قوة التقليد » (1) على الشعر كجنس أدبي يخضع بدوره لقانون المد والجزر في المجتمع باعتباره انتاج احدى الفئات التي يتشكل منها المجموع في الأمة. فكلما ارتقى المجتمع في الفكر والسياسة ومحاربة أشكال الجهل، كلما تهذب الذوق، وخلقت حساسيات حضارية راقية، ومنها

(*) ابن الونان هو ابو العباس احمد بن محمد الونان الحمري التواتي الفاسي، عربي الاصل ينتمي الى حمير عن طريق اجداده بني معقل الذين كانوا قد استولوا على توات، وتغلبوا فيها على الزناتيين ، فدعي لذلك التواتي ، ويبدو من نسبته الى فاس انه ولد بها . لايعرف تاريخ ولادته، اما وفاته فكانت في عام : (1187 - 1773). كان والده شاعرا رقيقا مقربا الى السلطان سيدي محمد بن عبد الله فدعاه لخفة روحه " أبا الشمقمق وظل معروفا بهذا اللقب طول حياته ثم ورثه عنه ابنه أحمد الذي استعمله في قصيدته هذه .

حينما نظم ابن الونان شمقمقيته حاول الاتصال بالسلطان ولكنه لم يفلح فترصد موكبه ، وصعد ربوة ، ونادى باعلى صوته :

ياسيدي سبط النبي   أبو الشمقمق أبي

فتعرف عليه السلطان والحقه بقصره واتخذه احد مقربيه، اهتم الشراح والمعلقون بقصيدة الشمقمقية ، إذ ذكر الدكتور محمد الأخضر في الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية هامش 10 ص 301 - 302) سبعة شراح آخرهم الاستاذ المرحوم عبد الله كنون الذي شرحها تحت عنوان : شرح الشمقمقية ، ومن هذا الشرح اخذنا المقاطع المستشهد بها في الدراسة . لتفصيل القول في ترجمة ابن الونان انظر : عبد الله كنون ،شرح الشمقمقية (المقدمة من ص 3 الى 11) دار الجيل للطباعة ، الطبعة الثالثة ، 1964 . ثم الدكتور محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء ، الطبعة الأولى 1977. ص 298 - 304

(1) KARL viĉtor, L'histoire des genres littéraires in. Théorie des genres. Points, Paris 1986 P.P. 13. 14.

حساسية تشعير اللغة والواقع ملئهما بالدفقات الحدسية والنظرات الكونية الشفافة عن التجربة الانسانية في الأمس والحاضر والغد، وبذلك يتحقق ما قالته العرب عن الشعر من كونه ديوانها يؤرخ لمشاغلها واحداثها وطموحاتها ومصيرها، وبذلك يحقق الشعر نصيته إذ « إن النصوص تشكل مايدعوه « فوكو » باسم حقائق السجلات، بتعريف السجل انه النص في حضوره الاستطرادي الاجتماعي في العالم » [1]. وهكذا فإن متتبع الاجناس الادبية في مغرب القرون السالفة وتحديده الانماط الفكرية التي كانت تشغل بها ذاكرة الانتلجنسيا، سيجد ولاشك ان جنس الشعر كان يحتل الدرجة الثانية في الاهتمام بعد إعطاء الأولوية في الانتباه والاشتغال الى العلوم الشرعية وبعدها العلوم اللغوية. ذلك ان المكانة الاجتماعية والاحتفاء بالإفراد من قبل المتلقي المغربي ينصبان على كل ما يهتم من النشاط الفكري بالمقدس حيث ان طبيعة الدولة المغربية على امتداد العصور كانت تقوم اولا وقبل كل شيء على الشرعية الدينة .ومن هناك كان يجدد هذه الشرعية ويزكيها من علماء ورجال دين لا يولون اهتماما كبيرا للشعر الا اذا بدوره يعمل على تربية النفس وتهذيب الاخلاق او من اجل خدمة بيداغوجية يسديها للمتعلمين كما هو الشان في الاراجيز التي تنظم فيها مختلف العلوم الشرعية واللغوية . على الرغم من اننا نجد شعراء - في تاريخ الفكر المغربي أجادوا القول في مختلف الاغراض الشعرية من نسيب وغزل وخمر ووصف ورثاء وهجاء ومدح .. الا ان ذلك كان يشكل دائما الاستثناء إذ كان الشاعر المغربي في الغالب ياتي بهذا النوع من الابداع حتى يحقق مكانته لدى سلطة مركزية او من اجل الدعوة لها والعمل على نشر ايديولوجيتها وافكارها اومن اجل حث الهمم والتنبيه الى المخاطر التي تحدق بالوطن عند التربص من قبل الاجنبي او رثاء ثغر ضاع وتحميس الهمم على استرجاعه، اووصف معركة او انتصار في اقتتال مما يعد - حقيقة - توثيقا ابداعيا لحركة المجتمع المغربي على امتداد الحقب وتواليها على ان ما يجدر الاشارة اليه كذلك هو ان المثقف المغربي كان يعمل دائما على تاكيد موسوعيته العلمية عبر قوله الشعر حتى وان كان في ذلك مقلدا ولكن حتى يثبت سعة اطلاعه وتمكنه من علوم الالة كان يهفو دائما الى اثبات ذلك عبر نظمه لقصائد في مختلف الاغراض او نظمه لأراجيز علمية .ولقد تطور القول الشرعي في المغرب منذ العهد السعدي فالعلوي الى القول في الأولياء والصالحين ووصف قبورهم وافضالهم وكراماتهم تبعا لضغط اليومي وهمومه في المجتمع المغربي،

(1) د. ادوارد سعيد، مجلة شؤون أدبية، العالم والنص والناقد ترجمة بشار عبد الواحد لؤلؤة العدد 15. السنة الرابعة، شتاء 1990. ص 22.

وتبعا للحساسة الحضارية الانكسارية التي أخذت تقلق الوجدان العربي في المغرب نتيجة لضياع الاندلس وانهزام ايديولوجية حكامها. وفرار العرب منها مع ذاكرتهم القلقة، وعقدة الذنب والوعي الشقي اللذين اخذا يلقيان بظلالهما على الانتاج الفكري المغربي، وعلى تشكيل البنية الابداعية في الشعر على الخصوص على أن هناك عاملين اثنين ساهما ايضا في تاطير هذه البنية : احدهما متمثل في احتلال الافراد لاغلب مناطق العالم العربي وتهديدهم للقطر المغربي، الذي من حسن حظه بقي صامدا حيث كانت الدولة المركزية قوية، والشعب متاهبا مجندا، ولكن الشعور بالاستيعاب من الأتراك في ذاكرة المغاربة كان حاضرا .ولاشك على المستوى السياسي كما هو الشأن على المستوى الابداعي،والعامل الثاني يبقى قائما في هيمنة عصور الانحطاط في فضاءات المجتمع العربي وتأخر العربية وتوجه الابداع الادبي بصفة عامة نحو الاغراق في الصنعة والتنميق والاجترار على صعيد النشر كما هو الحال على صعيد النثر، وبذلك خبت جذوة الخلق وتوقفت سيرورة عقلنة المجتمع المدني العربي وتطوره نحو الجديد المثري والمثرى.كل هذه عوامل لها أثرها في العملية الابداعية في زمن ابن الونان من هنا قيلت القصائد الطوال بمناسبة زيارة الأفراد والجماعات على صعيد أهل الفكر الى القبور والأضرحة المنتشرة في قرى المغرب ومدنه [1].

على ان الشعور لدى المبدعين المغاربة بتراجع العربية لغة القرآن جعلهم بوعي أولا شعوريا يعطون الأهمية القصوى في العلمية الابداعية في قصائدهم الى المستوى المعجمي حيث نجد الاغراب في اختيار الكلمات بلغ حده عند أبي على الحسن بن مسعود اليوسي وتلميذه أبي القاسم محمد أبي زاكور وفي شمقمقية ابن الونان موضوع هذه الدراسة وخاصة في جزئها الاول. على اننا نجد ظاهرة فكرية اخذت تحتل مكانا مرموقا لدى المفكر المغربي هي ظاهرة الاهتمام بالامثال والحكم والوصايا كما هو الشأن عند اليوسي في كتابه: زهر الاكم في الامثال والحكم[2] وعند أبي مدين الفاسي(ت1181- 1768) في عمليه :(المحكم في الامثال والحكم(وتحفة الاديب ونزهة اللبيب)[3]، وسيمتد هذا الى ابن الونان ليجعل شمقمقيتة قائمة على نوع خاص من التناص الديني -

(1) لتفصيل القول عن الحركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكذا اشكال الصوفية في زمن ابن الونان، انظر، هاشم العلوي القاسمي في التقديم والدراسة اللذين انجزهما عن كتاب ، التقاط الدرر لمحمد الطيب القادري ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت الطبعة الأولى 1981.

(2) طبع مع تقديم وتحقيق للدكتورين ، محمد حجي ومحمد الأخضر في ثلاثة اجزاء، دار الثقافة ، الدار البيضاء 1981.

(3) انظر بعض المعلومات عن الكتابين في : الدكتور محمد الأخضر ، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشاد الحديثة الطبعة الأولى 1977، ص291 - 293

التاريخي- الاجتماعي اي عبر النص القرآني وحوادث الشخصيات الادبية والتاريخية والامثال والحكم والوصايا. وتفسيرنا لهذه الظاهرة يبدو في كون ذلك الاحساس بالانكسار في ذاكرة المثقف المغربي، اخذ يفقده الاحساس بالاطمئنان على المصير في الدنيا وفي الاخرى نتيجة العصور الانحطاطية التي آلت اليها الأقطار العربية في المشرق ونتيجة استيقاظ الوعي للاخذ بالثأرمن قبل النصارى الذين انتصروا في الاندلس وغدوا يهددون أطراف الضفة المقابلة التي كان ضياع سبتة ومليلية وبعض الثغور المغربية الاخرى مقدمة لذلك .

لعل كل هذه العوامل كانت تشتغل لاشعوريا في ذاكرة المبدع المغربي فاخذ يبحث ويوصي بمجتمع متماسك عبر تماسكه وقيمه على ما يمكن الاخذ به من عبرة واخلاق مجتمعية محددة في القرآن الكريم وفي تجارب الانسان في المجتمع العربي التي ابدعتها الذاكرة وحولتها من المعيش اليومي واطرتها في المثل والحكمة والوصية، وبذلك يكون التذكير حتى لاينزلق المجتمع الى المحظور . يبدو لنا اذن ان كل هذا ساهم ووجه ابن الونان وهو يبدع شمقمقية ، فكيف اذن تحركت العملية الابداعية ؟ وكيف تأطرت مضامينها الاجتماعية في الشمقمقية ؟ وما هي حدود القول الشعري فيها؟

تتالف القصيدة الشمقمقية من مائتين وخمسة وسعين بيتا (275) قائمة على قافية القاف ومؤطرة عروضيا في بحر الرجز، على ان نظمها على بحر الرجز هذا يجعلنا نؤكد على ماكان يرجوه لها صاحبها من ان تغدو سهلة الحفظ ، وتؤكد ايضا على تأثير الاراجيز المنتشرة في فضاء الثقافة المغربية ، اذ لو أراد لها صاحبها ان تكون من الشعر ذى الخيال الرفيع والصورة القوية والحماسية العالية لنظمها على بحر قوي كالطويل او البسيط - مثلا - ولو أراد لها ان تكون غنائية لنظمها على البحر المتقارب او الخفيف او الرمل ، ولكن حيث انها مشحونة بشحنات تاريخة واخرى مستمدة من الامثال والحكم ، فقد أقامها على ايقاع الرجز وبذلك دخلت في باب النظم لا في باب الشعر. ثم ان تاثير الشعرية العربية القديمة في تحديد الأغراض وترتيبها قد بدا جليا من خلال معمارية القصيدة على صعيد هذه الاغراض حيث إن الرجل بدأ قصيدته بالرحلة ووصفها فذكر انواع الرياح وأسماء الحيوانات الصحراوية والابل التي تستخذم في السفر وما يلاقيه الركب من متاعب ومشاق ومهلكات على غرار ما هو متعارف عليه في القصيدة الجاهلية والاسلامية حيث حققت من خلال ذلك تمظهر غرض النسب القائم على وصف الابل التي يحمل عليها والبيد التي تتعسفها ولوم الحادي على جده السير ليلا ونهارا حتى أضر بالابل ضررا بليغا وتذكيره بمن تحمل على

ظهورها من النساء اللواتي لاطاقة لهن بذلك السير العنيف، ولا نرى داعيا جماليا لهذا الوصف التقليدي الا ان يكون الاتباع وتأثير القصيدة العربية القديمة حتى يتتحقق النموذج في القول الشعري المستمد من الاسس الجمالية التي قامت عليها القصيدة الجاهلية. ثم ان تتبعنا لمعمارية القصيدة المغربية جعلنا نقف عند استقلاليتها عن هذه المقدمة ابتداء من العصر الموحدي حيث كانت القصيدة الجهادية تبدأ مباشرة في الموضوع المراد القول فيه ، مما يبين أن صاحبنا كان يمثل في هذه النقطة بالذات النظرية النقدية العربية القديمة دون ان يظهر أثر للنموذج المغربي في قوله الشعري. ولعل ما يثير الانتباه كذلك في المقدمة الوصفية للشمقمقية هو حضور الكلمات الغريبة بكثافة فيها اسماء النبات والحيوانات والرياح مما لم يكن متحققا بالفعل الا في الصحراء العربية ، الصحراء التي نقلت عجائبها الذاكرة العربية عبر القصيدة. وهكذا فان صاحبنا قد لايكون رأى الصحراء ولا ما تحويه من غرائب وعجائب ومع ذلك فقد تمثل جزئيتها مما يدل قوة ذاكرته ثم بعد ذلك يتنقل الى غرض الغزل حيث يصف محبوبته وما تتمتع به من فنون المحاسن وانواع المفاتن، على ان محبوبته هده لم تكن الا كاحدى محبوبات عمر بن ابي ربيعة اللائي منهن هند ولبنى وقداختار ابن الونان لمحبوبته المتخلية اسم لبنى حيث يقول فيها :

لبنى وما أدراك ما لبنى بها   عرفت صبا مغرما ذا قلـق
تسبي بثغر أشنب ومرشف   قد ارتوى من قرقف معتق
وناعم مهيكل وفاحـــــم   مرجل وحاجب مرقـــــق
وعقب محجل ومعصـــــم   مسور وعنق مطـــــوق
ومقلة ترمي بقوس حاجـب   لاحظها بسهمها المفـــوق [1]

يتبدى ان وصف المحبوبة هو وصف مادي لاجزائها الخارجية وهو بذلك يحيلنا على مرجعيته الجاهلية والاسلامية الاولى وخاصة الى ذلك الغزل الذي كان من سمات شعراء بادية الحجاز كما كان الحال عند عمر بن أبي ربيعة وغيره حيث لازال الذوق لم يهذب بقيم الحضارة الجديدة كما سيصبح عليه الحال دمشق، وبغداد فيما بعد، ولازال الذهب لم يصقل بروح الفلسفة ، ولازال الروح روحا صميما، ولعل هذا يعكس لنا البنية التي كانت سائدة في مجتمعنا - وخاصة - لدى الفئات المثقفة حيث إن

(1) عبد الله كنون شرح الشمقمقية . ص33-34.

التأثير الأندلسي والتلاقح بين العدوتين أو المثاقفة لم تتحقق على هذا الصعيد، فالوصف إذن وصف مباشر لم يؤطره صاحبه عبر قنوات الشعرية كالاستعارة والتشبيه - مثلا- ويبدو أن غياب التوجيه النقدي التقويمي على صعيد المضمون كما على صعيد الشكل كان له أثره في غياب نموذج شعري متماسك محقق للتأصيل في العملية الابداعية ولاغرو في ذلك إذ البيئة المغربية لم تكن بيئة شعرية.

ثم ينتقل ابن الونان بعد ذلك إلى غرضي الحماسة والفخر، فيفخر بأصله ونسبه، ويكون ابن خلدون أشار إلى أجداده من العرب الحميرية اليمنية، وابلائهم في التاريخ الاسلامي عبر استماتتهم في الغزوات الاسلامية الكبرى كخبير والخندق وبدر وحنين. علي ا فخره في الحاضر - أي في زمنه - يتحقق بكونه امتلك ناصية القول الشعري حيث يقول :

فَإنْ يَك الشِّعْرُ عَصَى غَيْري فَقَدْ ... أَطَاعَني في عَيْمَقٍ وحَنَــقِ
وإِنْ يَكُنْ سَيْفاً مُحَلَّـى فَلَقَـدْ ... أَبْلَـى نجادَه عنـاقُ عُنُـقـي
وإنْ يكـن بُرْداً فَقَدْ صرْتُ بـه ... مُعْتَجِـراً دُون جَميع لاسُّـوَقِ
وإنْ يكـن تَاجاً فَقَدْ زَادَ سَنَـاً ... جَوْهَرُه مُذْحَلٌ فَوْقَ مفرقـي
وإنْ يكـن حَديقَةً خَطَـا لَمَـا ... نَزَّهْتُ فيهـا خَاطري وحدَقـي
وإنْ يكن بحراً فَقَدْ غُصْتُ على ... جَـوهَرِه وكُنْتُ نِعْـمَ المنتقـي (1)

تتضخم الانا لدى الشاعر في هذا الجزء من الشمقمقية، ويقوى الاعتزاز بالذات التي تستمد المشروعية لاكتساب المكانة الاجتماعية من التاريخ عبر ما صنع فيه الاجداد من مفاخر، ومن الحاضر عبر ما تحقق فيه للشاعر من تالف وتوادد مع جنس الشعر الذي غدا سهلا ينساب القول فيه عنده. ومن خلال هذا المقطع نستشف مفهوم الشاعر للشعر(سيرجع فيما بعد للحديث عن هذا المفهوم وعن المسوغات الدينية التي تحيط به) فالشعر اذن سيف محلى وهو تاج وحديقة وبحر، أي انه في فهم ابن الونان يمكن ان يستعمل في الحوب كما يستعمل السيف قد تكون هذه الحرب حربا حقيقية او حربا كلامية هجاءية للدفاع عن الذات وهذه قيمة عربية اجتماعية ارخ لها الشعر في مختلف العصور في مختلف العصور والشعر تاج على رأس صاحبه بمعني انه يجعله ذا المكانة الاجتماعية الرفيعة بين مستمعيه، وهو حديقة متنوع الاغراض والمواضيع، الغايات والوسائل كماهي الحقيقة متنوعة الورود والازهار، الاشجار والاعشاب، وهو في نهاية الامر بحر لاساحل له، تستخرج منه الجواهر والاشياء الغريبة وبه من الكنوز ما لا يعرفها الاالبحار الماهر مثل ابن الونان .

(1) نفسه ص .57،56.

انه فهم بسيط للشعر ولدوره الاجتماعي، ومفهومه الابداعي. ولكنه على كل حال فهم من لم يتعمق فلسفة الشعر وحقيقة الابداع الا أن يكون هذا الفهم موجها الى المتعلمين المبتدئين. ولكن بثتنا الثقافية المغربية في هذا الزمن الذي قيلت فيه القصيدة لم تتحمل اكثر من هدا الفهم وذلك- كما قلنا سابقا- لبروز واستمرارية نوع من الوعي الشعري المستمد حرارته من الوعي الصوفي الشعبي البسيط الذي كان يرهن اليومي الثقافي بتوجيهه وتعهده .

ولغياب الوعي النقدي الادبي الافي سطحيات بعض التصحيحات اللغوية والنحوية، هكذا اذن كان جنس الشعر يتبلور مفهومه في مجتمعنا حاملا سمات ذلك التفاعل الثقافي الذي كان يميز النشاط الثقافي للحقبة وبذلك نصل الى انه " بالنسبة للمؤرخ الادبي فان لكل حقبة نظامها الخاص بالاجناس الذي هو في علاقة مع الاديولوجيا المهيمنة ، وككل مؤسسة فان الاجناس توضح السمات التاسيسية للمجتمع الذي تنتمي اليه " .(1)

يبدو اذن ان الشاعر ابن الونان في جزء القصيدة الخاص بالرحلة والنسيب والفخر والحماسة يغلب تقنية والاخبار ومن هنا فان المتلقي الحقيقي او المفترض لايتبدى معينا ولا محددا مما يجعل التركيز في العملية التواصلية قائما بالدزجة الأولى على الانا لكي تحيط ذاتها بما تستحق من الاهتمام واثارة الانتباه تهيبئا لما سيأتي وبذلك ينتقل الشاعر في القصيدة الى غرض الجهاد ومن خلال هذا الغرض يتحدد ويتعين المتلقي المتمثل في عينة اجتماعية خاصة وفي فرد بعينيه هو الحسود ، ولطالما تحدث الشعراء ذوو الحظوة لدى السلطان عن هذا النوع الاجتماعي، وعن هذه القيمة الاخلاقية - الاجتماعية المتمثلة في الحسد واشكاله يقول ابن الونان :

فبشـرن ذاك الحسـود انــــه	يظفر في بحر الهجا بالغـرق
وقـل لـه إذا اشتـكـى مـن دنـس	أنت الذي سلكت مهج الزلق
وفقـت فـي الجـرأة خاصـى أسـد	فمت بغيضك وبالزيت اشـرق
ومـا الـذي رعـاك يـا حـب إلـى	ذا الأفعوان ذي اللسان الفرق
نطقـت بالـزهور أمـا كنت تعـى	أن البلاد موكـل بالمنطــق
ولم تخف من شاعر مهما التقى	سيف الهجا فرى حبال العنف (2)

(1) TZVETAN Todorov, les genres du discours, seuil , paris , 1978 ,p 51

(2) شرح الشمقمقية، ص 60 - 61 .

في هذا الغرض الاجتماعي تصل الذات في التمظهر الى اقصاه من خلال توجيه الخطاب الى الحسود لكون سيغرق في بحر الهجاء ، وقد استعمل الشاعر فعل الامر الاستعلائي، وفي الغرض بعده فعل الامر التعليمي البيداغوجي في موضوع الحكم والامثال ، وكان من الطبيعي ان يركز الشاعر على إظهار القيم المجتمعية السلبية التي يتميز بها الحسود من مثل القول الزور، الجرأة الزائدة ، سلوك النهج الخطأ الى غير ذلك من المثالب التي حاول ابن الونان ان يبسطها في هذا الجزء ، ولما كان الامر كذلك وحيث إن الشاعر من الطبقة المثقفة المربية في المجتمع فكان لابد من ان يعطي البديل الايجابي من الاخلاق المجتمعية التي يجب على الفرد ان يتحلى بها، لذلك كانت الامثال والحكم والوصايا تشكل نفيا لما ساد في المجتمع من قيم الحسد وقول الزور والتطاول، لذلك نجد بسطا للقيم الايجابية الجديرة بالاتباع المبثوثة في ثنايا التجارب المجتمعية في الثقافة العربية عبر. الامثال والحكم فالمثل هو لِأخذ العبرة والحكمة وتوضيح هذه العبرة والهدف اذن هو اغراق الملتقي بالتجارب السابقة للفرد والجماعة، وليس هدفا قائما من اجل خلق وعي شعري لدى المتلقي، والجماعة وكما قلنا لايمكن ان نفصل اي تجربة ابداعية عن محيطها الثقافي واهتماماته اليومية، ومستوى التشعير الذي تحققه التجربة الاجتماعية لهذا المحيط في عالم اللغة والخيال. وهكذا يتبدى لنا المقطع – فنيا- باردا اذ المباشرة هي السمة الغالبة في نسيجه الامن تحقق استعارتين احدهما في جعل الامر من الشاعر والاخرى في تمثل الشاعر عبر الافعوان. ثم ينتقل ابن الونان هكذا عبر صيغة الامر التعليمي الى الوصايا والأمثال والحكم ويقول :

فلتق نفسك بكفك ولا	تسم فصيح النطق بالتمشدق
فذاك خير لك واستمع الى	نصح الحكيم الماهر المدقق
فكن مهذب الطباع حافظا	لحكم وأدب مفترق
ولا تصاحب من يرى لنفسه	فضلا بلا فضل وغير المتقي
وكل من ليس له عليك من	فضل فلا تطعمه بالتملق
وفوق (1) سهم النميري (2) لمن	لطرق العليا لم يوفق
وافعل بمن ترتاب منه مثل	فعل المتلمس(3) اللبيب الحدق

(1) فوق السهم : جعل له فوقا بالضم وهو شق في رأسه حيث يجعل الوتر

(2) سهم النميري : مثل مضروب قي الاصابة وعدم الخطأ.والنميري صاحبه، رغم انه عرض له مرة ظنبي فرماه بسهم ، فراغ عنه ، فعارضه ، فمازال حتى اقصده، وهذا من أكاديبه ، انظر ، شرح الشمقمقية ص64 - 65.

(3) الملتمس ، شاعر جاهلي وهو خال طرفة بن العبد، كان ينادم عمرو بن هند(ملك الحيرة). هجا طرفه عمرو بن هند فبلغه ذلك فهم بقتله ، لكنه خاف هجاء المتلمس ايضا فقال لهما: لعلكما اشتقتما لأهلكما ؟ قالا: نعم، فكتب لهما=

القى الصحيفة بنهر حيرة   وقال يا ابن هند (1) ارعد وابرق
ولاتعد بوعد عرقوب (2) أخا   وفه وفا سموأل (3) بالابلق (4)
شح بأدرع امرئ قيس وقد   ترك نجله غسيل العلق (5)

ابتداء من هذا الجزء من القصيدة يحاول ابن الونان ان يعطينا نموذجا للفرد في المجتمع الصالح عبر مختلف الاوامر والنواهي التي تغدو أساس بناء هذا الفرد ، ويضرب لذلك امثالا من التاريخ حتى يقتنع المتلقي بما يدعو اليه الشاعر من قيم مجتمعية نبيلة ، فهو مثلا يدعو متلقيه الحقيقي أو المفترض أن يقي نفسه بيده ، ولايتطاول على فصيح النطق بالتمشدق ذلك لان التماثل بينهما غير متحقق ، ومن خلال هذه الدعوة يعتبر نفسه الناصح الحكيم، الماهر المدقق مما أعطى للانا حق التمظهر من جديد عبر تحقيق النموذج الأمثل في ذات الشاعر. وهكذا فمن كونه ناصحا مدققا ينصح متلقيه بأن يكون مهذب الطباع حافظا لحكم وأدب مختلف. ومن خلال هذا النصح للمخاطب يتبدى النموذج المجتمعي الراقي عند ابن الونان. ولقد تحقق هذا النمودج في ذاته باعتباره حافظا لحكم نظمها في قصيدته هذه وباعتباره حافظا لأدب مفترق تجلى في ثنايا قصيدته. ومن خلال هذا تتجلى لنا هذه القيمة البيداغوجية الحفظية الاستظهارية التي كانت من عوامل التقدير في مجتمعنا الثقافي لمن تتحقق فيه.

ان تحقيق النموذج اذن قائم على جملة من نواهي الشاعر لمتقليه بأن لايصلحب من يدعي ومن لا يتقي وبأن لا يولي بالتقدير كل من ليس عليه فضل . ويستمر هكذا في بث القيم المجتمعية النبيلة من خلال تقنية المثل حيث يجعل لمن لايوفق لطرق الرقي

= =صحيفتين ، وقال : اذهبا الى عاملي بالبحرين فقد أمرته ان يصلكما ، وكان في الصحيفة الأمر بقتلهما، فأما طرفه فمضى الى العامل فقتله ، وأما المتلمس فانه اشتبه بأمر الصحيفة فأعطاها الى صبي فقرأها له فنجا بنفسه فبقي امر صحيفته مضروبا من الحذر والأخذ بالحزم ، انظر ، خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ج الثاني ، ط ثانية ص 111 ، شرح الشمقمقية ص 65 - 66

(1) ابن هند ملك الحيرة السابق ذكره .

(2) عرقوب : رجل جاهلي يضرب به المثل في اخلاق الوعد ، يقال انه أتاه أخ له يسأله تمرا فوعده تمر نخلة من نخله. وقال : اذا طلع فأنتى ، فلما طلع ، قال : اذا أبلح، فلما أبلح قال : اذا أزهى ، فلما ازهى قال : اذا أرطب ، فلما أرطب قال: اذا صار تمرا.فلما صار تمرا جذه ليلا ولم يعطه شيئا . فضربت العرب المثل في الخلف به، شرح الشمقمقية ص66 خير الدين الزركلي، الاعلام ،ج الخامس ص16.

(3) السموأل شاعر جاهلي ، حكيم من سكان خيبر كان يتنقل بينها وبين حصن له سماه " الابلق " توفي نحو سنة 560م. كان امرؤ القيس قد استودع عنده مالاوردروعا جيدة ، فلما مات طالبه المنذر بتسليمها اليه فأبى وهدده بذبح ولد له كان خارج الحصن فامتنع عن تسليمها له فذبح له ابنه وهو ينظر اليه ثم انصرف فدفع السموأل الدروع الى ورثة امرؤ القيس، شرح الشمقمقية ص 67 الزركلي ، الاعلام ، ج الثالث ص 204

(4) العلق : الدم

(5) شرح الشمقمقية ،ص، 62 - 66

والعلى سهما كسهم النميري في الاصابة وعدم الخطأ ، وحيث يزود الملتقي في علاقته الاجتماعية بما يفعله مع من يشك فيه كفعل المتلمس اللبيب الحذق الماهر ابن اخت طرفة بن العبد مع رسالة الملك عمرو بن هند ملك الحيرة. وينصح كذلك مخاطبه بأن يعد ويصدق في وعده ولا يخلفه كما اخلفه عرقوب المشهور في تاريخ الادب العربي ، بل عليه ان يفي كما وفى السموأل على الرغم من موت ابنه امامه بعد ان رفض تسليم ادرع امرئ القيس الذي ائتمنه عليها. هكذا يسير هذا الجزء من القصيدة في بث وبناء قيم مجتمعية مستمدة اشعاعها من الامثال التاريخية والحكم والوصايا ومن المظاهر الاخلاقية التي يدعو اليها القرآن الكريم . ثم ينتقل ابن الونان في شمقمقيته الى غرض المدح. لكنه يعود في هذا الجزء الى الشعر ومفهومه وموقف المتلقي منه ووظائفه المجتمعية والاخلاقية ، ومن خلال موقفه من الشعر سوف نجد احساسه بتهميش هذا الجنس من الابداع واضحا بينا من قبل البيئة المغربية او المتلقي المغربي على الخصوص والمتلقي العربي على العموم في العصور الانحطاطية من تاريخ الثقافة العربية ، لذلك يمدح الشعر قبل ان ينتقل الى مدح السلطان سيدي عبد الله ، ويحاول جاهدا ان يجد سندا دينيا يبرر القول الشعري ، فيقول في مدح الشعر :

واعن بقول الشعر فالشعر كما — ل للفتى إن به لم يرتــزق

والشعر للمجد نجاد سيفـــــه — وللعلا كالعقد فوق العنـف

فقله غير مكثـــر منـــــه ولا — تعبأ بقول جاهل او احمــق

ما عابه الا عيي مفحـــــــم — لعرفه الذكي لم يستنشـــق(1)

يبدو ان ابن الونان يوصي بقول الشعر وبالاعتناء به لان الشعور في نظره كمال للفتى ان لم يرتزق به . ألم نقل سابقا ان الشعر في ثقافتنا كان يتخذ في كثير من صوره من اجل تثبيت موسوعية المثقف المغربي وتكميلها ؟. هكذا يبدو الرجل متأثرا باليومي المعيش في زمنه وما يشيعه من حدود اخلاقية وابداعية ، لذلك فالشعر نجاد سيف المجد ، فهو الموصل الى العلا والى احتلال المكانة بين ذوي السلطان سواء كان هذا السلطان سلطانا سياسيا أو ثقافيا، ولاغرو إذ كان جنس الشعر في في كثير من مظاهر الثقافة القديمة خاصة في بابه المدحي وسيلة من وسائل الدعاية كما هو حال الصحف اليوم ، ولكن كان يدعو وحسب بين اوساط الصفوة من ذوي الفكر والثقافة لسلطة مركزية اولايديولوجية خاصة .

(1) نفسه، ص، 113.

على انه يشتم من الرجل احساسه بالتضييق والمعارضة للقول الشعري من قبل سلطة ما قد تكون هذه السلطة دينية او متدثرة بغطاء ديني، لذلك يوصي قائله المفترض ألا يعبأ بقول جاهل أو أحمق لأن الذي يعيب الشعر لن يكون الاعيبا فيه، جاهلا به ، لم يتذوق لذة اكتشاف مجاهله ، ثم يفصل القول في وظائف الشعر فيقول:

كم حاجة يسرها وكم قضـى   لفـك عـان وأسير موثـــق

وكم أديب عاد كالنطف (1) غنى   وكان أفقر من المذلـــــق(2)

كم خامل سما بـه ألى العـلا   بيت مديح من بليغ ذلـــق

وكم حديث جاءنا بفضلــــه   عن سيد عن الهوى لم ينطق

وقـد تمثل بـه وكـان مـــن   أصحابه يسمعه في الحلـق(3)

الشعر من وظائفة الاجتماعية قضاء الحاجة لدى سلطان أوكبير أوصديق فهو يرقق المشاعر - في فهم صاحبنا - ويساعد في فك الاسير الموثق، ومن وظائفه الاجتماعية - الاقتصادية جعل الفقير غنيا كما حدث للنطف الذي اغتنى بالشعر وكان افلس من المذلق الذي يضرب به المثل في الفقر والحاجة ... ومن وظائفه الاجتماعية نفض اودية النسيان والانزواء في الظل عن مغمور وجعله في الضوء ليرتقي الى درجات العلا بسبب فقيدة أو بيت شعري قيل فيه. ألم نقل قبل قليل ان الشعر كان يقوم بدور الدعاية الصحافية اليوم بالنسبة للافراد كما هو الحال بالنسبة للجماعة ؟.

واذا كانت هذه هي بعض وظائف الشعر الاجتماعية ، فان ابن الونان أراد تعضيد دوره بسند ديني حتى يذهب عنه موقف العيسي الجاهل به لذلك أشار الى هناك أحاديث نبوية جاءت بتفضيله ومنها قول النبي عليه السلام :(ان من الشعر لحكمة) ومن ذلك كون النبي قد تمثل بالشعر الذي كان في خدمة الدعوة الاسلامية أو الذي كانت فيه ملامح التوحيد مثل قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.(4)

على ان الرجل لم يسعه ان يأتي بسند ديني من اجل تثبيت ذاته وهو يمـارس

(1) النطف بوزن كتف وسكنه ضرورة ، رجل من بني يربوع كان سقاء فقيرا، ثم أغار في قومه على قافلة كانت متجهة من اليمن الى كسرى ، فأصاب كثيرا، يضرب به المثل في الغنى ، شرح الشمقمقية ص.116.

(2) المذلق : رجل فقير لم يكن يجد قوت ليلة ، وابوه ، واجداده يعرفون بالافلاس. فيقال أفلس من المذلق ، شرح الشمقمقية ص116 .

(3) شرح الشمقمقية ص. 115 - 116.

(4) نفسه ص 117

عملية الابداع الشعري وحسب، بل ذهب الى فضاء المجتمعات الجاهلية ليذكرنا بفضل الشعر في الحقبة التاريخية من المجتمع العربي وما كان للشعر فيها من اهتمام حيث يقول:

لو لم يكن للشعر عند من مضـــى   فضل على الكعبة لم يعلـــق(1)

وهو يشير الى المعلقات التي كانت تعلق على جدران الكعبة لتبث بين الناس، وينشر ما فيها بين القبائل العربية. وإذا كانت هذه هي وظائف الشعر، وكان موقف الذين منه بالتجوز وان لا ضير على قوله. فعلى من اراد أن يكون شاعر فحلا ان يكون مثل ابي الشمقمق، وهنا يعطينا الرجل حكما نقديا بالفحولة للشاعر أبي الشمقمق الحقيقي، ولأبي الشمقمق المكنى به عنه وهو الشاعر ذاته وابوه. وهكذا تظهر الأنا من جديد معتزة بفحولتها الشعرية ، مؤكدة على حضورها في هذا الجنس الأدبي في تاريخ الأدب المغربي ، يقول ابن الونان موجها الخطاب الى المفترض المغترض :

وان أردت أن تكون شاعـــــرا   فحلا فكن مثل أبي الشمقمق(2)

ما خلت في العصر له من مثل   غير أبي في مغرب ومشـــرق (3)

على أن هذا الادعاء بالفحولة واطلاق العنان له ، لا يفسره الاغباب نقد أدبي حقيقي في مغرب الوطن العربي ومشرقة في زمن ابن الونان، وذلك لأن مقاييس النقد قد خدمت، والمتذوق ذا الطبع الادبي السليم قد غاب بغياب التقدم الفكري، والتطور المعرفي، مما أتاح الفرصة لمثل هذه الأحكام ان تجد الأذن الصاغية دون النقد والتوجيه السليمين في بحار من الاجترار والتقوقع. هكذا اذن مدح ابن الونان الشعر ودافع عن مشروعية القول فيه لينتقل بعد ذلك الى مدح السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبهذا المدح السلطاني يتحقق النموذج الاجتماعي الأسمى في شخص السلطان وكأن الشاعر كان يريد أن يرسم معالم النموذج الفرد الفاضل عبر تلك الصورة النظرية التي رسمتها النواهي من خلال الوصايا والامثال والحكم وتحققت عمليا في شخص السلطان، فهو

---

(1) نفسه ،ص،125.

(2) ابو الشمقمق في الاصل هو مروان بن محمد الملقب بأبي الشمقمق ، شاعر هجاء من اهل البصرة ، من موالى بني امية، كوفي أديب ظريف، كثير الهزل في شعره، له أخبار مع شعراء عصره كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس توفى نحو عام 200، 815 م شرح الشمقمقية، ص 129 الزركلي، الاعلام، ج 8 ، ص 97 ــ98.

(3) شرح الشقمقية ، ص . 129.

المتصف بالحلم الذي يفوق هارون الرشيد فيه وفي العلم والرأي الموفق، وهو السلطان الكريم الذي لايبخل بالعطايا، وهو السلطان الذي من دأبه الخلق والسماح، وفي نفس الآن المتصف بالعدل والفضيلة، والذي من مكارمه انتشار العدل في زمانه بين الناس، التقي الذي يشيد ركن الدين بالسيف ان اقتضى الامر ذلك، وهو الذي لم يسبق لألوية النصر ان خفقت على نظيره من الملوك الى غير ذلك من الاوصاف التي يقتضيها المقام بين شاعر وسلطان ، ومن ذلك يقول:

محمد سبط النبي خير مــــن ساد بحسن خلقه والخلـــق
خير ملوك الغرب من أسرتــــه وغيرهم على العموم المطلـق
ودوحة المجد التي أغصانهـــا بها الأرامل ذوو تعلـــــق
فاق الرشيد وابنه(1) بحملــــه وعلمه ورأيه الموفــــــق(2)

وبعد تفصيل القول في الصفات النمودجية التي يتميز بها السلطان تنتهي الشمقمقية بالافتخار بها وبما تحويه من معاني وصنعة ، وبأن لاأحد يسطيع الاتيان بمثلها سواء في مشرق الوطني العربي أو مغربه بالاندلس ، وبذلك تتضخم الانا عند ابن الونان مرة اخرى في ختام هذا القول الشعري . ونعتقد ان صاحبنا كان يحس - بميزة خاصة في شمقمقيته وهي المتمثلة في تناثر تلك الفضاءات - التاريخية - الادبية الاجتماعية في قصيدته عبر الاشارات الادبية المتكررة والمتنوعة، وعبر تنوع التحذلق في معرفة التاريخ الادبي للثقافة العربية - وخاصة - مافيه من شعر ونكت ومعرفة بالرجال في فضاءي الجاهلية والعصور الاسلامية الأولى . على اننا لانعد هذا ميزة شعرية ، نعم يمكن ان تكون ميزة حسنة في الثقافة العامة للشاعر او للدارس والناقد فالشعر ابداع قائم على خلق عوالم عبر التموجات الخيالية أواكتشافها أو تحديد العلاقات القائمة بين عناصرها، من اجل بلورة رؤية شعرية واعية بذاتها وبعلاقتها مع الذات واللغة والعالم الخارجي من سيرورة تشعيرية طموحة الى امتلاك الايجابي في الكون . ويختم ابن الونان شمقمقيته اذ يقول :

ما لجرير وجميل(3) مثلهــــا في غزل وفي نسيب مونـــق
ولا أديب في قرى أندلـــــس جرت بها أقلامه في مهـــرق(4)

(1) الرشيد وابنه، هو هارون الرشيد وابنه المامون .

(2) شرح الشمقمقية . ص130 - 132.

(3) جريربن حذيفة الخطفي ، عاش عمره كله يناضل شعراء زمانه ويساجلهم، وكان هجاء مرا، فلم يثبت امامه غير الفرزدق، وكان عفيفا وهو من اغزل الناس شعراء، الزركلي، الاعلام .ج. الثاني ص 111. اما جميل فهو عبد الله بن معمر العذري شاعر الغزل المعروف، صاحب بثينة: شرح الشمقمقية .ص 143 - 144 .

(4) شرح الشمقمقية . ص 143.

ينفي ابن الونان كل سبق لجرير الشاعر الهجاء المشهور بمعاركه مع الاخطل والفرزدق من عرض الهجاء والنقائض ، وينفي كل سبق للشاعر الرقيق جميل الذي اشتهر بالغزل وبهيامه في بثينة ، وهكذا يعمل ابن الونان على حضور الانا بنفي الآخرين ليثبت في زمنه أنه الشاعر الفحل الذي يمتلك نواصي القصيد بدون منازع.

فما هي حدود شعرية الشمقمقية في نهاية الأمر ؟

يمكن القول انطلاقا مما سلف انها قائمة على التشكيل الاستعمالي أي انها في صورها الاستعارية القليلة قائمة على محسوسية الأطراف المستهلكة دون أن يخرقها التجريد المحقق للابداع، كما انها قائمة في صورها التشبيهية على الربط بحرف الكاف حيث يربط الشاعر بين طرفين فرديين في غالب الاحيان، ثم على تقنية الرابط : "مثل" الذي يربط بين حالتين أو بين صورتين متمايزتين على أنه في هذا الربط يتحقق الانزياح التاريخي القائم على اشعاعه بيوغرافيا الشخصيات أو الحوادث ذات البعد الاجتماعي أو السياسي لاستخلاص العبرة منها أو تمثلها أو الاقتداد بها. لذلك يمكن ان نقول اذن أن دينامية المداليل لاتكتسب قوتها وكثافتها من اليومي في زمن ابن الونان مباشرة ، ولكنها تكتسب اشعاعها من الحركة التاريخية الواقعة والمتخيلة في ذات الآن. وبذلك يمكن الوصول الى نتيجة ان لعبة اللغة لاتركن الى الخلق والابداع وإنما إلى الاحتذاء والاتباع لأن ذلك هدف المرسل فيها هدف تعليمي بيداغوجي، وليس هدفا ابداعيا خلقيا، هدف اقتصر على نقل المعلومات وبسطها في قالب عروضي، وبذلك اكتسبت الشمقمقية الشهرة وقوة الانتشار وسهولة الاستظهار.

البستان الظريف لمؤرخ الدولة أبي القاسم الزياني

ذ. رشيد الزاوية
أستاذ باحث

من نافلة القول، إن الاهتمام بتاريخ بلد ما يغري بالبحث والتنقيب في سجل ماضيه القريب والبعيد، إذ هو لا انفصام ولا انفصال لهذا التاريخ في سيرورته الحركية بين الماضي والحاضر.

و المغرب كدولة إسلامية عريقة له سجل حضاري غني بالآثار المادية والأدبية التي تزود الباحث والدارس والمهتم بالأدوات المصدرية اللازمة لأية عملية إثبات في مجال كتابة التاريخ، وتساعده على استيعابه وتقدير أبعاده، إذ من باب الشطط والإسقاط أن نحكم على الماضي من خلال نظرتنا الحالية، ومكتسباتنا المعرفية الراهنة، على ما يتفاعل فيها من مؤثرات مادية وسيكولوجية معقدة...

لكن ليس المراد من الرجوع الى الماضي هو الركود في تيار، أو الوقوف على متحف للأفكار تتباين الرؤية فيه بين الأسف والافتخار، بل المقصود منه هو العمل على استغلال واعتصار معطياته بهدف التمكن من إعادة صياغة كتابته، والخروج بنتائج وتفسيرات معينة لديناميته ضمن المنظور التاريخي العلمي.

ونحن اليوم، باجتماعنا في هذه المنطقة، منطقة تافيلات مهد الدولة العلوية الشريفة، إنما نستحضر من خلال هذه الندوات حقبة متميزة في تاريخ الغرب الحديث، وهي - كما يعلم الجميع - عهد سيدي محمد بن عبد الله(1171-1204هـ/1757-1790م)، الذي يحق لنا ان ننعته بعصر إصلاح وانفتاح دام أزيد من ثلاثة عقود من الزمن، عمل خلالها هذا السلطان الجليل على وضع اللبنات الأساسية لإصلاح هياكل كانت تشكو من الضعف وعدم التماسك وقلة الفاعلية، بسبب هيمنة جيش عبيد البخاري على تصريف الأمور عقب وفاة مولاي إسماعيل، وماترتب على ذلك من تأزم على جميع المستويات.

وحتى نتمكن من الإحاطة بتاريخ هذه الفترة، والإلمام الشامل بجميع حيثياتها، لابد من الاعتماد على وسائل مرجعية موثوق بها. ولعل أول ما تستحضره الذاكرة في هذا الشأن، ما كتبه أحد المؤرخين المقتدرين عنها، وهو أبو القاسم الزياني الذي عاش هذه المرحلة بتمامها، وعاين أحداثها. بل وساهم في صنع العديد منها، باعتباره أحد خدام سيدي محمد بن عبد الله، وواحد من أقرب المقربين لبلاطه.

ومن توافق الصدف أن تكون «سجلماسة» التي تقام بها هذه التظاهرة إحدى الولايات التي أسندها السلطان سيدي محمد للزياني، وأن تكون فكرة تأليف أول كتاب له في التاريخ [1] قد ولدت فيها بإيعاز من الأمير مولاي سليمان.

والمؤرخ الذي نتحدث عنه هنا، هو أبو عبد الله محمد بلقاسم بن أحمد بن أبي الحسن على بن إبراهيم الزياني [2]، ازداد بفاس سنة 1147هـ/ 1734م إبان حكم مولاي علي بن مولاي إسماعيل، وبها نشأ وتكون آخذا علوم اللغة والدين على مشاهير شيوخ عصره أمثال ابن الطاهر الشرقي [3]، وابن الطيب القادري [4] وعبد القادر بوخريط [5]، وأبي حفص عمر الفاسي [6]، وابن ابراهيم الدكالي [7] والتاودي بن سودة المري [8]، ومحمد بن الحسن بناني [9]، وغير هؤلاء. ومما زاد في توسيع تكوينه ومداركه، الوسط العائلي الذي تربى فيه، وتفتحه على العالم الخارجي بما أتيح له من فرص الاستفادة خلال رحلاته الثلاث الى المشرق وأوربا.

هذا ويعتبر الزياني من أولئك المؤرخين المتميزين الذين استطاعوا المزاوجة بين النشاطين الفكري والسياسي، فقد كان له شرف اللحاق بخدمة البلاط الشريف، وتمكن

(1) الاشارة هنا الى « الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب »، وهو من أعظم تآليف الزياني وأضخمها، تناول فيها أخبار الدول والامم منذ عهد آدم حتى عهد السلطان العلوي مولاي سليمان.

(2) انظر ترجمته مفصلة في « البستان الظريف » دراسة وتحقيق ذ. رشيد الزاوية (د.د.ع. كلية الآداب بفاس)، المقدمة، الفصل الثاني ص.ص. 82 – 133.

(3) الزياني، الترجمانة الكبرى ص 56.

(4) يراجع عنه، التقاط الدرر، مقدمة التحقيق بقلم استاذنا مولاي هاشم العلوي القاسمي (ط. بيروت 1983)

(5) توفي سنة 1188 هـ / 1774م انظر عنه « البستان الظريف » مقدمة التحقيق ص 92 وهامش 17

(6) ت. 1188 هـ / 1774 م ن.م. س. ص. 92 وهامش 19.

(7) ت.1184 هـ / 1771 م. ن.م. س. ص 93 وهامش 23.

(8) ت.129 هـ / 1795 م. ن.م. س. ص 94 وهامش 25

(9) ت.1194 هـ / 1780 م. ن.م. س. ص 95 وهامش 37

من تبوإ أرقى المناصب وأعلى المراتب في عهد السلطانين سيدي محمد وابنه مولاي سليمان. وربما كان لانتمائه لقبيلة « زيان »، ومعرفته الدقيقة بمناطق الأطلس الوعرة،

وسابقة جده في خدمة السلطان مولاي إسماعيل لمدة تناهز الأربعين سنة، أثر كبير على مستقبله السياسي، حيث تميزت غالبية المهام التي أوكلت إليه بخطورة وحساسية كبيرة، فمن كتابة للديوان (15 سنة)، إلى ولاية على المدن (العرائش، سلجاسة، تازة، وجدة)، إلى تفتيش الثغور الشاطئية (طنجة، العرائش، تطوان) والإشراف على تدريب بعض العساكر بها، الى ترأسه بعثة سفارية الى تركيا. الى جانب ذلك اسندت اليه مهمة الوساطة السياسية لاخماد بعض التأججات، من ذلك عمله على تهدئة قبائل آيت امالو الثائرة سنة 1186هـ/ 1772م [10]، وتدخله لإخماد ثورة العبيد المساندين لمولاي اليزيد سنة 1189 هـ/ 1775 م [11]، وتوسطه لتهدئة مولي الحسن بن إسماعيل وشيعته من قبائل آيت عطا الصحراوية [12]، إلى غير ذلك من المهام.

وإذا كانت مثل هذه الأدوار قد أكسبت الزياني شهرة واسعة على المستوى السياسي، فان ماخلفه من تآليف والتي تصل الى الاربعين [13] قد جعل منه أحد كبار المؤرخين المغاربة في العصر الحديث.

ويشرفني اليوم، أن أقدم بين ايديكم في إطار هذه الندوة المتعلقة بالوثائق المرجعية لعهد سيدي محمد بن عبد الله أحد تآليف هذا المؤرخ الذي لا غنى عنه لتغطية احداث هذه الفترة، وهو المسمى « البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف » الذي كانت دراسته وتحقيقه. موضوع الرسالة الجامعية [14] التي تقدمت بها بكلية الآداب بفاس.

هذا التأليف استرعى اهتمام العديد من المؤرخين المغاربة والأجانب على السواء، فاعتمدوه بشكل واضح في تصنيفاتهم، ويكفينا دليلا على ذلك ان نرجع على سبيل المثال، لا الحصر إلى بعض النصوص كالجيش العرمرم لأكنسوس، أو الاستقصا للناصري، أو الاتحاف لابن زيدان، ونقارن نصوصها المتعلقة بتاريخ الدولة العلوية حتى مطلع القرن التاسع عشر لندرك مدى أهمية مواد البستان في تلك الكتابات، والحيز الكبير الذي تحتله فيها.

(10) البستان الظريف، م.س. 3 : 363 وما بعدها.

(11) ن.م.س. 3 : 369.

(12) ن.م.س. 3 : 376.

(13) البستان الظريف، مقدمة التحقيق، الفصل الثالث ص. ص. 134 - 167.

(14) أربعة اجزاء، خزانة كلية الآداب فاس. (ولازالت الى الآن مرقونة على الآلة الكاتبة).

وتجدرالاشارة إلى ان قيمة « البستان الظريف » هنا، تكمن في أن مادته التاريخية المتعلقة بعهد سيدي محمد نابعة بالاساس من مصدرين من الاهمية بمكان وهما :

– **المشاهدة** : حيث يعتبر الزياني شاهد عيان بالنسبة لأحداث هذه المرحلة، وواحدا من الذين اسهموا في صنعها.

– **الرواية الشفوية المعاصرة** : وتكتسي هي الاخرى صبغة خاصة باعتبار أن المؤلف لايمكنه أن يتواجد دائما فوق خشبة الأحداث التي يستعرضها، لذلك كان عليه ان يستقيها مباشرة ممن حضورها فعلا.

وبهذا، يمكن اعتبار الزياني أحد الممثلين البارزين، والمصورين المدققين لما كان عليه عصر سيدي محمد، لاسيما وأن هذا السلطان مع ابنه مولاي سليمان كانا الباعث على تأليف « البستان الظريف » كما جاء على لسان صاحبه « والمقصود من هذا، التعريف بفضائل مولانا أمير المؤمنين سيدي محمد وولده أمير المؤمنين مولانا سليمان... »[15].

ومن حيث المحتوى، فقد جاء كتاب « البستان » على مقدمة، وثلاثة عشر بابا، وجامعة، وخاتمة، وفصول أربعة :

– **المقدمة** : في نسب الشرفاء العلويين، وتتضمن أيضا فقرات مطولة عن دول المغرب الاسلامية السابقة عن دولة العلويين، خصوصا. السعديين، كما تعالج اخبارا دقيقة تتعلق بالاتراك العثمانيين.

– **الابواب الثلاثة عشر** : خصص كل واحد منها لسلطان من السلاطين المترجم لهم، ابتداء من مولاي محمد بن الشريف الى زمن مولاي سليمان.

– **الجامعة** : وهي عبارة عن موجز لأخبار الدولة العلوية المتقدمة في الكتاب.

– **الخاتمة** : في رحلة المؤلف الثالثة إلى المشرق.

– **الفصول الاربعة** :

* الاول : في أصول الأشراف وفي وعهم بالمغرب [16].

* الثاني : في ذكر قبائل العرب والعجم والبربر والترك وغيرهم.

* الثالث : في الامامة والفرق الضالة المخالفين لأهل السنة [17].

---

(15) البستان الظريف.م. س. 2 :3.

(16) وهو مختصر الرسالة المؤلف المسماة « تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب ».

(17) وهو ملخص وجيز لرسالة المؤلف المسماة « الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب اهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة ».

* الرابع : في شرح الكورة المبسوطة [18].

وينتهي الكتاب بتقاريظ بعض العلماء للمؤلف، تقرب القارئ من معرفة مكانة الزياني بين معاصريه.

وإلى جانب أخبار دولة الشرفاء العلويين التي هي الاصل، يعالج الكتاب أحداثا مهمة تتعلق بدولة السعديين وعلى الخصوص في عصر سلطانها أحمد المنصور، واخرى بدولة آل عثمان من النشأة حتى عهد السلطان محمود الثاني، مع الالحاح على مسألة الحدود بين البلدين، وما أثارته من مشاكل، وما أفضت إليه من نتائج هنا أو هناك، كما يتضمن أخبارا متفرقة عن دول الأغالبة، والعبيديين والزيانيين، والأدارسة، والمرابطين والموحدين، والمرينيين، والوطاسيين، إلى جانب كل ذلك، يقدم لنا فوائد أدبية وتاريخية عن آل البيت، وخلفاء بني امية وبني العباس الغاية منها تنشيط القارئ و«مزيد الفوائد » حسب تعبير المؤلف.

وبهذا، يقدم لنا « البستان الظريف، تصورا عاما لتاريخ المغرب الاسلامي من زاويتيه الداخلية والخارجية في إطار السياق العام والشمولي بما يتضمنه من أخبار واستطرادات وتعليقات، الشيء الذي يجعل القارئ يتفطن لامرمهم عند الزياني، وهو ان الحدود الزمانية والمكانية لا تعيق كتابة الاحداث بقدر ما تساعد على اثرائها وتشريحها.

إذ أن الاستطراد عنده يعني إشارة وتنبيها بما حدث أو يحدث سواء بسبب التزامن أو التشابه، كما يمكن أن يعني توضيح سيرورة التاريخ الإسلامي عبر حقب مختلفة ومتفاوتة من الناحيتين الزمانية والمكانية اعتمادا على الظاهرة الحدثية المدونة.

هذا، وقد قضى الزياني في تأليف « البستان الظريف » ما يناهز ست سنوات، اما مدة عملية « التقييد » التي تعني جمع المادة التاريخية فلا نستطيع تحديدها بالضبط، ومع ذلك يمكن تقديرها بعشرات السنين، إلا أن هذه العملية - في تقديري- لم تكن تخص تصنيفا بعينه، بقدر ما كانت عملية تدوين وترتيب مجموعة هائلة من النصوص المتنوعة شكلا ومضمونا، قام المؤلف في نهاية الامر بتوزيعها على عدد من التآليف كالترجمان المعرب، والبستان الظريف، والروضة السليمانية [19]، وألفية

(18) وهو كذلك مختصر لتأليفه المسمى « رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق ».

(19) لازال مخطوطا، منه نسختان بالخزانة العامة، الأولى تحت رقم 1275 د والثانية 257، ونسختان بكلية الآداب بالرباط مصورتان على ميكروفيش الأولى رقم 14، والثانية رقم 173.

السلوك [20]، وبغية الناظر [21]... بدليل اخراجها في أوقات متقاربة جدا، ولتشابه مضامينها وأسلوبها في كثير من الاحيان.

وتجنبا للإطالة، وتفاديا لاجترار المعلومات، وحتى لا نحيد عن إطار المرحلة التي تدور حولها هذه الندوات، فسأقتصر - بكثير من الايجاز - علي رصد أهم المضامين البارزة في كتاب « البستان الظريف »، وعلى الخصوص المتعلق منها بعهد سيدي محمد بن عبد الله.

الجانب العسكري والسياسي :

يطغى هذا الجانب على جميع المحاور في الكتاب، إذ أن شخصية السلطان فيه، هي القطب الذي تدور حوله شبكة الاحداث، والجهاز العسكري هو أقوى الدعائم التي يرتكز عليها العاهل في تطبيق وتنفيذ الاجراءات والقرارات، لذلك سنجد الزياني يركز بوجه خاص على طبيعة هذه العلاقة التي ستبرز بشكل واضح منذ عهد مولاي إسماعيل، هذا العهد الذي شهد تشكلة جيش جديد الهدف منه تثبيت وتقوية الدولة الناشئة [22]، مثيرا الضجة الكبيرة التي نتجت عن جمع بعض فرقه من العبيد (عبيد البخاري) خلال فترة بنائه من جهة، ونزوع هذه الفرقة بالذات الى الاستقلال، وتطاولها على السلطة عقب وفاة مؤسسها مولاي إسماعيل من جهة ثانية.

وهنا يتعرض الزياني لبعض المحاولات التي قام بها السلاطين لاحتواء مشكلة «الجيش» بصفة عامة، كمحاولة مولاي عبد الملك [23]، وأخيه مولاي عبد الله [24]، مع التركيز على إجراءات سيدي محمد بن عبد الله التي قلصت نفوذ هذا الجهاز الى حد كبير بعد أن عمل على تغيير استراتيجية كثير من الحاميات العسكرية، إما عن طريق التهجير كما حدث لعبيد المناطق الجنوبية بمراكش والرتب وتافيلالت وسوس وطاطا وأقاوتسنت الذين تم ترحيلهم إلى بعض مدن الشمال كفاس ومكناس والرباط

---

(20) أرجوزة من ألف بيت، مرموزة التواريخ بحساب الجمل، تتخللها شروح نثرية أطلق المؤلف عليها اسم « تحفة الاعلام في شرح دول الاسلام » منها نسخة خطية بالخزانة العامة تحمل رقم 224.

(21) منه عدة نسخ خطية بالخزانة الحسنية تحمل الارقام التالية : 1250 - 3667 - 9514 - 11021 - 11323 ضمن مجموع.

(22) فصل الزياني القول عن تكوين الجيش في عهد مولاي اسماعيل في كتاب « البستان » ومما يعطي كلامه وزنا ثقيلا، اعتماده في ذلك على مصدرين هامين واساسين وهما كناش محمد بن الحسن اليحمدي (مخ خع 330 ك)، وكناش كاتب الدولة سليمان بن عبد القادر الزرهوني. البستان الظريف. م.س. 2 :121 ومابعدها.

(23) البستان الظريف. م. س. 2 :195

(24) ن. م. س. 3 :339 .

وطنجة والعرائش[25]، أو عن طريق التشتيت والتدريب كما حدث لعبيد «دار اعربي» الذين تم إخراجهم من الجندية وتوزيعهم على مجموعة من القبائل بالقصر، ومسيعيدة، وسيدي قاسم، وفاس، وتارودانت، والصويرة، وطيط، وأزمور، وانفا، والمنصورية، والمهدية[26]، أو عن طريق الاسقاط والحذف من سلك الجهاز العسكري كما حدث لفريق « الكشايرية »[27].

وبالنسبة للتنظيم الحكومي، يتضح من نصوص « البستان » ان سياسة السلطان اتجاهه كانت فعالة، حيث لفت اهتمامه الى الحاشية المخزنية، وشرع منذ توليه السلطنة في مراجعة ملفات خدامه « فمن ظهرت نجابته قربه وأدناه، ومن لاعبرة له أهمله وأقصاه »[28]، وهذا النهج هو الذي يفسر الاجراءات الصارمة التي طبقت في حق بعض الولاة أمثال الحبيب المالكي، وعبد الحق فنيش[29]، وعبد الصادق الريفي[30]، وغيرهم.

وقد كان لمثل هذه الاجراءات نتائج جد إيجابية على مستوى الادارة، وهو ما عبر عنه المؤلف بقوله « فصلحت بذلك أحوال الرعايا والجند، لما تولى المناصب أهل الكفاءة والجد[31] ».

ومع كل هذه الاجراءات الاصلاحية على مستوى الجيش والادارة، لم يخل عهد سيدي محمد من قلاقل سيسخر وقتا كبيرا من حكمه لإزاحتها بشتى الطرق، بالعزل والتهجير بالنسبة للتمردات التي اعتمدت على العصبية القبلية، الشيء الذي كان له تأثير كبير على الوضع الجغرافي لكثير من القبائل المغربية[32]، والقوة والزجر والعنف ضد بعض التحركات المنضوية تحت زعامات منظمة كالعربي الجنسي[33]،

---

(25) البستان 3 : 370.

(26) البستان 3 : 372.

(27) البستان 3 : 367

(28) البستان 3 : 338

(29) البستان 3 : 336

(30) البستان 3 : 357

(31) البستان 3 : 347

(32) حيث تم نقل أعداد كبيرة من آيت يمور من تادلة الى حوز مكناسة، واخرى من أهل الريف من طنجة الي المهدية، واخرى من قبائل كروان لأزغار، واخرى من قبيلة اولاد ابي السبع من حوز مراكش الى سوس الي غير ذلك. وأحيانا كان السلطان يضطر لاستعمال القوة لاخماد بعض التأججات كما حدث له مع الشاوية، وآيت امالو، وآيت سكاتو، وبني سادن، والحياينة، ومسفيوة وغيرها. البستان م.س. 3 : 348 وما بعدها.

(33) البستان 3 : 339

ومحمود الشنكيطي [34]، وأحمد الخضر [35]، وعمر كلخ [36]، ومحمد والحاج اليموري [37]، ومولاي اليزيد ابن السلطان [38]، ومولاي الحسن بن اسماعيل [39].

اما في في المجال الدبلوماسي، فقد اهتم الزياني في بستانه بمسألة العلاقات المغربية الخارجية مع المشرق الاسلامي وأوربا بشطريها الشرقي والغربي، فبالنسبة للاولى، ركز المؤلف على العلاقات مع الأتراك العثمانيين لما أفرزته مسألة الحدود بين الدولتين من مشاكل كان لها دور كبير وحاسم في توجيه بعض الأحداث في هذا البلد أو ذاك، ويرجع الزياني حتى عهد سيدي محمد بن عبد الله الذي تميزت فيه بنوع من الودية المتمثلة في تبادل البعثات السفارية المصحوبة بالهدايا المختلفة، كما يمكن ملاحظة ذلك من خلال الجدول التالي :

(34) البستان 3 : 348

(35) البستان 3 : 351

(36) البستان 3 : 358

(37) البستان 3 : 375

اعضاء البعثة السفارية	تاريخ البعثة	بعض نتائجها	البستان الظريف
الخياط عديل والطاهر بناني.	1175هـ/ 1762م		3 : 350
الطاهر السلاوي والطاهر الرباطي	1179هـ/ 1766م	رجوع البعثة مصحوبة بهدية تتألف من سفينة محملة بتجهيزات بحرية وحربية	3 : 355
الحاج عبد الكريم راغون	1180هـ/ 1766م	هدايا متنوعة، من بينها مساعدة عسكرية ممثلة في بعثة تركية تتكون من 70 خبيرا في صناعة السفن ، وشؤون الحرب.	3 : 357
عبد الملك بن ادريس وعمر لوزيرق وابن عثمان المكناسي	1199هـ/ 1775م		3 : 419
أبو القاسم الزياني	1200هـ/ 1776م	هدايا متنوعة، وقروض من السلطان سيدي محمد الى السلطان العثماني عبد الحميد الأول.	3 : 423

ونظرا لما كانت تعرفه العلاقات العثمانية الاسبانية من توتر في هذا العهد، يشير المؤلف إلى توسط سيدي محمد أكثر من مرة في عملية افتكاك الأسارى بين الطرفين(41).

وعن العلاقات مع اوربا، يعرض « البستان » نصوصا جد هامة تبرز انفتاح سيدي محمد على الخارج، واتجاهه إلى تطوير التجارة مع بعض الدول الأوربية، وبالتالي :

(41) البستان 3 : 360 و421.

الدخول معها في سلسلة من المعاهدات عبر عدة سفارات، ذكر الزياني منها :

- سفارة الحاج العربي المستيري الى انجلترا سنة 1179هـ / 1166م [42].
- سفارة الحاج التهامي مدون إلى الدانمارك سنة 1176هـ / 1763 م [43].
- سفارة الحاج عبد الوهاب شكلنط الى السويد في نفس السنة [44].
- سفارة الغزال وعمارة بن موسى ومحمد بناصر إلى اسبانيا سنة 1179 هـ / 1766م [45].
- سفارة علي مرسيل الى فرنسا سنة 1179 هـ / 1766 م [46].

وقد أجمل الزياني القول عن هذه العلاقات في هذا النص الذي أرى من المناسب ترديده على مسامعكم « .. وهابه ملوك الترك وطواغيت الروم، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمته ومهادنته في البحر ... وما بلغ ذلك الا بسياسته وعلو همته، حتى عمت مسالمته أجناس النصارى كلهم غير جنس « الموسكو » فانه لم يسالمه لمحاربته مع السلطان العثماني .. ووظف عليهم الوظائف يعطونها في كل سنة، ويستجلبون خاطره بالهدايا والالطاف.. ويحتال لقضاء أغراضه منهم بكل وجه.. » [47]

الجانب الاقتصادي

اهتم الزياني ايضا بالنواحي الاقتصادية في كتابه « البستان الظريف »، وكانت التجارة من أهم المواضيع التي ركز عليها وعلى الخصوص ما يتعلق بمسألة الجبايات والضرائب وأول ما أثاره في هذا المجال، قضية إحداث ضريبة « المكس » التي سنها السلطان سيدي محمد بعد ان استصدر لها فتوى من فقهاء مدينة فاس تبيح مشروعيتها [48]، واعتمادا على هذه الفتوى كانت ضريبة المكس تستخلص من كثير من المنتجات الفلاحية، كما كانت توظف على كراء الموازين والبساتين والمراسي وغيرها.

---

(42) البستان 3 : 352
(43) ن.م. 3 : 351
(44) ن.م. 3 : 352
(45) ن.م. 3 : 354
(46) ن.م. 3 : 353 و355.
(47) ن.م. 3 : 451
(48) ن.م. 3 : 341

ويذكر المؤلف ان الحاج محمد الصفار تولى شراء امكاس « فاس » ب 1200 شغالا في السنة (49)، ليرتفع هذا المبلغ ب 180% في ظرف سنة واحدة، حيث تم بيع امكاس المدينة في السنة الموالية لنفس الحاكم ب 22000 مثقالا (50)، وهو ما يشكل نسبة نحو 44% من مجموع مداخيل هذه الضريبة، كما يستخلص من نص الزياني « ... وبلغ مقدارها خمسمائة ألف مثقال وكذا في كل سنة، مشهورة مبيعة لعمال المدن وقواد القبائل... » (51).

وإلى جانب هذه الضريبة، يشير الزياني الى حفاظ السلطان على جباية الزكوات بكثير من الحزم والضبط (52)، اما في السنوات العجاف كما حدث فيما بين 1190 و1196 هـ / 1776 - 1752 م - وهي الأزمة التي سنتعرف عليها اكثر من خلال مداخلة الاستاذ المحترم محمد البزاز - فقد برهن السلطان فيها عن فعالية كبيرة تتمثل في إسقاط المغارم عن جميع القبائل، ومساعدة الضعاف « بترتيب الخبز في كل مدينة يفرق على ضعفائها في كل حومة ... » (53)، وقرض الأموال للتجار لاستيراد المواد الغذائية، ومطالبتهم ببيعها دون ربح على غرار ما كان يحدث في بلاد الترك كما لاحظ المؤلف (54).

وفي مجال انفتاح الدولة في هذا العهد على التجارة مع الخارج، تشير نصوص الكتاب الى اهتمام السلطان سيدي محمد بالسواحل، وإيلاء المدن الشاطئية عناية خاصة، ناهجا في ذلك سياسة الباب المفتوح في ميدان المبادلات التجارية مع الدول الأجنبية، ويتجلى هذا الاهتمام في تنشيط الحركة التجارية بآسفي (55)، وتحصين العديد من الثغور بالأبراج وتعزيزها بكل مقومات الدفاع (56)، وبناء مدينة شاطئية

(49) ن.م. 3 : 347

(50) ن.م. 3 : 350

(51) ن.م. 3 : 341

(52) ن.م. 3 : 351 وبعدها

(53) ن.م. 3 : 352

(54) ن.م. 3 : 372 - 373

(55) ن.م. 3 : 294

(56) كان الاسطول المغربي - حسب الزياني - في عهد سيدي محمد يتوفر على خمسين قطعة بحرية معززة بنحو 17000 جندي البستان الظريف 3 : 443

وهي الصويرة (57)، وتجديد آخرى والزيادة في توسيعها كطيط، وانفا، وفضالة (58)، وتحرير البريجة (59)، والعمل بمحاولات جادة على استرجاع كل من سبتة ومليلية (60).

الجانب الاجتماعي :

ما يلاحظ من خلال نصوص « البستان »، ان البعد الاجتماعي لم يكن دائما يخضع لمعايير اقتصادية، بل كان يمتد إلي جوانب اخرى لها علاقة بمجال التعايش الاجتماعي المنبني على تعاليم الدين الاسلامي، وفي هذا المضمار نجد الزياني يركز على المكانة التي كانت تتمتع بها بعض الشرائح في المجتمع المغربي، وعلى الخصوص منها العلماء والاشراف.

فبالنسبة للشريحة الأولى، لم تكن أهميتها - حسبما يستخلص من نصوص البستان - تنحصر في تلقين العلوم وتقويم السلوك، أو ممارسة بعض الوظائف الدينية والادارية، بل كانت تتعداها للعب أدوار جد هامة على المستوى السياسي بالنظر للوزن الذي كانت تحظى به في الوسط الاجتماعي، فبيعة السلطان كان يتولى صياغتها احد الاعلام البارزين من هذه الشريحة التي كانت تسبق في غالب الامر تقديم ولائها وبيعتها قبل باقي الفعاليات السياسية الاخرى، ومن هذه البيعة كانت السلطة تستمد مشروعيتها، وما من شك في أن تمسك العلماء والفقهاء بمشروعية السلطان الشريف العلوي كأن له دور كبير في جعل المطالبة بالحكم إبان أزمة العبيد تنحصر بين أبناء الاسرة الحاكمة فقط. علاوة على ذلك نجد السلطة تستمد مشروعية تنفيذ كثير من القرارات من فتاوي هذه الفئة. والامثلة على ذلك كثير منها قضية جمع العبيد في عهد مولاي اسماعيل، ومسألة إحداث ضريبة المكس في عهد سيدي محمد الى غير ذلك، ولمثل هذه الأدوار كانت هذه الفئة تحظى باهتمام البلاط، وكثير منها استطاع الوصول الى مناصب سامية في سلك وظائف الدولة. إلى جانب هذه الشريحة، أولى الزياني عناية خاصة لفئة الشرفاء التي كانت تحظى هي الاخرى بمكانة محترمة في محيطها الاجتماعي، وحسب الزياني. فان اهميتها في الصلاحية التي كانت مخولة لها للمساهمة في التوسط لاصلاح الأمور بين الرعية والسلطان كلما استوجب الامر ذلك، ومن ثم نجد اسمها في هذه الحالة مقترنا دوما بالعلماء والفقهاء والاعيان، وهنا لابد أن

---

(57) البستان الظريف 3 : 352

(58) ن.م.س. 3 : 449

(59) ن.م.س. 3 : 360

(60) ن.م.س. 3 : 362.

نشير الى ان الزياني كان له اهتمام كبير بمسألة الشرف بوجه عام، وقد جسده في دقة المعلومات التي قدمها الينا في كتابه عن نسب الشرفاء السعديين، وحرص هؤلاء على حفظ انسابهم، والتفاتهم الى الشرفاء بالمغرب والمشرق بترتيب الصلات والاموال وامتيازات اخرى، كما يتجلى هذا الاهتمام في الحاقه فصلا بآخر الكتاب يتعلق بالشرفاء وفروعهم بالمغرب منذ عصر الأدارسة.

الجانب الفكري والروحي :

تقدم لنا نصوص « البستان » بعض الصور لما كانت عليه الحياة الفكرية في العصر العلوي، إلا انها جد ناقصة، ومما يؤخذ على الزياني في هذا الشأن هو إهماله التدقيق في تراجم بعض العلماء الذين تعرض لذكرهم، والتي من خلالها يمكن تتبع المراحل التعليمية، والمواد المدرسة، ومختلف الانتاجات الفكرية في ذلك الوقت، كما أنه مع معاصرته وملازمته للسلطان سيدي محمد لم يهتم باتجاهه وإصلاحاته في المجال الفكري رغم تعرضه لمرتبة هذا السلطان كفقيه وعالم، ومتضلع في مختلف العلوم الأدبية والديني، كما لم يعتن بالجانب المذهبي والعقائدي في حياته، واقتصر فقط على اهتمامه وعنايته بالمنشآت الدينية من بناء وإصلاح المساجد، واثرائها بمختلف الكتب الضرورية، (وهذه النقطة على كل حال سيفيض القول فيها الاستاذ النبيل سيدي سعيد بنسعيد العلوي الذي سنستمتع بمداخلته بعد قليل).

تلك كانت نظرة سريعة عن أهم الجوانب التي عالجها كتاب « البستان الظريف » لابي القاسم الزياني، والذي يعتبر مصدرا اساسيا وضروريا بكل الباحثين في تاريخ المغرب الحديث وقد تركت التفاصيل التي اغنتنا عن ذكرها مبادرة وزارة الثقافة بتبنيها لطبع ونشر القسم الاول من هذا الكتاب الممتد من نشأة الدولة حتى عهد سيدي محمد بن عبد الله الذي تدور حوله أشغال هذه الدورة.

وهنا لا يفوتني ان اعبر عن فائق تشكري، وعظيم امتناني لمعالي وزير الشؤون الثقافية السيد محمد بنعيسى الذي يرجع اليه الفضل الكبير في تقريب هذا العمل من كل القراء والمهتمين، ولكل العاملين بالوزارة ممن ساهموا في السهر على إخراجه، وبذل قصارى الجهد حتى يظهر في الزي الذي يتلاءم ومجهود صاحبه، حفاظا على الامانة العلمية، وخدمة للتراث والفكر.

مؤلفات الامير عبد السلام
كمصادر لعهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

حسن الصادقي
أستاذ باحث

ليس من شك في أن عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله حظي باهتمام المؤرخين، المغاربة والاجانب من معاصريه او من الذين اتوا بعده، وان مصادر عهده متعددة ومتنوعة، منها كتب التاريخ، والتراجم وكتب الادب، والفهارس وغيرها من المصادر التي لقيت العناية من الباحثين المعاصرين بالدرس والتحليل وبعضها كان موضوع دراسات جامعية او اكاديمية وأبحاث نشرت في المجلات (مثل مجلة المناهل التي صدر منها عدد خاص عن مؤرخي الدولة العلوية العدد 36).

لكن يبقى هناك العديد والعديد من المصادر المخطوطة المتعلقة بالدولة العلوية ككل وعهد سيدي محمد بن عبد الله، بالاخص التي يجب الانتباه اليها. فمازالت مكتبات المغرب العامة والخاصة (والحمد لله) و(كذلك بعض المكتبات الاوربية والعربية تضم ما يروي ظمأ الباحث المتعطش للبحث وتساعده على معرفة بعض تاريخ في البلد الطيب›

ويعتبر الكشف عن بعض المصادر التي دونت في عهد سيدي محمد بن عبد الله والمعاصر، له من بين اهتمامات هذا العرض.

وقد حاولت قدر الامكان الابتعاد عن كتب الحوليات وعن مؤلفات المؤرخين الرسميين، لاسلط الا ضواء على مؤلفات أحد ابناء هذا السلطان، وهو الامير عبد السلام الضرير.

إذ بالبحث في كتب المصادر والتنقيب في خزائن المخطوطات مثل الخزانة الحسنية والخزانة العامة بالرباط، نجد أن هذا الامير الذي يعتبر من أدباء عهد والذي قد أدلى بدلون في ميدان الادب وترك مؤلفات أدبية جد قيمة.

تدل على اتقان هذا الامير لفن الكتابة الادبية، وعلى سعة اطلاعه. وحبه للشعر، فقد جاءت فرحته بقصائد رائعة ومع ذلك أغفله الباحثون في أدباء الدولة العلوية ، علم يدرجوه كأديب وشاعر، فهو أديب وليس بمؤرخ، ومكانته كأمير وولي لوالده على فاس وردانة ومساعدته لوالده في شؤون الدولة هي من الامور المحتملة التي دفعته الى عدم دخول ميدان الكتابة التاريخية من بابها الواسع، والى غض الطرف عن التأريخ المفصل والطويل لعهد والده، ويظهر كذلك انه ترك هذا الامر للكتاب المحترفين الذين كانوا على علاقة بالقصر السلطاني، امثال الزياني والضعيف وابن المهدي الغزال وابن عثمان المكناسي. فقد كانت لهم الكلمة الفصل كل حسب ظروفه واتجاهه وهواه.

ومع ذلك تنبت بين تنايا كتابات هذا الامير الاديب معلومات تاريخية، دفينة تختلط بالحديث عن الادب والادباء.

مؤلفات الامير عبد السلام.

توجد لهذا الامير ثلاث مؤلفات مخطوطة وهي :

1 - رحلة حجازية عن حجته عام 1185هـ، توجد بالخزانة الحسنية تحت رقم 12392 (121 ص خط مغربي. بها حزوم).

وقد خصها للحديث عن الديار المصرية فقط. تتكون من :

- مقدمة في ذكر جبابات مصر
- الفصل 1 في من ملكها من بني العباس
- الفصل 2 في من دخلها من الجراكسة
- الفصل 3 في استيلاء السلطان سليم العثماني عليها.

ويظهر ان الامير قد اعجب بمصر ذلك اغفل ذكر مراحل رحلته لتفصيل واغفل الديار الحجازية والحديث عن المغرب.

2 - **اقتطاف الازهار من حدائق الافكار.**

وهو من مخطوطات ح س تحت ارقام 1929 . 9353. 106.

اوله : اما بعد فان الادب أجل جليس ممتع وافضل قريب منبع وكنت قصدت في تأليف هذا الكتاب ان نجعله مقتصرا على ما نفثت به قريحتي وولدته فكرتي من معارف معجبة واشعار مطربة فظهر لي ان اعرج على على بعض الحكايات الادبية والاشعار. فرغ منه عام 1198هـ.

وقد افتتحه بقصيدة "عظيمة المقدار" نظمها عند قدومه لبلد رودانة عام 1197 هـ) مطلعا :

ياربنا مصور الاشياء   وباسط الخيرات بالنعماء

من (ص7 الى 10).

ورتبه على ثمانية ابواب : النسيب، المديح التهنئة، الرثاء الاعتذار، العتاب، الدم الهجاء، والوصف وختمه بحكايات ونوادر.

وتكمن أهمية هذا المخطوط في كونه يعرفنا بامير أديب يدرج في خانة ادباء عهد سيدي محمد بن عبد الله ، بالاضافة الى الاحتفاظ بقصائد مطولة وابيات شعرية لهذا الامير انشدها في عدة مناسبات مع التعريف ببعض علماء عصر والده . وذكر اشعار الشعراء المعاصرين له ، والتعريف بوالده السلطان سيدي محمد.

3 - درة السلوك وريحانة العلماء والسلوك.

يقول عنه الامير عبد السلام في اوله:

" الحمد لله الواحد الاحد الفرد الصمد ...اما بعد فهذا كتاب بعون الله مفيد مبارك سعيد جمعته من تاليف عديدة وتقاييد مفيدة...وسميته بدرة السلوك وريحانة العلماء والملوك" يوجد بالخزانة العامة د 3728. و خ س 514-237.

خط النسخ مغربي محلى بالالوان ومزخرف رتبه على سبعة أقسام وخاتمة. {413 ص ن خ غ المعتمدة }

- القسم 1 : في بعض معجزات النبي عليه السلام .
- القسم 2 : فيما ورد من البشائر لظهوره عليه السلام.
- القسم 3 : في بعض القصص والاثار.
- القسم 4 : في عفو الله وسعة رحمته.
- القسم 5 : في مواعظ الملوك والحظ على اتباع العدل.
- القسم 6 : في وقائع الملوك وآترهم.
- القسم 7 : في حكايات رائحة وقصائد من الشعر فائقة.
- الخاتمة في نوابغ الكلام الذي يجري مجرى الامثال والاحكام .

ويقول الامير عبد السلام في آخره:

" الى هنا انتهى ما شرطنا جمعه في هذا المختصر من احاديث نبوية واخبار ومقتطفات اشعار. والله أرجو ان يوفقنا للصواب . وان يجعل النفع به لعامة المسلمين وخاصتهم بجاه سيد المرسلين آمين والحمد لله رب العالمين " فرغ منه عام 1203ه درة السلوك كتاب أدبي محض يعكس صورة التكوين النظري الذي كان بالمغرب وبمدينة فاس على الخصوص.

ويهمنا من هذا المؤلف الادبي القسم 6: المعنون بوقائع الملوك وآثارهم .

فقد تحدث الامير عبد السلام في هذا القسم بايجاز عن الادارية المرابطون الى أن يصل الدولة العلوية ، وعصر والده سيدي محمد بن عبد الله (من ص 301 الى 313) 12 صفحة من بين 413 صفحة التي يحتوي عليها الكتاب حسب نسخة خ ع .

معطيات مؤلفات الامير عبد السلام كمصادر لعهد سيدي محمد بن عبد الله:

وقد يتساءل سائل لماذا لم اعرف بالامير عبد السلام بالضرير في اول العرض ولماذا عرفت بمؤلفاته خلافا لما جرت عليه عادت الباحثين المتعاملين مع المخطوطات الذين يعرفون بالمؤلِّف قبل المؤلَّف.

حتّمت علي الضرورة تاخير التعريف بالمؤلف ذلك لان هذا التعريف سأقتبسه من مؤلفات الامير عبد السلام لان مؤلفاته تعطينا مادة ترجمته وان لم يقصدها .

ولانه من المعطيات الاولى التي يمكن استخراجها من مؤلفاته تعريف بالامير عبد السلام:

هو عبد السلام ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي الحسني، المعروف بالضرير، تمييزا له عن الامير عبد السلام ابن اخيه السلطان المولى سليمان بن سيدي محمد بن عبد الله.

لم يحظ هذا الامير بما يستحقه من عناية الكتاب التراجم المعاصرين له او الدين كتبوا عن أدباء الدولة العلوية.

والمعلومات التي ذكرها الامير عبد السلام عن نفسه حسب ما جاء في كتابه اقتطاف الازهار ودرة السلوك.

هي كالتالي:- معلومات عن دراسته وعن شيوخه بفاس.

- معلومات عن رحلته للمشرق ولقائه شيوخ العلم .

- معلومات عن تنقلاته داخل المغرب وما تقلده من مناصب.

أ) معلومات عن دراسة الامير عبد السلام بفاس وشيوخه .

من المعلوم ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان محبا للعلم والعلماء حريصا على تعليم اولاده كما يذكر ذلك الامير عبد السلام في اقتطاف الازهار، وهكذا وجه ولده عبد السلام الى فاس للقراءة " فأخذت على جل الفقهاء المشاهير هناك في ذلك الوقت مثل (الشيخ عمر الفاسي) والفقيه الاجل سيدي التاودي بن سودة اخذت عنه مختصر خليل الى كتاب الزكاة وألفية ابن مالك ولامية الافعال واخذت ايضا على الفقيه القاضي سيدي عبد القادر بوخريص الفقيه ابن مالك وعلي ابن حفص تلخيص المفتاح والجمل فهذا ما قرأت على هؤلاء المشايخ جعله الله بالثواب الحسيم" (ص 39 ن خ ع) فقرة مأخوذة من اقتطاف الازهار وقد ادرجها اثناء حديثه عن باب النسب في الشعر عرفنا فيها على شيوخه ومقروءاته .

ب) معلومات عن رحلته للمشرق ولقائه بلعلماء واجازاتهم ترحل الامير عبد السلام الى المشرق عدة مرات أولها سنة 1185ه وجاء الخبر عن هذه الرحلة عرضا في باب المدح يقول الامير عبد السلام :

" وما احسن قول محبنا الفقيه السيد محمد بن عثمان المكناسي الاديب الشاعر من قصيدة يمدح بها آخانا مولانا علي ابن امير المومنين عند توجهه من حضرة فاس لحج بيت الله الحرام سنة خمس وثمانين ومائة وألف وكانت هاته حجتي الاولى صحبته رحمه الله "(اقتطاف الازهار ص 364 ح ع) وعن هذه الحجة يقول في درة السلوك "وفي سنة خمس وثمانين وجه مولانا الوالد أخانا ابا الحسن مولانا علي لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه السلام ووجهني معه...

وكان السلطان على ايالة المشرق سنة حجتنا السلطان مصطفى وتلاقيت ببعض باشاته بمصر والحرم الشريف " (دره السلوك ص 124).

نرى من خلال ما ذكره الامير عبد السلام ان الخبر واحد لكن المعلومات تختلف فهو يشير في خبره الاول الى الاديب الكاتب السفير ابن عثمان المكناسي الذي كان شاعرا وسفيرا. وخيره الثاني الى لقائه بباشوات الدولة العثمانية بالمشرق والى السلطان مصطفى المعاصر لوالده. واما حجته الثانية فكانت سنة 1188هـ، اي عندما اشتد عوده

وبدا والده يعتمد عليه لذلك ارسله على رأس وفد الحاج المغربي ويقول في ذلك " وفي هذه السنة (1188) وجهني مولانا الوالد الى حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه السلام وبعث معي مائة الف دينار برسم التوسعة على اهل الحرمين الشريفين فقضينا المناسك ورجعنا سالمين ولله الحمد.

وقد انتقل الامير عبد السلام حجته الثانية للاستزادة من طلب العلم والتعرف على العلماء، ولم يغفل اللقاء بمشايخ العلم في مصر والحجاز مغتنما االفرصة للاخذ عن مشاهيرهم وطلب الاجازة منهم امثال الشيخ مرتضي الزبيدى الذي كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يقدره ويبعث له الهيات المالية (الجبرتي ج 1-110) والشيخ حسن الجبرتي. والد المؤرخ عبد الرحمان الجبرتي صاحب كتاب عجائب الاثار في التراجم والاخبار .

ويضيف بعمله هذا شيوخا مشارقة جدد الى لائحة شيوخه المغاربة الذين اخذ عنهم بفاس وسجل لقاءاته العملية في كتابه درة السلوك حيث قال:

"والتقينا مع جماعة من اعيان الديار المصرية والحرمين ومدحونا بقصائد الشعر واجازونا بالاجازات. وممن أجازني واخذت عليه اولا المسندين الصحيحين مسند الامام البخاري ومسند الامام مسلم وهو الشيخ الفاضل ...الشريف محمد المرتضى شيخ الديار المصرية في علم الحديث واللغة والتاريخ وله تآليف منها شرحه على القاموس في اثنين وعشرين مجلدا وزاد عليه بامور في اللغة لم يهتد اليها وتلاقيت ايضا بمصر مع الشيخ عمر الطلحاوي والشيخ عمر الشيخ عمر الطلحاوي والشيخ علي الصعيدي امام المالكية بالديار المصرية والشيخ عبد الرحمان الدمنهوري والشيخ حسن الجبرضي (كذا)امام عصره في علم التنجيم والهيأة والتعديل والمنطق وغيرها من العلوم الرقيقة وتلاقيت ايضا مع الشيخ عبد الرحمان الجوهري وأخيه الشيخ عبد الفتوح الجوهري ...وتلاقينا ايضا بالمدينة المنورة مع الشيخ السمان شيخ الطريقة المشار اليها هناك لعلم الحقيقة. ولما رجعنا الى المغرب سر مولانا الوالد ايده الله بقدومنا واحتفل في ملاقاتنا واكرمنا " (ص 305)

ج) - معلومات من مهامه وتنقلاته داخل المغرب :

قام الامير عبد السلام بامر من والده ببعض المهام السياسية منها:

- اشرافه على معاهدة مع البرتغال سنة 1183" وكان عقد صلحهم على يدي بعدما تحملوا بعشرين الف دينار "

- مشاركته في الجهاد " ففي سنة 87 تحرك مولانا الوالد بعساكره لجهاد الاصبنيول وكنت إذ ذاك واليا على مدينة فاس فصحبت مولانا الوالد الى هذه الغزوة انا واخونا ابو الحسن مولانا علي وأخونا مولانا المامون (درة السلوك303) مشاركته في تسيير شؤون البلاد فقد كان واليا على فاس كما سبقت الاشارة الى ذلك ووليا على السوس الاقصى سنة 1195 يقول الامير عبد السلام خلال حديثه عن شعر النسب .

" ولي عند توجهي من حضرة مراكش الى السوس الاقصى حين ولاني مولانا الوالد أيده الله تلك الناحية هذه الابيات على سبيل التفاؤل .

أسافر بالسلامة والسعود بجاه المصطفى قطب الوجود "

كما يحدثنا عن تنقلاته داخل المغرب حيث يقول :

" ولي ايضا أبياتا قلتها وانا ببلدة حاحة توجهت الى حضرة رودانة صانها الله فاتح صفر عام سبعة وتسعين مائة وألف .

وذات خال كأنها البدر غرت قد أوقدت في حشا لاقا نيرا

عجبت والله كيف الصبر عن قمر ما مثلها في بسيط الأرض انسانا

الى ان يقول .

فسئل الله أن يبقينا في نعم وفي سرور وان يقضي بلقيانا

ويحدثنا كذلك توجهه بامر والده الى سجلماسة قائلا:

" ولي ايضا بعد رجوعي من سجل ماسة قاصدا الى مراكش وكان مولانا الوالد ايده الله وجهني لقضاء بعض الاغراض هناك وبقصد تفريق هدايا الشرفاء وجوائزهم المعدة لهم في كل سنة من قبله نصره الله:

براكش عرج تنل كل منية بلاء بها أقمار وحسن طوالع

ومن الملاحظ ان الامير عبد السلام يمزج بين الشعر والاخبار التاريخية.

ومما لاشك فيه ان كتاباته تنبض بالحيوية وتمتاز بالصدق فهو احيانا يذكر ادباء عصر والده من الذين جالسهم وحادثهم فلم يغفل التعريف بهم من حيث ثقافتهم منصبهم مع تحديد زمان ومكان ومناسبة الخبر وكانه يعطينا الدليل الملموس على صحة الخبر الذي يرويه يقول مثلا في باب النسب من اقتطاف الازهار:

وانشدى لنفسه الفقيه محمد شكيرج كاتب الديوان السعيد ونحن إذ ذاك مع مولانا الوالد وهو مخيم قرب فاس الجديد عند رجوعه من غزوة مليلية اعادها الله دار اسلام بجاه النبي عليه السلام " ص 44 وهاته الغزوة كانت سنة 1187كما سبقت الاشارة الى ذلك .وقد سقت مثالا آخر قبل ذلك عن ابن عثمان المكناسي بهذا الخبر عن السلطان سيدي محمد. انتقل الان الى الحديث عن المعطيات المستخرجة من مؤلفات الامير عبد السلام والتي تتعلق بهذا السلطان وهاته المعطيات متفرقة في كل من كتاب اقتطاف الازهار وكتاب درة السلوك ادرجت بعضها خلال حديثي عن ابنه الامير عبد السلام. وسأتحدث عن أخرى كما وردت في الكتابين السابقين ومن المعطيات التي يجب الوقوف عندها :

أ)- معلومات عن بيعة السلطان .

ب)- معلومات عن ادبه ومكانته العلمية

ج)- معلومات عن علائقه الخارجية وسياسته الداخلية

د)- معلومات عن منجزاته العمرانية

أ- بيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الله :

يقدم الامير عبد السلام صورة حية عن بيعة والده سنة 1171هـ والتي لم يتخلف عنها العلماء والاعيان ونتعرف ضمنيا على اسماء القضاة والائمة والشيوخ والعلماء الذين كانوا في عصر سيدي محمد ابن عبد الله فهو يذكر ان والده بويع البيعة التاسعة الصحيحة التي حضرها جماعة من اعيان العلماء مثل قاضي الجماعة بمكناس السيد سعيد العميري وقاضي الجماعة بفاس السيد عبد القادر بوخريص وشيخ الجماعة السيد محمد جسوس والامام المحقق صاحب المعقول والمنقول ابو حفص سيدي عمر الفاسي وابن عمه السيد ابومدين الفاسي وهو الذي تولى كتابة البيعة بيده وامام مسجد الشرفاء الاستاذ مولاي عبد الرحمان المنجرة وشيخنا العلامة السيد التاودي بن سودة وامام مسجد الجامع الكبير بفاس الجديد السيد عبد الله السوسي والامام المحدث سيدي ادريس العراقي وغيرهم ممن لايحصون " (درة السلوك خ من ص 123) سنة 1171هـ

ب)- مكانته العلمية :

لم يهتم السلطان سيدي محمد بن عبد السلام بالسياسة والملك فحسب بل اهتم بالعلم والادب وهذا ما نستخلصه من حديث عنه حيث يقول :

" يجلب العلماء لحضرته السعيدة ...ويحث على تعلم العلم في سائر القرى والمدن ...مشارك في جميع الفن ...وله مع الفقهاء مذاكرات ومحادثات في سائر الايام " (اقتطاف الازهار باب النسب ص 38) كما سعى الى معرفة علوم عصره فكانت " له المعرفة التامة في علم التاريخ والسير وفروع الفقه والحديث والاثار " (درة السلوك 312) وبز معاصريه في ميدان التاليف حيث الف كتابا في الحديث الشريف جمع فيه كل حديث اتفق عليه الائمة الاربع والبخاري ومسلم وسمى اصطلاحه بالثلاثي والرباعي والخماسي " فالثلاثي (كما يقول الامير عبد السلام) ما اجتمع في روايته من الائمة الذين قدمنا ثلاثة والرباعي ما اجتمع فيه من الامة الاربع وهلم ماجرا " اقتطاف الازهار39)

ودخل ميدان التاليف فألف كتاب " الفتوحات الالاهية وقد اوقف منها نسخا في الحرمين الشريفين ومصر والقسطنطينية وجميع ثغور المغرب وعين للطلبة المعنيين لتدريسها اوقافا جليلة ... والف ايضا مختصر الحطاب جمع فيه بين الحديث الشريف وفروع الفقه واختصر المسانيد الاربعة " (الدرة 312)

نرى من خلال هذه النظرة المختصرة ان الامير عبد السلام يتحدث عن والده وكانه يتحدث عن رجل علم وليس رجل سياسة وكان تحركات السلطان وحركاته الجهادية وانشغالاته لم تنته عن طلب العلم وتاليف الكتب

ج) - سياسته الداخلية وعلاتقه الخارجية :

تقلد السلطان سيدي محمد الحكم ومازالت بعض الثغور المغربية مثل سبتة ومليلية والبريجة (الجديدة) محتلة من طرف الاجنبي الذي كانت سفنه تهدد بين الفينة والاخرى الموانئ المغربية وتقصفها بالمدافع (الهجوم الفرنسي على العرائش سنة 1179هـ) لذا سنجد السلطان سيدي يجعل الجهاد ضد الاجنبي نصب عينه اولا لردع سفنه المعتدية ثانيا لتحرير ما تبقى من ثغور محتلة .

وفي هذا الصدد وفيما يتعلق **باعماله الجهادية** يذكر الامير عبد السلام ان والده تحرك في سنة 1182 هـ " بعساكره المظفرة الجهادية لحصار المدينة المعروفة بالبريجة فحاصرها نحو الاربعين يوما وفتحها عفوه وهرب اهلها بنفوسهم للبحر فهدم نصره الله سورها وحمل مدافعها ومهارزها وكورها وانتهبت العامة جميع ما كان بها من دخائر واثاث وهلك كثير منهم تحت الردم بالخديعة التي احدثها الروم والبنيات وكان هذا الفتح فتحا عطيما انشدت فيه الشعراء وقصائد كثيرة " درة السلوك ص 302.

وبعد تحرير البريجة (الجديدة) وجه السلطان سيدي محمد اهتمامه الى الثغور الشمالية ففي سنة 1187هـ تحرك مولانا الوالد بعساكره لجهاد الاسبان ...فصحبت مولانا الوالد الى هذه الغزوة انا واخونا ابو الحسن مولانا المامون فسار بعساكره المظفرة حتى نزل على امليلية ونصب عليها الالات وضايق اهلها وهدم دورها. ثم ان طاغيتهم كتب في المهادنة وبذل ما لا جزيلا وعدة من اسرى المسلمين الذين كانوا ببلادهم فساعدهم مولانا على ذلك وارتحل عنها ورجع الى مكناسة الزيتون".درة السلوك 304.

– عقده الهدنة مع النصارى وتحرير الاسرى : يحدثنا الامير عبد السلام على ان والده السلطان سيدي محمد كان يعقد المهادنات مع النصارى بين الفينة والاخرى هادفا من وراء ذلك تحرير الاسرى كما رأينا بعد حصاره لمليلية ويذكر الامير عبد السلام من ماثر والده انه لم يترك ببلاد النصارى اسيرا ... ففدى من اسارى المسلمين من اهل المغرب والترك واهل الشام ،... مايزيد على الاربعة آلاف ، وكانت كل السفارات التي يوجهها الى اوروبا هي بقصد تحرير الاسرى المسلمين مثل ابن المهدي الغزال (نتيجة الاجتهاد) وسفارات ابن عثمان المكناسي (البدر السافر. الاكسير في فكاك الاسير)

وكان النصارى هم الذين يطلبون الهدنة . ففي سنة 1179 هـ وبعد ضرب الاسطول الفرنسي للعرائش " احتفل طاغية الاصبنيول وطاغيته الافرنصيص بهدايا لم يعهد بمثلها مشتملة على جواهر واصناف والريش والديباج واوان الصين مذهبة وقباب مطبقة داخلا وخارجا بالحرير الاحمر والاخضر قد أحكمت خياطتها بصفائح مذهبة عجيبة الشكل والاتقان وقدمت رسلهم لمدينة مراكش بداياهم وكان يوم دخولهم الى الحضرة يوما مشهودا فاحيا بهم ايده الله الى الصلح والمهادنة الذي طلبوه " درة السلوك 302"

وعقد مهادنة مع البرتغال بطلب من طاغيتهم سنة 1183 هـ بعدما قدم له هدية عظيمة لم يسمع بمثلها وبعث رسله يطلبون المهادنة فاجابه اليها نصره الله وكان عقد صلحهم على يدي بعد ما تحملوا بعشرين الف دينار"(درة السلوك ص303).

هذه الهدنة اتت بعد فتح البريجة سنة 1182هـ وطرد البرتغال منها.

– وحتى لا تكون الثغور المغربية لقمة سائغة وسهلة فان هذا السلطان اهتم بالثغور وشحنها بالعساكر والجنود والرايات والبنود فمن ذلك ثغر الصويرة احد بناءه ووسع قباءه فاختطه ... في سابع عشر من شوال عام ثمانية وسبعين ومائة والف وبنا له الاسوار العجيبة واتخذ به البساتين وشحنه بالمدافع والبنب والكور فجاء من اعظم المدن واشرف الثغور.

وبعد تخريب البريجة امر بتجديد عمارتها سنة 1201 واتخد بها ألفا من العسكر من جنود الوصفان وادار سورها ، وجدد مدينة انفه...واتخذ بها المعاقد الجهادية وجميع الالات وسكن بها الفا من احفاده ...وكذلك عمر تغر افضالة ورباط الفتح ومهدية والعرائش وطنجة وتطوان ...جدد جميع اسوارها واحتفل في تكثير آلاتها " (درة السلوك ص 311)علاقته بالعثمانيين : كانت عبارة هدايا ومساعدات مادية وعينية

سجل الامير عبد السلام في كتابه درة السلوك شهادات حية عن العلاقات الودية التي كانت بين والده والسلاطين آل عثمان بالمشرق حيث يقول " لمولانا ايده الله مع السلطان مصطفى مهادات ومراسلات اولها الهدية الاولى سافر بها من الحضرة قاضي الجماعة واديب الوقت بمراكش السيد الطاهر بناني وذلك سيف محلى بالجواهر ومنطقة وجنبية كذلك وسود منسوجة بالذهب من عمل فاس ...فسر السلطان مصطفى لهذه الهدية وبعث أيضا هدية تشاكلها لمولانا نصره ، وفي سنة 1188هـ توفى السلطان مصطفى وولى اخاه السلطان عبد الحميد ... فكتب له مولانا الوالد كتابا يتضمن التهنئة ووجه له هدية. وما رفع الهدية اربع مراكب من مراكب مولانا الجهادية الى تونس " (درة السلوك ص 304).

والظاهر من الشواهد التي ذكرها الامير عبد السلام عن العلاقات المغربية العثمانية ان المغرب كان يزود العثمانية احيانا بالعدة والعتاد " ففي سنة 1201هـ احتفل مولانا الوالد ايده الله في هدية عظيمة للسلطان عبد الحميد خان ووجهها اليه من جملتها **ثلاث سفن جهادية** باقامتها واثني عشر ماية قنطار من البارود الرومي واربعة الاف قنطار من ملحة البارود المغربية بعد تصفيتها **واثني عشر ماية قنطار من النحاس وثلاثماية الف دينار وخمسة عشر وصيفة من قصر الخلافة** كلهن ماهرات في الطبخ ومصحف كريم محلى بالذهب مرصعا بالالماص يساوي ماية الف دينار وسرجان وجنبيتان وسيفان الجميع مكلل بالدرر والياقوت **وعشرون من المدافع الكبار النحاسية** وعشرة من الخيل العتاق العراب التي لايوجد في دول العجم مثلها . ووجه السلطان عبد الحميد سنة اثنين ومائتين والف هدية جليلة مع كاتب الديوان السيد احمد افاندي وجملة من اعيان القسطنطينية ومن جملة هديتهم سفر واحد متمثل على صحيح البخاري ومسلم والموطأ والمسانيد الست والشمايل وعمل يوم وليلة وهذه الكتب كلها مشتمل عليها سفر واحد غير كبير الحجم وسرج ثلاث محلات بالجواهر وصينية ذهب وكؤوسها عشرة ذهبا وبراد ذهب وجنبيتان مرصعتان بالالماص وراية عظيمة من الحرير الاخضر مكتوب عليها بالذهب الاحمر آيات قرآنية وتخوت ثياب من عمل الهند وحلب المنسوج بالذهب ومصحف كريم محلى بالذهب مرصع بالجواهر ... وبالجملة فان الجهادات التي وقعت بين مولانا الامام والسلطان عبد الحميد لم يعهد مثلها فيما تقدم

من الملوك والدول ولم تعرف لاحد من اهل الصدر الاول منهم اعانهم الله على القيام على مصالح المسلمين والتناصر على جهاد الكفرة المعتدين امين .

منجزاته العمرانية .

الى جانب ما ذكره الامير عبد السلام في درة السلوك عن اهتمامه بالثغور وتحديد اسوارها وتجديد عمارة البريجة وانفا وتعمير ثغر فضالة والرباط وبنائه مدينة الصويرة وبناء الدور الحمامات بهاته المدن. يشير الامير عبد السلام الى ان والده اعتنى ببناء الاضرحة فبني ضريح ادريس بن عبد الله الكامل واوقف على الضريح المذكور اوقافا عظيمة للطلبة والمؤذنين والوقادين والفراشين .

وبنى ضريح علي سيدي علي حرزهم وسيدي عبد الله التاودي خارج باب عجيبة ومسجد ابي العباس السبتي وقبة ابن سليمان الجزولي والشيخ التباع والشيخ الغزواني وبناء المشهد والجامع ضريح جد مولانا علي الشريف دفين باب جيلالة احد ابواب مراكش. وبنى المسجد الاعظم برباط الامام شاكر .

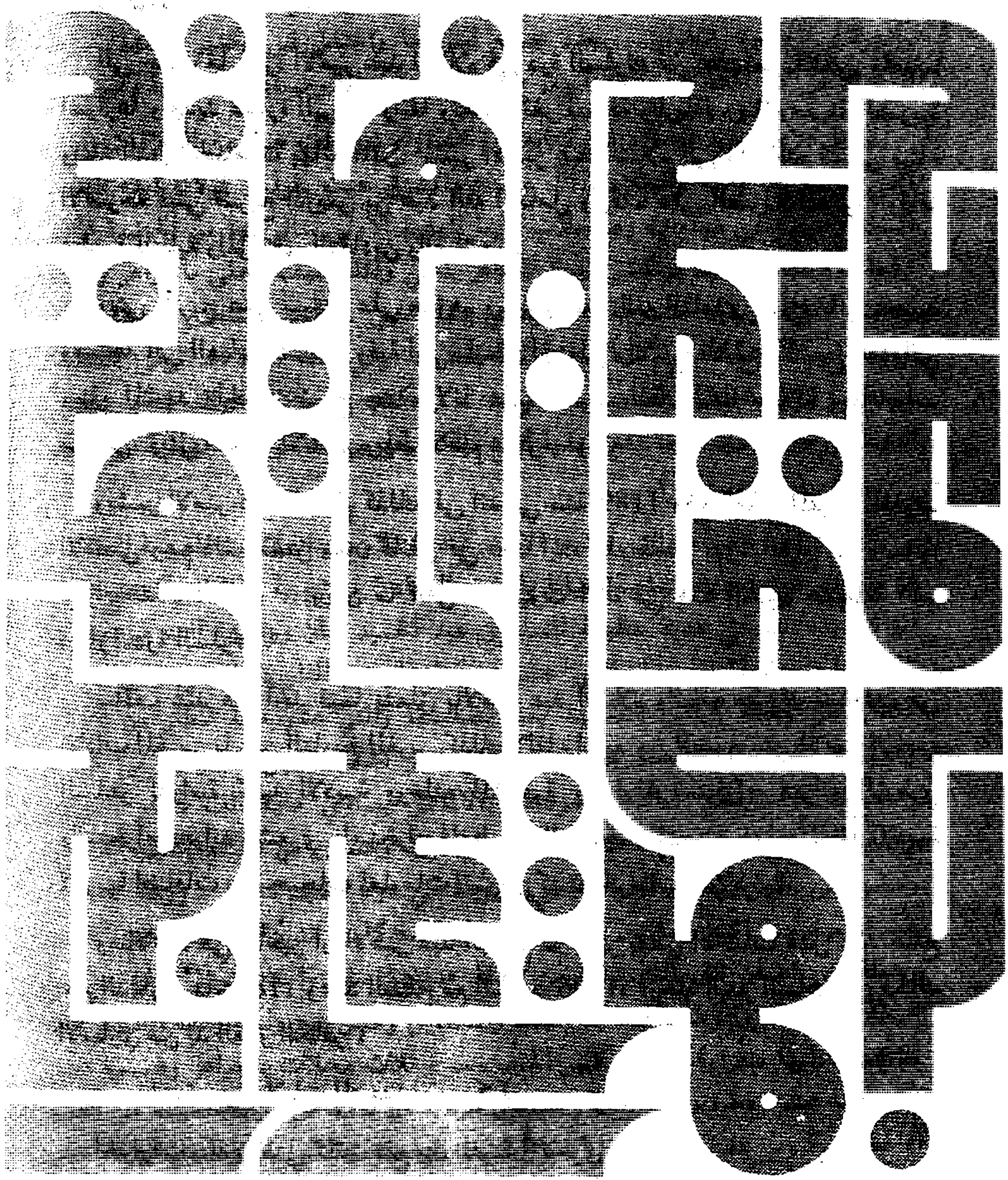
ويشير الامير عبد السلام كذلك الى انه في سنة 1189 وقع الغلاء المفرط بالمغرب الاقصى وعم ذلك خمس سنين فانفق في ذلك ايده الله معظم بيوت المال ... واسقط الخراج لتلك السنين ...وكان ما انفق من بيوت المال في هذه السنين خمساية الف دينار(درة السلوك)

ساقف عند هذا الحد فيما يتعلق بالامير عبد السلام والباب متروك للباحثين في الاداب المغربي بل من التاريخ المغربي كذلك لالقاء المزيد من الضوء على الامير الاديب الشاعر لدراسة كتبه الادبية ورحلته المشرقية ولمحاولة استخراج ديوانه الشعري واستخراج ديوانه الشعري واستخراج المعطيات التاريخية التي نضمها مؤلفاته الادبية لان بها اضافات وتصحيحات لمعلومات انت في كتب الحوليات التاريخية.

وسالاحظ في الأخير ان الأمير عبد السلام لم يذكر بعض الاحداث مثل عقد صلح مع الدنمارك عام 1181 وعقد الصلح مع السويد 1186ه (رحلة البدر السافر الى فكاك الاساري من يد العدو الكافر)

- معاهدة مع الولايات المتحدة الامريكية

الحوارات والفتن التي كانت تقع بين الفينة والاخرى.



الندوة الثانية
العمل الداخلي والسياسة الخارجية

الثغور المغربية المحتلة
والإتفاق المغربي الإسباني لسنة 1767

حسن الفگيگي
كلية الآداب/القنيطرة

من يتصفح الاتفاق المغربي المبرم يوم 28 ماي 1767، بين سيدي محمد ونظيره الاسباني كارلوس الثالث يدرك الفوارق الموجودة بينه وبين الوارد في الاتفاقيات المغربية المنعقدة بين العاهل المغربي والدول الأوربية الأخرى. وندرك كذلك ازدواجية الأهداف السياسية والاقتصادية، وأن الأهداف السياسية توخت بالدرجة الأولى إثبات سيادة الإسبان على الثغور المحتلة وعلى أراضيها المجاورة، وبالتالي توجيه الضربة إلى مشروع سيدي محمد الخاص بالوحدة الترابية.

يتضمن الاتفاق فصلين أساسين يخصان الثغور :

1) الأول ينص على مسألة الصلح في البر والبحر.

2) الفصل التاسع عشر الخاص بتوسيع حدود المراكز المحتلة.

هذان الفصلان سيكونان موضع الحديث خلال هذا العرض.

تعود أهمية الاتفاق بالنسبة إلينا، إضافة إلى المحادثات التمهيدية الجارية قبل توقيعه، لكونه يعكس صورة من صور حرص المغرب على إبعاد كل ما من شأنه أن يعرقل تحقيق وحدة ترابية شاملة، باسترجاع السيادة الوطنية على ما تبقى من أجزائه المحتلة إلى غاية سنة 1767. أما بالنسبة للإسبان فمثل الاتفاق الخطورة الأولى لحل المشاكل التي كانت تتخبط فيها مسألة الحصون، قمة كل المشاكل البارزة بين سنوات 1748 - 1763.

وفي سنة 1765 لاحت في الأفق الإسباني أولى بوادر التقارب مع المغرب.

- وفي تلك السنة بالذات كان السلطان سيدي محمد قد شرع فعلا في تنفيذ مشروعه الخاص بالوحدة الترابية وعلى وشك الإنتهاء من مرحلته الأولى التي كانت غايتها محددة بسنة 1767.

- تبين الوثائق الإسبانية، المصدر الوحيد في هذا الموضوع أن مبادرة افتتاح العلاقات مع الإسبان، جاءت على يد سيدي محمد، بمجرد وصول رسالته الأولى المؤرخة في 27 أبريل 1765 إلى كارلوس الثالث، يعرض عليه تبادل تسريح الأسرى، ومنذ ذلك نشط حاكم سبتة في إحكام الاتصالات بين البلاطين الإسباني والمغربي.

وإلى غاية توقيع الاتفاق يوم 28 ماي 1767، مرت المحادثات بمراحل ثلاث :

1 - مرحلة تمهيدية ساهم فيها رجال الدين الفرنسيسكان الذين وجدوا في سيدي محمد صدرا رحبا. كانت مراسلات هؤلاء هي التي أوحت بروح التعاطف التي كانت تنمو لدى السلطان تجاه كارلوس الثالث.

2 - سفارة أحمد الغزال إلى مدريد : وضعت أثناءها الترتيبات في إطار شبه نهائي.

3 - سفارة خورخي خوان : المكلف بإنهاء المفاوضات ووضع الأحرف الأولى لتوقيع الإتفاق.

- لا تزال دراسة مضموم الاتفاق في مرحلتها الأولى، وإذا كان اهتمام الإسبان منصبا على اتسعراض بعض الجوانب من الخطوات التمهيدية والنهائية للمحادثات، وعلى تتبع السفراء أثناء تنقلاتهم عبر الأراضي المغربية أو الإسبانية فإن حظ الشرط التاسع عشر الخاص بمسألة الحصون، هو لا شيء من تلك الدراسات.

- يجب أن أشير إلى أن إثارة مسألة الحصون المحتلة أثناء المحادثات الأولى، كان على يد من همهم الأمر. أما المغرب فلم يكن ليضع في حساباته أنه سيحصل في يوم من الأيام على امتياز استرجاع الثغور، كنتيجة من نتائج الصلح مع الإسبان، الجواب الإسباني على طلب مغربي من هذا القبيل سيكون واضحا، فكان من الأفضل أن يفكر في وسيلة انتزاع هذا الحق باللجوء إلى الطريقة التي أخذت بها. وبالفعل هذا هو ما شغل بال سيدي محمد.

وعلى العكس من ذلك فإن ما فكر فيه كارلوس الثالث حسبما عبرت عنه رسالته الجوابية إلى السلطان [1]، هو افتتاح العلاقات على أساس من التبادل التجاري، لكننا نعلم أن سرعان ما حول الاتجاه الأساسي للمباحثات نحو مسألة الحصون الشائكة، تبين هذا من إصرار حاكم سبتة [2] على استخلاص أكبر قدر من الفوائد لصالح مدينة من

(1) بتاريخ 13 يونيه 1765 - 3565/1 A.H.N. Estado

(2) هو Diego Manuel Osovio

التقارب المغربي الإسباني، هذا هو ما بدأ في ترتيبه بمجرد وصول أول مراسلة سلطانية إلى أبواب سبتة في 27 أبريل 1765.

- إذا كان من الضروري الرجوع إلى بحث ما كانت عليه وضعية الحدود بين الحاميات الأجنبية ورباطات المجاهدين، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى حدود كل مليلة وسبتة، فهي التي كانت تخضع لعمليتي المد والجزر، ولم تكن باقي المراكز المحتلة تعاني من هذا المشكل لموقعها المنعزل في البحر، وعلى الأخص منها صخرة النكور، أما بالنسبة لحدود بادس كانت حدودها قد استقرت منذ شعبان 1113 هـ (1701 م) حينما تمكن المغاربة من استرجاع البرج الساحلي [3].

والواقع أن معالم الحدود كانت بمليلية أوضح مما كانت عليه بساحة سبتة ولا يعود هذا إلى مميزات الوسط الطبيعي فقط، بل إلى الطريقة التي يتوزع بها سكان قبيلة قلعية أيضا [4]، ونضيف إلى ذلك ستقرار الهيكل التنظيمي لحركة المقاومة طوال ما يزيد على القرنين والنصف على الصورة التي وضع بها منذ بداية القرن العاشر الهجري (بداية السادس عشر الميلادي) [5]. ولتقديم بعض الإيضاحات نبين أن اتساع نطاق الأسوار كان قد امتد تدريجيا حول الحدود الغربية للنواة (الحصن)، على شكل محاطات بلغ عددها إلى غاية منتصف القرن الثامن عشر أربعة محاطات، يمتد آخرها من أبراج "فكتوريا" شمالا إلى مصب واد المدور (Rio de Oro) جنوبا.

غير أن الإسبان كانوا يعدون مساحة الفحص الممتد غرب المدينة من حقهم أيضا، بناء على وقوعها تحت نفوذ المدفعية، وتتوزع حول الفحص مواقع المجاهدين مركزها "رباط مليلة"، المتواري خلف كدية "المعازيز السفلى" [6]، هذا هو الميدان الذي كان مسرح الحروب بين القبيلة وجنود مليلة منذ استقرارهم الأول بالمدينة، وكلما خرجوا من الباب الغربي وجدوا من يعترض سبيلهم من فرق المجاهدين، ولم يسبق لهم أن تجاوزا حدود الفحص إلا خلسة وفي ظروف خاصة [7].

(3) حسب ابن عياش في "زهر البستان" (تاريخ تطوان - محمد داود، ح 2 ص 31).

(4) يحيط بالمدينة من الشمال إلى الجنوب على التالي : بنو شكر، مزوجة، ومن ورائهما بنو يفرور والكعدة (بنو سيدال) وبنو جافر.

(5) قدمت بعض الإصلاحات عن تنظيم المقاومة المغربية في بحث نشر بمجلة دعوة الحق عدد 258 - 1986.

(6) Abrerizas

(7) لا نعرف عن حالات تجاوز الإسبان لحدود الفحص إلا ما ذكره عيسى بن محمد البطوني عن سنة 23 abreriza فوز والفلاح، مخطوط وما ذكره "خوان أنونيو استرادا على هجوم فرقة اسبانية على مدشر سيدي محمد المجاهد ليلا في يوم من أيام الربع الأول من القرن الثامن عشر.

والأمر يختلف بالنسبة لسبتة، لقد كانت مساحة المد والجزر لتلك الحدود التي كان يفرضها ميزان القوة الحربية، ويمكن ملاحظة أن الوضع يختلف بين ما كان عليه إبان الحكم البرتغالي، وبين ما لمسناه أثناء الحكم الإسباني. كان الإسبان يتصرفون تصرفا كاملا في حدود ما يقارب المائتي متر أو يزيد قليلا، مما يلي السور الغربي للمدينة، حيث كانت خرائب أرباض المدينة، التي استغلت لبناء خنادق والإشبارات.

إلا أن نفوذ المدفعية كان مداه أوسع من المساحة المذكورة، ربما امتد إلى موضع المدينة المرينية المعروفة "بأفراك"، والمعرفة زمن الحصار الإسماعيلي لسبتة بدار القائد "حدو" ثم بدار القائد علي بن أحمد الريفي. وإذا صدقنا حاكم سبتة، حسبما عبر عنه طموحه، فإن تلك الحدود كانت قد وصلت في وقت لا نعرفه إلى "دار سيرايو" (Casa Serrallo). هذه هي المساحة التي كان المخطط الإسباني يحاول وضعها في قفص المباحثات.

- إذا تتبعنا وثائق الأرشيف التاريخي الوطني الإسباني الخاصة بمسألة الحدود، فإننا سنتوصل إلى تفهم فحوى المطالب الإسبانية التي كانت تعتصم وراء الحلول الإنسانية، ونظيرتها وجهة المغربية في تلك المطالب المتنافية مع المحافظة على التراب الوطني.

ويمكن ملاحظة أن الجبهتين المغربية والإسبانية، سارتا متوازيتين متقابلتين. ونعد ما أمكن التعرف عليه من نقط التقارب بين الخطين قليلا جدا، يشوبه الغموض بسبب افتقارنا الكلي إلى الوثائق المغربية، مما يصح به مقابلة المستوحى من الوثائق الإسبانية. هكذا تتوارى عن أنظارنا تفاصيل المواقف المغربية تجاه الطامعين في التهام المزيد من التراب المغربي، علاوة على ما يمكن أن تلحقه شهادات الفئة الواحدة من تشويه تلك المواقف. هذا عيب فادح سيظل عالقا بتاريخنا.

عرفت بداية فكرة الحصول على توسيع حدود الحصون انطلاقتها مما توصلنا إليه، في حدود 27 أبريل 1765، حينما وصل الوفد السلطاني الحامل الأول مراسلة مغربية إلى البلاط الإسباني[8] مزودا برسالة قائد طنجة عبد الصادق بن أحمد الريفي، موجهة إلى حاكم سبتة. وإلى غاية صيف تلك السنة كان الحاكم الأخير قد توصل إلى إحكام الصلة بقائد طنجة، بصفته آنذاك الحاكم العام للمنطقة.

والجديد في الموضوع بعد ذلك أن مسألة توسيع الحدود كانت قد فتحت طريقها في

(8) الرسالة بتاريخ 22 شوال 1178 هـ. 13 أبريل 1765 - 3587.

اتجاه البلاط المغربي بواسطة الفرنسيسكاني "بارتلمي خيرون" (Bartalome giron)، سفير كارلوس الثالث إلى سيدي محمد كنتيجة أولى من نتائج مراسلة العاهل المغربي، كان السفير قد حل بسبتة في 12 نوفمبر السنة وهو في طريقه إلى مكناس. ومن هناك حمل معه ارتساماته الأولى عن الموضوع، ولا بد أن يكون قد زود بمعلومات عن مطالب الحاكم السبتي (9). ويبدو هذا من مراسلة خيرون المؤرخة بفاتح يناير 1766، وتأكدنا من التباحث في المسألة كان قد اخترق حجاب البلاط المخزني منذ 18 يناير (10).

وبمجرد ما توصل حاكم سبتة بوعود مولاي ادريس، عم سيدي محمد ووزيره، ونقل هذا الأخير أمر السلطان إلى حاكم طنجة (11)، زف الخبر إلى حكومة بلاده حيث لقي ترحابا من طرف العاهل الإسباني (12).

ومنذ ذلك الحين عبر حاكم سبتة عن تحركاته كما يوضحه تعدد مراسلاته إلى سيدي محمد قبل 21 فبراير، لشرح موضوع توسيع حدود سبتة متعللا بالأغراض التالية :

- ضمان القدر الكافي من المراعي لعدد من الأغنام والأبقار.
- توفير المياه الكافية للمواشي.
- إيجاد الجو المناسب للترفيه على الحامية.

ويمكن أن نستخرج الحدود المطلوبة من تقرير 30 يوليوز 1766 والرسائل الملحقة به (13)، وهو يلخص الحد الأدنى من تلك المطالب، متمثل في امتداد المساحة المطلوبة إلى دار القائد علي. أما الحد الأقصى فيضاعف المساحة ويصل عمقه إلى المكان المعروف لدى الإسبان "بدار سيرايو" الذي يبعد عن أسوار المدينة بنحو 5 كيلومترات.

ويقابل هذه المرامي الإسبانية مواقف مغربية، نلمسها من وراء عمق سياسة سيدي محمد، يمكن اكتشافها من مضامين المراسلات السابقة :

1) في الوقت الذي كانت في الأنباء تنقل إلى حاكم سبتة موافقة السلطان المبدئية على منح امتياز توسيع الحدود، أدركنا أن القوات المخزنية التي كانت مرابطة على مسافة لا نعرفها بالضبط، تتقدم نحو المدينة وتختار مواقعها على بعد 220 مترا فقط

(9). En trouve al ensanche de Loslimites Ramon do Diaz de centa
هبيريس 1982 - 187.

(10) رسالة حاكم سبتة إلى رئيس الحكومة: 18 يناير 1766 - 4344/4 A.H.N

(11) رسالة "حاكم سبتة إلى خيرون" 18 يناير 1766 - 4344/4 A.H.N

(12) رسالة رئيس الحكومة إلى حاكم سبتة: 7 فبراير 1766 - 4344/2 A.H.N

(13) 4344 من Estado AHN

أي على عتبة خنادق واشبارات المدنية. مبرر هذا الزحف المغربي المتقدم، يوضحه ما أطلعتنا عليه جملة من المراسلات الإسبانية [14] لايبرره سوى استغلال الإسبان لإنفراج العلاقات مع المغرب لفتح باب التهريب على مصراعيه، مما أدى إلى إضعاف مداخيل بيت المال.

وارتبط هذا الإجراء بتعيين قائد الحدود، مستقل عن نفوذ حاكم طنجة، تسميه الوثائق الإسبانية "بالقائد الأسود". ويعود استياء حاكم سبتة من تعيين هذا القائد إلى الأوامر الصارمة التي جاء بها، إذ أنه لم يسمح للإسبان بالخروج من المدينة، وتوعد بمصادرة كل ما يتجاوز الحدود التي ترابط بها القوات المغربية، كما فعل عدة مرات، من المواشي، وأسر الرعاة. وأكثر من هذا أنه يرفض تسليم الفارين من سبتة، وكانت الوسيلة السليمة، في نظر حاكم سبتة التدخل لدى البلاط المخزني لإبعاد قائد الحدود. وعلى الرغم من أنه تم استبداله بغيره، إلا أن الوضع الذي كانت عليه الحدود لم يطرأ عليه أي تغيير [15].

2) يتجلى الموقف المغربي أيضا من رسالة "صمويل سمبل" إلى حاكم سبتة يوضح له أسباب اتخاذ الموقف الجديد بالحدود : "أن منح الاتجار مع المغاربة المجاورين للحصن، لا يأتي فقط مما نص عليه المشرع الإسلامي [16]، بل من انتماء المدينة إلى هذه البلاد[17].

3) أخبرت رسالة حاكم مليلة بالزيارة المفاجئة التي قام بها سيدي محمد لقلعية، وباقترابه من أسوار المدينة، ويهمنا إلى جانب هذه الإجراءات المتخذة أثناء هذا الإستطلاع. ففي أغلب الظن أن أنباء الصلح كانت قد وصلت إلى حراسة الحدود، مما أدى التساهل في الحراسة. هذا هو ما يفسر انزال السلطان العقاب بقائد الحراسة، والتأكيد على بذل الحزم أثناء الحراسة وحث السكان على الجهاد [18].

---

(14) رسائل : 25 يونيو أخرى بنفس التاريخ، 6 يوليوز، 7 يوليوز، 9 و27 و28 يوليوز 2 غشت 1766 من ملف A.H.N. Estado. 4344

(15) نعلم أن نقل قائد الحدود قد تم قبل 6 غشت 1766 - رسالة حاكم سبتة إلى رئيس الحكومة : 6 غشت 1766 ـ 4344/2.

(16) يتعلق الأمر بفتوى منع تصدير الحبوب إلى الدول الأجنبية.

(17) رسالة سمبل إلى حاكم سبتة : 3 مارس 1766 ـ 4344.

(18) رسالة 7 أبريل 1766 الأرشيف العام بسمنكاس. ملف 267.

4) لم يكن في ذهن سيدي محمد أي تناقض بين ما كان يبديه من التشدد في مسألة الثغور، وما قد يترتب عن ضبط الحراسة من أحداث دموية بين المغاربة والإسبان، فهذه مهما بلغت حدتها لن تكون عائقا أمام ما يجري من الإتفاق على الصلح [19]، سيظل سيدي محمد متشبثا بهذا الموقف، ليجد فيه المبرر لضبط الحراسة المستمرة، ولتنظيم حصار مليلة بعد ذلك، ويعني هذا أن الصلح في البر لا يمكن أن يشمل الأراضي المتصلة بالثغور برا، وسيبرز هذا الخلاف بين المغرب واسبانيا أثناء حصار مليلة وبعده.

5) نبه سيدي محمد العاهل الإسباني بوجوب إعلام الحاميات الإسبانية المتواجدة بسبتة ومليلية لالتزام "الحدود المعروفة لهم"، بعد أن أصدر أوامره إلى سكان القبائل المجاورة بالتزام نفس الشيء. وكان القصد بالذات ألا يتجاوز الإسبان أسوار المدينتين والخروج إلى الميدان الغربي، الواقع تحت الحراسة المغربية، "مثلما أمرنا قوادنا الموالين لهم أن يقفوا عند حدودهم المعروفة لهم" [20].

6) يتضح الموقف المغربي من خلال مجرى المحادثات التمهيدية، بناء على التعليمات الموجهة إلى السفير الإسباني، اكتشف "خيرون" منذ الوهلة الأولى أن طرح المسألة الحصول على أنظار السلطان أمر جد حساس، إلى الحد الذي لم يتجرأ فيه أحد على مجرد الإثارة. لهذا صرح لحكومته أنه لم يطرح المسألة "واد نون" التي كلف بتبليغها إلى مسامع سيدي محمد، كما أحجم عن الخوض في إمكانات تسويق الحبوب من الثغور.

أما عن مسألة الحصون فقد أعلن خيرون : "أن السلطان يتصور الطريقة التي سيتم بها الصلح بين الجانبين بكيفية غريبة، ذلك أنه يعتبر من واجبه الديني والوطني استرجاع تلك الحصون التي يملكها عاهلنا بالمغرب، وأنه من جهة لا يرى أي مانع لتحقيق تلك الأمنية التي تفرض عليه اللجوء إلى القوة، دون أن يتعارض ذلك مع الصلح المزمع عقده مع اسبانيا" [21].

وحينما طلب رئيس الحكومة من سفير بلاده أن يدلي له بحجة تصلب رأي السلطان

---

(19) رسالة صمويل السابقة. رسالة سيدي محمد إلى كارلوس الثالث : 10 ذي القعدة 1179 هـ 20 أبريل 1776 ـ 4344/2.

(20) المصدر السابق.

(21) رسالة خيرون إلى رئيس الحكومة : 6 فبراير 1766 ـ 4308.

في مسألة، وافاه الجواب "بأن سيدي محمد محا الجملة التي كان صمويل سمبل عرضها عليه. والجملة همت توسيع حدود الحصون، وربح الأسواق المجاورة لها" [22].

كل هذا سيفرض على السفير الفرنسيسكاني اتخاذ جميع الحذر، وتجنب ما قد يثير حساسية السلطان. وحينما خصه سيدي محمد بالمقابلة يوم 2 فبراير 1766 اقتصر خطابه مما يهم موضوعنا على أن "يكون الصلح على الدوام برا وبحرا، وكان لهذه الجملة وحدها دلالتها الدقيقة في قاموس العلاقات المغربية الإسبانية.

نستطيع الآن أن نضيف إلى سفارة الفرنسيسكاني جانبا إيجابيا آخر، قبول سيدي محمد إرسال سفارة مغربية إلى مدريد يرأسها أحمد الغزال [23]. ونعتقد أن الصعوبة التي واجهها الإسبان في الحصول على الحل المرضي لهم لمسألة الحصون هي الباعث الأساسي للتفكير في دورة ثانية للمباحثات، ويتجلى هذا من خلال المراسلات المتبادلة[24] فما هو الجديد عن مسألة الثغور.

من الواضح أن سيدي محمد لم يفكر كثيرا فيما ستسفر عنه المباحثات ما دام الأمر يتعلق بتبادل المزايا التجارية بين الطرفي. أما مسألة توسيع الحدود فلم تخطر على باله ولم تأخذ منه كبير اهتمام لموقفه الصارم المعروف. ويظهر عدم اهتمام السلطان باختيار أفراد السفارة من اسناد رئاستها أولا إلى خاله "عمارة"، قبل أن ينقلها إلى أحمد الغزال، وكيفما كان الحال فإن الوثائق الإسبانية لا تبين أن السفارة زودت بما يكفي من التعليمات، والنتيجة أن المباحثات تستند إلى طريقة التفويض والإستشارة عن بعد وقت الحاجة إليها.

والذي أخبرتنا به الوثائق أن الإسبان سروا كثيرا بتلك السفارة ووجود الغزال على رأسها، وأعدوا لها ما استطاعوا من حسن الإستقبال، ولا نعرف ما كان يعنيه خيرون حينما أشار إلى أن الهدايا غيرت من موقفه [25]. والذي نعرفه أن ملف الحصون كان قد هيىء بعد أن تلقى رئيس الحكومة مشروع التوسعة الذي أعده حاكم سبتة على إثر انتقال الغزال إلى مدريد، ليتوصل به في 26 شتمبر 1766 [26].

(22) المصدر السابق.

(23) لا نعرف عن أبي العباس أحمد بن المهدي الغزال الفاسي الأندلسي ما يكفي عن حياته. ولا يمكن أن نحصل على شيء بقراءة رحلته الأندلسية ودوره في العلاقات المغربية الإسبانية ما بين 1766 و 1775.

(24) بدأ سفارة الغزال في فبراير 1766 وانتهت في أواخر شتمبر من نفس السنة.

(25) رسالة خيرون إلى رئيس الحكومة : 28 يوليوز 1766 ـ 4344/2 A.H.N. Estadeo

(26) ملف 4344/2 A.H.N. Estadeo

هكذا فرغم طول مدة بقاء الغزال بمدريد، فإننا لم نتمكن من متابعة المحادثات بما يكفي من الوضوح، حينما نقدر أن نتيجتها لا تتجاوز العودة بملف كان يعلم رأي السلطان فيه. ولا يمكن استبعاد عن هذه السفارة أنها قدمت وعودا مشجعة لحكومة مدريد، تبدو من التعليمات التي جاء بها "خورخي خوان"، سفير كارلوس الثالث [27].

لم يطرأ على المشروع الإسباني الخاص بالثغور الغربية أي تغيير على الصورة التي أعد بها قبل وأثناء سفارة الغزال، ويمكن لنا أن نطلع على الصيغة ما قبل النهائية للمطالب الإسبانية في المسودة التي أعدها السفير الإسباني بعد أن تم استقباله من طرف السلطان في 16 ماي 1766.

تحمل المسودة عنوان : "النقط التمهيدية التي سيتم إقرار الصلح عليها بين صاحبي الجلالة الكاثوليكي والمغربي، وتتألف من 21 شرطا، احتلت مسألة الحصون منها المطلب13، والمطلب خلاصة مركزة لما نعرفه في هذا الباب، وقد توصل الغزال بنسخة من المسودة بتاريخ 20 ماي 1767 [28].

الواقع أننا لا نعلم متى طرحت المذكرة الإسبانية أمام أنظار سيدي محمد ربما كان ذلك ما بين 23 ماي و26 منه، لأن السفير يصرح في هذا التاريخ الأخير أنه لم يحصل على أي شيء بعد ونتأكد بعد يومين من استمرار رفض السلطان للمطلب الإسباني وكان على سيدي محمد هذه المرة أن يعزز جوابه بما أسفرت عنه استشارة جماعة العلماء والفقهاء والأشراف والأعيان، كان من بينها ولي العهد "المولى علي" وهذا يعني أن لا مجال لمنح التوسعة التي جرى وراءها الإسبان، كان هذا الإجماع هو الذي بني عليه السلطان جوابه إلى كارلوس الثالث بتاريخ فاتح محرم 1181 هـ [29]، وهو عينه الذي أثبت في الإتفاق، ليشكل مضمون الفقرة الأولى من الشرط 19 :

"طلب الوسع في الأرض للمدن الأربعة سبتة ومليلية والنكور وبادس فإن الجواب

---

(27) كتب الإسبان الشيء الكثير عن هذه الشخصية أنظر مثلا Vicente Rodniquez Casado III Politica marroqui ص 97 ومابعدها.

(28) توجد المسودة بملفين : 4355 و4310 من A.H.N. Estado

(29) تقول الرسالة : "والمسألة الثانية هي الحدود، أعلم أن هذه الحدود جعلها المتقدمة وخوطها بعد أن أحضروا علماء الوقت والقضاة والعدول والجماعة من المسلمين وأنزلو خطوط أيديهم بأن لا يحدث فيها نقص ولا زيادة. ومن ذلك الزمان والملوك الذين يتولوا أمر الرعية يجتهدون والحراسة بالوجه الشرعي، فلا سبيل لمن يريد الزيادة فيها ولا النقص، ولو كانت المسألة جائزة في ديننا، لجدنا عليكم بها، مراعة لمحبتك وخدمتك" التاريخ الموافق : 28 ماي 1767 - ملف 4312.

على ذلك من سيدنا نصره الله، أن الملوك المتقدمة جعلوا تلك الحدود القائمة الان [30]، بمحضر العلماء والقضاة والجماعة من المسلمين من زمن أخذ هذه المدن المذكورة، وأنزلوا عليها أيديهم، وألزموا نفوسهم أن يقفوا عند تلك الحدود، حتى لا يقع فيها نقص ولا زيادة. كل سلطان يتولى أمر الرعية، ويشهد عليه عمارة تلك الحدود والعسة والحراسة إلى وقتنا هذا، فلا يمكننا أن نزيد فيما هو مشهود به علينا ولا على من قبلنا من الملوك، ولو كانت المسألة جائزة في الدين لقضيناها لكم مراعاة للصلح" [31].

ولا يمكن أن نستنتج من المراسلات القليلة، مدى تأثر السفير الإسباني للقرار السلطاني، لكننا نعلم أنه لم ينل من عزمه كثيرا، فاستمر جاهدا للوصول إلى مراميه، ويمكن أن نقف على بعض تلك الجهود من رسالته المؤرخة في 16 يونيه 1767، وعن الصعوبات التي واجهها أثناء المحادثات، ولما كان متأكدا من أنه لن يخرج بنتيجة إيجابية بمسألة الحصون إذ اكتفى بما جاء في الفقرة الأولى من الشرط 19، يلتجأ إلى ربح القضية بوسيلتين :

- تحويل صيغة "الوسع" كما نصت عليه الفقرة الأولى، إلى المطالبة بـ "تصحيح الحدود المذكورة". وفي هذا التظاهر بمسايرة رأي السلطان بعدم إحداث أي تغيير في الحدود المعروفة منذ القديم، هذا وإن إبعاد الصيغة الأولى وإثبات الثانية كان القصد منه، انتزاع الإعتراف بوجود حدود ينبغي العمل على تعيينها من جديد، فهذا أدنى ما يمكن الحصول عليه. كانت هذه النقطة هي الخطوة الإيجابية في سفارة خورخي خوان، نستخلص هذا من إثبات الفقرة الأولى لكلمة "الوسع ENSANCHE" وتعويضها في الفقرة الثانية بـ "تصحيح" (Renovar) حسبما جاء في النصين العربي والإسباني من الإتفاق [32].

حرص السفير الإسباني، كوسيلة ثانية على اسناد عملية تصحيح الحدود إلى لجنة ثنائية مغربية اسبانية، تتمتع بتفويض تام، ومن الجانب المغربي خاصة. لنطلع على الهدف من اللجوء إلى هذه الوسيلة من خلال إحدى المراسلات السفير الإسباني :

"إن الأراضي التي يمكن أن تمنح للحصون، يبدو لي من الأولى أن يسند البث فيها

(30) الجملة ناطقة بواقع ما كان في ذهن السلطان عن مسألة الحدود.

(31) نشر الأستاذ محمد عزيمان (تطوان) النص العربي للإتفاق بمجلة تمودا سنة 1956.

(32) يوجد النص الإسباني للاتفاق في Las Tralâdos y convenios referentes a Marruecos. Isidrl de cagigas

إلى لجنة مزدوجة، لأن ما يطلب هنا صعب المنال، والحصول على الأراضي الممتدة إلى أبعد نقطة خارجية [33]، أمر لن يطيقه المسلمون بسهولة، ونرجو الحصول على نتائج أفضل بتقديم المنح للموكل المغربي الذي سيتم اختياره، وهذا أقوم مما لو تم الأمر هنا" [34].

ولما كانت الرسالة السلطانية والفقرة الأولى من الشرط 19 المشار إليهما، لم تتعرضا لمسألة تصحيح الحدود إطلاقا، حملنا ذلك على التأكد من أن ما جاء في الفقرة الثانية من الاتفاق لم يقع الاتفاق عليها يوم 28 ماي 1767، لكنها ألحقت بعد ذلك التايخ، نتيجة إلحاحات "خورخي خوان" : "رجوت جلالته المرة بعد الأخرى، أن يعتبر إمتداد تلك الحدود إلى ماوراء مدى طلقة المدفع المعروفة زمن الحرب [35]. وأخير قبل السلطان تعيين عامل تطوان [36]، وكيلا من قبله لتصحيح جميع الحصون" [37].

يبدو إلحاح السفير الإسباني في مستهل صيغة الفقرة الثانية، التي تقدر أنها أضيفت قبل 16 يونيه أو بما قرب من الأيام :

"وحيث وقع الطلب في تصحيح الحدود المذكورة، وأردتم أن يحضر رجل منكم وآخر من قبلنا، حتى تعرفون هذه الحدود وتتحققونها، حتى لا يبقى فيها خلاف ها نحن جعلنا وكيلنا للوقوف مع وكيلكم، قائد تطوان، والذي يفعل مع صاحبكم أمضيناه وتخط الحدود بالأحجار" [38].

يظهر الفرق واضحا بين ماكان يقصده سيدي محمد والجماعة المستشارة، وبين ما تصوره الإسبان للمفهوم الجغرافي للحدود القائمة بين الثغور المحتلة ومراكز الحراسة المغربية، فماذا كان يعنيه الجانب المغربي.

لا ريب أن ما كانت ترمي إليه الصيغة الواردة في الفقرة الثانية، الإشارة إلى الحدود القديمة التي تنتهي بانتهاء الأسوار الغربية القائمة وقت التسرب الأجنبي إلى سبتة ومليلية. هذا هو المقصود من العبارة "أن الملوك المتقدمة جعلوا تلك الحدود

---

(33) هي النقطة التي أشار إليها تقرير حاكم سبتة : Casa Serrallo

(34) التي تبعد بنحو 5 كيلومترات.

(35) رسالته إلى رئيس الحكومة : 23 ماي 1767 - ملف A.H.N. 4308

(36) يعني قبل الصلح.

(37) محمد عاشر التطواني.

(38) الفقرة الأخيرة من النص العربي للاتفاق المغربي الإسباني.

القائمة الآن.. من زمن أخذ هذه المدة المذكورة "والغاية عند سيدي محمد من إرضاء الجانب الإسباني بإضافة الفقرة، إبقاء ما كانت عليه الحدود على ما هي عليه أثناء توقيع الصلح، واستبعاد كل خلاف بعد التعرف على تلك الحدود ووضع العلامات على خطوطها، التي كانت من إشارته على مايبدو.

غير أن هذه الحدود التي تدخل في التصور المغربي، كانت في ماي 1767 نظرية صرفة، إذ أن الإسبان كانوا قد تمكنوا من توسيع حدود المدينتين خلال القرون السالفة. ويظهر هذا جليا بالنسبة لمليلية بحكم ضيق المساحة الأصلية للصخرة التي تحمل مباني المدينة [39]، على خلاف مدينة سبتة التي كانت وضعيتها أفضل بسبب إمتداد رقعتها طولا على مسافة كيلومترين.

وعلى افتراض أن اللجنة المكلفة من الطرفين المغربي والإسباني بتصحيح الحدود وفق التصور المغربي، فلن يكون في وسع الوكيل السلطاني أن يفعل أي شيء سوى الاعتراف بحدود المساحة المضافة للمدينتين إقرارا بواقع مفروض. ويمكن لنا أن نضيف الآن أن منطق الحدود لدى المغرب كان قد أخذ باعتبار الحد الذي وصلت إليه مباني المدينتين وما ألحق بهما من التحصينات المجاورة إلى أن يحين وقت تخلص الثغور من الوجود الأجنبي بصفة نهائية.

وما نراه بالنسبة للتصور الإسباني مخالف تمام الإختلاف، ذلك أن مفهوم الحدود ظل قائما بكل مفهومه الأولي، لم يطرأ عليه أي تغيير على الرغم ما يمكن أن يفهم من استبدال صيغة الوسع بعبارة تصحيح الحدود. فقد بقيت دلالة الصيغتين شيئا واحدا، وأرادوا لها أن تكون كذلك، بما كان قد رسخ في أذهانهم من أن الحدود الفعلية المطلوبة هي الواقعة خارج الأسوار، وعلى بعد منها قدرت مساحتها بما لا يقل عن الميدان الذي تسيطر عليه نيران المدفعية، استنادا إلى القاعدة العسكرية المعروفة، حسبما دأبت رسائل حاكم سبتة على ترديده [40].

ونستطيع أن نتابع بعد توقيع الاتفاق تنافر مفهوم الشرط 19 إبراز تناقضاته مع مشروعه سيدي محمد الرامي إلى تحقيق الوحدة الترابية.ففي الوقت الذي كانت فيه المساعي الإسبانية سارية لربح الصفقة عن طريق جلب الوكيل المغربي بواسطة بذل المنح

(39) سبق أن أوضحت الصورة التي اتسعت بها مدينة مليلة إلى غاية منتصف القرن 18.

(40) أول رسالة تعرضت لذكر القاعدة تعود إلى 18 مارس 1766 - 4344.

والهدايا، الوسيلة الوحيدة "للحصول على المبتغى" [41]، فإن محمد بن عاشر عبر عن جهله التام بضمون الإتفاق واختياره لمهمة تحصين الحدود [42] وقد نقل الممثل القنصلي بتطوان، بعد أن تتابعت إلى عامل تطوان مجموعة من الإستفسارات وإلحاحات الإسراع إلى تخطيط الحدود أنه قال : "وعلى افتراض أنه توصل بأمر من السلطان يبد قائد الحدود المقابلة لسبتة بالتراجع إلى الحدود القديمة (60)، فإنه سيبعث إليه سرا ليأمره بعدم التنازل ولو على شبر واحد من تلك الأرض" [43].

والواقع أن أعمال اللجنة كانت قد جمدتها حوادث حدود مليلة، التي أعلنت عنها القنصلية الإسبانية من العرائش [44]. فمنذ يوليوز 1767 لم تتوقف غارات قلعية على المدينة. كما أننا نقدر أن تجميد فعالية الشرط 19 لم يكن بعيدا عن بوادر معارضة الإتفاق، مما نستشفه من مراسلة متأخرة بخمس سنوات عن تاريخ الإتفاق [45].

(41) رسائل : 30 يونيه، 1 غشت 1767 بالملفين 4308 و4311.

(42) رسالة 23 شتمبر 1767 - 4351.

(43) حسب المفهوم الإسباني.

(44) رسالة القنصل الإسباني بالعرائش إلى رئيس الحكومة : 7 يناير 1768 - 4309.

(45) رسالة رئيس الحكومة إلى قنصل بلاده : 13 ديسمبر 1767 - 4309.

العلاقات المغربية الفرنسية
في عهد سيدي محمد بن عبد الله
من خلال المصادر المغربية

لطيفة الفيلالي
كلية الآداب ابن مسيك/البيضاء

شكلت العلاقات المغربية الفرنسية عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 ـ 1792) حلقة من تاريخ العلاقات المغربية مع العالم الخارجي على العموم ومع العالم الاوربي بالخصوص . وقد جاءت بعد قطيعة دامت زهاء نصف قرن (1718 – 1767) وتميزت حسب الدراسات الاجنبية [1] - بتبادل دبلوماسي مكثف لم يسبق له مثيل . واذا كانت هذه الدراسات قد فصلت لنا في جوانب متعددة من هذه العلاقات ، فإن الهدف من عرضنا تقديم منظور مغربي عنها من خلال المصادر المغربية[2].

---

(1) عن هذه الدراسات الاجنبية، انظر على سبيل المثال لا الحصر كتابات جاك كاييي بمجلة هسبيرس وهيسبيريس - تامودا سنة 1951 - 1956 - 1960 - ....

Grillon Pierre : la chambre de commerce de marseille et le Consulat de france au Maroc pendant la mission de Louis Chenier (1767 - 1782) in Hésperis - Tamuda V.IV - Fax 1et 1963 (pp 69 - 117) et V. IV - Fax . 3 . 1963 (pp 313 - 346)

Masson paul : Histoire des établissements et du commerce français dans l'empir Barbaresque (1560 - 1793) Paris, 1903.

Journal du consulat général de France au Maroc , publié par charles Pens 1943

(2) اعتمدنا اساسا على اربع مصادر :

- محمد بن الطيب القادري :" نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني " تحقيق م حجي وا. التوفيق، بمكتبة الطالب الرباط 1986، الجزء IV
- محمد بن عبد السلام الضعيف : تاريخ الدولة العلوية السعيدة ، تحقيق محمد البوزيدي الشيخي، دار الثقافة ، البيضاء ، 1988، الجزء I

احمد الناصري : الاستقصا لاخبار دولة المغرب الاقصى " دار الكتاب، البيضاء، 1954، 1956 الجزء VIII

عبد الرحمان بن زيدان : " اتحاف اعلام الناس" ط II الرباط1990الجزء II

I - الإطار العام للعلاقات المغربية الفرنسية

1 - المغرب قوة بحرية

ما حاولت مصادرنا ابرازه كإطار عام لعلاقات المغرب الخارجية على العموم هو ظهورالمغرب كقوة عظمى فالسلطان سيدي محمد بن عبد الله قد جدد الدولة المغربية " واحيا جمرتها" (1) "واسس لها...ركنا شديدا، ونشر بين الغافقين مجدها.." (2). وكان من جملة الاشياء التي تشوفت إاليها همته السلطانية لارساء عظمة الدولة هو احياء اسطولها البحري ومعه "احياء سبيل الجهاد وإعداد معداته البحرية التي لايستقيم ملك إلابها ..." (3) وبالتالي فالمغرب، كدولة عظمى اصبح قبل كل شيء قوة بحرية.

وترجع مصادرنا تشكيل هذه القوة البحرية في البلاد الى عوامل متعددة :

- فهو من جهة نابع من دوافع ذاتية مرتبطة بشخصية السلطان الذي تركز المصادر على ولوعه الكبير بالجهاد في البحر (4)

- وتعزوه من جهة ثانية الى اسباب جيو استراتيجية بحكم الموقع الجغرافي للمغرب ومكانته السياسية في العالم الاسلامي والمتوسطي ف " الدولة المجاورة للبحر تدعوها الضرورة والحاجة لاتخاذ السفن الماخرة من تجارة بازركانية قرصانية " (5)

- وأخيرا هناك الدوافع السياسية - الدينية والدوافع الاقتصادية : فاهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالشؤون البحرية وتشوفة الى احياء الاسطول المغربي، ناتج عن " تعطل بما كان يستفاد منه من المداخيل والمحاصيل وانقطع خوف أمم البحار... " (6)

ولخص ابن زيدان دوافع هذا الاهتمام السلطاني لارساء القوة البحرية للبلاد بكونها ضمان ل " حراسة الوطن، وعمارة المال وقهر الاعداء الألداء (7) ومن مصادرنا، يتبين أن السلطان قد وصل فعلا إلى أهدافه. فالمغرب اصبح يشكل في عهده قوة بحرية يحسب

---

(1) الناصري : ن.م

(2) ابن زيدان : ن.م ص ص 150 - 151

(3) ابن زيدان ن.م ص 257

(4) الناصري: ن.م ص ص 20 - 21 ابن زيدان : ص 159. أما عن اهتمامه بالأساطيل البحرية . انظر نفس المصدر ص256 - 265

(5) زيدان : ن. م ص 256

(6) ن.م ص ص 256 - 257

(7) ن. م ص 257

لها كل حساب اذ " جمع (من السفن والعدة) ما لم يتفق للحد من المتقدمين ولا من المتأخرين وطوع الله له الروم..."[1]

وتطويع الروم اي الاوربيين عامة إنما تم لان السلطان تمكن من فرض وجوده على الساحة الدولية بقوته البحرية فقد " دوخهم في البحر وغنم منهم غنائم كثيرة ...وتكاثرت سفنه في البحر...وأقبلت عليه الايام، ووقف له السعد في البر والبحر..."(2) وهذا ما جعل كل "ملوك الافرنج وطواغيتهم " يهابونه (3).

2) انصياع الدول الاوربية امام القوة المغربية

ازدهار النشاط الجهادي في البحر وتضييق قراصنة السلطان على الاروبيين وصل - حسب الناصري - الى درجة " أن ضاق بهم رحب الفضاء، وكاد يستأصل جمهورهم حكم القضاء "(4) مما جعلهم يتهافتون على مهادنته وطلب حسن جواره ويتمثلون لمطالبه " خاضعين ومطيعين " (5) ويكفينا في هذا الباب الوقوف على ما جاء عند الناصري في شأن مكانة السلطان بين"ملوك الافرنج " وانصياع دولهم لقوته :

" هابته ملوك الفرنج وطواغيتهم، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمته في البحر بلغ ذلك رحمه الله بسياسته وعلو همته حتى عمت مسالمتة اجناس النصارى كلهم الا المسكوب...ووظف على الاجناس الوظائف فالزموها وكانوا يؤدونها كل سنة... وكانوا يستجلبون مرضاته بالهدايا والالطاف وكل ما يقدرون عليه، ومهما كتب الى طاغية في أمر أسرع اليه ولو كان محرما في دينه، ويحتال قضاء الاغراض منهم بكل وجه أحبو أم كرهوا..."(6)

وقد شكل الموقف الفرنسي استثناء والسبب ان طاغية الفرنسيين (مع طاغية الإنكليز) كان اعظم طواغية " هذه الاجناس الاوربية [7] وإن اطوار العلاقات بينها وبين المغرب عرفت فترات متلقبة (التميز بين فترتين).

---

(1) القادري: ن.م

(2) الضعيف: ن.م ص 311 ، انظر كذلك ابن زيدان ان: ن.م ص 162
الناصري : ن.م ص 21

(3) الناصري : ن.م ص 70

(4) الناصري : ن.م ص 21

(5) القادري : ن.م ص 258 ، الناصري: ن.م ص 25 وابن زيدان : ن.م ، 168

(6) الناصري : ن.م . ص ص 70 – 71 انظر القادري: ن.م. ص 258

(7) الناصري : ن.م. ص 71

II - اطوار العلاقات المغربية الفرنسية عهد سيدي محمد بن عبد الله

1) الموقف العدواني للدولة الفرنسية

تفيدنا المصادر المعتمدة أن الموقف العدواني لفرنسا ناتج عن ازدهار نشاط الجهاد البري (كما سبقت الاشارة الاذلك) وهي البلد الذي تضرر كثيرا بالضربات المتعددة على مراكبها ولذلك تطاولت الى الاخذ بالثأر [1] والقيام بهجومين على الثغور المغربية.

- حصار وضرب سلا والرباط [2]

في اواخر 1764/1178 [3] ، حاصر الفرنسيون مدينتي سلا والرباط وأطلقوا عليها قنابلهم ولما " لم يحصلوا على طائل، قلعو وانصرفوا بسفنهم " وفشلهم هذا امام العدوتين جعلهم يولوا وجههم نحو ميناء العرائش.

- الهجوم الفرنسي على العرائش [4]

في بداية 1765/1179 قام الفرنسيون باعتداءهم على العرائش واذا اختلفت المصادر الاربعة في شأن اعداد الاسطول الفرنسي المهاجم [5] فقد اجتمعت على ان المقاومة المغربية تمكنت من تدميره وان هذه " الواقعة " كانت مصيرية في تغيير الموقف الفرنسي [6] ودخول العلاقات المغربية الفرنسية في طورها السلمي والدبلوماسي.

---

(1) الناصري: ص 21

(2) حول الهجوم انظر: القادري: ن.م ص 162
الضعيف: ن.م ص 316، الناصري : ن.م ص ص 21 - 22 وابن زيدان: ن.م. ص ص 164 - 165

(3) الناصري: ن.م ص 21، وعند القادري في اواخر شهر ذي القعدة ص 162 ، الصعيف: وشهر ذي الحجة ص 316 وكذا عند بن زيدان: ص 164

(4) التفاصيل عن هذا الهجوم عند: القادري: ن.م . ص 169 - 170، الضعيف: ن.م. ص 317، الناصري: ن.م.22، وابن زيدان: ن.م. ص 165

(5) فالقادري يتحدث في اسر" ما ينيف على خمسمائة فيما بين قتيل وجريح"وارسل الى السلطان بمراكش بنحو الستين وحسب الضعيف فقد " دخلوا بنحو الثلاثين ونيف (من الفلك) فما نجت منهم سوى واحدة " ...وعلقت من رؤوس النصارى في المراسي " نحو ثلاثمائة بسلا...وفي رباط الفتح ... ومثلها في العرائش وطنجة وتطوان" ن.م ص 317،
اما بن زيدان فلم يذكر سوى " خمسة عشر قاربا ... فأسر منهم احد عشر قاربا بما فيها، ونجا أربعة وأرسل من أسرمنهم الى المترجم" ن.م. ص 165

(6) انظر ما جاء في المبادلات الدبلوماسية

2) التبادل الدبلوماسي

* على مستوى السفارات

في هذا الاطار، لم تحدثنا المصادر المغربية الا عن سفارة واحدة في العلاقات المغربية الفرنسية، وهي السفارة المغربية التي قادها على مرسيل الرباطي سنة 1765/1179 (1)

واكتفى الناصري بتسطير محتوى مهمة هذه السفارة التي كان عليها، تقرير الصلح مع الفرنسيين وحيازة مال افتداء اسرى العرائش وشراء التجهيزات للسفن (2).

لكن ابن زيدان يفيدنا بمعلومات مهمة عن حيثيات ودوافع ارسال هذه السفارة، فهو يؤكد ان السفارة وجهت الى فرنسا بعد وقعة العرائش ويطلب من الدولة الفرنسية نفسها لعقد الصلح والمهادنة الذي اعتمده هذا المصدر فهذا صاحب كتاب " درة السلوك " يذكر انه :

" بعد هذه الواقعة (اي وقعة العرائش) احتفل طاغية الاسبان والفرنسيس بهدايا لم يعهد مثلها مشتملة على جوهر وأصناف لديباج وأواني الصين المذهبة وقباب مطبقة داخلا وخارجا بالحرير الاحمر والاخضر قد أحكمت خياطتها بصفائح مذهبة عجيبة الشكل والاتقان وقدمت رسلهم لمدينة مراكش بهداياهم...فأجابهم أيده الله الى ما طلبوه من عقد الصلح والمهادنة بعدما بذلوا عدة وافرة من الاموال واصناف من اليواقيت واللئالي"(3)ويضيف ابن زيدان: " وبالفعل وجه المترجم (سيدي محمد بن عبد الله) خديمه على مرسيل لفرنسا لتقرير الصلح وقبض مال الاسرى وشراء الاقامة..."(4)

غير ان هذه السفارة لم تقم الابجزء من مهمتها الاوهو قبض مال الاسرى وشراء لوازم السفن حسب قول الناصري فان الفرنسيين قد" بذلوا المال والاقامة معا طائعين" (5)

اما فيما يخص مسالة تقرير الصلح فقد أكدت مصادرنا على انها لم تتم الافى السنة الموالية لتاريخ السفارة (6)

---

(1) الناصري: الاستقصا، ج VIII، ص 25 ابن زيدان : الاتحاف ج III، ص 166.

(2) الناصري: ن.م ابن زيدان: ن.م ص 266

(3) عن" درة السلوك لأبي محمد عبد السلام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله ذكر بن زيدان : ن.م.ج III ص 166 - 266

(4) ابن زيدان: ن.م ص 266

(5) الناصري: ن.م. ص 25

(6) الناصري: ن.م ص 30

ابن زيدان: ن.م.ص 266/165 وقد جاء عند صاحب نشر المثاني انه 8 رمضان 1179 وصل الخبر إلى فاس ان السلطان " أوقع صلحا مع النصارى " واذا لم يحدد صاحب المصدر بدقة من هو الجانب الذي وقع معه السلطان هذه المعاهدة فان المحققان ارتأيا أنها تعني المعاهدة الموقعة مع لفرنسيين سنة 1767/1180 انظر نشر المثاني ن.م.ج.4 ص 171

ويوضح ابن زيدان هذا فيقول "في عام تسعة وسبعين ومائة والف (1179)هجم اسطول فرنسي على العرائش ...ووقع الصلح في السنة بعدها وهي معاهدة عام ثمانين ومائة والف (1180) الموافقة ثامن وعشرين ماي سنة سبع وستين وسبعمائة والف"[1]

وعلى ذكر هذه المعاهدة، اشار ابن زيدان على ان توقيعها من الجانب الفرنسي على يد Conte Breigom كباشدور مفوض لدى السلطان من طرف لويس 15، وهي الاشارة الوحيدة في المصادر الى سفارة فرنسية بالمغرب طيلة هذه الفترة.

- المراسلات

ابن زيدان نص هذه المراسلات .

*** رسالة لويس 16 - 1777 يخبره بوفاة لويس 15 .**

رد السلطان على القنصو برطملي دبطنير

رسالة 10 جمادى II 1188

رسالة لويس 16 ازدياد مولودة

lettre louis au sultan 1778/1192

*** معاهدة 1767**

تشكل الاطار القانوني التي خضعت له العلاقات المغربية الفرنسية خلال عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، جاء نصها الكامل في الاتحاف .

واكتفت المصادر المعاصرة للفترة (القادري الضعيف) بالاشارة إليها. بينما اعطى الناصري ملخصا لبعض بنود المعاهدة.

وما يثير الانتباه، أن علي مرسيل لم يتحدث عن السفارة الواردة في المصادر المغربية.

ومن الجانب الفرنسي بعثة Jacques SAWA 1764 - 67وسفارة conte Breigom (1767) والتي أعيد معها ربط العلاقات الرسمية بين الدولتين.

كما أن هذه المصادر لاتفيذنا بمعلومات عن التواجد التجاري الغربي بالمغرب خاصة وأن هناك جالية مهمة من التجار الفرنسيين كانت متواجدة بأهم الموانئ المغربية قبل عهد السلطان بكثير.

---

(1) ابن زيدان: ن.م.ص 165. انظر اسفله فيما يتعلق بهذه المعاهدة

ملاحظات اولية

هذا المنظور المغربي للعلاقات المغربية الفرنسية - والذي استقرأناه من بعض المصادر - يثير عدة تساؤلات بالمقارنة مع ما جاء في الكتابات الاجنبية وستقتصر هنا على ادراج بعض الملاحظات الاولية .

على مستوى تسطير الاحداث المنظور تشوبه عدة ثغرات تكتفي بالاشارة الى نماذج منها ركزت هذه المصادر بخصوص الموقف العدواني لفرنسا على ان المواجهة العسكرية بين الطرفين انحصرت فقط في ثغور العرائش. واكتفت بالاشارة الى حصار العدوتين وضربها بالقنابل دون حدوث معركة في حين يؤكد مصدر فرنسي معاصر على ان الفرنسيين لم يقفوا عند حصارها وضربها بالقنابل بل وقعت معركة بين الجانبين (1) :

اما في موضوع التبادل الدبلوماسي لم يرد الذكر في هذه المصادر الا الى سفارة واحدة، وهي سفارة على مرسيل (1765- 1766) من الجانب المغربي واكتفى مصدرواحد باشارة مقتضبة الى السفارة الفرنسية Conte Breirgom (1767)في حين ان جاك كايي

- اعتمادا على مصادر فرنسية تحدث عن تسع سفارات وبعثات بين الجانبين :

سبع سفارات وبعثات مغربية الى فرنسا بين 1759- 1786 وهي :

1) سفارة الحاج التهامي مدون في 1759.

2) بعثة Joseph Etienne Ry في 62 - 1764.

3) بعثة علي بيريس في 72- 1773 .

4) بعثة عبد الله سكالنت في 74 - 1775.

5) سفارة الطاهر فنيش في 77-1778.

6) بعثة على بيريس في 78.

7) بعثة الحاج العربي مورينو 86 - 78.

(1) لضعيف : ن.م 316 ـ 317 هـ 105.

سياسة سيدي محمد بن عبد الله بالاقاليم الصحراوية

محمد حباني
كلية الآداب -وجدة

بلغ التفكك السياسي أقصاه في القرن 17 م، حيث ظهرت في اواخر الدولة السعدية كيانات وامارات انفصالية، ولذلك كان مجيئ الاشراف العلويين بمثابة منقذين ومخلصين البلاد من التمزق والانحلال والغزو الاجنبي، ووحدوا البلاد سياسيا، فترجحت كفتهم على الاتجاهات الانفصالية، فأخذوا على عاتقهم مبدأ الجهاد لتوحيد البلاد فرحبت بهم كل طبقات المجتمع المغربي الذي استاء من الطرق الصوفية وحكمها وآثرت عليها أحد الاشراف وهو المولى محمد بن الشريف الذي بويع من طرف أهل سجلماسة حوالى سنة 1631م/1050هـ.

نشأت الدولة العلوية في الجنوب الصحراوي - موطن الاشراف - اذ استقرت الاسرة بواحات تافيلالت، وقاعدتها يومئذ مدينة سجلماسة، مركز انطلاق الدولة العلوية الشريفة ، من هناك أصبحت تراقب المحاور الرئيسية الآتية من الجنوب ، منذ أن انضم الى جيش المولى محمد أهل سجلماسة وأعمالها ، وانصرفت الدولة الفتية منذ الوهلة الاولى عاقدة العزم على توطيد الصلات مع الاقاليم الصحراوية . والروابط التاريخية المتينة تجسدت من الناحية العملية في روابط البيعة والولاء للسلطان رمز الوحدة والسيادة على الاقاليم المغربية الجنوبية النائية .

فهذا السلطان المولى اسماعيل 1672-1727م وصلت حركاته الى شنقيط وتخوم السودان وأقبلت عليه الوفود وادوا طاعتهم(1) وهذه الاقاليم تعتبر امتداد جغرافيي وبشري لجنوب المغرب، وكان المولى الرشيد قبله بعد البيعة العامة بسجلماسة قام بترتيب حاميتها ومهد اطرافها وفتح تارودانت وايليغ وسائر السوس (2)

(1) الناصري الاستقصاج 7 ص 58-57.
جلب من منطقة الحراطين وجندهم في جيشه ومع الوفد الشيخ المغافري، والد الحرة خناثة ام السلطان المولى عبد الله ابن اسماعيل . الناصري المصدر نفسه ص 58 - 60.

(2) الناصري: نفسه ج 7 ص 33، 40

وانشئت الحاميات الثابتة في المواقع الاستراتيجية في البلاد. وامتد نفوذ الطريقة القادرية الروحي الى ما وراء الصحراء الكبرى انطلاقا من السمارة.

فالانفتاح وعودة الأمن والاستقرار واقرار الوحدة تم على يد سيدي محمد بن عبد الله 1171 هـ 1204م / 1757 هـ 1790م، ولد الأمير بمكناس سنة 1134 هـ/ 1722 م، يقول الفقه المدني بن الحسني (1) عن تربيته وتكوينه العلمي : "... وشب شبابا حسنا تحت رعاية والده وعناية جدته، وأخذ من العلم ما يسره : دراسة الادب والتاريخ في شبيبته والفقه والحديث في كهولته، والجمع والتأليف في شيخوخته، حتى صار يعد من العلماء الاعلام الخائضين في مسائل الشريعة والأحكام، ثم صار يحضر في بعض الوقائع، ويتدرب على شهود المعامع، فكان معه ثلاث فرق من جيوش والده، لما صار لصد الباشا أحمد الريفي سنة 1156 هـ / 1743 م " ثم ذلك في اطار سياسة المولى عبد الله في اعادة الأمن والاستقرار بالبللاد.

عين شابا دون الخمامسة والعشرين من عمره في 1744 خليفة بمراكش بأمر من والده لاهمية المنطقة مند الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (2) وشرع على الفور انجاز وتنفيذ مشروعاته الاصلاحية . واصبح يدير منطقة شاسعة ومتنوعة الموارد الاقتصادية والبشرية، تمتد من الشاوية الى تخوم سوس جنوبا. وخلال مدة توليه كخليفة على مراكش 1757/1744 اكتسب شعبية كبيرة وحظي بتجاوب كبير من طرف السكان على اختلافهم. ومن هناك نشر الامن ونشط الحركة الاقتصادية والعلمية، وكل ذلك في اطار كفاءة وقدرات فائقة واعطى من هناك الانطلاقة للتجارة البحرية والصحراوية لتزويد الخزينة بالاموال لتلبية حاجات الدولة في مجال الادارة والجيش. وعند وفاة المولى عبد الله سنة 1757م اصبحت له السيادة والنفوذ على الاقاليم الجنوبية والاطلسية وبدأ حكمه بمشروع سياسي هام يتجلى في القضاء على الحركات الانفصالية وتوحيد البلاد .

تلقى سيدي محمد بن عبد الله بصفة تلقائية بيعة أهل مراكش واحوازها وعبدة

(1) مقدمة الفترحات الإلهية، المكتبة الملكية- الرباط 1400هـ / 1980 م.

(2) الناصري : الاستقصاج 7 ص 191 ـ192 - اكنسوس : الجيش ص 133 -مراكشي - إعلام ج 6 ص 112 المدني : المصدر السابق.

والشياظمة وحاحا ومختلف الاقاليم ، وصفها الناصري بقوله[1]:" ازدحم على بيعتة أهل مراكش، وقبائل الحوز والدير، وقدمت عليه وفود السوس وحاحة بهذاياهم، ثم قدم عليه العبيد والودادية وأهل فاس من العلماء والاشراف وسائر الاعيان، وقبائل العرب والبربر والجبال وأهل الثغور كل ببيعته وهديته، لم يتخلف عنه أحد من أهل المغرب، فجلس للوفود الى ان فرغ من شأنهم وأجازهم..." حيثما وصف الضعيف هذه البيعة بأنها كانت:" بإجماع أهل المغرب، بيعة تامة مرضية، كاملة الأوصاف، سنية جامعة لجميع الامورالشرعية " تمت هذه البيعة بجامع الكتبيين.

اذ لا تنتظم مصلحة الدين والدنيا إلا بإمام مطاع ووال منبع يجمع شتات الايمان، ويحمي حوزة الدين وبيضة الاسلام ويرعى مصلحة المسلمين وغبطة الانام، ولايستتب ذلك الا بنجدته وشوكته وجنوده وعدته[2].

والبيعة المشار اليها تنطبق وشروط أهل الامامة والسنة التي تتضمن العدالة والعلم وسلامة الحواس والاعضاء والرأي والشجاعة والنسب لورود النص فيه(3). والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها إذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الاخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا...ونصب الامام واجب شرعا بالاجماع (4) والبيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لاينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر... وكانوا إذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة وصارت البيعة مصافحة بالايدي في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي(ص) ليلة العقبة وعند الشجرة (5).

---

(1) الناصري ج8/4- اكنسوس- المصدر السابق ص 184 - مراكشي : مصدر سابق ص 114- الزياني : البستان ص 98

(2) الناصري: الاستقصاج 8 ص 7

(3) الماوردي : الاحكام السلطانية - ص 6 - دار الكتب بغداد 1978

(4) ابن خلدون: المقدمة- دار احياء التراث ط 4 ص 190- 191، 192- يشترط ابن خلدون العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء، واختلف في النسب القرشي ص، 193

(5) نفسه ص: 209

والبيعة على هذا النحو تصبح لازمة لكافة الامة سواء بعهد او باختياروتتجلى الروابط التاريخية والقانونية بين السلطان والرعايا في الاقاليم الجنوبية على أساسين :

1) ممارسة احدى واجبات الخلافة الاسلامية.

2) البيعة العامة من أهل الحل والعقد وشيوخ القبائل والأعيان وكافة الامة. والنظام الاداري في الاقاليم الصحراوية كان يقوم على نظام التبعية والادارة المباشرة للسلطة المركزية ، وتشكل هذه الاقاليم احدى ولايات المغرب بموجب الظهير السلطاني والتعليمات المكتوبة.

ففي مجال الرابطة القانونية كان المولى محمد بن عبد الله الخليفة الشرعي لكافة سكان الاقاليم الجنوبية لتوفر الشروط الشرعية في بيعته. فمن هذا المنطلق في امكانه حمل السكان في الثغور والتخوم النائية في الجنوب على طاعته واتباع أوامره، ووضع مقدرات المنطقة بين يديه للدفاع عن البيضة ووحده البلاد وجهاد العدو.

والبيعة العامة: واجب في عنق كل مسلم عليه أن يؤديه مهما كانت الظروف وهي ترتبط بالولاء وهو التزام بين الحاكم والمحكومين والعلاقة بين السلطان ورعاياه في هذا الاقليم الواسع تنبعث من مبادئ التشريع الاسلامي، ومن القواعد التنظيمية والاخلاقية والقيم التي عرفت في عهد الرسول (ص) وصحابته [1] وتدخل السلطان يستند على البيعة العامة والولاء، وكانت هذه العملية تتجدد باستمرار[2] والبيعة ازالت كل سبب قد يدعو الى العمل العسكري في الاقاليم الصحراوية النائية التي أجمعت قبائلها على البيعة والولاء للسلطة الشرعية. كانت هذه القبائل تدين بالمذهب المالكي مصدر التشريع الاسلامي منذ زمن المرابطين الذين نشروه في أقصى تخوم الصحراء الكبرى. والمذهب المالكي ينسجم مع بساطة القبائل الصحراوية اذا لا يعتمد على الرأي ويلتزم بالكتاب والسنة وعمل أهل المدينة ثم القياس [3]، أعطى هذا العامل التجاوب بين المغاربة شمالا وجنوبا، خصوصا في مجال القضاء والفتوى والنوازل، وانبعثت من هذه الواحات الجنوبية صفوة من العلماء والمتصوفة الذين كانت لهم صلات بمركز العلم في الشمال.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة ص 209–210

(2) الناصري: ج 8 ص 19

(3) الدباغ: المعالم ج / ص8

اما القانون الوضعي الذي يمد الحكام بالقوة القانونية والسياسية فهو على نوعين :

1) الظهير: وهو رسم السلطان، وعليه طابعه او يحمل توقيعه، وصاحبه يدلي به ويباشر بواسطته أية سلطة تناط به حسب منطوقة، فيكون ذلك نصيرا له وظهيرا(1) وحكام الاقاليم الجنوبية كانوا يعينون في مهماتهم بظهير او تبديل والي من مهمة الى اخرى، او عند إعفائه من الخدمة يصدر ذلك بظهير، اذ يشتمل على توجيهات حسب المنطق والظروف.

2) الأمر السلطاني المكتوب دون أن يحمل طابعا اوتوقيعا فالاقاليم الجنوبية في مجموعها مرتبطة بالسلطان بحكم البيعة وتحكم بموجب أحكام الشريعة على مذهب الامام مالك، والنطق السلطاني المتمثل في الظهير والمراسلات وتكليف القضاة وشيوخ القبائل في إطار الشورى بالقيام بأمور الاقاليم في اطار جمع الرأي للسير العادي لشؤون الرعايا بالمنطقة . والمركز الاداري في الجنوب ضمن التنظيم الاداري العام خضع لبعض التطور وللمد والجزر حسب الاوضاع الداخلية للمغرب كان السلاطين يعينون الولاة في الاقاليم الجنوبية من افراد الاسرة العلوية الشريفة في معظم الحالات، وهم خلفاء السلطان سواء بسوس والمناطق الملحقة به شرقا وجنوبا أو بتافيلالت اذا كان السلطان يستجيب لرغبة سكان هذه الاقاليم في اختيار ولاتهم، وكان هؤلاء يمتد نفوذهم على مناطق جغرافية متعددة ومختلفة الموارد الطبيعية والاقتصادية والبشرية ولهم سلطات واسعة بحكم القانون لمعالجة القضايا المحلية . ولقيت هذه الاقاليم عناية خاصة بوصفها تخوما نائية وبحاجة الى المزيد من المرونة الادارية والسياسية ، وكان لهؤلاء الخلفاء او الولاة مطلق الحرية في التصرف على المستوى المدني والعسكري باعتبار الاطراف ثغور المغرب، من هنا جاءت اختصاصاته المتميزة، بهذه السياسة ظلت الاقاليم أراضي مغربية تتمتع بنوع من اللامركزية لكنها أقاليم تابعة بصفة مباشرة للسلطة المركزية بالشمال . والولايات الجنوبية - تافيلالت، والسوس والسوس الاقصى كانت تمتد الى حوض السنيغال غربا والصحراء الشرقية في وتوات وتيكورارين والطوارق.

وكان الولاة يتعرضون للعزل والتأديب بسبب جورهم وظلمهم لرعايا السلطان، وان "الولاة في هذا الوقت كلهم اوجلهم يظلمون ويتسلطون على المستضعفين الدين لاناصر لهم إلا الله، ولايفرقون بين الحلال والحرام، خصوصا في البلادالبعيدة (2)" وكانت السلطة المركزية تعاقب الخارجين عن الطاعة وتقوم بنكبتهم سواء كان الانحراف

(1) عبد السلام بن سودة: دليل مؤرخ المغرب ج2 ص 400 دار الكتاب الدار البيضاء 1965.

(2) م - غ م : تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات ص 12 المطبعة الملكية - الرباط 1381، 1962/

سياسيا أو اجتماعيا أو دينيا(1) حفاظا على تماسك وحدة الامة المغربية من اجل جمع الكلمة وتوحيد البلاد . وامتدت يد السلطان الى زجر افراد عائلته، فهذا المولى حسن ابن اسماعيل المقيم بتافيلالت الذي اتخذ من آيت عطة وأيت يقلمان من برابرة الصحراء شيعة له، امام تزايد شكوى أشراف سجلماسة قام بزجره بنفسه اثناء زيارته لسجلماسة برسم زيارة تربة جده المولى علي الشريف وحسم مسألة عمه المولى حسن باستقدامه الى مكناسة (2) انتهز فرصة وجوده بحاضرة سجلماسة فثقف أطرافها ورتب سكانها وولى عليهم القائد علي بن حميدة الذراري من كبار قواده وأعيان دولته. وفي سنة 1199هـ عين ابنه المولى عبد السلام على تارودانت والسوس وما إليها ولما ساء القائد على بن حميدة السيرة عزله فعوضه بالزياني، قال السلطان سيدي محمد بن عبد الله مخاطبا الزياني ومجموعة من أيت عطة وأهل تافيلالت " هذا كاتبي وصاحبي قد وليته عليكم وعلى أولادي وبني عمي وسائر أهل الصحراء فاسمعوا له وأطيعوا ...وهذا ابن حميدة الذي وليناه بسجلماسة لم تظهر له ثمرة ...

وما وليتك عليهم إلا لهذا الغرض فانهم يهابونك لمحلك منى، ثم كتب إلى جميع أولاده وأعيان سجلماسة " كان ذلك سنة 1202 هـ.

وبهذا الاهتمام بشؤون آهالي الصحراء حافظ السلطان على الروابط التاريخية بين الشمال والجنوب.

في الميدان العسكري ضم السلطان مجموعات من حراطين الصحراء بالرتب وتافيلالت الى الجيش النظامي سنة 1759 انتقلوا الى معسكرات فاس ومكناس ثم تجميع عبيد المخزن من بلاد سوس وموريطانيا لتكوين جيش منظم وجعلهم في الديوان وأسكنهم الثغور، وقد كلف لهذه المهمة ابن عمه المولى علي بن الفضيل وكاتبه أبا عثمان سعيد الشليح الجزولي، عن طريق الجيش تمكن السلطان من بسط نفوذه على الاجزاء النائية واقرار الامن والنظام في البلاد الشئ الذي وجه البلاد الى العمل من اجل الثراء والانتاج المادي في ظل الطمأنينة والامن والاستقرار في الميدان الاقتصادي والمالي تتجلى اجراءات السلطان الاولى في توظيف المكس على الابواب والسلع والمنتوجات الفلاحية(3) تحمل الاقتصاد عواقب الازمات السياسية والاجتماعية والطبيعية. فالمجاعات والأوبئة انكهت المغرب أكثر من الحروب.

---

(1) الناصري: ج 8 ص 12 وما بعدها و 29- 30 وص 50
(2) نفسه ص 51
(3) مراكشي : إعلام ج 6/120–128

تجدر الاشارة الى ان دار السكة بالرباط ضربت آخر قطعة ذهبية في 1787، واصدار القطعة الفضية بقيت غزيرة من1760-1787م - فذهب أودية الاطلس الصغير قليلة المردودية بالمقارنة بما يصل من غينيا، التي وصل إليها الاوربيون الدين كانوا يعتقدون بوجود مناجم الذهب في المغرب بسبب مالاحظه التجار الاوربيون من وجود ثروات ضخمة في موانئه. وكان هدفهم الوصول إلى المناجم الداخلية عبر أراضي المغرب، لذلك تعرضت الشواطئ المغربية للاحتلال في اطار الاندفاع التعصبي الديني والاقتصادي الايبري مابين القرن 15-16 لتطبيق سياسة توسعية في الشمال الافريقي والتزود من المغرب بالقمح والخيول وتبادلها بالذهب وشراء توابل الشرق الاقصى، في حروب استرداد في اراض لم يسبق لها حيازتها، والمولى محمد بن عبد الله كان يرفض ولا يقر له قرار في أن يشاركه الاجنبي في قطعة من ارضه(1).

وغرب افريقيا كانت غنية بالموارد المعدنية النفيسة (الذهب)كانت هذف أوروبا بسبب ما وصلت إليه من اختراعات حديثة فانطلقت نحو الكشوف والتجارة مع العالم.

والفضة كانت تستخرج من مناجم المغرب بالاطلس وتأتي من الخارج، وشكلت الاساس النقدي في عهد سيدي محمد في 1766. بينما كان النحاس يوجد بكثرة في الاطلس الصغير، جزء منه كان يصدر عن طريق ميناء اكادير والصويرة والجزء والآخر كان يصدر ايضا على شكل أدوات مصنوعة الى السودان . وملح البارود يستخرج من مغارات دادس بكثرة كان يجلب الى مراكش لصناعة البارود

في سنة 1765 اسس الصويرة وأردها أن تجتذب تجارة القوافل السودانية وان يجعل منها ميناء تامبوكتو التي تسرب اليها الاوربيون، كما حول جزء من تجارة ميناء أكادير الى ميناء الصويرة .

فمن هذه المنطقة الجنوبية كانت تجلب المواد النفيسة كضرب العملة المغربية كما كانت الاقاليم الصحراوية منطقة مرور منتجات الواحات والسودان، والى غانة ينتهي المغاربة والمدخل إليها من سجلماسة، إليها ذهابا ثلاثة أشهر ومن غانة الى سجلماسة إيابا مسيرة شهر ونصف، وسبب ذلك ان الرفاق تتجهز إليها من سجلماسة بالامتعة والاثقال فتباع في غانة بالتبر فمن سافر إليها بثلاثين حملا يرجع منها بثلاثة احمال او بحملين واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها، يدخل إليها الكثير من تجار المغرب من أهل فاس وسوس والصحراء(2).

(1) الناصري ج 8 ص 34.
(2) نفسه ج 5 ص 99

هناك طريقان يخترقان الواحات الى تامبوكتو بالصحراء الغربية، واحد ينطلق من تافيلالت نحو تامبوكتو مارا بمناطق الواحات الغنية من حيث الموارد الفلاحية والمعدنية والطريق الثاني من وادي نون مرورا بالصحراء نحو تامبوكتو فيمتد من سوس الى واد نون ومنها الى الساقية الحمراء والداخلة في اتجاه تامبوكتو- وهذا الطريق يستعمل كثيرا من طرف القوافل التجارية وباستمرار(1).

وكان المغرب يصدر الملح والجلود والتمر والادوات النحاسية وصادرات اوربا كان السودانيون يؤدون اثمانها التبر أو سبائك ذهبية، اورقيقا، واثيابا قطنية واحتكر هذه التجارة اهل فاس وسوس واليهود كانت لهم علاقة بحوض السنيغال.

كانت اكادير قبل بناء الصويرة ملتقا تجاريا هاما بين غرب الصحراء واهل السودان (ونقطة رئيسية على الطريق الساحلي الى السودان مرورا بتارودانت. وتعرضت ثروات غرب ايفريقيا للنهب بسبب اكتساح الاوربيين (الاسبان والانجليز) لاسواقها تجلب قصب السكر وريش النعام وتصدر الى اوربا التبر والمصنوعات الذهبية والفضية والرقيق الذي احتكرته انجلترا وكانت تتزود منه من ميناء اكادير قصد تصديره للعمل في جزر الأنتيل في مزارع السكر إلا أن سيدي محمد منع تصدير الزنوج من اكادير والتجارة الخارجية من 1773-1780م فتراجعت أهمية الميناء ، فتحولت الاهمية لميناء الصويرة التي ارادها السلطان أن تكون نقطة وصول القوافل الصحراوية ومكان تجمع التجار الاوربيين، كان يتم ذلك في اطار سياسة الانفتاح على العالم الخارجي الذي عرفه المغرب في عهده .

وهذه التجارة لاتتم بدون صعوبات فهي قد تعرضت للمنافسة الأوربية التي عملت على توجيه الذهب نحو خليج غينيا تضاف الى ذلك مراقبة القبائل للتجارة الصحراوية.

عانى المغرب من الانهيار الديمغرافي وجفاف السبع سنوات (1776-1782) ووباء الطاعون 1797-1800 أدى الى تحولات عمقية على الصعيد الاجتماعي اذ انخفض سكان المغرب من 5م/ن الى 3م /ن وواجه تحرك سكان الجنوب نحو الشمال، برهن السلطان عن فعالية نادرة لمواجهة هذه المستجدات الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية، فقد استطاع توفير الخبز وتوزيعه على المحتاجين في مختلف احياء المدن، وقدم القروض لاهل البوادي ولم يطالبوا بردها أيام الرخاء واسقطت عنهم الضرائب والمغارم، وقدم نفس المساعدات للتجار لجلب المواد الغذائية وبيعها بثمن التكلفة(2) فاعاد الطمانينة إلى النفوس.

(1) تتعرض القوافل لاخطار متعددة بسبب قلة الماء وشدة الحرارة وكثرة الكثبان الرملية والعداء القبلي إذ أن سكان الصحراء محاربون شجعان.

(2) فيليكس ماتيوس : ساحل افريقيا الغربي، ترجمة عبد الهادي التازي ، مجلة البحث العلمي عدد 1980/31.

فالنظام الاداري الاقليمي والجبائي واساليب الانتاج لم تكن تخفى على السلطان اذ كانت كلها بحاجة الى نظر شامل[1].

وجد المولى محمد البلاد منهكة بالمشاكل، فالعودة الى الاستقرار انطلقت من مراكش الي السهول الاطلسية والانفتاح على الخارج، فجهود السلطة المركزية تطلب اعادة تنظيم الادارة المخزنية ، وانعاش التجارة والمالية العامة ومواجهة تحركات القبائل والزوايا ذات النزعة الانفصالية، مواجهة الصعوبات الديموغرافية والاقتصادية على الصعيد الداخلي .

والمحافظة على القدرة الشرائية ومستوى المعيشة للسكان رغم الهزات العنيفة التي عرفها المغرب من قحط وجفاف ومجاعة وأوبئة.

في 25 رجب 1204هـ/11 ابريل 1790 ادركته المنية في طريقه الى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش. ويعتبر عهده في تاريخ المغرب أزهى العهود : انفتاح على المعارف الانسانية ، كثرة المبادرة واتساع الافق- مرونة سياسية ومهادنة- حريصا على المحافظة على العهود واضعا الاسلام فوق كل اعتبار، واتسم بالشهادة الحقيقية وبالواقعية تجاه الدول الاوربية . كان يحب الفخر ويعني به وله رغبة في الخير وأهله وذو همة عظيمة [2] وخبرة واسعة بالشعوب وانفتاح على الثقافة والحضارة الاوربية الشيء الذي مكنه من اعادة تنظيم البلاد في الميدان الاداري والمالي والعسكري والقضائي والجبائي . وعالم يكره التقليد ومن اكبر الملوك البناة والمصلين.

(1) حركات: المغرب عبر التاريخ ج 3 ص 89- دار الرشاد بالبيضاء ط I 1985

(2) الناصري ج 8 ص 34

لائحة المصادر والمراجع

I - المصادر

1) الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى - دار الكتاب البيضاء -1955

2) المدني بن الحسني : مقدمة الفتوحات الالهية للسلطان محمد بن عبد الله- المطبعة الملكية، الرباط 1400هـ/1980م.

3) أكنسوس محمد بن أحمد: الجيش العرمرم، طبعة حجرية- فاس

4) الزياني ابو القاسم: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف م.خ.ع.د 1577 الرباط

5)الضعيف محمد بن السلام الرباطي: تاريخ الدولة السعدية.

6) المراكشي السملالي عباس بن ابراهيم: الاعلام بمن حل بمراكش من الاعلام، ت : عبد الوهاب بنمنصور المطبعة الملكية الرباط 1974/1977

7) المشرفي محمد الغريسي: الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية م.خ.ع. الرباط د 1463

8) أبو الحسن الماوردي: الاحكام السلطانية والولايات الدينية - دار الكتب -بيروت- لبنان 1978

9)ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة : دار احياء التراث - بيروت، طبعة 4

10) بنمنصور عبد الوهاب : تقييد ما اشتمل عليه اقليم توات. المطبعة الملكية - الرباط 1381هـ.

II - المراجع :

1) الدباغ : المعالم ج 2

2) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ج 3 دار الرشاد الحديثة ط I 1405/ 1985

3) ماثيوس فيليكس : ساحل افريقيا الغربي - تعريب ذ. عبد الهادي التازي مجلة البحث العلمي- الرباط 1400/1980

4) Arnand (Luis) = Au Temps des Mehalla, Edit Atlantides - Casa 1952.

نظرة على الحالة السياسية والإجتماعية والفكرية في عهد السلطان محمد بن عبد الله

محي الدين عبد الحميد الباعمراني
كليـة الآداب بمراكش

إنها سنة حميدة، هذه التي دأبت وزارة الشؤون الثقافية على تنظيمها والدعوة إليها في مثل هذا الشهر، منذ سنة 1989، وفي الاقليم الذي يعد محتد ومنطلق الدولة العلوية الشريفة، التي دعينا للبحث في مختلف جوانب تاريخها الحافل بالامجاد والمعطيات ، عبر الحقب الطويلة الممتدة.

وإذا كان التاريخ يؤكد أن المغرب عرف بعد المنصور السعدي، ظروفا عسيرة وأحوال سيئة، في أوائل القرن الهجري الحادي عشر (ق 16-17 الميلادي) بسبب من لم يحسنوا سياسة الحكم بعد (أحمد المنصور الذهبي) فساهموا في تدهور الحالة العامة في المغرب، بعد أن كانت أيام سلفهم المذكور في أوج قوتها وعظمتها، فان التاريخ يؤكد كذلك أن المغرب لم يلبث أن استعاد أمجاده، واستيقظ من هول تلك الاحوال التي اعقبت نهاية القرن العاشر الهجري، فاتجه على يد الدولة الجديدة، وبقيادة أشراف المؤسسين وأتباعهم اللاحقين، نحو بناء الدولة على أسس متينة، وقواعد راسخة، يضيف إليها الخلف منهم على ما أنجز السلف، حتى غدت شامخة على يد أحد سلاطينها (موضوع ندوتنا ضمن الدورة الثالثة الحالية في جامعة مولاى علي الشريف الخريفية) التي يقتضي الواجب أن أنوه بجهود منظميها، والتي بدأت توتي ثمارها، وتقدم نتائجها للباحثين والمهتمين وإن اعتزازي لكبير بالدعوة الموجهة إلي ضمن هذه النخبة من الباحثين- من السيد وزير الشؤون الثقافية للمشاركة مرة أخرى في رحاب هذه الجامعة ، وفي إطار الندوات الفتوحة، التي أشك في أنكم تشاطرونني جميعا. مدى اهميتها، وما تتميز به من خصوصية وتفرد.

والعنوان الذي أتخذته منطلقا لعرضي، يستلزم الاعلام بالحالة السياسية، والاجتماعية والفكرية في عهد السلطان محمد بن عبد الله، غير أني مضطر لمراعاة العروض الاخرى، التي تتلاقى مع هذا الموضوع ومن ثم سأتناول، باختصار، الظروف المهيئة

والمصاحبة لتولي السلطان (محمد بن عبد الله) حكم المغرب، على أن أتناول مباشرة الحالة التي عاشتها البلاد في عهد السلطان العلوي، على الصعيد الداخلي، والخارجي آخذا بعين الاعتبار الخصوصيات التي تميز بها عهده الزاهر، والمميزات التي طبعته وألبسته لونا خاصا دون سائر العهود السابقة واللاحقة.

لقد كان حكم السلطان(محمد III) الذي امتد ثلاثين سنة (1971-1204هـ) (1757-1790) من حياة المغرب، متسما بكثير من الايجابيات، ومطبوعا بسيرة هذا السلطان العالم الواعي، المتبصر الذي كان يعالج أمور الدولة الداخلية والخارجية، بكثير من الحكمة والتدبير، ويوجهها الوجهة التي تعود فائدتها على دولته، وعلى الاطراف التي يتعامل معها، وهذا ماأكسبه التقدير الذائع، والتنويه السائر، وجعل الاصدقاء والاعداء يجمعون على مميزات عصره ، ممن زامنه أو جاء من بعده، فلا غرو إذن أن تكون صفحات تاريخه وتاريخ الدولة في عهده ناصعة مشرقة، بعيدة أن تتلبد في سمائها غيوم العهد السابق خلال حكم والده، إذ قيض الله له من الأسباب ماجعل أيامه منذ أن كان خليفة لوالده في مراكش إلى نهاية حكمه الممتد مطبوعة بشخصيته المستجمعة لخصال حميدة تفرقت في غيره من الملوك، فاذا أخذنا أي جانب من هذه الشخصية الفذة، ألفيناه متكا ملامع الجوانب الاخرى، الامر الذي أتاح تكوين هذا السلطان المتفرد بالشكل الذي طبع تلك الشخصية، وصاغ فيها نموذجا للعاهل المسلم الغيور على رعاياه، الحريص على مصالحهم الدينية والدنيوية، يحدون في ذلك ماكان عليه من العلم والمعرفة ، والاخلاق الحميدة، والخلال المجيدة، فهو العالم السلفي" المالكي مذهبا، الحنبلي اعتقادا" لانه يرى في العقيدة الحنبلية ميلها الى البساطة، وتلاف التأويل، والخوض في علم الكلام، الذي لم يكن معروفا لدى السلف الصالح.

وقد تضافرت المصادر التاريخية على أن السلطان (محمد III) كان ميالا إلى ما يوافق السنة، ويخالف البدعة، وهو ما يؤكده قوله في كتابة (الفتوحات الالهية في احاديث خير البرية)..." فطريق الحنابلة في الاعتقاد، سهلة المرام، منزهة عن التخيلات والاوهام ، موافقة لاعتقاد الأئمة. كما سبق مع السلف الصالح من الانام" .

واذا كان من المنتظر حسب ما كان عليه سيدي محمد بن عبد الله وهو سلطان المغرب أن تجد آراؤه صدى يناسبها ، ودويا في المحافل العلمية ، والاوساط العلمية، والاوساط الثقافية بحيث تنعكس على آراء العلماء على الاقل، إن لم تتأثر بها العامة في مجملها فان الذي حدث هو أن التأثير الحنبلي في عقيدة السلطان سيدي محمد بن عبد الله ضلت غريبة في وسط مغربي، تجذرت فيه تعاليم المذهب المالكي،

وعقيدة الإمام الاشعري، الا أن هذا لم يصرف السلطان محمد III عن الخط الذي رسمه لنفسه، وتيقن أنه السبيل الأقوم، بل اتخذ إجراءات، ووقف مواقف من الاتجاه العام لدي علماء العصر، ومدرسيه، ومن المصادر والكتب المتداولة ولاسيما في الفقه، في خلال المختصرات المخلة، يقول الناصري في الاستقصا [1]" ومن عجيب سيرته، رحمه الله، أنه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره، واعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة، تضييعا للاعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية، ولايترك من يقرأ (مختصر خليل)(ومختصر ابن عرفة) وأمثالهما، ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك، حتى كان الناس يتركون قراءة (مختصر خليل) وإنما كان يحض على كتاب الرسالة، والتهذيب" وغيرهما مما يماثلها.

وبالرغم من أن تأثير الاتجاه الذي كان عليه لايتعدي نطاقا ضيقا، فإن عدول فقهاء المالكية في عهده عن بعض تلك المختصرات الفقهية، كما ورد نص كتاب (الاستقصاء)، يبرهن على ان المغرب عرف بعض التحول على مستوى الخاصة من العلماء، تأثرا منهم بالسلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله، لكننا اذا عرفنا أنه لم يكتف بنهيه عن المختصرات الفقهية. بل كان ينهي عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الشعرية رضى الله عنهم، وكان يحض الناس على مذهب السلف، في الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ عن ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل"[2] إذا عرفنا ذلك، أدركنا مدى ما كان ينتظر أن يكون لدعوته من تأثير في الاوساط الفقهية خاصة، لكن المؤكد- كما سبقت الاشارة الى ذلك- أن التأثير كان ضعيفا لايتعدى العدول عن بعض الكتب والمختصرات الفقهية، ويبدو أن فقهاء العصر لم يكونوا على وتيرة واحدة ونسق متحد، في موقفهم من اتجاه السلطان سيدي محمد، إذ بقى بعضهم بمنأى عن مسايرته والامتثال لأمره في هذا المجال، وظل وفيا لمعارفه المستقاة من الكتب المعتمدة عندهم خلفا عن سلف،

ولم تكن معرفة السلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله متوقفة عند الحد الذي لا تجيزه طبيعته الناشئة على حب الكتاب والسنة، وماعليه السلف الصالح، وإنما كان ذا إلمام بعلوم العربية وفنونها، خاصة في مرحلة معينة من صيانته، فقد كان يتأسف على مافاته من العلم في مرحلة الشباب، ويقول " والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة " حسب المؤرخ الناصري [3] الذي يذكر أنه (أي السلطان) " لما فاته الاشتغال

(1) ج 8 ص 67

(2) نفس المصدر، ج 68/8

(3) الاستقصاء، 66/8

بالعلم في حال الصغر، واعتكف أولا على سرد كتب التاريخ، وأخبار الناس وأيام العرب، ووقائعها، الى أن تحلى من ذلك، وبلغ فيه الغاية القصوى، وكاد يحفظ ما في كتاب (الاغاني) لابي الفرج الاصبهاني، من كلام العرب، وشعراء الجاهلية والاسلام" على أن الملاحظ ان الاتجاه العقدي المومأ اليه سابقا، ربما كان آخر ما عليه السلطان، وهو الذي استقر عليه بعد أن جال في ميادين المعرفة الأخرى، يدل على ذلك ماتذكره المصادر المعتمدة(4)، من أن سيدي محمد بن عبد الله " بما ولاه الله أمر المسلمين بعد وفاة والده زهد في التاريخ والادب، بعد التضلع فيهما، وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها، وجلبها من اماكنها" من هنا نرى هذا السلطان العالم يحب العلماء، ويداوم على مجالستهم، ومذاكرتهم،

بحيث كانت له أوقات مضبوطة لاتنخرم، ولاتتخلف، يختار لها العلماء والفقهاء ممن كان في عصره ذائع الصيت، مشهودا له بالضلاعة والاستيعاب، ويستعين بهم على النظر في كتب الحديث، وعلى التأليف فيه:" وكان (في مراكش) بصفة خاصة يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع مع فقهائها، ومن يحضره من علماء (فاس) وغيرهما للمذاكرة في الحديث الشريف، وتفهمه، ويحصل له بذلك النشاط التام"(5)

وتمعن الاخبار المتعلقة بحياة هذا السلطان العالم المتميز، في هذا الجانب، لتتضافر على تأكيد حرصه البالغ على مجالسة العلماء، ومصاحبة ذوي الفضل العلمي والسلوكي، من أمثال الفقيد العلامة (ابن عبد الله محمد بن عبد الله الغربي الرباطي) والعلامة المحقق(أبي عبد الله محمد المير السلاوي) والقاضي والاديب(عبد الكريم بن عبد الملك الشفشاوني) الذي كان يتردد على قصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فحمله على إطالة المكث عنده، حتى اضطره في بعض الاحيان إلى الاعتذار الذي ينظر فيه الشاعر (الشفشاوني) الى اعتذار الشاعر(الحطيئة) الى الخليفة الراشد (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) إذ يقول:

أمير المؤمنين اليك أشكـــو همـوما هاجها بعد الديـــــــار
تركت الاهل والاولاد فوضى حيارى في ثياب الإفتقـــــــار
وطالت غيبتي عنهم زمانـــا فكيف يكون عن ذاك اعتذاري؟

---

(4) أنظر، على سبيل المثال: الناصري في الاستقصا 67/8

(5) نفس المصدر، ص 66

فإني هائم في كـــل واد(6) وعيني دمعها كالسيل جـــــار
وإني جاركم دهرا طويــــلا فراع سيدي حق الجــــــــوار
وعجل لي بجمع الشمل إني لمشتـاق لأولادي الصغــــــار
بحق محمد خير البرايـــــا شفيــع الخلـق فـي دار القـــرار

ويصرح في احدى حالاته المماثلة مع السلطان، وهو يشير الى الشاعر (الحطيئة) في أبياته المشهورة، قائلا:

أشكو إليك أمير المؤمنين بمـــا يشكو الحطيئة إذ جاء به القــدر
" ماذا تقول لأفراخ بذي مـرخ زغب الحواصل لاماء لا شجر"(7)
فارحم بني غدوالي مثلهم وأنا طبعا، أبوهم وانت اليوم لي عمر

والذي يلفتنا في قول الاديب(عبد الكريم الشفشاوفي) عقده هذه المقارنة بين الخليفة الراشد، وبين السلطان سيدي محمد III، وفي ذلك مافيه من التقابل، المشعر بأن السلطان العلوي يتوفر على خصائص تميزه، وترقى إلى المثال الأعلى من خلفاء المسلمين، من حيث العدل، والعلم، ورعاية شؤون من ولاهم الله أمرهم:

ولما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد رق لحال (الحطيئة) بالرغم من تطاوله على أعراض الناس، ولاسيما منهم ذوو الأقدار والرتب في أقوامهم (كالزبرقان بن بدر) الذي شكاه إلى الخليفة الراشد نتيجة هجوه له :

فإنه من الطبيعي جدا أن يتأثر سيدي محمد بن عبد الله العلوي، وهو المحب للافاضل والعلماء والأحياء ، بما قاله الشاعر ، ويأذن له في الرجوع الى أولاده:

وتذكر أخباره أيضا أن الشاعر (عبد الكريم الحضري) ذكر" أنه كان يجتمع مع الاشياخ والعلماء بحضرة الملك سيدي محمد III ، وفي إحدى المرات (بمراكش) حضرهم الشيخ العلامة (أحمد بن سودة) وكان يعرف (الحضري) الشاعر المذكور فلما اقبل الملك، قال له شيخه(8) (ابن سودة) هات قريحتك، فأنشد مرتجلا هذه النتفة :

إن هذا الامير لم يأت دهـر بمثال له السنين المواضـــي
رضى الله عنه في كل حين إن ربي الكريم عنه لراض

(6) الشاعر هنا كما يبدو واضحا يقتبس من الآية الكريمة" والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم ترانهم ي كل واد يهيمون " الآية
(7) من أبيات الشاعر (الحطيئة) ، وبعده" ألقيت كا سيهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله ياعمر" أنت الامير الذي من بعد صاحبه القى اليك مقاليد النهي البشر
(8) شيخ الشاعر الحضري

ويذكر (أبو القاسم الزياني)(9) أن الامير (سعيد السوسي)وكان علما في علم التاريخ والانساب وكان لامير المومنين (يعني السلطان سيدي محمد III العلوي) الباع الطويل فيها- من العلماء والمؤرخين ، الذين سيستدعيهم السلطان، ويحاسبهم في كل أمر الى ان غضب عليه مرة لأمر وقع فيه، فعاقبه، واستبدله"

وهذا يعطينا صورة عن مكانة (سيدي محمد بن عبد الله) وخصوصياته الذاتية التي كانت لاتشغله عن الحكم، وتسيير شؤون الدولة، وكما أن الظروف العامة، والاحوال الطارئة التي كان يعيشها، لم تكن لتمنعه من الانصراف إلى الجانب العلمي، الذي له فيه القدح المعلى كما يقال :

هذا إذن أحد الجوانب المتعددة عن شخصية السلطان سيدي محمد III الذي يختصر حياة المغرب السياسية والاجتماعية والفكرية، ويعطي عنها صورة ناصعة خلال النصف الثاني من (ق الهجري 12)= النصف الثاني من (ق الميلادي 18) وبالرغم مما هو واقع في المغرب، من فتن وثورات في هذا العهد، فانها لاتكاد تؤثر في نصاعة عهده، خاصة اذا قيست بعهود سبقته، ولاسيما في حياة والده وبذلك يصح الركون الى مثل الشهادة التى اختصر فيها أحد المؤرخين المتضلعين حياة السلطان، وحالة المغرب في عهده(11).

وهو احد الرجال العظام الموفقين، تحرسه العناية(الالهية) الربانية عن مواطن الزلل...وعينه والده خليفة بمراكش، فأراد ان يبني بها دارا لسكناه، فمنعه سفهاء (الرحامنة) فلم يحاربهم، بل اتجه الى أسفي، حتى جاءه أعيان(الرحامنة)معتذرين، وردوه الى مراكش، وهذا من دلائل توفيقه، ولما ثار العبيد، والبرابر على والده بمكناس، وزرهون، وافوه بمراكش ليبايعوه فلم يقبل منهم، وردهم إلى والده، وأصلح مابينهم وبينه، وأعادوا ذلك بعد مدة قصيرة، فرفض الانقياد لهم، وصحبهم إلى والده، وهكذا كانت بواكير أعماله التغلب على المطامع، والتحكم في النوازع النفسية،

ولما بويع بعد وفاة، والده اتجه الى اصلاح مملكته ، ولم يدع أي ناحية في مجتمعه لم يتجه إليها، فقد أخذ رأى العلماء في الجبايات وضبطها، وأصلح التعليم . وصلح نظام القضاء ، وطهره من كل ما يحدث الشغب والفتنة، وجدد الاسطول المغربي، وأدخل عليه الاصلاحات الملائمة لعصره، وعقد معاهدات الوفاق والتعاون مع غالب دول

(9) التي كانت الكبرى ص 63 بتصرف.

(10) وانظر للاستاذ عبد السلام الحضري، دعوى الحق ع 4 س 17 سنة 1975 / 172.

(11) أنظر الهامش رقم 271(ايليغ قديما وحدثا)للمختار السوسي- ص 100. بتصرف

عصره : وكان أعظم حرصه متجها الى تحرير أسرى المسلمين عموما من أيدي الدول الاوروبية ، والى تحرير المناطق المحتلة من التراب المغربي والاسلامي عموما، وكان له سفراء متخصصون في الشؤون الدولية : وقد حرر بالفعل مناطق مغربية، وأخرج الاجانب منها : واعتنى السلطان سيدي محمد III بمساعدة الدول الاسلامية في حروبها ضد الاجانب ، فقدم للعثمانيين كثيرا من المساعدات في محاربتهم للروس، ووجه كثيرا من الهدايا والهبات إلى الحرمين الشريفين، ووقف فيها الاوقاف الكثيرة : كل ذلك لم يمنعه من أن يكون حازما صارما في الشؤون الداخلية، فكم صادر من عمال، وكم بطش بالظلمة، حتى كانت أيامه الممتدة أحد العهود المزدهرة والمشرقة في تاريخ المغرب.

وهكذا عرفت الدولة في عهده ازدهارا وقوة ومكانة، عبر عنها أحد المؤرخين وهو يتحدث خاصة عن الجنوب(مراكش وما وراءها) الذي " ظهر كما يقول بمظهر آخر جديد، واستردت فيه الحكومة قوتها منذ تولي ولي العهد المولى محمد بن عبد الله ادارة تلك الجهة باذن والده...وصفا له الجو في كثير في المناطق، فجال في سوس وأوقع بالطالب(13) صالح المستبد بمرفأ(أكدير) وهو أحد الثائرين على سلطة سيدي محمد بن عبد الله ومع ذلك حاول معه الرجوع الى الصواب ، لكنه ركب رأسه، ولم يستجب لدعوات السلطان ، فكان ما سجله أحد المؤرخين بقوله(14).

"الطالب صالح اعتقله السلطان سيدي محمد بن عبد الله عام 1169ه ثم انتحر في السجن بمدية دست في خبزة" (كما طلب ذلك من اولاده) وذلك في التاريخ المذكور.

ولعل الاسلوب الذي نهجه لمحاربة هذا الثائر المتعنت، وكذا الطريق التي عالج بها مواقف بعض الولاة والعمال، الذين لم يستمعوا لصوت الحكمة، وآثروا عليها العناد والمكابرة، كما فعل في حق صاحب سلا(عبد الحق العزيز فنيش)وغيره من الافراد والجماعات - ينم عن الحكمة البالغة ، والبصيرة النافذة، التي صبغت ثلث القرن الذي أمضاه في الحكم، بطابع خاص يزري بغيره في الاجراءات التي تتخذ عادة لقمع تلك الثورات، والنقمة على أصحابها وأتباعهم المؤيدين لها : تلك صورة من صور السياسة الداخلية، والحالة الاجتماعية ، التي كان السلطان سيدي محمد ابن عبد الله يحتكم إليها، ويصرف بها الامور الجسام، والقضايا العويصة التي كانت تعترضه وتتحداه :

---

(12) المختار السوسي: ايليغ قديما وحديثا، ص 232-233 (موا الامنين رقم 479) بتصرف

(13) اسمه صالح بن محمد بن بهي السوسي الحاصي. نتحر سنة 1167 في السجن

(14) المختار السوسي ، خلال جزولة ج 85/4

وهي إذا قيست بأسلوبه في معالجة القضايا السياسية الخارجية، تعطي المتأمل نظرة عن التوازن القائم بين الحالة الاجتماعية، والسياسية في المغرب أيام هذا السلطان، ذلك أنه كان لاينشغل بإحداهما عن الاخرى، إذ اهتم اهتماما متزايدا بعلاقاته مع دول العالم، سعيا لمصالح دولته، ودول الاسلام كافة وكان من نتائج هذا السعي، أن أطلق سراح مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين ، ولو أدى ذلك إلى افتدائهم بالاموال الباهظة، ويذكر الناصري(15) في هذه النقطة بالذات :" أنه انفق من الاموال ما يفوق الحصر، حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير، لامن المغرب ولامن المشرق، ولقد بلغ عددهم في سنة 1200 ه ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة واكتسب من الشهرة والمجد ما جعل ملوك الدول الغربية يهابونه ،ويبذلون قصارى الجهود لارضائه، ونيل محبته،" فوفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف" لمسالمتهم في البحر، وكان إذا كتب الى أحد ملوك الغرب في أمر، سارع الى تلبيته، ولو بلغ من الحجم ما بلغ، كل ذلك لهيبته، وقوة وصلابة سياسية مع الخارج، وحكمته في تدبير الاساليب التي كان يعالج بها القضايا ذات العلاقة الدولية؛

وتمثل تعليمات الملك الاسباني(كارلوس الثالث)إلى مبعوثه(16) لدى سيدي محمد بن عبد الله سنة 1765 م نموذجا لما ألمعنا اليه، وهي تتعلق بالرغبة الى السلطان ، في أن يأذن للصيادين الاسبان من اهل (كاناریاس)بالنزول في محل معين على الساحل الجنوبي لأغراض فنية، تنحصر في معالجة السمك المصيد وتجفيفه، بعيدا عن إساءة السكان لهم، ذلك أن هؤلاء السكان من الرحل الذين يصعب تطبيق الاحكام عليهم، تقول الوثيقة (17) " لقد اقتضى نظر ملكنا أن يسافر أحد رعاياه الى المغرب، بقصد استطلاع نوايا (نيات) الامبراطور سيدي محمد بن عبد الله في مسألة ربط الصلات الطيبة باسبانيا ولهذه الغاية يتعين على المبعوث أن يتزود بمعرفة ما يبتغيه صاحب الجلالة في هذا الصدد وتأكيدا لهذه الرغبة من ملك اسبانيا (كارلوس الثالث) ولكي يجد طلبه الصدى المطلوب لدى السلطان العلوي، اختار مبعوثا عنه أحد مدرسي اللاهوت، وراهبا ، ورئيسا سابقا للبعوث المقيمة في المغرب، وجاء في الوثيقة أو المذكرة :(18)

"لقد طلب امبراطور المغرب من ملكنا أن يحرر بعض العبيد من رعاياه ، بعد أن اوفد إلى صاحب الجلالة شخصيتين من القساوسة، وهما هدية سلطان المغرب...وقد وافق

(15) الاستقصاء ج 8 ص 70

(16) هو القسيس الفرنسسكان بارتولومي خرون دي لا كونثبثيون) مدرس اللاهوت

(17) مجلة المناهل – مقال ذ محمد العربي الخطابي، العدد16/15

(18) المقال المذكور ، مجلة المناهل 16/ 15

ملكنا على الطلب المذكور، فلم يقتصر على تحرير العبيد الذين كانوا موضوع السلطان، بل انه أطلق سراح كل من في قبضته من الرعايا المغاربة، كما أمر بارسال هدية الى السلطان محتوية على مواد من انتاج مصانعنا".

وكما كان منتظرا، فإن السلطان أجاز لسكان (كانارياس) ولغيرهم من الاسبان الصيد في ساحل اكدير، حتى يعم الامان، وحذرهم من الاقتراب من الشواطئ الواقعة جنوب نهر نون ، لالكونها غير خاضعة لسيادة الدولة المغربية في عهده، بل لكون سكانها من الرحل المنتقلين- كما سبقت الاشارة - ومن ثم تستعصي معاقبتهم، وتطبيق الاحكام المناسبة عليهم، ولم يكتف السلطان بذلك، بل أمر جميع السفن، وقراصنة البحر من رعاياه، أن يكفوا عن معاكسة السفن الاسبانية، وهكذا سلكت بين المغرب واحدى الدول الكبرى في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، روح الوفاق والتعاون وحسن الجوار.

أما علاقاته بالدول الاسلامية ، وخاصة العثمانيين ، فقد كانت مثالية، وطدها السلطان بعقد الصلات الحميدة مع سلاطينهم، وبارسال التحف والهدايا اليهم في كل مناسبة، وكانوا هم أيضا يبادلونه بالمثل، فكانت علاقة المغرب بالدولة الاسلامية الكبرى آنذاك ، نموذجا للتعاون والتآزر بين الدول الاسلامية في كل عصر وتحت أية ظروف، وكانت الوشائج التي تربطه كذلك بسلطان (مكة)مثالا، صاغه سيدي بن عبد الله بحكمته وحسن تدبيره

ولا يقل اهتمام السلطان بالحالة الفكرية عن اهتمامه بالحالة الاجتماعية والسياسية التي كانت مصبا لجهوده المتواصلة، ببذل الغالي والنفيس من أجل تقويتها وترسيخها، ودون أن أدخل في تفاصيل هذه الحالة، مما وقع التنويه به في أوائل هذا العرض، فأني أكتفي بالوقوف عند ماقام به السلطان نفسه، وما قدم من آثار فكرية دالة على رسوخ قدمه، وطول باعه، مما يعطي صورة صادقة عن هذه الحالة في القرن(12)هـ بالمغرب، ففضلا عن اهتمامه البالغ بمجالس العلم، وحلقات الدرس، فإنه قدم من نفسه المثال على الوضع الفكري القائم آنذاك، وتجلى هذا المثال في تنوع معارفه، وتعدد اختصاصاته، وغنى مدركاته، وقوة عارضته في مختلف العلوم والفنون الرائجة في العصر، ولووقفنا على بعض ماخلفه في المكتبة المغربية، لابنهرنا لموسوعيته الفذة، ولعجبنا كيف استطاع أن يجمع بين مهمات الحكم الشائكة في الداخل، والتوفيق بين متطلباتها، ومقتضيات التعامل بذلك الاسلوب الحكيم، مع جميع الدول الاجنبية خاصة، والدول الاسلاية عامة، وإذا أضفنا إلى هذا أنه كان يستشير علماء دولته،ويستعين بهم في

القضايا الفكرية، ويفسح المجال أمامهم للادلاء بآرائهم في المجالس العلمية المنتظمة، تأكد لدينا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله ينهض دليلا على المستوى الفكري في المغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري (218)وأنه يبرهن بتنوع آثاره العلمية على الاهمية التي توليها دولته للثقافة والفكر وبالرغم من أن علم الحديث، ومصادره، وعلم الفقه على مستوى المذاهب وخاصة المالكي والحنبلي، هي التي تتصدر الاولويات، وتأخذ بالاهتمام أكثر فإن المجالات المعرفية الاخرى قد عرفت ازدهار ملموسا في عهد السلطان بحيث لم يغب أي منها عن الحياة العقلية في مغرب ذلك القرن .

ويكفينا هنا للتمثيل الاشارة إلى بعض مؤلفاته. التي كتب مجموعة منها بالاشتراك مع علماء العصر فهل نذهب إلى أنها انتاج مغربي يشترك، يصح أن يدل على ثقافة الحقبة التي ندرسها ونناقشها ؟

فكتابه(الفتح الرباني فيما اقتطفناه من مساند الأئمة وفق الامام الحطاب وأبي زيد القيرواني) هو كتاب فقهي كان في أصله تتمة لمؤلفه:

(بغية ذوي البصائر والالباب، في الدرر المنتخبة من تأليف الحطاب) وكتابه (الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج في ستة أسانيد) اهتم فيه السلطان باهتمامات بعض علماء دولته، من المحدثين، فهو مصدر استخرجه من صحيح الامام البخاري وصحيح الامام مسلم، ومسند الأئمة : أحمد، والشافعي، وابي حنيفة، بالاضافة الى موطأ الامام مالك ، ورتبه على أبواب الفقه في عبادات ومعاملات،وكتابه (الفتوحات الالهية الصغرى) وموضوعه الاحاديث النبوية خاصة، اذ يشتمل على حوالي ثلاثمائة حديث، بالاضافة الى بعض التراجم، وذكر آل البيت، ومن استشهد منهم،

أما كتابه (الفتوحات الالهية، في أحاديث خير البرية) فهو أكبر وأشمل من السابق: ويعد أشهر مؤلفات سيدي محمد بن عبد الله ، وقد وقعت عناية العلماء المغاربة به أكثر من غيره، وبنفس الاهتمام تلقاه علماء المشرق، لأهمية موضوعه من جهة، ولقيمة المساند التي اعتمد عليها من جهة ثانية، ولغزارة الاحاديث الواردة فيه، اذ بلغت ألفين ومائتي واثنين وستين حديثا (2262م) منها أحاديث مسندات الامام مالك، وعددها ثلاثمائة وخمسة وتسعون (395) ومنها أحاديث مسندات الامام احمد، وعددها أربعمائة واثنان(402)ومنها أحاديث ومسندات الامام الشافعي، وعددها أربعمائة وثلاثة(403) ولعل عرضا خاصا يتكفل بابراز الجوانب الموضوعية في هذا الكتاب، وأكتفي من جهتي بالاشارات السابقة والسلام.

تنظيم القضاء على عهد
السلطان سيدي محمد بن عبد الله

عبد الوهاب الدبيش
كلية الآداب/البيضاء

شكلت مرحلة حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله فترة (1757 ـ 1792)، مرحلة هامة في تاريخ المغرب الحديث. وتميز عهده بإستقرار سياسي جاء بعد أزمة طويلة عاشها المغرب منذ وفاة المولى إسماعيل سنة 1727م.

وكان طول مدة الأزمة السابقة الذكر، سببا في خراب العمران، ذلك أن تحركات القبائل المناضرة لهذا السلطان أو ذاك، وغياب الأمن الناتج عن عدم استقرار الوضع السياسي، نتج عنه فساد المعاملات وشيوع الغش بين الناس، وفراغ خزينة الدولة التي لم تعد كافية لتمويل نفقاتها المتزايدة، واستتبع ذلك ظهور الإنحراف في سلوك من كانوا في زمرة الفقهاء من أهل الخاصة، بل تعداه ليعم القضاة والمدرسين وأهل الفتيا والموثقين وغيرهم.

لهذه الأسباب وغيرها، قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بعدة إصلاحات، كان الغرض منها إصلاح ما أفسدته الأزمة المذكورة، وضبط وتقنين أشكال التعامل بين الناس. وكان السلطان قد لجأ قبل ذلك إلى تهدئة الوضع الداخلي المتشتت بأن قام بتغيير جذري مس الخريطة البشرية لمغرب النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، استتبعه إصلاح مالية الدولة عن طريق استحداث سكة جديدة [1]. وإحداث ضرائب جديدة كان أبرزها ضريبة "المكس" بعد أن استفتى بشأنها علماء فاس[2]، وتلى ذلك إصداره عدة ظهائر ومراسيم جديدة، نظمت بعض القطاعات التي كان لها ارتباط

(1) Eustache (D) Esquise de monaies Alaouites Publications de la Banque du Maroc Casblanca

(2) الناصري : الاستقصا . دار الكتاب 1956 . ج 8. ص 6.

وثيق بالحياة الدينية. فقد أصدر ظهيرا جديدا ينظم سير الدروس بجامع القرويين والكتب الواجب قراءتها في عدة معارف لها ارتباط بمجالات الحديث والفقه واللغة [1]، وقنن نظام الفتيا بأن جعله مرتبطا بالقضاء [2].

غير أن أبرز ما قام به السلطان المذكور، هو إصداره لمرسوم ينظم القضاء [3]، ويقنن العلاقة بين المتقاضين في بعض الجوانب التي عمها الفساد، ويشرع لبعض القوانين الجديدة التي لم تكن سائدة من قبل.

وتبرز قيمة المرسوم الذي نشره كاملا المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان في كونه يعتبر وثيقة تاريخية ذات أهمية قصوى، كونها جاءت لتنير للباحثين بعض الجوانب التاريخية التي انفردت بها عن غيرها من الكتابات التاريخية الأخرى المعتمدة بخصوص مغرب النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي؛ ثم - وهذا هو الأهم - كونه جاء في إطار سياسة إصلاحية عامة نهجها السلطان من أجل إعادة هيكلة النظم المعمول بها في دواليب الدولة المغربية.

ارتبطت الظروف التي دعت إلى تنظيم خطة القضاء بعاملين أساسيين، يتعلق أولهما بشخص السلطان نفسه، في حين ارتبط ثانيهما، بالإطار العام للقضاء ورجاله على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

توضح الوثيقة فيما يتعلق بالعامل الأول، أن السلطان كان شخصية معرفية ذات تكوين عال في مجال العلوم الدينية، وعلى دراية تامة بمختلف معارف عصره، يقول عنه صاحب النشر "فكان نصره الله في سائر العلوم بحرا لايجاري وفي التحقيق لايساري ولايباري. وقد جمع من المعارف والمعالي ما أبقى به العلماء دونه، فكملت له بذلك شموسه وأنواره" [4]. وتبرز معرفته ودرايته المشار إليهما في طريقة عرضه لمختلف الجوانب الفقهية التي توضح أن السلطان كان على صلة بالتأليف في مجالات الحديث والفقه [5].

---

(1) عبد الرحمان بن زيدان : الإتحاف. مطابع إديال. البيضاء 1990. الطبعة الثانية. ج 3 ، ص 211 -214.

(2) نفس المصدر السابق.

(3)عبد الرحمان بن زيدان : الإتحاف. مصدر سابق. ع 3 ص 188=211.

(4) محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق نشر مكتبة الطالب الرباط. 1986. الجزء الرابع. ص 125.

(5) تحتفظ الخزائن المغربية بالعديد من المؤلفات التي دونها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والتي بلغت زهاء عشر مؤلفات أغلبها مخطوط بكل من الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط. انظر بخصوص تآليفه : الرباطي الضعيف، تاريخ الضعيف، تحقيق الأستاذ محمد البوزيدي . الشبيخي دار الثقافة البيضاء 1988. ج 1. ص 299.

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن السلطان قد تأثر أثناء إستصداره لهذا المرسوم بالتيارات السلفية التي عرفها عصره، والتي نعتقد أن لها صلة ما بالحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية، [1]. يبرز هذا التأثير في تأكيده على ضرورة العودة إلى كتب الأقدمين من أعلام المذهب المالكي، وفي الدعوة إلى نبد شروح المتأخرين من الفقهاء[2].

وارتبط العامل الثاني الذي دعا السلطان إلى تنظيم القضاء، بالرؤية التي تكونت لدى السلطان نفسه لجهاز القضاء ولرجاله من خلال معاينته لهم ولما وصله عنهم من أخبار تفيد بأنهم كانوا غير جديين أثناء مزاولتهم لمهامهم القضائية.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد أن السلطان كان من حين لآخر، يقوم بعزل أي قاض أو عدل بلغه أنه كان يحكم بالزور، أو يأخذ الرشوة، وتتيح الحوليات التاريخية المدونة في عصره معرفة العديد من هذه الحالات، التي بلغت حسب الضعيف ست نبينها في الجدول التالي مع توضيح الأسباب التي دعت إليها.

السنة	الوظيف والمكان	سبب العزل	اسم الشخص المعزول	المصدر المعتمد
1171 هـ	ناظر الأحباس	- ؟ -	- ؟ -	الضعيف ج 1 ص 304
1173 هـ	محتسب	- ؟ -	الطيب الريحاني	الضعيف ج 1 ص 310
1185 هـ	قاضي الرباط	كان يأكل مال الجامع الكبير وماله من الأحباس	المهدي مرين	الضعيف ج 1 ص 323
1185 هـ	قاضي الرباط	- ؟ -	الحاج الحسين ابن أحمد الضرير	الضعيف ج 1 ص 323
1188 هـ	قاضي الرباط	- ؟ -	ابن سعيد الفلالي	الضعيف ج 1 ص 323
1194 هـ	قاضي الصويرة	الحكم بالزور	أحمد رزوق	الضعيف ج 1 ص 339

(1) على الرغم من أننا لانملك دليلا مباشرا على ماسبقت الإشارة إليه بخصوص العلاقة بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله والحركة الوهابية، فإننا لانشك أن الحركة التي برزت خلال مدة حكمه قد وصلت إلى المغرب عن طريق الحجيج المغربي في هذا العصر، بل يمكن القول أن رسائله مع علماء مصر ونصيحته إلى الأمة المغربية، المنشورين بالاتحاف يحملان الكثير من الأفكار المتشابهة مع الدعوة الوهابية. انظر : عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف. مصدر سابق ج 3. ص 214 وما بعدها.

(2) عبد الرحمن بن زيدان : الإتحاف : ج 3 . ص 206 ـ 213.

إن الحالات القليلة التي أشرنا إليها في الجدول السابق، تؤكد أن أسباب العزل ارتبطت إلى حد كبير بعدم نزاهة القضاة المعزولين نظرا لإستغراق ذمتهم عن طريق السطو على مالية الأحباس، أو لأنهم كانوا يأخذون الرشوة من المتقاضين. وقد عبر السلطان نفسه عن هذه الحالات فذكر بأن "نظر القضاة اليوم إلى صاحب المال لماله وصاحب الجاه لجاهه، فيحكمون لهم ويغلبونهم على المساكين بالقول الشاذ" (1)، وقد أكد أبو القاسم الزياني نفس الرأي حين ذكر بأن جميع القضاة المعزولين" كانوا على الحق منحرفين" (2).

ولم يقتصر الفساد الذي عم الجهاز القضائي على المشتغلين به، بل تعداه ليعم جميع من كانت له صلة ما لهذا الجهاز من مرتقين وأعوان وموكلين. فقد ذكر بخصوص الصنف الأول أن معظمهم كان يشهد الزور، وخصوصا أولئك الذين وصفهم "بأصحاب الدكاكين". فقد ذكر الضعيف في تاريخه أن السلطان "سب العدول وأهل الفتوى وقال: "إنهم بالزراويط تحت إبطهم يشهدون الزور" (3)، بل يؤكد السلطان نفسه هذه الحقيقة حين قال بأنه "لايثبت شهادة عدول هذا الوقت" ولا أجوزها على حمار عائب لافائدة فيه أحرى على تزويج مسلمة وهم كما قيل :

لقد سألت هنيها موجودا   أبهتانا تريد أم كذوبا (4)

وذكر السلطان بخصوص الصنف الثاني أن بعض أعوان القضاء "كانوا يشعبون الخصام بين الناس بالباطل ويأكلون أموالهم وهم الذين أقاموا بدار القضاء السنة فأكثر..." (5). كما أنهم الموكلين (6)، "بأن لهم أرب في طول الخصام وتشعبه وأكل أموال الناس بالباطل" (7)، ويتضح من خلال معاينة النصوص المدونة في هذا العصر،

---

(1) عبد الرحمن ابن زيدان مصدر سابق. ج 3. ص 189.

(2) أبو القاسم الزياني : الترجمانة الكبرى. تحقيق عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء. الرباط 1967 ص 63.

(3) الرباطي الضعيف تاريخ الضعيف مصدر سابق. ج 1. ص 352.

(4) عبد الرحمان بن زيدان : الاتحاف. مصدر سابق، ج 3. ص 211.

(5) نفس المصدر السابق. ص 208.

(6) نعتقد أن هذا المصطلح عنى به الأشخاص الذين كانوا يوكلون في المحاكم الشرعية سابقا، وأن مهمتهم كانت شبيهة بمهمة المحامي في عصرنا الحالي. انظر عبد الرحمان بن زيدان. مصدر سابق. ج 3. ص 208.

(7) نفس المصدر السابق.

أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لم يكتف بإتهام الموثقين والقضاة، بل نكل بالبعض منهم، كما فعل مع قاضي الصويرة الذي استدعاه إلى مقر إقامته بمكناسة الزيتون، حين بلغه أن القاضي المذكور كان يحكم بشهادة الزور [1].

ونعتقد أن هذه الأسباب هي التي حدت بالسلطان إلى إصدار ظهيره المنظم للقضاء سنة 1204هـ/1790م، استهله بمقدمة توضح المعايير اللازم اتباعها من قبل قضاة المغرب أثناء حكمهم في أية نازلة تعرض عليهم، ميز فيها بين تلك التي يجب الالتزام بها في مجال العبادات، وماينبغي أن يعمل به في مجال المعاملات.

فقد ذكر أن أنواع الأحكام على خمسة أقوال حسب الفقهاء، "الأول بما هو متفق" عليه، والثاني ما أثبت الحكم فيه الأكثر كالثلثين ونفاه الأقل كالثلث وهو المعروف عند الفقهاء بالمشهور والراجح، الثالث ما اختلف فيه على قولين متساويين نفيا وإثباتا، الرابع ما أثبث الحكم فيه الأقل كالثلث ونفاه الأكثر وهو المسمى عند الفقهاء بالمرجوع بمقابل الراجح والمشهور، الخامس ما اثبث الحكم فيه رجل أو رجلان ونفاه الباقي وهو المسمى بالشاذ" [2].

ويؤكد في سياق مقدمة الظهير، أن "الأقسام الأربعة ما عدا الاخير تعمل بها في عيادتنا، والقسم الخامس وهو الشاد لانعمل به فيها، وأما غير العبادات مما يتعلق به حقوق العباد كالنكاح والطلاق والعتق والمعاملات الجارية بين الناس فالعمل عندي بالأقسام الثلاثة، وهي المتفق عليه والمشهور وماتساوى فيه الطرفان، وأما القسمان الأخيران وهما مقابل المشهور والشاذ فلا أعمل بهما في حقوق العباد خوفا من المخدور بخلاف العبادة" [3].

ويبدو من سياق الكلام السابق أن السلطان ميز بين المحالين فأمر القضاة بالإعتدال في الأحكام المتعلقة بالعبادات في حين نصحهم بالتزام التشدد في المعاملات داعيا القاضي إلى الاجتهاد فيه خوفا من "أن يضيع حق المساكين ويميل إلى كل قوى" [4].

غير أنه ألزم القضاة باعتماد "أحكام الأقدمين من فقهاء المذهب المالكي، واستبعاد آراء المتأخرين منهم، خصوصا فيما يتعلق بالفتاوي التي كان المتقاضون

(1) الضعيف : تاريخ الضعيف. مصدر سابق ج 1. ص 340.

(2) الاتحاف مصدر سابق ج 3. ص 189.

(3) المصدر السابق، ص 190.

(4) نفس المصدر السابق.

يستندون عليها في دعاويهم؛ "لأن المفتي يريد أن يعينه - يقصد المدعي - بفتواه على الخصام وأكل أموال الناس إذا كان القاضي قد حكم عليه بقول ضعيف، وكان في المسألة قول آخر مشهور أصح بما حكم به القاضي، فيلتفت له ويتعين حينئذ على القاضي أن يحكم له بذلك القول المشهور الذي أفتى به صاحب الفتيا" [1].

أغلب مانص عليه الظهير يخص مجال المعاملات باعتباره يشكل أغلب مايتنازع حوله ؛ وهي على قسمين، يتعلق الأول منهما بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وما يدخل في مجالهما، في حين تطرق القسم الثاني إلى مجال البيوع والقراض والرهن والوكالة وأموال الغائب والمحجور. وجاءت بنود الظهير متفرقة بحيث أنها وزعت الحديث عن المجال الواحد في عدة مواضع.

وبغض النظر عن الدخول في مناقشة الكيفية التي رتبت فيها أبواب المرسوم المنظم للقضاء، فإن أهم ماتجب الإشارة إليه في هذا الجانب أن الظهير يعتبر طفرة نوعية في قضاء ذلك العهد، بالنظر إلى ما يحتويه من مرونة واعتدال؛ وقوانين جديدة تشرع وتنظم العلاقة بين الناس على أساس نوع من التكافؤ الاجتماعي.

فقد نصت الوثيقة في مجال الأنكحة مثلا على عدم قبول عقد الزواج الذي ينص على مقدم الصداق ومؤخره. بل قنت قيمة الصداق الواجب اتباعه في البادية والحاضرة، وميزت أيضا بين قيمته عند زواج البكر والثيب، والغني والفقير.

فقد حدد صداق البكر الغنية في أربعين مثقالا كحد أقصى [2]؛ وعدم قبول ما يضاف فوق ذلك بإعتباره يدخل في باب المباهاة؛ أو المروءة.. وقد برر السلطان ذلك فذكر حينما قننه القاضي "أن لايكتب في الأصدقة أزيد من أربعين مثقالا، إذ هي غالب أصدقة السلف الصالح" [3]. وفيه أيضا على عدم "كتابة كالىء الصداق أو مؤخرة، وعدم مطالبة الأب أو الوالي بالشورة أو الشوار وهذا في غير نكاح الأشراف" [4].

والجدول التالي يوضح المعايير التي قننها الظهير المنظم لمجال القضاء بخصوص المهر والمعمول به آنذاك في الأنكحة بين البادية والمدينة كما في زواج البكر والتيب.

(1) المصدر نفسه.

(2) عبد الرحمان بن زيدان : الاتحاف. ج 3. ص 200.

(3) نفس المصدر السابق.

(4) نفسه.

المجال/قيمة المهر	المدينة		البادية	
	البكر	الثيب	البكر	الثيب
	40 مثقالا كحد أقصى عند البكر الغنية 20 مثقالا للبكر الفقيرة	20 مثقالا عند الثيب الغنية 10 مثاقيل للفقيرة	20 مثقالا للغنية 10 مثاقيل للفقيرة	10 مثقالا للغنية 5 مثاقيل للثيب الفقيرة

تكشف البيانات المقدمة أعلاه، أن السلطان اعتمد في تحديد قيمة الصداق على أساس التمايز الإجتماعي الذي كان سائدا آنذاك، ليس فقط بين المدينة والبادية، ولكن حتى بين الأغنياء والفقراء في البلد الواحد.

وأهم ما ميز بنود الظهير في مجال الأحوال الشخصية، أنه ألزم القضاة بعدم قبول الطلاق إلا إذا كان له سبب معقول، كما منع ضرب الزوج لزوجته. يبرر ذلك فيقول : "إذا تخاصم رجل مع زوجته فلا يسجنه القاضي لها إن لم يكن ضربها" (1). وقد حدد مشروعية الضرب في مسألتين إثنتين هما : "ترك الصلاة، وإتلاف مال الزوج"(2) غير أنه منع الزوج من ممارسة العنف غير المشروع على زوجته، وإلا "فليعز لها القاضي عن زوجها ويردها إلى أهلها ولا ترجع إليه حتى يتوب ويأخذ بخاطرها" (3).

ونص في جميع الحالات على عدم سجن الزوج في حالة نشوب صراع بينه وبين زوجته، "لأن فيه مصلحة عظيمة عامة نافعة للزوج والزوجة ... لكي لايضيع مال الزوج من جراء السجن ... ولأن القاضي يأكل منه طرفا وأعوان القاضي يأكلون منه طرفا والسجان يأكل طرفا ... لهذا مال الزوج قد ضاع بين هؤلاء" (4).

إن المبدأ العام الذي دافع عنه الظهير بخصوص الأحوال الشخصية، كان يرتكز على قاعدة المحافظة على رابطة العلاقة الزوجية. بل منع قبول القاضي للطلاق إلا إذا كان مصرحا به من قبل الزوج نفسه، أو من قبل الولي أو أب الزوجة بعد أن يأتي ببينة

---

(1) الاتحاف. ج 3. ص 194.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

على ذلك، ونبه القضاة على ذلك فقال : "كل من هو قاض وأسرع بالطلاق شهادة العدلين فقد دخل مدخلا ضيقا، فإن وقع له مايكره فلا يلوم إلا نفسه، والأمر صعب، وقد كثرت شهادة الزور بل ينبغي له التأمل والتثبت في مثل هذه المسألة الشهور المتعددة حتى يتضح له الأمر ويبقى له إشكال" [1].

في حين أكد على ضرورة قبول يمين الحنث في الطلاق "ولاترد له إلا بعد صداق جديد" [2]، بل ألح على أن طلاق الخلع لاتقبل رجعته إلا بعد "أن تنكح زوجا غيره"[3]. ونص أيضا على عدم قبول الطلاق إلا بعد أن تنفذ جميع المحاولات الرامية إلى إصلاح ذات البين بينهما. كما ألح على أن الزوجة "لا تطلق على زوجها إلا إذا كان على طيب نفس منه بخلع أو بغيره" [4].

ونص الظهير في باب الأنكحة، على ضرورة إشهار الزواج والطلاق في البادية كما في المدينة، وخصوصا الزواج الذي كان يتم بدون إشهاد عدلين موثقين؛ أو ما كان يعرف بالزواج العرفي [5]، وللإشارة فقط فإن ماورد من معلومات تاريخية في هذا الباب، تلقى الضوء على ماكان معمولا به في مثل هذه المناسبات، بل تعطي صورة واضحة عن الكيفية التي كان يقيم بها حفل الزفاف، وأنواع الهدايا التي كانت تقدم للعروس في البادية والمدينة على السواء [6].

لقد راعى الظهير السلطاني، المعايير الإجتماعية التي كان معمولا بها في مغرب النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، ولكنه شدد على رجال القضاء وعلى الموثقين الدين ألزمهم السلطان بضرورة التحري وعدم قبول مايشك في صحته سواء على مستوى الأحوال الشخصية أو مجال المعاملات.

---

(1) نفسه ص 204.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) نفس المصدر السابق.

(5) المصدر نفسه. ص 209.

(6) ميز السلطان في الزواج العرفي بين البكر والثيب. فذكر بأن هنالك فرقا بين الخطوبة والعرس بالنسبة للبكر. لأن الخطوبة بدون كتابة عقد عدلي لم تكن تعني في العرق المغربي أن البكر أصبحت حليلة الزوج إلا بعد أن يتم العرس أو حفل الزفاف، ولكنها في المقابل ألزمته بالنفقة على زوجته المخطوبة، وهذا في غير نكاح الثيب التي اعتبر أكل الطعام في خطبتها عرسا وأضحت المرأة تبعا لذلك حليلة طالبها. انظر الاتحاف : ج 3. ص 210.

فقد نص في مجال البيوع أن مشروعية عمليات البيع المتعلقة بالعقارات يجب أن لاتتم إلا بعد أن يتأكد القاضي من صحة ملكيتها للذي أراد بيعها، ولأجل ذلك "يتعين على القاضي أن يبحث أشد البحث في ذلك ويأمر بإحضار رب الدار أو غيرها بين يديه ويسأله بأي وجه دخل بيده هذا الملك الذي أراد بيعه هل بإرث أم بشراء أو بهبة أم بغير ذلك ويأمره بإحضار الرسوم" [1]، بعد أن يتأكد من خلو الشيء الخاضع للبيع من أي اعتراض "من شفعة أو استحقاق" [2]؛ ومنع في نفس الإطار عمليات البيع التي كان يذهب ضحيتها المحجور والغائب ونص على عدم قبولها حتى يظهر الغائب ويبلغ المحجور رشده. وقرر تبعا لذلك أن يتولى القاضي الإشراف المباشر على أموال اليتامى والمحجورين دون سن الرشد [3].

وحذر الظهير الناس من قرض المفلس المعدم، "وأن لا يعاملوا إلا من كان له دار أو جنان أو غيرهما من الأملاك، فيتعامل بقدر ماتساويه أملاكه، فإن عامل أحد معدما لا دار له ولا جنان فقد أتلف ماله ولا يسجن ولا يحكم عليه" [4]، بل أكد على أن القراض يجب أن يتم بعد أن يتأكد صاحب المال المقترض من سلامة ذمة المفترض من أي دين آخر.

أما القرض المتعلق بالديون الخفيفة "كمائة مثقال فما دونها، فقد أمر القاضي بضرورة الإشراف على عمليات استرداد الدين لصاحبه عن طريق استخلاص نصف مدخول الشخص المقترض للدين وترك النصف الآخر له يتدبر به أمر بيته وشؤونه؛ وهذا أمر خاص بالحرفيين من صغار القوم. وذوي الدخل المحدود آنذاك.

وقد نص المرسوم على أن الأموال المقترضة، إذا تعدت ثلاثة آلاف مثقال فأكثر، واستحال على المقترض ردها، يلزم القاضي نفيه من البلاد، "وإن عاد إليها سجن"[4] ويظهر من سياق النص أن نفي "المقروض المفلس" أمر لم يكن معمولا به في ذلك العهد، ولكن السلطان ارتأى أن النفي أشد وهنا على المدين" لأن الجلاء أمر عليه من السجن، فإن كان أخفى ماله، فإنه يخرجه وإن لم يكن عنده شيء صر على الجلاء"[5].

(1) الاتحاف. ج 3. ص 195.

(2) نفس المصدر السابق.

(3) نعتقد أن هذا الظهير استحدث وظيفة قضائية جديدة، هي وظيفة قاضي القاصرين.

(4) الاتحاف مصدر سابق ج 3. ص 194.

(5) نفس المصدر والصفحة.

وقرر السلطان في مجالي الوكالة والرهن، عدم قبول وكالة الزوج على زوجته "لاستخراج حقوقها"، إلا إذا رضيت بذلك. ونص في الحالات الأخرى أن يوكل القاضي عنها من يراه أهلا لذلك، إما أن يكون "قريبا لها أو أجنبيا، وأن ما يقبضه لها من حقوقها يدفع بيدها وتبرئه منه ولايدفع لزوجها، فإن دفعه فلا براء له منه" [1].

كما أكد على ضرورة كتابة الرهن، ضمانا لقيمته وهروبا من إنكار طرفي العلاقة في هذا المجال، حفاظا على قيمة الشيء المرهون أولا، وصونا لحق الراهن له من ضياع حقه من جراء التلف أو الضياع [2].

ونص في بيع الدواب على عدم الإكتفاء بخبرة البياطرة، لأن "أمانة الغالب منهم قد قلت، فيستخرجون عيوبا ليست موجودة في الدابة" [3] وتبعا لذلك فقد دعا المشتري إلى ضرورة الاعتماد على معاينته للدابة حتى يتأكد من سلامتها ومن مطابقة أوصافها لما يرغبه ويرضاه فيها وأوجب في حالة السرقة أو هروب الدابة إلى صاحبها الأصلي، أن يتكلف القاضي بإثبات رسم الاستحقاق، بعد أن يستشير، من لهم معرفة بالدابة وصاحبها؛ وخصوصا الجيران سواء كانوا قاطنين في الحواضر أو البوادي على السواء [4].

هذه إذن، هي الأشكال التي تطرق إليها الظهير الذي أصدره السلطان، ونظم به قطاع القضاء على عهده، ويظهر أن ماورد فيه من بنود على أهميتها ومنظورها لهذا المجال، فإنها اقتصرت على المجالات التي كانت معرضة أكثر من غيرها للشبهة وأثارت الكثير من النزاعات بين المتعاملين في ذلك العصر.

وأعطى الظهير للقاضي صلاحيات هامة في مجال المراقبة؛ وخصوصا مراقبة أموال الأيتام والمحاجير، وأهل التوثيق والتأكد من سلامة مايكتبون من وثائق عدلية كانت مثار جدل إلى حد كبير. كما نص على ضرورة اعتماد الضبط في الدعاوى، وتسجيل الشكايات في نسختين . وهذا التنظيم الجديد الذي دعا السلطان قضاة إيالته العمل به في أحكامهم، كان يرمي إلى إعطاء جهاز القضاء بعدا مؤسساتيا تحديثيا يتجاوز ماكان معمولا به قبل هذه المرحلة.

---

(1) نفس المصدر، ص 195.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه ص 198.

(4) المصدر نفسه.

لم يتطرق الظهير إلى كل أشكال المعاملات التي أثارت نزاعات بين الناس آنذاك، فقد ترك لناظر الأوقاف مجال المراقبة في قطاع الأحباس العامة والخاصة، وترك للمحتسب أيضا مجال مراقبة الأسواق والمكاييل والأوزان والسلع المعروضة للبيع؛ ولكن أشار إلى أن للقاضي، باعتباره مشرفا على المجالين بطريقة غير مباشرة، الحق في مراقبة ما يقوم به كل منهما في الحالة التي يمكن أن يلاحظ فيها أن هذين القطاعين قد مسهما ما يعرض متوليهما للشبهة.

إن المبدأ العام الذي انطلق فيه السلطان في مجال القضاء، ارتكز بالأساس على المنظور الإسلامي لخطة القضاء، بإعتباره جهازا مهمته تحقيق العدل بين الناس. ويبدو أن المنطلق المذهبي الذي ارتكز عليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في هذا المجال، يأخذ مرجعيته الأساسية من التنظيرات الفقهية المالكية في أصولها الأولى؛ وهي التنظيرات التي عمل بها في إصلاحاته الأخرى التي شملت مجالات التدريس والفتيا، واستندت على رؤية دينية سلفية نلاحظ لها أثرا في نصيحته إلى الأمة، وفي رسالته إلى علماء مصر خلال هذه المرحلة.

حول إفتاء العلماء للسلطان سيدي محمد بن عبد الله بإحداث المكوس

محمد نجيدي
كلية الآداب ابن مسيك / البيضاء

المكس لغة هو الضريبة التي يأخذها الماكس، وأصله الجباية [1]. كما أن المكس مصطلح فقهي ذو معنى غير محدد، كما يظهر ذلك من خلال مختلف الشروح التي تعطي لهذه الكلمة من طرف الفقهاء [2].

فالمكس حسب بعضهم يعني الإحتكار في ميدان التجارة ومنهم من يفسره بأنه ظلم وغصب.

ولكن المصطلح اشتهر لدى الفقهاء في المغرب بمعنى الضريبة كما نجد ذلك عند الونشريسي، يقول : "قال الطيبي : المكس الضريبة التي يأخذها العشار، فعلى تفسير الطيبي فأخذ الفوائد في الأبواب والقاعات واكتراء الأسواق والرحاب مكس". ولكن تفسير عبد الرحمان ابن عبد القادر الفاسي لتعريف الطيبي يوضح أكثر من غيره أن المكس كان يطلق على الضرائب المفروضة على التجارة والمبادلات الداخلية، فهو لايشير إلى أي كراء كما فعل الونشريسي، ويكتفي بقوله : "فعلى تفسير الطيبي أخذ الفوائد في الأبواب والقاعات والأسواق والرحاب مكس، وهو الذي كثر استعماله في العرف" [3].

وهذا المعنى الأخير هو الذي نجده لدى فقهاء القرن التاسع عشر مثل المهدي الوزاني[4]. كما أن مؤرخي القرن وهم الزياني وأكنسوس والناصري يستعملون مصطلح المكس أو جمعه مكوس عندما يشيرون إلى الضرائب التي كان المخزن يفرضها على الأبواب وعلى الأسواق وعلى المبيعات.

---

(1) ابن منظور : لسان العرب، مادة مكس.

(2) أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1981 ج 2 ص 492.

(3) عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي (ت 1685 م) "تقييد في المكوس" مخطوط خ ع في مجموع د 283 من ورقة 27 أ إلى 28 ب .

(4) المهدي الوزاني، المعيار الجديد، فاس طبعة حجرية 1900 ج 3. ص 492.

ولكن الذي لايظهر من خلال هذه التعريفات الفقهية للمكس هو موقف العلماء من المكوس. يقول الونشريسي في باب البدع من كتابه "ومنها المكوس ومحدثات المظالم (...). فإنها أمور جدت في الناس وكثر العمل بها وشاعت فلحقت بالبدع " [5]

وإذا كانت المكوس من البدع فمعنى ذلك في نظر الفقهاء أنها حرام لأنها لاتستند إلى نص شرعي يبيعها سواء في القرآن أو في السنة.

ذلك أن النظام الجبائي والنظام المالي للدولة المغربية بصفتها دولة اسلامية ظل وإلى نهاية القرن التاسع عشر يعتمد على تعاليم القرآن وعلى ماجاء في الأحاديث النبوية [6]. وكان يجب أن يخضع لهذه التعاليم وألا يتجاوزها على الأقل في المستوى النظري. إذ كان الفقهاء والعلماء الذين كانوا يعتبرون حملة العلم الشريف والمحافظون والمراقبون للدين ولصحة تطبيق الفقه، لايتصورون أن يكون للبلاد تنظيم مالي مخالف لتنظيم بيت المال كما عرفته الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب. وهكذا كانوا يرون أن منابع مداخيل بيت المال الشرعية هي :

1 ـ خمس أرض العنوة وخراج أرض الصلح.

2 ـ خمس الغنيمة والركاز وما ألحق بهما.

3 ـ الفيء.

4 ـ الجزية.

5 ـ عشور تجار أهل الذمة والحربيين.

6 ـ مال من لا وارث له والمال الذي ضل صاحبه وجهلت أربابه [7].

أما الزكاة التي هي أول ضريبة إسلامية فرضت على الأغنياء القادرين فلم تكن تعد من بين موارد بيت المال لأن القرآن قد حدد الإتجاهات التي تنفق فيها في قوله تعالى : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم" [8].

---

(5) الونشريسي، المعيار ج 2 ص 492.

(6) E. Michaux Bellaire, l'Organisation : des Finances au Maroc : Archives Marocaines T11 1907 p 171

(7) أحمد بن خالد الناصري : تعظيم المنة بنصرة السنة. نسخة مصورة لمخطوط، الخزانة الصبيحية بسلا رقم 5906 الجزء الأول ص 175 ـ 176.

(8) الآية 60 من سورة التوبة.

ولكن بيت مال الدولة الإسلامية كان قد فقد جزءا مهما من هذه الموارد منذ بدأت الفتوح الإسلامية تعرف شيئا من الفتور، ونشأت عن ذلك أزمة في الدولة انتهت بانتقال السلطة إلى معاوية بن أبي سفيان الذي أسس دولة الأمويين على غرار الدول المنظمة التي كان يعرفها كبيزنطة وفرض على الشعوب المسلمة ضرائب لم تكن إلا لتعتبر من البدع (9).

وقد تميز تاريخ الشعوب الإسلامية التي منها المغاربة منذ ذلك الحين وإلى نهاية القرن التاسع عشر بالتناقض بين حاجيات الدولة المستمرة إلى المال الضروري لسير دواليبها ومواجهة نفقات هذا التسيير رغم بساطته؛ هذه الحاجيات التي كانت تضطر المخزن إلى فرض ضرائب جديدة، وبين تعاليم الدين التي كانت تمنع ذلك. وكان الفقهاء يستدلون على هذا بالحديث القائل "ليس في المال حق سوى الزكاة"، أو حديث : "ليس على المسلمين عشور". هذا ماجعل الناصري يقول بأن تعشير أموال المسلمين حرام بالإجماع وأنه لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس (10).

ويظهر واضحا من هذا أن الفقهاء كانوا ضد فرض الضرائب غير الشرعية على الرعية أيا كان نوع هذه الضرائب، ولكن متطلبات السياسة من جهة أخرى كانت تفرض جباية هذه الضرائب خصوصا وأن الموارد الشرعية للدخل كانت قليلة جدا وعاجزة عن الاستجابة لما كان الواقع يفرضه من نفقات.

ولما كانت الدولة بالمغرب تعتبر تعاليم الدين الإسلامي من ركائزها القوية التي تقوم عليها، فقد كان السلاطين لايقدمون على فرض ضريبة من الضرائب الخارجة عن نطاق ما يسمح به ظاهر الشرع بدون استشارة الفقهاء والعلماء حول جوازها. وكان هؤلاء السلاطين يتمنون من استشارتهم هذه الحصول على ترخيص من رجال الشرع بفرض هذه الجبايات، خصوصا وأنهم كانوا لايفكرون في اللجوء إلى جمعها من الرعية إلا مضطرين، فبماذا كان الفقهاء يجيبون إلى نهاية القرن التاسع عشر ؟

إن أغلبية فقهائنا وعلمائنا "ماكانوا يعرفون غير النصوص المدونة في الأوراق بعيدين عما يجري في الميادين ويدور في الأسواق، جاهلين للأحوال السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية" (11)، وبالتالي كانوا يرفضون الافتاء للسلاطين بجمع

---

(9) Abdellah Laroui : Histoire du Maghreb. Un Essai de synthèse Paris. F11. Petite Collection Maspéro 1976 T1 p. 84.

(10) الناصري : تعظيم المنة ص 176.

(11) الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ، دار الكتاب 1954 ـ1956 الجزء الثامن ص 7.

الضرائب التي كان هؤلاء يريدون فرضها على المعاملات التجارية ... وكانت معارضتهم للمكوس تستند إلى الحديث النبوي الذي يقول "لايدخل الجنة صاحب مكس" ويفسرون المكس هنا بأنه جباية المال ظلما.

وقد ووجه بمثل هذه المعارضة سلاطين المغرب منذ يوسف بن تاشفين المرابطي. فقد عارض اليوسي هذه السياسة الجبائية للمولى اسماعيل، وبعد حرب تطوان والهزيمة التي لحقت المغرب على يد الإسبان لم يستطع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان أن يحصل على فتوى صريحة تبيح له جمع المكوس من الأبواب.

ووصل الأمر بالعلماء في عهد السلطان مولاي الحسن إلى رفضهم الإفتاء لهذا الأخير بدعوى أنه يتوفر على الكتب الفقهية الكافية لكي يعرف بنفسه ماهو جائز شرعا وماهو غير جائز دونما حاجة إلى استشارة أحد.

فكيف كان المخزن يتعامل مع هذا النوع من الإجابات التي كانت تتسم بالمعارضة المتصلبة.

إن من يبحث في تاريخ المكوس بالمغرب يصادف عند صاحب الاستقصا أثناء حديثه عن دولة سيدي محمد ابن عند الله عنوانا لايستوقفه مثيل له بعد ذلك أبدا. ألا وهو "إحداث المكس بفاس وسائر أمصار المغرب" [11]، لأن مؤرخينا نظرا لتكوينهم الفقهي كانوا جميعا يتجنبون ذكر المكوس ماعدا عندما يقوم أحد السلاطين بحذفها وإلغائها. ويستغرب الباحث أكثر عندما يقرأ تحت هذا العنوان أن السلطان استفتى العلماء قبل أن يقوم بإحداث المكوس "فقالوا : إذا لم يكن للسلطان مال جاز له أن يقبض من الرعية ما يستخدم به الجند، فأمرهم أن يكتبوا له في ذلك فكتبوا تأليفا اعتمده السلطان ووظف على الأبواب والغلات والسلع. وكان ممن كتب له في ذلك العلامة الشيخ التاودي بن سودة والعلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس والإمام أبو حفص عمر الفاسي والفقيه الشريف أبو زيد عبد الرحمان المنجرة والفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الصادق الطرابلسي والفقيه القاضي أبو محمد عبد القادر أبو خريص وغيرهم فاعتمد السلطان على فتواهم ووظف ما ذكرناه آنفا".

إن من يطلع على هذه العبارات لايخامره شك أبدا في أن الفقهاء الستة المشار إليهم قد أفتوا بجواز إنشاء المكوس للضرورة.

(11) الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ، دار الكتاب 1954-1956 الجزء الثامن ص 7.

وإذا رجعنا إلى مصدر هذه الأخبار الذي هو أبو القاسم الزياني نكتشف حقيقة هذا التأليف الذي وجه للسلطان سيدي محمد بن عبد الله باسم جميع العلماء المذكورين يقول الزياني في مؤلفه "بغية الناظر والسامع" المخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 678، في الصفحة 139 : "ولما رجعوا لفاس (يعني العلماء السابقي الذكر) حتم عليهم القاضي في تقييد ما عندهم، وجمعهم يوما بالزاوية الفاسية فأبرز الشيخ محمد جسوس ما كتب في باب الزكاة ومصارفها وماهو من وظيف بيت المال ومصرفه ولم يتعرض لإعانة، وتبعه مولاي عبد الرحمان في ذكر الزكاة ومصرفها وما هو من قبيل بيت المال ومصرفه ولم يتعرض لإعانة، وابن عبد الصادق لم يحضر ولم يأت. وأبرز السيد عمر الفاسي ما كتب في الزكاة وبيت المال، وكتب السيد التاودي ما هو من قبيل بيت المال وإن لم يكن أو نقص عن أعطيات الجند فإعانة الجند على المسلمين واعتمد في ذلك على ما أجاب به علماء الأندلس لما خاطبهم السلطان يوسف ابن تاشفين، إذا لم يكن بيت مال فمن أين يكون راتب الجند فقالوا يعينهم المسلمون غير قاضي ألمرية محمد بن يحي الفراء امتنع من الكتب (...) ولما سمع ذلك القاضي أبو خريص قال للشيخ التاودي أحسنت فلقد أخرجتنا من العهدة، ولما سمع ذلك الشيخ جسوس ومولاي عبد الرحمان غضبا وقاما وخرجا ولما وقع ذلك منهما سقط في يد الباقين وقالوا ماعملنا نحن فقال لهم القاضي لاعلينا نكتب باب الزكاة ومصارفه مما كتبه سيدي عمر ونكتب باب بيت المال ومصرفه مما كتبت به أنت يعني الشيخ (التاودي بن سودة) ونكتب هذه الرسالة في الإعانة ونوجه التأليف، فاتفقوا على ذلك وكتبوه ووجهوه لأمير المؤمنين فاعتمده وبنى عليه مال الموازين" [12].

فمن خلال هذا الكلام نفهم أن النص الفقهي الذي اعتمد عليه السلطان محمد بن عبد الله لإنشاء المكوس هو في الحقيقة توليف سهر على إنجازه قاضي فاس حيث جمع بين ماكتبه اثنان فقط من علماء فاس المذكورين، على أن الذي أفتى بجواز فرض الإعانة أو المكوس هو التاودي بن سودة.

ويفاجأ من يقرأ تأليف التاودي بن سودة الذي كتبه جوابا على سؤال محمد بن عبد الله، وهذا التأليف يحمل عنوان "كشف الحال عن الوجوه التي ينتظم منها بيت المال" وهو مخطوط بالخزانة العامة ضمن مجموع يحمل رقم ك 1154، ويبتدئ من صفحة 666 إلى 680، حيث لايجد فيه ذكرا لإعانة أو مايشبهها عند هذا الفقيه، بل إنه

(12) أبو القاسم الزياني : "بغية الناظر والسامع" مخطوط الخزانة الحسنية رقم 678 ص 139.

عندما يذكر المكوس أثناء إعطائه أمثلة لأحد موارد مداخيل بيت المال من الوجه الشرعي، الذي هو المال الذي ضل صاحبه وجهلت أربابه فإنه يقول : "ومنهما المكوس إذا تعذر رده على أربابه فإنه يكون لبيت المال حينئذ" [13]، وهذا يعني بوضوح أن الشيخ التاودي بن سودة كان من المعارضين للمكوس [14]. وفي هذا دليل على أن ما نميل إلى اعتقاده إنطلاقا من قراءتنا لحديث الزياني ومن تبعه مثل أكنسوس والناصري حول حصول السلطان محمد بن عبد الله على فتوى من فقهاء عصره تبيح له فرض مايشاء من ضرائب المكوس غير صحيح.

وإذا أضفنا إلى هذه الحادثة أن المخزن وعلى رأسه السلطان محمد بن عبد الرحمان، بعد هزيمة تطوان، قد بين في استفتائه للعلماء أن ما يريد القيام به صراحة هو فرض ضرائب غير مباشرة هي مكوس الأبواب، وجاء جواب العلماء أن الذي كان سيقبله الجميع من فقهاء وتجار وملاكين وسكان مدن، هو مساهمة غير عادية ومؤقتة من أجل الدفاع تكون عادلة وعامة. وهو مطلب كان المخزن يعتبره غير قابل للتطبيق[15].

وإذا تذكرنا أن السلطان مولاي الحسن قد فرض المكوس بعد توليه السلطان بالعنف وأنه فشل في الحصول على فتوى من العلماء تؤيد سياسته الجبائية بعد ذلك، وأنه استمر يجبي المكوس (رغم كل شيء، علمنا أن المخزن في استفتائه للعلماء كان يقوم كل مرة بإجراء ديني صرف يسترضي حماة الشريعة الإسلامية التي هي ركيزة النظام الإيديولوجي ويسير بذلك على سنة عظيم الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب الذي لم يفرض الخراج على أراضي العراق إلا بعدما استشار باقي الصحابة.

ولكن واقع الدولة المالي والأزمة التي كانت تعيشها كان يضطر السلاطين إلى عدم الإهتمام بأجوبة الفقهاء المجرد ويجعلهم يفرضون المكوس كلما احتاجوا إلى المال. وفي هذا الأمر يمكن أن نعتبر ترديد أكنسوس والناصري لدعوى الزياني بأن محمد بن عبد الله قد حصل على فتوى أنشأ المكوس على أساسها، من قبيل الدعاية السياسية للمخزن خاصة وأن هؤلاء المؤرخين كانوا مقتنعين بمواقف الفقهاء الرافضة للمكوس.

---

(13) التاودي بن سودة : "كشف الحال عن الوجوه التي ينتظم منها بيت المال" مخطوط ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ك 1154 ص 673.

(14) محمد المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث ج 1، الرباط مطبعة الأمنية 1973 ص 297.

(15) محمد داود : تاريخ تطوان، تطوان المطبعة المهدية 1965، القسم الأول من الجزء الخامس ص 99 إلى 118.

المنهج الفقهي عند السلطان محمد بن عبد الله من خلال كتابه الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية*

المختار بنعبدلاوي
كلية الآداب ابن مسيك/البيضاء

قد يبدو ما صرح به السلطان محمد بن عبد الله، من أنه مالكي المذهب، حنبلي الإعتقاد [1] بادي الغرابة، خصوصا إذا كان هذا القول صادرا عن ملك بلاد، لم تعرف مذهبا آخر غير المذهب المالكي، منذ أن ترسخ فيها الإسلام السني [2]. وقد تصل هذه الغرابة إلى حدود الخطورة، إذا أخذنا بعين الإعتبار أن الإسلام السني كان يتماهى مع المذهب المالكي في المغرب [3]، حتى أن المصنفات الفقهية الأخرى، لم تصل المغرب إلا متأخرة جدا، وبناء على طلب خاص من السلطان محمد بن عبد الله. إن خطورة ما ذهب إليه محمد بن عبد الله، لاتكمن فقط في أن المغاربة لايستطيعون تمثل الإسلام إلا من خلال المذهب المالكي، وفي تعصب الفقهاء لهذا المذهب، ولكن كذلك، لان ما ذهب إليه، من كونه مالكي المذهب حنبلي المعتقد، يجعله حنبليا، أولا، لما نعرف أنه للعقيدة من أسبقية على المذهب .

المجال والمذاهب الإسلامية

إن هذا التقابل، المصرح به [4]، الذي تحقق لأول مرة في التاريخ الديني والسياسي المغربي والذي سوف يتحقق مرة أخرى، بصيغة مختلفة مع المولى سليمان، ليس تقابلا

(1) "فصل في بيان قولي في الترجمة المالكي مذهبا الحنبلي اعتقادا"، الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية المطبعة الملكية الرباط، ط II 1980، ص 457.

(2) باستثناء المذهب الظاهري الذي أحيط بعناية خاصة في العهد الموحدي.

(3) حتى أن بعض الفقهاء الذين كانوا يشهرون انتماءهم إلى مذهب آخر، كانوا يتعرضون للإعدام أحيانا، كإعدام الفقيه أبي عبد الله محمد الأندلسي لتشبثه بالمذهب الظاهري. كما أن إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، في العهد المرابطي، يعبر عن تعصب المغاربة للمذهب المالكي.

(4) كانت هناك تقابلات غير مصرح بها في السابق كالإزدواجية العقائدية السنية / الشيعية لدى الموحدين (المهدوية - القول بعصمة الامام ... الخ).

بالمعنى المطلوب. فإذا ألقينا نظرة على تاريخ المذاهب الإسلامية، سوف نجد أنها كانت تربو على الإثنين عشر وأن أغلبها اندثر، بحيث لم يبق قائما من بينها إلا المذاهب الأربعة، ـ بالإضافة إلى المذهب الجعفري ـ المعروفة اليوم بما يدل، على أن العلاقة بين هذه المذاهب لم تكن علاقة ثابتة كما هي اليوم، بل علاقة انتقاء وتضمن واحتواء وتجاوز. وحتى إذا عدنا إلى المرتكزات التي انطلق منها فقهاء الإسلام الأربعة الكبار، نجدهم جميعا يؤكدون على الطابع الإختياري لأحكامهم وفتاويهم ومذاهبهم[5]، لأن الأصل في الدين، هو اليسر، ولأنه الإختلاف رحمة، ولأنه لاأحد يستطيع أن يزعم أنه يمتلك الحقيقة أو يحتكر تفسير النصوص الدينية، وإذا أمعنا النظر سوف نجد أن المعايير التي تحكمت في توزع المسلمين إلى مذاهب مختلفة، معايير مجالية بالدرجة الأولى. ففي بلاد الشام والرافدين، حيث تحقق تطور اقتصادي واجتماعي هائل، وحيث قامت حواضر كبرى، كبغداد ودمشق وحلب، على أكبر الطرق التجارية المعروفة آنذاك، انتشر الفقه الحنفي، الذي توسع بشكل كبير في المعاملات والعقود والإلتزامات والذي كان يخضع، في جانب كبير منه لمنطق العقل والقياس. أما الفقه الشافعي فقد جاء كتعبير عن الإحتجاج، من موقع النص، على المكانة التي استحوذ عليها العقل في العصر العباسي وكنزوع إلى البساطة والاعتدال. وقد وجد هذا المذهب انصاره في الوسط الزراعي بشكل خاص، حيث انتشر في ريف الشام ومصر. أما المذهب الحنبلي، فقد تبدى كرد متطرف على العقل والقياس في الشرع، وكدعوة صريحة إلى الاقتصاد على النص، فأوسع الفقيه ذلك، حتى ولو كان هذا النص ضعيفا أو مشكوكا فيه. لذلك تردد عدد من المصنفين ومؤرخي الفكر في اعتبار ابن حنبل فقيها، واعتبره أخرون جامعا للحديث، لأنه كان يحيل في كل شيء إلى النص ويكره الإفتاء في النوازل الممكنة. لذلك ساد الفقه الحنبلي ـ بسبب نصيته وجموده ـ في أكثر مناطق العالم الإسلامي تخلفا، من الناحية الاجتماعية، وفي المجتمعات الرعوية بشكل خاص.

الفقه المالكي والمذاهب الإسلامية الأخرى

بعد هذه الخطاطة السريعة، حول علاقة المجال بالمذهب، يمكن أن نتساءل، ماهو موقع المذهب المالكي من المذاهب الأخرى، وما هو محاله الخاص بالمقارنة مع المذاهب الأخرى.

إن الفقه المالكي، هو العمل الإجتهادي التطبيقي الأول على النص الإسلامي، بعد

(5) فعندما أراد الخليفة المنصور أن يقر الناس على موطإ مالك رفض الإمام مالك ذلك.

الاجتهاد النبوي، الذي نصت عليه الآية " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم" [1]، فموطأ مالك يعتبر أول عملية شاملة لحصر النصوص الشرعية واستخلاص الأحكام منها. وبالتالي فإن الفضل يعود إلى الفقه المالكي، بالدرجة الأولى، في شق الطريق أمام المذاهب الأخرى. وكما أن هذا الفقه يتميز بأسبقيته الزمنية والاشتراكية، فإنه يتميز كذلك بأنه كان يحمل في داخله أنوية تشكل المذاهب الأخرى، التي سوف تتفرع لاحقا، إلى مايصطلح عليه بأهل الحديث وأهل الرأي. ورغم أن أصحاب علم الأصول يدرجون مذهب مالك في أهل الحديث، فإن مذهب مالك أكثر من ذلك، فهو المصدر الذي تفرعت عنه بقية المذاهب وهو وإن كان أقرب إلى أهل الحديث، فقد كان يحمل بين جنباته إرهاصات مدرسة الرأي كذلك [6].

إذا، فإن التقابل ليس مطلقا بين المذهبين المالكي والحنبلي، على اعتبار أنهما كلاهما يعتبران من مذاهب أهل الحديث وأن المذهب المالكي هو المصدر الذي تفرعت عنه المذاهب الأخرى. فما الذي دعا السلطان محمد بن عبد الله إلى استلهام المذهب الحنبلي، وماهي الإمكانيات التي يتوفر عليها هذا المذهب والتي قد لا توجد في المذهب المالكي.

سعيا وراء النموذج المذهبي الكلياني

قبل أي اعتبار آخر، فإن محمد ابن عبد الله، رجل دولة، جاء إلى السلطة، بعد فترة طويلة من الفوضى والصراع على الحكم. وهو إذا كان قد استطاع أن يحسم الأمر عسكريا، فإن عوامل التوتر كانت لاتزال قائمة. ويمكننا أن نقسم عوامل التوتر هذه إلى خارجية وداخلية.

عوامل التوتر الخارجية : وهي عوامل تختلف بدورها باختلاف مصادرها. فالعثمانيون في الجزائر، وفي غير الجزائر، كانوا قد وصلوا إلى درجة من الضعف وكان لديهم من المشاغل ما يجعلهم يسقطون من أذهانهم أية نوايا توسعية باتجاه المغرب، خصوصا وأنهم كانوا يجدون لديه ما يحتاجون إليه من سند في حروبهم مع النمسا وروسيا وغيرها من الدول الأوروبية. لكن عدم وجود نوايا توسعية لايعني على الإطلاق، انتفاء البحث عن تحقيق بعض المكاسب، من خلال الدخول في اللعبة السياسية المغربية والإخلال بالتوازنات الدقيقة حول السلطة. أما الايبريون الذين استغلوا فترة الفوضى التي سادت بعد وفاة المولى اسماعيل لتعزيز مكاسبهم، فقد

---

(6) سورة النحل، الآية 44.

كانوا يمثلون خطرا أكثر مثولا. بالطبع كانت معركة وادي المخازن لازالت حاضرة في الأذهان وكانت اسبانيا والبرتغال يعلمان جيدا أن الظروف غير مهيئة بعد لغزو قلب التراب المغربي، لكن هذا لم يكن يمنع من عمليات مستمرة لجس النبض ومن اغتنام جميع الفرص الممكنة لإنهاك الحكم وحرمانه من الاستقرار، حتى تتأتى اللحظة المناسبة لتوجيه الضربة القاضية.

رغم جدية عناصر التوتر هذه، فإن محمد بن عبد الله كان يعلم أنها لاترقى إلى درجة الخطر المباشر على الحكم المركزي. لذلك اكتفى بمراضاة السلطان العثماني بالهدايا والمجاملة السياسية، التي كانت تصل أحيانا إلى الترخيص بالدعوة له في خطب الجمعة، باعتباره خليفة للمسلمين. أما العلاقة مع أروبا قد كانت تخضع لمنظور فقهي صلب. فالمغرب والدولة العثمانية، بلاد إسلام، لهم إزاء بعضهم واجب النصرة والتعاون. أما أروبا فبلاد كفر، علاقة المسلمين معها إما علاقة حرب أو علاقة سلم على عهد أمان. وقد عمل محمد بن عبد الله في الإتجاهين، عبر تحرير الثغور المحتلة من جهة وإرسال الوفود والسفارات لتحرير أسارى المسلمين، أيا كانت جنسياتهم.

إن هذه النظرة التي كانت تحكم المغرب مع اروبا، هي ما يجعلنا نشعر بالدهشة عندما نقرأ كتابات السلطان الفقيه، ولكأن المغرب لايبعد عن أروبا إلا بضعة كيلومترات. فنحن لانكاد نقف على أي تحليل أو تموضع من الثورات التي كانت تعتور أروبا أو التيارات الفكرية الصاعدة، وكان ما يجري في أروبا يعنيها هي فقط، رغم أن مستقبل المغرب كان محكوما إلى حد بعيد بما ستؤول إليها هذه التفاعلات الاجتماعية والسياسية والثقافية.

لقد كان الموقف الفقهي النصي يلخص العالم عند السلطان محمد بن عبد الله. لذلك أخذت منه الفتوحات الإلهية، الكثير من الإهتمام، كمصنف تنازلي، يطمح إلى ضبط الحديث النبوي من خلال مضمونه ومصادره، بحيث يتحقق لديه تراتب من النصوص الحديثية، حسب تواترها في الصحاح، بدء بالنصوص السداسية ووصولا إلى الأحاديث الثنائية. من هنا فإن إدراك العالم بمشاكله ومتطلباته الجديدة لم يكن يمر عبر التواصل ايجابيا مع الآخر، كما بدأت تركيا بالمبادرة إليه وإن بخجل وتردد، فيما سمي بالتنظيمات، ولكن بإعادة انتاج العالم من خلال النص، ونسج شبكة عن العلاقات المتعالية معه.

أما على المستوى الداخلي، فقد كان المنهج الفقهي عند السلطان، يدعوا إلى

تحقيق هدف مزدوج، لايخلو من بعض التناقض. لقد كان على هذا المنهج أن يرضي روح الفقيه داخل السلطان، كما كان عليه في نفس الوقت أن يستجيب لمتطلبات الظرفية السياسية.

لقد كان التوتر الإجتماعي والاضطراب السياسي، طيلة التاريخ المغربي الوسيط، مرتبطا أشد ما يكون الإرتباط بثلاثة عوامل أساسية؛ القبيلة، الزاوية، الفقهاء. إن كل عامل من هذه العوامل لايعتبر عنصر توتر بحد ذاته، لكن بمجرد أن تقوم الوشائج بين طرفين أو ثلاثة منها، حتى يأخذ الصراع السياسي أبعادا كبيرة. وقد لجأ السلاطين الذين توالوا على حكم المغرب إلى أساليب مختلفة لعزل هذه المكونات عن بعضها البعض أو تحديدها كما لجأ البعض إلى تكوين جيش مستقل عن الولاءات القبلية والمذهبية، وهو ما أعطى ثماره، بصورة مؤقتة في عهد المولى اسماعيل، ولكن كانت له عواقب وخيمة فيما بعد. فالسلطان الذي كان يريد أن يصبح مستقلا عبرهذا الجيش على القبائل والزوايا، أصبح بشكل أو بآخر يواجه مشاكل جديدة مع هذا الجيش الجديد. وهو مادفع السلطان محمد بن عبد الله إلى استخلاص العبرة، وإلى حل معادلة "عناصر الفتنة" الثلاثة هذه، بوسائل لا تعتمد فقط على القوة العسكرية، ولكن على العامل الديني كذلك، حتى لايبقى حكرا على الفقهاء والزوايا، وحتى تتغير ميكانيزمات الانتاج الديني النظري.

من هنا جاءت التعليمات التي أعطاها السلطان محمد بن عبد الله، في القضاء وفي التعليم، ليس فقط لكي تزعزع أركان هذه المؤسسات ووظائفها، ولكن لكي تسطر معالم نسق جديد، يسوده منطق واحد، يحكم كل مناحي الحياة بدء بالتعليم مرورا بالفقه ووصولا إلى القضاء. هكذا أصبح التعليم يخضع للمناهج والمقررات والمحاذير التي يحددها السلطان [7] وكذلك القضاء [8]. أما في الفقه، فإن مذهب

(7)نشر منشورا فيما يراه صالحا للتدريس في مساجد فاس (المساند والصحاح في الحديث، دراسة المدونة والبيان والتحصيل والمقدمات لابن رشد وجواهر ابن شاس ونوادر ابن زيد القيرواني ورسالته، أما المختصر فقصر دراسته لمن أراده على شرحي بهرام والخرشي الكبيرين والجواق والحطاب والأجهوري. ونص في السيرة على الاكتفاء للكلاعي وسيره ابن سيد الناس ونص في النحو على التسهيل والألفية. وفي البيان على الإيضاح والمطول وفي الآدب واللغة على دواوين الشعراء الستة ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب. ورأى الإكتفاء في الكلام بعقيدة ابن زيد. وأطلق فيما يقرأ في التفسير والتصريف .. ونهى عن قراءة مواضع من الكتب كالربع الأخير من الشفاء وحديث الأفك من البخاري: أما المنطق والكلام والفلسفة وكتب غلاة الصوفية والقصص فمنع قراءتها في المساجد خشية إضلال طلبة البادية.

II .. السلطان محمد بن عبد الله، المصدر السابق، ص و.

(8) انظر نفس المصدر السابق، ص ف.

مالك، وإن كان يقوم، في جانب كبير منه، على ذات الأسس التي قام عليها مذهب ابن حنبل، فإنه يبدو للسلطان وكأنه أصبح متجاوزا من الناحية العقائدية، ذلك أنه لايأخذ موقفا حازما من المظاهر الثقافية "الابتداعية" التي عرفها العالم الإسلامي لاحقا، لقد وقع المالكية في فخ المتكلمين، عندما انجروا إلى الرد عليهم بمنطقهم، وعندما تحيزوا للأشعري واطلقوا عليه لقب "ناصر السنة". أما الحنابلة فقد خاطبوا الأشعري بقولهم(1)"كان ينبغي لك أن تسكت كما سكت الأيمة قبلك من السلف الصالح المهتدين الذين يرون أن الخوض في علم الكلام من البدع المحدثة في الدين. أما لك فيهم أسوة"[9]. كما يسوق السلطان محمد بن عبد الله، كدليل آخر على صلابة موقف ابن حنبل ما قاله لأبي عبد الله بن الحارث بن أسد البصري المحاسبي، عندما صنف كتابا في الرد على المبتدعة [10]. حتى أنه عندما مات لم يصل عليه إلا أربعة.

إن أهم ماقدمه الفقه الحنبلي للسلطان محمد بن عبد الله، عداوته الشديدة للبدع، بما يجعل هذا الفقه سيفا معلقا فوق رؤوس الزوايا أو المؤسسات الدينية الأخرى، التي تمارس عملية الاستقطاب الديني، وهو ما يجعل المذهب الحنبلي في التصور العام لمحمد بن عبد الله، يلعب نفس الدور الذي سوف تؤديه العقيدة الوهابية، لدى حفيده المولى سليمان. أكثر من هذا فإن التسامح المذهبي لدى محمد بن عبد الله والانفتاح على مذهب آخر غير مذهب مالك، هو ماسمح للمولى سليمان بالذهاب بعيدا في انتصاره للوهابية.

لقد وضع الإمام مالك، المبادىء المعقدة للفقه المالكي، بصورة مبكرة، سابقة على المظاهر الفلسفية والكلامية والصوفية، التي عرفها العالم الإسلامي لاحقا. كما أن تلامذة مالك لم يفلحوا إلا في وضع الشروحات وفي التشريعات التي جاءت للإستجابة لحاجات عملية أساسا، بما جعل هذا المذهب يبدو في أعين الكثيرين، وكأنه قد أصبح متجاوزا على مستوى الإعتقاد. على خلاف المذهب الحنبلي الذي عاش المحنة والأزمة المذهبية واستطاع أن يطور منطقا جديدا يتطابق مع الظروف التي خلقها الصراع المذهبي.

---

(9) المصدر السابق، ص 457.

(10) قال له : "ويحك السن تحكي بدعتهم، ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة كلام أهل البدعة والتكلم فيه فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث ؟ المصدر السابق، ص 457.

إن منطق ابن حنبل، هو منطق الفقيه النموذجي، حيث يمارس النص سلطة مطلقة على القياس أو العقل، حتى أنه كان يفتي بقولين في المسألة الواحدة كي لايضطر إلى القياس. كما يبدو الموقف النصي المتصلب للحنابلة في ردودهم على بعض القضايا التي أثارها الكلاميون. فإذا كان المعتزلة يميلون إلى القول بخلق القرآن، لأنه لايجوز أن يكون هناك قديمان ولأن القرآن وعد ووعيد وخبر واستخبار وقصص وأحكام، لايمكن إلا أن تكون منجمة في الزمان، فإن الحنابلة تشددوا في القول بقدم القرآن، حتى أن بعضهم ذهب إلى القول أن الجلد قديم فضلا عن الكلام. لقد وجد السلطان محمد بن عبد الله في فقه الإمام ابن حنبل، الرد المنشود على كل المسائل الكلامية المشكلة، التي لم يتأت طرحها في عصر مالك، "فالله واحد دوئما كيف وهو الذي خلق الصفات، أسماء محدثة، والقرآن كلام الله وهو ليس بمخلوق ولاصفة لمخلوق والإيمان والقضاء والقدر واجب" لايكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به .. يضل من يشاء فيخذله بعدله ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله ... وإن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من يموت [وهو الذي] جعل من لم يتب من الكبائر صائرا إلى مشيئته، وأن الله لايغفر أن يشرك به، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء"[11].

هكذا يجيب محمد بن عبد الله، من موقع الفقية، على كل القضايا، التي شغلت الفكر الإسلامي لقرون طويلة، حول مسألة الذات والصفات وقضية خلق القرآن والتسيير والتخيير ورؤية الله والشفاعة النبوية. مستندا إلى العقيدة الحنبلية، التي متلت أقوى رد على علم الكلام والفلسفة والحركات الصوفية. وإذا كان علم الكلام والفلسفة، قد أصبحا مجرد موضوع تراثي لتاريخ الفكر الإسلامي، ولا يشكلان تيارا دينيا حاضرا أو قائما بذاته فإن الحركات الصوفية ـ من خلال مؤسسات الزوايا ـ كانت تعيش إحدى لحظات تألقها في التاريخ المغربي. إن الطرقية المغربية، لم تكن تمثل حالات ملكية أو نظرية فردية، ولاتشكل حلقات معزولة كما هو الحال في المشرق. بل كان رأس المال الرمزي، المتحقق لزعيم الزاوية، قابلا في أية لحظة إلى أن يتحول إلى رأسمال سياسي عبر تحالفات قبلية جهوية، تشكل الزاوية وجهه الإيديولوجي وتعبيرها النظري الأسمى وهنا تأتي حنبلية السلطان محمد بن عبد الله، لتسقط مشروعية التمثيل الذيني عن الزوايا المبتدعة، ولكي تضع أسس تصور جديد، يتميز بالكليانية بدل الجزئية وبالعمومية بدل الجهوية، حيث تصبح المؤسسة السلطانية إحدى قنوات

(11) بتصرف عن محمد بن عبد الله، المصدر السابق ص 5 / 6 / 7.

إعادة انتاج النص الديني، إلى جانب كل من مؤسسة الفقهاء ومؤسسة الزوايا مع ذلك لا يمكننا القول أن محمد ابن عبد الله تعامل مع النص من موقع رجل الدولة فقط، بل كثير ا ماكانت روح الفقيه، تغلب فيه على احتياجات رجل الدولة، يبدو ذلك من تصنيفه للحديث النبوي، حيث تعامل مع النصوص من حيث الضبط والتوثيق، تعاملا ينطوي على أكبر قدر من الحياد والتنزه، دونما ربط مباشر، ببعض المقتضيات السياسية ودونما اسقاط أو تدليس، كما حصل من المشرق العربي. ولعل روح الفقيه المؤمن الورع المتعالي على الإختلافات المذهبية، تبرز أكثر ماتبرز عند محمد بن عبد الله، في الفصل الأخير من كتاب الفتوحات المكية، بعد الفصل الذي شرح فيه قوله بأنه مالكي المذهب، حنفي الإعتقاد. والذي اختار له كعنوان "في اعتقادي في الأئمة الأربعة". وكان هذا الإقتران المقصود، يهدف بالأساس إلى إبراز الطابع المتسامح للدين الإسلامي، وإلى أن الميل أو التعاطف مع مذهب ما من المذاهب، لا يعني البتة الطعن أو الإنتقاص من المذاهب الإسلامية الأخرى.

عوامل الإستقرار الداخلي في مغرب النصف الثاني من القرن 18 م

محمد ناصح

كلية الآداب عين الشق/البيضاء

الحديث عن ظروف وعوامل استقرار الوضع الداخلي في المغرب خلال عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله يقتضي الإشارة إلى بعض المعطيات البديهية.

المعطى الأول : منذ قيام الدولة العلوية في العقد الرابع من القرن السابع عشر وهي تسير وفق خط تصاعدي، على مستوى فرض سيطرتها على كل جهات المغرب، وضمان ولاء كل المكونات الإجتماعية للشعب المغربي انطلاقا من الجنوب الشرقي من تافيلالت، ثم الشمال، فالغرب والوسط وأخيرا الجنوب، وقد تمكن المولى الرشيد من إقصاء كل عناصر التجزئة السياسية التي ولدت وترعرعت في أحضان الفراغ السياسي الناجم عن تدهور الدولة السعدية، كما تمكن من توحيد المغرب الأقصى تحت سلطته، وهكذا تكون الدولة العلوية قد اكتملت مقوماتها كدولة، بعد حوالي ثلاثين سنة من قيامها.

المعطى الثاني : يشكل عهد المولى اسماعيل، عهد قوة المغرب، خصوصا من الناحيتين العسكرية والأمنية، عن طريق تجنيد قوات هائلة من عبيد البخاري، والأوداية. وقد ارتبط هذا الجيش برباط قوي من الولاء للسلطان، ولم تكن له علاقة بجهة من الجهات الجغرافية، أو بفئة من الفئات الإجتماعية، خصوصا بالنسبة لجيش العبيد، وقد اعتبر هذا الجيش أهم الدعائم التي استندت عليها دولة المولى اسماعيل.

المعطى الثالث : بعد وفاة المولى اسماعيل سنة 1083هـ/1727م، انقلبت الأوضاع فجأة، وعمت الإضطرابات العسكرية، واندلعت الثورات القبلية، طوال ثلاثين سنة، شكلت في العمق فترة أزمة حقيقية، إنهار خلالها التوازن سواء داخل الأجهزة المكونة للسلطة المركزية، أو بين المكونات البشرية للمجتمع المغربي.

وبقدر ماكانت عوامل هذه الأزمة متعددة ومتشابكة، بقدر ما يلاحظ استعصاء حلها، على الرغم من المحاولات المتعددة التي قام السلطان المولى عبد الله، من أجل

إخراج البلاد من الأزمة. هذه المحاولات كانت تهدف إلى تركيز سلطته، وفرض هيبة الدولة، باحتواء الاضطرابات بجميع الوسائل الممكنة، والحد من تمردات وزحف القبائل الجبلية، وضمان الأمن للحركة التجارية في الطرق والموانىء.

وإذا كانت ملامح استقرار الوضع، وعودة الهدوء، قد بدأت منذ السنوات الأخيرة للسلطان المولى عبد الله، فإن بداية عهد إبنه سيدي محمد سيشكل انطلاقة حقيقية لإرساء دعائم الاستقرار بفعل توفر عوامل متعددة مكنته من الإمساك بزمام الأمور.

وقبل أن يتولى منصبه كسلطان للمغرب خلفا لإبنه، نجده يتمرس بالسلطة خلال السنوات التي كان فيها خليفة لأبيه بمدينة مراكش، فقد نجح إلى حد كبير في اثبات مقدرته على تحمل المسؤولية، حيث عمل على تهدئة الوضع بالجنوب [1]، واستمال إليه قبائل الشياظمة وحاحة وأحمر والرحامنة [2]، كما قاد حملات عسكرية، لإعادة الهدوء والأمن إلى مناطق ومدن الغرب والشمال الغربي [3]. لكن أهم موقف يسجله المؤرخون له، ويبرهن علي تقديره للمسؤولية وهو خليفة أبيه على مراكش، هو رفضه بيعة العبيد له بمكناسة سلطانا عليهم عندما بدأوا يخطبون بإسمه، وتوجه لمكناسة ليعاتب العبيد على ماأقدموا عليه، ويعيد الأمور إلى نصابها، وكرر العبيد المحاولة مرة ثانية، لكنها قوبلت بالرفض القاطع من قبل خليفة مراكش، لأنه يرفض أن يتولى مكان أبيه [4] والغريب في الأمور هو أن هذا الأسلوب الذي عالج به هذه القضية، مخالف لما كان يقوم به أبناء السلطان المولى اسماعيل في عهده، إذ كلما سنحت الفرصة لأحدهم، إلا وبادر إلى إعلان نفسه سلطانا مستقلا بجهة من الجهات، وقد تعددت مثل هذه المحاولات في هذه الفترة الشيء الذي كلف السلطان مجهودات عسكرية قوية، تمثلت في تنظيم مجموعة من الحركات، وجهها لإخماد هذه التمردات. وعلى كل، يبقى هذا التصرف الذي صدر عن سيدي محمد بن عبد الله تصرفا استثنائيا، يدل على تقديره

(1) محمد الضعيف الرباطي : تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط 1986 ص 155، 156.

.. أحمد الناصري : كتاب الاستقصا، الدار البيضاء 1956. الجزء 7 ص 196.

(2) الناصري : نفس المصدر ج 7 ص 194، 195.

- العباس بن ابراهيم المراكشي : الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الإعلام : تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1977 الجزء 6 ص 112.

(3) الناصري :م س. ج 7 ص 197.

العباس بن ابراهيم : م س. ج 6 ص 114.

(4) الناصري : م س، ج 7 ص 181 - 184.

للمسؤولية، وعدم ميله إلى التهور، مما جعل الكثير من العلماء والفقهاء من أهل الحل والعقد يقدرون موقفه ويحترمون شخصه.

وعندما تولى المولى محمد بن عبد الله سلطانا على المغرب في نهاية صفر أو بداية ربيع الأول سنة 1171 هـ/1757 م، بعد الإعلان عن وفاة أبيه، حظيت بيعته بالإجماع [1]. إذ لم يسجل قيام معارضة مكشوفة ضد توليته. إلا أن ذلك الإجماع لايعني أن البلاد كانت هادئة والأوضاع مستقرة، بل كانت هنالك حالة من الفوضى والإضطرابات في معظم أنحاء المغرب، وكانت حالات الاستياء واضحة ضد السلطة المركزية دون أن تكون بالضرورة ضد السلطان [2]، فكان على سيدي محمد بن عبد الله منذ البداية أن يعمل على نشر الأمن وإعادة الإستقرار إلى ربوع البلاد، بدءا بإعادة هيبة السلطان نفسه، هذه الهيبة التي غابت بسبب تجبر جيش المولى اسماعيل، وتحكمه في كثير من السلاطين خلال الثلاثين سنة السابقة لولايته، كان عليه إذن أن يعيد للسلطة المركزية ولكل أجهزتها دورها ونفودها.

وانطلاقا من هذه المعطيات الأولية، يمكن تحديد العوامل المساعدة على استقرار الوضع الداخلي في المغرب أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله وسأقتصر هنا على بعض العوامل الحاسمة، دون الدخول في تفاصيل الأحداث.

العوامل السياسية :

من المعلوم أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان له إلمام واسع بالوضع السياسي العام في المغرب، بحكم مباشرته لمشاكل السلطة السياسة، "وقد أظهر العاهل الجديد ـ كما يقول الأستاذ شارل اندري جوليان ـ مقدرته عندما كان نائبا عن أبيه في مراكش، فكان تقيا ميالا إلى السلم والعدل الذين كان المغرب الأقصى في أشد الحاجة إليهما، بعدما قاساه من اضطرابات طيلة ثلاثين سنة" [3]. وقد ترددت أصداء سياسته في العديد من نواحي المغرب قبل توليته، وهي سياسة مبنية على المزاوجة والتوفيق بين أسلوب اللين تارة، وأسلوب الشدة تارة أخرى، فنجده يستعمل سياسة اللين مثلا

---

(1) الضعيف : م. س، ص 162.

ـ الناصري : م. س، ج 8 ص 3 ـ 4.

(2) الناصري : ن. س ج 8 ص 3.

ـ ابن زيدان : الاتحاف ج 3 ص 152، 153.

(3) شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تونس 1978، ج 2 ص 309.

مع الرحامنة، عندما احتلت مدينة مراكش وطردته منها [1]، بينما استعمل الشدة مع تمرد قبائل منطقة سوس [2]، ذلك يعني أن توليته وبيعة الناس له خاصتهم وعامتهم، لاتدل فقط على قبول شخصه لذاته، وإنما أيضا وهذه هي المسألة الأساسية : على رفض غالبية السكان لحالة الفوضى، وانعدام الأمن في النفس والممتلكات، والتطلع إلى ظروف أفضل تسودها الطمأنينة والإستقرار الشيء الذي تحقق نسبيا منذ بداية تولية محمد بن عبد الله وهذا مايعبر عنه هنري تيراس بقوله : "كانت البلاد قد سئمت الإضطرابات التي أضرت بها، وقد ظهر آنذاك محمد بن عبد الله الذي استطاع أن يعيد الأمن والإزدهار في معظم الجنوب المغربي، كرجل أتت به العناية الإلاهية، ولذلك فقد كانت بيعته بمثابة استفتاء شعبي" [3].

من ناحية ثانية سعى السلطان منذ البداية إلى الإعتماد على الهيئات المؤثرة في المجتمع المغربي، وخصوصا المجتمع الحضري، في محاولة للتقرب منها ولضمان ولائها، وخصوصا العلماء والقضاة، في كل من فاس ومراكش ومكناسة. تمت البيعة أول الأمر مباشرة بعد الإعلان عن وفاة أبيه، وأبى إلا أن يبايع بمسجد الكتبيين، وتحت ظل شجرة [4] تيمنا ببيعة الرضوان، وهي نفس الطريقة التي بويع بها المهدي بن تومرت البيعة العامة تحت شجرة خروب بتينمل سنة 518 هـ. ويشير الناصري إلى أن هذه البيعة حضرتها كل الهيئات والفعاليات الممثلة لسكان المغرب، حتى إنه يقول في خاتمة استعراضه للوفود التي حضرت : "بأنه لم يتخلف عنه أحد من أهل المغرب" [5].

ومباشرة بعد انتهاء مراسيم البيعة بمراكش، توجه إلى مدينة فاس لتجديد البيعة من أهلها وعلمائها، لضمان ولائهم، وهذا شيء طبيعي، لأن مدينة فاس كان لها وزن خاص من الناحية السياسية والدينية، بل إنه في كثير من الأحيان يعتمد على فتاوى فقهاء فاس، في كثير من القضايا التي تهم تسيير الشؤون العامة [6].

ومن ناحية ثالثة، حافظ السلطان محمد بن عبد الله في أول أمره على الأطر الإدارية التي مارست السلطة في عهد أبيه في كثير من مدن وبوادي المغرب، "فلم

(1) الضعيف : م. س، ص 155، 156.

(2) الناصري : م. س، ج 7. ص 194، 195.

(3) Henri Terrasse : Histoire du Maroc T. II p. 292.

(4) الضعيف : م. س، ص 164، 165.

(5) الناصري : م. س، ج 8 ص 4.

(6) الناصري : ن. م ص 7.

يعزل أحدا من قواد القبائل وعمال الحواضر الذين كانوا في دولة أبيه في حكم الإستبداد بل أبقى ماكان على ماكان ولم ينكب أحدا إلا بعد الإستبراء والاختبار"[1]، على حد تعبير الناصري، وهنا نلمس أسلوب الدهاء في سياسته كلما اقتضت الظروف ذلك، فلم يرد منذ أول وهلة اثارة المعارضين لشخصه، من أطر الدولة وزعماء بعض القبائل المحسوبة على المخزن، على الرغم من تأكده من تجاوزاتهم، بل فضل التريت، وأحيانا التجاوز، حتى إذا استتب له الأمر وتمكن من السلطة، بادر دون تردد إلى عزل أو نكبة من كانوا يعتبرون رؤوس الفتنة والفساد [2].

العوامل الإجتماعية :

إذا كانت العوامل السياسية في مجملها عوامل ذاتية تخص شخصية السلطان، فإن العوامل الاجتماعية، تبدو أكثر تعقيدا، لأنها تتعلق بعناصر الأزمة، ذلك أن نجاحه في احتواء الأزمة، يعني وضع أسس الإستقرار الداخلي الذي نعم به المغرب خلال عهده.

ففيما يتعلق بالمؤسسة العسكرية، لاجدال في أنها اصبحت تشكل منذ وفاة المولى اسماعيل عنصرا رئيسيا من عناصر الفوضى التي عصفت بالسلطة المركزية، وامتد تأثيرها إلى مختلف مدن ومناطق المغرب، فغاب عنها الإنضباط والنظام، وحل محله التسيب والنهب والإبتزاز، فكان على السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن يسلك سياسة مبنية على اللين والمهادنة أحيانا، وعلى الشدة والتأديب أحيانا أخرى، فلم يكن ليسقط فيما سقط فيه سلاطين الأزمة ومنهم أبو ه المولى عبد الله، عندما لجأوا إلى التقرب لبعض عناصر الجيش، أملا في دعم مركزهم فسقطوا فريسة لنزواتهم ورغباتهم غير المحدودة، فكانت النتيجة فوضى عارمة في أعلى هرم السلطة، فكثرت التعينات والبيعات لأتفه الأسباب، كما تعددت الإقالات لعدد من السلاطين لآتفه الأسباب كذلك. وقد ظهر رفض السلطان لهذا الأسلوب المتبع من قبل رؤساء الجيش منذ وقت مبكر، عندما كان خليفة لأبيه بمراكش، فقد رفض بيعة العبيد له سلطانا على المغرب، مرتين ليحل محل أبيه، وعاتبهم على هذا السلوك المرفوض، وساند والده ضد جيش العبيد [3]، فكان هذا الموقف تعبيرا واضحا عن رفضه للخضوع لرغبات رؤساء جيش العبيد إستقبالا.

(1) الناصري : ن. م ص 6.

(2) الضعيف : م. س. ص 165، 166.

(3) القادري : م. س، ص 410، 411.

الناصري : م. س، ج 7 ص 181 ـ 184.

وحيث إن الجيش كان يشكل قوة تهدد باستمرار السلطة المركزية، فقد عمل سيدي محمد بن عبد الله بشتى الوسائل لكبح جماح رؤسائه، والحد من تمردهم، وتقلبات ولائهم، واستمال الوداية بجيشها واتباعها، عقب محاولة التمرد التي قامت بها في فاس الجديد سنة 1173 هـ/ 1759 م، وتمكن من الفتك برؤسائها عن طريق الحيلة[1]. كما لم يتردد في قمع أخطر تمرد عسكري قام به جيش العبيد ضده كسلطان للمغرب، عندما أعلنوا العصيان وبايعوا إبنه اليزيد سنة 1189 هـ[2].

وعلى العموم فقد أعاد المولي محمد بن عبد الله تنظيم الجيش، على أسس الولاء للدولة، بتشكيله من مختلف المكونات الاجتماعية، من بقايا العبيد، والوداية، وعناصر بربرية، وصحراوية، فأصبح بالفعل جيشا وطنيا مهمته الحفاظ على كل مقومات الوحدة الوطنية، والدفاع عن حدود البلاد، واسترجاع بعض المدن، وحماية الثغور، وقمع التمردات الداخلية.

وفيما يخص أسلوب معالجته للثورات القبلية وحركات العصيان، والتنقلات المستمرة لقبائل الجبال نحو السهول، وهي كلها حالات مستعصية على الفهم مثلما هي مستعصية على الحل. وقد تطلب الأمر ثلث القرن، وهي المدة التي تمثل عهد السلطان محمد الثالث، من أجل فرض الإستقرار، وإعادة الهدوء النسبي للمغرب، واعتمد في معالجته لهذه المعضلات، على أسلوب التحركات المستمرة لكل مناطق المغرب، حواضره وبواديه، قصد مباشرة المشاكل عن قرب، وحلها إما حلا سلميا أو حلا عسكريا. لقد ساد الإعتقاد لدى العديد من القبائل، ولدى العديد من الزعماء والدعاة، أن تولية محمد بن عبد الله لن تغير من واقع الحال شيئا، وأن الأزمة مستمرة لامحالة، وهذا أمر طبيعي، لأن الناس عامة فقدوا ثقتهم في السلطة المركزية، بسبب عجزها عن ضمان الأمن وحمايتهم من عمليات النهب والإعتداء، فكانت "الحركة" إحدى العوامل الأساسية والناجعة لفرض الإستقرار في ربوع البلاد، والإتصال بالسكان والإستماع إلى شكاياتهم، وقضاء حوائجهم في عين المكان، ومن أجل ذلك رفض السلطان الإستجابة لطلب أعيان فاس بالإقامة بينهم معتذرا بقوله :

"لاسبيل إلى الإقامة في أرض واحدة، ولابد من الإقامة في كل بلدة ليتيسر لكل أهلها الإتصال بملاقاته، مما عسى أن يعرض موجب شكاية أو رفع خصومة[3].

---

(1) الضعيف : م. س. ص 198.

(2) الناصري : م. س. ج 8 ص 45 ـ 49.

(3) الضعيف : م. س. ص 165.

فالحركة إذن، لاتعني الحملة العسكرية فقط، وإنما تعني أيضا تنقل السلطان بكل أجهزة الدولة الأدارية والعسكرية، لتفقد أحوال السكان وقمع حركات العصيان، وتواكب عملية التنقل هذه نشاطات مختلفة للسلطان، تهم مجال تسيير شؤون الدولة، مثل إصدار الظهائر، وتعيين العمال، ومراقبة الأمناء ومحاسبتهم، واستقبال السفراء الأجانب، وإذا كانت الأسباب الداعية للقيام بالحركات وعددها 25 حركة خلال ثلاث وثلاثين سنة، أسبابا عديدة سبقت الإشارة إليها فإن أهدافها يمكن حصرها في مايلي :

- فرض سلطة الدولة وهيبتها في سائر أقاليم البلاد.
- إقرار الأمن والهدوء بالقضاء على عناصر الفوضى والتسيب.
- حل مشاكل السكان خصوصا تلك التي تتجاوز اختصاصات العمال أو القواد.
- تأمين الطرق التجارية وإعادة تنشيط تجارة القوافل والموانيء.
- ضمان موارد جبائية قارة للدولة والسعي إلى جمعها من القبائل، بواسطة أجهزة الدولة.

ومن بين عوامل الإستقرار كذلك نشير إلى سياسة السلطان إزاء الزوايا، وهي سياسة مشابهة لسياسة المولى اسماعيل، ترتكز على دعم نفوذ الزوايا المؤيدة للمخزن، ومعاداة ومحاربة الزوايا المعارضة أو الرافضة لمنطق التعاون مع المخزن. فنجد الزاوية الوزانية في الشمال تشكل بنفوذها الديني، وبأتباعها من سكان المنطقة، حزاما بشريا يحيط بالقبائل الجبلية من غرب الريف، ويحد من تحركها وزحفها نحو سهول الغرب، وهذا الدور هو نفسه الذي تقوم به الزاوية الناصرية بتامكروت في الجنوب. وقد منحت لهذه الزوايا جملة من الإمتيازات المادية، كاستخلاص الزكاة والأعشار من القبائل المجاورة لها، مقابل ذلك تعمل باستمرار على مساندة المخزن وحمل القبائل على تأييده، كما تعمل على مواجهة الدعاة والقبائل الثائرة ضد المخزن [1]، وأخيرا تتكلف بمعاداة أو التضييق على الزوايا المناهضة لسلطة المخزن، كما هو الشأن بالنسبة للزاوية الخنصالية، وزاوية إليغ، وزاوية أبي الجعد [2].

العوامل الاقتصادية :

يمكن إجمال العوامل الاقتصادية في قضية أساسية ومركزية، هي القضية المالية،

(1) الضعيف : م.س ، ص 166، ابن زيدان : الاتحاف : م س. ص 157.
(2) الناصري : م. س، ج 8 ص 59.

ذلك أن الهاجس الرئيسي لدولة سيدي محمد بن عبد الله منذ البداية، هو البحث عن مخرج للأزمة المالية، الشيء الذي يمكن أن يضمن استمرار الإستقرار.

ذلك أن الفلاحة لم تعرف أي تطور، بل ظلت حبيسة الهياكل التقليدية، وعرضة لتقلبات أحوال الطقس، وطغيان النشاط الرعوي في السهول الخصبة عوض الزراعة، وتقلص المجال الزراعي بفعل الإضطرابات، وبمعنى آخر لايمكن الإعتماد على الفلاحة والضرائب المترتبة عليها، للحصول على مداخيل مالية قارة لخزينة الدولة، لتمويل مختلف مشاريعها وعلى رأسها الإستقرار.

لذلك فإن الدولة، سارعت البحث عن مداخيل قارة، بوسائل أخرى وفي مقدمتها الإعتماد على التجارة، التي كانت على مر العصور الوسطى والحديثة من أهم المصادر المالية للدولة المغربية.

ولتنشيط الحركة التجارية مع الخارج، عملت الدولة على تحديد بعض الموانىء، كما الشأن بالنسبة لأنفا إذ أعيد بناء مينائها سنة 1174 هـ/1760 م، وتم إحداث ميناء جديد هو ميناء الصويرة سنة 1179 هـ/1765 م [1]، وطرد البرتغاليون من البريجة [2] للتحكم في مينائها وتنشيطه، وقام السلطان لنفس الغاية بمحاولة تحرير مدينة سبتة لكنه تراجع عنها وأجل مشروع التحرير بعد أن اندهش لتحصينها [3] ومقاومة المستعمرين لها. وفضلا عن ذلك، سعى السلطان إلى ضمان الأمن في الموانىء وانتزاع بعضها من بعض المتسلطين، مثلما هو الشأن بالنسبة لميناء أكادير [4]، وشجع حركة القرصنة في بداية عهده، بهدف الحصول على الأموال، وحماية السواحل[5]. كما أن الحركات التي دأب السلطان على القيام بها إلى عدة نواحي من المغرب، قد ساهمت في ضمان الأمن في الطرق وبالتالي بشجيع تجارة القوافل، ولو أن مداخيل التجارة القافلية، لاتساهم سوى بقسط ضئيل في مداخيل خزينة الدولة، بالمقارنة مع مداخيل التجارة الخارجية التي تم تدعيمها بعقد مجموعة من الاتفاقيات والمعاهدات التجارية مع عدد من الدول الأوربية.

(1) الضعيف : م.س، ص 172، 173.
الناصري : م. س، ج 8 ص 20، 21.
(2) الضعيف : م. س، ص 175.
الناصري : م. س، ج 8 ص 34.
(3) الناصري : ن. م، ج 8 ص 11.
(4) الناصري : ن. م، ج 7 ص 196.
(5) الضعيف : م. س، ص 166.

وعلى الرغم من كل ماذكر، على الرغم من توفر ظروف الإستقرار السالفة الذكر، فإن المجتمع المغربي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، لم يسلم من كثير من الظواهر السلبية التي تجعل هذا الاستقرار، وهذا الهدوء النسبي مهددا باستمرار، فهناك الظروف الطبيعية القاسية التي عرفها المغرب خلال هذه الفترة، والمتمثلة أساسا في المجاعة التي اجتاحت البلاد، بسبب الجفاف الذي استمر ست سنوات(1) من 1190 هـ إلى 1196 هـ/1776م - 1782، وقد تسببت في مآسي اجتماعية، بسبب فقدان المؤن، والغلاء الفاحش، وتفشي ظاهرة الإستعباد، نتيجة الفاقة والخصاص، كما اجتاح البلاد مرض الطاعون، وأدى إلى هلاك عدد هائل من السكان.

وعلى الرغم من كل المحاولات المباشرة وغير المباشرة التي قام بها المخزن لإيقاف زحف القبائل فإن الظاهرة وإن خفت حدتها، فإنها لم تتوقف بشكل نهائي، بل استمر الزحف من الجبال إلى السهول ومن الجنوب إلى الشمال، مما يدل على أن الوضع لم يتحسن بالشكل المطلوب. كما أن المخزن غالبا مايلجأ إلى فرض ضرائب استثنائية لإنجاز بعض المشاريع المكلفة ماليا كما هو الشأن عند بناء أسوار أنفا فقد أرغمت قبائل الشاوية على المساهمة في البناء، وكان قسط هام من السلع الفلاحية التي تصدر نحو أوربا يوتى بها من البوادي بعد أن تفرض على السكان كضرائب عينية.

وأصبحت للزوايا المؤيدة للمخزن سلطة القهر، بإجبار السكان على تقديم الخدمات للزاوية، وأعطيت لها حقوق جباية الضرائب كالزكاة والأعشار ووقعت تجاوزات غير مقبولة شرعا.

وتعددت التمردات وحركات العصيان ضد السلطة المركزية وأخطر هذه التمردات تلك التي كانت تصدر من داخل الهيئة الحاكمة من عائلة السلطان أو من أجهزة المخزن، كثورة المولى اليزيد ابن السلطان سنة 1189 هـ/ 1775 م (2)، وتعددت عصيان العبيد(3). كما ثارت عدة مناطق في وجه السلطة المركزية ويمكن التأكيد على أن تعدد الحركات التي قام بها السلطان طوال عهده دليل واضح على أن المغرب لم يحظ باستقرار شامل، خصوصا وأن وفاة سيدي محمد بن عبد الله سنة 1205 هـ/1790 م

(1) ابن زيدان : الاتحاف. م. س، ج 3 ص 174.

(2) الضعيف : م. س ص 180.

الناصري : م. س، ج 8 ص 45، 57.

(3) الضعيف : م. س، ص 180 ومابعدها.

الناصري : م. س، ج 8 ص 47، 49.

كانت إعلانا عن نهاية مرحلة، حاول فيها المغرب وضع أسس دولة قوية على المستويين الداخلي والخارجي ونجح السلطان في ذلك إلى حد كبير. يمكن تفسير السبب الجوهري لهذه الحالة حالة المد والجزر على أساس اعتبار عهد سيدي محمد بن عبد الله تكرارا لنموذج مألوف في تاريخ المغرب، إن لم نقل في تاريخ العالم الإسلامي، نموذج فترة سياسية تتميز بالإستقرار والإزدهار النسبي تعقبها فترة تراجع واضطراب، منذ تأسيس أول دولة في المغرب الإسلامي، من أمثلة هذه النماذج، عهد ادريس الثاني، عهد يوسف بن تاشفين، عهد المنصور الموحدي، عهد المنصور السعدي، عهد أبي عنان المريني، عهد المولى اسماعيل.

من حق الباحث والدارس لتاريخ المغرب أن يتساءل إذا كانت كل هذه الفترات المشار إليها، تمثل فترات الإستقرار السياسي الإجتماعي، فلما لاتستمر ؟ لماذا تعقبها فترة تراجع، نطلق عليها فترة أزمة ؟ قد تطول وقد تقصر، ولكنها في جميع الأحوال بالنسبة للمغرب الأقصى، تنتهي لتبدأ فترة استقرار أخرى.

وبقطع النظر عن التفسير الخلدوني لتعاقب أعمار الدول، يمكن تفسير هذه الظاهرة المألوفة، في عمقها التاريخي وبعدها الإجتماعي السياسي الثقافي، بغياب الضوابط الدستورية العملية لمسألة السلطة السياسية، نعم هناك القرآن والسنة كأسمى تشريع للأمة الإسلامية لتسير شؤونها، وهناك البيعة وتزكية أهل الحل والعقد، والخاصة والعامة، وكل هذه الأمور وخصوصا البيعة ومايترتب عليها من حقوق وواجبات تخص شخصا بعينه يتصف بجملة من المواصفات الدينية والأخلاقية والسياسية، ولاتتعلق بأجهزة الدولة السياسية والإدارية والعسكرية وعلاقتها بالأمة. بمعنى آخر لانجد ترجمة سياسية عملية للأطر الدستورية المنصوص عليها في مصادر التشريع الإسلامي، وتكييفها مع الزمن، في شكل نصوص تطبيقية، ملزمة لكل مكونات المجتمع الإسلامي، وتقوم بضبط العلاقة بين مكونات الدولة، وتقف بالمرصاد سدا منيعا لعناصر التعثر ومعوقات الإستمرار.

إن غياب التجديد في الفكر السياسي لدول العالم الإسلامي ومن بينها المغرب منذ العصر الوسيط، كان يشكل باستمرار العقبة الرئيسية في وجه االإستقرار والإنطلاق نحو التطور والتقدم.

ومايقال عن الجانب السياسي، يصدق أيضا على الجوانب الأخرى، الاقتصادية والثقافية، فالأنشطة الاقتصادية من فلاحة وتجارة وصناعة ظلت سجينة الهياكل

التقليدية الموروثة عن القرون الوسطى، إن لم نقل هناك تراجع كبير حتى على مستوى ماكان سائدا خلال العصر الوسيط. وفي نفس الإتجاه ساد التحجر الفكري وهيمن التواكل وتوقف مجال البحث والإجتهاد، وانسدت آفاق التطور العلمي بإهمال المصنفات العلمية الرائدة. وانتقل القسم الأعظم منها نتيجة هذا الإهمال إلى مراكز البحوث الأوربية لتشكل عنصرا أساسيا من عناصر نهضتها الفكرية والعلمية. هذا في وقت كانت فيه أوربا الغربية على الخصوص قد قطعت أشواطا بعيدة في طريق التطور السياسي، بتجديد المؤسسات السياسية، وانطلاق التحولات الديمقراطية في العديد من الدول بعد مخاض عسير امتد من عصر النهضة الأوربية إلى الثورة الإنجليزية والفرنسية على الخصوص، كما عرفت الحياة الإقتصادية ثورة عميقة شملت الميدانين الفلاحي والتجاري، قبل أن تنطلق الثورة الصناعية في أواسط القرن 18.

من هذا المنظور النقدي التاريخي، يمكن أن نضع عوامل الإستقرار السالفة الذكر عن حجمها الحقيقي، وشكل موضوعي، مما يضفي على عهد سيدي محمد بن عبد الله صبغة خاصة، باعتبارها فترة من الفترات النموذجية في تاريخنا الحديث، فترة حاول فيها المغرب تجديد نفسه، من خلال التجديد الديني، والإهتمام بالقضاء، وضمان الأمن والإستقرار، وظهور المغرب كقوة جهوية فرضت نفسها على مستوى العلاقات الديبلوماسية وعلى مستوى العلاقات التجارية.

جوانب من سياسة سيدي محمد بن عبد الله بالأقاليم الجنوبية

أحمد البوزيدي
كلية الآداب / فاس

تولى سيدي محمد بن عبد الله أمور المملكة بعد وفاة والده مولاي عبد الله سنة 1171 هـ بمقتضى بيعة شرعية من علماء المغرب وخياره، وكانت سنه يوم بيعته حوالي38 سنة قضى منه حوالي 13 سنة خليفة لأبيه على مراكش والآقاليم الجنوبية، سوس والصحراء وتافيلالت ودرعة.

ونعتقد أنه من الأجدر بنا قبل التركيز على سياسة هذا السلطان العظيم في الآقاليم الجنوبية، أن نلقي نظرة وجيزة على السمات التجديدية في إدارة أمور المملكة الشريفة بعد ثلاثين سنة من الغليان الإجتماعي والازمات السياسية والإضطرابات العسكرية التي اثارها وصفاء سيدي البخاري بعد وفاة السلطان مولاي اسماعيل.

نستفيد من بعض الإشارات التاريخية في تاريخ الضعيف الرباطي أن سيدي محمد ابن عبد الله بشر بالإمارة والإمامة وهو لم يبلغ بعد سن الحكم، لذلك حرص السلطان مولاي عبد الله على إشراكه في تحمل بعض المسؤوليات إلى جانبه، فلما بلغ سن الخامسة والعشرين عينه خليفة عليه بمراكش سنة 1158 إلى حين مبايعته بالملك سنة 1171 هـ. يقول الناصري إن أهل المغرب، جمعت كلمتهم على سيدي محمد بن عبد الله "لما ظهر منه أيام خلافته من حسن السياسة، وكمال النجدة، وجودة الرأي وتمام المعرفة بإدارة الأمور على وجهها .. ووصفه مؤرخ آخر بأنه قد أعاد للدولة شبابها ونهج لها نهجا جديدا، وأسس لها بعد جده أبي النصر اسماعيل ركنا شديدا .. وعلى كل فإن سيدي محمد بن عبد الله قد وضع خطة واضحة لإدارة أمور الدولة بطريقة تنهى شغب المشاغبين، وتوفر ظروف الأمن والإستقرار لعموم الناس فكيف كان ذلك.

1) ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله في تعامله مع عناصر التشغيب لايلجأ إلى القوة العسكرية إلا بعد استنفاذ كل الوسائل الممكنة لإعادتهم إلى جادة الصواب، وكثيرا ما نصادف عند الضعيف الرباطي هذه العبارة "فنهاهم فلم ينتهوا" ذلك أن

سيدي محمد بن عبد الله وهو السياسي المحنك كان ينذر المشاغبين ويعيد انذارهم حتى إذا لم ينتهوا، سلط عليهم من العقاب مايردعهم كل على قدر جريرته.

2) أن ثوارالمناطق النائية نجده يعتمد أسلوب الكومندوهات المدربة لاعتقال رؤوس الفتنة وتجنيب الرعية معرة الجيش. وبهذه الطريقة عالج مشكل الشريف الكثيري، محمد وعلي بتكلا بسوس، والطالب صالح بعده بأكادير.

3) أن السلطان، وهو الذي تأثر كثيرا بالسلطان السعدي أحمد المنصور، استحدث نظاما سريا في مجموع أنحاء المغرب كان يطلع السلطان بطريقة منتظمة ومستمرة عن كل مايجري بالبلاد. خاصة بمناطق الأطراف.

4) إنه كان يختار عمال الآقاليم بعناية كبرى، فيختار للحضريين حضريا مثلهم، وللبادية عمالا قادرين على فهم عقلية البدو والتعامل معهم بشكل يحفظ الآمن والإستقرار.

5) كان سيدي محمد بن عبد الله كثيرا ماكان يتنكر في زي رجل عادي فيرى بنفسه ماعليه أحوال عامة شعبه، ولعل هذا مادفع القنصل الفرنسي شيني يقول أن سيدي محمد بن عبد الله، كان يعيش عيشة عادية إذ ليس له من المأكل والملبس مايميزه عن رعيته، وهو أمر لم يألفه شيني عند ملوك أوربا في عصر سيدي محمد بن عبد الله. ولاغرو في ذلك إذ أن السلطان قد كان يحرص على التقرب من شعبه والإطلاع على مشاكله، وهو أمر أكسبه هيبة كبيرة بين الرعية، وتقديرا جعله يتربع على عروش القلوب قبل تربعه على عرش أسلافه المنعمين.

أما سياسة سيدي محمد بن عبد الله في الآقاليم الجنوبية كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله اهتمام خاص بالاقاليم الجنوبية لايقل عن اهتمامه بالآقاليم الجنوبية، لذلك تجده يختار لهذه الآقاليم عمالا من خلص دولته أمثال ابنه مولاي عبد السلام، والباشا سعيد بن العياشي ووزيره مولاي ادريس بن المنتصر ومولاي علي بن الفضيل وكاتبه الزياني وعبد الرحمان الزفريتي والمحجوب ولد قايد راسوا ومولاي سلامة.

1 ـ سوس والصحراء :

كانت هذه الأقاليم تجد عناية خاصة في سياسة سلاطين الدولة العلوية الشريفة منذ قيامهم، وقاعدة الولاة بهذه الجهات هي مدينة تارودانت، وقد كان السلطان مولاي اسماعيل يختار لولاية هذه المنطقة رجالا معروفين بالشجاعة وحسن التدبير من أبنائه

أمثال مولاي محمد العالم ومولاي عبد الملك. وفي أيام فتنة وصفاء سيدي البخاري كثيرا ماكان السلطان مولاي عبد الله يلتجىء إلى تارودانت ريثما يتهيأ لإعادة الكرة على الثائرين في المناطق الشمالية.

ومن تارودانت كانت الأوامر السلطانية تصدر إلى حدود نهر السينغال كما هو الحال في العهد الإسماعيلي، ونستشف من بعض الإشارات التاريخية أن مجلس مولاي محمد العالم كان يعج بشعراء المناطق الصحراوية خاصة منطقة شنقيط.

كانت المناطق الجنوبية من سوس والصحراء المغربية مجالات انتشار القبائل العربية المترحلة منذ عهد بني مرين أمثال قبائل ذوي حسان والشبانات وأولاد دليم وقد تفرعت عن هذه القبائل عدة قبائل أخرى لاتحصى عددا وظهرت أسماء أخرى نعرف من بينها على عهد سيدي محمد بن عبد الله قبيلة تكنة ومجاط، وذوي بلال وأولاد جلال، والرقيبات والعروسيين، وأيت يوسي وأولاد بولسبع وغيرها، وهذه القبائل ترتبط بسكان المناطق الشمالية بوشائج القربى ومن ذلك على سبيل المثال لاالحصر قبائل الرقيبات بمختلف تفرعاتها تنحدر من الشيخ عبد السلام بن مشيش، فقد هب أحد حفدته وهو سيدي أحمد الرقيبي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبالضبط مابين 1490 و1499 مع فرقة من المجاهدين من شمال المغرب إلى الصحراء لحماية الشواطئ من هجومات الإيبيريين الذين تكالبت أطماعهم بهذه المناطق، وفي نفس الوقت رحل سيدي أحمد العروسي وهو من بني عروس من الشمال أيضا للجهاد في هذا الأقاليم، وعن هذين الرجلين تفرعت عدة قبائل من ذرية المجاهدين وصارت تحمل أسماء أخرى تنتسب إلى هذا الرجل أو ذاك. ومن تلك القبائل قبيلة مجاط التي لاتزال بقاياها إلى اليوم بالأطلس المتوسط وفي سوس وفي المناطق الجنوبية من الصحراء المغربية ناهيك عن قبائل أولاد أبي السباع الذين نقلهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله لأسباب تهم السياسة الداخلية للدولة إلى الصحراء.

هذه القبائل الصحراوية لم تكن تتردد في المشاركة إلى جانب قبائل المناطق الشمالية في الدفاع عن حوزة الوطن كلما دعت الضرورة إلى ذلك فبالإضافة إلى قبائل الأوداية (نسبة إلى الأودية مثل وادي نول ووادي الساقية الحمراء، ووادي درعة) التي كانت تشكل فرق الجيش منذ العهد الإسماعيلي، يذكر الضعيف الرباطي في حديثه عن حصار سيدي محمد بن عبد الله لمدينة البريجة عام 1182 هـ أن قوما أتوا من الصحاري لابسين الجلد راكبين على الإبل لهم شعر في رؤوسهم قد حاف على أذنهم وهم نحو خمسمائة رجل أو أزيد. وعلى هذا يتضح أن سكان الصحراء لم يكونوا يتخلفون في تلبية نداء الوطن كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

إذن فعناية سيدي محمد بن عبد الله بسوس والصحراء لا تختلف عن عنايته بجهات أخرى من المغرب وكيف لا ومن سكان هذه الأقاليم أخوال أبيه مولاي عبد الله وجده السلطان مولاي اسماعيل. وقد كان السلطان يختار لولاية هذه الجهات رجالا من خلص دولته أمثال أبيه مولاي عبد السلام ومولاي سلامة والقائد المحجوب ولد قايد راسو، والقايد عبد الرحمان الزفريتي، والباشا عبد النبي المنبهي.

2 ـ عمالة درعة :

استحدثت هذه العمالة وفصلت عن تافيلالت في عهد السلطان مولاي اسماعيل ابتداء من سنة 1119 هـ وعين على رأس هذه العمالة ابنه مولاي عبد الملك ثم ابنه مولاي الشريف سنة 1114 هـ وقد ظل مولاي الشريف على رأس هذه العمالة إلى أن توفي سنة 1138 هـ ولايزال قبره بالمنطقة.

وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله كانت عمالة درعة تنعم بالهدوء والإستقرار، ومن عماله على درعة الباشا سعيد بن العياشي والقايد محمد الحيوني الجراوي، والقايد علي لكتاوي، ومولاي علي بن الفضيل.

3 ـ منطقة تافيلالت :

بالنسبة لمنطقة تافيلالت، فقد كانت تشكل منطقة أساسية في سياسة الدولة، ليس بالنسبة لسيدي محمد بن عبد الله فحسب وإنما لكل سلاطين الدولة العلوية الذين مارسوا مسؤولية الحكم، ذلك أنها مهبط الإشراف ومنطلق دولتهم، وموطن تربية الأمراء. ومن هذا المنطلق كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يولي عناية خاصة لتافيلالت، سواء فيما يتعلق بالتسيير والإشراف الإداري، أو مايتعلق بتتبع أحوال سكانها بكيفية دائمة ومستمرة.

كانت تافيلالت منذ سنة 1160 هـ خاضعة لنفوذ مولاي الحسن بن اسماعيل، إلا أن هذا لم يمنع السلطان سيدي محمد بن عبد الله من إرسال ولاته إلى تافيلالت، والإستعانة ببعض رجالاتها من إرسال ولاته إلى تافيلالت، والإستعانة ببعض رجالاتها في إدارة شئوون الدولة. أو تشكيل فرق عسكرية من بعض سكانها. وفي هذا الإطار يذكر الناصري أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله استقدم سنة 1173 عددا من أهل الرتب وتافيلات من الجبابرة والمعاركة وأولاد بن أحمد إلى مكناس وأعطاهم الكسوة والسلاح وكتبهم في ديوان الجيش.

ولما تفاقم أمر مولاي الحسن بن اسماعيل قرر السلطان التوجه بنفسه إلى تافيلالت برسم تربة جده المولى علي الشريف وحسم داء عمه المولى حسن بن اسماعيل لما كان يرتكبه من أمور شنيعة ضد الأشراف المعارضين لسلوكه. قام السلطان بالرحلة إلى تافيلالت عام 1197 هـ، فقدم أمامه الكاتب الزياني، الذي نجح في إخراج القبائل البربرية من قصور مضغرة ووادي الرتب وقصر السوق وأولاد عيسى والدويرة قبل مجيء جيش السلطان، كان الهدف من إفراغ هذه القصور من سكانها هو عزل مولاي الحسن بن اسماعيل عن أنصاره والمشايعين له، لأن السلطان كان يثقل عليه مواجهة عمه بما يكره على حد تعبير الناصري وبعد ذلك تولى الزياني أمر ترحيل مولاي الحسن إلى مكناس ثم ألحق به عياله وأثقاله. وبفضل هذه السياسة تمكن السلطان من إنهاء تشغيب عمه مولاي الحسن وتجنب إراقة الدماء وتعرض المنطقة لمعرة الجيش السلطاني ثم أعاد ترتيب أوضاع المنطقة ثم تقدمت القبائل بمالها من زكوات وأعشار والتي تقدر بحوالي 194 قنطار من المال وكانت الزيارة الثانية للسلطان سيدي محمد ابن عبد الله لتافيلالت سنة 1201، وفيها فرق أموالا كثيرة على الأشراف، وهكذا عم فضله وكرمه كل أبناء المنطقة ولسان حالهم يردد :

قد روى فضله الأفاضل طرا ... فعلى الفضل والرواة رواء
كيف لايحسن السناء ويسمو ... في امام له المعالي رداء

وخلاصة القول أن السلطان المجدد والمصلح سيدي محمد بن عبد الله قد أعطى لكل جهة من المغرب ماتستحق من عناية في الشمال كما في الجنوب.

السياسة العسكرية : تأملات في الفكر الإصلاحي لسيدي محمد بن عبد الله

محمد المهناوي
كلية الآداب / الجديدة

من المعلوم أن كل دراسة تجزيئية للفعل الإصلاحي هي في واقع الأمر نسقا ممنهجا لهذا الفعل، لأن أهم مقومات الإصلاح تكمن في شموليته. كما أن تناول الفكر الإصلاحي من خلال ممارسة سياسته، محفوف هو الآخر بكثير من المخاطر، وفي مقدمتها الإندفاع نحو الأخذ بالربط الميكانيكي بين الفكر الإصلاحي للسلطان ومنجزاته أو تحركاته على أرض الواقع. وعليه، نحاكم الفكر الإصلاحي للسلطان من خلال منجزاته. في حين أن هذه المنجزات لاتمثل إلا الجزء الذي أمكن تحقيقه. وفي كثير من الأحيان أن تحقيق هذا الجزء ثم على نحو مغاير لما كان يبتغيه السلطان، خصوصا وأننا نفتقد إلى نصوص اتخذت من الإصلاح موضوعا لمواكبة التحولات التي كان يعرفها المغرب داخليا، وفي علاقاته بالعالم الخارجي، وإن وجدت فهي لاتتجاوز منطق الأحكام السلطانية. والدعوة إلى الأخذ بسيرة السلف الصالح. من هنا تأتي صعوبة الإقتراب من الفكر الإصلاحي للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، وبالتالي إشكالية الإقتراب من معاناة الدولة المغربية وقتئذ. وبالمقابل فإن استحضار المفكر فيه من قبل السلطان أثناء تفاعله مع ظرفيته التاريخية، خطوة أساسية نحو استعادة التاريخ لما افتقده بحولياتنا التقليدية من عقل ومنطق ودفىء إنساني وهو مايساعد على التقليل ماأمكن من سلبيات محاججة مرحلة تاريخية معينة من منطلقات ومضامين غير مفكر فيها حينئذ، وإن وجدت على أرض الواقع. ولكن دون الذهاب إلى حد الأخذ بالتاريخ التبريري.

انطلاقا من هذا الفهم، سنحاول أن نبدي بعض الملاحظات على السياسة العسكرية لسيدي محمد بن عبد الله، ولن نخوض في سرد الأحداث، فهي موجودة بمصادرنا [1]

(1) يسير سيدي محمد بن عبد الله في مقدمة السلاطين الذين نعرف عنهم الشيء الكثير. ومن أهم المصادر المتوفرة حول تاريخ المغرب في عصر هذا السلطان يمكن الرجوع إلى :

- محمد بن عبد السلام الرباطي : تاريخ الضعيف الرباطي. دراسة وتحقيق محمد البوزيدي البوشيخي. دار الثقافة البيضاء 1988. الجزء الأول. = =

كما أن هذه الملاحظات لاترقى إلى مستوى دقة الدراسات القيمة التي أنجزت في الموضوع [2]، ولا تسقط في فخ تلخيص ماجاء بهذه الدراسات. ولهذا أردت أن تكون هذه الملاحظات في شكل تأملات، تمثل في واقعها منطلقات للبحث، وليست خلاصة له. وقد انصبت تأملاتي على الظرفية التاريخية التي كانت وراء إصلاحات سيدي محمد بن عبد الله، إضافة إلى شخصية هذا السلطان وتجربته الخاصة، وانتهت إلى إبداء بعض الملاحظات على التوجهات العامة للسياسة العسكرية لهذا السلطان وأهميتها في تاريخ المغرب.

من المعلوم أن سيدي محمد بن عبد الله جاء إلى الحكم والمغرب في حالة من الفوضى العارمة، كنتيجة لفقدانه للتوازن على جميع المستويات. فقد استغلت القبائل غياب سلطة مركزية ضابطة، فعمقت خطوط زحفها من الجنوب نحو الشمال، ومن الجبل نحو السهل، مما أحدث صراعات قبلية خطيرة. وهو ماعمق أزمة السلطة المركزية. هذه الأخيرة التي كانت تتآكل داخليا بفعل تفكك هياكلها العسكرية وكثرة المطالبين

= = محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، 4 أجزاء. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. الرباط 1986.

- أبو القاسم أحمد الزياني : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب. نشر هوداس باريس 1886. محمد اكنسوس : الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي. طبعة حجرية .

- أحمد الناصري. الإستقصا . ج. 7 و 8.

- Host. George Den Marocan ske kaiser Mohamed ben Abdellah Historie kiobenhagnen 1791.

- Chenier, Louis . Recherches Historiques sur les Maires et Histoire de l'empire de Maroc Paris 1787. T. 3.

(2) كتب العديد عن سيدي محمد بن عبد الله. وتراكمت عنه مجموعة من الدراسات بمختلف اللغات. ويبقى ذكر أهمها، حسب مانعرف :

- Ramon Louride Diaz : Marruecos en la seginda Mitud del siglo XVIII. vida interna: potitica social y religioses durante el sultanado de sidi Mohammed. Abdellah: 1757 - 1790 Madrid 1978.

- Mayus. Anan Dicherd. The Abid el Bouhari slabe soldiers and stolecraft in Marocco. 1672 -1790. Cornell University. Ph. D. 1974 Xecose Universiy Microfilms. Ann Arbor Michigan. U.S.A. 1985.

- Rollman. Milfrid John. The "New order" in a pre-colonial Muslim Society. The University Murofilms international 1985.

- Mercer. Poetricia Ann. Political and Military developements Within Morocco during the early Aluwi period. University of london 1974. Mocrofilm. PP310 -334.

بالعرش وبدأ عدم التوازن على خارطة المغرب، فمنذ السلطان مولاي اسماعيل كانت أغلب الأحداث تقع بالمغرب الشمالي في حين بقي المغرب الجنوبي على الهامش يتفرج على مايقع بفاس ومكناس والريف، ويخضع لقيادات محلية. وهو مازاد في إنهاك الدولة وقلل من إمكانيات عودتها لضبط الأمور من جديد. فقد أسهمت الفوضى في إحداث انهيار شامل لمداخيل الدولة (ضرائب، جمارك، غنائم القرصنة...)، في الوقت الذي كانت تتطلب إعادة دواليب الحكم إلى وضعها الطبيعي مصاريف جد باهضة. ولاسيما إذا علمنا أن الدولة المغربية كانت مدعوة لمواجهة ضغوط أوروبية تتزايد باستمرار وتتطور مطالبها نحو الهيمنة والإبتزاز.

ضمن هذه الظرفية جاء سيدي محمد بن عبد الله إلى السلطة (عام 1757)، وهي ظرفية، كما هو واضح، تقتضي الإصلاح ولاشيء غير الإصلاح. فمن أين استمد سيدي محمد بن عبد الله قدرته على التعامل مع هذا الواقع أولا، وتغييره ثانيا ؟

أعتقد أن بيوغرافية سيدي محمد بن عبد الله قبل أن يصبح سلطانا أساسية في الموضوع. فمن المعلوم أن سيدي محمد بن عبد الله ولد بمكناس بين 1715 و1720، بمعنى أن سيدي محمد بن عبد الله الطفل والشاب عايش عن قرب فترة الإضطرابات وضعف الدولة وقصورها بعد المولى اسماعيل. ويمكن اعتباره في مقدمة الأمراء الذين عانوا الشيء الكثير من هذه الأزمة. فهو ابن السلطان الذي تحمل ثقل هذه الأزمة (حكم بين 29 ـ 1757)، إذ عزل عن الحكم خمس مرات. كما أن سيدي محمد بن الله شارك في أحداث هذه الفترة منذ 1746 عندما أصبح خليفة لوالده بمراكش، ومن خلالها على وسط المغرب وجنوبه. وهو المجال الذي كان مهمشا حينئذ، حتى أنه عندما وصل مراكش وهم في بناء قصبة بها، خالفته قبائل الرحامنة وطردته من المدينة، فالتجأ سيدي محمد بن عبد الله إلى أسفي ومنها عاد إلى مراكش بعد أن طور إمكانياته القتالية.

وهكذا أسس سيدي محمد بن عبد الله خلافته بنفسه. ولم يكتف بتمهيد المناطق الموجودة إلى جنوب نهر أم الربيع، بل تحرك نحو أقصى نقطة بشمال المغرب. وذلك بعد أن أعيت الأحداث وأنهك المرض والده السلطان المقيم بفاس. وحاول أن تكون تحركاته هاته ضمن المشروعية. وبهذا خرج عن منطق الفترة، فقد رفض سنة 1750 مبايعة جيش البخاري له. وذلك بحجة الشرعية، حيث ترك العلماء يقنعون قادة جيش البخاري بعدم مشروعية بيعتهم. فضمن إعجاب الجميع، وهدد في بعض الأحيان باستعمال القوة ضد قادة جيش البخاري الذين تمسكوا بمبايعته في حياة والده السلطان.

وعليه، فقد كانت مجهودات سيدي محمد بن عبد الله الخليفة مقدمة عملية لإصلاحات سيدي محمد بن عبد الله السلطان، وهي إصلاحات تميزت بالواقعية، حيث حاول أن ينهج سياسة الخطوات في إعادة التوازن إلى جيش الدولة، والتقليل ما أمكن من أخطاره. وهي سياسة كانت تنشد الوسطية وتعادي التطرف. فقد عمل سيدي محمد بن عبد الله على التقليل التدريجي من أهمية الوحدات العسكرية التي كانت حاضرة في فترة الأزمة، ونعني بذلك جيش الوداية وجيش البخاري، وذلك بالاعتماد على عناصر جديدة من القبائل المنتشرة بوسط المغرب وغربه، ولكن دون إضعاف الأولى لحساب الثانية . وهكذا حاول تشغيل جيش البخاري والعمل على تشتيته عبر الثغور، وتجديد هذا الجيش بأبنائه وتجنيد عناصر جديدة، وإبعاده عن الشؤون السياسية قدر الإمكان. وهو نفس الشيء الذي فعله سيدي محمد بن عبد الله مع عناصر جيش الوداية الذين أنقلهم من فاس إلى مكناس، وقام في الوقت ذاته بتأسيس جيش جديد من الوداية أسكنه صحبة جيش البخاري الجديد بالرباط، خصوصا بعد أن فشلت محاولة إنشاء انكشارية من قبائل الحوز. وحاول سيدي محمد بن عبد الله أن يجعل الجند القبلي مختصا في الحملات التأديبية ضد القبائل وتمهيد الأقاليم، في حين وجه الجيش النظامي المحترف نحو الإهتمام بالثغور والدفاع عنها، وذلك لسد العجز الذي نتج عن تراجع القرصنة المغربية رغم مجهوداته في هذا الباب. وبهذا قام سيدي محمد بن عبد الله بحركة معاكسة لجده المولى اسماعيل. إذ أعاد للثغور مدافعها ومهارسها من مدينتي فاس ومكناس وخاصة بعد أن تعرضت العرائش إلى هجوم عنيف من قبل الأسطول الفرنسي.

وكان سيدي محمد بن عبد الله وسطيا حتى في إعداد الجند، فبقدرما نوع من عناصره قلل من عدده، وذلك حتى يتجاوب مع الإمكانيات المالية المتواضعة لخزينة الدولة، إذ يكفي أن نشير إلى أن تعداد جيش البخاري الذي كان يمثل أضخم جيش عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله لم يكن يتعدى 18.000 جنديا سنة 1790، وذلك حسب أعلى تقدير. وبهذه السياسة تمكن السلطان من تلبية حاجيات جيشه. حتى أنه قام في سنة 1787 بإعطاء الجند أجرا مقدما عن 15 سنة من الخدمة، وذلك قصد التوسعة كما تقول المصادر.

لقد كان الأسلوب الذي نهجه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في إدارة البلاد، جانبا مهما ضمن الجوانب التي تعكس فكره الإصلاحي. فقد اعتمد سياسة داخلية تهدف إلى تقوية المخزن ومركزته على أساس الشرعية أكثر من اعتماد القوة والقهر، وذلك بغية الوصول إلى إرجاع التوازن للمغرب اجتماعيا واقتصاديا .

وللوصول إلى ذلك، نقل السلطان العاصمة من شمال المغرب إلى وسطه، رغم استعطاف أهل فاس وترغيبه في المكوث بين ظهرانيهم. وأخذ سياسة التجوال الدائم في حركة تأديبية مستمرة لإصلاح الرعية كما يقول الضعيف المعاصر له. حتى أنه توفي في الطريق قرب الرباط. وركز سيدي محمد بن عبد الله في حركاته هاته على المدن الساحلية، وعلى القبائل التي تنتشر عبر الطرق الرابطة بين المدن الكبرى، ولهذا كان نصيب القبائل الموجودة إلى جوار الدير من هذه الحملات التأديبية كبيرا. وهكذا، أسهم تنقل السلطان المستمر في إضعاف هذه الإضطرابات، والقضاء عليها قبل استفحالها، إذ بالرغم من كثرة هذه الإضطرابات، فإنها بقيت عديمة الخطورة على السلطة المركزية.

ومهما أكدنا على أهمية الإصلاحات التي أدخلها سيدي محمد بن عبد الله على تنظيم الجيش وعلاقته بالسلطة والمجتمع، فإن عمق إصلاحات هذا السلطان يعود أساسا إلى كيفية تعامله مع القوات الخارجية، إذ بدون أن يتخلى عن الوظيفة الجهادية للدولة، حاول أن يجد توازنا بين حاجيات المغرب للتجارة الأروبية، وضغوط الدول الأروبية على المغرب. وهكذا كان توجه سيدي محمد بن عبد الله نحو المحيط الأطلسي عسكريا وتجاريا. فبعد أن حمى ظهره من هجومات أتراك الجزائر بواسطة سن تعامل خاص مع سلطان القسطنطينية، واهتم سيدي محمد بن عبد الله بالمغرب المحيطي. وخاصة بوسطه، فحصن الموانيء القديمة (العرائش، مرتيل، اصيلا، طنجة، المهدية)، وجدد وحصن أخرى (فضالة، أنفا، أسفي) وفي الصويرة (عام 1765)، وذلك قصد امتصاص تزايد الضغوط الأروبية على المغرب، والعمل على مراقبة التجارة الأورويية من خلال منافذ محددة، خاصة عبر الصويرة. مما أسهم في الرفع من موارد السلطان ومكنه الحد من تجارة التهريب.

لقد حقق سيدي محمد بن عبد الله نتائج مذهلة في سياسته العسكرية تجاه الخارج. ففي الوقت الذي وقع اتفاقيات سلم مع أغلب شعوب أوربا، بما فيهم اسبانيا العدو التقليدي للمغرب، نجده ينجح في تحرير مدينة مزغان من الاحتلال البرتغالي (سنة 1769) بعد أن ظل بها أكثر من قرنين ونصف القرن. كما أشرف بنفسه على حصار مدينة مليلية (من 9 دسمبر 1774 إلى 19 مارس 1775) كاد أن يعطي هذا الحصار أكله، لولا مجموعة من الاعتبارات، إذ اعتبر أخطر حصار شهدته الحامية الإسبانية المقيمة بالمدينة، والتي مازالت إلى الآن تحتفل بيوم رفع الحصار عن المدينة. وقدم سيدي محمد بن عبد الله الوحدات المتبقية من أسطول القرصنة المغربية مساعدة من المغرب لسلطات القسطنطينية في جهاده ضد الغزو المسيحي وخاصة الروسي.

وهكذا، كان سيدي محمد بن عبد الله وسطيا في كل شيء. اتخذ عاصمة في وسط المغرب (مراكش)، حرر ثغرا وسط مملكته (مزغان)، حدد التعامل مع التجار الأجانب بالموانىء الموجودة وسط الساحل الأطلسي المغربي (فضاله)، أنفا، أزموز، أسفي، الصويرة). كان وسطيا في تعامله مع الأعداء، لاهو بالعنيف ولا بالمتساهل، والنتيجة أنه قلل من خطورة الصعوبات التي كانت تعترض المغرب آنئذ. واستطاع أن يحافظ على هيبة المغرب واحترامه من قبل القوات الأجنبية، إذ بموت هذا السلطان ستطوى آخر صفحة من تاريخ التعامل الند بالند بين المغرب والبلدان الأروبية، وتبدأ صفحة جديدة من تاريخ الضغوط الأروبية على المغرب الهادفة إلى المس بمؤسساته والنيل من سيادته.

علاقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالإيالات العثمانية في شمال افريقيا (طرابلس - تونس - الجزائر)

زهراء النظام
أستاذة جامعية

تتناول هذه المداخلة جانبا من سياسة السلطان سيدي محمد بن عبد الله الخارجية، وهي علاقة المغرب بالإيالات التركية في منطقة شمال افريقيا (تونس - الجزائر - طرابلس)، وهو جانب لم يحظ باهتمام كبير من طرف المؤلفين الذين تناولوا عصر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالتأليف، والذين انصب اهتمامهم أكثر على سياسة السلطان الخارجية وإنجازاته الثقافية والعمرانية وعلاقات المغرب بالدول الأجنبية والدولة العثمانية باصطمبول.

ونظرا لما لهذا الموضوع من أهمية بالنسبة لتاريخ المغرب، فإننا سنحاول من خلال هذا العرض، واعتمادا على ماتوفر لنا من معطيات حول هذا الموضوع، أن نلقي الضوء على بعض الجوانب الأساسية في هذه العلاقة، وهي جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وعلى العوامل التي تحكمت في هذه العلاقة ودور المغرب في الحفاظ عليها وخلق نوع من التوازن الدولي.

يعد السلطان سيدي محمد بن عبد الله من السلاطين الذين يشهد لهم تاريخ المغرب بالعظمة والقوة لما حققه المغرب في عهده من استقرار سياسي وتقدم وازدهار اقتصادي واجتماعي وثقافي وعمراني، وقد كان لنجاح سياسته الداخلية، وسياسة الود والتسامح والتعاون التي نهجها مع الدول الأوربية والإسلامية أثر في جلب ثقة هذه الدول التي كانت تتقرب منه وتسعى لإكتساب وده وثقته وخلق الروابط السياسية والاقتصادية معه.

وأسفر هذا التقارب عن توقيع العديد من الاتفاقيات التي كانت تهم تنظيم العلاقات السياسية والبحرية والتجارية بين المغرب وهذه الدول.

ولعب السلم في هذه الاتفاقيات دورا أساسيا نظرا لما كانت تعرفه السواحل المتوسطية والأطلسية من انعدام في الأمن بسبب أعمال القرصنة التي كانت نشيطة في هذه الفترة.

وأدت سياسة التقارب التي نهجها كل من السلطان العثماني والمغربي إلى توطيد العلاقة بين البلدين فتم تبادل العديد من السفارات والهدايا في مناسبات مختلفة، وبذل السلطان المغربي للدولة العثمانية مساعدات كثيرة خاصة أثناء دخولها الحرب مع روسيا. لأنه كان يعتبر الأتراك حماة الدين الإسلامي في هذه المنطقة من الشرق.

وعمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله في إطار سياسته الخارجية التي تعتمد على الود والتسامح والتعاون على التقرب من الأتراك العثمانيين لكل من طرابلس وتونس والجزائر وكسب ثقتهم وودهم، لأنه كان يعتبر أن علاقته بهم استمرار لعلاقته الطيبة بالأتراك العثمانيين في أصطمبول ، وتأكيد للروابط القديمة التي تربط المغرب ببلدان المغرب العربي والتي تقوم على عدد من المعطيات : بشرية، وتاريخية، وثقافية، ودينية ولغوية. فكانت مواقفه تعبير عن رغبته في استمرار علاقة الود معهم.

إلا أن الأتراك المتواجدين بهذه المناطق وخاصة منهم أتراك الجزائر كانوا في تعاملهم مع سلطان المغرب على النقيض من الأتراك في اصطمبول فكانوا يبدون تعنتهم اتجاهه، وكانت وراء هذا التعنت أسباب سياسية ترجع إلى الرغبة القديمة التي كانت تراود الأتراك العثمانيين منذ وصولهم إلى منطقة شمال افريقيا وهي بسط نفوذهم على كل المنطقة حتي يتمكنوا من وضع حد لأطماع الدول الأوربية خاصة الإسبان في المنطقة لكنهم اصطدموا منذ البداية بالموقف المتشدد للمغاربة الذين تمكنوا من إيقاف مدهم، وظلت فكرة السيطرة على المغرب تراودهم حتى بعد وصول الأشراف العلويين إلى الحكم ، الذين تأكد معهم من جديد عجز الأتراك عن الوصول إلى المغرب رغم المحاولات العديدة التي بذلوها في هذا الإتجاه عن طريق التدخل في سياسته الداخلية أو إيواء المتمردين على السلطة مثلما فعل باي مسكرة حين استقبل اليزيد بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أثناء ثورته على والده وتوجهه إلى مكة، ثم تحريضهم لبعض المرابطين خاصة من زاوية أبي الجعد الذين أظهروا عصيانهم للسلطان، فقام بعد تأكده من الأمر بإضعاف هذه الزاوية، ونقل زعيمها أبا حامد العربي بن المعطي الشرقي إلى مراكش وأجبره على الإقامة هناك حيث اشتغل بالتدريس.

ونظرا لما عرف به السلطان سيدي محمد بن عبد الله من حلم وتسامح، ولما كان له من طموحات سياسية كبيرة، وحتى يضمن استمرار نجاح سياسته الداخلية التي كان لها ارتباط بنجاح علاقته بالدول الأجنبية المهددة بالأتراك العثمانيين الذين كانوا يشكلون قوة عسكرية كبيرة في البحر الأبيض المتوسط، ويضمن كذلك حياد ومسالمة أتراك الجزائر الذين كانوا يتربصون بالمغرب، فإنه كان يغض الطرف عن أعمالهم ويتدخل أحيانا لردعهم بسبب مواقفهم المتعنتة اتجاه المغرب، وبما كانوا يقومون به من مناكر وفساد، ومايرتكبونه من محرمات في حق عرب الجزائر الذين كانوا يأتونه متظلمين طالبين لحمايته. فكان يكاتبهم وينهاهم عن أعمالهم ويحضهم على العدل. لكنهم كانوا يأنفون من ذلك ويقابلون من يأتيهم بكتبه بالعقوبة الفادحة. فكان يكاتب في شأنهم السلطان العثماني الذي كان يرد على كتبه بالإعتذار عما بدر منهم في حقه.

ولما لاحظ السلطان استمرار أتراك الجزائر على ماهم فيه من عبث وفساد، بعث للسلطان العثماني بكتاب يتضمن التهديد وفيه يقول : "إن لم ترفع ضررهم على المسلمين فدعني وإياهم". فترك كتابه دويا في الديوان الذي بادر بالكتابة لداي الجزائر وباي تونس أن يتأدبوا مع السلطان وينفذوا مايكتب لهم عليه. ويفعلوا معه من الآدب مثل مايفعلون مع السلطان عبد الحميد، وكتبوا لسلطان المغرب يعلمونه بذلك ويطلبون إعراضه عن أهل الجزائر ويغض الظرف عن جهلهم وأفعالهم الذميمة، ولايقابلهم بمكروه. وحمل الكتاب السفير اسماعيل افندي الذي كتب عند رجوعه إلى اصطمبول تقريرا مفصلا رفعه للسلطان عبد الحميد يتضمن وصفه لبعض الأحداث التي وقعت أثناء إقامته في المغرب، وهي وصول وفد جزائري يتكون من عرب الجزائر يشكون ما انتابهم من ظلم من أهل الولايات وأنهم يبعثون للسلطان المغربي ويستغيثون به. ثم يضيف :

"إن الحكام لايتوفرون على مايملكه المولى محمد من جند وخزائن، وله من القوة والإقتدار ماليس لغيره، وإن باي تونس وباشا طرابلس ومايتبعهما من قبائل وعشائر تلك البلاد يضمرون الحب خفية للمولى محمد نكاية في عسكر الجزائر، لذا فإنه إن لم تسع الدولة العلية لرفع الظلم عن هؤلاء المغاربة مما التمسه المولى محمد فإن المولى محمد قد يزحف على الجزائر وينتهي الأمر".

ونلمس في هذا التقرير مايعبر عن الإنشقاق في العلاقة بين الباب العالي والأتراك خاصة في الجزائر، ولعل لهذا ارتباط بالوضعية التي أصبحت تعيشها الإمبراطورية العثمانية في بداية القرن الثامن عشر من انحطاط وماأصاب حكامها من ضعف تجلى

في عدة ميادين : سياسية واقتصادية واجتماعية، الشيء الذي جعل العديد من الولايات التي كانت خاضعة لنفوذهم ترغب في الإنفصال لأن سلطتهم لم تعد قادرة على ضمان الإستقرار اللازم في هذه الولايات، ويظهر ذلك في موقف الأتراك بليبيا وتونس والجزائر الذين عبروا عن رغبتهم في الانفصال بتحديهم للباب العالي في كثير من المواقف خاصة أثناء توقيع الإتفاقيات السلمية مع الدول الأوربية التي كانت تتم دون استشارة السلطان العثماني، ثم أثناء رفضهم أكثر من مرة للباشوات الذين كان يتم تعينهم من طرف الحكام الأتراك في اصطمبول، ورفضهم لكثير من القرارات الصادرة عن الديوان باصطمبول بل تراهم يقدمون أحيانا مساومات مقابل قبول هذه القرارات. ونلمس هذا الضعف أيضا في سياسة الأتراك اتجاه الإيالات العثمانية في كل من طرابلس وتونس والجزائر، من خلال الموقف الذي تعرضنا له سابقا والذي يتجلى في تقديم الأتراك من اصطمبول اعتذارهم للسلطان عن تصرفات أتراك الجزائر. ومن خلال تقديم السلطان العثماني لطلبه أثناء توقيعه لإتفاقية الصلح مع اسبانيا إلى سلطان المغرب لكي يسعى له في إقناع داي الجزائر عثمان باشا بالإنضمام إلى تلك الإتفاقية التي تقتضي سريان الصلح على سائر الولايات العثمانية : طرابلس، تونس والجزائر بعد تمرد داي الجزائر على تعليمات القسطنطنية، وقبول السلطان لهذا التشريف والتكليف الذي يخدم مصلحته بالأتراك من اصطمبول الذين كانوا يخشون احتلالا شاملا للجزائر من طرف اسبانيا.

وصدر عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله تصريح لأعضاء السلك القنصلي بطنجة سنة 1785 وفيه :

" ... إن أهل الجزائر إن فعلوا مع جنس الإصبنيول الصلح الذي أمرهم به السلطان العثماني نصره الله صلحا تاما كيف أمرهم فعلى بركات الله، وإن لم يفعلوا ما أمرهم به فإننا نوجه عشرة فراكيط من فراكيطنا الجهادية لباب مرسى الجزائر، وتمنع جميع أجناس النصارى من الدخول للجزائر، وكذلك الإصبنيول يوجهون عشرة من فراكيطهم، وهم يتكلمون مع أهل الجزائر، وأنا كلامي مع أجناس النصارى الذين يريدون الدخول للجزائر وغيرها من مراسي الجزائر".

وإذا كانت علاقة أتراك الجزائر بالسلطان المغربي قد بلغت حدا من التوتر نظرا للعوامل السابقة الذكر، فإن علاقته بالأتراك تونس كانت علاقة تطبعها المودة والتواصل إلى درجة أن أتراك الجزائر كانوا يشكون أحيانا في وجود تحالف بين المغرب وتونس ضد الجزائر، خصوصا ونحن نعلم أن الوضع بين الإيالات المذكورة لم يكن

مستقرا، وأن العلاقة بين الإيالات الثلاثة لم تكن على مستوى من التفاهم بسبب الخلافات التي كانت تنشب بينهم والتي كانت تؤدي أحيانا إلى اصطدامات.

وقد عبر الزياني في إحدى سفاراته إلى اصطمبول أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله عن الإرتياح الذي شعر به أثناء إقامته بتونس عندما أرغمته إحدي العواصف التي كسرت مركبه إلى اللجوء إلى إحدى الموانىء التونسية، فاستقبل من طرف حمودة باشا تونس الذي أكرم وفادته وقدم له المعونة اللازمة لسفره.

وطبعت علاقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأتراك ليبيا بالمودة والتعاون فقد تولى السلطان عرش المغرب، وتعود أسباب تلك المودة إلى ماخلفته تلك الزيارة التي قام بها الأمير سيدي محمد مع جدته الأميرة خناتة إلى القطر الليبي وهم في طريقهم إلى الحج وعمره لايتجاوز إذ ذاك تسع سنوات من انطباعات طيبة في نفسيته كان لها أثر على علاقته بأهل ليبيا خاصة أسرة القرمانلي الحاكمة التي خصصت للأمير وجدته استقبالاخاصا يليق بمقامهما، فكانت مواقفه تعبيرا عن رغبته في ربط صلات الود معهم بما كان يمدهم به من عطاءات ومساعدات وهدايا ثمينة خاصة لأمير طرابلس الذي كان يبعث له كل سنة هدية، ولم يتخلف عن تقديمها إلا في الفترات العصيبة عندما أشاع أحد سلاطين تركيا أن الأمر يتعلق بجزية يدفعها المغرب.

وبادله حكام طرابلس نفس الإحساس، فلم يترددوا أبدا في تلبية مطالبه وإسعافه بالمعونة عند الحاجة، وبلغ صيت هذه العلاقة إلى أقصى دول العالم لدرجة أن الولايات المتحدة طلبت منه التوسط بينها وبين ليبيا في النزاع الذي احتدم بينهما،ورفع له الكونجرس الأمريكي طلبا رسميا سنة 1789 ضمنه التماس الرئيسي الأمريكي جورج واشنطن للسلطان للتوسط بين البلدين، وجاء هنا الملتمس بعد فشل المفاوضات الطويلة بين البلدين، وكان رد السلطان تعبيرا عن رغبته في المساعي الحميدة التي بذلها مع ولاة طرابلس ووعدهم بالتدخل لصالح السلام. وقد رد الرئيس الأمريكي بكلمة شكر على تدخل السلطان لدى الأوساط الليبية. وكان لهذه الوساطة فضل كبير في تأخير الإصطدام بين الأسطول الليبي والأمريكي لمدة ثلاثة عشرة سنة.

وتتأكد العلائق السياسية بين البلدين بالمعاهدة التي أبرمها المغرب مع فرنسا سنة 1767 وكان من أهم بنودها عدم تعرض الأسطول الفرنسي لإيالة طرابلس. تم من خلال المساعدات التي كان يقدمها المغرب لطرابلس، منها شحنات القمح التي كان السلطان حريصا على وصولها في الأوقات المناسبة أثناء فترات الجفاف، وكان المفوض لتسلمها

السفير أحمد الخرجة الذي كلفه الباشا علي القرمانلي إلى جانب هذه المهمة بطلب المعونة العسكرية من السلطان لمواجهة الدول الأوربية التي كانت تهاجم سواحل طرابلس بمجرد أن شعرت بضعف باشا طرابلس.

ومن بين السفراء الليبيين الذين عرفهم البلاط المغربي أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، السفير الحاج عبد الرحمان أغا البديري الذي حل بالمغرب أثناء توسط السلطان من حل المشكل الليبي الأمريكي، وتوفي هذا السفير بالمغرب، وكلف السفير محمود باشا بإكمال مهمة السفارة.

وشكل مشكل افتداء الأسرى أحد الجوانب الأساسية في علاقة سيدي محمد بن عبد الله بالإيالات العثمانية في طرابلس وتونس والجزائر فقد اعتمد سيدي محمد بن عبد الله في سياسته الخارجية على ثلاث مسائل :

مسألة الجهاد وافتداء الأسرى، وتطوير تجارته مع الدول الأوربية.

عمل السلطان انطلاقا من تميزه كشريف، وغيرته كمسلم على تطبيق سياسة الجهاد التي تمثلت في محاصرته للعديد من المراكز المحتلة، وتحرير بعضها ونجده في هذا الصدد يكاتب الملك الإسباني كارلوس الثالث، قائلا :

"إن رعايانا وأتراك الجزائر لايسمحون بتواجد مسيحيين على سواحل بلاد المسلمين ابتداءا من سبتة إلى وهران، وإنهم يريدون استرجاع ممتلكاتهم، وليس في إمكاننا أن نرفض الإستجابة لرغبتهم، وقد أخذنا المسألة بعين الإعتبار، لذا سنحارب ضد الحامية المسيحية إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم".

وخصصت في عدد من الإتفاقيات الموقعة بين المغرب والدول الأوربية بنود لشكر الجهاد البحري وحماية المجاهدين، واهتمت إحدى الإتفاقيات الموقعة بين المغرب والجزائر والمتعلقة بحماية السفن التجارية بين البلدين الجزائري والمغربي بحماية القراصنة الجزائريين من طرف الحكومة المغربية، وجاء في أحد بنودها :

ان القراصنة الجزائريين إذا ماهاجموا إحدى السفن ولجأوا إلى إحدى الموانىء المغربية فإن الحماية المغربية تشملهم وكل مافي السفينة فهو لهم، لكن إذا حصل أن كان المأسورون الذين في السفينة ينتمون إلى إحدى الدول التي لها علاقة بالمغرب، فإن السلطان يتكلف بشرائهم ماداموا فوق التراب المغربي، وإذا رفض القرصان تسليمهم فإن السلطان يقوم بمبادلتهم بأسرى مسلمين.

كما اهتم السلطان أيضا بمشكل الأسرى المسلمين بالدول الأوربية، وبذل في هذا الجانب أموالا طائلة، وبعث سفارات خاصة ومتعددة للدول الأوربية من أجل هذا الغرض، وتضمنت اتفاقياته مع الدول الأوربية بنودا خاصة بمشكل الأسرى، ووعد السلطان القناصل الأوربيين بالمغرب، بأن يكون من نصيب كل مسيحي أفتدى له أسرى مسلمين تصدير كمية من القمح من ميناء الصويرة دون أداء واجب التصدير، وجعل 200 قنطار لكل رجل و 300 لكل امرأة.

وزاد من حمية السلطان الدينية توصله بشكاوي من هؤلاء الأسرى خاصة المتواجدين منهم بإسبانيا يحكون له ماهم فيه من الشدة والضيق، فكاتب في شأنهم الملك الإسباني كارلوس الثالث، بقوله :

"إننا في ديننا لايسعنا إهمال الأسارى وإبقاؤهم في قيد الأسر، ولاحجة للتغافل عنهم، وفيما نظن أن في دينكم لايسوغ لكم ترك أساراكم في الأسر مع الإمكان والإستطاعة ووجود ما يفتدون به من أسارى المسلمين واتساع البضاعة، فما للتغافل من الجهتين وجه يعتبر، ولا أمر ينتظر". وأوصاه بهم خيرا مثلما يفعل هو مع الأسرى المسيحيين من حسن معاملتهم، مع الإعتناء بمرضاهم وإطلاق سراح الشيوخ منهم والنساء والأطفال بدون فدية.

وعلى إثر وصول مبعوث السلطان أطلق الملك الإسباني الأسرى المغاربة واحتفظ بأسرى الجزائر حتي يتم بهم فداء الأسرى الإسبان. وعامله السلطان بالمثل فأطلق سراح الأسرى الإسبان بالمغرب وأشار لما ينبغي من عدم التفرقة بين أسارى المغرب وأسارى غيره من الدول الإسلامية، وفي هذا الشأن بعث سنة 1765 وفدا يترأسه السفير أحمد الغزال ليتفقد أحوال من بقي منهم بالأسر ويمدهم بالمساعدة التي دأب على تقديمها لهم كل سنة.

وفي عام 1768 كاتب الملك الإسباني السلطان المغربي يعلمه أنه لم يبق ببلادهم أحد من أهل المغرب، ومابقي عندهم إلا أسرى أهل الجزائر، وعند أهل الجزائر أسرى إسبان، ويطلب منه أن يتوسط لهم في فداء أسراهم من الجزائر ويدفعون لأهل الجزائر أسراهم. وتكون هذه المناداة على يده. فلم يسع السلطان إلا إجابتهم لماطلبوا ابتغاء مرضاة الله. وكاتب في شأنهم أهل الجزائر فامتنعوا، ثم كاتبهم مرة أخرى وخوفهم عقاب الله ومايحصل لهم من ثواب لفكاك أسرى المسلمين، فامتثلوا لأمره، وكتبوا له أن يوجه من جانبه من يشرف على عملية الفداء. وكان عدد الأسرى ألف وستمائة أسير لكل جانب، وحضر هذه العملية السفير أحمد الغزال ورفيقاه عمارة بن موسى ومحمد بن ناصر الوديي.

ومن أعماله في هذا الجانب أيضا تدخله لفداء أميرة من بيت ملك الإسبان كان قد تم أسرها من طرف أهل الجزائر وكاتبهم الملك الإسباني في شأنها ووعدهم بأموال طائلة، لكنهم امتنعوا، فكاتب الملك الإسباني في شأنها ملك المغرب الذي تدخل لدى السلطان العثماني، فبعث هذا الأخير بكتاب إلى أهل الجزائر يوبخهم ويعاتبهم على امتناعهم وردهم لشفاعة السلطان المغربي ويذكرهم بما يقوم به السلطان من أجل تسريح أسارى الأتراك، فامتثلوا لأمره وأطلقوا سراحها.

وعمل السلطان أيضا على فكاك من بقي من أسرى المسلمين في الدول الأروبية مثل فرنسا، ومالطة، ونابل، ومعظمهم من طرابلس وتونس وتركيا، وبذل السلطان أموالا كثيرة أعطي بعضها كفداء وصرف البعض الآخر كصلات للمأسورين، وهو أمر سار عليه طيلة أيام حكمه.

وقد كان يتم استقبال هؤلاء الأسرى في المغرب ومنه يوجهون إلى الجزائر ومنها لباقي المناطق، ويبلغ عدد الأسرى الذين تم إطلاق سراحهم على يد السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1200 حوالي ثمان وأربعين ألف أسير.

وممن اشتهر من السفراء المغاربة في هذا الميدان :

- الكاتب السفير محمد بن عثمان المكناسي.
- الكاتب السفير أحمد بن المهدي الغزال.
- الكاتب محمد عبد الهادي الحافي.
- السفير الطاهر فنيش.

وممن ألف في هذا الجانب السفير الكاتب محمد بن عثمان المكناسي الذي خصص مؤلفين للحديث عن الرحلات التي قام إلى كل من اسبانيا ومالطة ونابل لافتداء الأسرى المسلمين. هما :

- كتاب الإكسير في فكاك الأسير.
- كتاب البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر.
- والكاتب السفير أحمد بن المهدي الغزال بكتابه نتيجة الإجتهاد.

الجانب الثقافي :

رغم الصعوبات التي كانت تعيشها منطقة شمال افريقيا (طرابلس، تونس والجزائر) في هذه الفترة، فإن التواصل ظل مستمرا بين أقطار المغرب العربي، ولعب ركب الحجاج المغاربة دورا كبيرا في ربط هذا التواصل عن طريق الإتصال المباشر إلذي كان يتم بين الحجاج وسكان المناطق التي كان يمر بها ركب الحاج.

وساهم العلماء والرحالة في ربط هذا التواصل بما كانوا يدونون أثناء رحلاتهم من معلومات وبتنظيم الحلقات العلمية التي كان يتم فيها الأخذ والعطاء بين العلماء وتبادل الإجازات.

ومن بين الرحلات التي أفادتنا في هذا الجانب رحلتان لابن عبد السلام الناصري، قام بهما صحبة ركب الحاج المغربي الأولى سنة 1781 ـ 1783، والثانية سنة 1797 دون فيهما عددا من المعلومات : ثقافية واجتماعية وسياسية حول المناطق التي مر بها في رحلته والعلماء الذين التقى بهم. وكانت هذه الرحلات أيضا فرصة يتم فيها تبادل المواد التجارية بين سكان المناطق التي يمر بها ركب الحاج والحجاج.

ولعب السفراء أيضا دورا في هذا التواصل بما كان لهم من اتصال مباشر مع السكان وماكانوا يدونون من معلومات أثناء رحلاتهم ومايحملون معهم من مؤلفات.

وفي المجال العسكري استفاد المغرب من جلب المهرة من صانعي الأساطيل البحرية من الأتراك خاصة من بلدان المغرب العربي واستفاد من خبرتهم في مجال صناعة المراكب وتعليم رماية المدافع ببعض المدن الكبرى.

خاتمة :

رغم الجهود التي بذلها السلطان سيدي محمد بن عبد الله لربط صلته بالأتراك في كل من طرابلس وتونس والجزائر فإنه ظل في تعامله معهم حذرا، وظل يتملص من السماح لهم بإقامة سفارة عثمانية أو قنصلية معتمدة بالمغرب كما هو شأنه مع الدول الأوربية، لأنه كان يدرك أن الأتراك خاصة أتراك الجزائر لم يكونوا جادين أبدا في علاقتهم بالمغرب بما كانوا يبيتون ضده من نوايا سيئة.

المصادر والمراجع :

الترجمانة الكبرى : أبي القاسم الزياني.

الترجمان المعرب : أبي القاسم الزياني.

البستان الظريف : أبي القاسم الزياني.

الاستقصا : الناصري ج 8.

تاريخ الجزائر في العصر الحديث : مبارك بن محمد الميلي.

رحلة الإسحاقي : محمد الشرقي الإسحاقي مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

التاريخ الدبلوماسي للعلاقات المغربية الليبية من القرن 16 إلى القرن 19 : الدهماني سالم الدهماني (رسالة جامعية)

رحلة الناصري : ابن عبد السلام الناصري، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط.

العرب والعثمانيون : رافق عبد الكريم.

الإكسير في فكاك الأسر : محمد بن عثمان المكناسي. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

البدر المسافر لهداية المسافر : محمد بن عثمان المكناسي مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم : عبد الهادي التازي.

الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية، عبد الهادي التازي.

اتحاف أعلام الناس : عبد الرحمان بن زيدان.

- L'Etablissement des dynasties des cherifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la regence d'Alger 1509 - 1830. Auguste coeur

- les accords internationaux du sultan sidi Mohamed ben Abdellah (1757 - 1790) , Jacque caille.

فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول

عبد الرحيم بنحادة
كلية الآداب - فاس

عندما وجهت إلي الدعوة قصد المشاركة في هذا اللقاء العلمي حول سيدي محمد بن عبد الله، كنت قد انهيت ترجمة فصلة من كتاب جودت باشا حول سفارة مغربية إلى استانبول خلال القرن الثامن عشر (وعدت بنشرها في مقالة صادرة في مجلة العلاقات العربية التركية ع 90/5). ويتعلق الأمر بمحاضر الجلسات التي عقدها الباب العالي مع السفير المغربي الطاهر بنعبد السلام السلاوي أول سفير مغربي يخصص له الباد شاه العثماني استقبالا في بلاطه.

وقد كانت لي نية تقديم الترجمة غير أنني أثرت الحديث في موضوع آخر يتعلق ب "فترة سيدي محمد بن عبد الله من خلال الوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول".

يعتبر الأرشيف العثماني أول أرشيف منظم في العالم الإسلامي، ويتميز هذا الأرشيف ليس فقط بالعدد الضخم لوثائقه (التي تقدر بحوالي 100 مليون وثيقة) وهو ماكان مرآة صادقة لإمبراطورية شامخة امتدت ولمدة قرنين ونصف من أبواب فينا إلى اليمن ومن الجزائر إلى العراق - ولكن يتميز أيضا بالتنوع .

* تنوع كيفي :

فمن الرسائل السلطانية المحفوظة في دفاتر نامة هما يون ودفاتر الخارجية : Duvelriecnebiy defterleri

والتي تمكن من ملأ ثغرات التاريخ الديبلوماسي لعدد من البلدان التي كانت تربطها علاقات مع الدولة العثمانية [1]، إلى الأحكام التي وجهها الديوان العثماني إلى ولاته

(1)اعتمد عدد كبير من الباحثين على وثائق الأرشيف العثماني من أجل دراسة علاقات الدولة العثمانية مع ما عاصرها من الدول، ينظر :

- kütükoglu (Bakir) Osmanli-IRAN munesebetleri 1578-1590 Istanbul 1959 = =

في مختلف الولايات والتي تعكس الدقة في التنظيم الإداري وتمكن من معرفة التطور في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، إلى السجلات الإحصائية التي تعتبر ذات أهمية كبيرة في كتابة تاريخ كمي للبلدان الخاضعة للدولة العثمانية إذ تحتوي دفاتر طابو معلومات حول الديمغرافية والزراعة تم استغلالها بشكل مكثف من طرف ساحلي أوغلو و Omer Barkan Lutifi وآخرون [2].

* تنوع جغرافي :

"ليس لأرشيف الوزراء في استانبول جنسية" إنه الدرس الذي يمكن أن يستخلصه المشتغل في أرشيف الوزراء.

بيد أن هذا التنوع الجغرافي ليس متكافئا ففيما حظيت مصر[3] والشام وحلب بنصيب وافر من وثائق العالم العربي، لم تحظ ولايات شمال افريقيا إلا بعدد قليل من هذا الإرث الضخم، ولعل البعد الجغرافي قد لعب دوره في خفوت اشعاع الدولة العثمانية في الجهة العربية من الإمبراطورية.

بيد أن مايثير الإنتباه من خلال تفحص الوثائق المتعلقة بالمغرب كثرة الوثائق التي تعود إلى فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، حيث تردد اسم حاكم فاس[4]،

== - Kurat ( ) Türk ingiliz munesebetlerini basliginci ve gelismesi. Ankara 1954

- HITZEL-BENHADDA. Les relations Franco-ottomanes à travers les NAME -i-HUMAYUN du Basbakanlik arsivi. in ANATOLIA MODERNA (Printemps : 1992).

ومن الباحثين من درس أهمية الأرشيف العثماني كمصدر معلومات حول أوروبا. ينظر.

Lewis (Bernard). The Ottoman archives : A source for Europeen History. In supplement to "Research Bibliogrphy". Middle east institute Washington, 1956. pp. 17-25.

(2) ينظر على سبيل المثال :

ساحلي أوغلو (خليل). نسبة عدد سكان المدن إلى مجموع عدد السكان في بعض الولايات العربة تحت الحكم العثماني. المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية. ع. 1. يناير 1990. ص 131 ـ 163.

(3) ويعود ذلك إلى خصوصية العلاقات التي ربطت مصر بالباب العالي وهو مايدفع الديوان العثماني إلى تخصيص دفاتر لهذه الولاية : "مصر مهمة في 15 دفترا تغطي الفترة الممتدة من 1119/1703 إلى 1303/1914

(4) حول هذه الإستعمالات ينظر.

Lewis (Bernard), le langage politique de l'Islam. Traduit de l'anglais par Odette Guitard. Gallimard 1989.

BENHADDA (A) . Le Maroc et la sublime Porte : Quelques reflexions sur les archives du Basbakanlik.in studies on Turkish - ARAB Relations (4) 1989. pp. 28 - 47

(وهو اللقب الذي كان يعطيه العثمانيون للسلطان المغربي) مقارنة بمن سبقه أو جاء بعده من السلاطين المغاربة كما يبين ذلك الجدول التالي :

- الدفاتر المهمة.	7	MD
- نامة همايون.	35	NHD
- الخط الهمايون.	24	HH
- جودت خارجية.	67	CH
- بحرية.	2	CE
- عسكرية.	3	CA
- علي أميري.	34	AE

وهكذا فعدد الوثائق المتعلقة بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله في هذه التصانيف 172 وثيقة، ويمكن أن تكشف أعمال التصنيف الجارية في أرشيف رئاسة الوزراء عن وثائق أخرى.

فما هي المواضيع التي يطرقها هذا الكم من الوثائق :

1 ـ افتداء الأسرى :

فقد افتدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله عددا كبيرا من الأسرى من مالطة وقد وجه السلطان هؤلاء الأسرى أي نحو 536 أسيرا إلى استانبول، وكان هؤلاء الأسرى موضوع عدد من وثائق أرشيف رئاسة الوزراء.

هكذا تذكر رسالة موجهة من السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى السلطان عبد الحميد طريقة افتداء، حيث تذكر إرسال السفير محمد بن عثمان قصد افتداء 729 أسير مقابل 271.000 ريال، وتذكر أنه عندما وصلت الأموال المتفق عليها إلى مالطة نقض المالطيون الإتفاق حيث طمعوا في الزيادة (NHD ،9.175).

وتذكر وثيقة أخرى أن المغرب قد أرسل إلى الباب العالي 260.000 ريال لإفتداء أساري مالطة، ففي رسالة بعث بها عبد الحميد إلى سيدي محمد بن عبد الله بهذا الشأن يقول : "أما إثنا مائة ألف ريال وستون ألفا (كذا) أرسلتم لإطلاق الأسارا (كذا) من مالطة وصلت إلينا وهم قوم عنود وطائفة لاتفهم المقصود، ونحن الآن نرتب بعض المقدمات اللائقة بانتاج تلك المرادات الخيرية والمقاصد البهية، فإذا ظهر التعسر والإمتناع من حصولها نرسلها لكم ..." (NHD ،9 ،173 ـ 174).

على أن وثائق الأرشيف العثماني لاتقف عند حدود ذكر خبر وصول هؤلاء الأسرى بل تمكن من معرفة مصيرهم.

فقد قام السلطان العثماني بمنح هؤلاء الأسرى المسلمين أموالا، ففي تقرير رفعه القائمقام إلى الصدر الأعظم يقترح إعطاءهم منحا (بقشيشا) حتى لايقولون أن الدولة العلية لم تكرمهم (Ali Emiri - 432) [5].

وتذكر إحدى وثائق الخط الهمايوني أن هؤلاء الأسرى وصلوا على متن سفينتين فرنسيتين، اسبانيتين. (H.H .8274).

وكانت الدولة العثمانية تنوي تجنيد هؤلاء الأسرى في الجيش العثماني وإشراكهم في الحروب، خاصة وأنها كانت مقبلة على خوض حرب ضد الروس، ورأت ضرورة استشارتهم بيد أن هؤلاء الأسرى رفضوا الإنضمام إلى الجيش العثماني ويرد في أحد التقارير العثمانية أن هذا الرفض إنما يعود إلى افتقادهم الحماس الذي يتمتع به الجند عادة، وهو أمر دفع الباب العالي إلى التساؤل عن الأسباب التي دفعت "حاكم فاس" إلى ارسالهم : "أيريد أن يمد الجيش بهم ... وإذا كان ذلك من أجل التواب كان عليه أن يردهم إلى بلادهم ... إن خادمكم قد أصابته الحيرة والدهشة من هذا الوضع...".

ولما رفض هؤلاء الأسرى الإنضمام إلى الإنكشارية فقد حاولت الدولة العثمانية الإستفادة منهم في مجالات أخرى هكذا تم ارسالهم إلى المعسكرات للعمل في صناعة السفن (ونشير هنا إلى أن فرنسا بدأت منذ ذلك الحين الإشراف على عملية صناعة السفن في قاسم باشا في استانبول). خاصة وأن جزءا كبيرا منهم كان على دراية واسعة بالملاحة البحرية ففي تقرير آخر يذكر أنه صدر أمر لإرسال ثلاثمائة منهم إلى معسكرات وتم وضعهم تحت تصرف قواد السفن.

2 - السفارات :

سمحت لنا وثائق أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول (خاصة تصنيف جودت) بتقديم لائحة بالسفراء [6] الذين توافدوا على العاصمة العثمانية خلال هذه الفترة ومكنتنا من

(5) تشير وثيقة أخرى من تصنيف الخط الهمايوني إلى المقدار الذي حصل عليه كل واحد من هؤلاء الأسرى : "... فاس حاكمي طرفندن قايد اسيردن تخليص أولنوب ... بهر نفره الليشير قروش بخشيش ..."

B.A. Hatti. i, humayun. 8792.

(6) حول هذه السفارات ينظر :

El MOUDDEN (A). Les ambassadeurs marocains à Istambul au 18 ème siécle. in studies Turkish-ARAB Relations (4). 1989. pp 93-96.

معرفة تاريخ وصولهم ومدة إقامتهم ومكانها والمصاريف اليومية ومراسيم استقبال الحكومة العثمانية لهم.

وإذا كانت المصادر المغربية تمكن من إعطاء نظرة عن هولاء السفراء والمهام التي كلفوا من أجل إنجازها، فإنها لاتسعفنا في معرفة وضعيتهم بإستانبول خاصة وأن هؤلاء لم يخلفوا تقارير حول سفاراتهم باستثناء أبو القاسم الزياني وابن عثمان المكناسي. ومن ثمة أهمية وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية [7].

ومن هذه الوثائق تقرير من رئيس الكتاب إلى الصدر الأعظم يتحدث فيه عن مراسم استقبال لسفارة محمد بن عبد الله (HH .8838) على عهد سليم الثالث :

تحرك سفير مولاي محمد من منزله في الساعة الرابعة ... وعندما وصل إلى الباب الأصفي ... دخل غرفة الضيوف لجلسة خفيفة وبعدها تم استقباله من طرف الصدر الأعظم ثم البس بعد ذلك الخلعة ووضع على كتفه شال هندي كما البست الخلعة لعدد محدد من خدامه".

على أنه لم تجد مراسيم الإستقبال بحضور السلطان فالهدايا التي كانت تبعث إلى السلاطين العثمانيين كانت تقدم إلى الصدر الأعظم الذي كان يخبر السلطان بتسلمها.

وكان مكان إقامة السفراء المغاربة يطرح مشاكل بالنسبة للإدارة العثمانية فقد اشتكى أحد السفراء المغاربة (وهو من أقرباء حاكم فاس) من ضيق قاعة الإستقبال فصدر الأمر الهمايوني بنقله إلى قصر اسما سلطان الذي كان مخصصا للسفراء المغاربة. (H.H .7857).

وبالإضافة إلى مقر الاقامة تمكن وثائق الأرشيف العثماني من معرفة وسائل النقل التي استعملها السفراء ففي لوائح / دفاتر مصاريف هؤلاء السفراء نجد أن مكي بركاش الذي وصل إلى استانبول في بداية سنة 1790 غادرها يوم 23 يونيوه من نفس

(7) نشير هنا إلى الأهمية التي تكتسيها بعض الصفحات التي خصصها المؤرخ التركي جودت باشا لسفارة الطاهر بن عبد السلام السلاوي.

ينظر، جودت، تاريخ جودت ج II . ص 52 ومايليها.

السنة على متن سفينة بندقية كلفت الخزينة العثمانية 4500 قرش (Cevdet 3940 Hariciye) في حين استعمل عبد الكريم العوني وعباس أفندي سفنا فرنسية.

وقد كان السفراء المغاربة يستفيدون بالإضافة إلى تحمل تكاليف إقامتهم من طرف الإدارة العثمانية (كانت تكاليف إقامة الزياني مثلا من 15 ربيع الأول إلى 15 جمادى الأول 116 قروش (انظر 5835، CN)[7] من الهدايا السلطانية عند مغادرتهم، وتشير إحدى وثائق الخط الهمايوني أن أحد السفراء مع اتباعه تقاضى 1800 قرش عند وصوله وبصرف النظر عن إعطاء هدايا لهذا السفير عند عودته بيد أن السفير المذكور أرسل في طلب مصروف الطريق Yol Parasl إلى المغرب.

3 ـ الصدقات والهدايا المبعوثة إلى شريف مكة :

يأخذ هذا الموضوع حيزا هاما من الوثائق المتعلقة بالمغرب في أرشيف رئاسة الوزراء، ذلك أن هذه الصدقات كانت ترسل إلى مكة عن طريق الباب العالي. ولم تكن هذه الهدايا تقتصر على الأموال فحسب بل تتعداها إلى التهاليل والمصاحف وكتب دلائل الخيرات المرصعة باللآلئ والذهب.

وقد نصصت الوثائق على المستفدين من هذه الصدقات فليس هناك أي تمييز فيما يخص توزيع هذه الهدايا إذ توزع على الجميع دون استثناء (سواء كانوا رافضة أو خوارج أو فرق ضالة) اللهم في طريقة التوزيع إذ لايحصل الرافضة والخوارج إلا على سهم واحد من أصل 21 سهما. كما تحدد إحدى هذه الوثائق عدد الذين يشتغلون في المسجد النبوي المستفيدين من الهدية وهم على الشكل التالي : 10 للمصحف الشريف 10 لدلائل الخيرات، 10 لقراءة الحزب و10 لتلاوة الهمزية والبردة، وقد كان يدفع لكل واحد من هؤلاء 1200 دينار سنويا و2.5 دينار لكل واحد شهريا. (200 ـ 199، 9 NHD).

وتعرض هذه الوثائق إلى نهب القوافل التي كانت تحمل هذه الهدايا، فقد اعترض أعراب مصر القافلة التي كانت تحمل الهدايا للشريف سرور ـ شريف مكة ـ ونهبوا وسطوا على 6000 مثقال.

---

(7) انظر نص الوثيقة منشورا ومترجما إلى الفرنسية.

BEN HADDA (4). Le Maroc et la sublime Porte, in studies on turkish. ARAB Relations (5) 1990 pp. 1-12.

أما فيما يتعلق بمكانة هذه الهدايا والصدقات في العلاقات المغربية ـ العثمانية. فقد تبادل الطرفان حولها رسائل خاصة عندما تعلق الأمر بتحويل سبائك ذهبية إلى "زر محبوب"، أو عندما اقترح السلطان المغربي سيدي محمد تلاوتها.

فتذكر وثيقة من وثائق الخط الهمايوني أن سفير سيدي محمد بن عبد الله طلب من الدولة تحويل السبائك التي أهديت إلى شرفاء مكة والمدينة إلى زر محبوب وقد عرض الصدر الأعظم الأمر على الخليفة العثماني الذي أمر بإحالة القضية إلى الدفتر دار للبث فيه مع ناظر الضربخانة، وقد رؤى أن هذه السبائك لايمكن أن تحول إلى "زر محبوب" وأنه من المناسب إعادتها إلى المغرب كي ترسل إليه بيد أن السلطان رفض هذا الإقتراح رفضا باتا [8].

أما الأمر الثاني فهو أن سفير سيدي محمد بن عبد الله، طاهر بن عبد السلام السلاوي طلب من الديوان العثماني نزع مجوهرات من المصاحف ـ التي أرسلت إلى المسجد النبوي قصد تلاوتها لما علم أنها لاتستعمل ـ وبيعها لفائدة الفقراء المنحدرين من عائلة الحسن والحسين الساكنين بمكة والمدينة وتستعمل المصاحف في التلاوة، بيد أن الديوان العثماني رفض المطلب المغربي مرة أخرى بدعوى أنه سيكون من سوء الأدب إخراجها من الخزينة النبوية خاصة وأنها قدمت بنية دينية [9].

وتخبر وثيقة أخرى بوصول خمسة الاف ذهب أرسلت بصحبة أمين الصرة الهمايونية (الوثيقة عبارة عن رسالة من عبد الحميد إلى سيدي محمد بن عبد الله) تحمل تاريخ أواخر جمادى الأولى 1204 / فبراير (1790)، ويظهر أن الدولة العثمانية كانت حريصة على تفادي الشكوك حول مصير هذه الصدقات [10]، ومن ثمة طلبت مبعوثا مغربيا (على الشيباني) (8 ـ 12، 187، MD) لإصطحاب أمين الصرة كي يشرفا معا على توزيع الذهب على أصحابه، بيد أن بعض الوثائق تظهر استياء القائمقام حيث اعتبر ذلك تدخلا في شؤون الدولة وأعطى لذلك الأسباب التالية :

(8) ينظر الملحق رقم 2 من هذا البحث.

(9) جودت باشا، تاريخ جودت ج 2. ص 55.

(10) فقد تأخر العثمانيون في كثير من الأحيان في إرسال هذه الهدايا وهو مادفع السلطان سيدي محمد بن عبد الله ذات مرة إلى الإستفسار عنها فردت إحدى الرسائل الهمايونية : "... لكن نعلم جنابكم المهاب أن أمين صرتنا مصالحاته (كذا) كثيرة ومأموريتاته (كذا) وفيرة، ولاينبغي مكثه في طيبة الطيبة وإقامته في مكة المشرفة إلا المقدار المعلوم وهو أيام قلائل حتى أنه لايمكن أن يسلم ماعيناه ... ولما كانت السبائك المرقومة تقسيمها على أربابها بموجب دفتركم وعلى مقتضى مرادكم يحتاج إلى مدة وفيرة لاتسعها مدة إقامة أمين صرتنا هنالك ... فبالضرورة ابقيناها هذه السنة عنده ووضعناها في خزانتنا ممهورة محفوظة، وإن شاء الله تعالى في العام القابل (كذا) أنتم ترسلون خادما إلى أطرافنا وتأمروه بتوزيع السبائك المرقومة على أربابها...

"انظر B.A. MD 187: 25, 15.

أولا : بعد المسافة بين محل الحاكم المشار إليه والحرمين الشريفين.

ثانيا : إذا اقتضى الموضوع إرساله هو فلن يوزع على أصحابه الذين يستحقونه.

ثالثا : إن المتوفي شريف سرور وابنه والشريف غالب اتلفوا العطايا الوافرة التي تواصلوا بها.

ولذلك يقترح القائمقام توزيع العطايا وتقسيمها بمعرفة أمين الصرة تحت رعاية الدولة العلية ودون أن يتدخل أحد في أمر العطايا التي أرسلها سيدي محمد بن عبد الله.

4 ـ المساعدات المغربية للعثمانيين في حروبهم مع الروس.

في رسالة أوردها ابن الحاج في الدر المنتخب أن "ثلاثة أجناس من أجناس النصارى دمرهم الله اتفقوا على محاربة المسلمين .. وهانحن متوجهين إلى الله تعالى بالدعاء لكم في أهم الأوقات ومواطن الإجابات فنأمركم أن تكونوا أنتم كذلك مجندين بالدعوات معلنين لها في المساجد ..." [(11)].

وقد حرص الطرفان سيدي محمد بن عبد الله من جهة والسلاطين العثمانيون من جهة أخرى على تبادل المشورة ففي جواب على رسالة للسلطان المغربي يؤكد عبد الحميد الأول انشراحه لإقتراح حاكم فاس المتعلق بتبادل الإعانة "بالنقود والعدة والعتاد وسائر مهمات الجهاد" [(12)]، وأكد على ضرورة الأخبار وإشعار الطرف الآخر بالجديد، تضرب الرسالة مثلا لذلك أنه حين انعقد (كذا) سفيركم المحترم لأن يكون معلومكم المفخم". (NHD 9 ،126).

على أن هذه المساندة قد تعدت الدعم المعنوي وتبادل المشورة لتترجم إلى دعم مادي تصوره الوثائق التي تم الإطلاع عليها حتى الآن في :

---

(11) ابن الحاج. الدر المنتخب المستحسن في مآثر أمير المومنين مولانا الحسن، مخطوط الخزانة الحسنية.

(12) تظهر النصوص المغربية أن هذه المساعدات كانت متبادلة فعلا، فهذا الناصري يتحدث عن وصول مؤطرين عسكريين اتراك إلى المغرب مع ذخائر حربية. يقول الناصري : " ... ثم لما دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة وألف قدم الحاج عبد الكريم من عند السلطان المذكور ومعه هدية عظيمة أعظم من الأولى وهي مركب موسوق بالمدافع والمهاريس النحاسية وإقامتها وإقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف وقلوع وقصن وحبال وبراميل وغير ذلك من الات البحر. وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم معرفة بأفراغ المدافع والمهاريس والكور والبنب وبصناعة المراكب القرصانية وفيهم معلم مجيد في الرمي بالمهراس إلى الغاية...

الناصري (أحمد بن خالد). الاستقصا ج 8. ص 31 ـ 32.

الدعم المالي : فقد طلبت الدولة العثمانية من المغرب استقراضها وذلك حتى تتمكن من إعداد العدة لخوض حرب مع روسيا، وقد وجهت دعوة الاستقراض عبر السفير المغربي إلى استانبول (الطاهر بن عبد السلام السلاوي 1189)، وقد استجاب المغرب (سيدي محمد بن عبد الله) لهذه الدعوة.

وتذكر وثيقة يعود تاريخها إلى 9 رمضان 17/1199 يوليوز 1785 وصول 300.000 ريال على متن سفينة فرنسية، وتؤكد الوثيقة / التقرير أنها أدخلت إلى الضربخانة L'hotel de monnie لتحويلها وتذكر أن 11 ريال بعد ادايتها وعيارها تساوي 98 (HH 9077).

وتجددت الدعوة إلى الإستقراض سنة 1203 [13].

الدعم العسكري : وتمثل في البارود وملح البارود (باروت وكوهر جيله) الذي بدأ المغرب يصدرها إلى استانبول.

ففي سنة 1780 وصلت 1000 قنطار من البارود وبعد خمس سنوات منها وصلت 2390 قنطار من البارود و1145،5 قنطار من ملح البارود [14]، وفي سنة 1787 وصلت إلى استانبول حوالي 1000 قنطار من النحاس. وفي سنة 1197 / 1783 تتحدث وثيقة من الدفاتر المهمة عن إرسال المغرب لثمان سفن من ملح البارود وسفينتين من البارود الأسود (272، 767، 181، PI).

وتبين الوثائق العثمانية المشاكل التي كانت تعترض تصدير هذه الموارد وتتمثل في :

1 ـ مشكلة النقل :

فقد أكد السفير المغربي الطاهر بن عبد السلام السلاوي للمسؤولين الأتراك أنه بإمكان المغرب إرسال كميات كبيرة من البارود وملح البارود لكن شريطة إخبار اسبانيا لكي "تضع رهن اشارتنا سفينتين لنقل هذه الدخائر. (جودت باشا. ج 2. ص 53).

---

(13) نشر عبد الرحمن شرف ضمن وثائق تتعلق بقروض الدولة العثمانية وثيقة تتضمن الطلب العثماني من المغرب، بيد أن هذه الوثيقة لاتحدد قيمة هذا القرض على عكس الوثائق الأخرى.

ينظر، عبد الرحمن شرف. أجانبدن ايلك استقراض تشبتمزة عائد برقاج وثيقه. تاريخ عثماني انجمنى مجموعه سي (5) 1390 ص. ص. 321 ـ 337.

(14) تذكر إحدى الوثائق ثمن القنطار الواحد من ملح البارود وهو 1100 قرش.

انظر Cevdet Asken 29162

2 ـ مشكلة الأمن / القرصنة :

وتتجلى في الحكم الصادر عن الديوان الهمايوني إلى ولاته على تونس وطرابلس الغرب وجزائر الغرب بعدم تعرض القراصنة للسفن الثمانية التي كانت تنقل هذه الذخائر[16].

وبالإضافة إلى هذه الذخائر تبين الوثائق العثمانية أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله بعث بأربع سفن حربية (چنك كمى سى) إلى الباب العالي. (C. Boh- 10131 riye)[17].

على أن الدولة العثمانية لم تكتف بهذه المساعدات بل طالبت من المغرب مساعدة استراتيجية إذ يقول عبد الحميد في رسالة موجهة إلى حاكم فاس سيدي محمد :

" ... وقبل عشرين سنة حين فتحنا باب الجهاد على طائفة المسقو الأوغاد، مرت مراكبهم من بغاز سبتة الواقع ناحيتكم والموجود في جهتكم فحصل بذلك مزيد من الضرر لعامة البشر ... فالمأمول من همتكم العالية وغيرتكم السامية منع ذلك حسب الإمكان" وتواصل الرسالة "نعم قد لايحتاج المسقو إلى إدخال مراكبه بغاز سبتة لاستغنائهم عن ذلك بجمع المراكب في جزيرة القريم التي استولوا عليها بسبب اختلاف التتار، ولايخفى أن البحر الأسود طريق موصل إلى السلطنة وسائر بلاد الإسلام وهو أسهل بالقياس لبغاز سبتة غير أن الإحتياط ألزم." (NHD ،9 ،192 .193 .) (Recep 1201 / Fev 1787).

---

(16) يؤكد الحكم على ضرورة حسن معاملة السفن الإسبانية ومساعدتها في ذهابها وإيابها ويتوعد كل من تعرض إليها. يقول الحكم : "قورسا نلرينه نصارى ايدرسه زنهار وزنهاز تعرض ايتد رحبوب قورسا نلرينه مصادف اولورايسه دوستلق معاملة سى اظهار امورلرينه دوستانه اعانت ايدرك وكيلشده قطعا ضرر وتعرض قصدنه اولميوب..."

ينظر : MD 181 : 767 -272.Sevvel 1197/Aout 1783 :

(17) ينظر النص منشورا عند

BEN HADDA (A) (1990) art-cit.p. 10

ملحق رقم 1. Cevdet Hariciye 1273.

مسودة رسالة من السلطان العثماني جوابا على رسائل حاكم المغرب :

طرف حضرت جهانبا نبدن فاس حاكمي نباهلتو مولا محمد بن عبد الله جنابلرى طرفندن كلان نامه لرينه جواب أولمق أوزره عربي العبارة يازيله جق نامه همايونك مسودة سيدر : في اواخر سنة 203.

حمدا لمن هو للحمد ولي، وشكرا لمن هو بالشكر حري، الذي سطع من مسكاة زجاجه كلامه البهي السني، إن الله وملائكته يصلون على النبي فإذا وإن يستضيء العالمون بذلك النور تعظيما له وتكريما، فقال أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما، فصل وسلم وشرف وكرم وتفضل وانعم على هذا النبي الكريم والرسول العظيم الذي تمسك بأهذاب بحر البلاغة والإيجاز واستوثق دونه بلغاء العرب بعرى الإعجاز وعلى آله وصحبه وجنده وحزبه أولياء عهده والخلفاء من بعده ماجرد صارم البرق في عند الظلام وضحكت ثغور الأكمام من بكاء العمام.

وبعد فإن ماأحلى مانطق به لسان اليراع وأولى ماتشنفت بدوره الأسماع لطائف ظرائف تسليمات وشرائف تحابف تحيات تنفجر من قلاعها عيون المحبة والإخلاص وتجري في بقاعها جداول المحبة والإختصاص، وتهب شمال الأشراق في خلال أفنانها وتسري جنوب الإشتياق في ضواحي جنانها مطويات في حلل طروس التكريم والتفخيم ومنظومات سلك سطور التبجيل والتعظيم مهديات من مشرق سدتنا السلطانية ومطلع أنوار السعادة الخاقانية إلى بدر فلك السعادة وصدر سند السيادة العريق الحسيب والأصيل النسيب الأمجد ابن الأمجد المولى محمد لازالت مشرقة في سماء المعالي أنواره ويانعة في روضه المجد ثماره. وبعد فإنه في أشرف أوان ورد لساحتنا الفسيحة الأرجاء من طرف سعادتكم التي هي كالبدر في الدجى خديمكم القائد القديم محمد بن عبد الله مصحوبا بنميقتكم الأنيقة التي انطوت على محبة أكيدة لاتنفصم ومودة مشدودة بأنواع الخلوص لاتنحسم شديدة أركانها مرصوعة بنيانها، وفي طياتها مايتسلى به الخاطر وينجلي به مرات الفكر العائر من تبريككم أيانا بالسلطنة المتنقلة إلينا والدا بعد والد، وتحلينا بحلى قلادة أمور المسلمين ماجدا بعد ماجد وتعزيتكم بعمنا المرحوم المغفور له عبد الحميد خان جعل رمسه روضة من رياض الجنان وصب

عليه تشابيب الرحمة والغفران وقد رضينا بالقضاء والأقدار، وأن الله يفعل في ملكه مايشاء ومايختار وكلنا إلى ذلك الطريق ذاهبون ونحن الاحقون (كذا) وهم السابقون كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آله حدباء محمول، ولكن حملنا أمرا أمرا وحلوا مرا سهلا ووعرا فنسئل (كذا) الله أن يجعلنا مظهرا لتوفيقه وهدايته ويسترنا تحت كنف حفظه وحمايته ويريح الآنام تحت ظلنا الظليل ويشفي غليلهم بويلنا الهميل وحررتم أيضا أنه ستصل إلى سدتنا السنية على طريق الهدية التي إلى السعادة الأبدية هدية، وتلك خمسة الاف ذهب للسادة الشرفاء من أهل الحرمين والحجاز وجميع من اشتملت عليه طيبة الطيبة على ساكنها أفضل الصلوات والتحية، وذكرتم إذا وصلت لطرفنا نضعها في بيت مالنا ثم نقسمها كل سنة على أربابها على مقتضى ماهو مسطر في دفتركم المصحوب مع خديمكم المذكور، وذلك بأن تسقط على عشر سنين يطلع لهم في السنة الأولى واجب سنتين وفي السنة الثالثة واجب سنتين وفي الخامسة واجب سنتين وهكذا إلى الإنتهاء. فانشاء الله حين وصول المبلغ المذكور نعمل بمقتضى ما حررتم وعلى موجب دفتركم الذي سطرتم نسلمها لأمين صرتنا بأن يوزعها على أهالي تلك الأماكن العظام على ساكنها أفضل الصلوات والسلام.

وكذلك وصل إلى ساحتنا الخاقانية ألف قنطار من ملح الباروت إعانة منكم لعزاة المسلمين وكماة الموحدين وطلبا لإشتراككم في تواب هذا الجهاد مع الكفرة أهل البغي والعناد وخمسمائة وأربع وتلثون (كذا) أسيرا من الذين أطلقتهم مالطة خسف الله بها وبأهلها، وفي وصولهم بعثناهم إلى أهليهم وديارهم سالمين ولكم شاكرين حامدين.

ولما أتم أمر الرسالة وأدى خدمة السفارة خديمكم القديمة ذو الفطانة السامية والنباهة الزاكية القائد محمد بن عبد الله، فكتبنا هذه النميقة جوابا لما أرسل معه لكن الماصول أن تسئلوه (كذا) أيضا شفاه (كذا) واستفهموا منه ماعرفناه، ومن المكتوب الدستور المكرم والمشيد المفخم مصطفى باشا أدام الله تعالى إجلاله قائم مقام صدرنا الأعظم وسر دارنا الأكرم، والماصول أيضا لاتقطعوا عنا مراسلاتكم الدالة على صحتكم وعافيتكم التي هي المراد من رب العباد وأن لاتنسانا من صالح دعواتكم المستجابة في الأوقات المستطابة بأن ينصر الله تعالى جنود المسلمين ويرفع أعلام الدين المبين ويقهر أعدائنا المشركين، لازالت ثغور العرب بكم سديدة وبحور أمدادكم للمسلمين مدبرة وصلى الله على أشرف الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

B. 1. Hatt - i humayun. 4308

ملحق رقم 2 :

تقرير مرفوع من الصدر الأعظم إلى السلطان في شأن تحويل السبائك إلى "زر محبوب"

النص العثماني :

شركتلو كرامتلو مقابتلو قدرتلو ولي نعمتم أفندم.

فاس حاكمي مولى محمد داعيلرنيك بوسنه مباركه ده صرهء هما يونله أهالىء حرمين محترمينه كوندريله جك سبيكه هديه سنك ايلجيسنك استدعا سنه مبنى زر محبوبه تبديل أولمنسنه دائر تقديم حاكباى هما يونلرى قلنان تقرير جاكرانه م بالاسنه ميري يه ذره قدر خسارت أولمازا يسه تبديل أولنمق مضموننده مبارك خط هما يونلرى شرفيافته صدور أولمغله ضربخانه ناظرى اغا قوللريله وايلجى مومى اليه ايله بالمخابره تنظيم ايلمك خصوصى ودفتر دار أفندي قوللرنه حواله اولنمشيدي. بناء عليه مومى إليهما ايله بالمخابره سبيكه مرقومه لرك زر محبوبه تبديلى ممكن أولميوب، وبوصورتده ميتتيله محلنه كوندرلسى مناسب ايدوكنى ايلجى مومى إليه حرمين ترجمانى وساطتيله أفاده ايتديكن بيانله سبيكه مذكوره لرك علينا رد وتسليمى خصوصين دفتر دار افندى قوللري بر قطعه تقريريله استيذان ايتمكله خصوص مرقومه دائر ضربخانه ناظرى اغا قوللرينك مقدما تقديم ايتديكن تقرير يله برابر معروض عتبه شاهانه لرى قلنمشدر منظور هما يونلرى بيور لدقده امر وفرمان شوكتلو كرامتلو مهابتلو قدرتلو ولى نعمتم افندم بادشاهم حضر تلرينكدر.

الجواب السلطاني : اولماز.

الترجمة العرية :

صاحب الشوكة والمهابة والقدرة ولي نعمتي سيدي سلطاني :

عرضت في تقرير سابق أن حاكم المغرب المولى محمد طلب أن تحول السبائك التي سيبعث بها إلى أهالي الحرمين الشريفين هذه السنة إلى زر محبوب، فأعيد التقرير

موشحا بالخط الهمايوني بما يتضمن عمله على أساس عدم حصول ذرة خسارة لجهة الميري. وقد أحيل الأمر على الدفتر دار وناظر الضربخانة لبحثه مع سفير الحاكم المذكور، وبناء على مباحثات المشار إليهما تبين عدم إمكانية تحويل السبائك إلى زر محبوب. وعليه تقرر إرسال السبائك كما هي إلى محلها ـ كما أكد ذلك السفير المغربي بواسطة ترجمان الحرمين ـ وقد رفع الدفتردار تقريرا للإستئذان في إعادة السبائك لكي ترسل عينا.

وقد رفعت تقرير ناظر الضربخانة مع تقرير الدفتردار إلى العتبة العلية وانتظر التفضل بإعطاء الأمر والفرمان وهو منوط بصاحب الشوكة والكرامة والمهابة والقدرة ولي نعمتي حضرت السلطان.

الجواب السلطاني : لايمكن.

السلطان محمد بن عبد الله والأشراف

د. فاطمة الحراق
معهد الدراسات الإفريقية
الرباط

عندما تسلم محمد بن عبد الله السلطة سنة 1757 كانت المهمة الأساسية الملقاة على عاتقه ليست أقل من إعادة تأسيس الدولة العلوية التي خربتها ثلاثون سنة من عدم الاستقرار. وفي مثل هذه الحالة فإن حل المشاكل المزمنة للدولة الإسلامية - من جيش وجباية ومداخيل بيت المال - لا تقل أهمية عن التأسيس الأيديولوجي للدولة، ومن ثم أهمية الإصلاح الديني في سياسة سيدي محمد بن عبد الله الداخلية والمكانة المتميزة التي حظي بها الأشراف في عهده.

لن أؤرخ في هذه العجالة لنشوء وتطور ظاهرة "التشيع" لأهل البيت في المغرب ولآل علي بصفة خاصة [1]، بل سأحاول من خلال دراسة علاقة سيدي محمد بن عبد الله مع ثلاث مجموعات أساسية من الأشراف، أن أقف على تصور هذا السلطان للدور الإجتماعي والسياسي لفئة الأشراف في المجتمع المغربي.

أ - الأشراف في مغرب القرن الثامن عشر

لنتعرف في البداية على هؤلاء الأشراف، يمكن تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات أساسية برزت على الساحة الاجتماعية والسياسية : أشراف فاس (بفرعيهم الحسني والحسيني، الشرفاء العلميون، والشرفاء العلويون.

(1) انظر بهذا الشأن دراسات ذ.م. القبلي وخصوصا "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين" في مجلة كلية الاداب الرباط، سنة 1978، عدد 3 - 4 ؛ وكذا أطروحته التي نشرت تحت عنوان :

Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age, Paris, 1986.

أشراف فاس

وتتكون هذه المجموعة من الأدارسة الذين مكثوا بفاس بعد تشتت دولة الأدارسة في القرن العاشر، وهم حسنيون، أي من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب. كما تتكون من أقلية من الأشراف الحسينيين الذين دخلوا إلى المغرب عن طريق صقلية والأندلس وسبتة [1].

وأشراف فاس هم أول من انتظم من الأشراف ليشكل فئة اجتماعية متميزة تحظى بامتيازات مادية (إعفاءات جبائية، هبات من بيت المال) وأخرى معنوية (النقابة، الاستقلال القضائي ...) وذلك ابتداء من القرن الرابع عشر [2]. فالتعظيم والتوقير الذي حظي بهما هؤلاء الأشراف في ظل الدولة المرينية لم يكن يرجع فقط إلى شهرة نسبهم بل كذلك إلى العلم والثروة التي أعطتهم نفوذا كبيرا في فاس. فقد كان سلاطين الدولة المرينية يلتمسون مساندتهم ويخشون غضبهم الذي أدى سنة 1465 إلى قتل آخر ملوكهم [3].

أشراف جبل العلم (العلميون)

وهم ذرية إدريس الثاني الذين فروا من فاس إلى مختلف جهات المغرب وخصوصا إلى منطقة جبالة حيث عاشوا متسترين قرونا عديدة إلى أن شجعتهم سياسة المرينيين على الخروج عن صمتهم وإعلان هويتهم [4]. ورغم أن أول إحصاء معروف لهاته الفئة من الأشراف يعود إلى بداية القرن الرابع عشر [5]، إلا أن الاعتراف الرسمي بهم من طرف الدولة عن طريق الإعفاءات والإمتيازات الأخرى لم يتم إلا في نهاية القرن الخامس عشر [6].

فإذا كان ظهور أشراف فاس على الساحة الإجتماعية والسياسية المغربية مرتبط

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، القاهرة، بدون تاريخ، ص. 254.

(2) م. القبلي، "مساهمة"، ص. 13 - 14.

(3) M. Garcia-Arenàl "The Revolution of Fes in 869/1446...", Bulletin of SOAS, XLI, 1, 1978, pp. 43 - 66.

(4) سليمان الحوات، السر الظاهر فيمن أحرز في فاس الشرف الطاهر ... المطبعة الفاسية، 1932 ص. 5.

(5) أول إحصاء مكتوب نتوفر عليه مؤرخ بعام 1310 (مخطوط الخزانة العامة عدد 723)، لكن هناك إشارات إلى كون الإحصاء الأول للأشراف حصل قبل هذا التاريخ وبالضبط في عهد السلطان المريني أبي الربيع سليمان (1307)، م. القبلي، "مساهمة"، ص. 17.

(6) نفس المرجع، ص. 18 و47.

بالسياسة المرينية تجاه هذه الفئة فإن بروز الأشراف العلميين يرتبط أساسا بالحركة الصوفية الشاذلية الجزولية وبالحركة الجهادية المترتبة عنها. فمولاي عبد السلام بن مشيش (ت 1228) الذي يوجد ضريحه بجبل العلم يرتبط اسمه بنشوء الحركة الصوفية، فهو شيخ الشاذلي (ت 1258) وقطب التصوف في الغرب الإسلامي. فهذا الإرتباط بالحركة الصوفية والجهادية ساهم في إعادة الإعتبار لشرفاء العلم وجعل منهم قوة اجتماعية وسياسية يحسب لها حسابها.

الأشراف العلويون

يتخيل المرء لأول وهلة أن الأشراف العلويين كانوا يشكلون "شيعة" و "عصبية" الدولة الحاكمة وعضدها، لكن، في غياب نظام يحكم انتقال السلطة وولاية العهد فإن هؤلاء كانوا يمثلون أحيانا خطرا محتملا وتهديدا كامنا لإستقرار الدولة الشريفة. فتافيلالت، هذه المنطقة البعيدة عن مركز السلطة، والتي كان يسكنها غالبية الأشراف العلويين في القرن الثامن عشر، كانت تنقلب أيام ضعف الدولة المركزية إلى بؤرة المتطلعين إلى الخلافة بسبب إيوائها للعديد من الأمراء العلويين [1].

ب ـ الدولة الشريفة وفئة الأشراف

لاشك أن عودة الأشراف لممارسة السلطة السياسية في القرن الخامس عشر قد فرض نوعا من "إعادة توزيع المقدس" (réamenagement du sacré) حسب تعبير جاك بيرك [2]. فالسلطة السياسية أصبحت تستمد جزءا من مشروعيتها من النسبة النبوية، هذه النسبة التي تشترك فيها كذلك مجموعات شريفة متعددة. لذلك فإن الأشراف الحاكمين قد وجدوا أنفسهم موضوعيا في حالة منافسة مع المجموعات الشريفة الأخرى. فالدولة الشريفة تعتمد الشرف كمبدأ وكقاعدة إيديولوجية لكنها تخشى استعمال هذه القاعدة نفسها من طرف أسر شريفة أخرى لإكتساح المجال السياسي، وبالتالي فإن سياستها تجاه الأشراف اعتمدت ترويج الإيديولوجية الشريفة وذلك من خلال :

ـ اللجوء إلى المظاهر البروتوكولية من احتفالات بعيد المولد، ومجالس حديث، وتجشيع الدراسة والتأليف في علم الحديث ...

---

(1) وقد ظهر هذا جليا خلال الفترة الموالية لوفاة مولاي إسماعيل حيث كان جيش العبيد يتزود بالأمراء المرشحين للخلافة من تافيلالت.

(2) J. B erque. L'Intérieur du Maghreb XV - XIXème, Gallimard, Paris, 1978 pp. 140 - 141 et 542.

ـ والإشتراك المنفعي للأشراف عامة، وخصوصا المجموعات ذات النفود الديني والإجتماعي الواسع؛

كما أن الدولة اعتمدت من جهة أخرى سياسة استهدفت إضعاف شوكة الأشراف وفرض السلطان الشريف كمسؤول رئيسي عن النسبة الشريفة وعن الوضعية المادية والمعنوية للأشراف. أما الوسائل التي اعتمدتها الدولة في هذا الإطار فهي :

ـ حملات الإحصاء المتتالية والمتكررة ؛

ـ سياسة المفاضلة في العطايا والإمتيازات ؛

ـ ومحاولة الفصل بين التصوف والشرف.

ج ـ السلطان محمد بن عبد الله والأشراف

يمكن أن نقف على معالم هذه السياسة في مواقف السلطان محمد بن عبد الله من مجموعات الأشراف الثلاث المشار إليه أعلاه.

(1) محمد بن عبد الله وأشراف فاس

كانت هذه العلاقة تخضع لمتغيرات سياسة المخزن تجاه مدينة فاس، رمز المشروعية الدينية والعلمية للبلاد. ويمكن الإشراف على هذه العلاقة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر من خلال ثلاث رسائل السلطان محمد بن عبد الله :

الأولى، مؤرخة بجمادى الأولى لسنة 1171 / يناير 1758، وهو تاريخ يوافق أول زيارة رسمية قام بها هذا السلطان لمدينة فاس. وبمقتضى هذه الرسالة تم تكليف إثنى عشر من أعيان الأشراف بإحصاء البيوتات الشريفة بهذه المدينة [1].

الثانية، وهي مؤرخة في ربيع الثاني 1190/ يونيه 1176، ويمنح السلطان بموجبها مال المنقطعين بفاس للأشراف المنتمين للإثنى عشرة شعبة المستكملة للشهرة بهذه المدينة [2].

الثالثة، وهي مؤرخة بجمادى الثانية من عام 1201 / أبريل 1787، ويكلف بموجبها السلطان سيدي محمد ابنه المامون والشيخ التاودي بن سودة بإعادة النظر في

(1) وثيقة العائلة الصقلية بفاس، انظر أطروحة د. ف. الحراق "الدين والدولة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله" جامعة لندن، 1989، ص. 442 ـ 441.

(2) انظر نص الرسالة في كتاب الطيب الطاهري، طيب الأنفاس، مكناس، 1985، ص. 18 . وفي نفس الموضوع أنظر الزياني، تحفة الهادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، عدد 214/5، ص. 13.

توزيع مال على المنقطعين ويتبرأ من الحيف الذي حصل في توزيع هذه الهبة حيث استفاد منها فقط ذوو العصبة من الأشراف دون غيرهم، ويعمم بموجب الظهير الجديد مال المنقطعين على كل من استطاع اثبات نسبته الشريفة من الأشراف دون تمييز [1].

فالظهير الأول الذي يعين 12 نقيبا للنظر في شؤون أشراف فاس جاء ثلاثة أشهر فقط بعد تسلم سيدي محمد السلطة، أي في وقت احتياجه لمساندة أعيان هذه المدينة وأشرافها البارزين. ففاس لم تكن بحاجة إلى هذا العدد من النقباء لكن السلطان الجديد كان يسعى إلى إرضاء كل الأسر الشريفة لكسب تأييدها لحكمه.

وقد اعتمد سيدي محمد الإحصاء الذي أنجزه هؤلاء النقباء الإثني عشر في توزيعه لمال المنقطعين بفاس سنة 1776، وخص بذلك البيوتات الشريفة التالية : الإدريسيون والقيطونيون والعمرانيون والغالبيون والعراقيون والصقليون والمسفريون والدباغيون والكتانيون والفاضليون والطاهريون والمنونيون.

ولعل هذه الهبة التي جاءت بعد سنة فقط من ثورة فاس ضد السياسة الجبائية لسيدي محمد [2] كانت تستهدف مرة أخرى استمالة هذه البيوتات ذات النفوذ لجانب السلطان. لكن هذه المفاضلة أدت إلى إغضاب جزء من الشرفاء بعد أن ميز بين "أهل العصبية" و "عامة الأشراف" مظهرا هؤلاء كفئة متطفلة.

ولم يعمد السلطان إلى تصحيح هذه الوضعية وإنصاف الفئة المتضررة إلا بعد أكثر من عشر سنوات، أي في عام 1778، حين كان يواجه معارضة علماء فاس لإصلاحاته المذهبية والتعليمية والقضائية [3].

وإذا كان قرار تعميم الهبة على كل من توفر على حجة شرعية تثبت نسبته قد أرضى عامة الأشراف فإنه لم يلق الترحيب من جانب "المستكملي الشهرة" من الأشراف كما جاء على لسان سليمان الحوات (ت 1818) في السر الظاهر :

"لولا أنه أراد أن يقصر العطايا على المستكملين الشهرة فقصر تحاملا على استيفائهم بفاس من أسند إليه فيهم أمره إلى أن عم بعضهم بهباته الوافرة وكساه ثياب العناية بالحلل الفاخرة، والبعض الآخر لم يحصل منه على طائل ... وكان شيخنا القدوة أبو عبد الله بن سودة زمن كان أمر الشورى في عهده مقصورا عليه وحده أراد أن

(1) وثيقة العائلة الصقلية بفاس، أنظر د. ف. الحراق "الدين والدولة"، ص. 445 ـ 443.

(2) الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، الرباط، 1986، ص. 180.

(3) د. الحراق، "الدين والدولة ..."، ص. 297 ـ 375.

بسد هذه الثلمة الواقعة في الإسلام بتدارك مابقي من مشاهير أهل البيت الكرام، ثم إنه عم وماخص فوقع لفساد الوقت في حيص بيص" [1].

(2) محمد بن عبد الله والأشراف الأدارسة العلميون

أهمية هذه المجموعة تنبع، كما سبق أن أشرت إلى ذلك من كونها :

- تشكل أكبر المجموعات عدديا،
- متمركزة بمنطقة استراتيجية هي منطقة مواجهة مع المسيحين،
- مرتبطة تاريخها بالتصوف والجهاد،

ومتطلعة إلى ممارسة السلطة السياسية كما ظهر ذلك بعد عدة محاولات،

- كما أن هؤلاء الأشراف لم يبايعوا سيدي محمد بن عبد الله بالإجماع بحيث أن عددا منهم تبعوا الداعي بوصخور الذي كان يتنبأ بقصر مدة ولاية هذا السلطان وسدوا أبواب شفشاون في وجه قائده [2].

السياسة التي اتبعها سيدي محمد بشأن هؤلاء الأشراف تجمع بين التكريم والحذر:

- فمن جهة، حاول بسط بعض الإمتيازات إلى البيوتات ذات النفوذ في المنطقة، وهي تلك البيوتات التي استطاعت أن تمد نفوذها إلى جهات متعددة من المغرب ومن البلاد الإسلامية من خلال شبكة الزوايا التي أحدثتها بفضل تشجيع وحماية المخزن (الوزانيون بشكل أساسي).

- ومن جهة أخرى حاول مراقبة الشرفاء وذلك بتنظيم حملة إحصاء جديدة ابتداء من سنة 1761 أشرف عليها العالم الشريف محمد الصادق بن ريسون (ت. 1820) وهو الذي ضمن نتائجها في كتابه "فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الأمير" [3].

حملات الإحصاء هذه كانت تستهدف أساسا حماية بيت المال ممن يتنصلون من أداء أعشارهم، لكنها تؤدي في النهاية إلى حصر البيوتات الشريفة، وتقسيم الأشراف إلى "مستكملي الشهرة" من جهة و "أهل الظهائر" أو "عامة الأشراف من جهة أخرى، كما تشير بأصابع الإتهام إلى عدد من البيوتات التي تدعي النسبة الشريفة.

---

(1) سليمان الحوات، السر الظاهر، 8 ـ 9.

(2) ابن الحاج، الدر المنتخب، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، عدد 1920، ص. 46 ـ 47.

(3) مخطوط الخزانة العامة عدد 112، الرباط.

وهذا بالضبط هو ماأدت إليه حملة 1761. فقد مكنت الرسيونيين والوزانيين وبيوتات شريفة شهيرة أخرى من جبل العلم من تأكيد امتيازاتها، بل الحصول على امتيازات جديدة، ولا أدل على ذلك الهبات المنتظمة التي أوقفها سيدي محمد على زاوية تازروت [1] والإمتيازات الإستثنائية التي حصل عليها شيخ الزاوية الشريفة بوزان بموجب الظهير "ذي الأربعة فصول" [2]. بينما وجد "أهل الظهائر" من العلميين أنفسهم منظمين في إطار "قيادات" تحت إشراف "شيوخ" يديرون شؤونهم باسم المخزن ويجمعون أعشارهم ليوزعوها على ذوي الفاقة منهم.

فلا غرابة إذن أن يرحب عامة أشراف هذه المنطقة بالأمير الثائر مولاي اليزيد عام 1790 في الوقت الذي كان فيه "مستكملوا الشهرة" من العلميين يسخرون بركتهن لخدمة الدولة المركزية.

(3) محمد بن عبد الله والأشراف العلويين

الاهتمام بهذه المجموعة من الأشراف كانت تفرضه عدة عوامل من بينها :

- أنهم أهل السلطان وعشيرته،

- أنهم يسكنون منطقة بعيدة عن مركز السلطة وقريبة من أحد مصادر العصيان في ذلك العهد (مجال أيت عطة وعرب معقل)،

- وأن الأشراف العلويين لم يبايعوا سيدي محمد بالإجماع إذ أن مولاي الحسن بن مولاي إسماعيل استمر في تحدي السلطة المركزية وتعبئة الأشراف والقبائل المجاورة حول دعوته إلي حدود عام 1783. وبالطبع فإن هذه القبائل قد وجدت في دعوة المولى الحسن ذريعة للتنصل من دفع الأعشار والجبايات المفروضة عليها [3].

تغاضى سيدي محمد عن تهور عمه طالما بقيت دعوته محدودة محليا، وعمد إلى إضعاف الجبهة المساندة له بترحيل بعض القبائل وإدخال بعضها الآخر في الجيش النظامي [4]. لكن، حدث عام 1773 ماأثار غضب السلطان على أهله وعشيرته، حيث بعث أحد كتابه ليتفقد أحوالهم فتلقوه بالشتم وطردوه من تافيلالت. على إثر

(1) أنظر أحمد الأمين الريسوني، حقائق تاريخية عن زاوية تازروت، تطوان، 1966، ص. 14 ـ 24 وعلي الريسوني، رجال ومواقف، تطوان، 1981 ص. 21.

(2) أنظر الظهير في تاريخ الضعيف، ص. 176.

(3) نفس المرجع، ص. 192.

(4) وهذه القبائل التي أدخلت في الجيش هي الجبابرة والمعاركة وأولاد بوحمو والشبانات وأيت أمبارك؛ أنظر ابن الحاج، الدر المنتخب، ص. 67 و 294 و 348.

هذا الحادث كتب السلطان رسالة إلى الأشراف يهددهم فيها بالنزول عليهم "كالرعد في ليلة ظلماء" إن هم تمادوا في تحدي المخزن [1]. فبعدم احترامهم لمبعوث السلطان فإن الأشراف العلويين في نظر سيدي محمد قد تحدوا الدولة بكيفية علانية بينما كان عليهم "إظهار السمع والطاعة" وتفويض النظر في شكاياتهم إلى السلطان الذي هو منهم وإليهم.

ففي هذه الرسالة التي نقلها لنا الضعيف في تاريخه يقدم سيدي محمد بنفسه للأشراف العلويين على أنه رب العائلة العلوية الذي يولي اهتماما خاصا وشخصيا لقضايا عائلته، ولكنه في نفس الوقت يعتبر نفسه مسؤولا عن الدولة التي لايسمح لأي كان أن يتحداها أو يمس ممثليها أو يخل بنظامها بإثارة الفتنة. لكن سيدي محمد كان مستعدا للصفح عن أبناء جلدته إذا هم التزموا باحترام الدولة بإظهار السمع والطاعة ورفع أمورهم وشكاياتهم إلى نظر رب البيت العلوي.

لم يلتزم الأشراف العلويون بهذه التوجيهات ووقع منهم ومن حلفائهم من الأعراب والبربر من الفتن خلال سنين المسغبة مااضطر معه سيدي محمد إلى النزول بنفسه على تافيلالت سنة 1783 في جيش عرمرم وصفه لنا المؤرخون المعاصرون كالضعيف [2]. وبفضل حضور قوات الردع هذه تمكن السلطان من جمع الجبايات من القبائل، ونفي الأمير الثائر إلى مكناس، وتعيين أحد خدامه الأقربين ـ وهو المؤرخ الوزير أبو القاسم الزياني ـ عاملا على تافيلالت. كما أمر السلطان بترحيل أبنائه للسكنى بتافيلالت، كل ذلك حرصا منه على السهر على أحوال الأشراف العلويين وتتبع أمورهم عن كثب[3].

وفي نفس الوقت الذي وضع فيه سيدي محمد حدا للإستقلال الإداري والمالي للأشراف العلويين بتعيينه لكاتبه عاملا عليهم وترحيل أبنائه للسكنى بينهم، فقد رتب لهم هبات سنوية معتبرة، وبذلك أصبحت مصالحهم مرتبطة بصفة مباشرة بالسلطان وبممثله الشخصي في المنطقة.

---

(1) نص الرسالة نقله الضعيف في تاريخه، ص. 175 ـ 176.

(2) نفس المرجع، ص. 192.

(3) الزياني، الروضة السليمانية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط عدد ك/1275. ص. 158.

خاتمة

الأهمية التي اكتسبها الشرف في المجتمع المغربي منذ القرن الخامس عشر كقاعدة للمشروعية السياسية لم تكن تخفى عن السلطان محمد بن عبد الله الذي كان بصدد إعادة تأسيس الدولة العلوية الشريفة. لذلك فقد عمل على تعميم الإيديولوجية الشريفة بتكريس المظاهر البروتوكولية للدولة وبتكريم الأشراف، وخصوصا الفئات ذات النفوذ الواسع في المجتمع، وهذه شهادة نقيب الأشراف العلميين، سليمان الحوات، في اعتناء هذا السلطان بشؤون الأشراف :

فقد "قلد (والد) في مذهب التشيع بمحبتهم، حتى تمكن في ظاهره وباطنه من تعظيم منزلتهم، وجرى في أمرهم على طريقة ملوك الفرس، فإنها كانت تضبط أهل البيت على ضوابط أسلافهم، وتمنعهم من الإبتدال والدخول في الصنائع والحرف التي تزري بهم، وتمنعهم من مناكحة من لايليق بهم، فإن جمال هذه الأوصاف وكثرة مفاخرها يزيد من رونق الدولة" [1].

فسياسة محمد بن عبد لله تجاه الأشراف كانت تستهدف تحويل الفئات "المستكملة الشهرة" منهم إلى شبه ارستقراطية تعتمد النسب والدين وترتبط مصالحها الإقتصادية والإجتماعية بالدولة.

(1) الحوات، السر الظاهر، ص. 5.

الندوة الثالثة

الانجازات الثقافية والعمرانية على عهد سيد محمد بن عبد الله

من الإنجازات الثقافية
في عهد سيدي محمد بن عبد الله
إحياء موسوعة الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
(إدراك الأماني من كتاب الأغاني) 1180 هـ

د. محمد بن شريفة (*)

إن لسيدي محمد بن عبد الله محلا خاصًا في ذاكرة المغاربة وأستسمح إذا ضربت المثل بشخصي المتواضع، فقد نشأت في بلد سجل له التاريخ أنه كان مبدأ ظهور سيدي محمد بن عبد الله ألا وهو آسفي وماتزال القصبة التي نزل بها والمعروفة عند أهل آسفي بدار السلطان تذكّر الناس به إلى يومنا ثم إن زياراتي المتعدّدة إلى الصويرة كانت تملأ نفسي إعجابا بهذا السلطان العظيم وتزيدها إكبارا له، وأما ماكنت أشاهده من آثاره العمرانية في مراكش أيام الدراسة فقد كان أثره فوق الوصف، وهكذا أقبلت منذ بداية الطلب على قراءة سيرة سيدي محمد بن عبد الله، ومما قرأته هذا العام كتاب الدكتور لوريدو وعنوانه : "سيدي محمد بن عبد الله والعالم الخارجي".

إن هذا السلطان العظيم يحلّى بنعوت متعدده فهو السلطان والخليفة والمجدد والمصلح، وهذا النعت الأخير هو الأكثر استعمالا لدى المؤرخين المغاربة سواء منهم القدماء أم المحدثون، ونحن نرى وندعو إلى أن يصنّف سيدي محمد بن عبد الله في سجل كبار المصلحين على المستوى العربي الإسلامي وليس على المستوى المغربي فحسب إذ هو أسبق وأحق من بعض الأسماء التي نجدها في التآليف التي كتبت عمّا يعرف بعصر النهضة أو اليقظة. وذلك لأن الإصلاح عند سيدي محمد بن عبد الله كان له مفهوم شامل ومدلول واسع، فهو لم يكن إصلاحاً يقتصر على جانب دون آخر فقد عمّ إصلاحه مختلف الجوانب وشمل التعليم والإدارة والعدلية والقضاء والجيش والعمران وكلّ ماله علاقة بالسياسة الداخلية والخارجية وإن المرء ليندهش بخصوص سياسته الخارجية عندما يقرأ ماكتبه الباحث الراهب الإسباني رامون لوريدو.

(*) أستاذ جامعي. محافظ الخزانة العامة، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

وأما إصلاحات سيدي محمد بن عبد الله فإنها مفصلة لدى الإخباريين والمؤرخين الأقدمين، ومعترف بها عند المحدثين.

ويكفي أن استشهد بعبارة للأستاذ العروي في كتابه المعروف «تاريخ المغرب» وهي : إن محمد الأول كان المعمار الحقيقي للمغرب الحديث Mah. III fut le véritable Architecte du Maroc Moderne

أرجع بعد هذا المدخل القصير إلى الموضوع الجزئي الذي اخترته لهذه الندوة وهو يندرج في إصلاحات سيدي محمد بن عبد الله العلمية والتعليمية وإنجازاته الثقافية، ومن المعروف أن سيدي محمد بن عبد الله كان شغوفا بالعلم محبا للعلماء سواء في عهد خلافته عن والده أم في عهد ولايته الملك ؛ ومن المعروف أيضا أن له عددا مهما من التآليف في مختلف العلوم، ومنها علم الأدب وقد كان بعضها موضوعا لعروض في هذه الدورة، وكما كان يؤلف كان يشير عل بعض أهل العلم والأدب أن يؤلفوا في موضوعات يعينها لهم، وبهذا نشطت حركة التأليف ونفقت سوق الكتب وانتعشت المكتبات في عهده ؛ وثمة قوائم محفوظة لأسماء المؤلفات التي زود بها خزائن الكتب في مختلف المدن المغربية.

إن موضوع الحياة العلمية والأدبية في عهد محمد الثالث موضوع كبير لايمكن اختزاله في هذه المقدمة، وحسبي أن أشير فيما يخص الأدب إلى بعض أعلامه في هذا العهد كأبي حفص عمر بن يوسف الفاسي، وابن الونان صاحب الشمقمقية المعروفة، ومحمد بن الطيب سكيرج، والتهامي أمغار، وابن الطيب العلمي، وأحمد بن المهدي الغزال، وعبد القادر السلوي، وغيرهم، وهذا الأخير هو مؤلف " الكوكب الثاقب، في أخبار الشعراء" وغيرهم من ذوي المناقب، وهو الذي أمره السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتجديد نسخة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني موضوع هذا الحديث، وقد لبى الأديب الأمر، وأنجز العمل في خمس وعشرين مجلّدا.

فعلام يدلّ هذا العمل ؟

وماهي قيمته ؟

أما الجواب عن السؤال الأول فإننا نظن أن أمر سيدي محمد بن عبد الله بإحياء هذه الموسوعة الأدبية يندرج في مشروعه العام الذي هو العودة إلى الينابيع والأصول والأمهات في مختلف العلوم والفنون، كما أنه ينبعث من أن همته العليا كانت تجعله ينظر إلى ماصنعه الملوك والأمراء قبله في مثل هذا الشأن وكان يقرأ في سير بعض

الأكابر الأقدمين من حماة الأدب وهواته اهتمامهم بكتاب الأغاني وإعجابهم به وإنفاقهم عليه، ومن أشهرهم سيف الدولة الحَمْداني وعضد الدولة البويَهْي والصاحب بن عباد. أما سيف الدولة فقد أعطى أبا الفرج لما بعث إليه بالأغاني ألف دينار. ولما حدّث الصاحب ابن عباد بصلة سيف الدولة قال إن أبا الفرج يستأهل أضعافها، وكان الصاحب شديد الإعجاب بكتاب الأغاني كثير اللهج به، ومما قاله فيه : "لقد اشتملت خزانتي على مائة ألف مجلد وسبعة عشر ألف مجلد فما فيها ماهو سميري وجليسي غيره ولاراقني فيها سواه". وهكذا كان عضد الدولة فقد ذكروا أنه كان لايفارقه كتاب الأغاني سفرا ولاحضرا ومما يروى أنه قال "لو أمكن لجعلته تميمة أتقلّدها كما تتَقلّد الرّقى".

ومما ورد في بعض الروايات أنه وقعت مفاخرة بين ملك الشام (الحمداني) وملك العراق (عضد الدولة) فافتخر الأول على الثاني بالغوطة ونهر الأردن والخصب المستمر فأجابه الثاني بأن شعب بوان يعدل الغوطة ونهر الأردن يغرف من دجلة والفرات وأن خصب مروج الشام مقرون بوبيل الأوخام والأسقام وزاد بأن لأهل العراق على الشام الفخر بثلاث كرامات : ضخامة المباني، ولطافة الهوى والمغاني وتأليف الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني فكانت الغلبة في المفاخرة له بهذه الكرامة الأخيرة.

أما في الغرب الإسلامي فمن المعروف أن كتاب الأغاني وصل إلى الأندلس في حياة مؤلفه فقد ذكر المقرى في «نفح الطيب» أن الحكم المستنصر "بعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العَيْن، فبعث إليه بنسخة قبل أن يخرجه إلى العراق" ويستفاد من مصدر مخطوط أن هذه النسخة ظلت محفوظة عند الأمويين من بعده ثم انتقلت في عصر الطوائف إلى المعتمد ابن عباد ومنه إلى يوسف بن تاشفين وخلفائه ثم انتقلت إلى الموحدين وكانت عند يعقوب المنصور وبعده فُقِدَ أَثَرُهَا وغبر خبرها، وكان من أثر انتشار كتاب الأغاني في الأندلس والمغرب أن عارضَه بعض الأدباء على عادتهم في معارضة أدباء المشرق مهما كانت طبقتهم فقد عارض الأغاني في العصر الأموي أسلم بن عبد العزيز بكتابه "أغاني زرياب" وعارضه في عصر الموحدين يحيى الخدُوج، وقد بلغ كتاب الأغاني في عصر الموحدين شأوا بعيدا من الانتشار.

وكان بعض أدباء هذا العصر يحفظه بتمامه عن ظهر قلب، ذُكر في ترجمة عبد المجيد ابن عبدون الشاعر والكاتب المشهور أن "أيسر محفوظاته كتاب الأغاني" وفي"المعجب" للمراكشي قصة طريفة وقعت لهذا الشاعر بخصوص "الأغاني" مع أبي

بكر ابن زهر الحفيد، وخلاصتها أن الأول دخل دار والد، الثاني ليزوره وعليه غبار السفر فوجد ولده المذكور مهموما لأن الناسخ الذي كلفه أن ينسخ له الأغاني أحضر الكراريس المنسوخة ونسي أن يحضر أصولها فما كان من ابن عبدون إلا أن عرض عليه أن يقابلها مع محفوظه فدهش الولد من المطابقة التامة بين محفوظ الرجل ونسخة الكتاب واختبره في مواضع من الكتاب كلّه فوجد حفظه سواء.

ويبدو أن القدرة على استيعاب الأغاني بكامله قلّت شيئا فشيئا بعد هذا التاريخ، ولذلك وجدنا المؤلفين من الأندلس والمغرب يعمدون إلى اختصاره ويحذفون منه الأسانيد التي لا ضرورة لها في الأدب كما يحذفون مايرجع إلى صنعة الغناء ويحذفون كذلك الروايات والأشعار المكررة، ونحن نعرف ثلاث اختصارات للأغاني في عصر الموحدين أولها "اختصار الأغاني" لأبي الحسن علي بن نجبة، وقد وصفه ابن عبد الملك بأنه اختصار متقن، وثانيها اختصار ينسب إلى الأمير أبي الربيع سليمان الموحدي، وقد وصل إلينا منه السفر الأول وهو يمثل ربع الأغاني تقريبا وثالثها اختصار ابن عبد ربه الحفيد كاتب أبي الربيع المذكور، وقد ذكر ابن عبد الملك أنه اختصار حسن.

ويدلنا السفر الذي بأيدينا من اختصار أبي الربيع على توفر صاحبه على أكثر من نسخة من الأغاني، كما أننا نعرف أن الأصلين اللذين اشتهرا من الأغاني في الأندلس والمغرب هما أصل الخليفة الحكم المستنصر الذي ذكرناه، وأصل الحافظ أبي بكر ابن العربي الذي رواه ببغداد عن ثابت بن بندار الدينوري البغدادي بسنده إلى أبي الفرج، ويقول ابن العربي في قيمة كتاب الأغاني : "هذا الكتاب جليل القدر كثير العلم لم يؤلف قط مثله وإنما أخلّ به اسمه".

وإذا تتبعنا عناية المغاربة بكتاب الأغاني إلى عصر المرينيين فإننا نجد ابن خلدون يصفه بما يدل على إلمامه به ثم يقول : "ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ ولايُعْدَل به كتاب في ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنى له بها".

ولسنا ندري هل كان لكتاب الأغاني رواج في عهد السعديين ولكننا نقدر أن مكتبة المنصور كانت تشتمل على نسخة أو أكثر منه.

ومهما يكن من أمر فإن طه حسين الذي استبعد أن يكون الأغاني معروفا في عصر ابن خلدون تأويلا للعبارة السابقة : «وأنى له بها» وكان سيندهش لو وقف على النسخة التي أمر السلطان سيدي محمد بتجديدها وكذلك لو عرف أن هذا السلطان -

كما يقول عبد القادر السلوي - أحاط خُبْرا بهذا الكتاب وعلم من أسراره مالم يعلمه أحد ممن تقدّمه وإطلع على خباياه، وعلم مافي زواياه فلم يخف عليه من أموره جليل ولاحقير. وقد ذكر صاحب " الإستقصا" أنه "كان يحفظ مافي كتاب الأغاني" في عهد خلافته.

إن العناية بإخراج هذا الكتاب كان إخراجا جديدا في القرن الثاني عشر الهجري وفي هذا العصر الذي هو عصر "التتريك" في العالم العربي - في مصر والشام والعراق - لهو أمر يدعو إلى الإعجاب ويستحق التنويه والتسجيل وإن على مؤرخي الآداب العربية الشرقيين أن يكونوا منصفين ويعدلوا أحكامهم ويعرفوا أن الإحياء الحقيقي لأصول الأدب، بدأ في المغرب في العصر السعدي ثم في العصر العلوي، ومن هذه الأصول كتاب الأغاني الذي يبدو أن العهد بعد به في المشرق إلى أن أخرجته المطبعة في آخر القرن التاسع عشر، بينما لم ينقطع تداوله في المغرب كما رأينا.

وأختم هذا العرض بكلمة موجزة حول قيمة هذه النسخة المجددة، من الأغاني.

إنها تمتاز أولا " بتحريرها وتصحيحها، وتحقيقها وتهذيبها وتنقيحها" كما جاء في المقدمة.

وتمتاز ثانيا بترتيبها وتوزيعها على أساس جديد اقترحه السلطان، وشرحه السلوي المكلف بتنفيذه في المقدمة بتفصيل، ومجمله أن أبا الفرج رتب كتابه على أساس الأغاني والألحان، ولهذا صدّره بأبي قطيفة، مع أنه «ليس من الشعراء المشهورين ولامن الفحول المعدودين المذكورين» .

أما الترتيب الذي اقترحه السلطان بعد إحاطته بما في الأغاني واطلاعه على خباياه فهو أن يُضرب صفحا عما يتعلق بصنعة الغناء لأن اصطلاحها أصبح غير معروف فقد ذهب بذهاب أربابه ولم يبق له عين ولا أثر ولهذا ينبغي أن توجه العناية إلى ماسوى ذلك مما هو روح الكتاب أي تراجم الكتاب والشعراء، وأشعارهم وأخبارهم، مع تقديم من يستحق التقديم وتأخير من يستحق التأخير، حسب عيار الشعر لا الغناء وهكذا أمر السلطان سيدي محمد "أن يفتتح كل سفر من أسفاره الخمسة والعشرين بشاعر كبير من فحول الشعراء" وعين أن تكون بداية السفر الأول بحسان بن ثابت لأنه شاعر الرسول وأشعر شعراء الإسلام في رأيه "ثم بمن له اتصال بالجناب النبوي ككعب بن مالك والنابغة الجعدي وزيد الخيل وكعب بن زهير وأضرابهم ثم بفحول الشعراء كجرير والفرزدق وكثير وجميل إلى آخرهم وهو أبو تمام.

وإلى جانب هذا التوزيع الجديد في مادة الأغاني الأصلية أمر السلطان الأديب السلوي أن يضيف إليها مادة جديدة وهي تراجم شعراء وكتاب ظهروا بعد عصر الأغاني من أدباء القرون التالية في المشرق والمغرب، وهكذا نجد في هذه النسخة المحمدية على سبيل المثال تراجم الحريري وابن رشيق وابن شرف وابن دقيق العيد وابن خلكان وابن الخطيب وابن زيدون وآخرين من أعلام الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن للهجرة.

ويظهر من هذا كله مدى التغيير الذي أدخل على كتاب الأغاني في هذه النسخة التي أصبحت تشتمل على الأصل وزيادة، وتجدر الإشارة إلى أن مرتب النسخة يشير إلى هذه الزيادات فكلما ذكر ترجمة زائدة ختمها بهذه العبارة : "انتهت الترجمة وليست من تراجم الكتاب".

إن الصنيع الذي توخاه سيدي محمد بن عبد الله في هذا الإنجاز الأدبي الضخم يختلف عن صنيع غيره من المختصرين الذين عرفناهم في عصر الموحدين وإن هذا المجموع الكبير الذي يتألف من 25 سفرا في نسخة جميلة محفوظة في الخزانة الحسنية لجدير بأن ينشر ويطبع وماذلك على الهمم العلية بعزيز.

ولقد طبع الأغاني مرارا وكان طبعه أساسا للنهضة الأدبية في المشرق وبه تخرج في مصر علي سبيل المثال أضراب أحمد زكي باشا وطه حسين والعقاد والمازني وقد قرأت قديما كلاما لهذا الأخير يقول فيه : إنه كان حين قراءته لكتاب الأغاني يكتب زوائد وفوائد في حواشيه وأنها تقارب ضعف أصل الكتاب، و هذا هو الذي وجدناه قبل المازني بقرون في نسخة الأمير أبي الربيع الموحدي، ثم في نسخة السلطان الجليل سيدي محمد بن عبد الله.

خلفيات تاريخية وجغرافية
لتأسيس مدينة الصويرة على عهد السلطان
سيدي محمد بن عبد الله

عبد القادر زمامة
أستاذ محاضر بكلية الآداب – فاس

إن تأسيس مدينة الصويرة المعروفة الآن بهذا الإسم على شاطئ المحيط الأطلنتكي وفي موقعها هذا بالذات لم يكن عملا عفويا ظرفيا بل إنه كان نتاج مخاض تاريخي وجغرافي واقتصادي وسياسي لم تكن معطياته لتغيب عن عبقرية ملك عظيم مجدد يعرف المنطقة جغرافيا وتاريخيا معرفة جيدة. ويعرف المستجدات التي تحيط بالمغرب والملابسات الخارجية والداخلية فيه. وهو الذي أقام في المناطق الجنوبية خليفة عن والده مايقرب عن أربع عشرة سنة، أراد هذا الملك المجدد رحمه الله أن يربط في عصره حاضر البلاد بماضيها القريب والبعيد. مراعيا ماتحتفظ به ذاكرة تاريخ المغرب من وقائع وأحداث وتقلبات منذ فجر التاريخ شاهدتها هذه المنطقة حيث عرفها الفينيقيون ومن جاء بعدهم إلى أن صارت هدفا لمطامع المغامرين والغزاة في العصر الحديث.

ولعل أصدق وأعمق تفسير لتأسيس مدينة الصويرة هو ماكتبه بعض معاصري هذا التأسيس الذين كانوا مقربين إلى هذا الملك العظيم ... ولهم مساهمات في تدبير شؤون الدولة. وإطلاع على أسرار سياستها.

ونكتفي الآن بواحد منهم. وهو الكاتب الأديب السفير أحمد بن المهدي الغزال المتوفى سنة 1191 هـ = 1777 م.

فقد كتب في رحلته المفيدة المسماة :

"نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" معلومات مدققة وملاحظات مفيدة عن هذا العمل الذي عاصره. وربما أسهم فيه وراقبه عن كثب".

فينبغي أن نأخذ بعين الإعتبار ماكتبه عن تأسيس هذه المدينة معاصرو هذا التأسيس وفي مقدمتهم الغزال وينبغي أن نربط بين ظروف الزمان والمكان. وهذا شيء

أساس في الدراسات التاريخية المفيدة التي تأخذ الحدث بخلفياته المتنوعة وأسبابه المباشرة وغير المباشرة.

بعد هذا المدخل ينبغي أن نلقي نظرات جغرافية وتاريخية على هذه المنطقة الشاسعة الأطراف. وقد عرفها المؤرخون والجغرافية والرحالون. وذكروا لها سلسلة من الأحداث. ومعجما من المعالم الجغرافية والأحكام البشرية.

فهناك المدارس العلمية والزوايا والرباطات. وهناك العلماء. والزهاد. والمرابطون تجمعهم مقاصد نبيلة في الذب عن حوزة البلاد. ونشر المعرفة. وتعميق العقائد الدينية. والآداب الإجتماعية في المجتمع المغربي.

فشاطئ المحيط هناك كان قبل قرون خلت يستقبل في مراكزه ومراسيه المتعددة السفن والمراكب منذ عهد المجاذف والقلاع إلى عهد المحركات والطاقات ... ومنذ عهود المبادلات والمقايضات التجارية إلى عهود الغارات والهجومات الإستعمارية ...!

فالمنطقة وهذه ميزتها الجغرافية تكون ملتقى يجمع بين أطراف قبائل دكالة .. وأحواز مراكش ومشارف سوس ...

فهذا الملتقى البشري التاريخي الجغرافي الذي كان قبل تأسيس الصويرة الحالية وبعدها. لم يكن ليدخل في ضباب النسيان والإهمال لا بالنسبة للتقلبات الداخلية. ولا بالنسبة للمطامع الأجنبية.

ونحن نعلم أن كتب التاريخ تحدثنا. أن هناك إلى جانب الصويرة القائمة الآن :

- الصويرة التي كان موقعها قريبا من مصب وادي حاحة في المحيط. وتبعد عن الصويرة القائمة بنحو سبعة عشر كلومترا ...!

- والصويرة الأخرى التي كان موقعها قرب مصب نهر تانسيفت. في المحيط جنوب أسفي. وتبعد عنه بنحو ثمانية وثلاثين كيلو مترا ...!

ويحلو لبعض الكاتبين المتحدثين عن هذه .. الصويرة .. أن يضربوا الأسداس في الأخماس من أجل أن يتوصلوا إلى سبب هذه التسمية. وأصولها ... كما يحلولهم أن يكتبوها تارة بالسين وأخرى بالصاد ...!

ويظهر أن الأمر لايعدو أن يكون عندهم مجرد فرضيات وحدسيات. في غيبة النص القاطع ... أو الإستنتاج الصحيح ...!

ومن الملاحظ عند الباحثين والدارسين بالإستقراء والتتبع للمظان. والمصادر التاريخية. والجغرافية المكتوبة بأقلام قديمة. أن كلمة "الصويرة لاوجود لها ..." فيما

نعلم" لابالصاد ولا بالسين فيها، وإنما توجد الكلمة فيما كتب بأقلام متأخرة في الزمن... !

لهذا يحق للباحث أن يتساءل ...

- من أين جاءت هذه الكلمة ...؟

- وماهو أصلها اللغوي ... ؟

- وهل هي متولدة أو محرفة عن كلمة أخرى أصيلة. أو وافدة ... ؟

ومن المعلوم أننا لسنا على اقتناع بما يكتبه الكاتبون المتأخرون زمانيا عندما يحلو لهم أن يقارنوا بين :

- الصويرة القديمة ...

- والصويرة الجديدة ...

فهل كانت تلك التي يصفونها بالقديمة تسمى فعلا بالصويرة ... ؟

وفي أي مصدر جغرافي أو تاريخي ذكرت بهذا الإسم ... ؟

ولايفوتنا هنا أن نشير إلى ماذكره المؤرخ المغربي أبو القاسم الزياني في كتابه : «الترجمانة الكبرى» من أن الصويرة القديمة من تأسيس ملوك قبيلة حاحة. قبل الإسلام... !

فهل كان الزياني يعتقد أن ماذكره صحيح ... وأنها كانت تسمى فعلا بالصويرة... ؟

بعد هذا ننتقل إلى بعض المصادر القديمة نستنطقها عن بعض المراكز القديمة في هذا الإقليم ...

فمنذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلاد. كان بعض المؤرخين والجغرافيين يتحدثون عن المراسي والمراكز المغربية الواقعة على المحيط الأطلنتكي الذي كانوا يسمونه بحر الظلمات أو البحر المحيط. ويعطون بعض المعلومات عنها ...

وأفيد نص في هذا الموضوع هو النص الذي نجده عند اللغوي الجغرافي الأندلسي. أبي عبيد البكري المتوفى سنة 478 هـ 1085 م في موسوعته الجغرافية "المسالك والممالك" عن :

- أسفي ...

- أمقدول ...

- أگوز ...

مع ملاحظة أن الموجود في النسخة المطبوعة من هذا الكتاب. فيما يرجع لاگوز أنه كتب هكذا : قوز. بالقاف وبدون همزة ...

ـ فيقول البكري عن أگوز ... الذي يكتبه (قوز)

ـ أن السفن تنزل فيه من جميع الجهات ...!

ـ وأنه رباط يعمره الصالحون .... !

والمتتبع للأعلام الجغرافية بالمغرب يرى أن هذه الكلمة "اگوز" كانت موجودة ومستعملة في عدة جهات من المغرب ...

منها "اگوز" تفلالات ... وعندما انتقل أهلها من تفلالات إلى "مضغرة" نقلوا معهم هذا الإسم. وسموا محل إقامتهم بمضغرة : اگوز ... والكلمة تعني المرقب والمحرس الذي تراقب منه الطرق البرية والبحرية ومايأتي منها ...

والجغرافي البكري يربط بين اگوز هذا الذي نتحدث عنه وبين مدينة أغمات ... فيقول :

"وساحل أغمات. رباط اگوز ...!"

ويقدر المسافة بينهما بمائة وعشرين ميلا ... !

ونلاحظ تاريخيا أن هذا الرباط اشتهر أمره في هذا الاقليم اشتهارا واسعا .. وجذب إليه الأنظار عند المؤرخين وكتاب المناقب. لأنه كان ولمدة طويلة مركزا من مراكز العلم والتصوف والمرابطة قرب مصب تانسيفت في المحيط. جنوب أسفي. واشتهر من رجاله عدد كبير من شيوخ العلم والتربية والدين من قبيلة رجراجة الشهيرة بعطاءاتها منذ فجر الإسلام في هذه الديار.

ونشير إلى أن بعض المصادر تعتبره : مرسى صويرة تانسيفت. كما نشير إلى ماتعرض له من هجومات البرتغاليين صدر القرن السادس عشر الميلادي، حيث اتخذوا من بعض جهاته قلعة عسكرية للهجوم والدفاع في هذا الإقليم وماجاوره ... ولم ينته ذلك إلا بعد أن طرد البرتغاليون من ثغر أسفي ...

وذاكرة التاريخ راقبت أگوز منذ أيام ازدهاره واشعاعاته المتعددة الألوان إلى أن زاحمته مدينة اسفي ثم خلفته ... كما خلفت الشياظمة جارتها رجراجة ... وبذلك تغيرت في هذا الإقليم كثير من المعالم والأعلام ...

ونشرت مجلة هسبيريس سنة 1967 بحثا مفيدا عن اگوز استفاد منه الباحثون كثيرا ومن حسن حظ هذا الإقليم أن تهيئ الأقدار مؤرخا وهو أبو يعقوب يوسف التادلي ابن الزيات مؤلف كتاب "التشوف" ليكون قاضيا في قبيلة رجراجة أيام الموحدين ...!

وبذلك تهيأ له أن يعرف الشيء الكثير عن رجراجة ورجالها ومركزها في رباط .. اگوز ... وبذلك أفادنا كثيرا عن الإقليم كله في تراجمه لعدد كبير من رجال العلم والتصوف. مما يكون مادة صالحة للبحث والدرس والاستنتاج ...

أما الرحالة العبدري الحاحي ابن الإقليم ودفينه صاحب الرحلة الحافلة التي شرقت وغربت وأعربت واحجمت ... فإنه رحمه الله وسامحه. لم يفيدنا عن بلاده حاحة إلا بكونه خرج منها ... وعاد إليها ... ورغم ذلك فإن رحلته وماكتب فيها من معلومات ومشاهدات وإفادات وملاحظات في الأقطار التي زارها تجعل منه رجلا من عباقرة هذا الإقليم ...

وقد كنا نود أن نجد عند لسان الدين ابن الخطيب الذي قام برحلة إلى مراكش وأغمات واسفي ثم دكالة وأزمور ... شيئا من المشاهدات والملاحظات والتعليقات المتنوعة التي تفيدنا هنا كما أفادتنا كثيرا فيما يتعلق بأغمات. وأسفي. وماجاورهما. إلا أن ابن الخطيب وقف عند اسفي ومشاهداته فيها ثم انعطف إلى دكالة قاصدا أزمور قائلا في كتابه : "نفاضة الجراب" عن اسفي ..

"وهو لبنة التمام للمسورات بالمغرب. ليس وراءها مدينة جامعة. ولامحلة مسورة. ودونه أمم تتصل بالسوس الأقصى ..."

كما كنا نود أن نجد عند ابن قنفد القسنطيني بعض مانضيفه إلى معلوماتنا التاريخية والجغرافية والاجتماعية عن هذا الإقليم. إلا أن ابن قنفذ اكتفى بذكر أشياء تتعلق برجال التصوف والعلم ممن نسب إلى أغمات وحاحة. واعتذر بعدم وصوله إلى ماوراء أحواز مراكش .. في رحلته التي قام بها ...

أما الرحالة الوزان في كتابه : وصف افريقيا فإنه كتب عن الإقليم معلومات ومشاهدات شتى وتتبع عددا من المراكز والتجمعات البشرية وأعطى عدة احصاءات مفيدة تاريخيا واقتصاديا واجتماعيا وحضاريا ...

إلا أن فيما يرجع لاگوز اكتفى بإشارة خفيفة وكذلك فعل تابعه، "مارمول" مما يدل على أن هذا الرباط كان في عصرهما قد فقد ماكان له من أهمية وشهرة ...

والمعلومات التي قدمها الوزان ومارمول عن الإقليم نابضة إلا أنها متأثرة بالجو العام الذي كان يحيط بكل منهما :

فالوزان أسير متحفظ ... عندما كان يكتب ومارمول صليبي متعصب .. عندما كان يكتب ولاتنسى ذاكرة التاريخ مركز أفوغال الذي يبعد شرقا عن مدينة الصويرة

فنجد أربعة وعشرين كلومترا باعتباره من المراكز التي هبت منها عاصفة مقاومة الوجود البرتغالي في المغرب ... ولقد دفن فيه الشيخ الجزولي أول الأمر ... كما دفن أبو عبد الله القائم السعدي قبل نقلهما إلى مراكش.

وذاكرة التاريخ تابعت قبيلتي : رجراجة وحاحة. وهما من فروع مصامدة السهول. ثم راقبت قبيلة الشياظمة بعد وصولها إلى هذا الإقليم ... وهي من عرب معقل ...

كما أن حركة التاريخ المغربي في مدها وجزرها وتقلباتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية تركت أثارها في هذا الإقليم مما نجد له الأثر الواضح في كتب التاريخ والمناقب والفهارس والرحلات ... مما يصعب تتبعه الآن.

ومن الطريف أن نجد شخصية ذات أبعاد ووزن في عصرها وبعده. وهي شخصية أبي علي اليوسي تقوم برحلة إلى هذا الإقليم أواخر القرن الحادي عشر الهجري. وتشير إلى كثير من معطياته. وترتبط بعدد من رجاله وتقدر فيهم النبل والفضل والمعرفة والإستقامة.

وقد كان أبو علي اليوسي في رحلته هذه إلى هذا الإقليم الشاسع الأطراف ضيفا على الزاوية السكياطية المعروفة وعلى أستاذها الشيخ ابن جماعة القاضي السكياطي وأثناء المحاورات والمذاكرات ابتدأ اليوسي كتابة مؤلفه الشهير باسم المحاضرات.

ولعله من المناسب بعد ذكر هذه الخلفيات الجغرافية والتاريخية لتأسيس مدينة الصويرة في عهد السلطان المجدد والملك العظيم بن عمر بن عبد الله الذي قضى في خلافته عن والده في الأقاليم المغربية الجنوبية مايقرب من ثلث قرن ... ان نعود إلى الخلفيات السياسية وأهمها وأعمقها أن هذا الملك العبقري استغل استغلالا ذكيا ذلك التخبط الإستعماري الذي وقعت فيه الدول الأروبية وهي تتسابق إلى الشرق الأقصى وجزره النائية وراء المحيطات، باحثة عن المواد الأولية لصناعتها. كما استغل الفتور الذي دخلت فيه الدولة العثمانية فلم يعد لها تهديد ولا احتكاك بالسياسة المغربية ... لذلك ربط علائق ودية متنوعة ممتدة من الولايات المتحدة إلى الخلافة العثمانية مرورا بدول أروبا الغربية التي أخذت ترتب أوراقها الإقتصادية.

وكان تأسيس مدينة الصويرة داخلا في نطاق هذه السياسة التي انتهجها هذا الملك العظيم الذي عمل على حضور المغرب في الساحة السياسية والاقتصادية.

ملاحظات أولية عن العمارة الدينية في عهد سيدي محمد بن عبد الله [1757 م - 1790 م] مدينة السويرة [1] كنموذج

مينة المغاري

كلية الآداب - الرباط

تقديم :

تعتبر فترة حكم السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله فترة تحولات على عدة مستويات.

ينصب اهتمامنا في هذه المداخلة على العمارة الدينية انطلاقا من نموذج مدينة "السويرة". فما هي المميزات الرئيسية لهذه العمارة وبالخصوص منها المساجد الجامعة ؟ وهل تتبعت العمارة نفس التطور الذي شاهدته الميادين الأخرى ؟ وهل سجلت تجديدات فما يخص التوزيع الهندسي والطابع الفني لها ؟

قبل أن نتطرق لهذه العمارة للتعرف على ملامحها، لابأس أن نلقي نظرة خاطفة على أهم المنجزات الأثرية في عهد سيدي محمد بن عبد الله.

I - لمحة عن الإنجازات الأثرية في عهد سيدي محمد بن عبد الله :

رافق اهتمامات السلطان العديدة إنشاء عدد كبير من البنايات في المدن المغربية. وتتحفنا المصادر التاريخية بلوائح طويلة للقصور والقصبات والأضرحة والمساجد والمدارس والحدائق ... فصاحب الاستقصا [2] مثلا يذكر خمسة وثلاثين مسجدا وجامعا ضمن لائحة مآثر السلطان (منها ماأسسه ومنها ماجدده). واهتم سيدي محمد بن عبد

(1) نفضل كتابة اسم المدينة بالسين : السويرة وذلك عوض (الصويرة) لاقتناعنا بأن الإسم تصغير للسور أي القلعة الصغيرة وهذه الصيغة متداولة في أسماء أخرى مثل القصيبة والبريجة والقليعة الخ ... وعلى أي حال فاسم المدينة بالسين واردة في بعض الوثائق المخزنية. كما أن ابن سعيد الصديقي يقول : "ولما استخرجت زبدته وصفيت شهدته سميته "ايقاظ السريرة لتاريخ السويرة".

انظر الصديقي ، ايقاظ السريرة لأخبار الصويرة. مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء الجزء 1 = ص 7.

(2) الناصري، كتاب الاستقصا، ج VIII - ص. 69.

الله بالسواحل المغربية بالخصوص منها الأطلسية، وذلك للأهمية التي أصبحت لهذا المحيط في المواصلات الدولية. واهتم ببعض المدن كأنفا وفضالة والعرائش والجديدة والسويرة. وأنشأ أوراشا بحرية بجوار جامع حسان بالرباط، كما أنشأ بنفس المدينة جامع السنة (سنة 1785 م) وجامع مولينا ـ وهذان الجامعان حظيا بدراسة من طرف جاك كايني في أطروحته عن مدينة الرباط [1] ويشير المؤرخ الضعيف الرباطي إلى مساجد أخرى من نفس الفترة قائلا :

" ... وأخذ يفصل في المدينة كالأزقة والأسواق والحوانيت والديار والدروب وغير ذلك، وفرق المال على العبيد وأمرهم ببناء الدور، وفصل نحو الخمسة مساجد، منها جامع السنة وجامع الودايا وجامع أهل مراكش وجامع أهل سوس وجامع أهل فاس..."[2]

أما مراكش فقد نالت حظا أوفر من عناية سيدي محمد بن عبد الله إذ خلف بها القصور والحدائق والأضرحة والمساجد وغيرها. ويمكن الإطلاع على الملامح الرئيسية لهذه العمارة المراكشية في مونوغرافية Gaston DEVERDUN حول مراكش [3].

ويضيف المقام لو أردنا ولو في عجالة الإحاطة بكل ما أنجزه السلطان سيدي محمد بن عبد الله من مآثر عسكرية ومدنية ودينية في مختلف المراكز الحضرية المغربية.

لكن من الملاحظ أن العمارة الدينية نالت القسط الأوفر من بين كل تلك الإنجازات. لذا إرتأينا أن نوليها اهتماما خاصا في هذه المداخلة المتواضعة.

ولصعوبة الإحاطة بكل الإنجازات بمجموع التراب المغربي حصرنا اهتمامنا على مدينة السويرة كنمودج.

II ـ العمارة الدينية بالسويرة :

ابتدأت أعمال البناء الأولية بالسويرة سنة 1760 م تحت إشراف مهندس فرنسي يدعى Nicholas THEODORE COURNUT وقد اختطها على نمط المدن الأوربية. فجاءت مربعة الشكل لها أ ربعة أبواب ذات شوارع عريضة ومستقيمة. إلا

---

(1) CAILLE (J), La ville de Rabat des origines jusqu'au Protectora 3, vol et Van Oest Paris, 1949.
T.I. PP. 457 - 473. TII fig. 135. 138 T, III pl LIX et LXIII. Molina TI P 474.

(2) الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف ... تحقيق أحمر العماري. طبع بالرباط سنة 1986، ص 177.

(3) DEVERDUN (Gaston), Marrakech des origines à 1912; éd. Technique n. Africaines 2 vol. Rabat, 1966.

أنه رغم الطابع الأوربي الطاغي - فالسويرة لها في نفس الوقت طابع إسلامي يتمثل في مجموعة من المرافق الخاصة بالمدن الإسلامية من قيساريات وأسواق وحمامات وخصوصا الجوامع وقد خلف بها سيدي محمد بن عبد الله ثمانية مساجد حسب ماذكرته المصادر التاريخية. وحسب تحرياتنا الميدانية [1].

إن الدراسة الأثرية لهذه البنايات لتطرح محموعة من القضايا نذكر منها :

- قلة الدراسات عن السويرة سواء باللغة العربية أو باللغات الأجنبية.

- انعدام الدراسات الخاصة بالآثار الإسلامية لمدينة السويرة، قلة المعلومات الأثرية بالمصادر التاريخية. فقد دون المؤرخون المغاربة أمثال الزياني والضعيف وأكنسوس والناصري لوائح منجزات طويلة تنسب إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، إلا أنها تكتسي في غالب الأحيان طابع السرد والشمولية، وتفتقر إلى المعلومات الدقيقة.

- استعمال مصطلح المسجد للدلالة أحيانا على الجامع فقليلا مايقترن بالأعظم أو الكبير - الشيء الذي يحتم على الباحث التأكد من الوظيفة الحقيقية للعمران وذلك بالقيام بالعمل الميداني.

- مازالت جل العمارات الدينية ماثلة حتى وقتنا هذا بعد أن طرأت عليها تجديدات عبر العصور أفقدتها أحيانا صبغتها الأصلية.

– جوامع ومساجد سيدي محمد بن عبد الله بالسويرة :

تنسب غالبية المساجد والجوامع بمدينة السويرة إلى مؤسس المدينة وهي حسب أهميتها :

- جامع بن يوسف [2] ومدرسته.
- جامع القصبة القديمة ومدرستان
- مسجد سيدي أحمد بن محمد أو مسجد الحدادين.
- مسجد الجزيرة.
- مسجد البواخر الذي تحول إلى مسجد جامع فيما بعد [3].

---

(1) لقد قمنا بدراسة ميدانية هدفها الجرد الأولي وذلك خلال صيف 1983 ثم خلال فترات لاحقة آخرها ربيع 1988.

(2) يطلق عليه كذلك سيدي يوسف. وابن يوسف أطلق عليه لذكرى جامع بن يوسف بمراكش.

(3) قام الباشا قاسم البخاري بأمر من السلطان ببناء المسجد المذكور وقد الحقت به مدرسة وأعد للخطبة منه 1260هـ/1844 م

أنظر : الصديقي، إيقاظ السريرة لأخبار الصويرة. فاس، 1961. ص 37.

ـ مسجد أهل أگادير وقد جدده المولى سليمان وأضاف إليه الصومعة.

ـ مسجد مدشر الدبابات.

ـ مسجد زاوية الشرادى.

نلاحظ أن معظم هذه البنايات يمثل مساجد صغرى ومايمكن تسميته بمساجد الحومات(8/5) خمسة من بين الثمانية المذكورة، وكان السلطان يخصص مساجد لأهم الفئات الإجتماعية حسب انتمائها القبلي وتتفق النصوص التاريخية في كون السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد عمل على تعمير المدينة وذلك بجلب السكان من مختلف أنحاء البلاد من حواضر وبوادي قريبة أو بعيدة. وقطنت الفئات في الحومات، فنجد حومة آل أگادير وحومة البواخر وحومة الشرادى ... لكل حومة مهمة مسجد صغير لأقامة الصلوات الخمس اليومية : مسجد أهل أگادير، ومسجد الشرادى الخ ...

كما كانت تخصص مساجد لجنوده البواخر. ويقول صاحب الاستقصا "وعمر مساجد غير ذلك للأحرار والعبيد" [1].

وأهم هذه البنايات جامعا القصبة وابن يوسف اللذان سنقف عن تفاصيلهما المعمارية.

آ ـ الجامع الأعظم بالقصبة :

يقع وسط القصبة القديمة [2] وتقام فيه صلاة الجمعة. ومما لاشك فيه أنه أول جامع بني بالمدينة خلال السنوات الأولى لتشيدها (مابين 1760 ـ 1764).

ـ وهو جامع ضخم البناء ومتناسق الأجزاء ويحتل مساحة مربعة الشكل(26مx27م)

ـ تؤدي إليه ثلاثة أبواب رئيسية وباب صغير يسمى بباب المدرسة.

ـ ينقسم بيت الصلاة إلى ثلاثة بلاطات موازية لجدار القبلة على شكل النموذج المديني (نسبة إلى جامع الرسول صلعم بالمدينة).

وقد ظهر هذا النموذج بالمغرب في فترات مبكرة (القرويين والأندلس بفاس) ثم عوضه المرابطون وبعدهم الموحدون والمرينيون بالنموذج الأندلسي (تتميز بممرات عمودية على جدار القبلة).

---

(1) الناصري، استقصا ... ج. ص 196.

(2) بدأت هذه القصبة تحمل اسم القصبة القديمة بعد تأسيس قصبة جديدة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن سنة 1278 هـ/ 1861 م.

- تعلو هذه البلاطات سقوف من البرشلة المزخرفة وهي بديعة الصنع. وقد زخرفت سقف البلاطة الأولى بزخارف مغايرة لباقي البلاطات [1].

- له صحن جد واسع تتوسطه نافورة مائية ولاتحيط به الأروقة الجانبية.

- منارته ضخمة وعالية وهي بسيطة في شكلها : واجهاتها مغطاة بطبقة من الجير وتتخللها بعض الفتحات الصغرى وقد نظمت مجموعة من الأحجار المنحوتة في الأركان. وتكون هذه الأحجار في نفس الوقت مادة زخرفية. ينتهي بدن المنارة بشرافات مسننة - أما المنور فهو ينتهي بسقف هرمي - وهذه ميزة تمتاز بها منارات جوامع سيدي محمد بن عبد الله بالسويرة بالخصوص. كما نجدها في بعض الجوامع بمدينة الرباط كجامعي السنة [2] والمولى سليمان.

يمتاز جامع القصبة عموما بالبساطة وقلة التزويق وترتكز الزخارف على حنية المحراب الذي يحيط به إطار من الجبس المنقوش. وقد استعملت فيه العناصر النباتية والهندسية والخطية على السواء. وقد نقشت عليه هذه الأبيات الشعرية.

أيها الواقف المصلي ببيت شاده للورى سمي النبي
ملك قد سمى على الكل طرا وأفاض حباه في كل حي
أصدق الحق في صلاتك عزما لتنال رضى الكبير العلي

وقد حظي الباب الرئيسي كذلك بنوع من الإهتمام ويشكل الحجر المنحوت مادته الزخرفية الأساسية :

تفتح بوابة جامع القصبة عن طريق قوس نصف دائري قليل الإنكسار محمول على سواري رشيقة منحوتة في الحجر. ويزدوج هذا القوس بقوس مماثل متعدد القصوص وبوسطه خاتم يربطه بالإطار المستطيل الذي يحيط بمجموع الباب. وفي الجانبين العلويين للقوس شكل زخرفي من الحجر يذكر بما نجده في البرشلات [3]. يذكرنا هذا الباب في هيئته الزخرفية بالأبواب المغربية الأندلسية.

---

(1) لقد لوحظت هذه الميزة في مجموعة من مساجد سيدي محمد بن عبد الله (السنة بالرباط. الروىء بمكناس) ويبدو أنها تمييز لأهمية البلاط الأول المحادي لجدار القبلة.

(2) صومعة جامع السنة قبل الترميمات التي طرأت عليه مؤخرا. أنظر :

CAILLE (J), OP. CIT. Voir p. I LX in vol III

(3) أو مايسمى بالأطباق النجمية : polygones étoilés

تمثل زخارف واجهة المحراب وزخارف البرشلة والباب الرئيسية الزخارف الوحيدة بجامع القصبة الشيء الذي يبرز الطابع البسيط الطاغي على هذه العمارة.

أما ملحقات الجامع فتتمثل في مدرستين كتب عنهما الصديقي كالتالي :"أحداهما لازالت قائمة وءايلة إلى التلاشي مشتملة على نيف وعشرين بيتا سفلية وعلوية والأخرى أغلق بابها قديما ولعبت بها أيدي التلاشي والتخريب" (1).

ب ـ مسجد بن يوسف :

ـ يوجد بسوق الحدادين وكانت تقام به صلاة الجمعة بعد جامع القصبة.

ـ بني حسب نقوش خطبة سنة 1194 هـ / 1780 م (2) وهذا نص تلك النقوش :

لوجـه الله سيدنـي الإمــام	وزيـــن بهجتــي الملــك الهمـــام
محمـد بـن عبـد الله شمـس	يضــيء بنـــور طلعتـــه الأنـــام
ليـوم المولـــد النبـوي بسبـع	على ماقيل شيدني الإمام 1194

ـ مربع الشكل كذلك ولكن مقاييسه أهم نسبيا من مقاييس جامع القصبة (34مx35م). وهذا شيء طبيعي لإزدياد تعمير المدينة إبان تاريخ التشييد.

ـ تؤدي إليه ثلاثة أبواب رئيسية بالإضافة إلى الباب المخصص للخطيب. وهي موزعة كالتالي : اثنان بشارع الحدادين والثالث يؤدي للمدرسة.

ـ صحنه واسع جدا مبلط بالزليج وفي وسطه نافورة مائية أضيفت إليه أقواس جانبية بعد أن كان خاليامنها في الأصل (3) وذلك بتاريخ 1333 هـ/1914 م. مما شوه الشكل العام للمسجد الجامع.

ـ تؤدي أقواس حدوية منكسرة إلى بيت الصلاة. وهو ينقسم إلى ثلاث ممرات موازية لجدار القبلة وتعلوها سقوف من البرشلة المزخرفة تزداد أناقة في البلاط المحادي لجدار القبلة.

ـ يتوسط المحراب جدار القبلة، وتحيط به زخارف منقوشة على الجبس أهمها نقوش خطية (4).

(1) الصديقي، ايقاض ... ص 34.

(2) اتضح لنا بعد تطبيق عملية الترقيم عن طريق حروف الجمل أن واضع التاريخ 1194 هـ على "شيدني الإمام" قد ارتكب خطأ ـ فهي تعطينا 1187 هـ.

(3) الزكراكي، الشموس المنيرة لأخبار الصويرة. المطبعة الوطنية الرباط، 1935 ـ ص 44.

(4) أنظر أعلاه، ص 5.

من ملحقات الجامع جانب من بيت الصلاة خصص للنساء ومدرسة بها مايقارب العشرين بيتا حسب الركَراكَي في الشموس المنيرة. وقد حولت إلى ملجأ خيري للعجزة والضعفاء سنة 1933 م.

المنارة وهي ضخمة وبالغة في الإرتفاع ولايختلف شكلها عن صومعة جامع القصبة.

III ـ استنتاجات عامة :

تتخذ جوامع الخطبة عموما الشكل المربع أو القريب منه. بن يوسف 34 م x 35م. وهذا الشكل الهندسي يتكرر في مدينة الرباط [1]. فجامع السنة مربع الشكل ومقاييسه 74،70 م x 74،50م ويتخذ جامع مولينا نفس الشكل 23،54 x 23،66م.

وهذا يعتبر قطيعة عما هو مألوف في المساجد المرينية والسعدية على سبيل المثال. هل يمكن اعتبار ذلك عودة مقصودة إلى النماذج الأصلية ؟ فالتصميم المربع يذكر بالمساجد الإسلامية الأولى، كجامع الرسول (صلعم) بالمدينة ومسجد قباء ثم جامعي الكوفة وواسط [2] أم أن المدينة الجديدة قد أفسحت مجالا طبيعيا لهذا الصنف من التصاميم التي تمتاز أيضا باستقامة خطوط جدرانها.

ـ تنقسم هذه الجوامع إلى قسمين رئيسيين ـ قسم مسقوف أو بيت الصلاة وقسم غير مسقوف الصحن أو الفناء. وتشغل الصحون مساحات مهمة جدا تفوق مساحة بيت الصلاة. وهذه ميزة تنفرد بها جوامع سيدي محمد بن عبد الله ـ ويبدو أنها تطور منطقي للعمارة الدينية المغربية ـ فإذا كانت مساحة الصحون في المساجد الموحدية تتقلص بالمقارنة مع بيوت الصلاة ـ ففي الفترتين المرينية [3] ثم السعدية [4] نلاحظ أن

---

(1) يختلف جامع الروى بمكناس بشكله المتطاول 88 م x 60 م. أنظر :

MASLOW (B), les mosquées de Fes et du Nord du Maroc. ed. d'art et d'histoire - Paris 1937. pp. 152 - 157 fig 77.

(2) يتفق كل من K.A.C. CRESWELL و L. GOLVIN في كون مسجد الرسول (صلعم) مربع الشكل ومقاييسه 100 دراع x 100. انظر :

CRESWELL (K.A.C), "Architecture" in E.I 2me ed. P. 629

GOLVIN (Lucien), Essai sur l'architecture musulmane . ed. Klinisieck, T. 1. p. 34.

(3) بالنسبة لتصاميم بعض النماذج من الجوامع المرينية أنظر

MARCAIS (G), L'architecture musulmane d'occident. ed. Arts et Metres graphiques, Paris, 1954 - 278.

تصميم جامع ميري الهلاوي ص، 278،

(4) Op. cit - Mosquées Mouassin, Bab. Doukkala, p - 385.

المساحتين تقتربان نسبيا ـ ففي الجوامع المرينية يشغل الصحن مايقرب من نصف البناء ـ وربما تعود هذه الأهمية للدور الوظيفي الذي أصبح للصحن ـ فهو يلعب كذلك دور المسجد خصوصا أيام الحر ويدل على ذلك في تلك الفترة الإهتمام البالغ بالمحراب الصيفي ومايميز به من رخارف فيما يسمى بالعنزة. غير أن الصحون في هذه الفترات مازالت تحتفظ بالأروقة الجانبية عكس ماهو عليه الحال بالنسبة لجوامع سيدي محمد بن عبد الله.

ـ أما المنارات، فبناؤها الضخم يتميز بالمتانة ولاتطبعها الجمالية الفنية المعتادة في الصوامع الموحدية أو المرينية واكتفى البناؤون بتبيضها بطبقة من الجير. وتتلخص زخارفها في الحجارة المنجدة بالأركان وبشرافات حجرية مسننة في أعلاها. وتتردد على تلك الواجهات بعض الفتحات الصغرى الضيقة. وينتهي المنور بسقف هرمي عوض القباب المعتادة في المنارات المغربية السالفة.

ـ من أهم ملحقات جوامع مدينة السويرة المدارس. فقد ألحقت بجامع القصبة مدرستان ومدرسة بجامع بن يوسف، بل نلاحظ أن هذه الملحقات ليست خاصة بالجوامع الكبرى فقد تلحق المساجد الصغرى كذلك بمدرسة كما هو الشأن لمسجد البواخر، ومسجد أهل أگادير. ونلاحظ أن جل المساجد التي ذكرتها النصوص التاريخية لفترة سيدي محمد بن عبد الله يقترن ذكرها بمدرسة : (جامع الروى ومدرسته، جامع السنة ومدرسته، جامع تازة ومدرسته، جامع الريساني ومدرسته الخ ...) [1].

وتؤكد هذه الميزة ماوصف به السلطان من شغف بالعلم والفنون الأدبية وغيرها. وقد عمل علي استيراد مالم يكن رائجا في المغرب من مؤلفات وأمر بتوزيعها على المدارس والمساجد.

ـ تنفتح الأبواب الرئيسية عموما على جدران الصحن وعددها ثلاثة وهي عبارة عن بوابات ضخمة قليلة البروز في واجهات البناء ـ وتمتاز بأقواسها الواسعة الحدوية الشكل والمبنية بالحجر المنحوث ـ وهي تذكر بأبواب الجوامع بمدينة الرباط.

---

(1) الناصري، استقصا ... ج 8، ص. 69.

خاتمة

تكتسي المساجد الجامعة لسيدي محمد بن عبد الله بالسويرة أهمية قصوى بحيث محمد بن عبد الله. فهي جوامع مربعة الشكل مستقيمة ذات صحون جد واسعة دون بالرغم من التغييرات المختلفة التي لحقت بها احتفظت بتخطيطها الأصلي واستقامة جدرانها ـ وتمكننا الدراسة المقارنة بينها وبين جوامع السلطان بمدينة الرباط من وضع بطاقة تعريف أولية للنموذج المعماري للجوامع بالساحل الأطلسي على عهد سيدي أروقة جانبية بلاطات بيوت الصلاة موازية لجدار القبلة لايتعدى عددها3). وهي سمات خاصة بالتخطيط العام للتوزيع الهندسي بالدرجة الأولى. لأن دراستنا هذه لم تمس بعد تفاصيل الجبس المنقوش والسقوف الخشبية المطعمة والأقواس والحنايا المتنوعة، مع العلم أننا نلمس خلالها عناصر فنية مغربية ـ اندلسية. ورغم ماوصف به الفن المغربي بالنسبة لهذه الفترة من "تحجر وجمود وعقم ونظرا لغياب التأثير الأندلسي المباشر" فإننا نرى أن العمارة الدينية في عهد سيدي محمد بن عبد الله لتشكل فترة متميزة في التطور المعماري ببلادنا. ولاتخلو من الإبتكار والتجديد ليس فقط نظرا للإبداع الأجنبي على يد العلوج وإنما أيضا بسبب استلهام بعض العناصر من المدرسة الفنية المغربية التقليدية.

مراكش في عهد سيدي محمد بن عبد الله :
الفن المعماري الديني

حسن بلعربي (*)

نبدة تاريخية

إن العديد من المؤلفات والمقالات التي تتعلق بتاريخ المغرب تشير إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وتحدده عامة مابين سنة 1757 م و 1790 م. لكن نشاطه في الواقع شمل أيضا فترة ماقبل وصوله إلى الحكم، حيث كان خليفة لأبيه على مدينة مراكش من سنة 1746 م إلى سنة 1757 م.

وخلال هاتين الفترتين الطويلتين أمر سيدي محمد بن عبد الله بتشييد وترميم عدد كبير من المباني المتنوعة. ومن العوامل التي لعبت دورا مهما في تحقيق هذه الإنجازات، قوة شخصية هذا الأمير وكذا استقرار البلاد سياسيا، وازدهارها اقتصاديا.

وقد شملت تلك الإبداعات العمرانية جل الحواضر، ولائحة المنجزات التي دونها المؤرخون المغاربة، لاتخلو من دلالة. غير أن الإنجازات المعمارية التي شهدتها مدينة مراكش في عهد هذا الأمير، تظل من أكبر إبداعاته، وذلك بسبب الإهتمام الخاص الذي حظي به كخليفة أولا، ثم كسلطان فيما بعد، حيث جعل من مدينة مراكش عاصمة ملكه.

مراكش مدينة مهدمة

إن مدينة مراكش التي كان سوف يتولى أمرها سيدي محمد بن عبد الله كخليفة طوال عشر سنوات، كانت في حالة جد متردية مما أثار انتباه الملاحظين الأجانب وكذا المؤرخين المغاربة فتناولوها في كتابتهم.

لويس دوشيني Louis de chénier الذي كان يقوم بمهمة قنصل فرنسا بالمغرب من سنة 1767 م إلى سنة 1782 م، وصفها في الجزء الثالث من كتابه أبحاث تاريخية

(*) محافظ متحف دار السي سعيد/مراكش

حول"**المور**" ص 49 يقول : "إن مدينة مراكش، التي كانت معرضة للخراب من طرف الغزاة الذين نهبوها ودمروها، لم تحتفظ إلا بهيكلها (...)، وأصبح داخل المدينة المهجورة من السكان عبارة عن خلاء ..."

أما الناصري فقد جاء في الجزء السابع من كتابه **الاستقصا** ص 193 ـ 194 ما يلي : "لما وصل سيدي محمد رحمه الله إلى مراكش نزل بقصبتها وهي يومئذ خراب".

مباني عديدة ومتنوعة

تبعا لقولة الناصري في الجزء الثامن من كتابه المشار إليه أعلاه، الاستقصا ص69، نجد أن سيدي محمد بن عبد الله قد شيد وجدد وأعاد بناء معظم المباني الدينية بمراكش. فهو يقول : "وخلد ـ أي سيدي محمد بن عبد الله ـ آثارا كثيرة بالمغرب، فمن ذلك بمراكش تجديد ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ومسجده، وضريح الشيخ الجزولي ومسجده، وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده، وضريح المولى علي الشريف ومسجده الأعظم وضريح الشيخ ميمون الصحراوي ومسجد الملوك ببريمة ومدرستاه.

وتجديد جامع المنصور والمسجد الأعظم بباب دكالة، والمسجد الأعظم بباب هيلانة، والمسجد الأعظم بالرحبة، ومساجد القصبة ومدارسها الست ...".

برجوعه إلى المؤرخين السابقي الذكر، وباعتماده على معطيات علم النقوش، يحدد دوفيردان Deverdun هو الآخر، منجزات سيدي محمد بن عبد الله في الجزء الأول من كتابه مراكش **من النشأة إلى 1912** م، ص 509، كما يلي : "إن مايمكن تأكيده دون ارتكاب خطأ كبير هو أن مسجد وضريح مولاي علي الشريف، وأضرحة سيدي عبد العزيز وسيدي محمد بن صالح وسيدي محمد بن سليمان وأبي العباس السبتي، هي على شكلها الحالي من إنجاز سيدي محمد بن عبد الله.

ويمكن إضافة ضريح سيدي ميمون الصحراوي إلى هذه اللائحة، وربما ضريح سيدي الغزواني مول القصور. أما ضريح سيدي أحمد السوسي ومسجد سيدي إسحاق فقد بدأ تشييدهما في عهده".

إلى جانب هذه المباني التي لم يتمكن من دراستها بالتفصبل، يقدم المؤلف وصفا مختصرا لمساجد بريمة ودرب دار البديع ودرب الشتوكة.

ومن خلال بحثنا الشخصي لهذه المباني الدينية، يظهر أن البعض منها، على وضعيته الحالية، يوحي بإنتمائه إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله، أما البعض الآخر فلم تبق منه سوى بعض المعالم.

وندرج في الصنف الأول مساجد بريمة ودرب دار البديع ودرب الشتوكة ومولاي علي الشريف وكذلك أضرحة مولاي علي الشريف وسيدي عبد العزيز وسيدي الغزواني وأبي العباس السبتي. غير أن ضريحي سيدي بن سليمان الجزولي وسيدي محمد بن صالح لم ينجز منهما في عهد سيدي محمد بن عبد الله إلا زخرفة القبتين.

أما مجموعة الصنف الثاني فقد عانت من إصلاحات تحول دون تحديد طبيعة الترميمات، التي تكون قد طرأت في عهد سيدي محمد بن عبد الله.

من بين هذه المباني الدينية، ثلاثة مساجد تقع جنوب المدينة القديمة ومحادية لقصر السلطان. وهي مساجد بريمة ودرب دار البديع ودرب الشتوكة. أما المباني الأخرى فتوجد شمال الخط الواصل بين باب أيلان وباب النقب.

ونحدد موضوع عرضنا هذا في المساجد الأربعة التالية :

مساجد بريمة ودرب دار البديع ودرب الشتوكة ومولاي علي الشريف.

وذلك لأسباب منهجية وموضوعية تتلخص في :

أولا : كون تاريخ بناء هذه المساجد يمكن ضبطه.

ثانيا : إن هذه المنجزات الأربعة تفضي بنا إلى الحديث عن الفترتين.

جامع بريمة :

إن من بين المباني الدينية الثلاثة المجاورة لقصر السلطان جامع بريمة، الذي كان يطلق عليه اسم "جامع الملوك"، وهو الوحيد الذي أورده المؤرخون المغاربة للدولة العلوية في كتاباتهم تحت اسم "بريمة". ويعتبر مؤرخ القرن الثامن عشر، الزياني، أول من أشار إلى ذلك حيث أرجع تأسيسه إلى سيدي محمد بن عبد الله في مدة خلافته على مدينة مراكش.

أما الناصري الذي إستقى معلوماته من الترجمان، فقد ذكرها في الجزء السابع من كتابه الاستقصا ص 196، قائلا : " (...) ثم أصلح هذا الخليفة جامع المنصور الذي بالقصبة إذ كان متهدما يومئذ، ثم أسس مسجدا حافلا بديعا ...".

أما ابن الموقت، فيشير في الجزء الثاني من كتابه السعادة ص 188، أن تشييد الجامع جاء كأمر من سيدي محمد بن عبد الله في عهد ملك والده.

من خلال هذه الإستشهادات، يمكن استنتاج حقيقة لاريب فيها وهي أن جامع بريمة قد شيد بأمر من سيدي محمد بن عبد الله في عهد خلافته على مراكش (1746 م - 1757 م) وذلك في فضاء غير بعيد عن قصره.

أما في مجال النقوش، فإننا نتوفر على كتابة تاريخية لم يسبق نشرها ولاقراءتها. وأهميتها أنها تعطينا اسم السلطان المؤسس وتاريخ التأسيس.

- توجد بالباب الغربي للمسجد ونصها :

على التقى اسسني محمد الملك الكفيل   ونشأتي تاريخها تأسيس مالك جليل

وبالتالي فإن تاريخ البناء مشار إليه في آخر السطر الثاني بالحروف ابتداءا من كلمة "تأسيس"، ومقابل هذه الحروف بالأرقام 1175 هـ. (1761/62م).

لازال هذا الجامع محتفظا على معالمه الأصلية، رغم الإصلاحات التي عرفها، ونذكر بالخصوص، الأولى التي تمت سنة 1954 م والتي مست البلاط الموازي لجدار القبلة حيث بني حاجز على شكل مقصورة مدرعة (blindé) كما تم فتح نافدتين لإضاءة هذا الجانب من قاعدة الصلاة. والثانية حوالي 1964 م : إصلاح جدرانه وتعويض زليج أرضية صحنه مع فتح باب جديد وإغلاق باب قديم، كما تم إعادة سقفين.

ونظرا لمساحته المهمة، يعتبر من أوسع المباني الدينية بمراكش في عهد سيدي محمد بن عبد الله.

ويذكره دوفيردان Deverdun في الجزء الأول من كتابه مراكش ...، ص 487 - 489، مقدما وصفا مختصرا للجامع ومشيرا بالخصوص إلى تصميم قاعة الصلاة التي يعتبرها قلبا "لجميع المعطيات المألوفة للسلم الهندسي المعماري للمساجد"، كما يرجع بناؤه إلى مهندس معماري غير مسلم "لجهله للقيم الطقوسية والسلمية للمحراب".

وفي الحقيقة إن لهذا المسجد شكلا متميزا بفعل موقع قاعة الصلاة بالنسبة لصحن أكثر اتساعا، كما ينفرد أيضا بالهيكلة الداخلية لقاعة الصلاة، التي لانجد بها ذلك التوزيع التقليدي لعدد من الأجنحة المرتبة بطريقة متوازية لجدار القبلة، بل هي على شكل مساحة مربعة، تعلوها قبة كبيرة، ومحاطة بأروقة. ويتصدر المجموع، ويشكل مواز للمحراب، فضاء واسع نسبيا.

واعتمادا على الشهادات التاريخية المعروفة وعلى هذه الكتابة، فإن استنتاجاتي فيما يتعلق بإشكالية هذا المسجد من حيث الهيكل، تهم أساسا جانب التسلسل التاريخي للبناء إذ أن هذا البناء قد تم على مرحلتين.

في مرحلة أولى، شيد مسجد صغير الحجم يضم مساحة قاعة الصلاة الحالية بأكملها. وفي هذه الحالة، يكون تاريخ تشييد هذا المسجد قد تم في عهد إمارة سيدي محمد بن عبد الله وهو إذاك خليفة لأبيه على مراكش في نفس الفترة التي بدأ فيها بناء قصره. وباعتبار حجم هذا المسجد الصغير، يكون قد شيد بسرعة وهو كاف لأمير.

ويمكن أن نفترض أن ماسمي "بمسجد الملوك" كان يضم الرواق الموازي للمحراب كفضاء وحيد للصلاة، أما الصحن فكان يتكون من ساحة القبة المربعة الحالية والأروقة الثلاثة المحيطة بها.

وفي مرحلة ثانية، أضيفت لهذه النواة الأولى زيادات هي : الصحن الكبير والبلاط الذي يواليه قبلة، وكذالك القاعتين المربعتين الموجودتين بأطرافه. وإذاك أدمج الصحن الأول في قاعة الصلاة.

لقد بدأت أشغال توسيع هذا المسجد بعد تقلده مهام الحكم أي بعد سنة 1757 م وتمت سنة 61 / 1760 م.

مسجدا درب دار البديع ودرب الشتوكة

بالنسبة لهذين المسجدين لاتتوفر على معطيات تاريخية مدققة بتاريخ تشييدهما. بيد أن الزياني في كتابه **الترجمان**، ص 125، يشير إلى أن خليفة مراكش قد شيد بالقصبة، بالإضافة إلى جامع بريمة، مساجد أخرى لحرسه : "وأعطى العبيد مايبنون به دورهم وأسقط النوايل وبنى لهم المساجد في القصبة ...".

أما الناصري فهو أكثر تدقيقا في الجزء السابع من كتابه الاستقصا ص 196، عند قوله : "وعمر مساجد أخرى" يجب ذكر مسجد درب دار البديع ودرب الشتوكة على الأقل.

مسجد درب دار البديع

يعرف هذا المسجد حاليا باسم "مسجد درب دار البديع" بحكم موقعه بحي دار البديع، بالقرب من قصر البديع السعدي. وكان أصلا يحمل اسم مسجد "البخاريين".

ويقع المسجد فعلا في الشمال الغربي لدار المخزن، في الحي الذي لازال يقطنه إلى يومنا أحفاد الجنود الذين كانوا يشكلون حرس السلطان. وقد ورد اسم "البخاريين" المنسي اليوم، في تصميم مخطوط بالعربية يرجع تاريخه إلى أواخر القرن التاسع عشر، والذي تعرفنا عليه بفضل النسخة التي نشرها دوفيردان في الجزء الثاني من كتابه مراكش ...، وهو في الحقيقة عبارة عن مشروع لتوسيع المسجد. إلا أنه بعد وقوفنا على الأماكن المذكورة، وبالمقارنة مع التصميم الذي أنجزناه، اتضح أن المشروع لم يتم تنفيذه. ولهذه الوثيقة أهمية كبيرة حيث أنها تقدم لنا التصميم العام للمبنى شاملا من جهة المسجد الذي يضم قاعة الصلاة والصحن وصحن ثان على شكل مثلث، ومن جهة أخرى مدرستين.

مسجد درب الشتوكة

يقع هذا المسجد في الجنوب الغربي لقصر السلطان. ولم يبق منه إلا عنصران، الصومعة التي يمكن رؤيتها من جانب المشور أو من ضواحي باب إغلي، والمحراب الذي فقد قسمه العلوي.

وقد تمكنا، خلال البحث في ربائد مصلحة المباني التاريخية بالرباط من جمع وثائق بيانية، ترجع إلى سنة 1946، وكذا مراسلة خطية توضح لنا حالة المبنى الذي كانت بعض أقسامه مهددة بالسقوط. كما تشير نفس المراسلة للإجراءات التي كان يجب

اتخاذها لإنقاده من الإنهيار، وذلك بتقديم مشروع إصلاح الأقسام المهددة. ويجب القول بأن هذا المشروع لم يؤخذ بعين الإعتبار بدليل أن دوفيردان Deverdun ذكر في كتابه المشار إليه أعلاه، أنه وجد المسجد مهدما عند زيارته له.

مهما كان، فإن العناصر المتبقية لم يتم تجديدها كما وقع في أغلبية المباني الدينية الأخرى.

مسجد مولاي علي الشريف

إن تاريخ تشييد هذا المسجد مرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ إعادة بناء الضريح من طرف سيدي محمد بن عبد الله، كما تبينه الكتابة الموجودة داخل الضريح (التي قرأت وترجمت ونشرت من طرف دوفيردان النقوش العربية بمراكش، ص 168) من جهة، وتؤكده مؤلفات مؤرخي الدولة العلوية من جهة أخرى، ويظيف هؤلاء أن بناء الجامع تم أيضا على يده ذلك مانجده في السعادة الأبدية، الجزء الثاني، ص 188، بحيث يقول ابن الموقت "ففي فاتح رجب سنة اثنين ومائتين وألف شرع السلطان سيدي محمد ابن عبد الله في تأسيس المسجد الأعظم الذي بحومة باب هيلانة ... وموجبه أنه لما فرغ من بناء قبة مولانا علي الشريف مست الحاجة إلى تشييد مسجد يناسب القبة المذكورة".

إن الجامع قد عرف بعض الإصلاحات كترميم الجدران وتجديد إطار المحراب وبعض السقوف، وبناء أروقة داخل الصحن. إلا أن هذه الإصلاحات لم تؤثر على الشكل الأصلي لهيكلة البناء.

الفن والهندسة المعمارية : المساجد

من بين المساجد الأربعة التي تطرقنا إليها، والتي ترجع إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله، إثنان تقام بهما صلاة الجمعة، وهما جامع بريمة وجامع مولاي علي الشريف، أما المسجدان الآخران فيعتبران مكانا يؤدي فيهما سكان الأحياء المجاورة شعائرهم الدينية اليومية. وهذه المساجد كلها لازالت مستعملة باستثناء مسجد درب الشتوكة الذي لم يبق منه إلا الصومعة والمحراب كما أشير إلى ذلك سابقا. والفرق المهم بين الجامع والمسجد يكمن في الحجم، وإلا فهما يشتركان في مميزات نذكر أهمها.

تصاميم منتظمة

بالنسبة لهذه المجموعة، تضم بعض البنايات بها بالإضافة إلى المسجد، ملحقات

تحتل ، في جميع الحالات، فضاءا ذا شكل غير منتظم وهي تقع بين أحد الجوانب الأربعة للمسجد، وسور قديم. وهذه المساحة المحددة استعملت لبناء صحن ثان، ومدارس. وتلك وضعية مسجد درب دار البديع بالخصوص، حيث توجد به مقدمة الصحن يتحتم على سكان الحي عبورها للوصول إلى المسجد. ويسميها واضع تصميم القرن التاسع عشر السالف الذكر "الصحن البراني". وسبب وجود هذا الصحن في هذا المكان بالذات، هو توجيه المسجد وإعطاؤه تصميما منتظما. أما المدرستان الموجودتان في طرفي المسجد فتحتويان على عدد من الغرف الصغيرة، تستعمل لإيواء الطلبة، منظمة حول صحن صغير، بالطابق الأرضي، ومغطاة بسقف يميل في اتجاه الصحن.

صحون بدون أروقة وأوسع من قاعات الصلاة

إن الصحون المذكورة عبارة، في جميع الحالات، عن ساحات غير مغطاة وبدون رواق في الأصل. والأروقة الثلاثة التي تحيط بصحن جامع مولاي علي الشريف قد أضيفت حديثا. أما أرضية هذه الصحون، فكانت هي الأخرى مكسية بالمرمر كما هو الشأن، وحتى الآن، في مسجد درب دار البديع، في حين أزيل البلاط الأصلي بجامعي بريمة ومولاي علي الشريف، وعوض بنوع من الزليج الحديث، وذلك لامحالة، من ضمن التعديلات التي عرفتها هاتين البنايتين.

تحتوي جميع المساجد على صهريج وسط الصحن. ويتكون عموما من نافورة من المرمر، دائرية الشكل، محمولة على عمود وسط حوض مربع يحيط به في مساجد الجمعة مقعد من الخشب، يأخذ شكل الحوض.

وتحاط الصحون، بصفة عامة، بجدران عالية (10 أمتار بجامع بريمة) تحميها سقيفة من القراميد الخضراء اللون، وتميل هذه السقيفة في اتجاه الصحن، أما بالنسبة لسقيفة جامع بريمة، الأكثر ضخامة، فهي مدعمة بمجموعة من الحاملات المبنية، ومسندة على أعمدة مربعة. وزين الفراغ الحاصل بين حاملتين، بزخرفة على شكل مشبكات نباتية، بالإضافة إلى أن جدران كل من جامع مولاي علي الشريف وجامع بريمة تنتهي بمجموعة من الأشكال الهندسية المبنية (شرافات) .

من ناحية أخرى، تفتح الأبواب الرئيسية للمسجد في جدران الصحن، وغالبا مايكون عددها ثلاثة، وذلك في اتجاه الحوض الذي يشكل محور الصحن. وتتصدر هذه المداخل بوابات ضخمة، وبشكل بارز في واجهة البناية. بيد أن الأبواب المفتوحة في الواجهات الغربية للصحون، والمتجهة نحو المحراب، هي الأكثر بروزا في غالب

الأحيان. وتظهر هذه الميزة بشكل جلي، في الجوامع، حيث أن المداخل الرئيسية تعلوها سقيفة ضخمة، مغطاة بسقف ذي ثلاث منحدرات، ومكسوة بقراميد خضراء اللون. ويستند الكل على صفوف عديدة من الحاملات المبنية.

قاعات ذات صفوف متنوعة

وتفتح قاعات الصلاة على الصحن بواسطة أقواس يختلف عددها مابين خمسة وسبعة، حسب الحالات. وتشكل المصدر الوحيد لتسرب ضوء النهار. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الجوامع تحتوي على "محراب الصيف" خمسي الأضلع، بني وسط عتبة القوس الأوسط.

وشكل هذه القاعات مستطيل، وله نفس عرض الصحن، باستثناء جامع بريمة الذي تمتد قاعته عمقا. وهناك صفوف من الأقواس تقسم القاعة إلى عدد من الأجنحة وبشكل مواز للمحراب. غير أن قاعة الصلاة في كل من جامع بريمة ومسجد درب دار البديع تضم، بالإضافة إلى ذلك، جناحين وبشكل متقاطع مع جدار القبلة. ويجب الإشارة أيضا إلى أن الممر الأوسط يتميز عن الآخرين بسعته. زيادة على ذلك، تتكرر هذه الميزة في جامع بريمة (2،80 م عوض 2،50 م) بالباب الغربي كما هو الشأن بالمدخلين الجانبيين، وتبرز علوا بمسجد درب دار البديع من خلال قوس مقرصن.

والأجنحة، في جميع الحلات، مغطاة بسقف من الخشب مدعمة بأقواس، ونوع السقف الشائع هو السقف ذو القاعدة المستطيلة، ويوجد على شكلين : الأول به أربع منحدرات بجامع مولاي علي الشريف (الأجنحة الثلاثة)، وبجامع بريمة (الجناح الموازي للمحراب)، وبمسجد درب دار البديع (الجناح الموازي لجدار القبلة). أما النوع الثاني فهو مسطح، يغطي الأجنحة الأربعة التي تحيط بالرواق الأوسط بجامع بريمة، وكذلك الأجنحة الأخرى بمسجد درب دار البديع.

أما النوعان الآخران، فيوجدان فقط بجامع بريمة، الأول على تصميم مربع ومثمن الزوايا بقاعدته، ويعطي الرواق الأوسط لقاعة الصلاة. والثاني به أربعة منحدرات تصميمه مربع ويغطي القاعتين الجانبيتين للجناح الذي يؤدي من الصحن إلى قاعة الصلاة.

وهذه السقوف الخشبية ترتكز على الجدران الخارجية وعلى أقواس منكسرة وحدوية، وتنزل بدورها في جميع الحالات على أعمدة مستطيلة الشكل. وتلاحظ استثناءات في جامع بريمة ومسجد درب دار البديع حيث توجد بالأول أعمدة ثلاثية القاعدة على شكل "T" وبالثاني عمودان صليبياني الشكل.

صومعات على شكل أبراج

إن الصومعات الأربع، التي نعتقد أنها ترجع إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله، لازالت تحتفظ نسبيا بأصالتها. غير أنه تم تجديد الواجهات الخارجية الأربع لصومعة جامع بريمة، لكن هيكلها الداخلي لازال على أصله.

وموقع الصومعات بالنسبة للمسجد يختلف حسب الحالات. ففي جامعي مولاي علي الشريف وبريمة، توجد الصومعة بزاوية داخلية أو خارجية للبناية، بخلاف مسجدي درب الشتوكة ودرب دار البديع، فتقع خارج حدود البناية، إذ تمكن المؤذن من إيصال الآذان إلى دار المخزن وكذا إلى سكان الأحياء المجاورة.

وتكون الصومعات، في جميع الحالات، على شكل أبراج مبنية كلها بالاجور، وتنتهي في الأعلى إما بأرضية (جامع مولاي علي الشيف) أو بسقف على شكل هرمي (المساجد الثلاثة الأخرى).

وتتميز صومعة مولاي علي الشريف بضخامتها وبأرضيتها العلوية المحاطة بصف من الشرافات. ويبرز في أعلى الصومعة "العزري" متوج أيضا بنفس الأشكال ومغطى بقبة صغيرة إلا أن هذه الصومعة تشبه صومعة المساجد الثلاثة الأخرى، إذ لاتوجد بها الزخرفة في الواجهات الخارجية، باستثناء إفريز من المشبكات الهندسية، نقش على طبقة غليظة من الملاط. كما توجد بها أيضا فتحات ضيقة الواجهات الخارجية وهي أكثر اتساعا بالداخل وتستعمل لإضاءة الدرج.

أما بمسجد درب الشتوكة، فتوجد على الواجهة الشرقية للصومعة شرفة صغيرة بها دربوز، وهي موجهة نحو المشور، وكانت أصلا، تستعمل للآذان، وبعد تسلق الدرج، الذي يحوم حول نواة ذات شكل مربع، نصل إلى أرضية، بصومعة مولاي علي الشريف، أو إلى قاعة صغيرة، بالصومعات الثلاثة الأخرى. وهذه القاعة مغطاة بسقف من الخشب المصبوغ، ذي أربعة منحدرات، (جوائز في الزوايا مدعمة بحاملات من الخشب المصبوغ أيضا)، كما يوجد إفريز من الجبس به كتابات منقوشة في القسم العلوي للجدران.

محارب تعلوها إطارات مستطيلة وذات الزخرفة المغطية

كل هذه المساجد احتفظت بمحرابها، غير أنه تم في بعض الحالات، تجصيص واجهته (جامع بريمة وجامع مولاي علي الشريف)، لكن دون أن يتم تغيير هيكله العام.

ويلاحظ في مسجدي درب البديع ودرب الشتوكة أن المحراب لازال يحتفظ بأصالته.

والمحراب عبارة، في جميع الحالات، عن مشكاة بنيت وسط جدار القبلة بصفة بارزة عن البناية. حيث ترسم شكلا مستطيلا بجامع بريمة وبمسجدي درب دار البديع ودرب الشتوكة، وشكلا محدوف الزوايا بجامع مولاي علي الشريف. أما بالجهة الداخلية فقد بنيت المشكاة على شكل خمسي الأضلع، بجامعي بريمة ومولاي علي الشريف وبمسجد درب الشتوكة، حيث تغطيها قبة صغيرة مثمنة الزوايا بقاعدتها. أما بمسجد درب دار البديع فقد شيدت المشكاة على تصميم نصف دائري وهي مغطاة بنصف قبة.

أما أرضيته فتتكون، عموما، من التراب المدكوك كما هو الحال أيضا بالنسبة لأرضية قاعة الصلاة. وتوجد بالواجهة الداخلية زخرفة على الجبس المنحوت، منظمة حسب الحالات، على الشكل التالي :

- بمسجد درب دار البديع، فإن رسم نصف القبة مشدد بتزيين من المشبكات الهندسية المنقوشة، وتتصدره عصابة من الأشكال النباتية والهندسية، وتفصل هذه الأخيرة عن إفريز من الكتابات المنقوشة في مساحة غير مزخرفة بمسجد درب دار البديع، ومجموعة من الأشكال الزخرفية المقوسة مملوءة بمشبكات نباتية بجامع مولاي علي الشريف.

أما بجامع بريمة ومسجد درب الشتوكة فإن داخل المحراب مزين بعصابة من الأشكال النباتية والهندسية تشبه الأمثلة السابقة الذكر. ويعلو العصابة مجموعة من الطيقان الزخرفية ذات الأرضية الملساء. ويحد هذه المجموعة، في الإتجاه الأسفل، إفريز من الكتابات المنقوشة ذات العبارات الدينية المتناوبة في مسجد درب الشتوكة.

أما واجهة المحراب فيعلوها دائما إطار مستطيل الزخرفة المغطية، وهذا الأخير منظم انطلاقا من بداية قوس المحراب ويمتد حوله، إلى حدود السقف، باستثناء محراب مسجد درب دار البديع. ويسقط هذا القوس الرئيسي على عضادات مستقيمة بجامع بريمة وبمسجدي درب دار البديع ودرب الشتوكة، وعلى عضادات مدعمة بأعمدة مزدوجة بجامع مولاي علي الشريف. وهناك قوس ثان مركزي يبرز شيئا ما عن القوس الرئيسي. والمساحة بين الإثنين مزينة بأشكال مقوسة زخرفية ذات أرضية مملوءة بعناصر نباتية. يعلو هذين القوسين إطار أفقي به رسوم هندسية مضلعة. تستند عليه ثلاثة طيقان زخرفية بها رسوم هندسية. يوجد بجامع بريمة تحت هذه الطيقان الزخرفية المخرمة، شريط من المشبكات النباتية، ويمتد هذا الأخير على الواجهة بأكملها بجامع

مولاي علي الشريف وبمسجد درب الشتوكة. ويحد هذا الإطار الزخرفي إفريز من الكتابات المنقوشة في المساجد الأربعة توجد في زواياه أربعة أشكال، داخل إطار مربع، بها رسوم هندسية مضلعة.

مساجد تتميز ببساطة زخرفتها وقلة تزيينها

ويلاحظ خلال دراستنا لهذه المساجد أنها، من جهة، تتميز عن باقي المباني الدينية التي شيدت في عهود سابقة ببساطة زخرفتها وقلة تزيينها، وتشترك في هذه الميزة، من جهة أخرى، مع المباني الدينية التي بنيت في عهد مولاي اسماعيل والتي يقول عنها ابن زيدان في كتابه الإتحاف جزء 1 ص 183 : "... وإذا لم تكن حرمات المساجد قائمة وبأنواع التعبدات التي بنيت لها آهلة فأي ثمرة للمبالغة في تزويقها وتنميقها هذا لو كان ذلك مأذونا فيه شرعا) فكيف وقد أباه الكثير من السلف، ومذهب أهل المغرب وهو مذهب مالك، وفي صحيح البخاري أن سيدنا عمر بن الخطاب أمر ببناء المسجد وقال : "أكن الناس من المطر وإياك أن تحمر وتصفر فتفتن الناس ..."

جهود السلطان سيدي محمد بن عبد الله
في خدمة القرآن والسنة

محمد عز الدين المعيار الإدريسي
كلية الآداب / مراكش

توطئة :

على الرغم مما عرفه المغرب من اضطرابات، وثورات متوالية، عقب وفاة السلطان المقدس المولى اسماعيل عام 1139 هـ، وماكان لذلك من انعكاسات سلبية على الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية، فإن الحركة الثقافية، استطاعت، أن تعبر هذه المرحلة بسلام، دون أن يتسرب إليها الضعف أو الفتور، ومن ثم استطاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله ـ إلى جانب إعادته للمغرب استقراره وهيبته ـ أن يقفز بالثقافة إلى الأوج، وكان للقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، من ذلك النصيب الأوفى، مما يطمح هذا العمل المتواضع، إلى إلقاء بعض الأضواء عليه، وذلك من خلال ثلاثة محاور أساسية هي :

المحور الأول :

سيدي محمد بن عبد الله السلطان العالم

إن أول مايطالع الباحث، وهو يهم بدراسة شخصية هذا العالم العظيم، هو ماحباه الله تعالى من قبول، وماخصه له من محبة في القلوب، إذ كان بحق كما عبر الناصري "مبارك الناصية أينما توجه" [1].

وماذلك إلا لتناغم عجيب، وتوافق تام بين ذاته ومحيطه، إذ كان مثالا لأمير المومنين، الناصح لأمته، العادل فيها، المتصف بالرأفة، والرحمة، المتحلي بالعفو والصفح، المتخلق بأخلاق الإسلام، القاصم لظهور الجبارين والمعتدين، الجامع بين أبهة الملك وجلال العلم، دون طغيان جانب على آخر.

وهي أمور منها ماهو أصيل فيه، بحكم الوراثة الطاهرة، التي انتهت إليه من أجداده العظام، عن جدهم الأعظم عليه الصلاة والسلام، ومنها ما اكتسبه من البيئة الطيبة الزكية، التي هيأها الله له في كنف والده السلطان المولى عبد الله، وجدته لأبيه الأميرة العالمة خناتة بنت بكار المغافري، اللذين كان يشملانه برعاية فائقة، ويتعلقان به تعلقا كبيرا.

فقد نشأ ملازما لجدته المذكورة، فحج معها صغيرا، في رحلة غنية بالفوائد، مما دونه الوزير الكاتب محمد الشرقي الأسحاقي في التقرير الضافي الذي قدمه للسلطان المولى عبد الله عن هذه الحجة المبرورة المباركة.

وضمهما السجن عام 1147 هـ، من قبل المولى علي بن اسماعيل، مدة سلطنته، فلم تلتفت الجدة إلى شيء، بقدر ماأهمها أمر حفيدها العزيز، فبعثت إلى العلماء، تطلب منهم التدخل السريع، لإطلاق سراح الأمير الصغير، فلم يلبث السلطان أن استجاب لذلك وأفرج عن سيدي محمد [2].

(1) أحمد بن خالد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : 194/7 تحقيق الأستاذين : جعفر الناصري، ومحمد الناصري - دار الكتاب - الدار البيضاء 1956.

(2) انظر تاريخ الضعيف الرباطي : لمحمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي ك 208/1 - 209.
تحقيق : ذ محمد البوزيدي الشيخي - ط 1 دار الثقافة - الدار البيضاء : 1408 هـ/ 1988 م

ومن الطريف أن ترفع ـ عقب هذا الحادث مباشرة ـ أصوات بعض الصالحين من الأمة، منادية بنصر سيدي محمد بن عبد الله، أمام عمه السلطان المذكور، فلا يسعه إلا أن يركن إلى الصمت والناس من حوله يرددون : "والله إنه سلطان" [1].

وتشتد ضراوة المعارك بين السلطان المولى عبد الله، وأخيه المولى المستضيء، وتصيب ـ في إحداها ـ رصاصة طائشة أو مقصودة، سيدي محمد بن عبد الله، فيوبخ العم المذكور من أطلقها [2].

لكنها تجارب يخرج منها المولى محمد غانما ظافرا، وفارسا مغوارا، يلعب بالرمح ويطعن به [3]، بمهارة فائقة، كما يخرج منها بقدرة جبارة على مواجهة كل الطواريء والمفاجآت، إذ استطاع عندما استخلفه والده على مراكش، أن يربح الرهان ضد من ثاروا عليه، فلم يلبثوا أن جاءوا إليه مقبلين الأرض تحت قدميه، طالبين صفحه ورضاه.

ومما امتاز به سيدي محمد خلال هذه المدة، ماظهره من برور بأبيه، ووفاء له، وتفان في خدمته، وإصلاح ذات البين بينه وبين رعيته، حتى أنه رد بيعة العبيد له مرتين، ورفض خطبتهم له على المنابر قائلا : "إني بريء منكم ومن فعلكم هذا، وإنما أنا خديم والدي" [4] تم صالحهم مع أبيه، وردهم إلى طاعته راضين مغتبطين.

وجاء إلى الملك بعد لحاق والده بالرفيق الأعلى، فالتفت الرعية حوله مستبشرة مسرورة، هاتفة باسمه لاهجة بالثناء عليه، معلقة كل الآمال به.

ولم يخيب الرجاء، بل أرسى جذور الدولة، وعاد بها إلى أمجادها وقوتها، التي وضع أسسها، ورسم معالمها، جده العظيم المولى اسماعيل، فراح يتنقل بين مدن البلاد وقراها، متفقدا أحوال الرعية، قامعا للثورات الداخلية، متخلصا منها بذكاء وصرامة.

واتجه العالم الخارجي، وكله تطلع ورغبة في إعادة أمجاد المسلمين وتفوقهم، فعمل على توثيق عرى المحبة والمودة بين الأقطار الإسلامية، وعلى تمثلهم لعقيدتهم السامية، وأمدهم بالمال الوفير، وفك أسراهم، مما يجعله بحق رائدا من رواد حقوق الأنسان في العالم.

---

(1) نفسه : 1 / 209.

(2) نفسه : 1/ 264 ـ 265.

(3) انظر الاستقصا : 7 / 162.

(4) نفسه : 7 / 182.

كما عقد ـ من جهة أخرى ـ الصلات، وربط العلاقات مع الدول الأوربية، لتفادي شرها، وبالتالي لمعرفة أسرارها، وكشف النقاب عن أسباب تقدمها المادي، ثم راح بموازاة مع ذلك، يبني أسطولا مغربيا عتيدا، أصبح بعد فترة وجيزة من توليته، يحسب له في عرض البحر الأبيض المتوسط كل حساب، مما جعل عدة دول تطلب وده، بدفع إتاوة سنوية، مقابل حماية أساطيلها من القرصنة الدولية في البحار.

هذا باختصار الوجه الأول لشخصية سيدي محمد بن عبد الله (السلطان)، أما الوجه الآخر ـ والذي يؤازر الأول ولايناقضه ـ فهو سيدي محمد بن عبد الله (العالم) الذي التقى فيه الأديب الحافظ لديوان العرب، والفنان المرهف الحس المولع بالموسيقى والطرب [1]، والمؤرخ المستحضر لأخبار الناس وأيام العرب، والمتضلع في فن التعديل والتوقيت [2] إلى غير ذلك ...

وهو فوق كل ماذكر ذلك العالم الفحل في مجال العلوم الشرعية المبرز فيها، المترجم لروحها في دعوته السلفية، التي كان رائدها الأول بالمغرب، وثاني اثنين في العالم الإسلامي كله.

ذلك أن سيدي محمد بن عبد الله، تفتح على بلاد الحجاز منذ نعومة أظفاره، فحج صغيرا ـ كما تقدم ـ وأعاد تنظيم ركب الحاج المغربي، بل زف كريمته الأميرة حبيبة على سلطان مكة الشريف السرور [3]، كما ربط الصلة بعدد من كبار علماء المسلمين في مصر وغيرها، مما كون لديه فكرة عامة، عن مختلف التوجهات الدينية في البلاد الإسلامية، فكانت النتيجة بروز سيدي محمد بن عبد الله الإمام المجدد لأمر دين هذه الأمة على رأس المائة، كما قال في حقه عبد السلام بن الخياط القادري، وغدا بحق وجدارة "عالم الملوك وملك العلماء"، وهو في سلفيته مرن لايصطدم مع بعض العادات

(1) يقول الأستاذ محمد المنوني : هناك كلمة عن النسب الواقعة بين طبوع الطرب الأندلسي، يظن أنها لسيدي محمد بن عبد الله في ذيل "ترويح القلوب" المخطوط بالمكتبة الحسنية بالرباط تحت عدد 4166.

(2) انظر : جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي : 3/ 662 ـ 663.

(3) انظر : اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس. لمولاي عبد الرحمن بن زيدان : 3 / 357، المطبعة الوطنية الرباط : 1929 ـ 1933 م.

والتقاليد المتأصلة في المجتمع، مما لايسيء إلى عقيدة المسلمين وشريعتهم، لكنه في الوقت نفسه ينص على أن مذهبه ومذهب البلاد الرسمي هو مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس، ويلتقي مع السلفية بالمشرق - إذ ذاك - في الحض على مذهب السلف من الإكتفاء بالإعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل، مناديا باتباع الحنبلية في الإعتقاد لأن طريقهم كما قال : "سهلة المرام منزهة عن التخيلات والأوهام موافقة لإعتقاد الأئمة" [1].

وهنا أريد أن أشير إلى أن هذا لايطعن في شيء في الإمام أبي الحسن الأشعري (ت 330 هـ)، فقد كانت عقيدته هي عقيدة أهل السنة، مما يشهد له بوضوح كتاباه: "مقالات الإسلاميين" و "الإبانة في أصول الديانة" الشيء الذي ينفي عنه مانسبه إليه المتأخرون جهلا أو افتراء من عقيدة الجهمية، ولايقدح فيه أنه مر في حياته من الإعتزال وغيره، لأنه انتهى إلى عقيدة السلف وعليها استقر وعليها لقي الله تعالى.

(1) أمير المؤمنين السلطان سيدي محمد بن عبد الله : الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية : 458 الطبعة الثانية - المطبعة الملكية - الرباط : 1400 هـ / 1980 هـ.

المحور الثاني :

عنايته بالقرآن وعلومه

اهتم سيدي محمد بن عبد الله بالقرآن الكريم، اهتمام آبائه وأجداده، وخص حفظته بمكانة رفيعة، وكان يقول : "إن أهل القرآن والمعرفة أولى بالولاية من غيرهم" : ـ في عهد كان المتعلمون قليلين ـ وقصته ليلة خرج متنكرا لتفقد الأحوال في قبيلة أحمر بنواحي آسفي، وماتلا ذلك من تنحية قائدها واستبداله بفقيه مقريء متمكن ـ أثار إعجاب السلطان ـ مشهورة [1]، وتكفي الإشارة هنا إلى القرار الذي اتخذه عقبها، والمتمثل في بعث أبنائه، ومن يرافقهم عادة من الطلبة، للإقامة هناك، لحفظ القرآن وتجويده، بعيدا عن حياة الحاضرة ومافيها من مشاغل وترف.

وعلى هذه السنن سار من بعده ابنه المولى سليمان، ثم المولى عبد الرحمن، وسيدي محمد بن عبد الرحمان، وفي هذه القبيلة أيضا قرأ السلطان المولى الحسن الأول، والمولى عبد العزيز، والمولى عبد الحفيظ [2].

وكان المولى محمد بن عبد الله، عظيم الحفاوة بأهل القرآن، يبعث إليهم الصلات في كل عيد تحفيزا لهم على ممارسة مهامهم على الوجه المطلوب، وكان يأنس بهم، فيدعوهم لقراءة السلكة ليلة القدر [3]، وكانوا يستقبلونه أحيانا بقراءة سورة الفتح بمجرد دخوله المسجد [4].

وكانت الدراسات القرآنية، خاصة منها التفسير، قد اعتراه كثير من الفتور، وارتبط ببعض الشائعات المثبطة عن تعاطيه، حتى إن الفقهاء، بمكناس قاموا ضد أبي حفصون عمر بن عبد السلام لوقش (ت 1149 هـ) وألبوا عليه السلطان المولى عبد

---

(1) انظر : مجلة "دعوة الحق" ع 4/ س 11/ ص : 20 (ضمن مقال للأستاذ الراحل علال الفاسي بعنوان : اهتمام الأسرة العلوية بحفظ القرآن".

(2) نفسه.

(3)تاريخ الضعيف : 1 / 327.

(4) نفسه : 1 /350.

الله، فنفاه لولا تدخل الأميرة خناثة بنت بكار لإرجاعه، ممانوه به سيدي محمد بن عبد الله في رسالة وجهها إلى الشيخ التاودي ابن سودة [1].

ثم مالبثت هذه الدراسات أن استعادت عافيتها، ونشاطها على عهد سيدي محمد بن عبد الله، الذي كان ينفخ فيها من روحه، ويرعاها بعطفه وتوجيهه، فعاد تعاطي التفسير بالجوامع والمدارس والزوايا، يتصدى له كبار الشيوخ، وأئمة ذلك العهد، وساهمت في ذلك نساء فقيهات، نذكر منهن

- آمنة بنت محمد غيلان الغرناطي المعروفة بللا غيلانة (ت 1189 هـ) تتلمذ لها عدة نساء بتطوان [2].

- عائشة بنت المختار الأمين الأزرق (ولدت 1160 هـ / وتوفيت عام 1224 هـ) حفظت كتاب الله تعالى على يد أبي عبد الله محمد المكي الدكالي وكانت تجلس لتعليم النساء أمور دينهن، كما يجلس زوجها لتعليم الرجال [3]. ومن مظاهر الإهتمام بالقرآن الكريم في هذا العصر، الإعتناء، بكتابة المصاحف والتأنق في تزويقها وتجليدها، بالشكل الذي يتلاءم مع مكانة القرآن وقدسيته في قلوب المسلمين، ومن أروع المصاحف التي تمخض عليها ذلك العهد، مصحف الأمير مولاي علي نجل السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كتبه بيده عام 1182 هـ وحلاه كله بالذهب واللازورد والياقوت، بخط مغربي رائع، وتجليد متين رفيع [4].

ولعل من أبرز مظاهر عناية السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالقرآن الكريم، النص في برنامجه الدراسي، الذي وضعه لجامعة القرويين وسائر المعاهد الإسلامية بالمغرب، على أن كتاب الله تعالى وتفسيره، أول ماتقوم عليه الدراسة، بل أضاف إلى ذلك تأليف كتاب خاص بتعليم القرآن، ومايبنغي أن يصاحبه في الكتاتيب القرآنية سماه : "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين، تعليمه للصبيان" [5] تناول في مقدمته الباعث له على تأليفه، وهو ماكان يراه غالبا من اعتناء الطلبة بحفظ القرآن واتقان

(1) انظر : معلمة القرآن والحديث في المغرب الأقصى للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله : 35

(2) تاريخ تطوان للأستاذ محمد داود : 3/93، تطوان 1379 هـ/1959 م.

(3) انظر الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية. للدكتور محمد الأخضر : 344 ط 1 دار الرشاد الحديثة ـ الدار البيضاء : 1977م.

(4) انظر : مجلة "دعوة الحق" ع 234/ ص 43 (ضمن مقال للدكتور عبد الهادي التازي بعنوان : "حول مصحف الأمير مولاي علي ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله" .

(5)يوجد منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم : 795 ك.

القراءات والروايات، دون التفات إلى مافرضه الله عليهم من العبادات والإعتقادات، ورأيه أنه لاينبغي إهمال الغاية من حفظ القرآن، التي هي تعلم أحكام الدين، والإقبال على الحفظ المجرد، الذي هو فرض كفاية، في حين أن معرفة ماتبرأ الذمة منه ومن غيره فرض عين.

ولعمري فإن هذا هو مذهب السلف الصالح، رضي الله عنهم، اقتداء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا يتعلمون القرآن والعمل به في آن واحد.

وبعد؛ فنقدم آخر هذا المحور أسماء بعض أهم رجالات القرآن وعلومه، على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، مقتصرين في ذلك على من ألف منهم خاصة، مرتبين إياهم وفق وفياتهم :

1 ـ أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي (ت 1175هـ)

له : ـ عرف الند، في حكم المد [1].

ـ تفسير القرآن الكريم [2]

2 ـ أبو زيد عبد الرحمن بن ادريس المنجرة (ت 1179 هـ)

له : ـ حاشية على فتح المنان ـ لعبد الواحد بن عاشر ـ لشرح مورد الظمآن [3]

ـ حاشية على شرح الطراز لمحمد بن عبد الله التنسي في شرح ضبط الخراز المعروف بمورد الظمآن، في رسم القرآن [4].

ـ المقاصد النامية، في شرح الدالية [5] لمحمد بن مبارك السجلماسي.

ـ أبو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس العراقي (ت 1183 هـ)

له ـ حاشية على تفسير الثعلبي

(1) يوجد منه نسخ مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط كالتالي : (1064/ مجموع 5) (6504)، (4617)، (3603)، (6823).

(2) يوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 5345.

(3) يوجد منه نسختان بالخزانة الحسنية، (6128/ مجموع 2)، (1389/ مجموع 1).

(4) يوجد منه نسختان بالخزانة الحسنية : (6950)، (6128 / مجموع 1).

(5) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط في عدة نسخ منها التي تحت عدد (887 / مجموع 1)

4 ـ محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري (ت 1187 هـ)

له ـ الفتح والتيسير، في آية التطهير [1]

5 ـ أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال (ت 1191 هـ)

له ـ نتيجة الفتح، المستنبطة من سورة الفتح [2]

6 ـ عبد الكريم بن علي اليازغي (ت 1199 هـ)

له ـ خبرية البسملة وكلام أهل العلم فيها [3]

7 ـ أبو عبد الله محمد بن مسعود الطرنباطي (ت 1214 هـ)

له ـ رشف الزلال من عين الحياة، في مباحث البسملة والحمدلة والصلاة [4].

انتهى من تحريره منسلخ ربيع الثاني عام 1185 هـ.

(1) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط في عدة نسخ منها التي تحت عدد (4476/مجموع 1).وهو تفسير لقوله تعالى (**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**).

(2) انظر : دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن سودة : 167/1 (دار الكتاب الدار البيضاء : 1960 م)

(3) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم (12588ز/ مجموع 1).

(4) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم (12469 ز/ مجموع 3).

المحور الثالث :

عنايته بالحديث وعلومه

يعتبر السلطان سيدي محمد بن عبد الله، من أبرز علماء الحديث في وقته، إذ أقبل منذ أن قلده الله أمر المسلمين بهذا البلد الأمين، عقب وفاة والده السلطان المولى عبد الله بن أسماعيل، على دراسة الحديث، متأسفا على مافاته من ذلك في شبيبته قائلا : "والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة" [1].

وكان قد وضع لذلك برنامجا مضبوطا وأوقاتا معلومة، وجمع حوله ثلة من أئمة عصره، كأبي عبد الله محمد ابن الإمام محمد الغربي الرباطي، وأبي عبد الله محمد المير السلاوي، وأبي عبد الله محمد الكامل الرشيدي، وأبي زيد عبد الرحمن المدعو بأبي خريص، وعبد السلام ابن بوعزى حركات السلاوي، وأبي عبد الرحمن المنجرة، وأبي الحسن علي بن ادريس الفيلالي، والسيد التهامي بن عمرو الرباطي وسواهم[2].

فكانوا يسردون له كتب الحديث، ويناقشون معانيها، ويؤلفون له مايستخرجه منها وفق توجيهاته...

وأعتاد في الغالب أن يجلس بعد أداء صلاة الجمعة، داخل مقصورة الجامع بمراكش، وحوله فقهاؤها، ومن يستدعيه من علماء فاس وغيرهم للكلام على الحديث الشريف واستحضار معانيه وأحكامه [3].

وهذه المجالس السلطانية، كانت منطلق المجالس الحديثية عند ملوك الدولة العلوية الشريفة، اذ سار على منواله من جاء بعده منهم، إلى أن نظمت بصفة رسمية على عهد السلطان المقدس المولى يوسف، ثم نمت وترعرعت على يد جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، ثم نضجت وأكتملت على عهد جلالة الحسن الثاني حفظه الله ونصره.

(1) الاستقصا : 66/8.

(2) نفسه والجزء والصفحة / الفتوحات الإلهية : (ضمن ترجمة سيدي محمد بن عبد الله للعلامة الراحل محمد المدني بن الحسني).

(3) انظر الاستقصا : 66/8.

وغير خاف أن دراسة الحديث، كانت قد عدت قبيل هذا العهد مجرد نصوص مقدسة، تتلى للتبرك، بعيدا عن فهم ماتحمله من معان وإشراق، وكان الدراسون يقتصرون في ذلك على صحيحي الإمامين البخاري ومسلم في أحسن الأحوال، وعلى ألفية العراقي في مصطلح الحديث، وعلى" الإكتفاء للكلاعي في السيرة النبوية".

فلما جاء سيدي محمد بن عبد الله، نهض بالحديث نهضة شاملة مباركة، فبدأ الإقبال إلى جانب ماذكر على موطأ إمام دار الهجرة مالك بن أنس، ثم مالبث السلطان أن استجلب من المشرق ثلاثة مسانيد لم تكن متداولة بالمغرب، وهي مسانيد بقية أئمة المذاهب الأربعة : أبي حنيفة والشافعي، وابن حنبل.

كما نص في البرنامج الدراسي الذي وضعه لجامعة القرويين على دراسة باقي كتب الصحاح، والكتب المستخرجة منها، وفي السيرة على كتابي الكلاعي وابن سيد الناس اليعمري.

وعلى الرغم مما كان يتحمله - طيب الله ثراه - من أعباء الملك، فإنه أبى إلا أن يساهم بنفسه في التأليف في الحديث النبوي الشريف، فألف كتبا فريدة من نوعها كما سيأتي في موضعه.

وأمر بشرح كتاب : "مشارق الأنوار" في علم الحديث، للإمام أبي الفضل الصغاني (ت 650 هـ) وعين للقيام بذلك، ثلاثة من ألمع العلماء إذ ذاك وهم :

1 - الشيخ التاودي بن سودة، ونصيبه الثلث الأول

2 - أبو عبد الله بوخريص، ونصيبه الثلث الثاني.

3 - أبو العلاء ادريس بن محمد العراقي، ونصيبه الثلث الثالث، لكنه مات قبل إتمامه، فأكمله ابنه بأمر من السلطان...

كما أمر السيد التهامي بن عمرو الرباطي بشرح الأربعين النووية وصاحب ذلك، الدعوة إلى السنة، والإلتزام بمبادىء الدين الحنيف في نصاعته وبياضه، بعيدا عن الشعوذة والتدجيل، وركوب البدع التي ماأنزل الله بها من سلطان، وبذلك أصبحت دراسة العلوم الشرعية منحصرة في القرآن والسنة، ومدارسة سنده ومتنه وكل مايتعلق بمصطلحه ومعانيه، بعيدا عن كل جدل منطقي أو عقدي، مما يتعاطاه " الذين يجهلون أنهم يجهلون" حسب تعبيره رحمه الله.

وكان من البديهي في هذه الأجواء، أن يزدهر الحديث وعلومه، وأن ينجب المغرب أسماء لامعة، ذائعة الصيت، ليس في المغرب فحسب بل وفي المشرق كذلك.

فهذا أبو العلاء ادريس بن محمد العراقي "سيوطي زمانه" قال في حقه أبو حفص عمر الفاسي : "إنه أحفظ من ابن حجر" ومما يوردونه في هذا المقام، استدراكه على (ابن حجر) في حديث واحد - على البديهة - أربعة طرق، جوابا على سوال طرح عليه شيخه أحمد بن مبارك اللمطي [1] ومعلوم أن أبا العلاء استدرك في كتابه "فتح البصير" على جلال الدين السيوطي في الجامع الكبير مايفوق خمسة آلاف حديث.

وهذا الشيخ التاودي ابن سودة، طلب منه عدد من أهل مصر، وهو في طريقه إلى المغرب - بعد أن أدى فريضة الحج - أن يقرأ لهم شيئا من كتب الحديث، فقرأ معهم بجامع الأزهر الشريف، موطأ الإمام مالك، فلما افتتحه، وراح يذكر أسانيده وشيوخه أخذ العجب السامعين، فطلبوا منه إجازتهم، ووصل حبلهم من جهته بالإمام مالك، مع سند الصحيحين للبخاري ومسلم، ففعل [2].

وهذا وغيره، يبين المستوى الرفيع الذي وصلت إليه دراسة الحديث بالمغرب في ذلك العهد، بالمقارنة مع غيره من الأقطار الإسلامية الأخرى.

وبعد فعلى غرار ماتقدم في محور القرآن وعلومه، نقدم أهم المصنفين في الحديث وعلومه، جاعلين السلطان سيدي محمد بن عبد الله أولهم مراعاة لمقامه :

1 - أمير المومنين السلطان سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل العلوي (ت 1204 هـ)

له : - الجامع الصحيح الأسانيد، المستخرج من ستة مسانيد [3] وهو يضم أربعمائة حديث، اختارها من مسانيد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، بالإضافة إلى الصحيحين للبخاري ومسلم.

- الفتوحات الإلهية الصغرى (تشتمل على مايفوق ثلاثمائة حديث من الصحيحين والموطأ ومسند أحمد).

- الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية، وهو أشهر مؤلفاته، وقد اعتني العلماء به كثيرا، فقريء في الشرق والغرب، وحبس السلطان على إقرائه أحباسا في

---

(1) محمد بن جعفر الكتاني : سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس : 142/1 (طبعة حجزية - فاس 1316 هـ/1898م.

(2) عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس ولأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات : 188/1 (الطبعة الجديدة - فاس 1346هـ/1927م.

(3) يوجد مخطوطا بخزانة الحسنية بالرباط تحت أرقام : 8609/5865/1708. وبخزانع القرويين : ل 747/40.

المدينة المنورة والإسكندرية. وقام بشرحه عدد من العلماء منهم : محمد بن عبد القادر الصبيحي المعروف بابن قدور (ت 1231 هـ)

- طبق الارطاب، فيما اقتطفناه من مسانيد الأئمة وكتب مشاهير المالكية، والإمام الحطاب [1].

2 ـ محمد بن قاسم جسوس (ت 1182هـ)

له : ـ مقدمة على صحيح الإمام البخاري [2].

3 ـ أبو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس العراقي الفاسي (ت 1183 هـ)

له : ـ فتح البصير، في التعريف بالرجال المخرج لهم في الجامع الكبير

- تكميل مناهل الصفا، في تخريج أحاديث الشفا (أكمل فيه مناهل الصفا لجلال الدين السيوطي).

- الدرر اللوامع، في الكلام على أحاديث جمع الجوامع للسبكي

- نبذة يسيرة في أحاديث البسملة والحمدلة [3].

- شرح المائة حديث الأولى من الجامع الصغير للسيوطي.

- تخريج أحاديث الشهاب القضاعي.

- اختصار الكامل لإبن عدي (وهو كتاب الكامل في ضعفاء الرجال لأبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني ت 365 هـ)

4 ـ أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف الفاسي (ت 1188 هـ)

له : المقترح، في شرح أبيات ابن الفرح [4] شرح فيه قصيد أحمد بن فرح الإشبيلي في مصطلح الحديث.

5 ـ محمد بن أحمد بن عبد الله الجزولي الحضيكي (ت 1189 هـ)

له : ـ شرح الطرفة في اصطلاح الحديث [5].

---

(1) يوجد مخطوط بخزانة القرويين : ل 746/40.

(2) يوجد منه نسختان مخطوطتان بخط المؤلف في المكتبة العامة بالرباط (478 د / 283 د)

(3) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد (1373 ك/ضمن مجموع)

(4) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد (1256 د)

(5) محمد المختار السوسي : سوس العالمة : 193 الطبعة الثانية الدار البيضاء. 1404 هـ / 1984 م

ـ حاشية على البخاري [1]

ـ حاشية على الشفا [2]

ـ حاشية على سيرة الكلاعي [3]

6 ـ محمد بن الحسن بن مسعود بناني (ت 1194 هـ)

له : سلسلة الإسناد في العلوم عن الأشياخ والأعلام [4]

ـ فهارس أربعة في طرق الحديث ثم الفقه ثم التصوف [5]

7 ـ محمد التاودي بن الطالب ابن سودة المري الفاسي (ت 1209 هـ)

له : زاد المجد الساري، في مطالع البخاري [6]

ـ شرح الأربعين النووية

وبهذا نختم حديثنا المتواضع عن جهود السلطان المقدس سيدي محمد بن عبد الله في خدمة القرآن والسنة، جزاه الله الجزاء الأوفى. والسلام

---

(1)(2)(3) محمد المختار السوسي : سوس العالمة : 193 الطبعة الثانية الدار البيضاء. 1404 هـ / 1984 م

(4) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد (2008 د)

(5) مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط في عدة نسخ منها التي تحت عدد (1169)

(6) طبع طبعة حجرية بفاس عام 1327 هـ / 1909 م

البعد السلفي في السياسة الدينية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله

محمد الفلاح العلوم

كلية الآداب ابن مسيك / البيضاء

مدخل :

أود في بداية هذا العرض أن أشير إلى استحالة الفصل بين ماهو ديني ودنيوي في اهتمامات السلاطين العلويين منذ نشأة هذه الدولة، باعتبار الدين والدنيا مجالان مترابطان ببعضهما في الأحكام السلطانية كما تقرها الشريعة الإسلامية التي تعتبر دستور هذه الأمة الذي يستمد منه نظام الحكم والذي تمثله البيعة في التقاليد المخزنية المغربية أحسن تمثيل.

من ثم جاء اهتمام السلاطين العلويين في سياستهم العامة بالجانب الديني، فكانوا يقومون بعمليات التقويم والتصحيح لسلوك الرعية وحملها على العمل بالدين وتطبيق تعاليمه وبالتالي تركيز الأخلاق الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله من أبرز زعماء هذه السياسة الدينية التي ترسخت في التقاليد المخزنية منذ عهده بصورة خاصة. وبذلك ساهمت السياسة في حركة التجديد الديني التي كانت من قبل حكرا على بعض الفقهاء والعلماء المجددين والذين اشتهرت دعواتهم الإصلاحية على امتداد تاريخ المغرب [1].

ولعل ماميز السلطان سيدي محمد بن عبد الله عن هؤلاء كونه زاوج بين صفتي العالم والسلطان وبذلك لم تقتصر حركته الإصلاحية على الجانب العلمي النظري وإنما حاول جهد الإمكان أن يبلور اتجاهاته المذهبية الإصلاحية في الإطار التطبيقي العملي مدشنا بذلك مايمكن أن نسميه بالسياسة الدينية للسلاطين العلويين. فما هي إذن الظروف التي ساهمت في إبراز هذا الجانب في مرحلة حكم هذا السلطان.

---

(1) إضافة إلى فقهاء الموحدين تمكن الإشارة إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن الحاج المتوفى سنة 737 هـ وأبي العباس أحمد بن أحمد زروق الذي عاش في القرن 9 هـ / 11 م. والشيخ عبد الله الهبطي الذي عاش في القرن 16 م ثم الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد المناوي الدلائي في بداية العصر العلوي.

أ ـ الظرفية العامة :

1 ـ لاشك أن مرحلة الأزمة التي عاشها المغرب خلال الثلاثين سنة التي سبقت عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد أثرت بصورة سلبية على جوانب متعددة من نشاط المجتمع استمرت نتائجها حتى عهد هذا السلطان الذي انتبه إليها وحاول إصلاحها إذ يصف جانبا مهما من جوانبها في عهده بقوله :

"... وقد بلغنا ماحدث في العامة من عموم الجهل بالتوحيد وأصول الشريعة وفروعها حتى ارتكبوا أمورا تقارب الكفر أو هي الكفر بعينه وذلك من خلو القبائل من طلبة العلم العاملين وقلة المرشد المعين حتى لاتجد في القرية الكبيرة عالما يرجعون إليه في سائل دينهم ونوازل أحكامهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وذلك من تفريط العمال وقلة اعتنائهم بالدين ..." [2].

ولاشك أن هذه الوضعية المشار إليها كانت مظهرا من مظاهر تأثير المرحلة السابقة على عهد السلطان سيدي محمد، مما دفعه إلى محاولة إصلاح الأمور وبعث التجديد الديني والإجتماعي كجانب من جوانب إعادة تركيز أسس المخزن من جديد. خصوصا بعد الصعوبات التي تزايدت تعقيدا وحدة مع الإضطرابات السياسية والإجتماعية والإقتصادية والتي كان من نتائجها تزايد الفواحش والمنكرات والإبتعاد التدريجي للعامة عن الدين في العبادات والمعاملات وتأثير ذلك حتى على ميادين القضاء والإفتاء وحتى التعليم.

2 ـ الجانب الثاني لهذه الظرفية العامة يتجلى في التطور الثقافي والفكري الذي آل إليه المغرب منذ حقب سابقة، والمتمثل في ترسخ المذهب المالكي وهيمنته على باقي المذاهب والأنشطة الفكرية والدينية في المغرب، فنظرة سريعة لتاريخ المغرب الديني تفيد بأن هذا المذهب انتشر في المغرب منذ عهد الأدارسة بعد وفوده من الأندلس وتوطده في العهد المرابطي وعدم نجاح المحاولة الموحدية لعرقلته، حيث إكتمل عملية الترسخ والثبات في العهد المريني. فكانت كل محاولة للخروج عن المذهب توصف بالبدعة وتحارب من طرف الفقهاء، مما أدى إلى تركز الدراسات الفقهية الجامدة المرتبطة بالمذهب والمرتبطة كذلك بالتصوف والطرقية نتيجة لإنتشار الزوايا الدينية وتطويرها للتصوف إلى طرق متعددة، هذه الوضعية جعلت السلطان باعتباره فقيها وعالما يدلي بدلوه في المناقشات العلمية محاولا إبراز وجهة نظره في هذه الوضعية.

---

(2) عبد الرحمن بن زيدان، اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ـ الرباط، 1933 ج 3، ص 216.

3 ـ لقد ساعد السلطان على الخوض في هذا الأمر إطلاعه الواسع في الأمور الدينية، خصوصا بعد توليه السلطة، ومحاولته النظر في شؤون الأمة وفق تعاليم الدين المشروعة فقد تزايد اهتمامه بكتب الأصول والسنة والحديث والسيرة فحصلت له بذلك ملكية في السنة وأحكامها لم يلحقه فيها غيره [3]، وهكذا سيحاول السلطان القيام بعملية تصحيح لتطبيق المذهب المالكي بمحاربة العقيدة الأشعرية التي شاعت في المغرب بشيوع الكتب التي صارت في نهجها كالمرشد المعين، وأمر البراهين، فألف السلطان في هذا الصدد عدة كتب موضحا فيها رأيه الذي يجمله في قوله أنه مالكي مذهبا حنبلي إعتقادا [4] كما حاول أن يبلور وجهة نظره عمليا بإصدار عدة ظهائر تهم ميدان القضاء والتعليم والإفتاء على وجه الخصوص. ونتيجة لطعنه في تقاليد العلماء العلمية وزعزعته لما كانوا قد ألفوه من عادات في هذا الصدد فقد واجهته ردود فعل بعضهم مثل الشيخ التاودي بن سودة الذي كتب إلى السلطان مجيبا عن بعض ملاحظات هذا الأخير على مختصر خليل بقوله :

" ... أعيدك بقل هو الله أحد الله الصمد أن لاتصغي بسمعك لشياطين الطلبة أو تطمح ببصرك لطالب لايذكر العلماء بخير ... وإذا وقع الكلام في مثل هؤلاء إنفكت عرى الإسلام، ولم يبق للدين قوام فما كان من حقك الإشتغال بأهل الله..."[5].

4 ـ لايجب أن يغرب عن بالنا كذلك أن هذه الظرفية العامة شهدت قيام الحركة الوهابية التي أثارت الكثير من ردود الفعل الفكرية والسياسية في العالم الإسلامي وفي الشرق العربي بالخصوص الذي كان يمر بدوره بمرحلة مخاض سياسي ناتج عن بداية تضعضع الخلافة العثمانية وقيام الحركات الإنفصالية والفكرية التي قامت بنقد ذاتي وحاولت الوقوف في وجه التحديات الجديدة بظهور مجموعة من المصلحين جاءت دعواتهم باقتراحات أصولية تشابهت مع ماحصل في المغرب في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. إلا أن الدعوة الوهابية في هذه المرحلة كانت محصورة في الجزيرة العربية حتى سنة 1803 هـ مما يفند أي زعم بالقول بتأثيرها في الحركة الإصلاحية لمحمد بن عبد الله، إذ لايوجد أي دليل يثبت أن السلطان المذكور قد تأثر بها [6].

(3) عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق ص 183.

(4) ذكر ذلك في فصل خاص من كتابه : الفتوحات الإلهية الكبرى في أحاديث خير البرية ـ وقد ألف عدة كتب في نفس الإتجاه منها : الفتح الرباني فيما اقتطفته من مسانيد الأئمة وفقه الإمام الحطاب، ورسالة أبي زيد القيرواني ـ بغية ذوي البصائر والألباب في الدرر المنتخبة من تأليف الإمام الحطاب.

5) محمد داوود، تاريخ تطوان، تطوان، عهد مولاي الحسن، 1962، المجلد 3 ص ص 34/31 ويتضمن جواب السلطان في رسالة مطولة مؤرخة بـ 27 ربيع الثاني عام 1200 هـ.

(6) لايجب الأخذ بالرأي القائل بأن مصاهرة السلطان لشريف مكة سرور سنة 1768 كان نتيجة هذا التأثير =

II ـ الأصول الفكرية للحركة الإصلاحية لمحمد بن عبد الله

إن قول السلطان محمد بن عبد الله أنه مالكي مذهبا حنبلي اعتقادا راجع لما يعرف عن المذهب الحنبلي من بساطة وبعد عن التأويل والخوض في علم الكلام فهو يقول :

"فطريق الحنابلة في الإعتقاد سهلة المرام منزهة عن التخيلات والأوهام موافقة لإعتقاد الأئمة كما سبق مع السلف الصالح من الأنام" (7).

وبهذا خرج السلطان عن طريقة الأشاعرة في العقائد التي كانت معتمدة في المغرب منذ عهد الموحدين. ونهيه عن الخوض في علم الكلام نابع من قناعته بالأخذ بظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل، وقد أصدر في هذا الصدد أوامره بتنظيم الدراسة في القرويين مشيرا إلى الإقتصار في علم الكلام على عقيدة ابن أبي زيد القيرواني لخلوها من التأويل الذي يجنح إليه الأشاعرة. لقد عزز السلطان اتجاهه هذا بتشجيع حركة تدريس الحديث الشيء الذي لم يشهده المغرب بنفس التشجيع إلا في العهد الموحدي حتى شبهه البعض بيعقوب المنصور الموحدي في نهيه عن قراءة المختصرات والشروح الصعبة الفهم كمختصر خليل وابن عرفة. حيث كان يرى ذلك مضيعة للأوقات والأعمار فدعا الناس لقراءة أمهات كتب الفقه والحديث البعيدة عن كل تمذهب وتحيز لهذا المذهب أو ذاك مع إعطاء الأولوية لكتاب الله وحديث رسوله كمصدرين للتشريع، إلا أنه لم يتطرف مثل المنصور الموحدي بإحراق الكتب التي أمر بنبذها ولم يحرم النظر في كتب الخلاف، إضافة إلى مزاوجته في مؤلفاته بين الأصول والفروع والنصوص الفقهية والحديثية معلنا في كل مناسبة مالكيته في المعاملات والفروع (8).

ويمكن تلخيص أهم مبادىء إصلاحه التعليمي كالتالي :

1 ـ إحياء وتشجيع التدريس من الكتاب والسنة مباشرة.

2 ـ الحث على الإعتماد في الفقه على كتب الأقدمين كالمدونة لإبن القاسم والبيان والتحصيل لإبن رشد.

= الأديولوجي لأن عهد سرور لم يشهد أي نشاط للوهابية بالحجاز إلى حين وفاته سنة 1202 هـ وأن أخاه الغالب هو الذي سيدخل في حروب طاحنة مع الوهابين، فكيف يتأثر السلطان بالوهابية في حين أن صهره القريب منها لايعرف عنها شيئا.

بالإضافة إلى ماسبق ينظر مقال محمد المنصور : الحركة الوهابية وردود الفعل المغربية عند بداية القرن 19.

ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن 19 م سلسلة ندوات ومناظرات رقم 7، منشورات كلية آداب الرباط ص 175.

(7) عمر المنصور، المرجع المذكور أعلاه ص 175.

(8) الحسن بن أحمد العيادي، الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله العلوي ـ البيضاء، 1987 ص 93

3 ـ الدعوة لنبذ كتب المختصرات المتأخرة كمختصر خليل بشروح الاجاهرة.

4 ـ تعيين كتب بعينها لتدريس بقية المواد من نحو ولغة وبلاغة وأدب وتحديد زمن قراءتها.

5 ـ إهمال كتب الأشاعرة ونبذ مذهبهم.

6 ـ الحث على اتباع مذهب السلف والإقتصار على عقيدة أبي زيد القيرواني.

7 ـ منع الإشتغال بكتب الفلسفة والمنطق والتصوف [9]

هذا بالإضافة إلى أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله في اختياراته المذهبية لم يهاجم التصوف في إطاره الصحيح فهو ناصري الطريقة آخد لدلائل الخيرات على يد شيخه العباس الشرادي بمراكش، كما كان يزور أضرحة الأولياء كضريح مولاي ادريس بل ساهم كذلك في بناء عدة أضرحة وترميم أخرى. وقد تقرب من شيوخ بعض الزوايا كالشيخ يوسف بن محمد الكبير شيخ الزاوية الناصرية الذي ساهم معه في مهاجمة البريجة واسترجاعها سنة 1769 هـ. كما أجرى الجرايات على الزاوية الوزانية والناصرية، إلا أن هذا لايعني أنه لم ينتقد أوضاع الزوايا بالمغرب فقد جاء في رسالة له يصف فيها زاوية أسسها أحد أبناء عمه بطريق فاس تافيلالت لإطعام الطعام وإيواء الفقراء والمساكين مايلي :

"هكذا ينبغي أن تكون الزوايا فهذه الزاوية وأمثالها تسمى بزاوية الإخلاص وأما الزوايا الموجودة بالمغرب اليوم فهي تطعم الأغنياء وحاملي الهدايا، ويطردون أبناء السبيل فهذه زوايا الرياء والسمعة ..." [10].

كما أنه دك الزاوية الشرقاوية ببجعد ونقل رئيسها أبو عبد الله محمد العربي الشرقاوي إلى مراكش من خلال رصد مجموع نصوص الرسائل والظهائر التي أصدرها السلطان [11] في إطار سياسته الدينية الإصلاحية يمكن التأكيد على شمولية وواقعية هذه السياسة التي ساهمت في وضع إصلاح للعدلية إضافة إلى إصلاح نظام الدروس في فاس وإصلاح الأحباس والتوثيق والإجتهاد في إطار الإختيارات القضائية بما يضمن حماية حقوق الضعفاء والمساكين وإن خرج في ذلك عن تعاليم المذهب المالكي، فإذا ماأضفنا إلى كل ذلك مشاوراته في هذه القضايا مع علماء المشرق العربي

(9) عبد الله گنون : ذكريات مشاهير المغرب : السلطان سيد محمد بن عبد الله ص 12.

كذلك : النبوغ المغربي في الأدب العربي ص ص 303 ـ 304.

(10)الحسن العبادي : مرجع سابق ص 221

(11) عبد الرحمن بن زيدان : مرجع سابق ج III ص ص 188 ـ 216

وخصوصا شيخ الإسلام العثماني وعلماء مصر ثم انفتاحه على أروبا. يتبين لنا خصوصية الحركة الإصلاحية لهذا السلطان الشيء الذي يجعلها تختلف عن الحركة الوهابية التي تجعل من التوحيد أهم محور تدور حوله بقية مبادئها وتحارب زيارة الأولياء والتوسل بهم وتحرم بناء الأضرحة والقباب على القبور والإنتساب إلى الطرق الصوفية، وبالتالي تطعن في الخلافة العثمانية وتكفر السلطان العثماني الذي أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالدعوة له على المنابر بالمغرب.

إن نتيجة المقارنة بين الحركتين تثبت لنا مايلي :

1 ـ إن تركيز الحركة الوهابية على قضية التوحيد ومقتضياتها التفصيلية يقابله تسامح من طرف السلطان تمشيا مع التقاليد المغربية (زيارة القبور ـ الأخذ بالناصرية).

2 ـ عدم خروج اجتهادات السلطان في عمومها عن المذهب المالكي إلا نادرا ولمصلحة خصوصا في المعاملات بعكس الوهابية التي نادت بفتح باب الإجتهاد استنادا إلى الأصول.

3 ـ انطلاق الوهابية داخليا يقابله انفتاح مغربي في اتجاه الخارج

4 ـ قلة الرصيد الوهابي من الناحية الإجتماعية يقابله تفوق في المشروع الإصلاحي للسلطان وهذا مايبرز من خلال تحليلنا لرسالته الموجهة للأمة والعمال، والتي يشير فيها إلى تهاون الناس في أمور العلم والدين ويحث فيها العمال على الإهتمام بالعلم والعمل على نشره وعلى دفع الناس لإحترام الدين وتطبيق قواعده وعلى تطبيق الشرع في المعاملات والأحكام.

III ـ نصيحة السلطان للأمة نموذجا

لقد ركز السلطان في رسالته هذه الموجهة إلى عموم الأمة وخصوصا عماله في أقاليم البلاد على وصف مابلغته وضعية عامة الناس من الجهل بالدين وعدم الأخذ به في مايثير من جوانب العبادات والمعاملات موضحا رأيه بالإستناد إلى مصدري التشريع الأساسين : القرآن والحديث النبوي دون الإحالة على أقوال أخرى لسواهما. وفي هذا الصدد يقول :

"ينبغي للمومن المشفق على نفسه عموما وخصوصا العمال البحث عن دينهم ومعرفة أحكام مادفعوا إليه وقلدوه من أمر رعاياهم ليسيروا على منهاج الشرع ويركبوا ماينجيهم مع الله ففي الحديث لايحل لامرء مسلم أن يقدم على أمر

حتى يعلم حكم الله فيه ..." [12] وقد فصل في جانبين أساسيين أولهما يتعلق بالعبادات مركزا على الفرائض على النحو التالي :

- التنديد بالتهاون في أداء الصلوات الخمس والجهل بوسائلها

- التذكير بأمر الزكاة والإمتناع عن إخراجها إلا قهرا فصارت في حكم الجباية وتقلت على العامة وكأنها من المغارم

- التأكيد على صيام رمضان وانتقاذ مجاهرة البعض بأكله من غير نكير أو صيامه دون معرفة مايصح به هذا الصوم ومايفسده

- التنصيص على مآل إليه أمر الحج بقوله :

"... وقد سمعت العامة فضله وجحدوا حكمه وارتكبوا فيه من البدع والرياء والسمعة ماأفسدوه عليهم، فإن الحاج ينبغي له اختيار الحلال المحض لذلك والمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها ومعرفة أحكامه وسننه وترك المرء والجدال والرفت والفسوق وحفظ الجوارح من المعاصي ... إلى أن يقول، وقد صار اليوم عند العامة لهوا ولعبا وجل العامة لايقصد به إلا التسمية بالحاج فقط ولايقصد به فرضا ولاغيره فتجد الرجل يتوجه للحج ومن حين خروجه وهو متلبس بالمعاصي [13].

- الجهاد في سبيل الله وهو فرض كفاية مالم يفجأ العدو فإن فجأ العدو كان فرض عين [14] ثم يتساءل السلطان عن سبب هذا الجهل بقواعد الدين فيجيب مجملا ذلك في : "قلة العلم وعدم مخالطة العلماء وسؤالهم عن مسائل الشريعة المطهرة" ويتأسف على ذلك بقوله :

"فإنا لله وإليه راجعون وقد عم ذلك حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا والسنة بدعة والبدعة سنة وارتكبت العامة أمورا قريبة من الكفر أو هي الكفر بعينها" [15].

أما بخصوص المعاملات فقد ركزت هذه النصيحة علي مايلي :

- التذكير بتحريم الربا بأنواعه في مجال البيع والشراء والسلف بالزيادة

---

(12) عبد الرحمان بن زيدان، مصدر سابق ص 217.

(13) عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق ص 219

(14) ابن زيدان، مصدر سابق ص 220

(15) المؤلف نفسه، المصدر السابق ص 221

ـ فساد الأنكحة بالتساهل فيها بـ :

* الخطبة على خطبة آخر

* الدخول بالمطلقة قبل تمام العدة

* بيع الزوجة مقابل الوفاء بالدين وتطليقها من طرف العدول على شكل خلع

* التساهل في أمر الزنى بعدم تطبيق الحد

* الإحتيال على النساء الحسان بسجن الزوج حتى يتمكن الراغب من الوصول إلى الزوجة بالفساد [16].

ـ التساهل في أمر القصاص من القاتل للمقتول بقبول الرشوة [17]

بعد ذلك يوضح السلطان في رسالته هذه، الحلول العامة والمبادىء الأساسية التي يجب على الناس والعمال اتباعها لدرء تلك المفاسد وهي مجملة كالتالي :

ـ النصح للنفس وللرعية جهد الإستطاعة ـ اتباع السنة والجماعة

ـ معاقبة المخالفين بقدر معاصيهم

ـ إلتزام كل دوار وجماعة بمشارطة طالب علم للرجوع إليه عند الحاجة وتكليفه بمهام التدريس والوعظ والإرشاد وإقامة الصلاة.

ـ الإستعانة بالعلماء والقضاة ممن تثبت أمانته

ـ التشديد على أهل الجرائم والفساد والرفق بالضعفاء والمساكين دون الإقتصار على المعاقبة على الذعيرة أو مخالفة الشيخ.

ثم يختم السلطان نصيحته هذه بالتذكير بعاقبة مخالفة الأوامر الواردة في رسالته بقوله :

"ومن حاد عن هذا السبيل من العمال وقصر في نصح رعيته ولم يحملها على أفضل الأخلاق والأعمال فقد تعرض لسخط الله ومقته وحلول العقوبة المعجلة به ولايلوم إلا نفسه. ولا يضر إلا رأسه، ولتكن نسخة من هذا الكتاب عند كل شيخ وكل طالب ليبلغ الشاهد الغائب ولنخرج من عهدة التقليد ومن خالف الشرع أو حكم بغير ماأنزل الله أو رضي بذلك فحسابه على الله ..." [18].

(16) المؤلف نفسه، المصدر السابق ص 221 ـ 222

(17) المؤلف نفسه، المصدر السابق ص 222

(18) ابن زيدان، مصدر سابق ص 22

إن هذه النصيحة لوحدها تتضمن مجموعة من المبادىء السلفية التي توضح البعد السلفي في الفكر والعمل الإصلاحي للسلطان سيدي محمد بن عبد الله منها :

- العمل بمبدأ النصيحة والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف
- الحرص على اتباع السنة
- القيام بالنقد الإجتماعي لسلوك العامة والخاصة

فإذا مااعتبرناها فقط حلقة من حلقات الإصلاح المحمدي العبدلاوي - إن صح التعبير - فما هو البعد السلفي لسياسته الدينية ذلك مانخلص إليه في نهاية هذا العرض:

IV - البعد السلفي لهذه السياسة

بناء على ماسبق نجد أن السياسة الدينية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله تتحدد في العمل على تقويم سلوك المسلمين وتوطيد دعائم الدين بالجهاد والإجتهاد، وتوسيع مجال تطبيق الشرع والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف بالوعظ والإرشاد، وبالتهديد والردع.

لاشك أن أي مقارنة لهذه السياسة بما دعت إليه المحاولات الإصلاحية السابقة التي نهجت نفس النهج تجعلنا نستنتج البعد السلفي لهذه السياسة خصوصا عندما أصبح مصطلح سلفية يطلق على حركات التجديد الداعية للرجوع إلى الأصول الإسلامية الأولى لمحاولة إصلاح الحاضر المعيش.

لقد ارتكزت هذه الحركات على منهج واحد استخدمه الجميع لفهم مختلف القضايا حينما تعرض على مقياس الكتاب والسنة وذلك بالتأكيد على وضوح الإستدلال وبروزه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وبموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول [19].

إلا أن هذه الحركات وإن اتحدث في أبعادها ومنطلقاتها فقد احتفظ كل منها بخصوصيته كما لاحظنا ذلك مثلا بالمقارنة بين الحركة الوهابية والسياسة الدينية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله. هذه السياسة التي تعود في أبعادها السلفية

(19) علي أبو العكيك : الحركة السلفية بين المشرق والمغرب وأثرها في الإصلاح والتحرير رسالة د. د. ع في العلوم الإسلامية - مرقونة دار الحديث تحت رقم 18772. ص 29.

للتأثر بالتجارب المغربية السابقة عنها منذ المحاولة الموحدية وإلى آخر محاولة قبل عهد سيدي محمد بن عبد الله والمتجلية في نصرة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد المناوي الدلائي لمذهب السلف في كتابه :

"جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر" والذي دافع فيه حتى على الشيخ ابن تيمية منتصرا بذلك للعقيدة الحنبلية [20].

إن البعد السلفي لهذه السياسة الدينية يتجلى في كل المحاولات التي عالجتها. ففي التعليم أمرت بنبذ المختصرات وفي القضاء سعت إلى العمل بما اتفق عليه الأئمة الأربعة بدل الإقتصار على مذهب واحد إلى غير ذلك من الجوانب التي تعرضت لها.

(20) عبد الحفيظ الفاسي : الآيات البينات في شرح وتخريج الأحاديث المسلسلات الرباط ـ 1934 ص 300.

التحول الفكري في عهد سيدي محمد بن عبد الله

1789 - 1757 = 1204 - 1171

عبد الجليل بادو
المدرسة العليا للأساتذة
تطوان

بتتبعنا للفترة التاريخية التي عاش فيها السلطان سيدي محمد بن عبد الله نستطيع أن نتبين تميزا فريدا عاشه المغرب يختلف تماما عما كان عليه الأمر في الماضي لاعلى المستوى السياسي فحسب وإنما بالأساس على المستوى الثقافي ـ الفكري، وإذا كان لابد من الإحاطة بالظروف والملابسات التي تحيط بكل وضع ثقافي ـ فكري من أجل استيعابه وفهمه، فإنه بالنسبة للأوضاع الفكرية التي تميز بها عهد سيدي محمد بن عبد الله ينبغي أن نضيف إلى ذلك فهم الهدف الذي كان السلطان يرمي إليه في كل نشاطاته الثقافية والفكرية.

ومن خلال الأعمال الثقافية لسيدي محمد بن عبد الله نستطيع أن نتبين بأنها، في مجملها ورغم تنوعها، كانت تهدف إلى تحقيق مشروع متميز وضعه السلطان، وبدأ يعمل من أجل تحقيقه. إنه مشروع إصلاح تجديدي، ينبذ التقليد وينشد وحدة الأمة استنادا إلى عمل السلف الصالح.

ولعل إدراك هذا المشروع يمكن أن يتحقق من خلال التركيز على نقطتين أساسيتين هما :

1 ـ المواقف النقدية للسلطان.

2 ـ التحولات في الفتوى والتعليم.

المواقف النقدية عند سيدي محمد بن عبد الله.

يتفق السلطان مع آراء ومواقف الشيخ ابن أبي زيد القيرواني، وهو يصرح بذلك سواء في كتاباته أو في نقاشه للآراء المخالفة، والواقع أن اتفاقه مع ابن أبي زيد

لايعني أكثر من أنه وجد فيه مالا يتعارض مع القرآن والسنة أساس الإستدلال في الموقف السلفي، وهذا المنطلق بالذات هو الذي سيعتمد عليه السلطان في توجيه انتقاداته لكل المواقف التي لا تلتزم بهذا النهج، كما يتضح في نقده لمختصر الشيخ خليل، و "الشفاء" للقاضي عياض و "جمع الجوامع" لابن السبكي، و"الإحياء" للغزالي.

عن مختصر الشيخ خليل يقول سيدي محمد بن عبد الله "والعجب من خليل كيف لم يذكر في كتابه من أوله إلى آخره، آية ولاحديثا ولادعاء، حتى أنه لما احتاج إلى ذكر القنوت، ذكر أول كلمة منه ثم قال : إلى آخره، فانظر كتابه هذا مع رسالة ابن أبي زيد فقد قيل أن فيها أربعين آية، وثلاث مائة حديث. وأما الأدعية، فكثيرة، وقد قيل : وبضدها تتميز الأشياء" [1].

واضح إذن أن مأخذ السلطان على "المختصر" هو كونه لايستدل بالكتاب والسنة، الأمر الذي يتنافى وطبيعة التوجه الذي يريده السلطان لإعطاء الأدلة، إذ ينبغي للدليل أن يلتزم أساسا بالنص.

أما عن نقده لإبن السبكي في كتابه "جمع الجوامع" فقد ركز فيه على طريقة التعبير، واعتبر أن "فيه سوء أدب مع الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين" [2] وواضح أيضا أن فيه إشارات توحي بأن القياس ينسخ الأصول.

ونفس الموقف وقفه السلطان من القاضي عياض في كتابه "الشفاء" حيث وردت تعابير لاتليق بمقام الرسول (ص). يقول سيدي محمد بن عبد الله "وبعض طلبة المغرب من الموفقين للصواب، إذا قرأوا كتاب الشفاء، ووصلوا الربع الأخير منه، تركوه من غير قراءة ..." [3] ومعلوم أن القسم الرابع المعني هنا، هو المعنون ب : "القسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه أو سبه عليه الصلاة والسلام"، وهو تعبير طبعا مرفوض جملة وتفصيلا لأنه لايليق بمقام الرسول، رغم حسن نية المؤلف.

فلابد إذن من اختيار التعبير المناسب لمقام الرسول (ص) وللصحابة والتابعين.

أما ماأخذه سيدي محمد بن عبد الله على الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين.. هو اللبس الذي وقع فيه وأوقع فيـه فقهاء الإسلام، حين أدخل المنطق لعلوم الشرع،

---

(1) مخطوطة شاسي في رسائله العلمية كما جاءت في كتاب : الملك المصلح للحسن العبادي. ص 159.

(2)نفس المرجع ص. 159

(3) نفس المرجع ص. 181.

فأخرجها بذلك من صفائها الأصيل. يقول في هذا الشأن : "وقد لبس الغزالي على فقهاء الإسلام بإدخاله في كتابه، أقوال المناطقة والفلاسفة، والأحاديث الضعيفة والموضوعة التي لم يبلغ سندها إلى سيد الأنام" [1].

فأساس الإستدلال إذن هو القرآن والحديث لا المنطق الذي ينتهي بصاحبه للتأويل ثم البدع كما حصل لأهل الكلام، وقد كان السلف الصالح حسب تعبير السلطان "على غاية لاتدرك من تحصيل العلوم، وإدراكها، من غير احتياج لمنطق ... وخير أمور الدين ماكان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع" [2].

نلاحظ هنا أن ماكان يشغل سيدي محمد بن عبد الله هو محاربة البدع المحدثة في الدين، ولعل هذا مايفسر لنا طبيعة المؤلفات التي وضعها أو التي أمر بتأليفها أو تلخيصها، سواء كانت في الفقه، أو في الحديث أو في غير ذلك، كما يفسر لنا رفضه لتشجيع أعمال المتصوفة رغم مايظهرونه من تنسك، لأن البدع سبب تفريق كلمة المسلمين. ولمثل هذا الإعتبار منع سيدي محمد بن عبد الله المتصوف محمود الشنـكيطي بفاس سنة 1175 من ممارسة أعماله بل نفاه إلى مراكش التي بقي فيها إلى أن مات، ونفس الموقف اتخذه السلطان مع عمر "الكلخ" المنتسب لزاوية سيدي رحال سنة 1181 حين أخذ يدعي الكرامات ويجمع الأتباع وينشر فيهم الآراء التي لاتستند إلى أصول الشرع فقبض عليه وأمر بقتله ليكون عبرة لأمثاله.

تلك كانت بعض المواقف النقدية لسيدي محمد بن عبد الله وهي مواقف نستطيع من خلالها ضبط أسس البنية الفكرية التي ينطلق منها في معالجته لمختلف القضايا التي تناولها، سواء في شروحه أو تحليلاته أو مواقفه وانتقاداته، وهذه الأسس هي :

1 ـ الإلتزام بأحكام الشرع كما هي واضحة في الكتاب والسنة.

2 ـ الإعتماد في عملية الإستدلال وفي الإستشهادات على النص.

3 ـ رفض استعمال تعابير في حق الرسول (ص) لاتليق بمقامه وكذلك مقام الخلفاء الراشدين.

4 ـ تجنب الإشتغال بقضايا الكلام اعتمادا على الرأي.

5 ـ تجنب التأويل والإختلاف المستند إلى المنطق.

---

(1) نفس المرجع ص. 185.

(2) نفس المرجع ص. 154.

إن القاسم المشترك بين هذه المبادىء رغم الإختلاف بينها، هو أنها في مجملها تهدف إلى درء الإختلاف الذي يؤدي إلى التفرقة في وقت تحتاج فيه الأمة إلى الوحدة. لقد عاش المغرب قبل تولي سيدي محمد بن عبد الله أزيد من ثلاثين سنة من الإضطراب، فكان السلطان يعي تماما مسؤوليته في إعادة الوحدة وإعادة البناء، وهذا لن يتحقق إلا بدرء عوامل الإختلاف والتفرقة. من هنا كان حرص السلطان على هذا الهدف الذي كان لابد من تضافر الجهود المادية والمعنوية لتحقيقه.

بلوغ الوحدة عند سيدي محمد بن عبد الله لايمكن، إلا بتحقيق انسجام فكري أولا وذلك عن طريق التشبث بالمذهب، ونبذ الخوض في قضايا الكلام ثم الدعوة إلى الإلتزام بموقف الإمام أحمد الذي "سد طريق الخوض في علم الكلام، وقال لايصلح صاحب الكلام أبدا، ولانرى أحدا ينظر في علم الكلام إلا وفي قلبه مرض" [1].

صحيح أن سيدي محمد بن عبد الله طرح بعض القضايا الكلامية في كتابه، إلا أنه مع طرحه لها، لم يدخل في تأويلات المتكلمين معتزلة كانوا أو أشاعرة. وإنما ،اكتفى في استشهاداته بالأصول، كما هو الشأن في مسألة القضاء والقدر التي تعرض لها في كتابه "الفتح الرباني فيما اقتطفناه من مسانيد الأئمة وفقه الإمام الحطاب والشيخ ابن أبي زيد القيرواني".

فالإلتزام بالأصول إذن هو الذي يجنب الوقوع في التأويلات الواهية التي تنتهي بصاحبها إلى الضلال، وهذا موقف سلفي أصيل من خلاله يحدد لنا السلطان مدلوله للعلماء فيقول : "العلماء الذين على منهج السلف الصالح، رضي الله عنهم أجمعين هم المشتغلون بتلاوة كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله (ص) واستنباط الأحكام منها. والفقه في الدين، وإصلاح ألسنتهم بالنحو ... ويستمر قائلا - فهؤلاء العلماء المذكورون هم الذين يطلق عليهم لفظ العلماء رضي الله عنهم وأرضاهم ولاتلقى رجلا منهم إلا ومعه السكينة والوقار والتثبت، والزهد في الدنيا وحسن الخلق وجعلهم الله محبين لخلقه" [2].

من هذا المفهوم نتبين كيف يستثني سيدي محمد بن عبد الله علم الكلام ومايرتبط به من المنطق والحكمة، بل كثيرة هي المواقف التي يعبر فيها عن رفضه لهذه الميادين بشكل صريح إلا أن رفضه لهذه الميادين لم يكن رفضا مبدئيا كما نجد في الموقف

(1) نفس المرجع ص. 98.

(2) مخطوط الخزانة الملكية رقم 9593

الحنبلي، يقول في هذا الشأن : "ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة، وكتب غلاة الصوفية فليتعاط ذلك في داره مع أصحابه ... ومن تعاط ماذكرنا في المساجد ونالته عقوبة، فلا يلوم إلا نفسه" [1].

إنه نص صريح يؤكد أن رفض التعاطي لهذه العلوم ليس رفضا مبدئيا، وإنما يتعلق الأمر بالنهي عن إعطائها للجمهور لما يؤدي إليه ذلك من اختلاف في الرأي وحدوث للفتن وإنهيار للوحدة. وهذا الموقف لايختلف في عمقه عن ذلك التقسيم الذي يميز بين الخاصة والعامة ويعتبر أن الخاصة يمكنهم التعاطي لهذه العلوم لقدرتهم على بلوغ حقائق لايقوى عليها غيرهم، بل تسبب لهم الزيغ ماداموا غير مؤهلين لها، كما نجد في دفاع ابن رشد عن الحكمة [2].

وبالفعل فقد اهتم كثير من الفقهاء المقربين للسلطان بهذه العلوم، نذكر منهم الفقيه أحمد الهلالي السجلماسي المتوفى سنة 1175 بتافلالت : كان يعد من أكابر العلماء، له مؤلفات في الفقه وفي التصوف واللغة والأدب، وأيضا في المنطق، وهو الذي وضع شرحا لقصيدة عبد السلام القادري في المنطق سماه "الظواهر الفقهية، على الجواهر المنطقية" [3]. وهناك أيضا الفقيه حمدون بن الحاج المتوفى سنة 1232 والذي تعرض في كتاباته لهذه العلوم كما تدل على ذلك أرجوزته في المنطق وأرجوزته في الكلام.

مايهمنا من هذا هو أن قضايا الكلام والمنطق لم تكن مغيبة وإنما اشتغل بها العلماء في عهد السلطان وخصوصا المقربون منه.

ومايمكن استخلاصه الآن، هو أن سلفية سيدي محمد بن عبد الله سلفية أصيلة، تنبذ التقليد وتدعو إلى التجديد في ارتباط بالأصول، تؤمن بالتفكير ولاترفض العقل والمنطق إلا في حدود مايمكن أن يؤثر على وحدة الأمة وتماسكها، وبهذا المعنى يمكن أيضا فهم موقف السلطان من التأويل.

تحولات الفتوى والتعليم :

كان اهتمام سيدي محمد بن عبد الله بالعلم والعلماء اهتماما متميزا تجلى حتى قبل أن يتولى شؤون البلاد. كان يجالس العلماء ويحاورهم وقد حضر كثير منهم بيعته بعد وفاة والده، منهم. الفقيه سعيد العمري، وعبد القادر بوخريص، ومحمد بن قاسم

(1) الإتحاف : ج. 3. ص 211.

(2) راجع "الكشف عن مناهج الأدلة" لابن رشد

(3) انظر كتاب "الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية" لمحمد الأخضر. ص : 281

جسوس، والإمام عمر الفاسي وغيرهم، بل أنه لما دخل فاس قادما من مراكش، سأل عن الفقهاء وتعرف عليهم واحدا بواحد [1].

يقول الأستاذ الناصري في الاستقصا : "كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله محبا للعلماء وأهل الخير، مقربا لهم، لايغيبون عن مجلسه في كثير من الأوقات ... جلب من بلاد المشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث، لم تكن بالمغرب، مثل مسند الإمام أحمد. ومسند أبي حنيفة وغيرهما ..." [2]. لقد أراد السلطان أن يخلص الفقهاء والطلبة في عهده من الإشتغال بالمختصرات التي جعلتهم معرضين عن أمهات الكتب، فاهتموا بالمسائل العادية في الحياة، والقضايا والنوازل التي تعرض عليهم، وأصبح مدلول الإجتهاد عندهم لايتعدى اجترار فتاوي محفوظة من الملخصات والشروح، فأخذ سيدي محمد بن عبد الله ينهى عن ذلك، "ولايترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل، وإنما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وأمثالهما.." [3].

الغرض إذن واضح، ألا وهو تجاوز النضوب الفكري بمحاربة الجمود ونبذ التقليد، وخلق ملكة الإبداع والتجديد، وهذا ماينسجم تماما وطبيعة المشروع الذي يعمل من أجله السلطان.

لقد دعا سيدي محمد بن عبد الله إلى التفتح على المذاهب الأخرى غير المذهب المالكي، وتأملها مع الحرص على التمسك بمذهب السلف الصالح في الإعتقاد. يقول في هذا الشأن : "إذا صح حديثان وعارض أحدهما الآخر، فعليك بما جرى به العمل في مذهبك، فإن الأئمة كلهم عندنا على هدي من ربهم لانفرق بين أحد منهم، فهم عندنا كالحلقة المفرغة. أو كحد السيف. فهذا اعتقادنا أعاشنا الله على محبتهم وأماتنا على هديهم" [4].

لقد فتح السلطان الباب للتجديد والتخلص من الطابع التقليدي المقترن بالإجترار، ففسح المجال بذلك للتوعية والتثقيف اعتمادا على الفتوى هذا العنصر الأصيل المعبر

---

(1) انظر الاستقصا للناصري ج 8.

(2) نفس المرجع

(3) راجع النص التام كما أورده الحسن العبادي في كتاب الملك المصلح، ص : 143.

عن خصوصية الثقافة الإسلامية، وهذا مايتجلى في رسائله التي حدد فيها المنهج الذي يجب اعتماده في الفتوى، حتى لا تبقى معتمدة على المختصرات وعلى حفظ الفتاوي السابقة، وأمر باعتماد المفتي على كتب الأقدمين حتى لايزيغ عن الصراط المستقيم وأعطى سلطة واسعة للفقهاء تمكنهم من عزل القضاة والمفتين إذا لم يعتمدوا على المنهج الذي حدده لهم بالرجوع إلى الأصول وإلى أمهات الكتب.

بهذا أخرج السلطان الفتوى من التقليد متطلعا بها إلى سالف عهدها، ففتح بذلك المجال للنشاط الفكري بأن يستأنف عمله الذي تعثر منذ مدة طويلة، وهذا يبين لنا مدلول التجديد المعتمد على السلفية الأصيلة.

وانطلاقا من إلتزام السلطان بالسلفية دعا إلى إصلاح التعليم، فاعتبر علوم الشرع ضرورية في بداية التعليم أما غيرها فيأتي في المرحلة الثانية. كما يؤكد على ذلك في رسالته إلى ابنه مولاي علي خليفته بفاس [1].

ونستطيع أن ندرك طبيعة التوجه الذي أراده سيدي محمد بن عبد الله للتعليم من خلال الكتب التي أمر بتدريسها أو شرحها ونسخها، أو كذلك التي أمر بمنعها، فقد أمر مثلا بشرح كتاب "الأغاني" للأصبهاني، ثم دعا إلى نسخ كتاب "البيان والتحصيل" لابن رشد الجد، كما منع المختصرات والشروح في التدريس وأيضا كتب الكلام بما فيها كتب الأشاعرة، بل إنه وضع كتابا في التعليم يعبر عن آرائه الخاصة وأهدافه، عنونه ب: "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان"، شرح فيه العقيدة انطلاقا من موقفه السلفي، وبين أحكام العبادات، هادفا بذلك إلى جعل المتعلم يعرف أمور دينه معرفة حقه، مما يرفع عنه الجهل ويمكنه من الإسلام الصحيح. وتلك غاية سامية يمكن تحقيقها بالتعليم كما يقول السلطان عملا بقول الرسول (ص) "أفضل الصدقات، أن يتعلم المرء المسلم العلم ثم يعلمه أخاه المسلم". وقد أكد على الطريقة التعليمية التي أراد للمعلمين نهجها والتي تقوم على الإعادة وتكرار مايراد ترسخه في الأذهان، وأوضح كيف يكون المعلم قدوة يقتدي بها التلاميذ في العلم والعبادة. ثم أصدر مراسيم يغير بموجبها برامج جامعة القرويين ويجدد المواد التي يجب التركيز عليها. إن الوضع الثقافي الشاذ الذي تميز به المغرب في المرحلة السابقة لعهد سيدي محمد بن عبد الله، وضع لايمكن تغييره إذا لم يحدث تغيير جذري في ميدان التعليم، ولهذا قام السلطان بكل هذه الأعمال لتغيير الوضع القائم وتحقيق مخططه في

(1) راجع الرسالة في نفس المرجع ص 81.

في التغيير، هذا المخطط الذي يرتبط بمشروعه في التجديد والإصلاح، اصلاح العقيدة والمجتمع، وتجديد الفكر الإسلامي بوضع المنهجية اللازمة للتفكير اعتمادا على ماكان عليه السلف الصالح، وتحديد الأسس النظرية والعملية التي تمكن من الإنسجام الفكري أساس الوحدة والقوة، وتلك غاية رئيسية كثيرا مااعتبرها السلطان في مواقفه وأحكامه.

لقد كان يصرح في كتاباته مرارا أنه "حنبلي العقيدة، مالكي المذهب" ولكن هذا لايعني أن مشروعه في التجديد يتطابق مع الموقف الحنبلي بشكل تام. ذلك أن الحنبلية تقف من المنطق والفلسفة موقفا مبدئيا، في حين أن سيدي محمد بن عبد الله يسمح بإمكانية الإشتغال بذلك بشرط ألا يؤدي إلى مضاعفات يمكن أن تؤثر على وحدة الصف واتحاد الكلمة، وهذا يعبر عن الخصوصية التي يتميز بها سيدي محمد بن عبد الله باعتباره شخصية تتحمل مسؤولية دينية ودنيوية.

السعي إلى التجديد وفسح المجال للفكر كي يتخلص من نضوبه تلك هي خصائص المشروع الذي دشنه سيدي محمد بن عبد الله محدثا بذلك طفرة في الفكر الإسلامي سيقوم أقطاب الفكر السلفي بالمغرب في المراحل اللاحقة لعهده - رغم التعثر الذي أصاب هذه المبادرة بعد وفاة السلطان - وهذا مايفسر لنا الإهتمام الكبير بأعمال السلطان الفكرية والعملية.

يقول المرحوم عبد الله گنون : "لقد نجح السلطان سيد محمد بن عبد الله في كل ماقام به من منجزات وأعمال لصالح الدين والوطن لأنه كان ذا فكر عبقري وهمة عالية. وكان في جميع أعماله يحدوه الإخلاص والنصح للرعية، فأتم الله عليه نعمته بالتوفيق والتسديد" [1].

(1) ذكريات مشاهير رجال المغرب. لعبد الله گنون. ص : 23

مواهب المنان والدعوة إلى إصلاح التعليم للسلطان المصلح سيدي محمد بن عبد الله

إدريس العلوي البلغيثي
المدرسة العليا للاساتذة - بمكناس

مدخل :

حرص ملوك المغرب الأماجد، ومنذ أن من الله عليه بنعمة الإسلام، على الإهتمام بشؤون التعليم، وإعطائه الأولوية على جميع الميادين الأخرى، التي ترتبط به ارتباط الروح بالجسد، إدراكا منهم أن لانهضة للأمة إلا بنشره في الحواضر والبوادي، وتعميمه بين جميع الفئات والأفراد؛ فراحوا لهذه الغاية السامية يؤسسون المدارس ويبنون المعاهد في طول البلاد وعرضها، ويزودونها بالمدرسين الأكفاء الذين يمثلون شتى التخصصات في علوم الدين واللسان، والطبيعة والحساب والفلك، وفنون الأب وغيرها.

وقد كثرت المدارس والمعاهد في عهد الموحدين [1]، وصار التعليم أكثر انتشارا في الولايات والأقاليم التابعة لإمبراطوريتهم المترامية الأطراف، وتطورت مضامينه ومناهجه، وتخرج فيها العديد من الأعلام الدين أصبح لهم صيت ذائع في عالم الفكر.

وتوالت اهتمامات المرنيين بالتعليم، وطبعوه بطابعهم الخاص، ولاتزال مدارسهم ماثلة للعيان حتى الآن تشهد بعظمتهم في هذا الميدان، وبالأخص في فاس عاصمة مملكتهم الزاهرة.

ونحا السعديون نحوهم في ذلك، وواصلوا الإعتناء بالتعليم وتعميمه في جميع أنحاء المكلة إلى أن لاحت تباشير الدولة العلوية الشريفة التي بلغ التعليم ذروة سنامه على عهد ملوكها الأعاظم الذين نهضوا به، ووسعوا رقعة انتشاره، باذلين في سبيل ذلك جهودا مشكورة، إيمانا منهم بأهمية تنميته اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا. إن الحديث عن هذه النهضة المباركة وتعداد مظاهرها ليحتاج إلى حيز كبير في البحث الميداني، ويتطلب أكثر من ندوة علمية. وحسب الباحث في مثل هذه العجالة أن يقف على مختصر جهود أحد هؤلاء الملوك الأكارم في هذا الميدان العظيم، وهو الملك

(1) ذ. محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص : 16.

الهمام سيدي محمد بن عبد الله ـ طيب الله ثراه ـ الموسوم بسلطان العلماء، وعالم السلاطين، والذي أولى التعليم كل عناية، هادفا إلى تطويره ورفع مستواه، وذلك بتعزيز التخطيط لبرامجه ومناهجه على مستوى الحواضر والبوادي، باذلا من أجل هذه الغاية النبيلة كل غال ونفيس، مشجعا طالبي العلم ماديا ومعنويا، بما فيهم كبار السن، فاتحا المجال فسيحا للعلماء والمؤدبين ليجمعوا بين مزيتي التدريس والتأليف، مغدقا عليهم من هباته السنية ماساعدهم على أداء رسالتهم السامية بنجاح وفي أحسن الظروف.

وقد وضع برنامجا جامعا مانعا للدراسة بجامعة القرويين الأصيلة عام 1203 هـ/1788، وأمر بنشره بين المدرسين قصد الأخذ به والإلتزام بحدوده، ومما جاء فيه [2] : "فإنا أمرناهم أن لايدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره وكتاب دلائل الخيرات والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلما وغيرها من الكتب الصحاح، ومن كتب الفقه المدونة والبيان والتحصيل ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن شاس والنوادر والرسالة لابن أبي زيد وغير ذلك من كتب الأقدمين. ومن أراد تدريس مختصر خليل فإنما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والحطاب والشيخ علي الأجهوري والخرشى الكبير لاغير ... وكذلك يقرأ الشفا، فحين يصل للربع الأخير يختم الكتاب ولايقرؤه، وكذلك الذي يقرأ البخاري فحين يصل لحديث الإفك يتركه ولايتعرض لقراءته... لأن المسائل التي نهينا عن قراءتها لم يذكرها أحد من أئمة المسانيد رضي الله عنهم ولاتعرضوا لها والعلماء الأقدمون رضوان الله عنهم.. وكذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكلاعى وابن سيد الناس اليعمرى، وكذا كتب النحو كالتسهيل والألفية وغيرهما من كتب هذا الفن، والبيان الإيضاح والمطول وكتب التصريف، وديوان الشعراء الست، ومقامات الحريري، والقاموس ولسان العرب وأمثالهما ممايعين على فهم كلام العرب لأنها وسيلة إلى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى عليه وسلم وناهيك بها نتيجة...".

ومن أبرز مظاهر اعتنائه بشؤون الطلبة إنشاؤه لمرتب لهم في الظهير الشريف الذي أصدره لناظر العاصمة الإسماعيلية، وهذا نصه [3] : "تأمر ناظر أحباس مكناسة الحاج

(2) العلامة ابن زيدان، الإتحاف، ج : 3، ص : 211 ـ 213، انظر : "الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، للدكتور محمد الأخضر، ص : 273.

(3)الاتحاف، ج : 3، ص، 247 ـ 248.

الطيب المسطاسي أن يجعل طلبة باب مراح في المراتب مثل المدارس الست، وهي : مدرسة الصبير، ومدرسة باب المراح، ومدرسة قصبة هدراس، ومدرسة الصبير، ومدرسة جامع الشاوية، ومدرسة سيدنا ومولانا إسماعيل رحمه الله بحسب سبع أواقى لكل واحد من الطلبة المذكورين في الشهر ومثقال للمؤذن وخمس عشرة أوقية للإمام. وخبزة لكل واحد في اليوم عند الزياتينية كما تقدم لك أمرنا بذلك، وراتبهم من الأحباس كما هو مرسوم عندك، ولافرق بين الطلبة المذكورين فكلهم في ذلك سواء. وأما طلبة مدرسة الأوداية فلا يقبضون إلا الراتب فقط كما أمرناك قبل. وأما الخبز فلا تعطهم شيئا لأنهم في ديارهم ومع أهليهم، والسلام.

في 12 شوال من سنة 1193. ومن تمامه أن الخبز المذكور يكون من أربعة في الرطل وكل مايدفع الزياتينية من الخبز فاعطهم خط يدك، والسلام".

وذكر المؤرخ الضعيف [4] أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله ـ طيب الله ثراه ـ رتب طلبة جامعة السنة بالرباط، وكان يتفقدهم بالطعام كل يوم يطلع من الرباط، ولايغفل عنهم.

ومن مكرماته في هذا الشأن، والتي سجلها له التاريخ بمداد الفخار، تحبيسه خزانة كتب جده السلطان المعظم المولى إسماعيل على مكتبات مساجد المملكة، وكان عدد ذخائرها يربو على إثني عشر ألف مجلد [5]، وذلك رغبة منه ـ جزاه الله عن العلم والعلماء خير الجزاء ـ في أن ينتفع بها جميع العلماء والمتعلمين، وتتيح لهم فرص السفر والرحلة إلى جميع أنحاء المملكة للإطلاع على مايحتاجونه منها، فضلا عن الإحتكاك بغيرهم من العلماء والشيوخ، وهذا لعمري من أعظم مزايا هذه المكرمة الخالدة التي ساعدت على تنشيط الحركة العلمية بالمغرب في عهده.

وأكد المؤرخ ابن زيدان أنه : "أوقف ـ رحمه الله ـ مؤلفاته وبالأخص المسانيد على خزائن المشرق والمغرب، وأوقف على تدريسها أوقافا، وشرحها غير واحد من الأعلام[6]" وكان يبادر بأريحيته إلى اشتراء كل ماتحتاجه المكتبة المغربية من الكتب والتصانيف من الأقطار الإسلامية البعيدة؛ ويحدثنا الكاتب المؤرخ أبو القاسم الزياني عن الكتب التي اقتناها له من تركيا أثناء زيارته لها وملاقاة سلطانها عبد الحميد الذي كان يريد

(4) تاريخ الدولة السعدية، ص : 339

(5) الإتحاف، ج : 3، ص : 185.

(6) نفس المصدر، ص : 362

الإعانة من المغرب، بقوله [7] : "ولما قضيت الغرض واشتريت الكتب التي أوصاني بشرائها أمير المؤمنين وهي : مسند أبي حنيفة النعمان، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والطريقة المحمدية المختصرة من الإحياء، اقتصر فيها على ماهو مشهور، وبين أعلام الأمة يدور. وأعطاني الوزير الأعظم اختصار المواهب الأربع في سفر، وتأليف الدرر المتداول عندهم في الفقه الحنفي كخليل عند المالكية وشرحه المسمى بالغرر على الدرر في سفرين كالزرقاني".

وتظهر صورة اعتناء هذا العاهل العظيم بالتعليم وشؤونه أكثر وضوحا وجلاء في الكتاب الهام الذي ألفه لهذه الغاية النبيلة، والذي يحسن عرضه في الخطوط العامة التالية :

وصف الكتاب :

والكتاب في الأصل مخطوط، من ذخائر المكتبة الكتانية، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط [8]، وهو من الحجم الصغير، يقع في إحدى وتسعين صفحة (91). مقياسه : 20/14. ومسطرته : 9، مكتوب بخط مغربي جيد باللونين الأسود والأحمر.

وقد عبثت الأرضة بأطرافه فأصابتها بخروم كثيرة، وامتد فعلها إلى بعض السطور المحاذية للحواشي، فتسبب في محو حروف عدد من الكلمات.

وسماه مؤلفه : "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان".

دوافع تأليفه :

ذكر المؤلف الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله في مدخل كتابه الدوافع الموضوعية والذاتية التي حفزته لتأليفه بقول [9] : "فلما كان غالب اعتناء طلبة الوقت لحفظ القرآن والتفنن في قراءته بالروايات، وإهماله مافرضه الله على الأعيان مما يدان به من علم العبادات والإعتقادات، وإن كان فضل حفظ كتاب الله تعالى مأثورا، ومقام حفاظه بين أولياء الله مشهورا، لكن لامع الجهل بما يعبد الله به من ضروري الدين، فإنه على الموصوف بهذه الصفة حجة في كل حين، لأن المقصود الأهم من حفظ القرآن، وهو تعلم أحكام الدين التي بها الله يدان. إذ مجرد حفظ مجموعة فرض كفاية بلا ارتياب، ومعرفة ماتبرأ به الذمة منه ومن غيره فرض عين وإيجاب... ولقد طال

(7) الترجمانة الكبرى، ص : 126 ـ 127.

(8) رقمه : 795 ك

(9) ص : 11 ـ 19.

اختباري ومشافهتي لمشاهير الحفاظ، المسلم لهم في قراءة المكى والسبع وضبط الروايات والألفاظ، فألفيتهم جاهلين، وخصوصا أهل البوادي، بأحكام الطهارة والصلاة لإعراضهم عن تعلم واجب ذلك، واكتابهم على ضبط طرق الرواة. حكم من إمام منهم لايعرف ماتصح به الطهارة، ولا مبطلات الصلاة ولاأحكام السهو وأطواره. وكنت لقيت حال سفري من مكناسة إلى مراكش سنة ثلاث بعد المائتين والألف من الأساتيذ الجم الغفير الكثير، وألفيت كل من اختبرت منهم لم يتمسك من علم دينه بقطمير حملني ذلك لما انطوى عليه الفؤاد من حب النصح للمسلمين، أن أجمع لهم مسائل مهمات من علم أمور الدين، قريبة المقاصد، شهيرة الموارد، مقتصرا فيها على الضروري ليسهل حفظه على الصبيان، وهي أيضا نافعة لمن اقتصر عليها في دينه من الشيوخ والكهول والشبان، راغبا في ذلك في محصول قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح : "إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون علي معلم الخير الناس". ومارواه ابن ماجة أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أفضل الصدقات أن يتعلم المرء المسلم العلم ثم يعلمه أخاه المسلم".

فواضح من هذا كله أن الدافع الأساس لتأليف الكتاب هو توجيه المعلمين والمتعلمين إلى الوعي الديني، واستيعاب أحكامه في العبادات والإعتقادات، والتفقه في أمور الدين بأيسر المناهج وأسهل الطرق. لأن الحفظ وحده لايجدي نفعا في العملية التعليمية، وشحن الأذهان بالمعلومات الكثيرة دونما فهم لها هو تجميد للملكات الفكرية عند الإنسان، وطمس لمعالم الإبداع عند الموهوبين؛ فالعلم المفهوم هو الذي ينتفع به في أمور الدين والدنيا، أما العلم المحفوظ، الذي يعتمد فيه على الذاكرة، فلا فائدة ترجى منه؛ لأنه لايسعف صاحبه في ممارسة الحياة العلمية، ولايفسح له المجال لتنمية مفاهيمه وبلورتها. وهذا هو جانب الخلل الذي أدركه الملك المصلح عن كثب أثناء زياراته لمراكز التعليم، ومجالسته للمعلمين والأساتذة واختباره لهم؛ فأزمع على إصلاحه بكل حزم خشية أن يستشرى في كيان الأمة، ويصبح مستعصي العلاج، ذا انعكاسات سلبية على مسارها الحضاري والتاريخي.

منهج الكتاب :

اتبع المؤلف في تصنيف كتابه منهجية موضوعية تنبني على أسس علمية سليمة، وهي تدل بوضوح على تمكنه من أصول فن التأليف وتمرسه بقواعده؛ فقد استهله بمدخل عام بين فيه فضل التفقه في الدين، ودوافع تأليفه، ثم أردفه بمقدمة أجمل فيها مافصله

في الأبواب الخمسة التي يتكون منها الكتاب، والمحتوية على عشرة فصول، وأنهاه بخاتمة جامعة مانعة.

وقد جاءت الأبواب مرتبة حسب الشكل التالي :

الباب الأول : ويتناول : "مايجب اعتقاده من أمور الدين مما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة حسبما احتوت عليه عقيدة الشيخ ابن أبي زيد رحمه الله تعالى ورضى عنه".

الباب الثاني : مخصص : "في أحكام الطهارة والصلاة ومايتعلق بذلك من الشروط"، ويتكون من تسعة فصول، وهي :

1ـ فصل في أحكام الوضوء ومايصح به.
2 ـ فصل في نواقض الوضوء.
3 ـ فصل في الغسل، وفرائضه، ومستحباته.
4 ـ فصل في التيمم، وفرائضه.
5 ـ فصل في الصلاة، وشروطها، والأذان، وكيفيته، وحكمه، ومستحسنه ومستحبه.
6 ـ فصل في أحكام السهو.
7 ـ فصل في الفوائت.
8 ـ فصل في أحكام السهو.
9 ـ فصل في الجمعة.

الباب الثالث : خصصه للزكاة، ويحتوي على فصل واحد، مداره : "زكاة الفطر سنة".

الباب الرابع : في الصيام.

الباب الخامس : في الحج وأركانه.

ويتبين لنا من خلال هذا البناء الموضوعي للكتاب تركيز المؤلف على محورين أساسين، وهما : الإعتقادات والعبادات، ويتكاملان بتسلسلهما المنطقي في وحدة موضوعية تامة، وهي : وجوب تعلم أحكام الدين والتفقه فيه .

محتويات الكتاب :

افتتح الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله كتابه بالديباجة التالية [10] : "الحمد

(10) ص : 1 ـ 4.

لله الذي امتن بالتفقه في الدين على من أراد به خيرا، ومنح من تعلم مهم ماعليه وعمل به مغنما من السعادة وذخرا، وأوجب على العباد تعلم الضروري من قواعد الإسلام، وأرشد إلى تعلم صغار العلم قبل كباره تدريبا للأنام، وخاطب الآباء خطاب استحباب بتعليم الأولاد، وحث على ذلك ليألفوا الدين قبل البلوغ حث نصح وإرشاد.

وصل اللهم على الآمر بتبليغ الشاهد الغائب، الموضح للناس مانزل إليهم من الفضائل والرغائب، محمد نور الكون والوجود، وإمام حضرتي الغيب والشهود، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه طوالع الأنوار، وينابيع الفتوحات والأسرار ماعبد الله مخلص في عبادته ودعاه، أو سمع قولا فتبع أحسنه ووعاه".

تتضمن الحمدلة العناصر الأساسية التي نسج منها المؤلف الموضوع الرئيس لكتابه، وهي : التفقه في الدين، وتعلم المهم والضروري من قواعد الإسلام والعمل به، وتعلم صغار العلم قبل كباره، ووجوب تعليم الآباء لأبنائهم.

فالتعلم، كما نرى، هو ديدن هذا الملك العظيم، وتعلم أمور الدين أساسا والتفقه فيها، ومنذ الصغر، هو الهدف الأسمى الذي يقصد إليه، لأنه سر صلاح الأمة وفلاحها. ويتضح ذلك أكثر في المقدمة التي أجمل فيها الحديث عن مضامين الكتاب إجمالا حسب المنهج الذي رسمه للكتاب، وهذا نصها [11] : "إعلم أرشدنا الله وإياك أنه يجب على معلم صبيان المسلمين أن ينصحهم ويبذل المجهود في ذلك، لأنه خليفة آبائهم، بأن يعلم من آتاه منهم أولا الفاتحة وحزب سبح، فإن صعب عليه فليقرئه ربعه الأخير من "العاديات"، فإذا حفظ ذلك فليعلمه عقيدة الشيخ ابن أبي زيد حتى يحفظها وترسخ في ذهنه فهي الأصل الأصيل، ثم بعد ذلك يبين له أن الماء على ثلاثة أقسام؛ الأول : مايصلح للعادات والعبادات وهو الباقي على أصله لم يتغير لونه ولا طعمه ولاريحه بشيء إلا أن يكون من جنسه كالحمئة والطحلب وهو الخز بلغتنا. والثاني : يصلح للعادات دون العبادات، وهو ماتغير أحد أوصافه الثلاثة من لون أو طعم أو ريح بشيء طاهر كاللبن والعسل والطعام وماأشبه ذلك. والثالث : مالايصلح للعادات ولا للعبادات وهو ماتغير أحد أوصافه بشيء نجس.

فإذا عرف ذلك فليبين له أحكام الطهارة؛ وأن أولها : الإستنجاء أو الإستجمار من البول والغائط، وأن من استجمر بثلاثة أحجار تخرج آخرهن نقية أجزاءه. ثم يعلمه اسباغ الوضوء وكيفية الإغتسال وفرائضهما وسننهما ونواقضهما. ثم يبين له أحكام

(11) ص : 11 ـ 19.

التيمم وأنه يجب عند عدم الماء، أو عدم القدرة على استعماله. ويريه صيغته كما ستأتي. ثم يعلمه أحكام الصلاة من فرائضها وسننها ومايبطلها كمن صلى صلى بغير طهارة إلى غير ذلك مما تبطل به الصلاة.

ويتأكد أيضا على معلم الصبيان أن يعلمهم الأذان وكيفيته وحكمه وكذلك الإقامة كما سيأتي، ويكون معلم الصبيان يصلي بهم ويعلمهم إتمام الركوع والسجود والطمأنينةفيهما.

ويتأكد على المعلم إعادة هذه الأمور على الصبيان وتكرارها حتى ترسخ في أذهانهم، فإن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر، زمان بلوغهم حتى يجدهم عارفين بما يجب عليهم من أمور دينهم. كما يجب عليه أن يحضهم على الإستقامة وأنها تؤدى إلى السلامة، وأن الإستقامة أصل المهلكات، وأم من تمام الإستقامة بر الوالدين. ثم يبين لهم المنجيات والمهلكات كما سيأتى. ويبين لهم أن الدواوين ثلاثة : ديوان لايغفره الله تعالى وهو الإشراك بالله والعياذ بالله، وديوان لايترك الله منه شيئا وهو مابينك وبين أخيك المسلم. وديوان لايعبأ الله به إن شاء عذب وإن شاء غفر، وهو مابين العبد وبين ربه.

فإذا رسخ ماذكرناه في عقل الصبي وعلمه بشر المعلم بذلك والده، وأرشده إلى إعمال الختمة، وليشكر الله كثيرا على هذه النعمة. ثم إن ظهرت فيه نجابة في القراءة فليتركه يقرأ، وإن لم تكن فيه نجابة في القراءة فهاهو قد تعلم أمور دينه وبرئت ذمة والده من تباعة بقائه بجهله. فعليه أن يحترف بالحرفة التي كان والده يحترف بها من تجارة أو صنعة يد أو فلاحة لمعاشه وبالله التوفيق".

إنها دعوة عمل إلي تعليم الصبيان فلذات الأكباد، والإخلاص في إسداء النصح إليهم، والتدرج معهم حسب مداركهم الفكرية في عملية التعلم. ولتسهيل هذه الأمور على المعلمين وضع الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله برنامجا تطبيقيا يعتمد على الحفظ والفهم معا، ويرتكز على الإعتقادات والعبادات، وقد عززه بمجموعة من التوصيات التربوية الهامة، منها : التدرج من الخاص إلى العام، ومن السهل إلى الصعب، وإعاده مايتعلمه الصبيان من أمور الدين وتكرارها حتى ترسخ في أذهانهم وتصير محفوظة لديهم، والحض على الإستقامة لأنها من تمام التعلم وتشجيع النجباء من المتعلمين على متابعة دراستهم، وتوجيه المتخلفين إلى التكوين المهني لضمان عيشهم الكريم والحفاظ على حرف آبائهم وتأصيلها.

وأحال المعلمين في محور الإعتقاد على رسالة الشيخ ابن أبي زيد، ودعاهم إلى تبنيها في عملهم التربوي والإعتماد عليها في عملية التدريس لأنها كافية ووافية.

ولأهمية هذه العقيدة في الرسالة، خصص لها المؤلف الباب الأول برمته من الكتاب، لتكون في متناول المعلمين بجميع أنحاء المملكة وتصبح مقررة على جميع المتعلمين، وقد ختم هذا الباب بقوله [12] : "وانتهت عقيدة الشيخ الإمام أبي محمد سيدي عبد الله بن أبي زيد رحمه الله تعالى ورضي عنه".

والملاحظ أنه اقتصر في هذه المقدمة على ذكر عبادتي الطهارة والصلاة، مرجئا العبادات الثلاث، الزكاة والصيام والحج إلى الأبواب : الثالث، والرابع، والخامس.

أما الخاتمة فتضمنت درر النصائح التي توجه المسلم إلى الحياة المثلى: حياة الفضيلة والخير والفلاح وعمل الصالحات، وهي تفيض بروح الإيمان الصادق والخالص، النابع من أعماق قلب الملك الصالح المصلح سيدي محمد بن عبد الله، وهذا نصها الكامل [13] : "ويجب على العبد أن يتوب إلى الله تعالى من ذنوبه، فيقضي ماضيع من صلاة أو صوم، ويحفظ جوارحه من معاصي الله تعالى: فلاينظر بعينيه إلى مالا يحل له النظر إليه بالشهوة، ولاينظر من المحرم كالأم والخالة غير الوجه والأطراف، ويحفظ جوارحه: أذنيه من الإستماع إلى الباطل كله وذكر عيوب المسلمين، ولسانه من الكذب والزور وهي :

الشهادة بالباطل، والغيبة وهي أن يذكر أخاه بما يكره، والنميمة وهي نقل الخبر ليفسد بين المسلمين، وبطنه من الحرام، فإن أكله يظلم القلب ويسخط الرب، وصاحبه لاخير فيه، ويديه من استعمالهما فيما لا يحل، ورجليه من السعي بهما إلا في طاعة الله تعالى، ويحفظ قلبه من الرياء فإنه الشرك الأصغر ومعناه أن يفعل الطاعة ليمدحه الناس عليها وهو حرام، ومن الحسد وهو أن يتمنى زوال النعمة عن أخيه المسلم، ومن العجب والكبر والتسخط لما يجرى عليه من المصائب وكل ذلك حرام. ويحفظ قلبه من الطمع في الخلق ولا يعلقه إلا بالملك الحق. وعلى العبد أن يصبر فإن الله مع الصابرين، ويكون خائفا خاضعا لله ويكثر من ذكر الله ومن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها حياة القلب وسعادة العيش في الدنيا والآخرة. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين".

(12) ص : 39

(13) ص : 88 ـ 91.

وبالنظر المتأنى إلى الكتاب في خطوطه العامة يتبين لنا أنه ثمرة مجهود هذا السلطان العظيم في آخر مراحل حياته الحافلة بجليل الأعمال وعظيم الأفعال في شتى المجالات الحيوية؛ فقد ألفه بعد رحلته الميمونة من مكناسة إلى مراكش سنة 1203، أي قبيل وفاته بسنة، داعيا فيه عمليا وصراحة إلى إصلاح نظام التعليم الذي اختلت برامجه ومناهجه، وأصبح لايتلاءم مع الأهداف المنشودة للدولة.

لقد حز في نفس الملك المصلح جهل مشاهير الحفاظ، والأئمة والجم الغفير من الأساتذة، ممن اختبرهم، بأبسط أحكام الدين، مدركا ببصيرته النفاذة مايترتب على هذا الوضع المزري من انعكاسات سلبية على المتعلمين، وبالأخص الذين نأت بهم الديار عن الحواضر، فدفعه ذلك إلي الإضطلاع بمهمة الإصلاح واضعا برنامجا أوليا يوجه المعلمين إلى أقوم السبل وأيسرها، ويعين المتعلمين على الدرس والتحصيل.

ويتميز هذا البرنامج بمبدأ تعميم التعليم بين جميع أبناء الأمة في الحواضر والبوادي، وتطوير مضامينه، وتوحيد برامجه ومناهجه، وتعزيز تعليم الكبار ومحو آثار الأمية في جميع ربوع المملكة، وتوجيه الأطفال الذين استعصى عليهم أن يتابعوا دراستهم إلى التكوين المهني بمراعاة مايمارسه آباؤهم من حرف ومهن للمحافظة على أصالتها، ومنع لتفشي آفة البطالة في المجتمع.

ويستمد هذا البرنامج أسسه من الشريعة الإسلامية السمحة، التي كان ـ طيب الله ثراه ـ أحرص الناس عليها، يعض عليها بالنوجذ؛ فالتعليم في أساسه يجب أن يرتكز على أمور الدين، ومعرفة أحكام العبادات التي اشترط على المعلمين أن يكونوا عالمين بها، فاهمين لها فهما جيدا ،و متمكنين من التعامل بها، لأن العبرة في الكيف لا في الكم، وفي الفهم لا في الحفظ، وفي الجمع بين العلم والعمل، لا في العلم وحده.

وكان أكثر إلحاحا على مبدأ الإفهام في العملية التعليمية، ناصحا المعلمين أن يتشبثوا به ويحافظوا عليه لأنه سبيل الإفادة والنجاح، ذاكرا لهم حرص السلف الصالح على استيعاب أحكام الدين وفهمها مما كانوا يحفظونه من كتاب الله الحكيم، مستدلا على ذلك بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه : "أقام في قراءة البقرة ثمان سنين، لأنه لم يقتصر على الحفظ بل تعلم مااحتوت عليه من أحكام الدين" [14].

ولهذه الغاية كان يحث المعلمين على إنعام النظر وإجالة الفكر في أمور الدين ليستخلصوا منها العبر ويستلهموا الحكم المأثورة، ويكون عملهم التربوي متسما بالحيوية والفعالية، لينتفع به المتعلمون، وتعم فائدته البلاد والعباد.

---

(14) ص : 6.

وينبرى من ثنايا الكتاب، وبكل وضوح، الهدف الأسمى من هذه الدعوة الإصلاحية، وهو الحفاظ على الهوية الإسلامية للإنسان المغربي، وإبعاده عن متاهات الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء التي تفضي في الغالب الأغلب إلى الإستلاب والمسخ.

وتعكس الدعوة في جوهرها نزعة الملك المصلح السلفية، فهو يرى في إصلاح نظام التعليم، ضرورة العودة إلى الينابيع الأولى والنهل منها لأنها الأصل الأصيل لديننا الحنيف، مصداقا لقول الرسول الأكرم صلوات الله عليه وسلامه : "تركت فيكم ماإن تمسكتم به بعدي لن تضلوا أبدا : كتاب الله، وسنة رسوله" وتبرز مظاهره هذه النزعة في عنايته الفائقة بكتاب الله حفظا وفهما، والحديث النبوي الشريف رواية ودراية، واهتمامه بالكتب الصحاح والإعتماد عليها في الأسانيد، ومحافظته على وحدة المذهب المالكي، برغم إيمانه بعقيدة الإمام أحمد بن حنبل، وإيثار منهجه في تعليم أمور الدين، ويتجلى ذلك في تبنيه لعقيدة الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني [15]، والتي تمثل أصالة المذهب المالكي في المغرب الأصيل.

وتتبدى للمتمعن في الكتاب معالم شخصية الملك الهمام العلمية؛ فهو عالم بأصول الدين وفروعه، خبير بأسس التربية وشؤون التعليم، عارف بالبرامج والمناهج الملائمتين للمتعلمين بمختلف مستوياتهم، النافعتين لهم في دينهم ودنياهم، مدرك لأهمية تعزيز الروابط بين التعليم والميادين الحيوية الأخرى كالسياسة والإجتماع والإقتصاد والفكر، ضليع في علوم اللسان العربي، له إلمام بقواعد الكتابة، وأصول فن التأليف، متمرس بفن الخطابة، مجيد للجدل والإحتجاج، لاتأخذه في دين الله لومة لائم، ميال إلى الوعظ والإرشاد، مؤثر لأيسر المسالك وأنفعها في الإمور كلها، وبالأخص أمور الدين التي كان يدعو الأساتذة والمعلمين أن ييسروا في تلقينها ولايعسروا؛ لأن الدين يسر وليس بعسر مخلص لله في الطاعة والعبادة، معتز بدينه الحنيف وبقوميته. متواضع في عمله واجتهاده. محب للعلم والعلماء، مشجع على طلبه وتحصيله والتأليف فيه، مبغض للجهل، محارب للأمية في أمته وخصوصا في صفوف الكبار. ويشاء القدر أن يجدد الدعوة إلى محاربة الأمية حفيده الملك العالم أمير المؤمنين مولاي الحسن الثاني حفظه الله بالسبع المثاني؛ فقد دعا أمته إلى القضاء على هذا الداء الوبيل قبل أن يستفحل أمره ويصير وصمة عار في جبينها.

إنها نفس الدعوة التي قام بها السلطان المصلح سيدي محمد بن عبد الله، وهو

(15) صدرت الطبعة الجديدة لكتاب "الرسالة" بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

مايؤكد لنا، وبكل جلاء، اهتمام ملوك هذه الدولة المجيدة بالتعليم. وتعميمه بين أفراد الأمة المغربية حيثما كانوا، ولو بلغوا من الكبر عتيا؛ لأنه حق معلوم للجميع، صغارا كانوا أو كبارا، يستوي في ذلك الذكور والإناث دونما تمييز، وهذا لعمري هو مجد النبالة الذي تسعى إليه كل أمة طموحة وأصيلة.

وتتضح صورة شخصية الملك المصلح أكثر في اللوحة التي رسمها له نجله أبو محمد عبد السلام ونصها[16] : "وكان والدي - نصره الله وأدام لنا وللمسلمين علاه - حريصا علي تعليم أولاده، تابعا في ذلك سنة آبائه وأجداده، يجلب العلماء لحضرته السعيدة، المباركة الحميدة، ويحث على تعليم العلم في سائر القرى والمدن ويكرم الأعلام، وهو نصره الله مشارك في جميع الفنون العظام قد وسع أهل العلم إنعاما وإحسانا، وعطاء وامتنانا، يعلى مجالسهم، ويستخرج نفائسهم، ويكثر جوائزهم، يقضي حوائجهم. وله مع الفقهاء مذكرات ومحادثات في سائر الأيام، وممر الدهور والأعوام، فيلقى عليهم من المسائل والمشكلات في الحديث والسير والأخبار وضروب من الفنون العربية، ونكت من المقطعات الأدبية، فلا يهتدون إليها إلا بعد إطلاع، وسواء في ذلك ذو العارضة أو قصير الباع".

وقد توخى المؤلف السلطان سيدي محمد بن عبد الله في كتابه : "مواهب المنان" الدقة في التعبير، والسهولة في الألفاظ، جامعا بين خاصيتي السجع والترسل في الأسلوب وبنوع من الإعتدال دونما صنعة أو تكلف، فضلا عن طابعه العلمي، ومسحته الأدبية.

وتتعدد مزايا الكتاب بالدراسة الموضوعية لمضامينه العامة والهامة، بيد أن الميزة الرائدة فيه، والتي يجب أن تستأثر بالإهتمام أكثر لدى الدارسين هي دعوة الملك الصالح المصلح الخالصة إلى إصلاح نظام التعليم الذي هو أساس صلاح الأمة، وسر نهضتها.

---

(16) الإتحاف، ج : 185/3

مفهوم العقيدة عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله

ميلود بلقاضي
كلية اللغة العربية - مراكش

إن النص - المقدمة التي بين أيدينا - رغم قصرها فإنها قدمت لنا صورة عامة عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله وعن نظرته للدين وللمجتمع، وللثقافة.

ومن تم اعتبرنا النص/ المقدمة التي وضعها هذا السلطان لكتابه "الفتوحات الإلاهية في أحاديث خير البرية" [2] كممارسة للكتابة هي عملية هدفها انتاج "معرفة". وحاولنا من خلال تحليلنا لهذه المقدمة ـ البحث عن هذه المعرفة عن طبيعتها، عن مميزاتها وذلك ضمن العلاقات الداخلية لهذه المقدمة، دون إغلاقها على نفسها.

ومنطلقين من الإفتراض التالي : هل توفق السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن يرسم لنا في هذه المقدمة ـ النص ـ خطوط العالم الذي يطمح لبناءه ؟

خصوصا وأن الطموح من الناحية العلمية - كما نعرف - شرعي مهما كبرت غايته ـ وصعبت ظروفه.

وتجدر الإشارة أن هذا العالم الذي يريد تأسيسه السلطان؛ يمثل عالما غائبا / حاضرا. من هنا اعتمدت الكتابة عن هذا السلطان كممارسة لتبيان "الأسس" و"القواعد" التي سينهض عليها بناء هذا العالم.

والكتابة كممارسة كما أثبت المتخصصون في تحليل النصوص [3] يرون : "أن الكتابة كممارسة تحتاج حينما تريد انتاج معرفة بموضوعها إلى مرتكزات نظرية تنطلق منها، أو مفاهيم توظفها".

فالسلطان سيدي محمد بن عبد الله في المقدمة ـ النص ـ تلك لم تكن مرتكزاته النظرية إلا "القرآن الكريم"، و"السنة والحديث"، أما "المفاهيم" فهي مفاهيم تنتمي في غالبيتها وحقلها المرجعي إلى علوم الحديث والعقيدة (العلوم الشرعية).

(1) نقصد مقدمة كتاب سيدي محمد بن عبد الله، في كتابه الفتوحات الإلاهية في أحاديث خير البرية.

(2) اعتمدنا الطبعة، الثانية. المطبعة الملكية ـ الرباط 1980.

(3) انظر يمنى العيد : في معرفة النص : منشورات دار الآفاق الجديدة ص 15 ط II 1984

نفترض أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله آتخذ المصادر التالية : القرآن، الحديث أدوات للحجة البالغة، وما الإعتماد على هذه المستندات كمراجع إلا تثبيتا للشرعية.

بعد قراءة هذه المقدمة / النص اعتبرناه، كوسيلة أساسية لتمرير أحكام من المعارف، حول صاحب النص [4] من جهة، ومن جهة أخرى حول تاريخ النص العام. وتجدر الإشارة هنا أننا لم نتعامل مع النص على نمط القراءة الخطية التي هي قنطرة إليه بجمل وكلمات وفقرات، بل نظرنا إليه كبنية منظمة ذات منطق داخلي، وذا مبادىء مقصدية ومعرفية.

وقد سنحت لها هذه المقدمة إلى إعطاءها ثلاثة أبعاد : بعد معرفي، وبعد سوسيولوجي، وبعد تاريخي، ويجمع هذه الأبعاد عدة علائق معرفية ومنطقية سنعود إليها فيما بعد.

وكما نعرف ـ فإن أي تحليل ينطلق من مجموعة افتراضات، وهذه الإفتراضات تفرضها طبيعة المتن المحلل [5] والإفتراضات التي انطلنا منها مرت عبر حوار مباشر مع المقدمة / النص. هذا الحوار الذي تم على ثلاثة مستويات :

مستوى داخلي أو مستوى النص ذاته، ونقصد به كل ماورد في النص، من قيم وأفكار ومفاهيم ثم كل ذلك ضمن علاقاته الداخلية أو مانسميها الآن (النصية).

مستوى خارجي، ويتمثل فيما يوجد في المقدمة / النص والنصوص الأخرى، المتعددة المصادر والمستويات والوظائف ... ويسميه البعض ب "التناص".

مستوى خارجي آخر، يرتبط بتفاعلات هذه المقدمة / النص مع المحيط الاجتماعي والثقافي بكلمة أدق مايسمى الآن (بالتداول).

نهاية المقدمة العامة، نقول إن النص / الكتابة بالنسبة إلينا، هو تراكم معرفي بالنسبة لسيدي محمد بن عبد الله يعتبر "قراءة" بمعني قراءة خاصة له للدين للاصلاح، للمجتمع إلخ ...

وبعبارة أوضح، فالنص هو نظرة سيدي محمد بن عبد الله العالم أومايسميه لوسان كولمان "vision du monde".

---

(4) نقصد : السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

(5) المتن أو المدونة :"Corpus" هو مايعتمد باحث ما أثناء قيامه بتحليل ما.

المعرفي : تحديد علاقاته :

أسباب منهجية سأذكر بافتتاحية المقدمة / النص التي اعتمدناها مادة للتحليل، جاء في هذه المقدمة : "قال عبد الله، المتوكل على الله، المعتصم بالله" لنقف عند هذه الصيغ لنقف عند حقولها الالالية "Champs sismantraps"

أولا أن هذه الصيغ حددت لنا علاقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وثانيا قدمت لنا صورة عن شخصية هذا السلطان الذي وصف نفسه بأنه "عبد" ولكنه "عبد الله"، وثانيا "متوكل" ولكن على الله، وثالثا "معتصم" ولكنه أولا "معتصم بالله" هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ تكرار "لفظة الله" (3 مرات) لكن، يجب أن لايفهم من هذا التكرار بالمعنى التقليدي، بل يجب أن يفهم من هذا التكرار وظيفة تأكيد أنماط علاقات هذا السلطان بالله، والمتمثلة في التشبث المطلق و"الإيمان بالمطلق" (بالله).

وهنا نتساءل أنحتاج إلى ضيع أكثر من هذه لنحدد، ولنعرف علاقة هذا السلطان بالله ؟ ألا يمكن أن نجزم أن هذه الصيغ حاملة لأكثر من معنى ؟

بعد تحديد سيدي محمد لعلاقاته مع الله، انتقل لتحديد علاقاته مع المذاهب قائلا "المالكي المذهب، والحنبلي الإعتقاد".

إذ أن دلالة هذين الحقلين المرجعين ؟

إن لهذين الحقلين المرجعين أكثر من دلالة عند سيدي محمد بن عبد الله، إن المقصود من قولته تلك، هو إنارة ذلك الخلاف القائم بين "المالكية" التي لما تبع فيها - الإمام الأشعري - وبدأ يشتغل بالرد على أقوال المعتزلة، اتبعته مجموعة من الفقهاء في هذا الإتجاه ووافقته على ذلك، بخلاف الحنابلة، فلقد ساروا على النهج الذي رسمه لهم الإمام أحمد عندما سد طريق الخوض في علم الكلام، وأنكر على الحارث بن أسد المحاسبي كتاباته في الرد على المعتزلة (6).

دلالة ذلك، هو أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان يفضل اتباع السلف في الأصول فيما تفرع عنها.

إذا، بعد تحديد السلطان لعلاقاته مع الله، ثم مع المذاهب، انتقل ـ ودائما حسب نفس المقدمة ـ لتحديد علاقاته مع العلوم.

---

(6) للمزيد من المعلومات انظر، الشرح الذي وضعه لمقدمة الفتوحات الإلاهية لسيدي محمد بن عبد الله ط II. المطبعة الملكية الرباط 1980.

لتقريب هذه العلاقة للقارئ الكريم، سأذكر ماجاء في مقدمته السلطان سيدي محمد بن عبد الله : "اعلم أن أفضل العلوم، بعد كتاب الله عز وجل، حديث رسول الله صلى االه عليه وسلم".

نلاحظ أولا صيغة "فعل الأمر" الذي ابتدأ بها لما للأمر في اللغة العربية من وظائف نذكر منه .

أ ـ التوكيد لما تحمله الحملة مت أحكام وقيم

ب ـ ضرورة انصياع المتلقى للخطاب للمرسل له.

ج ـ تقديم معرفة جاهزة وللمتلقى للخطاب.

وأخيرا يمكن القول أن اختبار صيغة "الأمر" في هذا السياق يمكن لنا بعدا آخر يتعلق بشخصية هذا السلطان الذي كان يؤمن إيمانا مطلقا بما يقول. ويريد إقناع الآخر به (الأسلوب التقريري).

يستخلص من هذا، أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد وضح موقفه من العلوم بإعطاء الصدارة للقران ثم للحديث. وفي هذا ابراز لشخصية السلطان الذي يستحق لقب الفقيه بكل معانيها. لكن شرط أن لايفهم بهذا "المعظم" ماكان وفي هذه النقطة، يلتقي تحليلنا مع حكم المؤرخين عليه، وذلك بنعته ب "المصطلح المحدد". وفي هذا اللقب يمكن أن نستخرج بعدا اجتماعيا آخر يتمثل في كون أهل عصره، قد ابتعدوا عن هذه المصادر، مقابل التهافت على الخرافات والفروع.

وتجدر الإشارة هنا أن سيدي محمد بن عبد الله كان يرى في الرسول (صلى الله عليه وسلم) النمودج الذي يجب الإقتداء به.

من خلال تحديد هذه العلاقات، وقفنا على مجموعة قضايا، والتي يمكن أن نجزم بأنها قد خضعت لمنطلق النص، ونعني بذلك، أن هذه العلاقات أتت على الشكل التالي:

1 ـ الرتبة الأولى الله

2 ـ الرتبة الثانية الرسول

3 ـ الرتبة الثالثة العقيدة

4 ـ الرتبة الرابعة العلوم.

ونحن نتحدث عن هذه "المراتب"، نسجل فكرة هامة لم ينتبه إليها كثير من الناحيتين، وهي المتعلقة بعلاقة السلطان بالحديث، فمن خلال النص نفهم أنه لم يدرس الحديث للتعمق، والبحث في أبعاده، بل أن السلطان له مقتطف طريف في هذا الباب يظهر بوضوح، حتى صرح أن السبب الرئيسي لتأليفه له علم الفقه والحديث كان الحديث التالي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حفظ على أمتي أربعين حديثا من إمر دينها. كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة" [7].

فهو لم ينتظر من تأليفه في هذه العلوم إلا الشهادة، والشفاعة يوم القيامة.

ولعوامل متعددة لايسمح المقام بذكرها، جاء في المقدمة / النص التي قمنا بتحليلها، أنه جلب عدة مصادر من الخارج، وصرح السلطان نفسه، أنها لم تكن معروفة مثله في المغرب، يقول السلطان : "فحين شرعت في المقصود، سير الله تعالى في مسندات الأئمة الثلاث، وردت علينا من الحرم الشريف والحمد لله ...".

الإمام أبي حنيفة، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد رضي الله عنهم. والحال أن المسانيد المذكورة لم تدخل قط حتى كان قولها على أيدينا ـ الحمد لله ـ وشرعنا في مسند الإمام أبي حنيفة حتى ختمناه ـ والحمد لله ـ ثم في مسند الإمام الشافعي حتى ختمناه ـ والحمد لله ـ ثم في مسند الإمام أحمد أمير المؤمنين في الحديث حتى ختمناه ـ الحمد لله وأخذنا منها ماقدرنا على حمله من الدرر "النفيسة" ـ لاحظوا معي صيغة "المقصود" في النص التي دلت على اختصار الهدف، وهذا يعني أن السلطان لم يضع مقدمات، أو أطروحات، بل قصد هدفه بطريقة مباشرة. ومما زاد هذه الكلمة دلالة أخرى هي جوازها لجملة "تيسر الله"، لتعطي الصيغة المقصود دلالة خاصة. ألا يعني هذا حضور مطلق لله في كل أعمال السلطان ؟ أتوجد درجة أعلى من الإيمان على هذه التي نجدها في هذا النص (الحمد لله : ترددت ثلاث مرات)، هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فالنص يحمل عدة دلالات أخرى متنوعة : تاريخية ومنهجية، وهي كالتالي :

1 ـ الدلالات التاريخية :

أ ـ المسندات الثلاثة أتت من الحرم الشريف، إذا لاتعكس لنا جملة "الحرم الشريف" قيمة معرفية تاريخية (مثلا العلاقات، الإتصال، التبادل ...).

ب ـ يعتبر السلطان نفسه هو أول من أدخل هذه المسندات، ألا يعني هذا، أن السلطان قد مهد "للإصلاح كنظرية قبل تطبيق منهاجه الإصلاحي ؟

(7) وفي حديث آخر قيل : من حفظ ... (...) بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء.

2 ـ الدلالات المنهجية :

في نفس السياق نلاحظ أن السطان قد وضح منهجه، وهو كالتالي :

ذكر ماتفق عليه الأئمة الستة ونسميه السداسي

دكر ماتفق عليه الأئمة الخمسة ونسميه الخماسي

ذكر ماتفق عليه الأئمة الأربعة ونسميه الرباعي

ذكر ماتفق عليه الأئمة الثلاثة ونسميه الثلاثي

ذكر ماتفق عليه الأئمة اثنان ونسميه الثنائي

بذلك يذكر مسندات أبي حنيفة، ثم مسندات الإمام مالك، ثم مسندات الإمام الشافعي، ثم مسندات الإمام أحمد بن حنبل، مع التزام السلطان بتقديم أكبرهم سنا على الترتيب في كل حديث.

وقد وصف السلطان كل هذه المؤلفات، ولم يأخذ منها إلا "الذرر" ونفس الشيء تعامل به مع موطأ الإمام مالك" و "البخاري" و مسلم، وأضاف بعضها إلى بعض ثم ساقها فيما سماه : المساق الإبدع".

وفعلا لقد أبدع السلطان في طريقة جمعه، وتصنيفه للأحاديث النبوية، ونظرا لتعمقه في علم الفقه من ناحية، وملاحظته لضعف المصادر من جهة أخري، ألف كتابه "الفتوحات الإلاهية، في خير البرية"، وقد افتتحه بعقيدة أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني [8] (النص لسيدي محمد بن أبي زيد القيرواني)، مبررا ذلك بقوله : "لما اشتملن عليه من الفوائد الدينية، وسلامة قواعدها من القوادح الواردة على غيرهامن الكتب التي صنفت في علم العقائد. ولإقبال السلف الصالح على حفظها وتدريسها وشرحها، وانتفاع الخاص والعام بها، ... هذا الذي حملني على الإقتصار عليها ... وسميته بالفتوحات الإلاهية. وفي أحاديث خير البرية .. تشفى بها القلوب الصدية".إن هذه الفكرة التي أخذناها من النص المحلل، توضح لنا أكثر منهجية السلطان في تقسيم الكتب، والأخذ منها، فهو يخضع ذلك لمجموعة شروط :

شمولها على الفوائد الدينية.

سلامة قواعد من القوادح

اقبال السلف الصالح عليها

انتفاع الخاص والعام بها.

---

(8) صاحب متن الرسالة طبعة وزارة الشؤون الدينية 84.

الشرط الأخير، تبرز لنا بوضوح خصوصية هذا السلطان ـ العالم من علم الفقه، فهو يرى أن الكتب الفقهية ينفع بها أكثر حتما توجه إلى كافة الناس، وليس للمختصين، وهنا نذكر الوصف الذي أعطاه له المؤرخ الضعنف الرباطي المعاصر للسلطان: "كان نصبحا"، بليغا، أديبا، حليما ... عالما بالفقه والسنة، والحلال والحرام وفصل ا لأحكام " [9].

وهنا صيغة هامة في النص "تشفى بها القلوب الصدية"

إن تركيز السلطان على القلب فيه انسجام تام مع رؤيته إلى الحياة، إلى الدين، باعتبار القلب مصدر الإيمان وصفة "الصدية" وأصلها الصدأ هي صيحة صارخة عن الحالة الدينية والثقافية التي كانت عليها الفترة التي عاشها هذا السلطان، ولم يقف عند الوصف، بل طرح البديل، وهذا البديل ماهو إلا القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وسيرة الخلفاء، وفي كلمة "الصدية" دلالة عميقة عن حالة، النفسية / الفكرية التي كانت عليها الظروف الاجتماعية آنذاك.. وهذه الفكرة الأخيرة لها أبعادا تاريخية.

إذن ماهي الخلاصة :

يمكن أن نوجز ذلك على الشكل الآتي :

ـ للسلطان طريقة خاصة في تعامله مع القرآن، يخالف جل الطرق التي استعملت في المغرب، فهو لم يعتمد على الحفظ فقط بل تجاوزذلك إلى معرفة عمقه ودلالاته، وفي هذا يقول : إن المقصود الأهم من حفظ القرآن هو علم أحكام الدين" [10].

ـ يمكن أن نصفه بالسلطان العالم بكل جدارة، نظرا لمؤلفاته خصوصا الفتوحات الإلاهية التي وصل صداها إلى المشرق.

ـ يمكن وصفه بالسلطان المصلح، وذلك لما قام به من مجهودات في محاربة الخرافات، وتحقيق مجموعة من الأحاديث.

ـ السلطان المجدد : وتجلى ذلك في إحياءه لأصول الفقه والأحاديث.

وبجملة واحدة أوافق على ماقاله عنه عبد الله كنون : "لقد نجح السلطان سيدي محمد بن عبد الله في كل ماقام به من منجزات، وأعمال لصالح الدين والوطن لأنه كان ذا فكر عبقري، وهمة عالية، وكان في جميع أعماله يحدوه الإخلاص والنصح للرعية، فأتم الله عليه بنعمته بالتوفيق، الشديد".

---

(9) 104 نفس المصدر.

(10) عبد الله كنون : "ذكريات مشاهير المغرب " ص 25 ع 35. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت. لبنان.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه

قال عبد الله، المتوكل على الله، المعتصم بالله، أمير المومنين محمد بن عبد الله الحسني المالكي مذهبا، الحنبلي اعتقادا، الله وليه ومولاه :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أعلم أن أفضل العلوم، بعد كتاب الله عز وجل، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : "وماآتاكم الرسول فخدوه ، ومانهاكم عنه فانتهوا. واتقوا الله" الآية.

وقال صلى الله عليه وسلم : "من حفظ على أمتي أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء." وفي رواية "كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة"

فلما رأيت هذا الحديث، اشتاقت نفسي لجمع أربعين حديثا كما فعله الإمام النووي وغيره، راجيا من الله تعالى أن أكون من الذين يكون لهم النبي صلى الله عليه وسلم شفيعا وشهيدا يوم القيامة".

فحين شرعت في المقصود، يسر الله تعالى في مسندات الأئمة الثلاثة. وردت علينا من الحرم الشريف ـ والحمد لله : مسند الإمام أبي حنيفة، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد رضي الله عنهم، والحال أن المسانيد المذكورة لم تدخل المغرب قط حتى كان دخولها على أيدينا ـ والحمد لله وشرعنا في مسند الإمام أبي حنيفة حتى ختمناه ـ والحمد لله ـ ثم في مسند الإمام الشافعي حتى ختمناه ـ والحمد لله ـ تم في مسند الإمام أحمد أمير المومنين في الحديث حتى ختمناه ـ والحمد لله ـ وأخذنا منها ماقدرنا على حمله من الدرر النفيسة.

ثم أخذنا من درر موطإ الإمام مالك أيضا مثل ذلك؛ ثم أخذنا من درر مااتفق عليه الإمامان البخاري ومسلم وأضفنا الدرر المذكورة بعضها إلى بعض. ثم سقناها على هذا المساق الإبدع، ونظمنا جواهرها على هذا النسق الأرفع، مع تكرار ذكر الأئمة رضي الله عنهم أول كل الحديث، إذ هم القدوة في القديم والحديث، لما في الرضى عليهم عند ذكرهم، من أداء بعض واجب حقهم، وتنزل برحمات عند ذكرهم، نفعنا الله بهم، وأعاننا الله وأماتنا على محبتهم وهديهم، بجاه المصطفى وآله الطيبين الطاهرين.

فذكرت مااتفق عليه الأئمة الستة، ثم مااتفق عليه خمسة، ثم مااتفق عليه أربعة، ثم ماتفق عليه ثلاثة، ثم مااتفق عليه اثنان؛ ثم ذكرت آل بيت النبي صلى الله عليه

وسلم الطيبين الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، ثم الخلفاء الراشدين، والستة الباقين من العشرة الكرام، اللهم انفعنا بمحبتهم، واحشرنا يامولانا في زمرتهم، بفضلك وكرمك ياأرحم الراحمين، يارب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. والحمد لله رب العالمين.

ثم ذكرت مسندات أبي حنيفة، ثم مسندات الإمام مالك، ثم مسندات الإمام الشافعي، ثم مسندات الإمام أحمد بن حنبل، والتزمت تقديم أكبرهم سنا على الترتيب في كل حديث، وجعلت لكل إمام منهم أربعمائة حديث، واقتصرت من رجال الأسانيد على ذكر الصحابى، ومن أدار الأسانيد فعليه بالسديد.

وافتتحه بعقيدة الإمام سيدي محمد بن أبي زيد القيرواني. التي ابتدأ بها رسالته، لما اشتملت عليه من القواعد الدينية، وسلامة قواعدها من النماذج الواردة على غيرها من الكتب التي وصفت في علم القائد، ولإقبال السلف الصالح على حفظها وتدريسها وشرحها، وانتفاء الناس والعلم بها. هذا الذي حملني على الإقتصار عليها، وعدم الإلتفات إلى غيرها وسمته بالفتوحات الإلاهية، في أحاديث خير البرية، تشفي بها القلوب الصدية نفع الله به من يقول لاإله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دنيا واخرى أنه على مايشاء قدير، وبالإجابة جدير، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وزدت بعد كمال الكتاب وختمه فصلين :

الفصل الأول في بيان قولي في الترجمة المالكي مذهبا، الحنبلي اعتقادا :

الفصل الثاني في اعتقادي في الأئمة الأربعة، أعاننا الله على هديهم، وسننهم وأماتنا على محبتهم والتمسك بهم.

الغايات والأهداف التربوية العامة للنظام التعليمي في عهد سيدي محمد بن عبد الله

د. عبد اللطيف حسني ود. ميلود حبيبي
كلية علوم التربية / الرباط

نريد في هذه المرحلة المخصصة للنظام التعليمي بالمغرب في عهد سيدي محمد بن عبد الله أن نشير إلى بعض الملاحظات التمهيدية ومنها :

1 ـ أن الحديث عن النظام التعليمي يجب أن يفهم هنا بمعناه العام وليس المؤسسي الذي يطلق حاليا في علوم التربية وبخاصة في ميدان التخطيط والأدات التربوية. وذلك لأننا نتحدث عن فترة تاريخية متقدمة لم ترس بعد فيها دعائم نظرية تربوية متكاملة

2 ـ إن الكلام عن الغايات والأهداف التربوية العامة هو محاولة للإقتراب من الموضوع المدروس، أكثر مما هو تصنيف خاضع لمرجعية معرفية محددة، وذلك تفاديا للسقوط في تحديدات منهجية قد لاتتناسب مع الفترة التاريخية المدروسة ولا مع المتن المطروح للتحليل...

3 ـ أن المقصود بالغايات والأهداف العامة هنا هي تلك القيم الروحية والمعرفية والوحدانية التي تروم أي نظام تعليمي توصيلها إلى المتعلم عبر ممارسة تربوية قائمة على مجموعة من المعارف والقيم والسلوكات.

ومن هنا، فإن مجال عرضنا سيكون بالضرورة في المجالين التربوي والبيداغوجي على أساس أن المجال الأول مختص في علاقة التعليم كممارسة بقيم اجتماعية وروحية وثقافية، وأن المجال الثاني مرتبط بعلاقة التعليم بخصوصيات المتعلم على أننا لن نتحدث عن المجال الثالث أي ذلك المرتبط بالمواد وبتدريسها وهو الذي يتعلق بالتدريسية وبالديداكتيكا...

4 ـ إن تحديد الغايات والأهداف العامة للنظام التعليمي مرتبط بالأوضاع الثقافية والإجتماعية للفترة التاريخية المتحدث عنها، ويعني ذلك ضرورة استحضار الخلفية التاريخة والثقافية المتميزة بالتدهور الذي كان يشهده التعليم في هذه الحقبة...

كما يعني ذلك أيضا استحضار الجانب السلفي في شخصية سيدي محمد بن عبد الله

لم تكن وضعية التعليم في المغرب، خلال القرن الثامن عشر، وضعية تدعو إلى الإرتياح، مما يعد مبررا كافيا، حدا، بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 - 1789 م) إلى نهج سياسة تعليمية جديدة، إستهدفت التحسين من وضعية التعليم. والرفع من مردوديته. فإجراءات السلطان سيدي محمد بن عبد الله. في ميدان التعليم، إجراءات تجد مبررها في الوضعية المتدهورة التي كان يعاني منها التعليم المغربي خلال هذه الحقبة. كما أنها من جهة يمكن إعتبارها إمتدادا، وتتويجا لسلفية هذا السلطان، وحتى نتمكن من الإقتراب أفضل من الدلالات الكامنة من خلف سياسة السلطان سيدي محمد بن عبد الله في هذا مجال يبدو من المتوجب علينا، إلقاء نظرة، ولو عامة على الأوضاع التعليمية في المغرب خلال الحقبة، كما أن تفهم هذه الساسة، يقتضي منا في مستوى ثان، الإلمام بسلفية سيدي محمد بن عبد الله.

إتسم الوضع التعليمي، في مغرب القرن الثامن عشر على المستوى التنظيمي، بتواجد ثلاثة مستويات في التعليم، مستوى أولي، ومتوسط، وعال.

التعليم الأولي، اضطلعت به مؤسسة الكتاب التي كانت منبتة في الأحياء والقرى تعليم موجه بصورة أساسية للناشئة من الأطفال، يخضع في تسييره للأعراف المحلية التي تتفاوت من منطقة إلى منطقة أخرى [1]. ينحصر مجال التعلم فيه، على الكتابة وقراءة القرآن [2]. وهو نمط تعليم إتصلت حلقاته منذ العهود الأولى للإسلام، إلى وقتنا الحاضر [3]، العمل البيداغوجي المعتمد في هذا المستوى من مستويات التعليم، ظل تقليديا، يعتمد على الذاكرة والحفظ. الأمر الذي جعل منه. تعليما ضعيفا. إن لم نقل عديم المردودية وهو ماتنبه إليه "ابن خلدون" الذي كتب في هذا الشأن بقول : "فأما أهل إفريقية والمغرب الإقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة. وذلك أن القرآن لاينشأ في الغالب ملكة، لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون بذلك ستعمل على أساليبه والإحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات، وقلة التصرف في الكلام [4].

---

(1) إبن سودة. قبيلة زعير. ج 1. ص 90. دار الكتاب. الدار البيضاء، سنة 1977.

(2) عبد الله الجراري. من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وصلا. ج 1. ص 16. الطبعة الأولى. الرباط. سنة 1971.

(3) المرجع نفسه. ج 1 - ص 17.

(4) ابن خلدون. المقدمة. ص 1040. لبنان سنة 1982.

تعددت مضامين التعليم المقدمة من خلال مؤسسة الكتاب، واتسمت بيداغوجيته بالإعتماد على الذاكرة، فقد كان طبيعيا أن ينتج عن ذلك طول مدة هذا التعليم التي قد تستغرق عدة سنوات، دون نتائج يمكن أن تذكر فالطفل الناشيء يستمر في صراع مرير، طوال سنين وسنين، وهو يدور في حلقة جوفاء، نهايتها الوصول إلى إمساك لوح في يده، وقد كتب له المعلم فيه سورة من سور القرآن كالإخلاص، بعد ما استظهر حروف الهجاء استظهارا قد لايميز معه حرفا من آخر، إذا ماخولف له الترتيب الذي عهده [5].

بخصوص المستوى التعليمي المتوسط، فقد كان تعليما موجها لعموم المواطنين. تتولى الإضطلاع به "دور الفقهاء والمربين"، والمساجد، والزوايا، والمدارس الرسمية. ففي الوقت تضطلع فيه "دور الفقهاء" بتكوين يختلف من المرحلة المتوسطة، إلى مرحلة التخصص، في الزوايا. نفس المهمة، مضاف إليها، تلقين روادها الأذكار والأوراد الخاصة، أي تلقينهم تربية روحية معينة.

المدارس الرسمية، هي في هذا الصدد، إستمرار للتقاليد المرينية، والأندلسية، إذ عمل ملوك المغرب، على إحداث بعض المدارس، كمدرسة الشراطين بفاس، التي أحدثها المولى رشيد والمدارس التي أحدثها السلطان سيدي محمد بن عبد الله. بكل من أنفا. ومراكش والصويرة، وهي مدارس متخصصة إلى حد ما تشرف الدولة على أنظمتها، وتؤدي تعويضات أساتذتها والقائمين عليها.

أخيرا مؤسسة المسجد، التي يتراوح دورها التعليمي من حلقات شعبية للتوعية إلى حلقات لشرح بعض المتون التعليمية للتلاميذ المبتدئين في النحو وغيرهما، ثم إلى حلقات تلقى فيها دروس يتتبعها طلاب متقدمون في السن والتكوين، وقد اتصفت الدروس التي كانت تلقى بهذه المؤسسات، بصبغة الإملاء الضيقة، البعيد عن الجوهر الحقيقي المنتظر من غايتها، هي العقم والجفاف. أمس منها بالفائدة والإنتاج، أضيف إلى هذا، ماكانت تحشى به من الإستطرادات وبنيات المسائل البعيدة عن روح الفن، بالإضافة إلى تداخلها، وخلط علم بآخر، جعل من روادها، عاجزين عن التحصيل، مما كان يضطرهم في الغالب إلى الإنقطاع بصورة نهائية عن التعليم [6].

لم تكن حالة التعليم العالي.بأفضل من حالة كل من التعليم الأولي، والمتوسط،

---

(5) عبد الله الجراري. المرجع السابق. ج 1. ص. 26 ـ 27.

(6) عبد الهادي التازي. جامع القرويين. المجلد 2. ص 220 إلى 224. لبنان، الطبعة الأولى. سنة 1973.

تولته خلال هذه الحقبة. جامعة القرويين. التي كان التعليم فيها متجاوزا للمستوى المتوسط، ومابعده، إذ اختصت هذه الجامعة بتلقين معارف متعددة. يأتي في طليعتها النحو والأدب. وعلم أسرار الحروف، وأصول الفقه. ومايتعلق به من الجدل والخلافات والآقاف والجدول، وفنون البلاغة والتاريخ، والتصوف، وعلوم التفسير والقراءات ولتوقيت والتعديل والهيئة. وعلم الأزياج، والكلام، والتوحيد، ومايتبعه من علوم المنطق،الذي ألفت فيه خلال هذه الحقبة المناظرات والمساجلات، ثم الحساب والطب.

كان التوجه المذهبي الطاغي في مجال الدراسة، التوجه الأشعري. كما ظلت كتب (895 هـ) عمدة العلماء والطلاب، وفي مجال الفقه، ساد في هذا الصدد، كتاب المدونة لسحنون، ورسالة إبن أبي زيد القيرواني، وتهذيب المدونة لإبن البرداعي، ومختصر الحاجب، ومختصر الشيخ خليل، وتحفة إبن عاصم الأندلسي [7]. وإلى جملة هذا التنظيم أشار "أبو القاسم الزياني" (1734 ـ 1833 م)، إذ كتب في "الترجمانة الكبرى" مستعرضا أساتذته يقول : ".. ولما بلغت مبلغ الرجال، وحفظت كلام الله عز وجل على الكمال، وطمحت نفسي لقراءة العلم الشريف، ونسخ مااحتاج إليه من كل شرح لطيف فممن قرأت عليه الأجرومية، والسنوسية، وابن عاشر، شيخنا الفقيه سيدي أحمد بن الطاهر ، ثم قرأت الرسالة على شيخنا سيدي الطيب القادري، ثم حضرت تشقيق الألفية، بمدرسة الصهريج عند سيدي عبد القادر بوخريص، ثم الرسالة بمجلس واحد، ثم صرت التي درسه مع الطلبة بالمدرسة في التفسير وخليل والألفية، ثم لازمت درس أبي سيد عمر الفاسي لخليل بالقرويين، ثم مجلس الألفية بالقرويين، ثم حضرت مجلس التاودي في البخاري والشفا، ثم لازمت درس الفقيه سيدي محمد بناني إلي أن أكملت حاشيته على الزرقاني" [8].

عموما، يمكن القول، أن الركود، كان هو الطابع العام، الذي اتسمت به المضامين، والطرق المعتمدة في هذه الجامعة، وهي ملاحظة يمددها "عبد الله گنون" لتشمل البلاد الإسلامية خلال هذه الحقبة، لقد أصبح العلماء، وأكثرهم نشاطا، وأعظمهم ، هو من يقف عند الغاية التي وصل إليها من قبله، في هذا العلم ومن يختصر المقررات التي وقع الفراغ منها قبله، فإن أظهر براعة، وأبدى تفوقا ففي هذه التي عمت فأعمت، وهي ظاهرة الإختصار والتعمق فيه، حتى أقضى الأمر أصبحت العلوم في حالة من الغموض

(7) أبو القاسم الزياني : "الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا" تحقيق عبد الكريم الفلالي. ص.568. ومابعدها.

(8) عبد الله گنون. النبوغ المغربي، ج 1. ص 239 ـ 240. الطبعة الثانية، بيروت. سنة 1961.

والإبهام تصد عنها الكثير من الطلاب [9]. لقد ازدهرت خلال هذه الحقبة طريقة التعليم بالمختصرات، وامتد الإختصار، ليشمل مؤلفات لا علاقة لها بالمواد المدرسة، "فالحضيكي" مثلا، إنكب على اختصار كتاب الإصابة، كما تولى الحريشي" اختصار نفح الطيب[10]، وهي ظاهرة في التعليم، سبق لإبن خلدون، بدوره أن نبه لمخاطرها. إذ كتب بصددها يقول : "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها، ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني من ذلك الفن، فصار ذلك مخلا بالبلاغة، وعسيرا على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب هات المطولة في الفنون للتفسير والبيان. فاختصروها تقريبا للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونجي في المنطق. وأمثالهم، وهو فساد للتعليم، وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدىء، بإلقاء الغايات من التعليم عليه. وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم كما سيأتي، ثم فيه مع ذلك شغل على المتعلم بتتبع ألفاظ الإختصار العويصة للفهم، بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت، ثم بعد ذلك كله، فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات إن تم على سداده، ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة، لكثرة مايقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة اقتصر على التكرار، قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة، فقصدوا إلى الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة عنها"[11].

وإذا كانت هذه هي الحالة العامة، التي كانت عليها أوضاع التعليم في القرن الثامن عشر، وإذا كانت مؤشرات هذه الوضعية، تنبىء عن تدهور مريع، إعترى أحوال التعليم، وهو التدهور الذي برر في نظرنا، تدخلات السلطان سيدي محمد بن عبد الله، في هذا المجال، فإن هذه التدخلات، تبدو مدينة أيضا بالشيء الكثير لسلفية هذا السلطان، إذا انطبعت سياسته التعليمية، بقوة وعمق، بمعتقده السلفي، فما هي إذن خصائص التوجهات الفكرية لهذا السلطان، والتي منحته في التاريخ المغربي لقب السلطان السلفي ؟

(9) إبراهيم حركات. التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية. ص 16. الدار البيضاء. سنة 1985.

(10) إبن خلدون. المقدمة. ص 1028 ـ 1029.

(11) سيدي محمد بن عبد الله. الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية ص 457 ـ 458. طبعة الرباط.

كتب المؤرخ "الناصري" عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، يقول :

"كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله محبا للعلم، وأهل الخير،مقربا لهم لايغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات، وكان يحضره عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته، منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد ابن الإمام سيدي محمد عبد الله الغربي الرباطي والفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله عامل الراشيدي، والفقيه السيد أبوزيد عبد الرحمن المدعو بأبي خريص، هؤلاء هم مجلسه، الذين كانوا يسردون له كتب الحديث، ويخوضون في معانيها، ويؤلفون له ما استخرجه منها على مقتضى إشارته، وكانت له عناية كبيرة بذلك، وجلب من بلاد الشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب، مثل مسند الإمام أحمد. ومسند حنيفة وغيرهما، وألف رحمه الله في الحديث تآليف (...) منها كتاب مسانيد الأئمة الأربعة، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم، إلتزم فيه أن يخرج عن عادة مااتفق على روايته الأئمة الأربعة، أو ثلاثة منهم أو إثنان. فإذا انفرد بالحديث إمام واحد، أو رواه غيرهم، لم يخرجه، وهذا لم يسبق إليه رحمه الله... [12].

بالإستنادإلى هذه الأوصاف التي حلا بها "الناصري" السلطان سيدي محمد بن عبد الله، نستطيع أن نستخلص، مدى شغفه بالحديث النبوي، الذي هو إحدى صورالسنة، التي يتعين على المسلمين الإقتداء بها، فمجلس السلطان سيدي محمد بن عبد الله، مجلس حديث، والفقهاء رواد هذا المجلس، هم من المتخصصين في الحديث. وقد كانت إحدى نتائج شغف هذا السلطان بالسنة، تأليفه، لكتاب " الفتوحات الإلاهية، في أحاديث خير البرية". وهو المؤلف الذي يجعلنا نقارب فيه سلفية هذا السلطان. إذ مما جاء فيه بهذا الصدد :

"والأيمة، رضي الله عنهم، إعتقادهم واحد، فأردت أن أشرح قولي "المالكي مذهبا الحنبلي إعتقادا". وأبين المقصود بذلك والمراد، ليلا يفهمه بعض الناس من غير وجهه، وذلك أن الإمام أحمد ثبت الله المسلمين بثبوته، سد طريق الخوض في علم الكلام . قال : "ولايفلح صاحب الكلام أبدا"، ولاترى أحدا ينظر في علم الكلام، إلا وفي قلبه مرض، وهجر أبا عبد الله بن الحارث بن أسد البصري المحاسبي، وكان إجتمع له علم الظاهر والباطن. وذلك لتصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة قال له، ويحك، ألست تحكي

---

(12) الناصري. الإستقصاء. ج 8. ص 66.

بدعتهم ؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة كلام أهل البدعة، والتكلم فيه، فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث ؟ فاختفى المحاسبي، فلما مات لم يصل عليه إلا أربعة، وإلى ذلك ذهب الشافعي ومالك وسفيان، وأهل الحديث قاطبة، حيث قال الشافعي رضي الله عنه لأن يلقى العبد الله بكل ذنب ماخلا الشرك بالله، خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام، فلزم الناس السكوت عن الخوض في علم الكلام، إلى أن نبغ الإمام الأشعري، فاشتغل بالرد على المعتزلة، أقوالهم الفاسدة، ويجيب على آراءهم الواهية، فاتبعه المالكية في ذلك، وسموه ناصر السنة، وهو ومن اتبعه على صواب، موافقين في إعتقادهم السنة والكتاب، لافي الخوض مع الخائضين، والتصدي لذكر شبه المبطلين، وتخليدها في الأوراق إلى يوم الدين.

أما الحنابلة، فأنكروا ذلك عليه، وفوقوا سهام الإنتقاد إليه، وقالوا له، كان ينبغي لك أن تسكت كما سكت الأيمة قبلك من السلف الصالح المهتدين، الذين يرون أن الخوض في علم الكلام من البدع المحدثة في الدين، أمالك فيهم إسوة ؟ فلا وسعك ماوسعهم من السكوت عن تلك الهفوة ؟.

فطريق الحنابلة في الإعتقاد سهلة المرام، منزهة عن الخيلات والأوهام، وموافقة لاعتقاد الأيمة كما سبق مع السلف الصالح من الأنام، أعاشنا الله على ماعاشوا عليه، وأماتنا على ماماتوا عليه، بجاه النبي واله [13].

بهذا، يضع السلطان سيدي محمد بن عبد الله حدا لطريقة الأشاعرة في الإعتقاد. وكانت الطريقة المعتمدة في المغرب منذ العصر الموحدي وهي الحقبة التي ازدهر فيها علم الكلام، فقد كان المهدي ابن تومرت، يلزم أصحابه بدارسته إلزاما، وكان الموحدون على العموم، يعتبرون من لم يعرف له العقائد على سبيل التفصيل، وعلى طريقة الأشعري بالأخص، يعتبرونه كافرا، ليس معه في الإسلام إلا الإسم، وكان المهدي قد ألف عقائد مختصرة باللسان العربي والبربري آثر الناس خطاه، وصنعوا في هذا العلم الكتب العديدة، وكان من أطولهم يدا في هذا السبيل عند العامة الشيخ أبو عمر وعثمان بن عبد الله بن عيسى السلاجي. وهو الذي على يده تحول أهل فاس من المذهب السلفي في العقيدة إلى المذهب الأشعري. ولكن قد شيب هذا العلم، بما أضافوا إليه من تعاليم شيعية بدعية [14]، وإذ يأخذ السلطان سيدي محمد بن عبد الله،

---

(13) عبد الله كنون، المرجع السابق ج 1. ص 121.

(14) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد والمذاهب الفقهية ص 211. دار الفكر العربي. بيروت.

بالمعتقد الحنبلي، فإن سلفيته، يرتفع عنها اللبس، فالحنابلة قد عرفوا في تاريخ الفكر الإسلامي بالسلفيين، لأنهم دأبوا على العودة في الأحكام الشرعية إلى الأصول الإسلامية من كتاب وسنة، نابذين العمل بكل ماظهر في تاريخ الفكر الإسلامي من تأويلات الفرق الإسلامية المختلفة، والتي تأثرت بالمذاهب الفلسفية وبعلم الكلام، والفكر اليوناني. بيد أن سلفية هذا السلطان، وإن كانت مدينة للمعتقد الحنبلي من جهة، فإنها من جهة أخرى، يمكن إعتبارها إقتفاء لتقليد مغربي عريق فالموحدون، عرفوا في التاريخ المغربي. بتشبثهم بالحديث، واحيائهم للسنة، كما أن البلاد عرفت بين الفينة والأخرى، مصلحين، ذوي توجهات سلفية. من نمط الشيخ "أبو عبد اله أحمد ابن الحاج (ت 737 هـ)، و "أبو العباس أحمد بن أحمد الشهير بزروق" (ت 1793) وعبد الله الهبطي" (القرن 16 الميلادي)، و "أبو عبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي" في إبان العهد العلوي، فهؤلاء جميعا، قد تصدوا للبدع، ودعوا إلى التشبث بالقرآن .

وإذ نسلم بسلفية السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وإذ نقر بالوضعية المتدهورة التي كان عليها التعليم المغربي خلال القرن الثامن عشر، يغدو في متناولنا، بحث وتفهم الإجراءات المتخذة من قبل السلطان سيدي محمد بن عبد الله في ميدان التعليم، الذي شكل أحد نقاط أرتكاز سلفية هذا السلطان، وقد إتخذت هذه السلفية، تجسدها الكامل في ميدان التعليم الأولي، بوضع السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لمؤلف تربوي في هذا الصدد سماه "مواهب المنان، بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان"، ذكر فيه أنه لما كان ذاهبا من مكناسة إلى مراكش سنة 1203 هـ، لقي من الأسانيد الجم الكثير، ألقى كل من إختبره منهم، لم يتمسك من علم دينه بقطمير، فحمله ذلك، لما انطوى في الفؤاد من حب النصح للمسلمين، أن يجمع مسائل مهمة من علم أمور الدين، قريبة المقاصد، شهيرة الموارد، مقتصرا فيها على الضروري، ليسهل بذلك حفظه على الصبيان، كما أنها موجهة أيضا للشيوخ والكهول والشبان.

وإذا كان هاجس النصيحة. هو الباعث للسلطان سيدي محمد بن عبد الله على وضع مؤلفه التربوي فإن محتويات هذا التأليف، تظهر عن رغبة جامحة لديه، لتحسين، مضامين ما يلقن للناشئة في التعليم الأولي، إذ ضمن مؤلفه هذا، نظريته الخاصة في تعليم القرآن، خالف ماألفه المغاربة في مختلف عصور تاريخهم، فهو يقول في مفتتح كتابه السالف : "أن المقصود الأهم من حفظ القرآن، هو تعلم أحكام الدين، ومجرد حفظ مجموعة كفاية، ومعرفة ماتبرأ به الذمة فرض عين " (15).

---

(15) من مقدمة. الفتوحات الإلهية. مرجع سابق.

فالتمييز يجري هنا بين نوعين من الفروض :

ـ فرض كفاية : ويتضمن حفظ مجموع القرآن.

ـ فرض عين : ويقتصر على التعرف على أحكام الدين.

وإذ يتبنى السلطان سيدي محمد بن عبد الله هذا التمييز، فإنه يوجه بذلك ضربة قوية لطرق الحفظ والإستظهار. التي تعتمد أساسا على الذاكرة، والتي سبق وأن أثبت عدم جدواها، داعيا الناشئة. والشيوخ والكهول والشبان، إلى تجاوز هذه الوضعية، في تعلمهم للقرآن، إلى آفاق أرحب، تمكنهم من إدارك كنه القرآن، وحكمه، مستشرقين الإسلام الحقيقي، في صفاءه، ونقاوته.

وقد تأخذ هذه السلفية مرة أخرى، إحدى تجسداتها، في سياسة هذا السلطان التعليمية الموجهة صوب التعليم المتوسط، والعالي، إذ أصدر في هذا الصدد، منشورا، سنة 1260 هـ ضمنه الخطوط الكبرى لبرنامجه الإصلاحي في مجال التعليم، إذ نص على مايلي :

ليعلم الواقف على هذه الفصول. أننا أمرنا باتباعها، والإقتصار عليها، ولايتعداها إلى ماسواها :

الفصل الثالث : في المدرسين في مساجد فاس، فإنا نأمرهم ألا يدرسوا إلا كتاب الله، وكتاب دلائل الخيرات في الصلاة على رسول الله (ص)، ومن كتب الحديث المسانيد، والكتب المستخرجة منها، والبخاري ومسلما من الكتب الصحاح، ومن كتب الفقه والبيان والتحصيل، ومقدمة إبن رشد، والجواهر لإبن شاس، والنوادر والرسالة لابن أبي زيد، وغير تلك من كتب الأقدمين، ومن أراد تدريس مختصر خليل، فإنما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمواق والحطاب والشيخ علي الأجهوري والخرشي الكبير لاغير، فهذه الشروح الخمسة بها يدرس خليل مقصورا عليها وفيها كفاية، وماعداها من الشراح كلها ينبذ ولايدرس به، ومن ترك الشراح المذكورين، واشتغل بالزرقاني وأمثاله من شراح بل يكون كمن أهرق الماء واتبع السراب، وكذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكلاعي وابن سيد الناس اليعمري، وكذا كتب النحو، كالتسهيل والألفية، وغيرها من كتب هذا الفن، والبيان بالإيضاح والمطول، وكتب التصريف، وديوان الشعراء الستة ومقامات الحريري، والقاموس، ولسان العرب وأمثالهما مما يعين على فهم كلام العرب، وسيلة إلى فهم كتاب الله، وحديث رسول الله (ص) وناهيك بها نتيجة، ومن أراد الكلام فعقيدة إبن أبي زيد رضي الله عنه كافية

ضافية، يستغني بها جميع المسلمين، الفقهاء الذين يقرأون الإسطرلاب، وعلم الحساب، فيأخذون حظهم من الأحباس، ففي تلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لأوقات الصلاة والميراث، وعلى هذا يكون العمل إن شاء الله.

ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية، فليتعاطى ذلك في داره مع أصحابه الذين لايدرون بأنهم لايدرون، ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلومن إلا نفسه، وهؤلاء الطلبة الذين يتعاطون العلوم التي نهينا عن قراءتها مامرادهم بتعاطيها إلا الظهور والرياء والسمعة، وأن يضلوا طلبة البادية. فإنهم يأتون من بلدهم بنية خالصة في التفقه في الدين وحديث رسول الله (ص)، فحين يسمعونهم يدرسون هذه العلوم التي نهينا عنها، يظنون أنهم يحصلون على فائدة بها، فيتركون مجالس التفقه في الدين، واستماع حديث رسول الله (ص) وإصلاح ألسنتهم بالعربية، فيكون ذلك سببا في ضلالهم [16].

يبدو واضحا من قراءة هذا المنشور، أن المشروع الإصلاحي للسلطان سيدي محمد بن عبد الله يرتكز على تصنيف للعلوم والمعارف الواجب الأخذ بها والتعاطي لها من طرف المدرسين المتعلمين، كما يتضح اهتمامه بطرائق التدريس والتوصيل وكذلك للقيم الروحية والمعرفية والوجدانية المراد توصيلها بالإضافة إلى الإشارة إلى ضرورة تغيير الطرائق الممارسة في التدريس وتوصيل المعارف.

وهكذا نستخلص من هذا المنشور جملة ملاحظات :

1 ـ تحظى العلوم العلمية بمكانة متميزة مثل الأسطرلاب والحساب حيث جعل سيدي محمد بن عبد الله من أقوال الأوقاف حزاءا مخصصا لأجور المكلفين بتدريسيها، ومن هنا يظهر اهتمامه بالقيم العملية.

2 ـ أما العلوم الدينية قد حدد السطان سيدي محمد بن عبد الله الخطوط العامة الواجب اتباعها في هذا الجانب، وهي مستمدة من قيم دينية سلفية بمعنى أن الدين هو القرآن والسنة النبوية، وأن الشرح يرتكز على المسانيد والصحاح.

3 ـ في حين ترتبط العلوم الأدبية بقيم كلاسيكية تراثية فالمتن عربي إسلامي وشروح هذا المتن لغوية بلاغية ومعجمية.

---

(16) من مقدمة كتاب الفتوحات الإلهية. مرجع سابق.

4 ـ لم يهمل سيدي محمد بن عبد الله طرائق التدريس، فقد انتبه إلى عيوب الطريقة المتبعة والمتمثلة في الملخصات والإختزال ولذلك يدعو إلى تجنبها والإعتناء بالأعمال الكاملة والأصلية حتى يتمكن المتعلم من الإتصال بها وقراءتها كاملة ...

وأخيرا يستشف من التأمل في هذا المنشور أن الهدف الصحيح والغاية المثلى التي كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يرمي إلى إقرارها هو الإهتمام بالمتعلم نفسه ليملك قدرات ذاتية على جعل المتن وسيلة للمعرفة وليس الإقتصار على المختصرات وحفظها وبذلك فالقيم المراد توصيلها هنا في مجال طرائق التدريس هي قيم سلوكية وجدانية تجعل من المعرفة تحصيلا ذاتيا لقدكتب "الناصيري" وازنا هذا التوجه الإصلاحي في ميدان التعليم لذا السلطان سيدي محمد يقول :

"ومن عجيب سيرته رحمه الله أن كان يرى إشتغال طلبة العلم بالمختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييع للأعمار في غير طائل. وكان ينهي عن ذلك ولايترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر إبن عرفة وأمثالهما يبالغ في التشنيع على من إشتغل بشيء من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل، وإنما كان يحض على كتاب الرسالة وأمثالهما، حتى وضع في ذلك كتابا مبسوطا......

ولما أفضى الأمر إلى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله كان يحض الناس على التمسك بالمختصر. ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة، والكل مأجور على نيته وقصده. غير أن نقول : الرأي ما رأى السلطان سيدي محمد رحمه الله. وقد نص جماعة من أكابر الآعلام النقاد مثل الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي والشيخ النظار أبي اسحاق الشاطبي، والعلامة الواعية، أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون وغيرهم. أن سبب نضوب العلم في الإسلام. ونقصان ملكة أهله فيه إكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم، وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني، الواضحة الأدلة، التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة ، ولعمري لايعلم هذا يقينا، المعاني إلامن جربه وذاقه، وقد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب أن ملوك بني عبد المومن كانوا يحملون الناس على الرجوع إلى الكتاب والسنة. كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ومحافظة على أصوله والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [17].

(17) الناصري. الإستقصاء. ج 8. ص 67 ـ 68.

الواجهة الشعرية
لعهد سيدي محمد بن عبد الله العلوي

محمد القدوسي (*)

كان العهد الذي آل فيه أمر الملك إلى سيدي محمد بن عبد الله متميزا عن العهد الذي سبق... بالنظر إلى مجال القدرة على ضبط أزمة مايجري داخل الساحة سياسيا، واجتماعيا وفكريا. فكل الأحاسيس - ساعتها - كانت تتوق إلى رؤية عهد جديد يطبعه الإستقرار بهدف تخطي جملة قلاقل كان لها ماكان من مخلفات نفسية واجتماعية سواء على مستوى العامة أو على مستوى أعلى الهمام في الدولة. - في العديد من مجالات الحياة -.

وكان سيدي محمد بن عبد الله ذلكم الرجل الذي تألفت حوله الأهواء، واتجهت إليه الرغائب الغيورة على دعائم ومقومات الهوية المغربية بعد مارأت فيه الأقدر على تولي حمل العبء بما امتلك من سداد في الرؤيا، واقتدار على الحكمة وفصل الخطاب - في السياسة - كما في الحرب، وكالذي له ارتباط بالقضايا الفقهية المذهبية، كما جمع إلى ذلك حرصا متناميا على ترسيخ الذات المغربية والتمكين لقواعدها وجذورها عبر ماتميز به عهده من نزوع إلى التعمير وترويج لما يخدم النهضة العلمية عامة. مبتدئا في ذلك بنفسه ثم بآل بيته وحاشيته وحواضر دولته ثم ماعداها فيما يتصل بأرض الحجاز ومصر وغيرهما فهو العلم الذي لايجاري في سيولة اليراع وترسيخ قدمه في مجال التأليف والمشاركة فيما يشكل على الاعلام وقادة الفقه، والتنظير - بالشكل الذي يرتئيه - للمذهب المالكي والتوطئة لآثاره ومظاهره وحركته.

---

* مندوب وزارة الشؤون الثقافية بالرشيدية

وصفه معاصره الضعيف الرباطي صاحب التاريخ بأنه كان فصيحا بليغا اديبا كريما جوادا عالما بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصل الأحكام وقال عنه ابنه أبو محمد عبد السلام "وهو في العلم لايقعقع له بسنان، ولايجاري في ذلك بعنان"

وقال عنه صاحب نشر المثاني :"وهو في العلم بحر لايجارى، وفي التحقيق والمعارف لايمارى، وقد جمع من رواية العلم مااتفق العلماء دونه... فهو سلطان العلماء وعالم السلاطين، وكان حريصا على أن يحصل لذريته كذلك من أرصدة العلم مايكلل هامتها، ويزين مجالسها، حتى نال أفرادها من ذلك أوفر الحظوظ. هذا الأمير المولى علي بن محمد "كان - كما وصفه صاحب الاستقصا - من سادة العلويين ونجبائهم، ومن أهل المروءة والأوصاف المحمودة عقلا وعلما وأدبا وكرما وعلو همة" زاد معاصره أبو القاسم الزياني في البستان "وكان مجلسه مجلس الفضلاء والأدباء والنبلاء يتشبه بأخلاق محمد العالم بن المولى إسماعيل، في كرمه وأدبه، وكان له اعتناء كبير بنسخ كتب العلم الغريبة وكتب الأدب، وكان كثيرا مايبعث بأشعاره ومخاطبا لأهل عصره وأدباء وقته من الفاسيين والبكريين والقادريين كما كان المولى محمد العالم شغوفا بأشعار أولاد السلطان صلاح الدين أبن أيوب الكردي".

وكان سيدي محمد بن عبد الله حريصا على ترويج فنون المعرفة في مجالسه، ويشهد معاصروه بإقباله المتميز على هذه المجالس، وشغفه بما يروج فيها، وأنه حائز دوما قصب السبق في مجاليها. وماتأتى له ذلك إلا باعتبار ماحصل له زمان الشبيبة مع حماسه وإدراكه المبكر لثمرة المجهود المبذول ساعة غضاضة الفكر وطراوته.

جاء في "الاتحاف" أنه كان له اعتناء زائد زمن خلافته بمطالعة كتب الأدب والتاريخ والسياسة وأحوال العرب وأيامها ووقائعها وأسنابها حتى فاق في ذلك معاصريه، وصار المرجوع إليه فيه، قال الزياني وغيره ممن عاصره وخالطه، كان يستحضر كل مايطالعه حتى كاد أن يحفظ كتاب الأغاني برمته لايعزب عنه منه إلا النادر.

وقد ورد كذلك أنه كان بعد صلاة الجمعة يجلس بمقصورة الجامع مع فقهاء مراكش ومن يحضر عنده من علماء المغرب الوافدين عليه يجالسهم إكراما لهم وتنويها بقدرهم

ويذاكرهم في الحديث وفقهه، والآداب وأيام العرب، وكانت له اليد الطولى في جميع ذلك، وكان يحصل له النشاط التام بالمذاكرة معهم في العلوم.

هذا نجله أبو محمد عبد السلام يؤكد في مؤلفه "اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار" ... وكان والدي نصره الله ... يحث على تعليم العلم في سائر القرى والمدن ويكرم الأعلام ... وهو ... مشارك في جميع الفنون العظام، قد وسع أهل العلم انعاما وإحسانا وعطاء وامتنانا، يعلي مجالسهم، ويستخرج نفائسهم ويكثر جوائزهم، ويقضي حوائجهم، وله مع الفقهاء مذاكرات، ومحادثات في سائر الأيام، وممر الأمور والأعوام، فيلقي عليهم من المسائل المشكلات في الحديث والأخبار والسير وضروب من فنون العربية ونكت من المقطعات الأدبية، فلايمتدون إليها إلا بعد الإطلاع، سواء في ذلك ذو العارضة أو قصير الباع".

وفي نطاق إشاعة المعرفة عبر ما وراء حدود المغرب يشهد الزياني أن سيدي محمد بن عبد الله كاتب نجله الخليفة بفاس المولى عليا يستقدم ماعنده من كتب التاريخ والأدب إلى مراكش، فوجهها له، وجمع ماعنده منها بمراكش، إلى أن اجتمع عنده عدة نسخ من ابن خلدون، ابن خلكان، وقلائد العقيان والأغاني، ونفح الطيب وتأليف ابن الخطيب وملأ منها صناديق وجهها مع الكاتب الصنهاجي يوقف بعضها بمصر وبعضها بالإسكندرية "من الترجمانة الكبرى".

طالما جارت أحكام النقاد ـ في لهجتهم التعميمية ـ في حق الأدب المغربي، إذ دأبت على إدراجه ضمن خانة التعبير التقليدي الخالي من الإبداع والأصالة. وكم يحز في نفس المرء ماينطوي عليه حكم على هذه الشاكلة من إجحاف يمس أدبا حقه التنقيب عن حقائقه وخفاياه !

فقد حفلت كتب التراجم والتاريخ والرحلات المأثورة عن عهد سيدي محمد بن عبد الله، أو التي وقفت عند مدته بالعديد من أشعار الشعراء على اختلاف طبقاتهم الإجتماعية وبأخبار مجالسهم والمنديات التي ضمتهم. تلك التي دأب على عقدها ذوو الأمر في الدولة، ساعتها. ومن ثم غدا ميسورا أن يتراكم بين يدي الدارس المتتبع للمعطيات الثقافية عامة، والشعرية خاصة حصيلة وافرة من الإسهام الشعري ـ وفي مستوى ثان، ومع الإتكاء على منهجية التصنيف والمقارنة وتحديد المميزات والخصائص يخرج المرء بما يلي :

ـ كون هذه الأشعار قد توزعتها الأغراض الكلاسية في الشعر العربي شكلا، وإن ظلت حميمة الصلة بنفسيات الشعراء باعتبارات أن كل فن من هذه الفنون لايخوض فيه الشاعر إلا استجابة لباعث يخصه، وينفرد به دون من سبقه من الشعراء، ولاأحد يجادل في توازن التجارب الإنسانية وتماثلها في تخط مستمر لحواجز الزمان والمكان.

فالتهامي بن الطيب أمغار، وابن الونان، وأبو العباس بن عثمان المكناسي، والغزال أحمد بن المهدي ـ حين مدحوا سيدي محمد بن عبد الله ـ وأحمد بن أحمد الحكمي ـ في مدحه لسليمان الحواث ـ وسكيرج ـ في مدحه لشيخه سيدي محمد جسوس ـ والقاضي محمد بن طاهر الهواري ـ في مدحه لأبي حفص الفاسي ـ وأبو العباس بن عثمان المكناسي ـ في مدحه لشيخه سيدي محمد بن الحسن بناني ـ كل هؤلاء انطلقوا ـ فيما أوردوه عن ممدحيهم من إعجاب بهذه الشخصيات، من ذواتهم وقناعاتهم، فنوهوا بالمزايا والخصال التي بدت كفيلة برسم معالم الشخصية المثل والنموذج ـ مع الإشارة إلى مايلتقي فيه هؤلاء الممدوحون، ومايميز كلا منهم عن سواه.

تبدو القصائد التي طرقت هذا الموضوع مشمولة من الشاعر بشملة العاطفة المشحونة بالإنبهاروالإعجاب.

وحتى حين يكون الدافع إلى المدح مقصدا آخر كالإستجداء فإن ذات الشاعر ـ في اكتوائها بمعاناة الاحتياج ـ تخضع لتشريح من الشاعر الملتاع عبر بوحه وتبسيطه القول بين يدي من يرجو لديه النوال ـ كالذي عبر عنه أبو العباس أحمد بن عثمان المكناسي

حين توجه إلى ابن المبارك مستجديا، واقفا عند نداه (ولهذه الوقفة دلالتها) فقال:

فكم طوقت من در الأماني | مخانق عاطل أضحى جوارك
وإني مزقت ثوبي الليالي | وأودت في نوائبها تدارك
فلازالت تخاطبك المعالي | هلم معظما ياابن المبارك

ولا يضير الشعراء المغاربة - حين ينطلقون من ذواتهم، ويصدر عنهم من الإبداع مايستجيب للكوا من لديهم، ويفصح عن رغائبهم وأحاسيسهم - ماقد يبدو من أسهاماتهم متصلا - عبر المعاني المألوفة ذات المحتوى المعيش في كل الأندية والأزمنة - بمن سبقوهم.

وفي سياق تحقيق الشعر المغربي - في عهد سيدي محمد بن عبد الله - لمقومات هويته عبر استجابته للرياح التي تهب، وعكسه للأحداث والماجريات المجتمعية، بدت على صفحته اتجاهات عدة، وأهواء ومنازع شتى تضرب كلها في وادي الأغراض العامة التي دأب عليها الشعر العربي قبل هذه المدة.

إلا أن غالبية هذه الأشعار كانت - بدافع ديني، وبباعث أخلاقي محافظ أملاهما ماكانت عليه أوضاع الدولة ساعتهم في مجالات السياسة والدين والمجتمع، تتسم بسما الدين ومايتصل به :

فحفاظ سيدي محمد بن عبد الله، ونزعته الإصلاحية وتشبعه الديني المترتب عن تكوينه منذ الصغر، والطابع الجهادي للتحركات الدبلوماسية والعسكرية، وانتشار الزوايا عبر جهات الدولة مع مادأبت عليه من إظهار النزعة المحافظة، ومسحة الكلاسية والإتباعية في الدراسة والتعليم، باعتبار غلبتها على جل حلقات التدريس، وعلو كعب أعلام التصوف والدين في أهم مراكز الدولة، إضافة إلى الأوضاع السياسية العالمية، والتي كانت متسمة في مجملها بالتغطية الدينية، ومن ثم كان الصراع على الثغور بممالأة من دعاة الدين وقساوسته ورهبانه : كلها عوامل على إلباس الشعر المنتج شملة التدين، فغدا للثقافة الدينية القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والدراسات الفقهية مساحتها البينة التي تشغلها ضمن التعبير الشعري في إبداع أعلام الشعراء لهذا العهد كأبي حفص الفاسي، ومحمد بن الحسن الوكيلي، وأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي وغيرهم كثير.

هذا السجلماسي يقول : (ونصب عينيه النصوص الدينية تمده)

وهي الجوارح التي بها اكتساب | للخير والشر وقت يوم الحساب
فإنها مسؤولة في الآجل | شاهدة بما جنت في العاجل
فمن عصى بواحد منها فقد | فتح بابا للحجيم قد وقد
وأصلها القلب فعالج داءه | واحش بمرهم التقى سوداءه
صلاحه صلاحها لمن خبر | والضد بالضد كما جا في الخبر
ماملأ المرء وعاء شرا | من بطنه فاحذر وقيت الشرا
ولازم السنة واحذر البدع | فالطرق قد سدت على من ابتدع
ولازم الصمت الحميد إلا | عن ذكر مولاك الكريم جلا
... فكل مايحصده اللسان | يجده يوم الجزا الإنسان

نفس صوفي

يطبع العديد من أشعار الشعراء التوجه الصوفي، وتهيمن عليها روح تخطي الحواجز الشاغلة المهلية إلى معانقة الحقائق الكبرى وذلك عن طريق ربط الصلة بالله والتعبير عن الإستعداد اليقيني للقائه يوم القيامة، وعربون هذا الإستعداد، هو العمل الصالح اللازم التحلي به.

هذا أبو العباس أحمد بن عثمان المكناسي (في سياق رثائه لأبي حفص عمر الفاسي) وفي غمرة أساه لفقد شيخه، تنفتح أمامه بوابة مغمورة بإشراقة الأمل المعلق على الله، الذي التوكل على فضله يسلي الحزين، وهذا الأمل الذي يطير بجناحيه، مقلا الشاعر في آفاق الجنان والثواب والنعيم الأبدي، وفي ذلك العوض والسلوان. أمل متكيء على بشارة الرسول عليه السلام "المرء مع من أحب" يبدو ذلك في قول الشاعر:

والله يسقيه سحائب رحمة | ويتيحه الفردوس دار الخلد
وينيلنا ذاك المقر تفضلا | معه وينعم بالنعيم السرمدي
فالمرء مع محبوبه هذا الذي | يروي حديثا للنبي محمد
صلى عليه الله خير صلاته | والحمد للباقي العلي الأوحد

وليس أبو العباس بن عثمان وحده هو الذي نزع هذه النزعة الروحية، بل لاتكاد تخلو أشعار غالبية الشعراء في هذا العهد من هذه الروح، فقد قدر للشعر الصوفي الرواج في هذا المجتمع على يد أعلام كثيرين، اختلفت مناصبهم ومهامهم في الدولة ووضعياتهم الإجتماعية ثراء واحتياجا، ولكنهم كانوا يعزفون على وتر كانت له

فاعليته النفسية المتميزة لدى العامة وفي الأوساط الثقافية، حيث كانوا يضعون اليد على كل ماكانت تروجه المجالس العلمية والفكرية، وماتشهده حلقات المريدين حول المربين والشيوخ بالمساجد والمدارس والزوايا، فيصوغون ذلك في قوالب شعرية تلتقي في مضامينها مع خطب الجمعة ورسائل الوصايا، ومواعظ المتصوفة إلى مريديهم.

وقد توالى إقبال المتصوفة المريدين ـ في مختلف مستوياتهم الثقافية ومناطقهم ـ على الأولياء والصالحين، وأضرحة العلماء الذين برهنوا في حياتهم عن خوارق وكرامات وعبقريات فذة، مكنتا لهم في قلوب العامة، وتلامذتهم بالخصوص، قبل وبعد مماتهم ـ فأكثروا من الإتصال بهم خيالا أو حقيقة ـ ومن زيارة أضرحتهم، أو التشوق إلى الحلول بها، للتبرك، والحصول على مأمول نفسي ـ كثيرا مايصعب حتى على المثقفين التعبير عنه (وصياغته كلاميا (ومن ثم تنطبع عباراتهم ـ في هذا المجال ـ شعرا أو نثرا ـ بغموض يلاحظه الدارس والمتتبع)

وخير مثال على ذلك ماعرف عن أبي عبد الله الشيخ التاودي بن سودة ـ وهو من هو في مستواه العلمي ـ فقد كان كثير الزيارة لقبر مولاي عبد السلام بن مشيش (حوالي ستين مرة). فعل ذلك ـ كما يشهد على نفسه ـ شابا وكهلا ـ وقد أنشد وهو شيخ فان، في احدى هذه الزيارات (مخاطبا مولاي عبد السلام)

أتيتكم شيخا وكهلا وناشئا	وفي كلها أرجو نوالكم الجما
فها أنا قد خيمتها بفنائكم	على وهن والضعف في بزتي عما
فلا ترجعوني دون فيض بحاركم	ولاتحرموني من مواهبك العظمى

وهو قول يحكي عميق الإتصال الروحي، ويقف عند هذا الأمل المبهم، ويبوح بهذه الرغبة القريبة البعيدة التحقيق والإدراك. خصوصا وقد تعلق الأمر لدى العالم الشاعر، بمرحلة عمرية أخذ ثقلها في التأثير كل مرة على نفسيته، ينضاف همها إلى مايعصر قلبه من معاينة سجل مسلكه الذي يراه وقد شانته الذنوب، والمخالفات والآثام، وهي وضعية صدت في وجه الكهل العجوز أبواب الأمل، وخلفته فريسته الأسى والأسف والندامة والخوف، يعبر عن طرف من إحساسه ذاك بقوله :

مضى عمري والحين جان حقيقة	ومازلت في بحر الهوى أتقلب
فوا أسفي إذ ضاع عمري سفاهة	ومالي في أوج السعادة مطلب

المناجاة والإنطلاق في التعبير

لكي تغتني مصادر الشاعر الصوفي ـ في مناجاته ـ وتصبح العبارة بين يديه طيعة سائغة، يتطلبها فتقفز إلى السطح دونما حواجز أو معوقات، فإن قانون الحياة، ومادرجت عليه أحوال الآدميين عبر الأزمنة، وماسطرته أصول الشريعة ـ بدءا بالقرآن الكريم ـ كلها تتفق على أن هذه المناجاة تنبعث من معاناة داخلية شاملة تتعامل فيها كافة مكونات الأعماق الإنسانية. سواء كانت هذه المعاناة مبعث مسرة أو جالبة للأسى، أو مغلفة بالرجاء وتعليق الآمال والرغائب، خصوصا إذا تعلق الأمر بمناجاة الله تعالى في ملكوته وكمال صفاته وتعدد تجلياته يرتبط معه الشاعر الصوفي عبر حبال الحمد والرجاء والإقرار والإستغاثة والتوكل والإحتماء واللجوء والقرار.

يكتوي الشاعر ـ أيا كان مصدر هذا الإكتواء ـ سياسيا واجتماعيا أو نفسيا أو جسمانيا، فيجأر ويقله خياله المنبعث من إيمانه الذي يعرف ساعتها اليقظة وتسري فيه روح الجدة فيدعو. "وإذ مس الإنسان ضر دعاربه منيبا إليه" شاكيا الضعف مبتغيا الرفق والإحسان واللطف كما فعل الهلالي السجلماسي في ماجأر به ـ عبر مناجاة (لايكاد يخلو بيت من البيوت الفيلالية ـ حتى هذه الأيام ـ من التلذذ بترديدها، شأن التجمعات البشرية التي تشهدها مناسبات الإحتفالات من أعراس ومآتم وعقائق ومولديات وحلقات صوفية هنا (وهناك) هي التي يقول فيه :

لك الحمد كل الحمد ياراحم الضعف	ويادائم الإحسان والرفق واللطف
لك الحمد ثم الشكر بلا نهاية	على نعم جلت عن العدو الوصف
صرفت من الأسواء مالايطيقه	مطيق، فأنت الله ذو الكرم الصرف
وسدت وأسديت الجميل تفضلا	وزدت من الأنعام ضعفا على ضعف
لك الملك ياقهار والأمر كله	إذا قلت كن كان المراد بلاخلف
إليك مددنا الكف كيما تمدنا	بما نرتجي يامالك البسط والكف
فعاف ودافع واحم يارب واكفنا	بحفظك مانخشى فغيرك لايكفي
وابق علينا الستر في كل حالة	بفضلك في الدنيا والأخرى بلاكشف
وأعظم وأعزز ياعزيز جنابنا	وحطنا من الخذلان والضيم والخسف
وزدنا من الخيرات فوق مرامنا	بفضلك يامولى تعالى عن الكيف

حضور النفس في الواجهة الشعرية

حظيت النفس ـ بمفهومها الديني ـ وباعتبارها مصدرا تبدو آثاره الأخلاقية والدينية

على سلوك المرء وتصرفاته ـ باعتبار متميز من قبل دعاة الحكمة وناشريها في الأوساط الإجتماعية، والشعراء المتصوفة متوسلين في ذلك ثقافتهم الدينية حسبما نص عليه القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى "إن النفس لأمارة بالسوء إلا ماحرم ربي" وأثر في السنة النبوية، وماكان شائعا على ألسنة العامة، في مثل قول صاحب البردة :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

ومعتمدين في ذات الوقت على ماكان يروجه بعض الشعراء، من كون الشأن كل الشأن، يجب أن ينصرف إلى الخلق والعفة، والقناعة، وغنى النفس ـ والعناية يجب أن تتجه إلى التهذيب النفسي لا إلى الترف، بالحلي والحلل.

كالذي حمله قول أن حفص عمر الفاسي (في لاميته)

وروض النفس واستكمل فضائلها تجني ثمار المنى من روضها الخضل
وتجتلي أنجما زهرا وآونة بدور تم واخرى الشمس لم تزل
تلك السعادة لاجاه وميسرة ولا الترفه وإلا رفاق في الحلل
فالمرء بالنفس لابالجسم مرتفع والسيف بالنصل لا بالغمد والخلل
والنفس أنفس مايعنى اللبيب به فاربأ بنفسك أن تعنى بمسفل
والجأ إلى الله في أمر تحاوله وابرأ إلى الله من حول ومن حيل
وكل إلى الله كل الأمر واغن به عمن سواه فإن الله خير ولي

مع الإشارة إلى أن قصيدته المطولة اللامية هذه يطبعها توجه إصلاحي تربوي تبدو فيها الذات الإنسانية مستهدفة يحرج عليها الشاعر من كافة جوانبها لاقتراح الإنسان النموذجي الذي هو في حقيقة الأمر أمل الشاعر وهاجسه، والذي لم يال جهدا في تحديد ملامحه وتسطير مسلكه، وضبط وتقويم كل مايصدر عنه.

وقد نحا أبو العباس السجلماسي ذات المنحى في قصيدته :

ياأيها الإنسان هب من كراك واصح من السكر الذي قد اعتراك

(وهي طويلة بلغ عدد أبياتها 129 بيتا، وقد أدركت في المغرب نفس الشهرة التي لقصيدة كعب بن زهير : بانت سعاد، ولامية العجم للطغرائي).

ضمنها حث أبو العباس متلقيه على تلمس دواء النفس قبل حلول الموت، ولات حين مندم ـ وذلك عن طريق فطمها عن اللذات :

واطلب شفاء قلبك المريض | من قبل أن تغص بالجريض (أي الموت)
ولاتظن البرأ من دواك | إلا بفطم النفس عن هواك

وقد نصح الهلالي متلقيه بالتماس السند من الله في كل مايستهدفونه ويرومونه. إذ لديه يعول المجتهدون على التوفيق :

فاجتهد أخي واجتهد وجاهد | عسى بفضل الله أن تشاهد
واستنجد مولاك في جميع ما | ترومه فلن يزال منعما
فما به تطلبه تيسرا | ومابنفسك قد تعسرا

معرجا على مظاهر هذا الإجتهاد المتوخى، والتي منها : التدرج في تغيير طبيعة النفس ومعارضتها كلما استمالها هوى من الأهواء، ففي ذلك رعي لما أودع الله في الإنسان من آيات وروائع حقها أن ترعى إلا وهي الجوارح علما أنها ستتصدى لصاحبها يوم المآب فتوبقه أو تنجيه :

واحتل على نفسك بالتدريج | فإنه أذهب للتحريج
وخالفنها ولاتطعها | وارع الودائع ولاتضعها
وهي الجوارح التي بها اكتساب | للخير والشر وخف يوم الحساب
فإنها مسؤولة في الآجل | شاهدة بما جنت في العاجل
فمن عصى بواحد منها فقد | فتح بابا للجحيم قد وقد

ومعرجا كذلك على الأصل فيما سلف، الا وهو القلب، مستمدا من حديث الرسول عليه السلام بشأنه ماأسعفه في العبارة

وأصلها القلب فعالج داءه | واحش بمرهم التقوى سوداءه
صلاحه صلاحها لمن خبر | والضد بالضد كما جا في الخبر

(وخلف العبارة الشعرية حديث الرسول عليه السلام : "الأدات في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب")

مقترحا الشفاء بعد تشخيص الداء :

وأصل داء القلب حب العاجلة | فانبذه واحتفل بأمر الآجله

قبل أن يبسط القول في عدة مناح تتصل باتباع الهوى، والإنصياع لما تمليه النفس

الأمارة، كالإقتصار على الإستهلاك المفرط مع التفريط في السنة، كما يقف عندما يترتب عن اللسان الذي تضافرت أصول الدين على التحذير من مزالقه، ومساويه، مختتما القصيدة بالحض على مايضمن للإنسان الرضى لدى الله وعند الناس.

ولتك معنيا بحسن الخلق   تحز رضى الحق به والخلق

مسطرا ثمرة اعتزال الناس وتجاوز ماعتادوا على الخوض فيه ابتغاء للربح الخالد:

واحرص على العزلة ما استطعت   وأن تسر من دونها انقطعت

فخلطة الناس - أخي - عقال   والقيل لازم لهم والقال

فدعهم ترحهم وتسترح   فقل من خالطهم ثم ربح

واقطع إذا رمت العلى العلائق   وادفع بجنة التقى العوائق

حين يستشرف الإنسان حقيقة وجوده يتمكن من السيطرة على الحواجزباختراقها في اتجاه معانقة الحقائق المطلقة - ليتعامل معها - يستمد منها مايشع عنها، ويلتقط بين يديها ماتهمس به في تجاوب عميق يستعصي معه - حتي على الشاعر نفسه في أقوي تركيزه - التعبير عن طريق القوالب والمتلقين - أفكارا ومعاني، أمكن الشاعر صفاء التعبير عنها.

تحديق من الشاعر ينقلب معه بصره بحصارة الحكمة، فيتوسل - عبر شعره - بالوصية لحض غيره على أن يقترب بوعيه، ومسلكه، وكل مايصدر عنه من ساحته يستدنيه ليرى شبه مايرى هو.

من مثل هذا المنطلق غدا الهلالي يعبر عن إحساساته، ومناجاته للمثل الإنساني الأعلى الذي افتقده في مجتمعه. فغدا يحث السير لتلمسه، ومحاولة الكشف عنه، وعلى الدرب أخذ يسطر الحقائق لاهجابها حريصا على إبلاغها كل ذلك والمرء يستشف خلف عباراته إحساسا كامنا بالأسى والقلق العميق ومعاناة الغيرة والتلهف على طلبته في أوساط كل الذين يراهم مبتعدين عن دنياه، وغرباء عنها - بمسالكهم ومواقفهم ... من ثم كثرت لديه الثنائيات (سواء ورد لطرفي النقيض فيها ذكر، أم أمسك الشاعر عن ذكر أحدهما للعلم به ضمنيا) في مثل قصيدته : "ياأيها الإنسان" (الوارد ذكرها سلفا).

فعبرها تتوالى ثنائيات ومتضادات هي بمثابة روافد صغرى تصب في نهر جامع تتدرج نحوه، وهذه الثنائية الرئيسية هي :

(الإنسان الحي المتحرك في الواقع) ضد (الإنسان الغائب المرغوب فيه)

أولهما ينعم في كراه ـ سادر في غيه، خال من زاد التقوى، غافل ـ بطال، حليف لهوه سال عن الموت ومابعده من أهوال.

والمبتغى يقظان صاح، متيقن من قرب الرحيل، مزود بالتقوى لمواجهة الأهوال مستصحب للعظات، منتبه، لايعاشر اللاهين.

يأيها الإنسان هب من كراك	واصح من السكر الذي قد اعتراك
إن الرحيل ياأخي قريب	وكلنا مسافر غريب
...ياعجبا لغافل بطال	مثلي حليف لهوه المطال
لو ظل يخشى ضرب صاحب أمير	كدر عيشه وغص بالنمير
ولم يكن عن حزنه بلاه	ولايصغي الأذن للملاهي
وكيف يلهو وهو كل حال	منتظر الموت والإرتحال
... وكيف ينسى سكرات الموت	وهوله ومسرات الفوت
وكيف يلهو ويلذ مطعما	مع علم ذاك إن ذا من العمى...

حظيت الذات الإنسانية النموذج ـ تلك التي يصبو إليها الشاعر ـ من أعلام هذا العصر باهتمام متميز. ومن هولاء من اقترح ذاته وأعلن عما يزينها، فتباهي وفخر عبر سياق تعبيري لاتخفى من ورائه على الممحص خلفية الشاعر النفسية والاجتماعية. خلفية مفادها، الرغبة الأكيدة لدى الشاعر في تحقيق ذاته والتعويض عن رتبة اجتماعية حرمها بفعل عوامل شتى لايدله فيها ـ عن طريق أبراز تفوقه في مجالات يعتبرها مقياس التفاوت المشروع في التولية والعزل.

كما أن من الشعراء من كان دافعهم إلى الضرب في هذا الإتجاه هو الإنتصار لوضعية حظوا بها في الدولة، فغدوا يسوغونها لأنفسهم تسويغا يفحمون به منتقديهم المذكورين أو المسكوت عنهم، فأرسلوا الشعر سلاحا ودرعا واقية، كالذي يبدو من قول الأديب محمد بن الطيب سكيرج :

فأما اكتساب المجد من عهد يعرب	فما هو عن أسلافنا ببعيد
وأما العلى فاسأل ترى فضل أهلنا	فكم حملوا للمصطفى من بنود
وأما رايات الذمام فإنها	بأذيالنا نيطت بغير جحود
وأما الندى فانظر بعينك حينا	فإن عيون المرء خير شهيد
تخبرك الآنام عني حقيقة	بأني في لخم أعز وليد

ويقترح أبو حفص الفاسي ميزان التفاضل :

قل لمن يعلو على الناس بآباء سراة
ليس من شأني فخار بعظام ناخرات
مافخار المرء إلا بعلوم زاخرات
وسجايا ومزايا وهبات وافرات
ونضال بنصال في مجال الغمرات
وجفان كالجوابي وقدور راسيات

ومن هؤلاء الشعراء من تجاوز الذات ظاهرا - وإن بدت هذه الذات ملفحة بأزياء القناعات، وشملة الرؤى التي ينهل منها تعبيره الشعري - فغدت لديه النصيحة وتسطير الحكمة، وشفعها بالمثل المضروب وسائل لخدمة الذات المبتغاة، وحشد كل مايغذيها ويقيمها منتصبة في الواقع الخارجي استهدافا، ومراما ومطمحا، وفي ذاته هو حياة وتصورا، وتنفيذا.

وفي هذا الصدد تتسع الرقعة باسهامات أمثال أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي وابن الونان، وابن الطيب سكيرج وسيدي عمر الفاسي، ومحمد البهلول البوعصامي الفيلالي، الذي سطر في معرض تعزيته أبا العباس الشاذلي الدلائي في أخيه سيدي محمد

نفس الكريم لدى العطا مرتاحة ويضيق نفسا لو يجود لئيم
والحر في نيل المعالي همه بسوى المفاخر لاتراه يروم
فخر اللبيب بجده لاجده فالجد عظم في التراب رميم
أعظم بشأن القبر من إنصافه سيان في ذو غنى وعديم
اصبر على حال افتقارك يافتى فالحال منتقل وليس يدوم
... هذا أخو حمق غبي عيشه رغد وهذا عاقل محروم
أطلق لسانك بالثناء على الذي أسدى إليك فشكره محتوم

وفي إطار التعامل مع هذه الذات المبتغى تحقيقها تسجيلا، واقتراحا وبناء وتكريسا، ماخص به مجال العلم والمعرفة.

فجملة الأشعار التي عرفت ميلادها في عهد سيدي محمد بن عبد الله أو قبيله أو بعيده توحي بالرغبة الكبرى المهيمنة على قلوب فئات المجتمع في التعلم، ودعم حصيلة المعارف والمدارك.

وقد بدت مظاهر هذا الإقبال على العلم والإرتباط به، والإخلاص له ولأهله، عبر الواجهة الشعرية من خلال : قيام الدعاة والمصلحين وأعلام الأمة. وكانوا في غالبيتهم شعراء، بامتداح العلم والتنويه بحملته وشداته، ومن أمكنهم التحلي بحليته أو الإنتساب إليه.

كما يشكل مدح العلماء، والإعراب لهم عن الوفاء والتقدير من قبل تلامذتهم والآخذين عنهم أحد هذه المظاهر، وليس ذلك أكثر تعبيرا عن هذا التعلق من القصائد التي أبدعها أصحابها في رثاء شيوخهم، الذين ظلوا أثناء الأخذ عنهم يمثلون العلم المثال والرمز إلى ثمرة الكد والجهاد.

ففيما يتصل بالمظهر الأول : تباهي التهامي بن الطيب أمغار المكناسي ـ وكان استاذا ـ ضمن مقصورته في مدح مكناسة.

وسيدي محمد بن عبد الله ـ بما كان يقطع فيه أوقاته :

على أني في رتبة تسمو السهى　　　إحبو في روض العلوم والعلى
أحرر النقل بذهن ثاقب　　　ليلا وعند الصبح يحمد السرى
فأحكم الدرس بقول رائق　　　يملي على كل ضمير مانوى
أطوارا أطرب لحل مشكل　　　وربما انصب مما قدزوى

وفي لهجة خطابية يحث أبو حفص الفاسي :

ودونك العلم لاتبغ به بدلا　　　وكيف يرضى أخو التمييز بالبدل
فالعلم نور مبين ستفاء به　　　وخطة مالها في الحسن من مثل
فاملأ حرا بك منه غير مكترث　　　بما يراه أخو كبر وذو خجل

ويفصح عن مسلكه في الحياة، وخلفية ذلك المسلك :

طويت بنشر العلم ثوب شبيبتي　　　وبالله كان الطي في ذاك والنشر
وقد كان نشر الكتب دأبا يسرني　　　فهل إن تك الأخرى يسرني النشر

وقد سجل التاريخ لهذا العلم المغربي أياديه في ميدان التعليم والتدريس، كما سجل له حرصه على ابتغاء الخير للإنسانية رغم أنه لم يتبوأ ماكان به جديرا من مناصب في وقته مع سلامة متميزة في طويته ورقة في طبعه، وبوح بحقيقة أمره ...

أما الأديب أبو عبد الله محمد بن الطيب سكيرج، فإنه يشرف من عل ليقوم النهج التقليدي الذي دأبت عليه عصور الأدب العربي عموما، وماتوسله بعض معاصريه، والمتمثل في أذكار المعاهد، والحديث عن الرحلة مع التشبيب والتغزل بالخرد والتوغل في الهوى، فاعتبر ذلك حمقا لايرى بسبيله إلا غبي يبدو هذا من خلال قول (ضمن قصيدة مدح بها شيخه سيدي محمد جسوس بعد إتمام هذا الأخير شرح المختصر).

... دع مايشين العرض من طرق الردى   واترك مدى الدهر اذكار المعهد
وأنزل من الوغد الجهول بمنزل   واترك مصاحبة الذميم الذرقد
ودع التشبث بالغرام وأهله   ودع التغزل في القيان الخرد
ودع التوغل في الهوى فطريقه   صعب السلوك وشوكة لم يخضد
فالكل حمق لايرى بسبيله   إلا غبي بالهوى لم يعضد

ثم يضع البديل بين يدي متلقيه، محددا إياه في الجنوح إلى العلم مع إبراز ثماره الإجتماعية والنفسية والتاريخية :

واجنح فديتك للعلوم فإنها   تهدي الفتى وتنور القلب الصدي
وهي السبيل إلى النجاة وإنها   نهج الرضى للمقتدى والمهتدي
كم من جهول ذي غبا في مهنة   وحقارة بين الورى كالفرصد
إن عاش لم يسمع له ذكر ولم   يرفع له إن صار بين الألحد
لم يكترث أحد به أبدا ولم   يعبأ به من جهله كالفرقد
والعالمون ذوو النهي في رفعة   لايهتدي إلا بهم كالفرقد

أما محمد المدعو البهلول بن عبد الرحمن الفيلالي البوعصامي (- 1126)، وهو المدرس الذي شهرت عنه كثرة ملازمته المسجد لعماد، فقد استفاد من تجارب الأيام أن الطموح إلى المراتب العليا أساسه النهل من موارد العلم بصبر وأناة :

قل للمحاول رتبة   من غير كد ذا محال
فاشر المعالي بالعنا   فبذاك تكتسب المعال
وادرس لترأس يافتى   واحفظ ليحفظك الرجال
وذوو المعارف سلهم   فالعلم يدرك بالسؤال

أما فيما يتصل بالمظهر الثاني، فإن العديد من الشعراء بدا لشيوخهم في قلوبهم مكانة متميزة وأحسوا بما يصلهم بهم من علائق اتسم شعرهم بالصفاء لدى التعبير عنها ـ والسر في ذلك صدق عاطفنهم، واقتناعهم أن هؤلاء الشيوخ أقدر على احتواء ضالة نفوسهم :

هذا أبو العباس أحمد بن أحمد الحكمي (1226) العالم القاضي المدرس يتوسل بين يدي شيخه سليمان الحوات لقراءة الخزرجية معه ـ بقصيدة نونية رقيقة المطلع والمقطع، ضمنها الإعراب عما يساور نفسه تجاه هذا الشيخ بعدما مهد لها بتوطئة نسيبية لها حميم الصلات بمضمون القصيدة والغرض منها باعتبار ماهيمن عليها من شوق وحنين وبحسن تخلص ولطف تدرج إلى مدح هذا الشيخ، ذلك إذ يقول :

كم ذا نعاني وفرط الشوق أفنانـــا	وطالما بت أرعى النجم يقظـــانـــا
... وفكرة بسهام الحـــب راشقـــة	وحيرة وزفيـر ليـــس ينسانـــا
ولي إذا ما أناجي الربع عن شحط	أنين حـب يـواري الحب كتمانـــا
تلك الديار وماشوقـي لساحتهـــا	ألا لألقى منـي قلبـي سليمانـــا

وينفتح الباب بين يديه ليسهب في تحلية شيخه بكريم النعوت، معرجا لديه على حيلة العلم وماتوفر له منه بمثل قوله :

بدر المعالي رياض الحسن لابرحت	أخلاقه تشتهـي حسنـا وإحسانـــا
بحر طما فصفـا للفكـر مشربـــه	وعـــاد بالعلـم فياضـــا وملآنـــا
... ليهن مولاي ماأولاه خالقـــه	مـن الفتوحات مالـم يعـط إنسانـا
طابت بمدحك ياابن المجد أنفسنـــا	وإن نـواف قبـولا منـك أغنانـا...

أبو العباس أحمد بن عثمان المكناسي، كاتب سيدي محمد بن عبد الله، وأحد الذين نقلهم السلطان إلى مراكش وفرقهم على المساجد لتدريس العلوم بها ... يبوح بين يدي شيخه أبي عبد الله محمد بن الحسن بناني (راجيا منه إقراءه ومن معه مختصر السنوسي).

أبـدرا لاح بـين الشهـب بـدرا	فنـــارت منـه نيـرة الشمـوس
وروضـا فـاح مندلـــه سحيـرا	فأحيـا نشـره ميـت النفـــوس
وبحرا فاض بحر العلم حتى ان	ثنى بالجوهر الصدفي النفيس

وبعد الإعراب عن طلبته، قمط إحساسه بالشوق والتلهف إلى العلم بشملة تصويرية بديعة.

وبرد غلة الصــادي بأحلــى ... مذاقـا مـن معتقة الكـؤوس
... بقيت لفك مشكل كل فن ... ففتحك في المجالس والطروس
ولاتنفــك بـــين النـاس تاجـا ... ـ أبا عبد الاله ـ على الرؤوس

وقد أبدع وأطال القاضي أبو عبد الله محمد بن طاهر الهواري في ماأزجاه من مديح في حق أبي حفص الفاسي، تناثرت عبره عبارات تشي بما كان يخالج العديد من معاصري هذا العلم نحوه من مثل : علم الهداة ـ والنور وماأشبه.

فله مكانة تعلو على الجوزاء أسهب الشاعر في تحديد معالمها قائلا :

طابت بطيب حياتـك الأعـمــار ... وجرت برفعــة قــدرك الأقدار
وعلا على الجوزاء أخمصك الذي ... تصبـو إلـى تقبيلـه الأحـرار
وسمت بك العلياء فوق منــازل ... مــن دونهــا الأفــلاك والأدوار
وجلوت في أفق السيـادة عـزة ... تعنـو لبهجة حسنهــا الأقمار

ولاشك أن ذيوع شهرة علم متميز في ثقافته وأخلاقه ومسلكه في مستوى سيدي عمر الفاسي يخلف لدى كافة مستويات المجتمع إعجابا تتفاوت نسب تفسيره لدى هؤلاء وأولئك حين يتسامعون وينبهرون ويتصاعد الرمز ويتعاظم حتى ليعفى على ماسواه بإشعاعه كالذي يبدو من قوله فيه :

وأتت بـك الأيـام علمقـا طالمـا ... ضنت به فيما مضـى الأعصـار
سعدت بك الأيام وابتهج الورى ... ورقت بغـرة وجهـك الأمصــار
وقضى لك الرحمن أنك مخمـل ... بجميـل ذكـرك مـن إليـه يشار

ثم عبر أبيات يطبعها التصوير، ويستحيل فيها المعنوي محسوسا، يواصل الشاعر تحليته لشيخه ـ في سياق مسترسل جلس يبدو فيه الشاعر متمكنا من لحظة التعبير متعاملا مع مصدر إبداعه وشاعريته عبر دروب منفتحة ـ لايعتريه فيها ضبابية ولا إشكال ـ باعتبار تمكن الوداد في قلبه. وحياة الحماس في وجدانه، وتفاعله الصادق مع مايعتلج داخل ذاته.

من ثم بدت الصور طيعة بين يديه يقلبها كيف شاء. فكثرت وانهالت على صفحة تعبيره تترى، لكنها ظلت حميمة الصلة بالمراد تعود إليه وتستمد منه حقيقتها، فخيط النور لم يعد باهتا، والممدوح نير، والأنوار امتدت لتفيد ماحولها ومن حولها. ذلك هو القاسم المشترك بين الصور عبر قوله :

حلاك بالعلم الشريف فأشرقت   بحليـــك الآفـــاق والأقطـــار
أحييت روض فنونهـن بعدمـا   عفـت المعالـم منـه والآثـار
وجلوت منه عرائس الفكر التي   تختـال منهـا العون والأبكـار
وسرت بهمتك المعارف في الورى   وحلت بنور فهومك الأسـرار
وبدت بحسن بيانك الحكم التـي   نطقت بها من قبلـك الأحبـار

وفي سياق المدائح التي أكثر الشعراء من ازجائها في حق السلطان سيدي محمد بن عبد الله يبدو ميسورا على المرء المتتبع أن يتلمس خلفيات الشعراء فيما يتصل برسم ملامح الشخصية، بشخصية السلطان. ورصد جوانبها المشرقة، وهي جوانب تواضعوا على طرقها. ومنها المنحى العلمي والمثقف في الشخصية.

هذا الغزال أحمد بن المهدي الكاتب والسفير والشاعر (1191) في مديحته الرائية المطولة التي خص بها مخدومه سيدي محمد بن عبد الله

أتتنابـك الأيـام عـند مشيبهـا   فعـادت عروسـا بالبهـاء لها قـدر
وعادت رياض العلم عابقة الشذى   تغرد في أفنان أدواحها الطيـر
وشدت ذرا الآداب فاعتـز أهلـه   وصـار لهم في كل شاسعة فخـر

موثقا بذلك ماسجله المؤرخون لعهد هذا السلطان فيما يقيم دولة العلم والآداب على أسسها القويمة.

وإذا ماولى أحد الشيوخ وأفل نجمه، فإن الهوة تنفتح أمام شداة علمه، فيحسون أن نورا قد انطفأ وبابا للسمو قد صد في وجوههم فيثير الحدث في النفوس لوعة تجلب الظلمة، التي - بدورها - تعتم الرؤية، وتفسح المجال للإحاطة بالتاريخ بما يشع ساعتها من نذر وعبر، فتتضاءل الأحجام، وتنحدر الهياكل العظمى في دحرجة نحو التقزم - أمام جبروت الموت ويجأر الشاعر بالنواح والبوح المبرح، كالذي حصل بعد فقد أبي

حفص الفاسي أو أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، فقد فتح موت هذا الأخير بين يدي احد تلامذته (محمد الحسن الوكيلي (ـ بعد 1206) بابا على دنيا مفاجئة امتزج فيها الزمان بأطرافه، ولم يعد للحظة المعيشة مدلولها الإعتيادي والمعهود. بل شحنت اللحظة بمحمول طارىء وصلها بالمستقبل المجهول، فقامت القيامة في نظر الشاعر، وطغى الحدث بجبروته على قلبه، لولا أن تداركه من الله إيمان : أن لابقاء إلا الله.

ذلك إذ يقول : (وقد ضخمت في نظره هيئة شيخه الفقيد، فبدا جبلا عتيدا)

سير الجبال من أكبر العلامـــات	علـى الفنـا والـزوال والقيامـات
وهو الدليل على أن لابقاء سوى	لـاك الملـك بـاريء الخليقـات
مفني الدهور وقاصم الظهور وقا	سـم الشهـور لأيـام وساعـات
قضى على خلقه بالموت أجمعهم	فكلهـــم عرضـة لكـل آفـات

فغدا يضرب أمثلة للحقيقة التي سطرها، وسيلته في ذلك النهج الذي سلكه أمثال أبي البقاء الرندي وابن عبدون وابن خفاجة، في تعديد الأمم البائدة ورواية جملة ما اعتراها، ثم ماتلاها، قبل أن يخلص إلى موضوع القول لديه : إلي تقرير الحدث، وماترتب عن الحدث منطلقا في ذلك من عاطفة جياشة أفسحت المجال لجملة من الأوصاف والنعوت، وكلها تنبي عما بقلبه إزاء حدث أودى بشيخه. ذلك إذ يقول :

مـات الهلالـي واختـل النظـام وعـم الخطـب منـه الورى حتـى الجمـــادات

مات الإمام الـذي عمـت فضائلـــه	طـود العلـوم وقـدوة القـادات
شيـخ الشيوخ فريـد العصر قاطبـة	مجـدد الديـن غايـة النهايـات
فيـالهـا فجـعـة حـق لوقعتهـا	هد الجبـال ووقعـــة السمـاوات
عم الصدى وعيون الأرض قد يبست	وغاض بحر الندى مع الإفاضـات

خسارة عم أثرها الديانة عامة في الشرق كما في الغرب، بذلك أحس الشاعر فتوجه في لهجة طلبية :

وليبك من فقده الإسلام أجمعه	فالمشرق والغرب فيه في مساواة
ولتبـك عنـه كراسـي ومنبـــره	حتى اليراع لفقـــده الكتابـات

أما أبو العباس بن عثمان المكناسي، فإنه قد أعرب عن فجيعته اثر تولي أبي حفص الفاسي، فتوجه بعبارته في رثائه لهذا العلم إلى متلقيه بقوله :

وأبك العلوم أصولها وفروعها   وأبك الدروس ولاتكن كالجلمد
بحر المعارف والعوارف والهدى   كهف المريد السالك المسترشد
نور العلوم وتاجها وبهاؤها   وضياؤها قطب الشيوخ الرشد
العالم العلامة الفهم الفهامة النسابة الأسمى الولي المهتدي
عمر أخو التحقيق والتدقيق والتحرير سبط العارفين الزهد

... ياليت شعري من أرجي بعده   أم من به أجلو ظما قلبي الصدي
أم من يزيح جهالتي وضلالتي   وكآبتي عند اشتباه المقصد
... أسفا لأيام مضت في سلوة   ومسرة أوصافها لم تنفد
ولألفة ومودة ومواصلا   ت عذبة في كل وقت مسعد
ومجالس قد اشرقت أنوارها   وتلألأت فيها وفي كم مشهد

ومما يتصل بهذا المجال الفسيح - الذي شهدت فيه الذات المغربية تسليط أضواء شعرية متوالية عليها - ماصدر عن بعض الشعراء - في سياق تقويم مايصدر عن هذه الذات - من أشعار يمكن تصنيفها في غرض "النقد الإجتماعي" كالذي وجهه محمد البهلول الفيلالي البوعصامي (- 1226).

أو كقوله :

أيدي الحوادث مزقت أغراضنا   فلذلك احتجنا إلى الخياط (يعني به الوزير ابن علي بن منصور - متهكما)

ترفع قوم بالقضاء ومادروا   بان قضاة العصر عندي قصاة
فإن تلق منهم ذا إعفاف عن الرشا   يكن للرشا منه الكحيل التفات
فإن تسألونا بالقضاء فإننا   نجاة وإن شئتم فقولوا نجاة

أو كقوله :

عجبا للزمان يقصى سريا   فاضلا ماجدا ويدني دنيا
فلو أن الأيام تفقه شيئا   لم تكن آثرت علي عليا

وله - مثل - هذا شعر كثير - يلتقي فيه مع ماورد في حق عبد الرفيع بن مسعودبن عبود المكناسي القاضي بالرباط من انتقاء شعري لاذع - ومع روح أشعار أمثال أبي حفص الفاسي - والهلالي السجلماسي، وأبي العباس بن عثمان المكناسي.

بالرغم من تضافر هذه البواعث على السير بالشعر - في هذه المدة - في اتجاه المحافظة المطبوع بطابع الإقبال على كل مايد عمر الدين ويمهد له، فإن الحديث في الواجهة الشعرية لايقتصر على هذه النزعة :

ذلك أن الشعراء خاضوا في أغراض كالنسيب والغزل، واللهو والمجون وأفردوا قطعا بكاملها لهذا الغرض وذاك. كما جعلوا منه أحد الفصول التي يقوم عليها بناء القصيدة، وهكذا وطأ أكثر من شاعر لقصائدهم بالنسيب كالذي نعثر عليه لدى آبن الونان في شمقمقيته حيث أحتل التمهيد حيزا اضافيا شغلته الرحلة ومعاناة الشاعر على اثر رحيل من يهوى مع اسهامه في وصفها وصفا مكشوفا وذلك في مثل قوله :

لبنى ومـاأدراك مالبني بهـا	عرفت صبا مغرما ذا قلـق
تسبي بثغر أشنب ومرشف	قد ارتـوى مـن قرقـف معتـق
وناعـم مهيكـل وفاحـم	مرجل وحاجـب مـرقـق
وعقب محجـل ومعصـم	مسكـر وعنـق مطـوق
ومقلة تومي بقوس حاجب	لاحظـها بسـهمهـا المفـوق
تمنع مس جسمهـا لثوبهـا	ثلاثة مثل الأثافي في الرقي
... آه على ذكر ليل سلفت	لي معهـا كالبـارق المؤتلـق
في معهد كتابه كنخلتـي	حلوان في وصل بلا تفـرق

والمسلك ذاته سلكه أبو العباس بن عثمان المكناسي في مدحه لسيدي محمد بن عبد الله إذ مهد لهذا الغرض بقوله :

غـرام لايحيـط بـه بيـان	وشوق ليس يشرحه لسـان
وقلب لايزايلـه اضطـراب	عظيم كيف يمسكه العنـان
لحـا اللـه المتيـم لايبالـي	بما يلقـى وإن عظـم الهوان
تقروا مسلكا صعبا تساوى	عليها الحصر يقصر والبيـان
اطارحه الهوى آثـار قـوم	به البطـل المسـود والجبـان
ولكن لو لنا ظرهـم تـبدى	سنا الملك المؤيد ما استكانوا

وذلك لتمهيد دروب القول بين يدي الشاعر في سياق إزجاء المديح لمخدومه.

أما أبو العباس أحمد بن الحكمي (- 1226) فقد بدا في شعره مكثرا من طرق هذا المسلك إذ اتخذه وسيلة لمفاتحة سيدي عمر بن المكي بن المعطي الشرقي، ومكاتبة شيخه سليمان الحوات، كما مهد به لمدح الرسول عليه السلام قبل أن يحسن التخلص بقوله :

فقالت وقد حان الرضى وتبسمت عليك بمن أسرى إلى مانح الأسرى

كما تناثرت المقطوعات اللاهية، على بسط المجالس والمطارحات والأخوانيات بين أعلام الشعر كالذي يعثرعليه الدارس من لدى أمثال أبي عبد الله محمد بن عثمان المكناسي، والقاضي ابي عبد الله محمد بن طاهر الهواري من مثل ماكان شائعا له ابن الطيب الشرقي في وقوله :

ياصاح صح اللهو والطير صاح وأنذر الداعي بقرب الصياح
قم باكر الروض ببكر الطلا واشرب على زهو الخذود الملاح

أما ابن طاهر فهو القائل (في لهجة عابثة قد تبدو في نظر بعض الدارسين شاذة عن السياق الشعري في هذا العصر) :

ومجرد قد لاح وسط الماء متلألئا كالدرة البيضاء
أبدى لنا من ردفه دعص النقا والخصر أخصر مايراه الرائي
يطفو ويرسب والمحاسن تجتلى بتخالف الأوضاع والأنحاء
عوذته كي لايصاب بأسهم من أعين النظار والرقباء

وله كثير من مثل هذا.

وقد تبدت للدارس من مظاهر عدة من الذوق الجمالي الذي طبع هذا العصر من خلال الإقبال على وصف الطبيعة والدعوة المتكررة للتملي بمعانيها والتشبع بمجاليها ومباهجها سواء في ذلك ماا حتوته مطالع القصائد وافتتاحياتها أو المقطوعات المرتجلة ساعة تسنح الشاعرية بنفثاتها، أو القصائد المسهبة التي يتوالى القول فيها عن هذا الغرض. وتبدو مقصورة التهامي بن الطيب أمغار إحدى القصائد الضاربة في هذا الإتجاه وقد خص فيها مكناسة الزيتون باستقصائه الشاعري الواصف المثملي، تغلف عباراته فيها أحاسيس الإنبهار والإعجاب والإلتصاق بها تاريخا وعمرانا وجوارا. تارة

يجمع عناصر الزمان وأشتاته وأخري يحدق بالأرض ليبث فيها حرارة الحياة ويناجيها في صراعه معها سلفا وايجابا، وينصت إلى همس جزائياتها كما توحي به إليه في صلتها الحميمة بنفسه المتأثرة البادية الإهتزاز منذ المطلع :

لله ماأبهـى عمائـر الحمـى   معالـم الإنـس مطالـع المنـى
معاهـدا مابرحـت محفوفـة   بظل أمـن مـن فـراديس الهنـا
قلبي إليها قد صبا وكيف وهـي   أول أرض مسني فيهـا الثـرى
مكناسة قطـب البـلاد كلهـا   وشمسها التـي إليهـا المنتهـى
... أبو العمائر سقاها سلسـلا   عذبا معينا سالما مـن القـذى
وطـودز رهـون بقربهـا زهـا   على الجبال كلهـا وقـد سمـا
... جنتها الدنيا التي قد زخرفت   لمن أقر نفسه علـى الهـوى
هوى لكل محجوبة في خدرها   عـن العشـاق أربـاب النهـى
أطرق طرق الشمس منها خجلا   وربما غـاب بسحـب كالدمـا

وفي سياق استعراض مناحي الدرجة المتميزة من التذوق الجمالي الذي طبع العصر، يحضر الدارس والناقد الأدبي، هذه النزعة التصويرية المتبية عما وراءها من معانقة حميمة من الشعراء لحقائق الشعر وتلبس بين بطرائقه ومذاهبه، كما تنبي عما يحيا في أعماق الشاعر من عوالم تنهال فيها المعاني وتتوالى على درب تعابيره الصور، وقد انصهر فيها التاريخ، وما اختزلته الذاكرة بالمشاهدات اليومية وبالثقافة الدينية والأدبية بالخصوص، فلا تصدر عن الشاعر إلا وقد طبعها بأصالته، بذلك يكتسب مشروعية تملكها وانتمائها إليه.

كثيرون هم الشعراء الذين يتخذ التصوير لديهم بنية هندسية متميزة إذ ينطلقون من فكرة هاجسهم تبسيطها، وإلا حاطة بما يتصل بها، كأن يتعلق الأمر بحكمة أو وصية هي حية نابضة في روح مبدعها، فيتخذ الشاعر سيلا من الصور لبيانها كالذي فعله أبو حفص الفاسي في الأمية حين غدا يحوم حول فكرة "الأباء والكرامة وعدم ابتذال ماء الوجه" وذلك في قوله :

والماجـد الفخـم لاينفـك معتقـلا   رمح الإباية من سوء ومـن خطـل
يحمي الذمـار ويصمـي مـن يحاربـه   ويستقل فلا يلوى علـى رجـل

تأبى لـه الهمــة الشمــاء محجمــة | عن موقف الذل أن يرعى مع الهمــل
ويشمخــر بأنـــف العـــز منقبضـــا | عن مرتبة نالهـا الأوغـاد بالحيــل
والحر يستف تـرب الأرض محتـمــلا | وليس للمـن مــن كعـب بمحتمــل
ويهجـــر المنـهل العـذب البـــروداذا | مامن بالورد عن لغب وعــن غلــل
وإن سئمـــت واستوخـمت منزلـــة | فعالـج النفـس بالترحـال والنقــل
فالسلسل العـذب فـي الإنبهـار مطـرد | وراكد المـاء لايخلـو مــن الدخــل
ولن ترى لعريـق المجـد مــن سمـــة | كشيمـة الحلـم والأغضـاء والرســل
ماضر بدر الدجى في الأفـــق تنبحــه | سود الكلاب وقد أسرى على مهــل

مثل ذلك يتوالى وروده في مثل قول أبي العباس السجلماسي (متخذا للعلم في قلب صاحبه صورة النور والإشعاع، فينفتح أمامه درب التعبير الطليق) محذرا من جريرة الذنوب :

واعلـم بـأن كـدر الذنـــوب | يكسف نور العلم في القلوب
ألا تري الذبال فـي المصـــباح | إذا صفا أرضاك في اصطبـاح
وأن يكـن بوســخ ملطخـــا | كـف ثـوره لـذاك وطخـــا
فاحذر على النور الذي وهبتا | وأن تضع نور الإلـــه خبتـــا

والغزال أحمد بن المهدي السفير ـ في رائيته التي مدح بها سيدي محمد بن عبد الله يبسط بين يدي مخدومه معاطف زاهية وبسطا مرقومة بالحلي ترصعها الصور البراقة وتستحيل فيها الطبيعة بجزئياتها إلى عرائس خرد بحللها الخضر، وحياتها وحركاتها المثيرة ، وهكذا ـ وعبر اندماج بين عناصر شتى : منها ذات الشاعر (منطلق الرؤيا) والطبيعة (مجالها) والمرأة (حلمها وخيالها وثمرتها) والخمرة (إمعانا في استيحاء واستلهام مجالي الطبيعة) فيقول :

فيا لك روضا من بكاء غمامـــة | تبسم من أثغار أكما مه الزهـــر
كأن بها الأرواح تهتـــز نضـــرة | عرائس تزهو فوقها حلل خضـــر
كأن بها ورق الحمائـــم سجعـــا | قيان لها في صوغ ألحانها جهــر
كأن ثغـور الأقحـــوان مباســم | تسلسل من ظلم الرضاب بها خمر
كأن الشفاه اللعس منها شقائـــق | تناسق فيهـا تحـــت قانئهـــا در

كأن احمرار الورد في ريق التحيا خدود غواني الغيد لاح بما بشر
كأن ذبول النرجس الغض عادة لوحظ من أهواه ماج بها سحر
كأن غصون البان والرندميسا خرائد دب في معاطفها سكر
كأن شذى الأزهار ينفحها الصبا فيملأ أرجاء المكان لها نشر
خلال أمير المؤمنين محمد أذا صيغ فيه المدح أو نظم الشعر

خلاصة القول إن الشعر في عهد سيدي محمد بن عبد الله مثل هذا العهد وتمثله، استجاب لأحداثه وتعامل مع الأوضاع السياسية والدينية والجهادية والفقهية والمعرفية والأدبية مما يعول عليه فيه فجاءت مضامينه متسمة بعاطفة أصحابها الجياشة. وحيث اتخذ الشعر وسيلة للبوح - والتوجيه والتقويم والتعديل والوصف الهادف - وذلك عبر قوالب كلاسية في مجملها- في لغة تطبعها البساطة إلاماشذ كالذي يبدو على شمقمقية ابن الونان من تقعير لغوي وحوشي غريب له مقصديته النفسية والاجتماعية لدى صاحبه. كما عرفت الصورة الشعرية تميزا في مجال البيان وواصل البديع وفنونه حضورا متميزا كذلك عبر ماتناثر من مظاهر الجناس والطباق والأزدواج والتوازن والتقفية الداخلية. وظل الشاعر وفيا لثقافته الدينية (القرآنية والحديثية والفقهية) والأدبية فاستمد من تاريخ الآدب العربي أعلامه، وأخباره، وأشعاره ونثره ونقده وتقعيداته مما توسل به للإعراب عن جملة ما اعتمل في أعماقه.

المنجزات العمرانية للسلطان سيدي محمد ابن عبد الله بمنطقة تافيلالت

لحسن تاوشيخت (*)

إذا كان عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله معروفا عند معظم المؤرخين بالانفتاح على العالم الخارجي، وتوطيد دعائم الدولة المغربية الحديثة، فإن هذه الحقبة الزاهرة من تاريخ المغرب تميزت أيضا بتحقيق نهضة عمرانية جبارة من الصعب حصر مجالها ومرافقها ذلك أن جميع المناطق، المغربية لم تخل من آثار خالدة لهذا السلطان. هذه الآثار التي لم تقتصر على بناية دون غيرها كالمدارس والمساجد والحمامات والأبراج والأضرحة ... بل إن مدنا جديدة ظهرت إلى الوجود في هذا العهد كمدينة أنفا والصويرة وفضالة أو المحمدية نسبة إلى مؤسسها وأيضا القصور العامرة كقصر دار دبيبغ بفاس ودار المنشية بمراكش وقصر الدار البيضاء وقصبة سجلماسة بتافيلالت.

ولعل شهادة مؤرخه وخليفته بتافيلالت أبي القاسم الزياني في كتابه الترجمانة الكبرى خير دليل على عظمة هذا السلطان وعبقريته في جميع المجالات، يقول الزياني: "ولما قويت شوكته وامتد سلطانه ونظمت إدارته أعاد فتح بعض البلاد التي كان الأجانب قد احتلوها من أطراف المملكة كالبريجة "الجديدة" ... كما قسم المملكة إلى تسع عشرة عمالة ونشر القضاة في مختلف الجهات ... كما أنشأ المدن مثل الصويرة وفضالة 1166 هـ/1772 م. وجزءا من الرباط وغيرها من أبراج الحراسة المنتشرة في مختلف ربوع المملكة وكثيرا من المدارس والجوامع والقناطر وغير ذلك من آثاره الباقية المعلومة كالبيمارستانات ... إلى آخره" (1).

أما بخصوص منطقة تافيلالت فيمكن القول قبل تفصيل منجزات السلطان سيدي محمد بن عبد الله بها إن هذه المنطقة باعتبار أهميتها كمنطلق للدولة العلوية الشريفة وكذلك للدور الإقتصادي الذي كانت تلعبه فإنها حظيت بمكانة هامة لدى السلطان سيدي محمد بن عبد الله حيث زارها مرتين : الزيارة الأولى تمت مابين 27 رجب وشهر دي الحجة عام 1187 هـ/1782 م.

* مدير مركز الدراسات والبحوث العلوية / الريصاني

(1) أبو القاسم الزياني : التوجهات الكبرى في أخبار المعمور . 1967. ص. 17.

والثانية كانت مابين 15 جمادى الأولى و 15 جمادى الثانية عام 1201 هـ/1786 م كما أن السلطان اختار تولية خلافته بتافيلالت لكل من ولده المولى سليمان ومؤرخه أبي القاسم الزياني. يقول عبد الكريم الفيلالي في الخليفة الأول :"كان خروج المولى سليمان صحبة والده إلى سجلماسة سنة 1197 وسنه 18 سنة حيث نصب خليفة والده بها وترك معه أخاه مولاي الطيب وأغدق عليه من العطايا العظيمة والدخائر الثمينة وأعيان الفقهاء والأدباء ..." [2].

أما أبو القاسم الزياني فقد عينه سيدي محمد بن عبد الله واليا بتافيلالت سنة 1202 هـ /1787 م وإلى غاية وفاة السلطان في 24 رجب عام 1204 هـ/21 أبريل 1790 م. ومما جاء في كتاب التعيين الذي أرسله السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أهل تافيلالت مايلي :

"هذا كاتبي وصاحبي قد وليته عليكم وعلى أولادي وبني عمي وسائر أهل الصحراء فاسمعوا له واطيعوا" ولما أظهر الزياني التردد خاطبه السلطان بقوله "طب نفسا لولا أني أحبك ماوليتك على أولادي وأهل بيتي وإني لاأستغني عنك ... وماوليتك عليهم إلا لهذا الغرض فإنهم يهابونك لمحلك مني ..." [3].

أما منجزات السلطان العمرانية الخالدة بمنطقة تافيلالت فهي كثيرة إلا أن المصادر المغربية لم تذكر منها إلا ثلاث : ضريح مولاي علي الشريف، قصبة الدار البيضاء، القصبة السجلماسية. وفيما يلي جرد مفصل لهذه المآثر مرتبة حسب أهميتها الفنية والمعمارية، دون أن نغفل ماقام به السلطان من بناء الجسور وتنظيم الري لسقي القنوات وتشييد السدود (مثل قناة الغرفية وسد المعاضيض).

1 ـ ضريح المولى عليٍ الشريف :

1 ـ الموقع : يقع الضريح على بعد 1.000 كلم جنوب شرق مدينة الريصاني في مشيخة وداي ايفلي، يحده شمالا قصبة مولا عبد الكريم، جنوبا ابار المغزى (قصبة مولاي عبد الرحمان)، شرقا قصر حمو داود وغربا قصر آخنوس.

2 ـ حياة موجزة عن المولي علي الشريف :

هو المولي علي الشريف (تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جناته مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين) بن المولى الحسن بن محمد بن المولى الحسن بن القاسم

(2) عبد الكريم الفيلالي : التاريخ النفتري عليه 1969. ص 117 ـ 118.

(3) الناصري الاستقصا ص 8.ص 62 ـ 63.

الداخل بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن اسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. كانت ولادته سنة 762 هـ / 1360 م، خلفه والده مولاي الحسن بدوره بمدينة سجلماسة وقد كان اشترى بها دورا قرب الباب المسمى الزعفران ونال بهذه المدنية ثروة عظيمة بفضل التجارة. وكان المولى علي الشريف رجلا صالحا وعالما ومجاهدا، استوطن بعض الوقت بحومة جزاء ابن عامر من عدوة القرويين بفاس وكذلك، بمدينة صفرو، وجاهد بالأندلس عدة مرات وقضى بها أزيد من 20 سنة قبل ذهاب سكانها إلى مبايعته وتمليكه عليهم والإلتزام بطاعته ونصرته إلا أنه رغب عن ذلك حيث قال لهم "إنما الغرض عندي هو الدفاع عن حوزة الدين وابتغاء مرضاة الله". وقد كاتبه أهل الأندلس وعلماؤها عدة مرات يحثونه على الجهاد ومقاومة الأعداء، يقول صاحب الاستقصاء " وبهذه الرسائل العذبة الألفاظ المستوقفة الألحان يعلم أن المولى عليا الشريف رحمه الله كان مشهورا في عصره متقدما على كافة أهل عصره وأنه كان ملحوظا بالإجلال عندهم والإكبار" [4].

وفي سبيل نشر الإسلام بعمان افريقيا وجنوب الصحراء. فقد قام المولى علي الشريف بفتح بلاد السردان، وكان عالما كبيرا تخرج على يده عدة علماء من المغرب والأندلس ومن المشرق. توفي رحمه الله سنة 847 هـ عن عمر يناهز أربعة وثمانين سنة، ودفن أول الأمر بزاويته بتغمرت الخلوة قبل أن ينقل جثمانه الطاهر إلى ضريحه الحالي الذي يعود تاريخ بنائه إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله كما تذكر ذلك الرواية الشفوية والبقايا الأثرية والمصادر المكتوبة.

3 ـ **التأسيس** : يقول الناصري بأن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان من عظماء الملوك، وخلد آثارا كثيرة في مختلف المدن المغربية ومن ذلك ضريح المولى علي الشريف بسجلماسة وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها ومسجد الريصاني ومدرسته [5] وحسب الرواية الناصرية فإن هذا الضريح قد شيد في أواخر عهد هذا السلطان (مابين 1202 و 1204 هـ) أي في خلافة المؤرخ أبي القاسم الزياني، وقد شمل هذا البناء بالخصوص القبة الجنائزية والتي تم بناءها السلطان المولى اليزيد، ومن ذلك قيامه بإثبات النوافذ (الشمسيات) قصد إدخال الضوء والهواء. ولم يقتصر عمل

(4) نفسه : ج 7. ص 10.

(5) الناصري : الاستقصا. ج 8.

السلطان سيدي محمد بن عبد الله على البناء فقط بل انفق أموالا طائلة على الطلبة والحزابين والمؤذنين والقائمين على الروضة. وكان مقدار ماانفق في ذلك حوالي مائة مثقال أي 1250 فرنكا حسب صاحب الاتحاف [6]

4 ـ **التجديد والإصلاح** : كان أول إصلاح على يد السلطان المولى الحسن الأول، حيث تقول إحدى المراسلات بين السلطان وخليفته بتافيلالت المولى رشيد والمؤرخة بـ 8 محرم سنة 1385 / 1387 م بأن فيضانات وادي زيز قد اتلفت وهدمت جزءا من الضريح والقصور المحيطة به مما استوجب الإسراع في ترميمها حفظا من الاندثار، وهذه مقتطفات من هذه الرسالة :

"وصلنا جواب سيدنا أيده الله ورفع قدره وأدام لنا عزه وعلاه عما كنا طالعنا به العلم الشريف سابقا من ترميم ماكان أفسده الوادي ... من مقبرة جدنا الأكبر سيدنا ومولانا علي الشريف أفاض الله على سيدنا من بركاته، التي هي محل دفن جميع حفدته ... وعن قصوره التي كانت خربت... رجاء أن يتعهد سيدنا ذلك ويأذن مولانا في ترميمه بما اقتضاه نظره السديد... فورد علينا الأمر المطاع صحبة حامله الرقاص بأن المقبرة المذكورة يقوم ماتصلح به وينفذه سيدنا لدى الأمناء أولاد التازي ... كما أمرنا سيدنا أيده الله بأن تقوم أيضا ماأفسده الوادي من قصوره فليعلم سيدنا أمد الله لنا في عمره وأبقاه لجميعنا ضوءا يستضاء به ... من أننا لما كنا رأينا عظمة سطوة الله وبطشة قهره وما يتحلى به على عبيده من تسخير الماء من سمائه لأرضه بما لم يعهد مثله في وقت من الأوقات.وبعد الهدم الكثير والتضعضع وانفلاق الجدران ... لم يسعنا إلا المبادرة والإسراع لترميم مالابد منه حذرا من عود فيضانه بمثل ذلك أو أكثر منه ونقع فيما هو أعظم من فضيحة الأهل والأولاد فقمنا على ساق الجدو أصلحنا مافسد وما نخشى منه الضرر ... 8 محرم الحرام بفاتح 1385 هـ". وعلى ظهر هذه الرسالة كتب المبلغ الذي أنفق على هذا الترميم وتقول هذه الإضافة : "مولاي سليمان ومولاي رشيد أجابوا عما أمروا به من تقويم أصلاح ضريح مولانا علي الشريف به بأنهم أوقفوا أرباب المعرفة على ذلك وقوموا جميعه بما لابد منه 5099 ريال حسني مفصلا طالبين تنفيذ ذلك إعانة وتأمينا لقلوبهم من خوف عود السيل وخيانة الخائنين وهذا الصائر المقدم به ثلاثة ألاف ريال وتسعة وتسعون ريالا ـ والريال بحسب خمسين أوقية ..." [7].

(6) عبد الرحمان ابن زيدان. اتحاف

(7) وثيقة محلية مهداة من مديرية الوثائق الملكية. رقم الوثيقة بالمركز، م 93.

وعلى اثر المقاومة العنيفة التي واجهها الإستعمار الفرنسي من طرف سكان تافيلالت، هذه المقاومة التي دامت حوالي ثلاثين سنة لم يسع المستعمر إلا أن يستعمل كل وسائل الإرهاب والدمار والحصار قصد الدخول إلى المنطقة. ولعل من أهم هذه الوسائل قصف القصور الفيلالية بالطائرات. ولم تنج الأضرحة والزوايا من هذا العمل الشنيع فلقد تعرض ضريح المولى علي الشريف لإحدى القنابل من طرف جنرال الإحتلال الفرنسي ليستري، هذه القنبلة التي هدمت أحد أركان القبة البديعة التي شيدها سيدي محمد بن عبد الله، مما استوجب عملية ترميمها من طرف السلطان سيدي محمد الخامس وذلك قبل أو أثناء زيارته لهذه المنطقة قصد الترحم على جده المولى علي الشريف في ماي سنة 1941 هـ.

وعلى اثر الفيضانات المهولة لسنة 1953 والتي أدت إلى تهديم عدد من القصور والأضرحة بتافيلالت وخاصة ضريح المولى علي الشريف، عرف هذا الضريح إصلاحا آخر اكتمل مع سنة 1958. وكان الإصلاح على يد المعلم ادريس من فاس، المعلم الذي يعود له الفضل في بناء وتجديد بناء عدة مآثر عمرانية بتافيلالت منها على سبيل المثال لا الحصر زاوية سيدي الغازي بن العربي. وقد أشرف على عملية الترميم هذه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ممثلة في الحاج المكي بادو والسيد سميت سيدي عبد النبي، البناءون الذين ساهموا في تجديد بناء هذه القبة هم :

المعلم بن عمر، المعلم الجيلالي (البناية)، المعلم حجاجي عبد السلام العسل (التجبيس) الحاج العمراني بن منصور، بنونة (التزليج) المعلم حمزة (رسام) المعلم سيدي محمد بلعرفاوي (صباغة الأبواب) المعلم بن سالم (نجار).

القبة مشيدة من أسفلها من الحجارة والأجر وفي الأعلى بالخشب والقرمود وتضم قبور السادة مولاي علي الشريف، أبنية أبا عبد الله محمد وأبا الجمان مولاي يوسف، ثم سيدي الحبيب بن زين العابدين بن مولاي اسماعيل والمولى رشيد بن سيدي محمد بن عبد الرحمان، يبلغ طول القبة 11 م، عرضها 7 م وعلوها 15 م، تتكون من باب رئيسي في ناحية الجنوب وشبابيك (مشامس) في الشرق والغرب و4 مكتبات حائطية.

جفنة القبة ذات شكل ثماني الأضلاع شيدت بأعمدة خشبية شبه أفقية تنطلق من الأركان الأربعة وما بين الأركان لتتوحد في الأعلى مكونة الخاتم المزين بـ 3 نجمات ثمانية الأضلاع كبيرة، أوسطها مجوفة وقد علقت فيها الثريا. وتحاط بهذه النجمات الكبيرة نجمات صغيرة سداسية وتشبيكات هندسية. الألوان المستعملة في الصباغة هي

الأخضر والأصفر والأحمر وقد زينت أركان الجفنة بدورها بأشكال هندسية منقوشة تضم نصف خاتم ثماني عشر من صنف بلا ربع مطارق. وإلى الأسفل من الجفنة يوجد أفريز الجبس يحيط بكل الجهات الأربع وقد زخرف هذا الإفريز بنقوش هندسية "معينات" مع العبارات العربية التالية "العافية النافية" ثم "كل نفس ذائقة الموت" فوق المدخل وفي الواجهة الأخرى "بركة محمد/بركة محمد". أما إطار النوافد فقد زين بنقوش جصية من نوع "دروج، كتف، دريهم، قنديل والهلال". الأرضية والحائط مبلطان بزليج من نوع "برايا" وهو باللونين الأبيض والأزرق. باب المدخل زين من خشب "الكايزة" الحرة وقد نقشت عليه أشكال هندسية "نجمات ثماني عشرية وتشبيكات داخل الإطار وأشكال زهرية "أغصان وزهرة الزئبق" في الاطار، وقد استعملت في صباغة هذه الأشكال الألوان الخضراء والصفراء والحمراء.

صفوة القول أن ضريح المولى علي الشريف يمثل أروع التحف الأثرية والفنية التي تزخر بها منطقة تافيلالت وقد كان لجمالية هذه التحفة أن الزائر والمشاهد لها يشعر براحة بفسية وبذوق فني فريد من نوعه وقد عمدنا إلى وصف القبة الجنائزية فقط باعتبارها أقدم وأهم جزء بالضريح.

للمزيد من التفاصيل حول هندسة القبة يمكن الرجوع إلى الفصل الأخير من هذا العرض والخاص بالسقف المستعمل في العمارة العلوية.

2 ـ القصبة السجلماسية

بعد حكم دام 55 سنة وعمر يناهز التمانين عاما توفي المولى اسماعيل يوم 22 مارس 1727 م. وكانت المرحلة التي تلت وفاة المولي اسماعيل فترة عصيبة عاشها المغرب عموما وتافيلالت خصوصا. يقول هنري داستوگي واصفا أوضاع تافيلالت خلال هذه الفترة بعد وفاة المولى اسماعيل : "تجابه أبناؤه حول السلطة فعمت الحرب والفتنة في تافيلالت ـ فشلت جميع المرافق الحيوية وخلت المدارس وهرب التلاميذ والأساتذة من القصبة فتفرقوا حول القصور ففرغت المدينة العامرة "القصبة السجلماسية من سكانها[8].ولم تستقر الأوضاع بالمغرب ومنطقة تافيلالت خاصة إلا مع تولية سيدي محمد بن عبد الله السلطة حيث أعاد الأمور إلى نظامها ووفر الأمن والاستقرار. وكان لزيارة سيدي محمد بن عبد الله لتافيلالت سنة 1782 و 1786 أثر كبير في عودة الحياة إلى القصبة السلجماسية حيث أمر بإصلاح مدارسها ومنازلها".

قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله عند توليه الحكم بفتح المدارس التي كان يدرس بها فضلا عن حفظ القرآن للأطفال، التعليم العالي على نفقة الدولة، وبإصلاح القصبة السجلماسية وبتغيير سقوف المباني والمسجد الجامع [9]. كما قام السلطان ببناء عدة قصور لأبنائه ومنها قصر الحدب لصالح المولى عبد السلام وقصر الدار البيضاء للمولى سليمان سنة 1787 هـ، هذا فضلا عن قصر الزياني الريصاني، وقصبة مولاي المستعين (ابن المكتفي) وقصر أولاد بن عبد الله (أولاد بذلة) ......إلى آخره.

كان خليفة السلطان خلال هذه الفترة ابنه المولى سليمان وكذلك المؤرخ الكبير أبو القاسم ابن أحمد بن علي الزياني (1734 ـ 1809 هـ).

صفوة القول، إذا كان للمولي اسماعيل الفضل في إعادة بناء مدينة سجلماسة، عاصمة تافيلالت ـ فإن سيدي محمد بن عبد الله يعود له الفضل أيضا في إصلاح ما هدم من هذه القصبة والحفاظ عليها وتجديد عمرها لمدة قرن آخر إلى أن خربت عن آخرها كما تقول بعض المصادر والرواية الشفوية سنة 1818 م.

---

(8) DASTUQUE (HENRI ET. CL.) : Quelque mois au sujets du tafilalt et Siji Lmassa in Bulletin de la Société de Géographie, Paris, Avril 1876. T.XIII - PP 337 - 380. 3 carts H.T. P. 370.

(9) Idem. p.371

القصبة السجلماسية شيدت بنفس المواد المحلية التي كانت قد بنيت بها مدينة الذهب والقوافل، وهذه المواد تتمثل في التابوق "اللوح" والتابية. إلا أن هذه المواد مقارنة مع مثيلاتها في العصر الوسيط تظل أقل صلابة ومتانة. مكونات هذه المواد هي : تربة صلصالية تميل نحو الصفرة مختلطة بالحصى والعظام والقطع الخزفية والخشبية هذا فضلا عن مواد أخرى مثل القرمود، الأجر والجبس كما يدل على ذلك شكلها والتي تم جلبها من الطبقات الأثرية السفلى. ويبقى أن سمك الأسوار وعلوها وطبيعتها من المؤشرات على أهمية هذه العمارة في الحفاظ على الأمن من جهة وفي تسيير شؤون هذه المنطقة من جهة أخرى.قليل هي البنايات التي لازالت صامدة أمام تدخل الانسان وعوامل الزمن، حيث يمكن اليوم مشاهدة أطلال المسجد الجامع الحصن و السور الخارجي وبعض المنازل. (انظر التصميم).

1 ـ المسجد الجامع :

يقع في قلب القصبة السجلماسية، وقد بني بالتابوق الذي يبلغ سمكه حوالي 1 متر وعلوه حوالي 16 متر، وقد تم تبليط هذا السور من الداخل بواسطة الجبس المختلط بالرمل. التابوت مشيد فوق أساس من الحجارة الكرانيتية السوداء تفاديا للرطوبة والفيضانات المهولة لوادي زيز المسجد لم يعد يتوفر على السقف أو امحراب أو الأبواب والأساكيب والبلاطات وإنما فقط على بيت الصلاة. هذه الأخيرة تم تبليط أرضيتها بالجبس والرمل ولازالت آثار الأعمدة بداخلها وهي عبارة عن 24 حفرة تتباعد فيما بينها بحوالي 2.30 م. بيت الصلاة إذن ذات شكل مستطيل، طولها 40 م وعرضها حوالي 13 م (الساحة الإجمالية حوالي 520 م²) وتتكون من أربع بلاطات و13 أساكيب في شمال هذه القاعة، توجد بقايا الصومعة ذات الشكل المربع (4 x 4) ومابين بيت الصلاة والصومعة توجد المدرسة وهي مستطيلة الشكل (33 x 7) ثم مكان إيواء طلبة العلم إلى الشمال وهي كذلك مستطيلة الشكل وتحتوي على بقايا غرف صغيرة (40 x 13). المرفقان بنيا من نفس مواد بناء المسجد الجامع كما يتوفران على نفس المقاييس وأشكال التبليط وهما أيضا يخلوان من السقف.

وقد ظل هذا المسجد يلعب دوره الديني والثقافي منذ بنائه على عهد المولى اسماعيل وحتى بعد تخريب القصبة السجلماسية مع بداية القرن 19، حيث كانت تؤدى

فيه صلاة الجمعة وصلاة العيدين إلى غاية بداية القرن 20. ويخبرنا الطبيب الخاص للمولى الحسن الأول فيرناند ليناريس في إحدى مذكراته حول زيارة المولى الحسن الأول لتافيلالت سنة 1893 بأن هذا السلطان قد زار القصبة السجلماسية وعكف يصلي بمسجدها ليلة كاملة وهي ليلة الثلاثاء 21 نونبر سنة 1893 [10].

2 ـ دار الإمارة والحصن

ويقع إلى الشمال من المسجد وقد شيد هو الآخر بالتابوق على أساس من الحجارة ويبلغ طوله حوالي 70 م وعرضه حوالي 50 م (المساحة الإجمالية 2100 $م^2$)، كان هذا الحصن في ذلك العهد جد محصن وكان أيضا يتميز بزخرفته ونقوشه البديعة إلا أن حاله اليوم قد تغير حيث لم يبق من هذا الحصن إلا بعض الأسوار الخارجية ذات الأبراج المربعة في كل ركن.

3 ـ المرافق الأخرى

وهي عبارة عن بنايات متفرقة ربما كانت تستغل كمنازل خاصة بكبار موظفي السلطة المحلية. ولعل المنزل الذي تم الكشف عنه خلال حفريات 1974 خير دليل على ذلك فالمنزل مشيد من التابوق الذي يبلغ سمكه 50 م. المنزل يبلغ عرضه حوالي 12 م وطوله حوالي5،37 م وعلوه الحالي من 2 إلى 3 أمتار. ويتكون هذا المنزل من عدة غرف كل حسب وظيفتها. وكذلك من أروقة توصل بين مختلف هذه الغرف. وقد زينت أرضية هذا المنزل كما كشفت عن ذلك حفريات 1988 بالحجارة والجبس، وقد تم الاكتشاف خلال هذه الحفريات على عمود مستدير الشكل مشيد من الحجارة ومبلط بالجبس والرمل.

4 ـ السور الخارجي

بداخل السور الذي بناه المولى اسماعيل لتحصين القصبة السجلماسية، شيد سور ثاني من طرف السلطان سيدي محمد بن عبد الله ويتميز هذا السور الثاني بقلة مرافقه وهشاشة بنائه بالمقارنة مع السور الإسماعيلي. وقد شيد هذا السور من التابوق ذي التربة

(10) LINARES (FERNAND) "Voyage au Tafilalet avec SM Le Sultan Moulay Hassan en 1893 In Bulletin de L'institut d'Hygienne du Maroc. 1932. THI et IV PP I 16 et 93 1136.

الصفراء والمختلطة بالحصى والعظام والقطع، الخشبية والخزفية. وتتخلل هذا السور عدة أبراج مربعة الشكل (25 م^2) وعلوه يبلغ مابين 6 و7 أمتار. إلا أن هشاشة هذا السور جعلته لم يصمد طويلا أمام تدخل الإنسان وتقلبات المناخ مما أدى إلى إندثار عدة أجزاء منه.

وتجدر الإشارة أيضا إلى وجود عدة أبراج ترجع إلى عهد سيدي محمد بن عبد الله بالقرب من قلب القصبة السجلماسية وهذه الأبراج كانت بدون شك عبارة عن تحصينات مخصصة للحراسة والمراقبة.

خلاصة القول يمكن القول أن سجلماسة ظلت حية سواء في قلوب سكان تافيلالت أو عند الملوك العلويين الذين أعادوا أمجادها ومددوا من حياتها. وماوصفنا لهذه القصبة على عهد المولى اسماعيل خلال الدورة الماضية لجامعة مولاي علي الشريف وما قدمناه الآن إلا تجسيدا حيا لما ذهبنا إليه بل وأكثر من ذلك أن الكثير من الناس وخصوصا بتافيلالت يعتقدون أن القصبة السجلماسية الحالية هي نفسها المدينة العامرة أو سجلماسة التاريخية.

3 ـ قصر الدار البيضاء

من المنجزات العمرانية التي يزخر بها عهد السلطان سيد محمد بن عبد الله نذكر بالخصوص اعتناء هذا السلطان بإنشاء قصور عديدة بمختلف المدن المغربية قصد إيواء ذريته وأبناء عمومته، ومن الصدف العجيبة أن أغلبية هذه القصور تحمل اسم الدار البيضاء. فهذا الإسم نجده في مكناس كما نجده في الرباط وفي أنفا أو الدار البيضاء الحالية، وفي مراكش وأنفا في تافيلالت. ويعتبر قصر الدار البيضاء بتافيلالت تحفة عمرانية رائعة شيدت على مساحة كبيرة تقدر ب 500 م عرضا على 500 م طولا أي ما مجموعه 500، 2 كلم². ويوجد ذها القصر في الطرف الشرقي لواحة تافيلالت على بعد حوالي 5 كلم من مدينة الريصاني. يحده شمالا قصر الفيضة وجبل الدار البيضاء، من الجنوب قصيرة الغرفة، من الشرق قصر هارون ومن الغرب قصر دار مولاي الطالب وقصر الفرخ.

القصر كما يذكر صاحب الاستقصا تم بناؤه على يد سيدي محمد بن عبد الله خلال نهاية القرن 18 م (ربما سنة 1199 هـ/1784 م) يقول الناصري بأن هذا السلطان قد خلد آثارا كثيرة بالمغرب ومن بينها بمنطقة تافيلالت، ضريح المولى علي الشريف وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها ومسجد الريصاني ومدرسته [11] وتختلف الروايات حول هدف بناء هذا القصر فمنها من يقول أن الهدف منه هو التحكم في تحركات القبائل ودليلنا في ذلك موقع القصر من جهة وفخامة سوره الخارجي من جهة ثانية. ومنها من يقول أن القصر شيد لفائدة المولى سليمان الذي كان منشغلا بالعلم ومعتكفا عليه قبل أن يصبح خليفة السلطان بالمنطقة. أما صاحب الدرر البهية فيورد أن القصر بني لصالح المولى امبارك بن سيدي محمد بن عبد الله الذي فضل الإستقرار بهذا القصر إلى أن توفي فيه وترك فيه ذريته وعقبه ومنهم المولى المامون[12].

ويورد جاك مونيي نقلا عن بعض المصادر الأوربية ايضاحات وإشارات عن أهمية قصر الدار البيضاء. وهذا ملخص عنها.

إن السلطان سيدي محمد بن عبد الله شيد قصرا فخما على ضفاف نهر تافيلالت

(11) الناصري : الاستقصا. ج 3. الصفحة 60.

في حدود اراضيه الشرقية فالأعمدة رخامية وكثير من هذه المادة نقل من الأطلس من انقاض فرواح (قصر فرعون) بالقرب من ضريح مولاي ادريس الأول بزرهون من الناحية الغربية بالأطلس وهو قصر شاسع لاتحتل المنازل فيه سوى نصف المساحة. وللقصر مدخل يبلغ ارتفاعه 2،30 م وعرضه 3 أمتار وقد اشترى القصر السلطان المولى الحسن الأول سنة 1890 وبعث ابناءه ليستقروا فيه [13].

واعتبارا لهذه الإشارات وغيرها يتأكد الدور الطلائعي الذي كان يلعبه قصر الدارالبيضاء إلى جانب باقي القصور المعاصرة مثل قصر اخنوس، قصر مزكيدة، قصبة سجلماسة، قصبة الحذب، قصر المنصورية إلى آخره وقد كان هذا القصر يؤدي دوره الثقافي والإجتماعي والعسكري منذ بنائه في أواخر القرن 18 إلى بداية القرن العشرين حيث نجده في هذه الفترة الأخيرة بمثابة قلعة حصينة قاومت بشجاعة وتفان ضد التوغل الإستعماري الفرنسي إلى تافيلالت، مما أدى إلى تعرض القصر إلى هجمات عنيفة من طرف المدافع والطائرات الفرنسية مابين 1916 و1931. وقد نتج عن هذه المداهمات تخريب وتحطيم عدد كبير من المرافق والتحف الفنية التي كان يزخر بها القصر. كما أن تحول الإرث الحضاري والسياسي والإجتماعي لقصور جديدة وقريبة من المركز مثل الفيضة وأولاد الحليم وآبار من جهة ومن جهة أخرى تكرار الفيضانات المهولة، نتج عنه تراجع كبير للدور القيادي الذي كان يلعبه قصر الدار البيضاء.

ولعل الزائر لهذا القصر في الوقت الراهن سوف يلاحظ التدهور والتهميش الذي أصبح يعرفه القصر حيث هاجره معظم سكانه الأصليين ولم يبق من آثاره القديمة إلا بعض المرافق والأطلال التي فقدت رونقها الفني وسحرها الزخرفي. وفيمايلي وصف موجز عن هذه البنايات :

1 **السور الخارجي** وهو أهم جزء لازال يحتفظ بمعظم مكوناته باعتبار صلابته ومتانة بنائه فقد شيد على أساس من الحجارة وبواسطة تابوت من التراب المذكور ذي السمك الغليظ مابين 1 و1،20، يبلغ طول السور حوالي 2000 م (500 م في كل جهة) ويبلغ ارتفاعه في الأجزاء الأصلية 5 أمتار. السور تتخلله 3 أبراج أي برج في كل ركن وبرج مابين كل ركنين. وهي أبراج مربعة مشيدة أيضا من التابوق وذات طابق علوي يوجد به مخاريط وفتحات لإطلاق النارولالحراسة. ويوصل بين مختلف الأبراج مر ضيق محاذي للسور. نجده في معظم القصور الفيلالية.

(13) JAQUE MEUNIZ (D) M Abbar, cité royal du Tafilalet Hesperis 1959. T XLVI. I et 2 Trimèstre. (pp. 60 - 61).

2 ـ **المدخل** للقصر مدخلان أحدهما غربي والآخر شرقي وهما متوازيان كان يربطهما في الماضي زقاق تتفرع عنه باقي الأزقة. المدخلان عبارة عن قوس منكسر مشيد من الحجارة والآجر ومزين بستارة من القرمود. ويعلوهما برج مربع للحراسة، يبلغ علو المدخلان حوالي 2،30 م وعرضهما حوالي مقرين، وللمدخلين بابان من خشب الصفاف يغلقان من الداخل بواسطة قفل خشبي تقليدي وأخر حديدي. ويفتح المدخلان على رواق مغطى (مسرية) خاصة بالجلوس والإجتماعات والمراقبة والحراسة، وتتخلل هذا الرواق أقواس منكسرة "ودكانات أرضية" ومرورا بهذا الرواق وببعض الأزقة الضيقة نصل إلى الساحة العمومية.

3 ـ **الساحة العمومية** وهي ساحة شاسعة (حوالي 20000 م²)وهي ذات شكل مستطيل وعنها تنفتح معظم المرافق الحيوية بالقصر كالمسجد والدار الكبيرة. ونظرا للأهمية التي لعبها القصر في مقاومة المستعمر الفرنسي فلاشك أن هذه الساحة كانت بمثابة ثكنة عسكرية لتدريب المقاومين ووضع خطط الدفاع.

4 ـ **المسجد** يوجد في الواجهة الشرقية من الساحة، وهو مسجد أعيد بناؤه بدون شك مما أفقده طابعه الأصلي، فهو مسجد بسيط يتكون من مدخل ضيق ورواق مغطى وأماكن الوضوء، وغرفتين لحفظ القرآن فضلا عن بيت الصلاة المكونة من 5 بلاطات وأربعة أساكيب والتي تتخللها 15 مدرسا يبلغ عرضها حوالي 2 م، وهي مغطاة بخشب النخيل، المحراب جد بسيط وعادي ويخلو من كل عناصر الزخرفة. المنبر صنع من خشب الأرز وهو حديث العهد (1324 هـ/1386) يبلغ علوه 2،20 م وعرضه متر واحد، وقد نقشت بعض الكتابات العربية المستوحاة من قصيدة البركة للبونيري وعلى وزن البحر البسيط (مستفعلن فاعلن مرتين) وهي * الواجهة الأمامية للمنبر كتبت "يرى لنا معشر الإسلام أن لنا"

"من العناية ركنا غير منهدم"

* الواجهة الخلفية "الله" "في 11 جمادى الثانية عام 1324" "محمد

5 ـ **الدار الكبيرة** وتوجد في الجهة الجنوبية للساحة العمومية، وتحتل مساحة كبيرة (حوالي 5000 م) وهي تتكون من عدة مرافق شيدت تقريبا وفق تصميم موحد، فالأروقة كلها مغطاة بخشب النخيل وهي توصل بين مختلف الأقسام (الحريم، المطبخ، قاعات الضيافة). هذه الأقسام عبارة عن أربع قاعات أو قبب مستطيلة وأربع خزانات تنفتح على رواق مغطى وصحن مربع الشكل تعلوه قبة نصف مغطاة ومزينة

بالقرمود الأخضر. ويتخلل هذا الصحن في الواجهات الاربع 3 أقواس منكسرة (قوسان صغيران يتوسطهما قوس كبير). أبواب القاعات مصنعة من خشب الأرز وتخلو من كل عناصر الزخرفة أما الأرضية فهي مزينة بالزليج الأخضر والأبيض والأزرق والبني. إلا أن عوامل الزمن وتدخل الإنسان (الترميم العشوائي) أفقد هذه المرافق الكثير من أناقتها وجمالها الفني، فالنقوش البديعة أصبحت شبه منعدمة ولانجدها إلا على الإطار العلوي لبعض الأقواس.

وإلى الجنوب من هذه الدار الكبيرة يوجد الحمام المكون من ثلاث غرف وبئر ومسخن، وهو حمام معطل اليوم نظرا لندرة الماء وهشاشة البناء. أما الرياض فيوجد في الجهة الغربية للدار الكبيرة وقد كان في الماضي عبارة عن خاصة ذات أشجار متنوعة كالرمان والكرم والياسمين والتيقلان والعنب ... إلخ، والتي كانت تسقى بواسطة قنوات تحت أرضية مشيدة بالحجارة والأجر المحلي، وخير دليل على غنى هذا الرياض وجود بقايا خلايا النحل.

هذا ولايمكن أن ننسى وجود عدة مرافق أخرى أصبحت اليوم شبه أطلال خالية مثل مايسمى عند أهل الدار البيضاء بالصومعة التي كانت على مايبدو عبارة عن حصن مقدم في الجهة الشرقية وخارج السور، الغرض منها حراسة القصر من الإعتداءات التي قد تأتيه من هذه الجهة. فهذا الحصن مثل القصر نفسه هو البوابة الرئيسية للدخول إلى واحة تافيلالت من الناحية الشرقية مما استوجب ايجاد تحصينات للمراقبة، وتقول الرواية الشفوية أن الصومعة كانت جد محصنة وكانت مصبوغة باللون الأبيض ولعبت دورا مهما في رد الهجمات الفرنسية قبل أن تتهدم في آخرها مع دخول الفرنسيين عام 1931 وأيضا بفعل فيضانات 1953 و1965. ومن المرافق أيضا التي لازالت بادية للعيان بقصر الدار البيضاء نجد بعض العرصات في الجهة الشمالية هذه العرصات المكونة من شجر النخيل والرمان خاصة لازالت تسري فيها الحياة بالرغم من فترات الجفاف الصعبة التي شهدتها المنطقة في السنوات الأخيرة.

خلاصة القول أن قصر الدار البيضاء يعتبر بحق نموذجا فريدا من نوعه من القصور العلوية بتافيلالت ذلك أنه بفعل موقعه وطبيعة بناياته لم يقتصر دوره على الميدان الإجتماعي والثقافي بل أيضا ظل قلعة محصنة ترد كيد الطامعين في السيطرة على واحة تافيلالت طيلة القرن 19 وبداية القرن 20. وبانتهاء هذا الدور مع الإحتلال الفرنسي سنة 1931، سيفتقد القصر كل ثقله الحضاري كما أن تكرار فترات الجفاف والفياضانات على القصر ستجعله قصرا شبه فارغ رغم التحدي الذي تبديه ساكنته والمجهودات المبذولة في ابقاء الروح تدب في هذا القصر.

عبارة عن القبة مشيدة من الأسفل بخشب الأرز (الأضلاع والورقة) والمصبوغ بألوان زاهية مكونة من أشكال هندسية وزهرية مصبوغة بالأحمر والأخضر والأصفر، ويحيط بها من الأسفل افريز من الجبس منقوش عليه عبارات العافية النافية. أما الواجهة العليا للقبة فقد كانت في الأول مزينة بالقرمود الأخضر. الدار الكبيرة كما هو الشأن في باقي القصور العلوية بتافيلالت، تتكون فضلا عن قاعات الضيافة على أجنحة أخرى أقل أهمية من حيث الهندسة المعمارية مثل الحمام، المطبخ، والحريم.

4 ـ **القصبة الجديدة** : أو قصبة ابن المكتفي أو قصبة مولاي المستعين تقع جنوب سوق الريصاني بحوالي 400 م، وهي قصبة كما تؤكد على ذلك اللوحة التأسيسية الموجودة في الجزء العلوي للمدخل الرئيسي قد شيدت من طرف المولى أحمد بن المولى المكتفي عام 1192 هـ/1778م أي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله ومن دون الباب الرئيسي الذي لازال يحتفظ باثاره الأولى من حيث مواد البناء (الحجارة والأجر)، (الجبس والخشب والقرمود) وكذلك رخرفته (قوس منكسر تعلوه لوحة من الأقواس المبرزة ثم اللوحة التأسيسية من الفسفساء ثم ستارة خشبية مغطاة بالقرمود الأخضر) فإن كل معالم القصر الداخلية قد اندثرت اللهم بعض الأبراج (وعددها بالقصر سبعة) وكذا بعض أجزاء السور الخارجي الذي لايزال يحتفظ بنمطه المعماري القديم، كما يمكن ملاحظة الرواق (المسرية) التي ينفتح عليها الباب الخشبي (الصفصاف) العطى بالحديد. هذا الرواق المشيد من الحجارة والأجر والذي يزخر بهندسته المنفردة وخاصة القوس الموازي للباب حيث تم تجزئة عقده إلى شكل أقواس صغيرة منكسرة.

أما الدار الكبيرة فقد اندثرت كل معالمها الأولى حيث تم إعادة بناءها وتبليطها ولم يبق منها إلا الأقواس (الصحن) الذي تم تقسيمه بين الورثة وتم تعطيته مما أدى إلى تشويه معالمه الأولى.

فيما يخص الكتابة التأسيسية فهي عبارة عن قوس من الفسيفساء الصفراء مع جوانب حمراء وخضراء إلى الأعلى، القوس بشبكات زهرية بينما كتبت الكتابة بلون أسود. وتحمل هذه الكتابة آية الكرسي واسم المؤسس وتاريخ التأسيس :

الحمد لله وحده، الله لاإله إلا هو الحي القيوم لاتأخذه سنة ولانوم له مافي السموات ومافي الأرض من ذا الذي يشفع عنه إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤدى حفظهما وهو العلي العظيم، علي يد المولى أحمد بن مولانا المكتفي بالله أمر ببناء القصبة الجديدة عام اثنين وتسعين ومائة والف (1192 هـ/1778م).

5 ـ قصبة الحدب

تقع هذه القصبة في الطرف الجنوبي لموقع سجلماسة الأثري في الطريق المؤدية إلى ضريح المولى الحسن الداخل على بعد 1 كلم من الطريق الرئيسية 21، يعود تاريخ تأسيس القصر حسب الرواية الشفوية وحسب المعطيات الأثرية المتبقية إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. هذا السلطان الذي شيد هذا القصر لصالح ابنه المولى عبد السلام [14] وذلك خلال زيارته تافيلالت في أواخر القرن 18م أي خلال نفس الفترة التي قام فيها السلطان العلوي بترميم القصبة السجلماسية وبناء ضريح المولى علي الشريف وكذلك قصر الدار البيضاء.

والقصر في حقيقته الحالية ينقسم إلى شطرين الأول غربي ويسكنه الشرفاء العلويون والثاني شرق يحديث العهد ويسكنه خليط من الأحرار ومايسمى بالحراطين. إلا أن أهم الآثار التي تنتمي إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله توجد بالقصر الأول وهذه الآثار هي

1 ـ السور الخارجي

وقد شيد بالتابوق الصلب المكون من التربة الحمراء المختلطة بالحصى والرمل وهو بتكوينه يشبه أسوار القصبة السجلماسية، وقد بني السور على أساس من الحجارة علوه حوالي 1،8م وعرض الحائط يبلغ حوالي 1،28 م وعلوه يصل إلى 7 أمتار، والقسم العلوي من السور شيد من التابية مما يسمح بوجود ممر يصل بين الأبراج وبالتالي مرور الحراس. السور يحاط بثمانية أبراج مربعة الشكل (أربعة في كل ركن وأربعة مابين الأركان، 36 م^2 و 49م^2)، مشيدة من نفس المواد المكونة للسور، وهي خاصة بالحراسة حيث توجد بها غرف في الطابق العلوي/شيد بالتابية) يدخل إليها عبر سلاليم ضيقة وأبواب صغيرة، وهذا القسم العلوي شيد بالتابية وتتخلل جوانبه فتحات الحراسة وإطلاق النار.

2 ـ المدخل الرئيسي

يوجد في الجهة الشرقية، وقد شيد باتقان وصلابة فهو من الجهة الخارجية مشيد بالتابوق وبالداخل بالأجر والحجارة وسقفه من خشب النخيل، والمدخل عبارة عن قوس مزين بتقويسات صغيرة دائرية الشكل وتعلوها ستارة من القرمود الأخضر، وتوجد بوابة معلقة خاصة بالحارس مشيدة من الأجر وينفتح المدخل الرئيسي على رواق

---

(14) أبو العلاء مولاي ادريس بن أبي العباس أحمد الحسني العلوي : الدرر البهية. ج 1 (ص. 173 ـ 171).

مغطى (الدكانة) والخاص بالحراسة والإجتماعات، وقد شيد كله بالأجر والحجارة تتخلله أقواس معلقة وتوجد بهذا الرواق حجرتان خاصتان بدق البارود (الملح، رماد الدفلة، والكبريت).

3 ـ الساحة الداخلية

وهي ساحة مستطيلة تتفرع عنها الأزقة والدور السكنية إلا أن شكلها الأول قد تغير كثيرا نظراً لزحف السكن واستغلال السكان لهذه الساحة لإقامة مرابض للحيوانات الداجنة.

4 ـ المسجد

وهو مسجد صغير ويوجد في الجهة الشرقية للساحة ويحايده من الجنوب البرج الجنوبي، ويتكون المسجد إضافة إلى البحر ودار الوضوء على بيت الصلاة مربعة الشكل (11م x 11 م) وتتخلل هذا البيت فضلا عن المحل المكشوف والمزين بستارة من القرمود 16 قوسا مقسمة إلى اسكربيس و5 بلاطات، المحراب عادي وهو عبارة عن قوس مجوف تعلوه قبة صغيرة، علوه حوالي2,00 عمقه حوالي 1,00م، المنبر الأصلي للمسجد لم يعد موجودا اليوم ومانجده هو منبر صغير وبسيط جدا. سقف المسجد يتكون من صنفين : الأول عادي ومستوي ومشيد من خشب النخيل ومبلط بالجبس من الداخل، أما الثاني فهو عبارة عن قبة مصنوعة من خشب الأرز على شكل أعمدة أو ورقات، وقد زينت هذه القصبة من الداخل بأشكال هندسية وزهرية مصبوغة بالألوان الحمراء، الصفراء، والخضراء. وتحيط بهذه القبة من الأسفل افريز من الجبس منقوش عليه عبارات "العافية النافية" وكانت هذه القبة في عهدها الأول مغطاة من الأعلى بالقرمود الأخضر وتتوسطها ثريا لم يبق منها سوى السلسلة التي تشدها إلى القبة.

5 ـ الدار الكبيرة

توجد في الواجهة الأمامية للمسجد إلى الشمال، وتتكون من مدخل على شكل قوس منكسر مزين بعقود مختلفة تعطيه جمالية فريدة من نوعها، وتعلوه ستارة من القرمود الأخضر. وينفتح هذا الباب على رواق مغطى بسقف من خشب النخيل. ويتكون هذا الرواق من أقواس مغلقة تشكل دكانات للجلوس وهذا الرواق يؤدي إلى الصحن المكشوف المربع الشكل المحاط بخمسة أقواس ورواق مغطى من كل جهة. وهذا الصحن تقابله من الجهات الأربع قاعات الضيافة التي لم يبق منها مع الأسف سوى واحدة. وهذه القاعة مستطيلة الكشل (19 x 5م). وقد شيدت بالتابوق والآجر

أرضيتها مزينة بزليج أخضر وأبيض وأزرق. مدخلها عبارة عن قوس منكسر زين بنقوش زهرية في الباب من خشب الصفصاف المصبوغ بالأخضر والأحمر.

6 ـ زاوية الماطي :

توجد في أقصى الجنوب من واحة تافيلالت ـ مقاطعة السهالات على بعد 14 كلم ـ يحدها شمالا سيدي الغازي بن القاسم، جنوبا قصر ملحدج وادرار، غربا زاوية من لايخاف وزاوية سيدي ابراهيم، وشرقا قصر وزاوية عماد وقد تأسست الزاوية من طرف الشريف الإدريسي أحمد الطيب بن محمد الصديقي السجلماسي المصري الأصل، والذي يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان هذا الولي علامة عصره وزاهدا كبيرا أخذ العلم والفقه والتصوف على يد عدة شيوخ مغاربة كبار ومن تلامذته العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي صاحب كتاب "الظواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقية ". توفي رحمه الله في ثالث محرم عام 1751م ودفن بضريحه الواقع داخل قصر الماطي.

يحاط القصر بسور سميك وعال شيد من التابوت وتتخلله أبراج مربعة. المدخل يوجد في جهة الجنوب وهو عبارة عن قوس تعلوه ستارة من القومود الأخضر بان من خشب الصفصاف. وينفتح المدخل على رواق مغطى (دكانة) ومرورا بساحة كبرى وأزقة غير مغطاة تصل إلى ضريح الولي الذي يجاور المسجد ولايفصلهما إلا ساحة صغيرة. مدخل الضريح يقع إلى الجهة الشرقية، وهي عبارة عن قوس تعلوه ستارة من القرمود الأخضر وبابه من خشب الصفصاف وينفتح على رواق معطى يؤدي إلى قبة الولي، وهي عبارة عن حجرة مربعة تتخللها أربعة أقواس تعلوها قبة أهليلجية الشكل وقد شيدت القبة والأقواس بالأجر والحجارة. وتتوفر القبة على فتحات أربعة ومن الخارج تحاط القبة بأربع شرفات وضعت فوقها صفوفات خضراء. ويعلو القبة الجامور المكون من ثلاث كويرات نحاسية مصبوغة بالأخضر، وقد دفن بالضريح الولي سيدي أحمد الحبيب وابناه أبي القاسم ومحمد. عطيت القبور بدرابز خشبية من نوع موشارابي. وأهم ماآثار انتباهنا بهذا الضريح هي اللوحة ـ شاهدة القبر ـ التي تقول الرواية الشعرية أنها من إهداء السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وقد صنعت اللوحة من حشب الأرز وهي عبارة عن قصر مزين بنقوش هندسية (نجيمات متشابكة) مصبوغة بالألوان الحمراء والصفراء. وقد وضعت للوحة دفتان قصد المحافظة عليها، وقد زينت هاتان الدفتان بنقوش هندسية (نجمة ثنائية عشرية)، بداخل هاتين الدفتين يوجد قوس نقشت عليه كتابة عربية ويعلو هذا القوس اطار مزين بنقوش زهرية وافريز كتبت عليه الشهادة والحمدلة والتصلية. الكتابة نقشت بخط مغربي حديث وهي كما يلي :

"لاإله إلا الله محمد رسول الله على الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله هذا ضريح العلامة الإمام الشيخ البركة الإمام قدوة الإسلام وحجة الجهابذة بعدة الأعلام عمدة العارفين وذخيرة السالكين صاحب الكرامات الطاهرة والإشارات الباهرة محيي رسوم الطريقة الشاذلية ومنقذ معالم الحقيقة بمواقفه الشريفة المحمدية حامي لواء الأسرار الربانية وناشر طي المعارف بالبلاد السجلماسية استاذ الطريقة وإمام أهل الحقيقة بركة الزمان وغوث العصر والأوان، العارف بالله سيدنا ومولانا أبو العباس الشيخ أحمد الحبيب وحمه الله تعالى ورضي عنه بن الخير البركة سيدي محمد العماري بن العالم الأفضل الولي الأكمل سيدي محمد صالح بن الفضل الكبير سيدي أحمد بن يحيى بن سعد بن يحيى بن يحيى بن الحسن بن عيسى بن علي بن محمد بن عمر بن علي بن عمرو بن أحمد بن عبد الله بن أبي ابراهيم بن يوسف بن صالح بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

توفي رحمه الله ثالث المحرم عام خمسة وستين ومائة والف.

السقف المستعمل في العمارة العلوية *

يستعمل السقف المستوي في الأروقة والحجرات الضيقة بينما السقف المائل أو على شكل قبة يوظف خاصة في تغطية الغرف الواسعة وبالتالي في خلق أجواء عالية.

1 - السقف المستوي

أ - السقف المستوي ذو الأشكال الظاهرة

ويشمل الأروقة المؤدية إلى غرف ذات أهمية وظيفية كبرى مثل قاعات الضيافة بالخصوص، ولهذا ورغم بساطته فإنه يعطي ذوقا جماليا للجناح المغطى. ويشيد هذا السقف اعتمادا على عارضتين متوازيتين توضعان على الجانب الطولي للغرفة بينما في الرواق توضع إحدى هاتين العارضتين على قمة السور الداخلي والأخرى على أعمدة منفصلة، بعدها توضع القوائم الصغرى والدقيقة بشكل عمودي للعارضتين مما يسمح بتغطية المساحة المتبقية بورقات الآرز. وهذا النوع من السقف جد منتشر في المدن المغربية الكبرى وكذلك في الأندلس وفي تونس. ففي قصر الدار البيضاء بمكناس نجد مثلا أن المساحة المراد تغطيتها تقسم بشكل متساوي وتوضع فوقها القوائم متساوية في السمك مع العارضتين الأساسيتين وفق مساحات مربعة ضيقة بينما توضع الروافد الصغيرة بشكل طولي للغرفة مما يسمح بتغطية أكبر مساحة ممكنة، نفس هذه الأشكال نجدها بتونس في دار عثمان ودار الحداد وبالأندلس في رواق سانتا مريا مالوندا بسرقسطة.

ب - السقف المستوي المغطى ويعتبر أكثر دقة وهندسة من الأول لكنه يبقى أقل استعمالا في الهندسة المعمارية العلوية مقارنة بمثيلاتها بغرناطة مثلا، ويتشكل هذا السقف على خشيبات ورقية يشد بعضها بعضا على شكل تشبيكات هندسية، ويوجد مثل هذا السقف بقبة سيدي أحمد وموسى بدار المدرسة، بضريح مولاي اسماعيل (في مكناس) وفي تونس بدار الحداد ودار عثمان.

2 - السقف المائل

أ - وفق تصميم مربع ونجده بضريح المولى اسماعيل بمكناس وهو سقف بسيط ذي بنية ظاهرة وذي أشكال هندسية مصبوغة، ويتشكل هذا السقف بواسطة أربعة قوائم توضع بشكل تقريبا أفقي في الأركان لتلتقي في الأعلى مشكلة تربيعة هندسية (بساط) وبين هذه القوائم تتشكل الروافد (الكايزة) والتي توضع فوقها الورقات، وهو بالتالي سقف مقبب خفيف وسهل التركيب.

ب - وفق تصميم مستطيل ويتشكل بواسطة أربعة قوائم توضع في كل ركن

لتلتقي في الأعلى مشكلة بساطا مستطيلا (جفنة) وبين القوائم توضع الروافد الصغرى (الكايزة) والتي تغطي بعد ذلك بالورقة. ولتقوية هذا الصنف من السقف غالبا ماتوضع أعمدة خشبية بشكل عرضي فوق السور على شاكلة السقف المستوي. ونجد مثل هذا السقف في مكناس بمسجد لالة عودة، بيت الصلاة بدار المدرسة، قصر المنشة وفي تونس بدار المرابط.

ج ـ *وفق تصميم ثماني الأضلاع* وهو نوعين الأول تكون فيه الأعمدة ظاهرة وتتشكل بدقة متناهية حيث الروافد (الكايزة) الملونة تتركب حسب ذوق بسيط مزدوج أو متناوب، ويظهر في الأعلى قبة صغيرة محاطة بأشكال هندسية متناسقة مع الروافد. أما النوع الثاني فيتخذ شكل عطاء من الورقات الملتصقة بواسطة قوائم غير ظاهرة وضعت في مختلف الأركان. ذلك أن تركيب هذا النوع من السقف يقتضي الإنطلاق من تصميم مستطيل لنصل إلى تصميم مربع ثم أخيرا التصميم الثماني الزوايا فيظهر بذلك التصميم على شكل جفنة مزينة بأشكال هندسية منقوشة ومصبوغة.

هذا الصنف من السقف نجده خاصة بدار المدرسة (دار السلطان وقبة الباهية) وبدار المحنشة (الرياض).

3 ـ السقف المقبب :

أ ـ *وفق أضلاع* وهو نوعان الأول تكون فيه الأضلاع متشابكة على شكل نصف برتقالة وخير مثال على هذا النوع قبة الغرفتين الجانبيتين للمدرسة البوعنانية. الشكل الثاني يتخذ شكل جفنة ذات مساحة دائرية. وتتكل هذه القبب فوق تصميم عمودي مزين بتشبيكات من 96 ضلع مجمعة بشكل ثنائي لتلتقي في القمة. الأضلاع المزدوجة تحافظ على نفس المسافة من القاعة إلى القمة مما يجعلها تتشابك ابتداء من ثلث ارتفاعها، هذا الصنف من القبب نجدها بضريح مولاي الحسن بقصر المحنشة (مكناس).

ب ـ *وفق عطاء* : ويتشكل على شكل جفنة دائرية مكونة من 12 إلى 16 جوانب مشكلة صحنا عموديا مشدد بقبة. هذه الأخيرة توضع فوق تصميم نجمي وتزين "بالمقارنة" التشبيكات الهندسية المصبوغة أو المنقوشة تغطي القبة كاملة. وخير مثال على هذا النوع القبة التي تغطي الغرفة الجنائزية بضريح مولاي اسماعيل بمكناس.

الأشكال الهندسية المستعملة في سقف العمارة العلوية*

1 ـ **الأشكال الهندسية المصبوغة** : وتهم السقوف المستوية بصفة خاصة وهي أشكال متنوعة يمكن تصنيفها إلى :

* *الأشكال الهندسية البسيطة* : وتستعمل في الواجهات السفلى وفي بعض المرات على الواجهات الجانبية، وهي قبل كل شيء تتناوب مابين الأشكال البسيطة المتمددة مثل خاصة الشكل المسدس الأضلاع مصحوبا أو غير مصحوب بنقط وبين الأشكال البسيطة المتقطعة مثل المربع أو المثمن الزوايا، وتتوزع باقي الأشكال مابين تتابع أشكال أفقية أو حلزونية ومابين تطابق منحنيات أو تتناوب أشكال أفقية ومعينات وكل هذه الأشكال مستوحات من الهندسة الأمازيغية بالأطلس المتوسط.

* *الأشكال الهندسية المركبة* : ونجدها على الواجهات السفلى وغالبا على الواجهات الجانبية وفي الزوايا. وتتمثل هذه الأشكال في تشبيكات مستوية داخل تركيبات مغلقة (تربيعة) في تشبيكات مستوية ومنحنية والمتناسقة مع قويسات وضفائر ... وتشبيكات منحنية مثل الدائرة الثمانية الزوايا والمرتبطة بمربع على شكل خاتم.

* *الأشكال الزهرية* : وهي ذات صباغة متنوعة بجدب إليها انظار المشاهد. وهذه الأشكال ذات الأصل التركي تتكون من أربعة أصناف كبرى وهي : زهرة النسرين، الوردة، زهرة القرنفل وزهرة الزئبق وتستعمل هذه الأشكال عموما في الأماكن المتميزة.

* *الأشكال الهندسية ذات الأصل الزهري* : وتستعمل في التركيبات المغلقة المزينة بتشبيكات من نخيلات متمددة ومن أغصان ومن براعم. ونظرا للتداخل بين الأشكال الهندسية والزهرية في هذا الصنف فإنه من الممكن إرجاع أصله إلى تركيا.

صفوة القول أن الأشكال الهندسية المصبوغة المستعملة في سقف العمارة العلوية تتكون إذن من أشكال أندلسية مغربية قديمة ومن أشكال هندسية بسيطة ذات أصل أمازيغي محلي (الأطلس المتوسط)، ومن أشكال زهرية مستوحاة من الأشكال التركية ومن الأشكال الهندسية المركبة وخصوصا التشبيكات المستوية والتشبيكات المنحنية داخل تركيبات مغلقة، فهي تنتمي إلى الأشكال العربية العامة الكلاسيكية ومعظم هذه الأشكال ترجع إلى عهود سابقة للعصر العلوي، ومع ذلك فإنه لايمكن انكار ابتكار أشكال جديدة في هذا العصر مثل الأشكال الهندسية البسيطة التي عوضت الحزوز في

الأشكال القديمة وأيضا مثل الأشكال الزهرية، وعموما من الصعب بمكان تأريخ الهندسة المصبوغة ومعرفة أصلها الحقيقي بالرغم من إمكانية تأريخ البناية المستعمل فيها.

2 ـ **الأشكال المنقوشة** : التشبيكات الهندسية : وقاعدته الأساسية التشبيكات المستوية ذات أصل أندلسي مغربي والتي استعملت في مختلف العصور : الموحدي، المريني، السعدي، ثم العلوي ويمكن تمييز ثلاثة أصناف من هذه الأشكال وهي :

* *الأشكال الموحدة أو المجمعة* : وهي أشكال ناتجة عن تجميع لخشيبات منقوشة على شكل نجيمات ثمانية الزوايا والتي تتناوب مع مربعات ومستطيلات متداخلة.

* *الأشكال المجمعة ذات المساحة المقسمة* : وهو شكل هندسي يتكون من خشيبات مجمعة على شكل نجيمات كبيرة ومتشابهة فيما بينها بواسطة نهاية الأضلاع مما ينتج عنه ظهور نجيمات سداسية ونجيمات ثمانية بشكل واضح ومتيمز في هذه الأشكال لم يعمد الصانع إلى تنظيم المساحة وفق قاعدة موحدة كما هو الشأن في الأشكال السالفة الذكر بل إلى تقسيم المساحة الموجودة إلى مربعات متشابهة ثم بتشكيل التشبيكات داخل كل مربع.

* *التشبيكات المنقوشة* : ويتكون من نجيمات كبيرة مكونة من 16 زاوية والتي تتناوب مع أشكال متقاطعة وأيضا من نجيمات صغيرة ثمانية الأضلاع والتي تشكل أشكالا ثانوية.

صفوة القول أن أقدم هذه الأشكال ترجع إلى عهد المولى اسماعيل وقد ميزت القرنين السابع عشر والثامن عشر. التركيبية العامة لهذه الأشكل تتكون من النجمة أو المعينات التي تتشابك فيما بينها لتكون أشكالاموحدة سواء مجمعة أو مقسمة، ومن الملاحظ أن النقوش المكتوبة تبقى منعدمة في هذه الأشكال بخلاف مانجده في تونس خلال نفس الفترة [15].

---

(15) تعريب وتلخيص لمقال M. BARRUCAND

"Structures et décors de charpentes alouites à partir d'exemples de Meknes". in Bulletin d'Archéologie Marocaine. 1978. T. XI. pp 115-154. 24 fig des texte.

المصادر والمراجع المعتمدة

*** ابراهيم حركات**

المغرب عبر التاريخ

الجزء الثالث من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية الدار البيضاء. دار الرشاد الحديثة 1985، 591 صفحة.

*** أبو العباس أحمد بن خالد الناصري**

كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.

الأجزاء 7، 8 و 9 (الدولة العلوية). الدار البيضاء دار الكتاب 1956 (232 ص + 206 + 239 ص).

تحقيق تعليق جعفر ومحمد الناصري

*** أبو العلاء مولاي ادريس بن أبي العباس أحمد الحسني العلوي**

الدرر البهية والبواهر النبوية

الجزء الأول. فاس طبعة حريدة بدون تاريخ الصفحة 169.

*** أبو القاسم الزياني**

الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا

تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي المحمدية مطبعة فضالة 1967.

نشر وزارة الأنباء. 663 صفحة.

*** عبد العزيز بن عبد الله.**

معطيات الحضارة العربية

الرباط دار الكتب المغربية الجزء الأول 1968 (ص 208).

*** عبد الكريم الفيلالي**

التاريخ المغربي

الرباط. مطبعة الصومعة. دجنبر ص 218.

* **لحسن تاوشيخت :**

دراسة اثنو ـ أثرية لخزف تافيلالت سجلماسة :

اكس أو نبرڤانس (فرنسا) رسالة لنيل الدكتوارة الجامعية في علم الآثار. 1989. 2 أجزاء الجزء الأول : 459 ص.

الجزء الثاني خاص بالصور والبيانات والرسوم

* **ليڤي برشنال : مؤرخو الشرفاء.**

تعريف عبد القادر الخذي. الرباط. بار المغرب للتأليف والرجمة والنشر. 1977. (ص 319).

* **محمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي الملقب بالضعيف**

تاريخ الضعيف الرباطي.

تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان 1043 هـ/1633 ـ 1233 هـ/1819 م.

دارسة وتحقيق الأساذ محمد البوزيدي الشيخي الدار البيضاء. دار الثقافة. الجزء الأول. الطبعة الأولى 1988. (431 هـ).

* **محمد بن محمد بن عبد الله الموقت .**

الإنبساط بتلخيص الإغتباط.

القاهرة مطبعة مصطفى البابلي الحلوي وأولاده.

جمادى 2 ـ 1347 هـ. (ص).

* **محمد بن علي الدكالي .**

الإتحاف الوجيز : تاريخ العدوتين

تحقيق مصطفى بوشعراء. الرباط مطبعة المعرف الجديدة 1986. (ص248).

من منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا

* **مولاي عبد الرحمان ابن زيدان.**

اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس

الجزء الثالث.

الدار البيضاء. مطابع إديال الطبعة 2 ـ 1990 (ص 656)

الصفحات المتعلقة بترجمة سيدي محمد بن عبد الله (148 ـ 366).

BARRUCAND (M)

Structures et décors des charpentes alaouites à partir d'exemples de Meknés"

In Bulletin d'Archéologie Marocaine

Tome XI, 1978

pp 115 - 154, 24 fig des textes.

DASTUGUE (Henri - it - Col)

"Quelques mots au sujet du Tafilalt" et Sijilmassa", in Bulletin de la Société de Géographie. Paris, avril 1867 T. XIII pp. 337 - 380.

3 cartes h. t.

JACQUE MEUNIE (D)

"Abbar, cité royal du Tafilalt" in Hesperis 1959. XLVI. 1 et 2 trimestres. pp 7 - 72 . 12 fig des T et VIII pl. h. t.

LINARES (Fernand)

"voyage au Tafilalet avec SM le Sultan Moulay Hassan en 1893".

in Bulletin de l'Institut d'Hygienne du Maroc, 1932. T. III et IV.

* Juillet - septembre. pp 93 - 116.

* Octobre - décembre. pp 93 - 136.

النهضة الأدبية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

الصادقي العماري
كلية الآداب / فاس

يعتبر أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله (1171 ـ 1204) من أعظم ملوك المغرب، لما امتاز به من خصال، فقد كان متصفا : ببعد النظر وسعة العلم، ومرونة في تصريف أمور الدولة، وغيرة عظيمة على الإسلام والمسلمين، وعمق الإيمان وحب مكين لأمته وشعبه، وهذه الخصال الرفيعة مجتمعة هي التي جعلت كل الفئات والطوائف والجماعات تتعلق به وتعتز، وينال على المستوى الدولي التقدير الفائق لدى دول أوروبا وأميركا علاوة على الدول الإسلامية، ولهذه المزايا كان عهده من العهود الزاهرة في تاريخ المغرب، ولسنا في حاجة للتدليل على ذلك فهو أمر معروف ومشهور سجله المؤرخون على اختلاف انتماءاتهم ودولهم ويمكن الإشارة في عجالة لإكتشاف ذلك وادراكه بيسر، بالنظر إلى سياسته المتسمة بالرصانة والحذق وحسن التصرف، على عدة مستويات وأصعدة :

- على مستوى تحقيق الأمن والإستقرار وتثبيت الوحدة الوطنية
- على المستوى الاقتصادي (الفلاحة والصناعة والتجارة)
- على المستوى الإجتماعي والفكري والعمراني.
- على مستوى العلاقات الخارجية ـ الإسلامية، والأجنبية.

ولم يكن العمل في هذه الواجهات محددا بفترة بل ظل في تواصل وتنام طيلة عهده المبارك الزاهر.

ونظرا للتفاعل القائم بين مختلف مجالات الحياة، فإن مجال الأدب لابد أن يكون متأثرا، ولعل من أقرب مجالات التأثير في الأدب بكيفية مباشرة مجال التعليم، هذا المجال الحيوي الذي يقوم على عدة أسس، من توفير الأساتذة ومايلزم من أبنية وتحديد البرامج والكتب، وتوجيه طلاب العلم إلى مايفيدهم في تكوينهم الفكري والروحي

للمحافظة على شخصيتهم الوطنية ومقوماتها الأصيلة، ولهذا كان اهتمام سيدي محمد بن عبد الله بهذا الميدان الحيوي اهتماما بالغا، ورعى شؤونه رعاية شاملة لكل مايتعلق به ومن ذلك :

- اصلاح برامج التعليم بما يكفل له متانة التكوين ويجنب الطلاب المسالك الوعرة، والجدال الذي لاطائل من ورائه والذي قد يتحول إلى مضيعة للوقت، فقد أراد السلطان بثاقب فكره وبصيرته النافذة، وبعد تتبع لسير التعليم ولقضاياه، أن يكون مفيدا ووظيفيا يخدم الواقع ويتجاوب مع متطلباته الضرورية ويصرف الطالب جهده لتحصيل الأسس والأصول قبل الفروع، وليس معنى هذا حصر مجاله وتقليل مواد الدراسة، ولكنه تنظيم محكم بحيث يتم تحصيل مايعتبر بمثابة القاعدة بكامل العناية والتركيز وماعدا ذلك يترك للقراءة الفردية الحرة، وهذا ماتنحوه المناهج الحديثة إذ تترك فرصة للطلاب يظهروا مواهبهم وقدراتهم، بعد أن يكونوا قد استوعبوا الأسس لتكون دراساتهم الحرة مثمرة لأنها ستتم على قاعدة صلبة ولايخشى على الطلبة من الإفتتان، ومصداق ذلك أن ماأمر السلطان بأن يكون قاعدة التدريس؛ القرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي الشريف والكتب الأصيلة في الفقه واللغة والأدب، فقد جاء في الأمر الموجه إلى القائمين على التعليم مايأتي من مواد الدراسة ؛

1 - الإهتمام بالقرآن الكريم وتفسيره باعتباره المصدر الأول للتشريع والثقافة الإسلامية في مختلف مجالاتها الخلقية والسلوكية واللغوية.

2 - كتب الحديث النبوي الصحيحة ومن أهمها البخاري ومسلم والمسانيد وقد كانت للسلطان رحمه الله مساهمة شخصية في الميدان حيث وضع كتبا في الحديث منها الفتوحات الإلهية الكبرى والصغرى، والجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد، وفتح الباري في اقتطاف ازهار المسانيد لتخريج أحاديث البخاري.

3 - السيرة النبوية ويعتمد في تدريسها على مصنف الكلاعي وهو المعروف بالإكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء والمؤلف لسلمان بن موسى المتوفى عام 634 هـ.

وسيرة ابن سيد الناس اليعمري، وتقرير دراسة السيرة النبوية أمر يعين على معرفة مناسبات الأحكام ومقاصد الآيات والأحاديث، وظروف المجتمع وأحواله في صدر الإسلام.

4 - اللغة والأدب، لقد تفطن السلطان بحكم تضلعه في هذا المجال - على ماتشهد

به الأخبار ـ إلى مايمكن أن يعتبر سبيلا ميسرا لحصول ملكة في اللغة واتقان لقواعدها ومعرفة بأسرار أساليبها إذ لا سبيل لإدراك مقاصد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والنفاذ إلى أسرار التراث والقدرة على التعبير والتأليف في مختلف الميادين بغير اتقان اللغة. ولهذا أشار السلطان إلى أمثلة من الكتب في متن اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنصوص الأدبية، بحيث يكون الإعتماد في النحو والصرف على التسهيل والألفية وغيرهما، وفي البلاغة على الإيضاح للقزويني والمطول للتقتازاني، وفي متن اللغة على القاموس المحيط للفيروزابادي ولسان العرب لإبن منظور وغيرهما، وفي النصوص الأدبية الشعرية والنثرية على دواوين الشعراء الستة وعلى مقامات الحريري.

5 ـ دراسة الفقه والعقيدة يعتمد على دراسة "المدونة" وهي برواية العلامة سحنون عن عبد الرحمن بن القاسم المتوفى سنة 191 هـ و "البيان والتحصيل" لابن رشد الجد والكتاب شرح "للمستخرجة" وهي المعروفة بالعتبية نسبة لأبي عبد محمد بن أحمد العتبي المتوفى سنة 255 هـ وأيضا "المقدمات الممهدات" وهي بمثابة مدخل للمدونة والكتاب لابن رشد لجد والنوادر والرسالة والعقيدة لأبي زيد القيرواني وغير هذه من كتب الفقه، وهذا التعيين موجه للقائمين بالتدريس في القرويين ولما يتبعها من الفروع ومرافق التدريس، ويعتبر هذا التوجيه المنهجي أول عمل إصلاحي للتعليم بعد أن لاحظ العاهل ماران عليه من ركود.

وبالإضافة إلى ماسبق فقد وضع برنامجا تربويا غاية في الوضوح استخلصه من سيره للواقع التعليمي لا في مرحلته المتوسطة والعليا، ولكن أيضا في مرحلته الأولية وقدم لهذا الغرض توجيهات عملية مفيدة للمعلمين توافق في كثير من جوانبها مايعتبر اليوم من النظريات التربوية الحديثة في كتاب وضعه وهو "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان" ومما يشتشف منه أن تراعى في التلقين العناية بالضروريات مع التدرج في مواد التدريس وتشجيع ذوي المواهب ومن أقواله يتضح ذلك حيث ذكر مايأتي :

"فلما كان اعتناء طلبة الوقت بحفظ القرآن والتفنن في قراءته بالروايات واهما لهم مافرض الله على الأعيان ومايدان به من علم العبادات والإعتقادات ... وقد طال اختباري ومشافهتي لمشاهير الحفاظ المسلم لهم في قراءة المكي والسبع وضبط الروايات والألفاظ فالفيتهم جاهلين وخصوصا، أهل البوادي ـ بأحكام الطهارة والصلاة لإعراضهم عن تعلم واجب ذلك وإكبابهم على ضبط طرق الرواة، فكم من إمام منهم لايعرف

ماتصح به الطهارة ولامبطلات الصلاة ولا أحكام السهو وأطواره ..." إلى أن يقول "حملني ذلك لما انطوى عليه الفؤاد من حب النصح للمسلمين ـ أن أجمع لهم مسائل مهمات في علم أمور الدين قريبة المقاصد، شهيرة الموارد ليسهل حفظها على الصبيان"[1].

ومما يتبع هذا الجانب ويتصل به صلة وثيقة اكثاره - رحمه الله - من بناء المدارس والمعاهد في مختلف الجهات أو إصلاحها وترميمها، ثم كثرة ماتم وقفه من كتب، وتكفي الإشارة إلى أنه أوقف اثني عشر ألف كتاب من أمهات الكتب كانت في خزانة جده المقدس مولاي اسماعيل، ومن جهة أخرى فقد حارب الفرق والزوايا الضالة التي ترسخ الخرافة وتتنكب عن الجادة وتبث الفتنة وتعكر صفاء العقيدة والفكر [2].

هذه صورة مجملة للأرضية التي هيأت لأزدهار الحركة الفكرية ومنها الأدب واللغة، ويمكن ابراز عوامل الإزدهار الأدبي في العناصر الآتية :

1 ـماينعم به المغرب من أمن واستقرار وانعاش اقتصادي

2 ـ الإهتمام بشؤون التعليم وتأسيس المدارس و ترميمها

3 ـ نسخ الكتب ووقفها على مختلف الخزانات بوفرة

4 ـ تشجيع السلطان لحملة العلم وللمؤلفين وعنايته بالكتاب والشعراء، وتقديم الجوائز السنية والعطايا السخية. وعقده للمجالس العلمية مما يشجع طلاب العلم للإنكباب على الدرس والتحصيل والإنتاج العلمي المفيد الرصين.

ومما أثر عن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أنه كان أكثرتعلقا بالأدب والأخبار والتاريخ خاصة منذ أن كان خليفة لأبيه بمراكش ومن الكتب الأثيرة عنده " مناهل الصفا" للفشتالي و "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، ولهذا شهادة أبي القاسم الزياني الذي لاحظ عن كثب مدى تضلع السلطان في هذا الميدان حيث يقول : "... ولع بسرد كتب التاريخ والأدب إلى أن تملى منها، وكاد أن يحفظ مافي كتاب الأغاني من كلام العرب وأشعارها ونوادرها، وأشعار المولدين وشعراء الإسلام ..." [3] ومن جهة أخرى فإن السلطان قد وضع كتابا جمع فيه ما ا ستحسنه من نصوص أدبية تدل دلالة واضحة

---

(1) الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله للحسن العبادي، مؤسسة بنشرة، الدار البيضاء، دون تاريخ، ص : 220

(2) الاستقصا، لأحمد الناصري ج 8، دار الكتاب الدار البيضاء دون تاريخ، ص : 66 ـ 70

(3) الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني تحقيق عبد الكريم الفيلالي نشر وزارة الأنباء، المغرب 1967، ص 63.

على خبرته وكمال ذوقه وسماه "ترويح القلوب" وهو مازال مخطوطا، ومن الأدلة الثابتة على رسوخ قدمه في المجال الأدبي والمعرفة العميقة بأسرار الصناعة الشعرية ماذكره كاتبه عبد القادر السلاوي وهو الذي كلفه السلطان بتلخيص وترتيب كتاب الأغاني حيث يقول : "كان سيدي محمد بن عبد الله شغف بهذا الكتاب شغف جميل ببثينة، وغيلان بمي وكثير بعزة، فحاز من علومه الفاخرة أكمل حظ وأوفر نصيب فأحاط به علما، واستولى على جواهره الحسان حفظا وفهما، وأحرزها على التمام نثرا ونظما" [4] وهذه شهادة ناطقة لايعوزها التوضيح، وتكليف كاتبه بهذه المهمة في حد ذاتها دليل قاطع على تعلقه بالأدب وطول باعه فيه.

ومن مظاهر عنايته بالأدب وتعلقه به أن حديثه في مجالسه كثيرا ماكان يصحبه بالأشعار والأمثال والأقوال المأثورة، من ذلك أنه إذا وجه أحدا في مأمورية وكان ذا حزم ينشد قول ابن دريد:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنى

وقال أيضا مخاطبا بعض علماء فاس :

جسمي معي غيرأن الروح عندكم ... ياعجبا لافتراق الروح والبدن

فأجابه العلامة التودي ابن سودة

نفسي وأهلي وماجمعت من نشب ... هي الفداء لذاك القلب من شجن [5]

ولم يكن مجلسه يخلو من الأدباء والعلماء في كل الظروف.

وهناك جانب آخر لافت للنظر يتعلق بتشجيعه لنسخ الكتب واستجلابها في أي مكان وجدت، ومن ذلك أنه استخلص كثيرا من الكتب التي وقعت بيد الإسبان كما فك الأسرى. يقول الغزال في رحلته نتيجة الاجتهاد : "... بعد أن قدمنا الثلاثمائة إلا عشرة من الأسارى المسرحين على يد سيدنا الكريمة رجالا ونساء وجعلنا على رأس كل واحد من الأسارى كتابا من كتب الإسلام التي أنقذها الله من بلاد الكفار ببركة مولانا المنصور بالله، المتخلفة من عمار العدوة من المسلمين فيما سلف ..." [6] وأمر بتأليف

(4) المرجع رقم 1. ص 67

(5) مجالس الانبساط لمحمد بن علي دنية، مطابع الإتقان الرباط، 1986، ص 124، وقارن بالمرجع رقم 1 ص 67 - 68

(6) نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد بن المهدي الغزال تحقيق اسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1980، ص 229.

عدد من الكتب ومنها كتب الأدب كرحلة الغزال السالفة الذكر ورحلتي المكناسي الإكسير في فكاك الأسير" و "إحراز المعلى والرقيب ..." أما رحلته الثالثة فلم يذكر الأمر المولوي في وضعها، وهي "البدر السافر في افتكاك الأسارى" وسيأتي الحديث عنها [7]، وكذلك أمره باختصار وترتيب كتاب الأغاني.

هذه بصورة إجمالية أهم المظاهر وكذلك العوامل التي أفضت إلى إحداث نهضة علمية وأدبية ذات شأن عظيم في تاريخ الأدب المغربي.

ويبدو أنه من اللازم تقديم صورة في شكل عناصر للواقع الأدبي في عهده قبل ايراد تفصيلات عنها :

أولا : هناك عدد وافر من الأدباء والعلماء الذين يعتبرون من حملة مشعل الأدب في عهده، وخصوصا إذا أدخلنا في الإعتبار الذين أدركوا ولو سنوات معدودة من عهده أو الذين عاشوا فيه وامتد بهم العمر إلى مابعد عهده، وهؤلاء غالبا ماتم تكوينهم الثقافي في ظلال ذلك العهد وفي إطار ماتوفر فيه من وسائل وإمكانات، ومما يجب التنبيه إليه أن الأدب المغربي ظل موصولا عبر تاريخه منذ رسوخ العربية بهذه الديار واعتناق أهلها للعقيدة الإسلامية، فقد يصاب أحيانا بركود ولكن لايفتأ أن يعود إلى مجراه، ويمتاز أدباء عهد سيدي محمد بن عبد الله - وكما هو حال ادباء المغرب - بشمولية المعرفة وعمق المشاركة في مختلف العلوم والفنون وان ظهر الإنصراف أو العناية ببعض الميادين العلمية أكثر من غيرها.

ومن أهم وأبرز الأدباء الذين لهم مساهمات بقيت إلى الآن في أكثرها ومنها ماهو مطبوع ومنها مابقي مخطوطا، وقد تكشف الأيام عما بقي مجهولا أو ضائعا.. من هؤلاء [8].

1 - أبو العباس أحمد بن عبد العزيز، السجلماسي (1113 هـ - 1175 هـ) من مواليد سجلماسة وأدرك عهد سيدي محمد بن عبد الله، بدأ تعلمه ببلدته تم واصل تعليمه في فاس على جلة علماء ذلك الوقت ثم عاد إلى بلدته ليضطلع بمهمة التدريس، حتى وافاه الأجل المحتوم ويكفي أن يعتبر من أبرز العلماء لما سأل سيدي محمد عن أكابر علماء عهده، وسنتعرض لبعض انتاجاته.

(7) المرجع نفسه، ص 45، وكذلك الاكسير في فكاك الأسير لابن عثمان المكناسي، تحقيق محمد الفاسي نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، مقدمة المؤلف.

(8) الحياة الإدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 1، 1977، ص 281 - 384.

2 ـ محمد الفاسي ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد (1118 هـ/ 1179 هـ) من العلماء المشاركين، له بروز في التراجم.

3 ـ أبو زيد عبد الرحمن بن ادريس المنجرة (1111 هـ ـ 1179) له مساهمة في مجال الأدب، شرح دالية محمد بن المبارك السجلماسي وهي في القراءات وتعاليق على نظم ابن غازى والمرادي في النحو.

4 ـ محمد المعطي بن محمد الصالح الشرقاوي (توفي 1180 هـ) من الذين غلب عليهم التصوف الطرقي اشتهر بكتابه الضخم في السيرة النبوية "ذخيرة الغني والمحتاج في صاحب اللواء والتاج" ويمتاز هذا الكتاب بأسلوبه الأدبي

5 ـ أبو مدين بن أحمد الفاسي (1112 هـ ـ 1181 هـ)، من الأدباء البارعين زيادة على تعمقه في العلوم الإسلامية من أشهر آثاره الأدبية "المحكم في الأمثال والحكم" و"تحفة الأريب ونزهة اللبيب" و"مجموع الظرف، وجامع الطرف"، وشرح "رائية الشريشي ذات الرؤية الصوفية".

6 ـ أبو العباس أحمد بن محمد ـ المعروف بابن الونان (توفي 1187) وهو صاحب القصيدة المعروفة بالشمقمقية التي ذاع صيتها وصارت من القصائد التي يوصي بدراستها وحفظها لما اشتملت عليه من إشارات تاريخية وأمثال حكمية ومتن لغوي عميق وبها مدح السلطان سيدي محمد بن عبد الله (تناولها الناصري بشرح مسهب على الطريقة التقليدية، وأخرجها الأستاذ العلامة عبد الله كنون مع تعاليق وشروح لغوية. كما تناولها بشكل معمق وبطريقة حديثة الدكتور العربي الحمداوي).

7 ـ أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري (1124 ـ 1187)

اشتهر بكتابه التقاط الدرر(الذي حققه تحقيقا معمقا مع تقديم ودراسة في غاية التنظيم والإجادة الأستاذ هاشم العلوي القاسمي) وكذلك اشتهر بكتابه نشر المثاني الذي يعتبر تفصيلا لكتابه السابق.

وقد أورد المؤلف في الكتابين كثيرا من تراجم الأدباء وإشارات تلقي أضواء على الحياة الأدبية.

8 ـ أبو حفص عمر بن عبد الله الفاسي (1125 ـ 1188) من العلماء إلا أنه اشتهر في المجال الأدبي بقدرته اللغوية حيث شرح منظومات : ابن فرج الاشبيلي في المصطلح، وابن عاصم "تحفة الأحكام" ولامية الزقاق وله قصيدة ذائعة على غرار لامية العجم.

9 ـ أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال (توفي 1191) من رجال الدولة في عهد السلطان سيدي محمد. وكاتب فن الرحلات وبارع في نظم الشعر. تولى مهام السفارة يمتاز بأسلوبه الأدبي له رحلة "نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد"، والنور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل ورسائل ومدائح في السلطان.

10 ـ أبو عبد الله محمد التاودي بن سودة المعروف بالتاودي ابن سودة (توفي 1209) من العلماء الأجلاء له حضور في المجال اللغوي والأدبي من شروح كشرح منظومة الزقاق وتحفة ابن عاصم، وبعض المقطوعات الشعرية.

11 ـ محمد ابن عثمان المكناسي (المتوفى 1213 و1214)

من رجال الدولة إذ كان أحد السفراء للسلطان بعد أن شغل مدة منصب الكتابة، يعتبر من الأدباء البارعين نثرا وشعرا. وضع ثلاث رحلات "الأكسير في فكاك الأسير" و"البدر السافر..." و "إحراز المعلى والرقيب" علاوة عن رسائل وأشعار أورد مقطوعات منها في ثنايا رحلاته.

12 ـ أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي (1130 هـ ـ 1214) من العلماء المشاركين المتضلعين في ألوان المعرفة له اسهام في مجال اللغة حيث ألف شرحا للامية الأفعال لإبن مالك ونظم فهرسته، وشرح دالية ابن المبارك الوراق (في القراءات).

13 ـ أبو عبد الله محمد الطيب ابن كيران (1172 ـ 1227)

من الذين تيسر لهم التكوين الثقافي في عهد سيدي محمد بن عبد الله وامتد به العمر، متنوع الثقافة كثير الإنتاج اشتهر في الميدان اللغوي بمنظومته في "الإستعارة والمجاز" وشرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث، ورسالة في لو الشرطية...

14 ـ من العلماء الذين اتيح لهم أن يتصلوا بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله وبمولاي سليمان وقد أتيح له أن يتبحر في علوم شتى ويكتسب براعة في النظم، إذ نظم السيرة النبوية مع شرحه لها حظي ديوانه الشعري الخاص بمدائح مولاي سليمان بدراسة وتحقيق دقيق من الأستاذ أحمد العراقي مودع بخزانة كلية الآداب بفاس، هذا العالم هو حمدون ابن الحاج (1174 ـ 1232).

هذه طائفة من أعلام الأدب والفكر الذين يعتبرون من أبرز الشخصيات إذ ليس القصد في هذا العرض استيفاء كل ذوي الحضور الأدبي وإنما الغاية المتوخاة تقديم ملامح عامة. وإن من نافلة القول أن نؤكد أن كل علم من هؤلاء قد يضيق بحث

بكامله على استيعاب كل جوانبه، ولعل مما يبعث على الارتياح أن نرى طلبتنا الباحثين الجادين يتسنمون هذه الذروة مهما تجشموا من صعوبات ويبذلون قصارى جهودهم لإحياء هذا التراث المجيد الذي يعتبر بحق إحدى مفاخر هذا الوطن.

وسنذكر في ثنايا هذا نتفا من انتاج بعض الأعلام ممن لم يرد ذكرهم في المسرد السالف.

ثانيا : في هذا القسم من العرض بيان لأهم الأنواع الأدبية السائدة، وتجب المبادرة إلى القول بأن لكل عصر أنواعه الأدبية التي تقتضيها ظروف ذلك العصر، وتتجاوب مع متطلباته وأوضاعه الثقافية والفكرية والذوقية، فظهور باب أو غرض من أغراض الشعر وبروزه، إنما ذلك لعوامل خاصة ومتداخلة وليس أمرا اعتباطيا، وكذلك سيادة أنماط نثرية كالمقامة أو الرسالة أو غيرهما، ووجود ميل لأساليب ذات طوابع فنية خاصة، إنما ذلك للأسباب نفسها، وخير مايجلو لنا هذه النظرية إذا ماتساءلنا عن أسباب ظهور الفهارس (و نقصد فهارس) الشيوخ واختفائها الآن أو تحولها إلى نوع أدبي احتضن مضمونها وهو السير الذاتية، وأيضا لماذا لم توجد الأنواع القصصية على حال ماهي عليه اليوم، ولماذا تحول الشعر أسلوبا وبناء ومضمونا إلى ماصار عليه في وقتنا الحالي ؟

أوردنا كل هذه التوضيحات حتى لايأخذنا العجب إذا ما أدخلنا في إطار الأدب بعض الإنتاجات التي قد تبدو للبعض خارجة عنه، ولكنها في الواقع تعتبر من صميمه لعدة اعتبارات منها أنها غالبا ماتكتب بأسلوب لانتردد بأن نصفه بأنه أسلوب أدبي تتجلى فيه خصائص الأدبية بما تتضمنه من إيحائية وتصوير، ونخلص إلى القول بأن الأدب في عهد سيدي محمد بن عبد الله وإن كان لايخرج عن قسميه أو فرعيه الشعر والنثر ومايتصل بهما من شرح وتفسير إلا أن له طوابع خاصة ومضامين معينة مستمدة من قضايا الواقع ووليدة قدرات مبدعيه ومتجاوبة مع تطلعات وأذواق متلقيه، ونورد فيما يأتي بعض التفاصيل والمقتطفات والإشارات عن الشعر بألوانه وأبوابه وعن النثر بأجناسه الفني والتأليفي ومايتصل بالشعر والنثر من شروح وقواعد وتراجم وسير وفهارس.

1 ـ الشعر

لا عجب إذا ماأدركنا قوة الوشائج التي تربط الإنسان بالشعر منذ أقدم العصور إلى الآن. وذلك لما له من وظائف جمالية ونفسية ونفعية، في حالتي السلم والحرب أو

الرخاء والشدة والحرج في حالتي الضيق والفرج، أو الحزن والإنشراح أو التذكر واستشراف المستقبل أو الندم والإعتزاز والخيبة والرجاء والتأمل والإستيطان وغير هذا من المشاعر والأحاسيس.

وبناء على كون الشعر ذي طوابع خاصة حسب حمولته التي يهيمن عليها الإحساس العاطفي أو التأمل العقلي، وبعد إمعان النظر في مجموعة من النصوص في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بدا لنا أن شعر ذلك العهد يمكن أن يسلك ويصنف في نطاق هذا التقسيم.

أ - الشعر الوجداني المعبر عن المشاعر الذاتية أو الجماعية وله أبواب كالمديح النابع من صدق المشاعر، والغزل ووصف الطبيعة ومايمت إلى هذه الأبواب بصلة.

ب ـ الشعر العقلي أو الموضوعي وأهم مقاصده الحكم وإصدار التوجيهات، وسبك النصائح، وواضح أنه يخاطب العقل بالدرجة الأولى، ويتوسل إلى ذلك بضروب من الإقناع ونقل الوقائع واستعراض العبر.

جـ ـ الشعر التعليمي أو بالأحرى النظم التعليمي وهو في الواقع ليس له من مقومات الشعر غير الإيقاع الوزني، وهذا النوع شاع شيوعا واسعا واتخذ لنظم مختلف العلوم لتسهيل حفظ القواعد والمصطلحات.

وفيما يأتي بعض الأمثلة لكل نوع من الأنواع السابقة متوخين الإيجاز والإقتصار على النصوص الدالة.

أ ـ الشعر الوجداني

من هذا الشعر نورد الأبيات الآتية المعبرة عن تلقائية المشاعر وهي لأبي العباس أحد بن الرضى ابن عثمان المكناسي، توفي حوالي 1208 هـ يستعرض ماعلق بنفسه من ذكريات قضاها في كنف الطبيعة الوارفة الظلال ذات الجمال الرائع الأخاذ، ومعه رفقه يلذ بهم الإنس ويعذب المجلس، يقول

لهفي على تلك العشايا التي	قضيتها تحت وريف الظلال
مابين أزهار زهت بالـرذا	ذ أو بين أنهار جرت بالزلال
والورق في الأوراق راقصة	وجامات الراح براح العزال
قد أودعت في خده لونها	وأثرت رقتها في الشمال

وأكسبت ألحاظه فعلها وطعمها المرشف عن النوال

لازالت في سكر لواحظه فكيف أقوى سكر بنت الدوال (9)

وفي الغرض نفسه نجد أبياتا لأحمد بن المهني الغزال صاحب الرحلة المشهورة نتيجة الإجتهاد، وقد تقدم ذكره يقول :

سلا بانة الجرعاء هل جادها القطر وهل أمرعت أجزاع ساحتها الغر

وهل نسجت أيدي الحيا بروضها برودا لها من كف راقمها نشر

فيالك روضا من بكاء غمامة تبسم من أثغار أكمامه الزهر

كأن به الأدواح تهتز نضرة عرائس تزهو فوقها حلل خضر

كأن بها ورق الحمائم سجعا قيان لها في صوغ ألحانها جهر

كأن ثغور الأقحوان مباسم تناسق فيها تحت قانئها در (10)

هذه الأبيات هي في الأصل مطلع لقصيدة مدح بها الشاعر الكاتب السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وعادة اتخاذ الطبيعة أو الغزل مفتتحا سنة دأب عليها الشعراء، والقصيدة متينة اللغة جيدة السبك زاخرة بالصور البلاغية مما يدل على حسن استيعاب وتضلع ومعرفة بالموروث الشعري وتمثله.

ومن الشعر الذي يجاور وصف الطبيعة هذه الأبيات لحمدون ابن الحاج يعبر عن شوقه متغزلا.

زارت سليمى فهات الكأس ساقينا ولا عليك فرب العرش واقينا

مرت على غفلة منها فعم بها نور ونشر كأنه مسك دارينا

فقلت ياربة القرط الخفوق إذا لم تسعفينا محبة فداوينا

لاتنسين عهودا بيننا سلفت تؤكد الود إنا غيرناسينا

ويلاحظ مدى الانسيابية والسلاسة وحسن الإيقاع مما يدل على حسن طبع وتلقائية المشاعر.

---

(9) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن تاويت دار الثقافة ، الدار البيضاء، ج 3. ص 868

(10) المرجع نفسه، ص 866 - 867.

ومن شعر المديح هذه الأبيات التي مدح بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، حيث أنه أثار إعجاب شعراء عصره نظرا لخصاله وشيمه في العلم والسياسة وعلو الهمة، وهذا الباب لايتأتى لنا تتبعه في هذا الغرض نظرا لكونه بحرا زاخر يحتاج إلى أبحاث خاصة.

هنئا لنا جاء السرور المؤيد ... وشام ضياء الفجر من كان يرصد
وأقبلت البشرى يقينا لربعنا ... بطلعة مولانا السعيدة نسعد
شريف منيف شامخ المجد فاضل ... إمام همام بالإله مؤيد
له عنت الأبطال من كل وجهة ... وحازضروب الفخر سيدي محمد
فأكرم به من سيد متبتل ... له في مدى الأزمان عز مخلد
سليل امام الغرب محي بلادنا ... وملجؤنا فهو الإمام المسدد
فلا زال مولانا إماما معظما ... ولازال كهفا في النوازل يقصد
أتيتك يامغنى الفضائل كلها ... ويامن له الفخر الأثيل المسرمد

* * *

وكيف وأنتم من سلالة هاشم ... وفي يدكم غضب صقيل مهند
ولا غرو أن من دنا لحماكم ... يعمه فضل من الإله مجدد
أيا ابن رسول الله أنت ملاذنا ... وعمدتنا إذ أنت للناس مقصد[11]

إنها أبيات في غاية التعبير التلقائي، ومن شأنها أن تميط اللثام عن بعض فضائل ذلك الإمام الرفيع المقام بما منحه الله من مزايا فكان أن متع الله بوجوده البلاد والعباد وصار عهده المجيد جوهرة من جواهر عقد الدولة العلوية الشريفة الخالدة.

وفي هذا الباب أيضا نجد الأبيات الآتية لأحمد بن المهدي الغزال السالف الذكر، يمدح فيها السلطان، وهي من القصيدة التي سبق عرض أبيات من مطلعها :

إمام له في باذخ العز رتبة ... تقاصر عنها الوهم والوصف والحصر
تسامى على سامي السماك مكانها ... وصار إلى عليائها يخضع الدهر

---

(11) مجالس الانبساط، ص : 126

تذل لها الآساد في آجامها ... وترتاع في أغمادها القضب البتر
تزلزل أهل الشرك منها وأذعنوا ... وعم على آفاق أجناسهم قهر
وصاروا عبيدا من مهابة بأسها ... ولم ينجهم في الأرض بر ولا بحر
يؤدون بالإذلال والهون جزية ... يقون بها الأنفاس فهي لهم عمر
ومن لم يرم إعطاءه متكبرا ... يحيق به في الحين من بأسه مكر
كما حاق "بالمهدومة" الخبر جهرة ... وحل بها من سوء أفعالها خسر
تصدى لها فخر الملوك بغزوة ... تزعزع منها الجو والبر والبحر
وصب عليها من بوارق بطشه ... صواعق حتف لايطاق لها سر

لقد كان الشاعر محقا حينما ذكر عجزه لإستيفاء فضائل السلطان ولهذا اقتصر على ذكر بعضها من رفعة مكانته بين ملوك عصره، وكيف يخشاه الأعداء ويخطبون وده ويخضعون لمطالبه، وهذا أمر معروف لامبالغة فيه، ثم خلص لعمله الجليل حيث تم تحرير مدينة الجديدة من يد البرتغال، وقد أسهب المؤرخون في ذكر ذلك الفتح موردين تفاصيله وخطة الحصار وما أتى به من عتاد ويجدر التذكير هنا أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الأدلة على وحدة التراب أن أعدادا من سكان الساقية الحمراء ووادي الذهب وكانوا حوالي خمسمائة قد شاركوا في تحرير الجديدة. كما أورد الضعيف في تاريخه.

ويواصل الشاعر محاولة تعداد بعض مزايا السلطان بقوله :

ومن ذا الذي يلاقي صولة هاشمية ... إذا انتهضت للأمر يسبقها النصر
فيالك من عز تكامل سعده ... ويالك من فتح به سمح الدهر
تقاصر عن إدراكه شأو سابق ... وحاول أن يلقاه فانعكس الأمر
فأخره الرحمن للعادل الرضي ... ليعظم في الأعمال منه له الأجر

إن الفتح يعتبر تاريخيا فتحا عظيما إذ حاول الملوك قبل سيدي محمد ذلك ولكن الله قدر أن يكون على يده الكريمة، وماذلك إلا لما امتاز به من عزم وحزم وتدبير محكم.

وكيف تدانيك الملوك سماحة ... وعزا وفخرا أو يكون لها خطر
ولم لاتفوق الناس مجدا وسؤددا ... وتعنو إلى أوصافك الأنجم الزهر
وأنت سليل المصطفى سيد الورى ... ومن نداه الجم يغترف البحر
ورثت نداه والسجايا وعدله ... وسيرته في الخلق فاكتمل الفخر
فأصبحت للإسلام طود حماية ... وغيثا لأهل الأرض إن نالهم فقر

لقد أجمل الشاعر فأحسن وأجاد فيما اسبغه من أوصاف يشهد عليها التاريخ فليس في عصر سيدي محمد من يدانيه من ملوك المسلمين، ولاغرابة في ذلك فهو فرع من أصل طيب فرع أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرا. كما ورد في الذكر الحكيم، وأعماله لصالح المسلمين أمر ذائع سارت بذكره الركبان فقد سعى دوما لفكاك الأسرى المسلمين على اختلاف بلدانهم وقدم الهدايا للمجاورين بالبيت الحرام، وناصر السنة والجماعة وأحيا ماكاد يندثر من الفضائل وصدق الشاعر إذ قال :

أدام الرحمن ملكك عزه ... وفخرا إلى الإسلام مابعده فخر
وخلد رب العرش أمرك في الورى ... به تسعد الدنيا ويبتهج الدهر [12]

ولو تتبعنا هذا الموضوع وحده لما استطعنا أن نوفيه حقه في هذا العرض الذي توخينا فيه الإيجاز والإشارة الدالة.

وننتقل إلى نوع آخر من المديح وهو ذلك الذي يكون موجها من صديق لآخر أو من طالب لأستاذه مما يمكن أن نعتبره من المدح الأخواني، ومن ذلك أن العلامة أبا العباس أحمد بن عبد الله الغربي الرباطي جاء إلى مدينة آسفي مع تلميذه الفقيه الهاشمي سكلانط وكان معهما أبو حفص عمر الفاسي وتلميذه محمد بن طاهر الهواري، فمدحهم محمد ابن عزوز الأسفي موجها الخطاب ـ كما يبدو ـ إلى أبي العباس الغربي ـ المذكور. يقول [13] :

يامرحبا بالمنصف ... الماجد الخل الصفي
البارع المتصف ... بالعلم والود والوفاء

(12) مجلة دعوة الحق العدد الثالث لسنة 1970، تصدرها وزارة الأوقاف. في المغرب، ص 184 – 186

(13) مجالس الانبساط، ص 106 – 107.

فكم وكم من بكت | أودعها في صحف
الناظم الناثر من | للعارفين يقتفي
البارع المتصف | بالعلم والود الوفي
ياله من بدر سما | في أفق بيت الشرف

إلى آخر ماأورده من أوصاف ذلك العلامة مما يدل على علو كعبه وعمق معرفته، ثم أجاب أبو حفص عمر الفاسي فقال :

لله دركم بني آسفي | فنزيلكم يشفي من الأسف
حان الترحل بعدما الفت | نفسي بوصلكم فيا أسفي
أخلاقكم كالعطر في نفسي | ووجوهكم كالبدر في شرف

وقال أبو عبد الله محمد بن طاهر الهواري

أهلا بأهل أسفي | من كل خل منصف
أكرم بهم من معشر | حازوا الجمال اليوسفي
سادوا الأنام كرما | فمثلهم فلتعرف
إن جئتهم نلت المنى | من غير ماتعرف
أو انتجعت جودهم | فلك مالم يوصف
بلدتهم طيبة | تقضي بنفي الأسف

إلى آخر ماأبدعه من شعر

وقال الهاشمي سكلانط

أهلا بأهل أسفي | الناسخين أسفي
بخلقهم وخلقهم | من صالح ومنصف
وذي وداد خالص | مؤصل من سلف

ويبدو من هذا الشعر أنه صادر عن طبع وسليقة والظاهر أنه كان ارتجالا، ولهذا دلالته عبر ثقافة أدباء ذلك العصر الذين تيسر لهم بما ساد ذلك العصر الزاهر من أجواء فكرية.

ومما يدخل في نطاق المدح، المديح النبوي، وهولون له شأن عظيم أكثر منه شعراء المغرب لتعلقهم الفائق بشخصية الرسول الكريم واعتزازهم بالعقيدة وإيمانهم العميق ومن ذلك هذه الأبيات لأبي عبد الله محمد بن محمد التهامي المعروف بابن عمرو الرباطي، وهو من الذين خصهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمجلسه المنيف، وقد عارض قصيدة ابن الونان الشهيرة بالشمقمقية يقول :

يـاأكـرم الخلـق علـى الله ويـا — شمس الضحى في مغرب ومشرق
يـاخـاتـم الرسـل وسيـد الـورى — يـابهجـة الكـون ونـور الحـدق
ويـازعـيـمـا بالشـفـاعـة إذا — نبذهـا كـل رسـول مشفـق
يـاساقـيا أمتـه مـن حوضـه — فليس يظمـأ فتـى منهـا سقـي
يـاوزر المـذعـور يابحـر العطـا — يـانصـرة المتهـب المختنـق [14]

مهما قيل في الجناب النبوي فإن القول يقصر دونه، ويضيق المجال للإحاطة بمكارمه صلى الله عليه وسلم، والشاعر في ذكره لخصاله ومزاياه وماخصه الله به من فضائل أسمده مما هو ثابت عنه في الأخبار الموثوق بها والتي أجمع عليها كتاب سيرته العطرة من كرم، وعلو الشأن وتفضيل الله له على سائر الخلق وكونه خاتم الأنبياء والرسل، وخصه سبحانه بالشفاعة يوم الحشر وجعله ملجأ كل الناس يوم لاينفع مال ولابنون.

وهذا الباب بحر زاخر لاسبيل لبلوغ الغاية فيه. ولعل أهم مايمكن الخروج به، من خلال تتبع للشعر الوجداني في عهد سيدي محمد بن عبد الله، أنه استوعب مختلف أبواب هذا الشعر من وصف الطبيعة والغزل، والشوق والرثاء. والفخر والمديح وغير هذا مما يثير العواطف ويهز المشاعر، كما يلاحظ من الناحية الفنية أنه شعر يمتاز بصفة عامة بالبعد عن التصنع أو الإغراق فيه إلا ماقد يلاحظ عند بعض الشعراء من ميل لاعتماد الصور البلاغية بكثرة أحيانا، وتخير فصاحة اللفظ وسهولته وشفافية المشاعر وتخير القوافي المناسبة، وعناية عند البعض بالمشوحات.

(14) المنتخبات العبقرية لمحمد السائح المطبعة الرسمية الرباط 1920 ص 99، وله كتاب سوق المهر إلى قافية ابن عمرو، المطبعة الاقتصادية الرباط 1938 وهو مكرس القصيدة ابن عمر التي عارض بها ابن الونان.

ب ـ أما النوع الثاني من الشعر السائد في ذلك العهد فهو الشعر الحكمي والعقلي : الطافح بالتوجيهات والتأملات والدعوة إلى أعمال الفكر في قضايا الحياة ومصير الإنسان، ولعل شعر التصوف والزهد من النوع الذي يتأرجح بين الوجدانية والطابع العقلي حيث نلاحظ العاطفة المشوبة بصدق المشاعر إلى جانب النزعات العقلية، ونشير مجرد إشارة إلى بعض الأمثلة من هذا الشعر، من ذلك قول أبي العباس أحمد بن عبد العزيز السجلماسي.

أيها الإنسان هن من كراك | واصح من السكر الذي اعتراك
إن الرحيل ياأخي قريب | وكلنا مسافر غريب
والموت لايموته غريب | فكيف لايزود الاريب
فياله من سفر ماأطوله | وياله من هائل ماأهوله
كفى بالحمام واعظا لمن عقل | فانظر فكم من قاطن قد انتقل(15)

يلاحظ على هذه الأبيات طابع النظم، وهي تتضمن، كما هو واضح دعوة إلى أن يتأمل الإنسان مصيره الذي لامحالة ايل إليه مهما طال المدى، فلا مندوحة له من أن يتزود بما يكفل له النجاة، ونجد أيضا أبا حفص عمر بن عبد الله الفاسي يبدع قصيدة تعتبر من المطولات ويبدو أن صاحبها متأثر بلامية العجم للطغرائي، من حيث الوزن والروي، ومن حيث الأفكار والمواعظ

يقول :

لا تعتبن على دهر تساء به | فما على الدهر من عتب ومن عذل
واستعن بالله لايغنيك ماجمعت | أيدي الأنام وغير الله لاتسل
وكيف تسأل عبدا لاغناء له | أم كيف تسأل ذا فقر وذا بخل
ماأعتضت عن بذل ماء الوجه من عوض | يوما ولو نلت ماترجوه من أمل
والمال يبذل في الأعراض تالده | فلا تنله بعرض فيه مبتذل

وهكذا يستمر عبر القصيدة في سرد الحكم والأمثال واللجوء إلى عقد الموازنات والمماثلات للإقناع، ويلاحظ أن الشاعر لم يتكلف استعمال الغريب إلا قليلا مما يدل

(15) الحياة الأدبية في المغرب . ص 284، النبوغ ص 820

على وضوح القصد. وأتى الشاعر على ابراز قيمة الفضائل الأخلاقية : الإباء، والتضحية، والصبر، والتواضع، والإعتماد على الله المصحوب بالعمل والسعي الجاد، والإيثار وحب الخير والترفع عن الدنيا والقناعة والتسامح.

والماجد الفخم لاينفك معتقلا	رمح الإباية من سوء ومن خطل
يحمي الذمار ويصمي من يحاربه	ويستقل فلا يلوي على رجل
وليس يلقى على الأثراء ذا بطر	ولامن الفضل في الإفلاس ذا عطل
ملك القناعة لاتنفك إمرته	في ظل عز مديد غير منتقل
فنم به غيرمزؤود ولا وجل	ففي القناعة منجاة من الغيل
وإن سئمت أو استوخت منزلة	فعالج النفس بالترحال والنقل (16)

وهكذا تتوالى نصائح الشاعر على هذا النمط التوجيهي دى النزعة التعليمية، فما أجدر القصيدة أن تقدم للنشىء حتى يتزودوا بهذا الزاد الوفير من الحكم والعبر. من الأدباء العلماء العربي المساري توفي حوالي 1240 هـ ويبدو أنه من الذين تكونوا في عهده سيدي محد بن عبد الله وامتد به العمر إلى التاريخ المذكور، له أرجوزة تعتبر بمثابة سجل يضم توجيهات مختلفة لطلاب العلم في ذلك العصر ومايجب أن يتحلوا به ويسلكوه من نهج لبلوغ القصد، وشهرتها وأهميتها فقد شرحه العلامة أحمد بن المأمون البلغيثي. في كتاب سماه الإبتهاج بنور السراج وهو مطبوع. وهذه الأرجوزة تم نظمها في أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1185، وعنوانها سراج طلاب العلوم في آداب طلب العلم والتعلم والتعليم منها قوله :

إن كنت صاح طالبا للعلم	فاصبر كما صبر أولو العزم
فاصبر على الجوع وقر البرد	في وقته إن لم تكن ذا برد
ولتطلب العلم ولو بالصين	بذا أتى الحديث عن يقين
وخيرة ماكان في حال الصغر	فهو كما قيل كالنقش في الحجر
واعن بحفظ الأمهات جملة	ولتهجر المنام واصرم حبله (17)

فهي اقرب إلى الحديث المباشر لولا مااتخذته من حلة النظم ولعل الناظم راعى فيها أن تكون في متناول المتعلمين وهم في بداية الطريق دون ماحاجة إلى وسيط.

(16) النبوغ المغربي لعبد الله كنون مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني - بيروت . ط. الثانية 1961. ص.830

(17) الحياة الأدبية في المغرب ص 378. والمنتخبات العبقرية ص 80 ، والابتهاج بنور الديباج للبلغيثي.

ومما يجب أن نلفت إليه الإنتباه هذا النوع من الشعر اما أن يكون موجها إلى غير معين كما هو حال ماتقدم من نماذج، وقد يكون موجها إلى شخص بعينه، أي أنه يكون بين الخصوص والعموم. وكمثال على الذي نقصد به شخصا معينا هذا النموذج لسليمان الحوات الذي عاش شطرا من حياته في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله وامتد به العمر إلى عهد مولاي سليمان إذ توفي سنة 1231 هـ يقول الحوات موجها الخطاب إلى أبي عبد الله محمد التاودي بن الطالب ابن سودة ـ 1209 هـ.

قولوا لشيخكم ابن سودة أنـه　　قرب الرحيـل فهـل لـه مـن زاد
عاش القرون وفاز من أيامـه　　بـالمـال والأولاد والأحـفـاد
حتى إذا وفى الرياسة حقهـا　　أمسى الجمام لديه بالمرصاد [18]

فقال له ابن سودة جزاك الله عنا خيرا ذكرتنا ياابن رسول الله

جـ ـ النوع الثالث من الشعر هو النظم التعليمي وإذا جعلناه من أقسام الشعر فلميزة الوزن التي تتوفر فيه وهو كما سبق وجد لنظم قواعد اللغة والقواعد الخاصة بمختلف العلوم تسهيلا لتحصيل مصطلحاتها وقضاياها كما أنه قد تجاوز هذا إلى نظم السير والتراجم والانساب، وبناء على هذا التقسيم فهو أصناف حسب الموضوعات، وتأتي على ذكر نماذج منه مع إشارة إلى مايعتبر هاما.

ـ من منظومات الأنساب، منظومة لعبد الواحد الفاسي، توفي سنة 1213 هـ وهي بعنوان اغاثة اللهفان وسلوة الهموم والأحزان بالقادريين عظام الشان. يقول في مستهلها.

قـــال عبيد الواحـــد الفقيـــر　　فاســي الدعــاء المذنــب الحقيـــر
الحمــــد للإلـــه شـــارح الصـــدور　　بحب أهل البيت أعيان الصـدور [19]

وهذه المنظومة مطبوعة وقرظها الحوات وغيره

وللطيب ابن كيران 1127 هـ منظومة في الإستعارة والمجاز شرحها محمد التهامي الفيلالي البوري، الذي كان من تلاميذ الطيب ابن كيران وقد طبع المتن مع الشرح. يقول في مستهلها :

حمدا لمن ألهمنا بيانــا　　يبين عن أغراضنا تبيانا

---

(18) فهرس الفهارس للكتاني ج 1 - ص 187.
(19) إغاثة اللهفان لعبد الواحد الفاسي ص 3.

ثم صلاته على محمد   أساس كل نعمة وسؤدد
منه استعار كإذن كمال   وهذيه المحاز للمعالي [20]

ولحمدون ابن الحاج مقصورة في علم العروض والقوافي وهي مازالت مخطوطة [21]، وكذلك نظم السيرة النبوية وشرحها [22] .

2 ـ بعد استيفائنا الحديث عن الشعر بأنواعه الثلاثة ننتقل إلى القسم الثاني من الأدب وهو النثر. والنثر كما هو معروف أبرز خاصية فيه تحرره من الوزن الرتيب ومن القافية، وإن كان النثر عموما والفني منه لايخلو من الإيقاع الناتج عن انسجام أصوات الحروف وتوازن المقاطع أو الكلمات ثم إنه أداة للتعبير عن الأفكار، ولهذا نرى النثر لاينضج إلا إذا أخذ مبدعوه بنصيب وافر من مضمار الحضارة والرقي الفكري ـ كما هو معروف في تاريخ الأدب العربي وغيره من آداب الأمم.

ويمكن أن نقسم النثر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الأقسام الآتية

1 ـ النثر الفني، ويضم :

1 ـ الرسائل السلطانية

2 ـ الرسائل الإخوانية

3 ـ الرسائل العامة التي ينشئها الكتاب في قضايا اجتماعية ودينية وسياسية وهي أقرب إلى مايعرف اليوم بفن المقالة، وضمنها يمكن إدخال الخطب وكذلك تقريظ الكتب.

4 ـ الرحلات

ب ـ النثر التأليفي، ويضم :

1 ـ كتابة التراجم والسير والفهارس

2 ـ كتابة التعاليق والشروح الأدبية واختيار النصوص

3 ـ شرح المنظومات على اختلاف موضوعاتها

4 ـ التأليف في قواعد اللغة.

وقد توسعنا في نظرتنا هاته إلى الأنواع النثرية التي يمكن اعتبارها داخلة في نطاق الأدب لعدة أسباب من ذلك :

---

(20) الاستعارة والمجاز شرح البوري مطبعة الحسيمة طنجة. ط 3، 1980 - ص 7–8.

(21) مخطوطة خ. ع. 938 د ضمن مجموع.

(22) الحياة الأدبية في المغرب لمحمد الأخضر، ص 353.

- إن أغلب هذه الأنواع كتبت بأسلوب أدبي يراعى فيه جودة التعبير وانتقاء المفردات، وقد تكثر فيه الصور البلاغية من تشبيهات واستعارات ومجازات وكنايات وضروب المحسنات البديعية.

- إن هذه الأنواع لاتخلو من وجود صلات بينها وبين الشعر أو الأمثال والحكم أو ذكر للأدباء مع الإقتباس من انتاجاتهم.

ولما كان هذا النثر من الوفرة والكثرة اللافتة للنظر، فلا مندوحة من توخي الإيجاز والإكتفاء بالإشارة عن التفصيل المسهب، على أن نتناول ذلك في أبحاث أخرى.

أ - النثر الفني (الإنشائي)

1- الرسائل السلطانية

لايخفى أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان يوجه رسائل إلى جهات مختلفة وفي أغراض شتى، فقد تكون هذه الرسائل موجهة إلى عماله أو إلى قواده أو قضاته أو غيرهم من رجال الدولة وموظفيها وقد تكون موجهة إلى معشر من رعيته، وقد تكون إلى جهات خارجية إما إلى بعض العلماء أو إلى حكام الدول الإسلامية أو الأجنبية. وهي بحق تعتبر وثائق هامة جدا من الناحية التاريخية، ومن الناحية الأدبية نظرا لقيمتها الفنية.

- ومن أمثلة ذلك هذا النموذج من رسالة لسيدي محمد بن عبد الله لتأييد العثمانيين في حروبهم ضد أعدائهم. وهذه الرسالة تدل على مدى غيرة السلطان على الأمة الإسلامية وتضامنه مع قادتها ومن جهة أخرى على نمط الكتابة الرائج وقتذاك ومافيه من طوابع فنية من اختيار التعابير وتناسب التراكيب، وبعد عن التكلف واعتماد على الشواهد المستمدة من القرآن والسنة يقول «الحمد لله، كتابنا هذا اسماه الله يتعرف منه أننا ورد علينا كتاب من عند أخينا السلطان عبد الحميد خان نصره الله وكبراء دولته أخبرنا فيه أن ثلاثة أجناس من أجناس النصارى دمرهم الله - اتفقوا على محاربة المسلمين، خيب الله سعيهم وشتت شملهم ... » [23] إلى اخر ماورد من حيث المسلمين وخاصة المغاربة للدعاء بالنصر وليكونوا على بينة وحذر.

وفيما يأتي مقطع من رسالة وجهها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث، ومعروف أن العلاقات مع اسبانيا كانت تتوتر أحيانا، وتعود أحيانا أخرى إلى حالة من الإنفراج ومايقتضيه حسن الجوار تقول الرسالة : «إلى عظيم اسبانيا، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنكم تعلمون أننا نعيش في سلم وأمان معكم منذ أن وقعنا وإياكم معاهدة الصلح، لكن المسلمين من رعايانا ورعايا داي الجزائر

(23) مجلة دعوة الحق عدد مارس 1969، ص 24.

اتفق رأيهم جميعا على أن يبلغوكم أنهم ضد الاحتلال الإسباني لسواحلهم من سبتة إلى وهران، وأنهم عقدوا العزم على استرجاع ثغورهم، وقد طلبوا مني أن أفكر جديا في الأمر ...» [24] ، إلى آخر ماورد في الرسالة التي يتبين من خلال أسلوبها وضوح القصد، دون تنميق أسلوبي تجنبا لأي لبس ومن الملاحظ أن الرسائل الموجهة إلى الدول الأجنبية يغلب عليها هذا الوصف.

2 - الرسائل الأخوانية

وهي الرسائل التي تتبادل بين شخصين في مختلف الأغراض إما لتهنئة أو مواساة أو حمل بشرى أو طلب معونة أو طلب إعارة كتاب أو اظهار الإعجاب بانجاز ما أو شكر على معروف ومن رسالة للعربي المساري (توفي 1240 هـ) موجهة إلى العلامة عبد الواحد الفاسي (توفي 1213 هـ).

«إلى الهمام الذي أحيا رسم الأدب بعد اندثاره ونظم عقد جواهره بعد انتثاره، البحر الزاخر والذي ارانا سبق الأواخر، الجامع بين جزالة المبنى ورشاقة الألفاظ والمعنى حتى حير العقول ببديع سحره واعجز الفحول بباهر نظمه ونثره ونزه الألباب في الألفاظ المهذبة والمعاني الدقيقة العذبة الذي ببدائع وشي طرازه تتزخرف المحافل وبمديحه في الافاق سارت الرفاق والقوافل، الذي جر ديول النسيان على ذي فصاحة وبيان ...» [25].

من خلال هذا المقطع يتضح مدى التنميق الأسلوبي المتجلي في استعمال الصور البلاغية من استعارات وتشبيهات وسجع وترادف وتتابع الأوصاف : ولهذا دلالة إذ يشتف منه تمكن من اللغة وقدرة على صوغ التراكيب إذ بذلك كانت تقاس كفاءة الأديب إذ لكل عصر مقاييسه، ويبدو طول مطلع الرسالة قبل أن يخلص الكاتب إلى غرضه الذي لابد من التمهيد له بهذه الديباجة المسهبة.

3 - الرسائل العامة والخطب وتقاريظ الكتب

وهذه الأنواع الأدبية كانت رائجة، وخاصة في الأغراض التي كانت تستوجبها الظروف والقضايا الطارئة، ونكتفي بالوقوف وقفة قصيرة على مقتطفين من تقريظين :

- تقريظ منظومة عبد الواحد الفاسي في النسب القادري والمشار إليها ضمن النظم التعليمي «اغاثة اللهفان» وهذا التقريظ لعبد القادر ابن شقرون مؤرخ بأوائل ربيع النبوي سنة 1203. يقول فيه :

---

(24) مجلة البحث العلمي، تصدر عن المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، عدد 39. ص 22.

(25) المنتخبات العبقرية للسائح، ص 79.

«حمدا لمن رفع منار آل بيت الرسول وأنال القائم بحقهم، وأناله غاية السول، والصلاة والسلام على من به سادوا الناس وفاقوا سائر الأنواع والأجناس، هذا وإن الفاضل النبيل الذي تقادم له الشرف جيلا بعد جيل المتحلى من المكارم بأعلاها والمنتقى منها أنفسها وأغلاها والحائز فيها قصب السباق من غير دفاع ولاشقاق المشارك في العلوم منقولا ومعقولا ...» [26].

وهكذا يتوالى التقريظ بعد الثناء على صاحبه والإعلاء من شأنه لينتقل الكاتب إلى موضوع المنظومة يبين مزاياها ويستدل بما رآه مناسبا حسبما يقتضيه المقام، ثم يأتي الختم، حيث يذكر الكاتب اسمه والتاريخ الذي وضع فيه التقريظ، طالبا المغفرة من الله تعالى من افراط أو تقصير.

- وهذا نموذج آخر يبين كيفية عرض مزايا الكتاب، وقد وضعه العربي المساري، يقول بعد ثنائه على المنظومة المذكورة «... فلما سرحت اللحظ في روضه البلبل ومنظره البهي الجميل الفيته نظما سحر به الألباب وفتح به للإعجاب كل فج وباب وأظهر بحكمة آية الإعجاز على الحقيقة دون المجاز، نظم تهذبت مبانيه وحلت في أذواق الأفهام ومعانيه كلما زدته، زادك طلاوة وحسنا وأنساك رونقه رونق البهنانة الحسنا، لله دره لقد كشف الغطا وأجزل العطا ...» [27].

يتبين اجمالا أن التقريظ بيان لمزايا التآليف وإعلاء شأن كتابها، وعرض لموضوعاتها، وأسلوب تراعى فيه الصنعة والتأنق، واعتماد الألوان البلاغية.

4 - الرحلات

عرف الأدب المغربي كثيرا من أدب الرحلات منذ العصر المريني، ويمتاز فن الرحلة بكونه فنا أدبيا تتمازج وتتعدد فيه الأنواع الأدبية فقد تضم الرحلة الرسائل والتراجم والأشعار، ولكن يعتبر النثر المعتمد على السرد والوصف هو عمدتها والغالب عليها، وقد تعددت أنواع الرحلات بالنظر إلى موضوعها والحافز على كتابتها فقد تكون لأجل التجوال والسياحة أو طلب العلم أو الحج أو القيام بمهام السفارة بصفة رسمية، بمعنى أنها قد تكون لغرض أو لعدة أغراض فأكثر الرحلات هي رحلات للسياحة تنتهي إلى أداء فريضة الحج أما رحلات القيام بالسفارة فهي أقل من الرحلات الحجازية.

- رحلة أحمد بن عبد العزيز السجلماسي

- رحلة أبي العباس أحمد بن محمد الفاسي المتوفى سنة 1213 هـ أو 1214 وهي

(26) إغاثة اللهفان وسلوة الهموم والأحزان بالقادريين عظام الشان لعبد الواحد الفاسي. مطبعة الشريف بتونس. ص :23 - 24.

(27) المصدر السابق نفسه ص 22 - 23.

حافلة بتفاصيل عن أصول البلدان التي زارها، وتدل على قوة ملاحظته كما تمتاز بأسلوب واضح، ومع أن هذه كتبت بعد عهد السلطان فإن جل أيام حياته عاشها في ظله، إذ ولد سنة 1166 هـ والرحلة مازالت مخطوطة [28].

– رحلتان لمحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى 1239 أحداهما كبرى وقد وضعها في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والثانية صغرى، سجل في الكبرى رحلته سنة 1196، وهي مخطوطة [29]، والرحلة الثانية كتبت بعد الأولى، ومن جملة ماتتضمنه قصيدة نظمها أمير تونس حمودة باشا مدح فيها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقصيدة أخرى للمرتضى الزبيدة صاحب تاج العروس وهو شرح للقاموس المحيط، والقصيدة في رثاء السلطان المذكور، وهذا يدل على مدى التقدير والإكبار اللذين كان يحظى بهما السلطان سيدي محمد بن عبد الله لدى العلماء والأمراء.

ومن الرحلات السفارية وحلة لأبي العباس أحمد بن المهدي العزال المتوفى 1191، وهي المعروفة باسم «نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد» وقد سجلها الكاتب نتيجة للمهمة السفارية التي قام بها إلى اسبانيا من أجل تبادل الأسرى وفيها تناول مشاهداته من أحوال تلك الديار، ويلاحظ مدى الدقة التي صور بها تحركاته ومشاهداته، ولهذا تعتبر أثرا أدبيا ووثيقة تاريخية بالغة الأهمية، وقد امتدت رحلته ثماينة أشهر كانت وفاته سنة 1179 [30].

– نجد أيضا ثلاث رحلات لأبي عبد الله محمد بن الوهاب المعروف بمحمد ابن عثمان المكناسي المتوفى سنة 1213 هـ تولى مناصب مختلفة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله فقد كان كاتبا وحاكما لتطوان، وقام بمهام السفارة وقد أتاح له هذا المنصب أن يكتب رحلاته الثلاث.

– إحداهما بعنوان «الإكسير في فكاك الأسير» تناول فيها مشاهداته ونتائج سفارته من قبل السلطان إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث سنة 1193، وكانت الغرض من السفارة اطلاق سراح الأسرى الجزائريين لدى اسبانيا، وهذا يظهر بصورة واضحة مدى غيرة السلطان الدينية والإنسانية ورعاية حرمة الجوار، ومن ناحية أخرى تجديد المعاهدة مع اسبانيا لإقرار السلام ومنع الإعتداء، وتمتاز هذه الرحلة بسلاسة أسلوبها لكونها تعتمد على النثر المرسل في الغالب مع دقة في تتبع الموصوف وحرص على ترابط

(28) مخطوطة الخزانة العامة ج 88، انظر دعوة الحق السنة 2 العدد 4 – 1959.

(29) مخطوطة الخزانة الحسنية 5658، وهي بخط الكاتب نفسه.

(30) نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد لأحمد العزال تحقيق اسماعيل العربي دار الغرب الإسلامي بيروت – 1980 مرجع سابق

السرد، دون استطراد ويتضح ذلك من خلال هذه الفقرة عن مدينة مدريد : «هذه المدينة كبيرة غاية في الكبر وضخامة البناء، حاضرة الحواضر ببلاد اصبانية، وبني على ربوة، وببابها وادي مانسنارس زادها حسنا وبهاء، وبهجة وسناء وغرسوا على جانب الوادي الذي من ناحية المدينة أشجارا كثيرة» (31).

- أما الرحلة الثانية للكاتب نفسه، فكان الباعث على القيام بها الإضطلاع بمهمة مماثلة للسابقة في مالطة ونابلي لإطلاق سراح الأسرى المسلمين دون تمييز، وكان ذلك سنة 1196 وكتب مايتعلق بها تحت عنوان «البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر».

ويلاحظ أنه طرأ تغيير في أسلوب الكاتب إذ اكتسب نوعا من الصنعة مع استعمال كثير من الألفاظ الدخيلة، وتمتاز أيضا بدقة الوصف وتتبع تفاصيل الموصوف، وهذه خاصية عامة، وهذا مقطع نستشف منه تلك الخصائص حيث يتحدث عن وصوله هو ومرافقيه إلى مرسى «بلرم» وماحدث لهم في طريقهم : «فقصدنا مرسى صقيلة يقال لها بلرم، سافرنا إليها يوما وليلة وأرسينابها وحللنا في جنابها، فلما أرسينا بالمخاطف، وأمن الوجل والخائف تهادينا بشرى السلامة، وعددنا النجاة من تلك الأهوال كرامة، فأتت إلينا الفلايك من المدنية تستفهم رئيس المركب - على العادة - فأخبرهم أنه من الجنس الفلاني حاملا بشطور المسلمين فرجعوا إلى كبير البلد في الحين، ثم اقبلوا إلينا في الحين مع جماعة من الأعيان فرحين، وقالوا : الحمد لله الذي أقدمك علينا، وأتى بك إلينا، ثم ترادفت أعيان البلد للسلام علينا في المراكب يتزاحمون بالمناكب ...» (32).

في هذا المقطع القصير تتبين لنا كيفية وصفه لمراسم الإستقبال والتقدير الذي ناله السفير وصحبه نظرا لما للسلطان سيدي محمد بن عبد الله من تقدير لدى مختلف الدول المعاصرة له والهيبة التي يتمتع بها.

- أما الرحلة الثالثة للكاتب نفسه فلها ميزة خاصة إذ تعتبر رحلة سفارية وحجازية، تناول فيها مشاهداته أثناء سفارته إلى القسطنطينية لدى السلطان عبد الحميد الثالث من أجل ماأحدثه من اضطراب الجنود الآتراك على الحدود الجزائرية المغربية، وبعد أن أدى الكاتب مهمته قصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وزار القدس والخليل وتبرك بقبر الرسول، والرحلة بعنوان «احراز المعالي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس والخليل والتبرك بقبر الحبيب» (33) وهي مخطوطة.

(31) الأكسير في فكاك الأسير لمحمد ابن عثمان المكناسي تحقيق محمد الفاسي المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط 1965، ص 83.

(32) مخطوطة بالخزانة العامة رقم ح 52 انظر تحليلا لها بمجلة المناهل رقم 10.

(33) مخطوط خ. ع رقم : 5264.

وهذه النماذج من الرحلات فضلا عن قيمتها الأدبية، لها قيمة تاريخية لما تلقيه من أضواء كاشفة على ذلك العصر وخصوصا مايتعلق بالعالم الخارجي والمعاهدات بوجه أخص.

ب - النثر التأليفي

1 - كتابة التراجم والسير والفهارس

نكتفي هنا بما هو موجود منها اما يعتبر مفقودا مع ورود ذكره في المراجع المختلفة فقد أغلقنا ذكره.

- فهر س لعبد الرحمن بن ادريس المنجرة المتوفى سنة 1179، وهو مخطوط (34).

- فهرس لمحمد بن الطيب القادري ويعتبر تلخيصا لما أورده عن نفسه مما يمكن أن يسلك في نطاق التراجم الذاتية في آخر كتابه التقاط الدرر، وللمؤلف نفسه «نشر المثاني، وله أيضا الزهر الباسم في مناقب سيدي الشيخ قاسم وهو مخطوط (35) وله أيضا الاكليل والتاج (36) ويعتبر ذيلا لكفاية المحتاج، وهذا الأخير لأحمد بابا السوداني وهو بدوره استدارك على كتاب ابن فرحون المعروف بالديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (أي مذهب الإمام مالك).

ومن باب الإستطراد القول بأن أحد العلماء المتأخرين المشارقة وهو محمد بن ظافر الموفى سنة 1909 وضع ذيلا لكتاب أحمد بابا أورد فيه تراجم العلماء إلى زمانه وسماه «اليواقيت التمينة في أعيان مذهب عالم المدينة».

- ولأبي القاسم بن سعيد المكناسي المعروف بالعميري فهرس يمتاز بما ورد فيه من نصوص وتسجيلات عن عصره (37).

- ومن التراجم ماسجله احمد بن المهدي الغزال المتوفى 1191 في ترجمته للشيخ محمد بن عيسى السباعي الحسني، دفين مكناس والترجمة بعنوان «النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل» (38).

- ولمحمد المعطي الشرقي المتوفى 1180 سيرة نبوية موسعة تقع في ستين جزءا، وتدل دلالة واضحة على مدى سعة اطلاعه على كتب السيرة (39).

(34) مخطوط خ. ع رقم 2244 ك

(35) مخطوط خ. ع رقم 1778، انظر التقاط الدرر للقادري تحقيق ودراسة للاستاذ هاشم العلوي القاسمي. دار الآفاق بيروت، طبعت الدراسة في سفر خاص وطبع الكتاب في سفر آخر.

(36) مخطوط خ. ح. رقم 1897، انظر الدراسة المشار إليها لالتقاط الدرر، ص: 167.

(37) من نسخة المخطوط ك. خ. ع. رقم 1631 ك

(38) مصادر تاريخ المغرب لمحمد المنوني نشر كلية الآداب بالرباط ج. 1، ص 226، وفيه مزيد من ذكر للفهارس.

(39) لها أربع نسخ مخطوطة في الخزانة العامة، انظر الحياة الأدبية في المغرب لمحمد الأخضر، ص 289.

2 - كتابة التعاليق والشروح الأدبية واختيار النصوص ...

- من الإنجازات التي تدخل في هذا الإطار كتابان لأبي مدين محمد بن أحمد المتوفى سنة 1187 هـ الأول بعنوان : «تحفة الأريب ونزهة اللبيب حلاه بمقدمة ثم أتى بمجموعة من الأمثال مرتبة ترتيبا معجميا مع بعض التعليقات [40] والثاني هو «مجموع الظرف وجامع الطرف» قسمه إلى فصول تناول في كل فصل موضوعا يورد فيه مايناسب من نوادر، ومن ذلك مثلا فصل عن الشجاعة وآخر، عن الكرم [41].

- ومن المصنفات التي جمعت بين اختيار النصوص وتراجم الشعراء وغيرهم كتاب «الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب» وهو لعبد القادر بن عبد الرحمن السلوي ويعرف أيضا بالفاسي، وهو من الذين حققوا التواصل الثقافي بين المغرب وتونس إذ انتقل إلى ذلك القطر ومكث فيه مدة كان على صلة بحكامه، ثم نجده يأوي إلى كنف السلطان سيدي محمد بن عبد الله بين 1176 - 1180 هـ، بين في مفتتح الكتاب مدى ارتباطه بالأدب وعكوفه علي تحصيله وأورد المصادر التي اعتمد عليها مثل الكامل للمبرد والأغاني لأبي الفرج وبهجة المجالس لابن عبد البر الأندلسي والصيب والجهام لابن الخطيب وبهذا جمع بين المصادر المشرقية والأندلسية، وقسم الكتاب بعد هذا إلى مقدمة وعشرة أبواب، بين في المقدمة أن الأدب منه ماهو عزيزي وماهو مكتسب بالدرس والممارسة، وفي الباب الأول طبقات الشعراء وماهو مأثور عن تعلم الشعر وتعليمه، وفي الثاني أورد مقتطفات من أشعارهم وأخبارهم ثم في الثالث إلى السابع مايترتبط بالصفات المحمودة والمذمومة كالشجاعة والجبن والجود والبخل والسفه والحلم وذكر في السابع إلى التاسع مايتعلق بأخبار الجاهلية وملوك بني أمية وبني العباس، وختم بارشادات ومواعظ [42].

- وللكاتب نفسه «ادراك الأغاني من كتاب الأغاني وكان وضع هذا الكتاب باشارة من السلطان سيدي محمد بن عبد الله وحدد الخطة التي يجب على الكاتب أن يسير عليها بحيث يعاد ترتيب التراجم، مع إضافة نصوص شعرية للمحدثين ومباشرة العمل تكون ببصيرة وتثبت لتحقيق النصوص وتصحيحها، وقد أخرج الكاتب عمله في 25 جزءا [43].

والسلطان سيدي محمد بن عبد الله عارف معرفة دقيقة بما في كتاب الأغاني لأبي

(40) مخطوط خ. ع. رقم 590 د

(41) مخطوط خ. ع. رقم 1717 ك.

(42) مخطوط خ. ح رقم 925

(43) مخطوط خ. ح رقم 2706، انظر دعوة الحق عدد مارس 1973، ص 84 وما بعدها.

الفرج من ثغرات ومايعترض القارئ من صعوبات والزياني يذكر مدى حذقه وسعة مداركه في المجال الأدبي حين يقول : "وكان رحمه الله نسابة أخباريا حافظا لأيام العرب ووقائعها حافظا للسير والحديث لايجارى ولايبارى ... » [44] إلى آخر القولة حيث أكد أنه كاد أن يحفظ مافي كتاب الأغاني.

3 - شرح المنظومات التعليمية

- لأبي مدين محمد بن أحمد الفاسي المتوفى 1181 هـ شرح لقصيدة مطولة للشريشي [45] ويدل هذا الشرح على تمكن وعمق معرفة بدقائق اللغة وأسرار أساليبها والقصيدة ذات منحنى تعليمي عقلي لما تختزنه من توجيهات وعبر.

- لأبي عبد محمد بن عبد السلام الفاسي المتوفى 1214 شرح على لامية الأفعال لابن مالك (ومعلوم أن لبدر الدين بن مالك شرحا عليها أيضا).

- لعبد الرحمن بن ادريس المنجرة المتوفى سنة 1179 هـ شرح لدالية أبي عبد الله محمد بن مبارك السجلماسي (في القراءات) [46].

- لمحمد بن الطيب القادري شرح لمنظومة ابن عاشر سماه المورد المعين في شرح المرشد المعين [47].

- لأبي حفص عمر بن عبد الله الفاسي المتوفى 1188 شرح لمنظومة ابن فرج الإشبيلي في مصطلح الحديث وشرح منظومة ابن عاصم وآخر للامية الزقاق [48].

- ولأبي عبد الله محمد التاودي بن الطالب ابن سودة المتوفى سنة 1209 شرح للامية الزقاق [49].

4 - التأليف في قواعد اللغة

لايخفى أن التأليف في قواعد اللغة دلالة كبيرة على العناية بها ودوام استمرارها وكل نهضة أدبية تقتضي ذلك لما بين الإبداع والتأليف وبين قواعد اللغة من ارتباط، وبهذا فقد جاءتنا تآليف وتعاليق وشروح لقواعد اللغة سبقت الإشارة إلى بعض الإنجازات في اطار نظم القواعد وإلى شروح بعض المنظومات في الموضوع، ونتناول الإشارة هنا إلى ماوضح نثرا.

---

(44) الترجمانة الكبرى، للزياني بتحقيق الفيلالي، مرجع سابق، ص 63.

(45) مخطوطة خ. ع. 930 ك.

(46) مخطوط خ. ع. 379 د.

(47) مخطوط خ. ع. 605، انظر دراسة التقاط الدرر لهاشم العلوي القاسمي، ص 161.

(48) الحياة الأدبية في المغرب لمحمد الأخضر. ص 307.

(49) مخطوط، خ. ع. 836 د.

- لمحمد بن الطيب القادري - السالف الذكر - المتوفى 1187 هـ مواهب التخصيص وفوائد التلخيص في شرح ماأنبهم من شواهد التلخيص، وهو شرح لما ورد في شواهد كتاب التلخيص من علوم البلاغة للخطيب القزويني [50].

- لأبي عبد الله محمد الطيب بن عب المجيد ابن كيرات - السالف الذكر - المتوفى سنة 1227 رسالة في (لو) الشرطية [51] وله أيضا تعليقات على شرح الفية ابن مالك [52].

- لأبي الفيض حمدون ابن الحاج المتوفى 1234 وحاشية على مختصر التفتازاني وهو شرح لتلخيص المفتاح للقزويني في علوم البلاغة ومعروف أن ابن الحاج من الذين داع صيتهم في عهد المولى سليمان، ولكن عاش مدة تكوينه الثقافي وبداية عطائه في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان من بين علماء مجلسه [53].

- ومما يتصل أيضا بالتأليف اللغوي شرح خطبة القاموس للفيروز آبادي والشرح لأبي العباس أحمد السجلماسي المتقدم الذكو. وسماه بـ «فتح القدوس في شرح خطبة القاموس [54]، وله أيضا «أضاءة الأدموس ورياضة الشموس من اصطلاح صاحب القاموس [55].

تلك اشارات للإنتاج الأدبي الزاخر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأنواعه الشعرية والنثرية ويتضح مدى تنوع هذا الإنتاج، مع أننا اكتفينا بأمثلة منه فقط، ولم يكن الغرض موجها للاستقصاء والتتبع الدقيق له أو تحليله وتقويمه، ويكفي أن يقال أنه انتاج كثير ومتنوع يتراوح بين الإتباع والإبتكار والتجارب مع واقع العصر وظروفه العامة.

---

(50) مخطوط خ. ع. 1729، انظر دراسة التقاط الدرر لهاشم العلوي القاسمي، مرجع سابق، ص 161.

(51) مخطوط خ. ع. 938 د.

(52) مخطوط خ. ع. 1673.

(53) الحياة الأدبية في المغرب لمحمد الأخضر ص 274.

(54) مخطوط خ. ع. 905 د، 1696 ك، 1703 ك.

(55) مخطوط خ.ع. 269 د ضمن مجموع.